جورج رو

العراق القديم

ترجمة وتعليق
حسين علوان حسين

مراجعة
د . فاضل عبدالواحد علي





دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والإعلام

العراق - بغداد - اعظمية ص.ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣ - هـ - ٤٤٣٦٠٤٤

كلمـة المترجم

انه لمن دواعي سروري أنني استطعت أخيرا أن أضـع كتـاب التاريخ الثمين هذا في متناول أيدي القراء العرب ليروي لهم باسهاب ممتع التاريخ المجيد للعراق القديم ، ويتعدى ذلك بالتزام الدقة والانصاف بفضل المنهج العلمي الذي يسوده • ولست أشك في انه سيكون مصدر عون كبير لكل من المتخصصين والهواة من دارسي التاريخ حيث سبق ان تقـرر اعتماده في المنهج الدراسي لقسم الآثار بجامعة بغداد •

وانتهز هذه الفرصة كي أسجل شكري وتقديري لوزارة الاعلام التي اخذت على عاتقها مهمة طبع هذا الكتاب والتي عودتنا على احتضان كافـة الجهود الطيبة من هذا النوع • كما واعبر عن امتناني للمنقب الاستاذ يوسف ناجي خلف من دائرة آثار بابل الذي أسدى لي عونا هائلا ومتنوعا ماكان بوسعي أن أنجز هذا العمل بدونه • كذلك أقدم شكري الجزيل للاستاذين خليـل ابراهيم جميل وصالح صاحب علوش اللذين راجعا مسودات هذه الترجمة وقدما لي ملاحظات كبيرة الفائدة •

وأخيرا فقد عن لي أن أردف هذه الترجمة ببعض الملاحظات المتواضعة فأشرت اليها بعلامة ※ ، اما ملاحظـات المؤلف ــ المجموعة معـاً في نهاية الكتاب ــ فقد وضعت لها ارقاما عربية •

حسين علوان حسين

المؤلف في سطور

ولد د. جورج رو (Dr. Georges Roux) في سالون ـ دي ـ بروفنس بجنوب فرنسا عام ١٩١٤ . وفي سن التاسعة رافق أباه الضابط في الجيش الفرنسي عندما انتقل مع عائلته الى الشرق الاوسط وامضى اثنتي عشر سنة في سوريا ولبنان قبل ان يعود الى فرنسا في عام ١٩٣٥ حيث كان يعد نفسه لدراسة الطب . وبعد ان تخرج في كلية الطب بجامعة باريس استقر هناك ليمارس مهنته فيها لعدة اعوام . غير ان اهتمامه الشديد بتاريخ الشرق الادنى القديم دفعه الى استغلال وقت فراغه بدراسة علم الآشوريات (Assyriology) في (École du Louvre) (كلية اللوفر) و (Ecole des Hautes Etudes) (كلية الدراسات العليا) بباريس ومتابعة دراساته الشرقية بالاضافة الى ممارسته مهنة الطب . وفي عام ١٩٥٠ التحق بشركة نفط العراق كطبيب وخدم في قطر لمدة عامين كما امضى سبعة أعوام في العراق . ولقد أكسبته بحوثه الاصيلة في تاريخ جنوب العراق ، والمقالات التي كتبها للدوريات المتخصصة في هذا المجال مثل مجلة « سومر » (Sumer) و « رفيو د أسيريولوجي » (Revue d' Assyriology) مكانة اهلته لدخول الدائرة المحدودة للاختصاصيين من علماء الآثار والآشوريات . ويعيش د. رو الان مع زوجته الانكليزية وابنته في لندن ويشغل وظيفة المستشار الطبي لشركة گلاسكو العالمية المحدودة(*) .

(*) كان هذا في عام ١٩٦٩ حيث انتقل المؤلف بعدها للعيش في فرنسا .

مقدمة المؤلف

هذه طبعة منقحة ، موسعة جوهرياً ، ومعاد كتابتها بالتمام ، لسلسلة من المقالات ظهرت بين شهر ايلول ١٩٥٦ وكانون الثاني ١٩٦٠ في مجلة « النفط العراقي » (*) تحت عنوان « قصة العراق القديم » كانت تلك المقالات، التى كتبتها في البصرة ، تعاني من عدة ثغرات جدية وأبعد ما تكون قريبة من المستويات المطلوبة في عمل من هذا النوع اذ أعددتها دون الاستعانة بأية مصادر عدا تلك التي تواجدت في مكتبتي الشخصية . وباعتقادي ، فان الجدارة التي استحقتها نجمت عن الشكل الباذخ الذي طبعت وصورت فيه أكثر من نوعية مضمونها . الا أن « القصة » ، ولدهشتي الكبيرة ، قوبلت

(*) وهي المجلة التى كانت تصدرها شركة نفط العراق قبل أن تؤمم ـ عام ١٩٧٢ ـ من قبل حكومة الثورة في العراق .

بترحاب حار من قبل جمهور واسع ومتميز • فمن اليابان وحتى كاليفورنيا ، تجشم أناس ، اطلعوا على المجلة بشكل مباشر أو غير مباشر ، عناء الكتابة الى محررها ولي شخصيا طالبين الاعداد السابقة من المجلة او الاعداد المحتفظ بها والمعاد طبعها مقترحين جمع هذه المقالات في هيأة كتاب • وها آنذا اخيرا قد نزلت عند رغبتهم . ويتوجب علي أن أقول هنا أنني ، بدون التشجيع الذي حصلت عليه من تقييمهم الجدي ، ما كانت قد تملكتني الجرأة للقيام بمهمة كهذه أبدا •

ساعدت تلك المقالات ــ مع عدم كمالها ــ في ردم ثغرة مؤسفة في تاريخ العراق ، وكان هذا هو السبب الاساس وراء نجاحها غير المتوقع • فوادي دجلة والفرات ، الذي كان يدعى سابقا « وادي الرافدين ــ ميسوبوتاميا »(**) ، ويقع أغلبه الان في القطر العراقي ، يشكل وحدة جغرافية ، تاريخية وحضارية كبيرة متماسكة ومتميزة •ومنذ القدم ، كان سكانه من السومريين ، الاكديين ، البابليين والآشوريين يتقاسمون حضارة باهرة واحدة ويلعبون دورا قياديا في سياسة وفن وعلم وفلسفة ودين وأدب الشرق الادنى(***) • ومنذ ما ينيف على المائة عام ، أنجز عدد هائل من التنقيبات الآثارية في كل من العراق والمحافظات الشرقية من سورية وأستخرجت العديد من النصب المثيرة للاعجاب، كما امتلأت المتاحف بالاعمال الفنية والرقم المكتوبة المستعادة من المدن المطمورة في وادي الرافدين • كما تجمعت حصيلة لا تقل عن سابقتها روعة في ميدان « علم اللغات القديمة » ، وأسلمت، شيئا فشيئا ، اللغتان الرئيسيتان في العراق القديم ، وهما السومرية والاكدية،

(**) استخدمت عبارة « وادي الرافدين » كمرادف لمصطلح « ميسوبوتاميا » بدلا من « بلاد ما بين النهرين » والاخير هو المرادف الاكثر حرفية .

(***) مصطلح جغرافي يقصد به عادة بلدان البلقان ، مصر واقطار جنوب غرب آسيا . وهو مصطلح ليس قاطع التحديد .

اسرارهما وترجمت وطبعت عشرات الآلاف من نصوصهما . كما اصبح عدد الكتب والمقالات المكرسة لحقل او لآخر من علم آثار وتاريخ وحضارة وادي الرافدين والمتواجدة في مكتبات الجامعات مذهلا بشكل ايجابي . وفي الوقت الذي توفرت فيه كتب تاريخ عديدة ، ممتازة ومفصلة ، عن مصر القديمة ، ايران ، سوريا ، فلسطين والاناضول تفي بحاجة العلماء والهواة، الا انه كان من المستحيل ــ حتى ان قام هـ . و . ف . ساگز (Saggs) بنشر مؤلفه « العظمة التى كانت عليها بابل » سنة ١٩٦٢ ــ الحصول على اي كتاب تاريخ عام شامل وعصري عن العراق القديم باللغة الانكليزية ، او ــ على حد علمي ــ بأية لغة اخرى(****) .

ان السبب الذي يجعل الاساتذة المتخصصين لا يرغبون الاطلاع بمهمة كهذه يمكن فهمه بيسر ؛ اذ ان تقديم دراسة شاملة كاملة تعالج كل مناحي حضارة ، امتدت جذورها في مجاهل عصور ما قبل التاريخ واستمرت متواصلة اكثر من ثلاثين قرنا ، يتطلب اشغال عدة علماء طوال سنين عديدة في كتابة عدة مجلدات ضخمة . وعلاوة على هذا ، ولان كل اكتشاف جديد غالبا ما يؤدي الى تغيير معلوماتنا عن الماضي ، فان عملا كهذا سيواجه خطر ان يغدو عتيقا حتى بعد عقد واحد من السنين . اما علماء الاثار عموما فانهم يؤثرون حراثة حقولهم الخاصة فقط ولا تستأثر اعمالهم بغير اهتمام نفر من زملائهم العلماء او الطلبة المتقدمين فحسب. أما اولئك المؤرخون المتخصصون الذين يتطلعون ، خلافا لسابقيهم ، نحو جمهور اوسع فانهم يكتبون في المواضيع التي تكون معرفتهم بها أوسع من غيرها . فالكتب التي تستأثر باهتمام « شعبي » كرسائل « وولي » (Woolley) عن اور وكتابات « پارو » (Parrot) عن ماري او مطبوعات « كريمر » (Kramer)

(****) ان مثل هذا التعميم فيه شيء من المغالاة .

عن الملاحم والاساطير السومرية ، لا يمكن الاعتداد بها كثيرا لكونها مصادر ضوء تكتفي بانارة مساحات صغيرة فقط من « لوحة » كبيرة جدا • وبالنسبة للقارىء غير المتخصص ، فانه غالبا ما يفشل في اعطاء تثمين وافٍ لقيمتهـا لسبب بسيط هو انه لا يستطيع تحديد اماكن المواقع ، النصب الاحداث او الافكار الموصوفة بقراءتها التاريخية او الحضارية الملائمة • ومن جهة اخرى، فقد تبنى علماء التاريخ موقفا معاكسا بالضبط من الدراسات الآنفة الذكر • فأعمال « ل • كنك » (King) « تاريخ سومر وأكد ، لندن ، ١٩١٠ » و « سدني سمث » (Sidney Smith) « التاريخ المبكر للدولة الآشورية، لندن ، ١٩٢٨ » و « أ • اولمستد » (Olmstead) « تاريخ الدولة الآشورية ـ نيويورك ، ١٩٢٣ » و « ب • مايسنر » (Meissner) « تاريخ بابـــل وآشور ، هايدلبرغ ، ١٩٢٥ » و « ديلابور » (Delaporte) « وادي الرافدين، باريس ، ١٩٢٣ » تتميز بكونها تتضمن جهودا ممتازة وهي لا تزال جـــد مفيدة وان كانت قد اصبحت عتيقة في نقاط عديدة بينمـا لم تستطع ايـة مؤلفات جديدة ان تحتل مكانها ابداً • وبدلا منها ، قـدم لنا الفرنسـيون والالمان ، وبدرجة أقل ، الانكليز في الاعوام القليلة الماضية تآليف من نوع آخر اذ تميّزت بسعة محتواها حيث عالجت كامل منطقة غربي آسيا أو كامل تاريخ الشرق الاوسط ــ باضافة مصر أيضا ــ أو حتى كل تاريخ العـالم القديم • وتبقى مؤلفات المؤرخـين من أمثال « إ • مايـر » (Meyer) « قصة الازمنة القديمة ، ١٩١٣ـ١٩٣٧ » و « هـ • شموكل » (Schmökel) «قصة العالم القديم ، ١٩٥٧» او الفصول التي كتبها كونتيتو (Contenau) و دورمــــه (Dhorme) لمطبوع « شعوب وحضارات ، ١٩٥٠ » أو التي كتبها ديلابور لـ « شعوب شـرق المتوسط » وكوسـنز (Goossens) لـ « إنسايكلوبيديه العجائب السبعة ، ١٩٥٦ » أو كذلك « التاريخ القديم » لجامعـة كيمبرج ، ١٩٢٣ ــ ١٩٢٥ ــ الذي اعـدت لـه مؤخـرا طبعـة

منقحة ــ مصادر ثمينة للمعرفة الواسعة لا تنقصها التفاصيل ولا النظرة الشمولية • ولكن منظورها يشبه ذلك الذي نتوقعه من معرض رسم حيث تفقد حتى القطع ذات القيم الفنية العالية سمتها الخصوصية المميزة وسط الرسومات الاخرى المعروضة حولها . وبغض النظر عن المكان الذي تعطيه هذه المؤلفات لوادي الرافدين ، فانها تبقى عاجزة عن اعطاء وحدة واستمرارية تاريخ وحضارة هذا البلد حقها المستحق بكامله •

يستهدف عملي هذا ، بتواضع ، سد الثغرة الكائنة بين ذينك الصنفين من المطبوعات ، أي بين الرسائل من جهة والموسوعات من جهة أخرى • فهو مع تكريسه برمته لتأريخ العراق القديم الا أنه يتكفل بتقديم دراسة موجزة ــ وان كانت غير متكاملة ــ عن التاريخ السياسي والاقتصادي والحضاري للعراق القديم ابتداءً بأول دلالات التواجد البشري في الجزء الشمالي ــ الشرقي منه وانتهاء بالموت الاخير لها مع فجر الفترة المسيحية • كما وضعت فصلين تمهيديين لتعريف القارىء بجغرافية وبيئة وادي الرافدين وبتكنيكات ونتائج التنقيبات الآثارية فيه •

ان « العراق القديم » لم يعد للاساتذة العلماء بل هو مكتوب للمواطنين وللطلاب • ويوجد هناك في كل أرجاء المعمورة عدد متزايد من الاشخاص ذوي الاختصاصات المتباينة الذين يهتمون كثيرا بالتاريخ عموما وبتاريخ الشرق القديم بشكل خاص • مثل هؤلاء الاشخاص المطلعين والمتطلعين للمعرفة لم يكن بامكانهم حتى الان ايجاد كتاب كامل بحجم معقول يحوي كل المعلومات التي يبتغونها عن بلد يثير اهتمامهم لاسباب مبررة تماما • ولقد كتبت هذا الكتاب بشكل اساس لمثل هذا الجمهور المتنور والمتزايد على الدوام • ولكن ، ومن بين اولئك الذين أعجبوا بمقالاتي ، كان هناك ايضا عدة أساتذة جامعيين أعربوا في رسائل خاصة أو في أحاديث متبادلة عن رغبتهم بطبع كتاب

يتألف من المقالات ذاتها ليقدم لطلابهم أداة عمل مفيدة • وللوفاء بحاجة هذا الصنف من القراء فقد قمت بتوسيع الكتابة في نقاط معينة ربما يعتقد العديد من القراء بأن اهميتها ثانوية ، كما وضعت ملاحظات توضيحية لكل فصل • وآمل أن يكون القارىء صبورا في تحمل الثقل العرضي لبعض فصول كتابي هذا بسبب استهدافه أن يكون مفيدا بعض الشيء لطلبة التاريخ المبتدئين •

ولقد حاولت جهدي أن أجعل هذا العمل اكثر ما يمكن من السهولة والطواعية للقراءة ولكنني توخيت فيه كذلك الدقة والحداثة • وبالطبع فلم يكن القيام بهذه العملية امراً هينا لان باعتقادي ان الكتابة لقراء غير مختصين، في مواضيع علمية ، تشبه السير على الحبل ـ حيث يخشى المرء دائما السقوط في خطر التحذلق أو الاهتمام الزائد بالامور الصغيرة ـ ولست أبداً على يقين من نجاحي في المحافظة على توازني طول الوقت • ولقد توجب علي ، ازاء الكمية الهائلة من المصادر المتاحة أن أقوم بانتقاءات صعبة ، بل وحتى مؤلمة ، وان كنت قد أوليت عناية خاصة في تجنب النظرة التبسيطية او الدوغماتية • فالتاريخ عموما والتاريخ القديم بشكل خاص يعج بالمعضلات غير المحلولة حتى هذا الوقت • وبالاضافة الى هذا ، فان من الممكن تماما لن تتحول حقائق اليوم الى أكاذيب باطلة في اليوم التالي • لذلك فقد أعطيت لنفسي الحق بمناقشة بعض المعضلات المختلف عليها ـ كأصل السومريين مثلا ـ كما بينت في كل صفحة تقريبا طبيعة المصادر التي تزودنا بالمعلومات ودرجة توقيتها • وحاولت مرارا وصل الحوادث التاريخية بحوادث سابقة أو ربطها مع ظروفها الجغرافية والاقتصادية • وبكلمة اخرى ، فقد حاولت ان «أشرح» بالقدرة الذي « اصف » فيه الانني أشعر بان التاريخ ، يدون مثل هذه الشروحات ، وبغض النظر عن قيمتها الفعلية ، سيصبح تجميعا مملا ولا معنى له لتواريخ ومعلومات ليس الا • وأخيرا ، فقد أوليت علم الاثار والفن

والادب والدين اهتماما قد يفوق ما يتوقعه القارىء من كتاب مثل هذا • وقمت ايضـا باقتبـاس أكبر قـدر ممكن من النصوص ، فالقارىء المعاصر تتملكه الرغبة لمعرفة كيف كان الناس القدماء يعيشون وكيف كانوا يفكرون في نفس الوقت الذي يحتاج فيه الى معرفة ما الذي كانوا يعملون• وباعتقادي فان الطريقة المثلى لجعل الماضي حياً ربما تكمن في تركه ليتحدث عن نفسه بنفسـه •

لنـدن ، آب ١٩٦٣ •



الفصل الاول

الموقع الجغرافي

قد لايوجد مكان يظهر فيه واضحا تأثير الجغرافية على التاريخ مثلما يظهر في مجموعة البلدان الممتدة من البحر الابيض المتوسط حتى الهضبة الايرانيةوالتي تكون الان ما أصطلح على تسميته بالشرق الادنى • ففي الصحارى العظيمة والغابات الاستوائية ، أو في جوار القطبين ، كان الانسان يعيش مع طبيعية قاهرة تتهدد وجوده بالذات . اما في المناطق المعتدلة ، فقد كان الانسان يعيش ، معظم الاحيان ، في أجواء ملائمة تثير التحدي • ولكن التوازن بين الانسان والطبيعة في منطقة الشرق الادنى شبه الاستوائية كان اكثر دقة • فبينما كان بوسع الانسان ان يحيا هناك ، بل وحتى ان يزدهر ، الا ان نشاطاته المختلفة كانت مشروطة الى حد بعيد بالارض وبطبيعة التربة وكمية المطر وخطوط توزيع الينابيع والآبار ومسارات الانهار ، وحتى بمعدلات المياه الجارية فيها • ولقد كان لهذه العوامل تأثيرها العميق على الانسان فهي التي تؤشر طرق تجارته ومغامراته العسكرية وهي التي تدعوه للاستقرار كمزارع او تحتم عليه حياة الترحال البدوية • كما كانت هذه العوامل تساهم في تشكيل

صفاته الجسمية والخلقية وتحدد افكاره ومعتقداته الدينية بدرجة ما . ولهذا السبب ، فان تاريخ أي من بلدان الشرق الادنى يجب أن يبدأ بدراسة الخارطة ؛ وأرض العراق العتيدة لا تشذ عن هذه القاعدة .

ولاننا لا نمتلك دراسة قديمة لجغرافية هذه المنطقة ، فان الوصف التالي سيرتكز بالضرورة على عراق اليوم حيث يمكننا طبعا استخدامه في وصف العراق مع اجراء بعض التعديلات(1) . ففي الوقت الذي نلاحظ فيه ان الانهار ، في بعض اقسام هذا البلد ، لم تعد تسير في نفس وديانها القديمة — مما أدى الى تحول مناطق كانت تتميز بالخصوبة سابقا الى ارض بوار ، والعكس صحيح ايضا — الا اننا نلاحظ كذلك ان الهيأة العامة للجبال والسهول والوديان بقيت كما هي لحد الان دون أن يطرأ عليها تغيير واضح. ولو قارنا بين النباتات والحيوانات المعاصرة(2) والقديمة ، اضافة الى الشواهد المأخوذة من الدراسات الجيولوجية الارصادية(3) ، لوجدنا ان تقلبات المناخ عبر الستة او الثمانية آلاف سنة الماضية كانت طفيفة جدا بحيث يمكن تجاهلها عمليا . الا أن استحصال برهان علمي من هذا النوع هو أمر غير مطلوب اذ أن أي فرد يمتلك بعض المعرفة بالتاريخ يجد نفسه لدى زيارته العراق في أجواء معتادة حيث لا تكتفي الجبال والبوادي وحقول الشعير وغابات النخيل والبردي والسهول الرسوبية بعكس طبيعة العراق كما بينتها الآثار والكتب القديمة فحسب ، بل ان ظروف الحياة الحالية فيه خارج المدن من شأنها ان تذكرنا بتلك التي كان سكان العراق القدماء يعيشون في ظلالها . ففوق التلال بقي الرعاة منذ العصور البابلية يرعون الغنم والماعز ؛ وفي الصحارى تتنقل باستمرار قبائل البدو من بئر لآخر مثلما كان يفعل الاقدمون . وفي السهول يسكن المزارعون بيوتا من الطين تشبه تماما تلك التي كان المزارعون البابليون يستعملونها ، كما تتشابه ادواتهم ايضا . وفي المستنقعات يعيش صيادو الاسماك في اكواخ من البردي ويجذفون قواربهم ذات المقدمة العالية المماثلة

فتلك التى كانت تستخدم من قبل اجدادهم السومريين • واذا كان القمر والشمس والرياح والانهار لم تعد تعبد الان ، الا ان قوتها لم تزل مرهوبة او مرغوبة الجانب • وبوسعنا كذلك تفسير الكثير من العادات والمعتقدات القديمة عند تمحيصنا للاوضاع الحياتية الحالية • وفي الحقيقة ، فان هناك القليل من البلدان في العالم استطاع الماضي ان يبقى فيها حياً بشكل غريب مثلما هو الامر بالنسبة للعراق حيث تجد كتابات المؤرخين عنه في أرضه صورة غاية في التناسب معها •

يغطي حقل دراستنا منطقة مثلثة تبلغ مساحتها حوالي مائة وثلاثين ألف ميل مربع ، تحدها خطوط « إعتباطية » تمتد من حلب الى بحيرة اورمية وحتى مدخل شط العرب • وتقسم الحدود السياسية الحالية هذا المثلث بين سوريا والعراق حيث تكون حصة الاخيرة هي الاعظم ، بينما تظهر فيه أجزاء من تركيا وايران في الشمال والشرق ، ولكن الحدود السياسية هذه حديثة التوزيع حيث تشكل كل هذه المنطقة فعليا وحدة جغرافية شاسعة محورها الاساس وديان النهرين العظيمين : دجلة والفرات • لذلك فان بوسعنا السماح لانفسنا باطلاق اسم « وادي الرافدين » على هذه المنطقة وان كان هذا الاسم الذي أوجده المؤرخون الاغريق ضيق المعنى الىحد ما اذ يعني «الارض المحصورة بين النهرين » « ميسوباتاميا » • ومما يدعو للدهشة ان سكان هذه المنطقة قديما لم يمتلكوا اسماً يغطي كامل المنطقة التى كانوا فيها يعيشون اذ كانوا يستخدمون أسماء تتسم اما بكونها غير واضحة جدا مثل « الارض » او انها محددة اكثر مما يجب نحو « سومر » ، « أكـد » ، « آشور » او « بابل » • لقد كانت مفاهيم عصر دويلات المدن ــ بتقسيماتها السياسية ــ الاقتصادية الضيقة ــ متأصلة بعمق في نفوس أبنائه لدرجة انهـم لم يوفقوا في ادراك وجود الوحدة الجغرافية التي تبدو لنا واضحة تماما الان •

تناظرت وحدة بلاد وادي الرافدين الجغرافية مع وحدة حضارية مدهشة في عصور ما قبل الميلاد . فازدهرت في مثلثنا هـذا حضـارات لم تدانها في الاهمية والنوعية أية حضارة أخرى ، فيما عدا حضارة مصر القديمة . وتسمى هذه الحضارات الان بـ « الكلديـة » ، « الآشـورية » ، « البابليـة » ، « السومرية » و « الاكدية » ، أو حضارة وادي الرافدين ، ولكن كل هـذه التسميات تعني شيئا واحدا وواحدا فقط ، فمن جذور انغرسـت عميقا في مجاهل عصور ما قبل التاريخ ، نمت هذه الحضارة ببطء لتتفتح مع بزوغ شمس التاريخ ، واستمرت تنبض بالحياة نحوالي ثلاثة آلاف سنة ، محافظة ، طول الوقت ، على وحدتها رغم كل الهزات المتكررة التي سببتها الاضطرابات السياسية . وبقيت المراكز الحضارية المتمثلة بمدن مثل أور ، أوروك ، نفر ، أكـد ، بابل ، آشور ، نينوى وغيرها تشع بحضارتها على الشرق الادنـى برمته من مواقعها على ضفاف دجلة والفرات أو قربهما ضمن حدود العـراق الحالي . ومع بداية الفترة المسيحية ، على أية حال ، بدأت حضارة وادي الرافدين بالخفوت تدريجيا ثم انقرضت اخـيرا لاسـباب سـنأتي عليهـا بالشرح المفصل في مكانها . وانتقلت بعض من انجازاتها العلمية والحضارية الى الاغريق لتصبح بعدئذ جزءاً من تراثنا الخاص . أما البقية الاخرى فقد محيت أو بقيت مدفونة تحت التراب لقرون عديدة تنتظر معاول علماء الآثار.

كم كان مجيدا ذلك الماضي الذي نسيناه ! فلم تبق لتلك المدن التي كـانت عظيمة مزدهرة يوما ما ولتلك الآلهة الجبارة ولاولئك الملوك الجبابرة الا بضعة أسماء غالبا ما تكون مشوهة في ذاكرة الانسان القصيرة . لقد تضافرت مياه الامطار المذيبة والرياح الرملية العاصفة والشمس المحرقة لتمحو كل الآثـار المادية لهذه الحضارة . وتقدم لنا تلك التلال المهجورة الان ـ والتى بقيت تحجب آثار بابل ونينوى منذ خرابهما ـ أبلغ درس في التواضع يمكن للتاريخ تلقيننـا ايـاه .

النهـــران التوأمـــان

كثيرا ما تقتبس مقولة هيرودوت الشهيرة القائلة بان « مصر هي هبة النيـــل »(4) • وبوسعنا نحن ايضا اطلاق مقولة كهذه على وادي الرافدين لانه ، في الحقيقة ، هبة النهرين التوأمين : دجلة والفرات • قام هذان النهران منذ عصور ما قبل التاريخ بترسيب الطمى والغرين في قـــاع من الصخـــور الرسوبية يمتد من بادية الشام حتى المرتفعات الايرانيـــة ، وصنعا بذلك وفي وسط الصحارى سهلا لا يضارعه بالحجم والخصوبة اي سهل آخر على امتداد الالفين والثمانمائة ميل من الارض المجدبة المحصورة بين نهري النيل والسند• فهل يمكن ان يكون البحر ايضا قد شارك في تكوين هذا السهل ؟ وبكلمة اخرى ، هل صحيح ان رأس الخليج العربي كان يحـــاذي منطقة بغـــداد في عصور ما قبل التاريخ ثم انكمش جنوبا كلما مرت الآلاف من السنين ؟ هذا ما كانت تدعيه النظرية القديمة التي بقيت تشكل « مبدأ » يحظى بتأييـــد واسع مدة طويلة ، وما تزال ترد في اغلب كتب الدراسة(5) • الا ان نظرية جديدة ظهرت قبل بضع سنين فقط تذهب الى ان كلا من دجلة والفرات قـــد افرغا ترسباتهما في حوضيهما الآخذين بالغور تدريجيا ، وان حدود ســـاحل الخليج لم تطرأ عليها في أغلب الاحوال سوى بعض التغييرات الطفيفة وذلك منذ أقدم الازمان(6) • وفي الحقيقة فانه يوجد الان عدد مـــن العلماء ممن يعتقدون بان الخليج العربي كان يشغل قديما موقعا أبعد الى الجنوب مـــن مكانه الحالي(7) • وتستند النظرية الحديثة هذه على دلالات أخذت بصورة رئيسية من متحجرات القشرة الارضية ومن عملية اعادة تركيب قنوات وقيعان الانهار السابقة ، كما ترينا اياها الصور المأخوذة للمنطقة جوا • ولقد صادفت

هذه النظرية قبولا حسنا عند علماء الجيولوجيا عموما • ولكن علماء الآثار يشككون برجحانها على الرغم من ان اللقيات السطحية المستحصلة حديثا من منطقةالبصرة (8) تشجع على اجراء بحوث مستفيضةاخرى لتلك المنطقة التي لا يعرف عن طبيعتها سوى الشيء اليسير . ومهما يكن من أمر ، فان حل هذه المسألة الجديرة بالاهتمام لا يمكن ان يتأتى دون اجراء دراسة مقارنة شاملة لمعلومات تاريخية ، جيولوجية ، آثارية وهيدروغرافية مستفيضة والتي هي أبعد ما تكون متوفرة حاليا • ومن الحكمة ان تبقى هذه المسألة مفتوحة للمداخلات والنقاش على الاقل في الوقت الحاضر •

يستمد دجلة والفرات مياهيهما من أرمينيا ــ الاول من جنوب بحيرة وان والثاني من جبال أرارات • ويتخذ الفرات ، وطوله ١٧٨٠ ميلا ، مسارا متعرجا عبر تركيا ، بينما يسير دجلة ــ وهو النهر الاقصر حيث يبلغ طوله ١١٥٠ ميلا ــ رأسيا باتجاه الجنوب • ويفصل بين ذينك النهرين عند ظهورهما من منابعهما في جبال طوروس مائتان وخمسون ميلا من السهوب المفتوحة • وفي الوقت الذي لايزيد فيه بعد الفرات ، عند مروره بجرابلس ، عن البحر الابيض المتوسط اكثر من مائة ميل ، الا انه لا يلبث ان يتخذ مسارا جنوبيا شرقيا باتجاه دجلة ويوشك ان يلتقي به قريبا من بغداد حيث لا تزيد المسافة الفاصلة بينهما على العشرين ميلا ولكنهما يتعدان عن بعضهما ثانية ليلتحما اخيرا عند القرنة على بعد ستين ميلا شمال البصرة مكونين شط العرب • ولم يكن هذا النهر المهيب والعريض موجودا في العصور القديمة حيث كان كلا من النهرين التوأمين يصب منفردا في الخليج العربي • ويمكن تقسيم هيئة المسار العام لهذين النهرين الى قسمين يفصل بينهما خط هيت ــ سامراء • فالى الشمال من هذا الخط ، تتسم وديان النهرين بعمق اكبر اذ ينحدران في واديين عميقين من حجر الكلس والشيل الرسوبي الصلب وتحد جانبيهما الصخور العالية • ولهذا السبب لم يطرأ على مساريهما في هذا القسم سوى

تغيير طفيف جدا وذلك منذ أقدم الازمان وحتى الان • فنجد المدن القديمة نحو « كركميش » ، « ماري » ، « نينوى » ، « نمرود » و « آشور » ماتزال تقع على ضفاف النهرين او قربهما مثلما كانت قبل آلاف السـنين • والى الجنوب من ذلك الخط ، ينفتح واديا النهرين ليكونا سهلا رسوبيا فسيحا يدعى بدلتا النهرين ويبدآن الجريان ببطء بسبب قلة انحدار واديهما ويلتويان كثيرا مكونين أنهراً فرعية عديدة • ومثل معظم الانهر الملتوية الاخرى ، يقومان برفع قاعيهما ليفيضا باستمرار مكونين بحيرات ومستنقعات دائمة ويغيران مساريهما بين آونة وأخرى • ويفسر لنا هذا الامر السبب الذى أدى الى أن تصبح مدن وادي الرافدين الجنوبية ــ التى كانت تقع يوما ما على الفرات أو على أحد فروعه ــ تلالاً مهجورة وصحارى مجدبة تبتعد عدة أميـال عن مسار النهر الحالي • ومن الصعوبة بمكان دراسة تغيرات مجاري الانهار قديما وتحديد تواريخها الصحيحة بشكل مضبوط • ولكن مسألة كون أن مثل هذه التغيرات قد حصلت فعلا في الماضي تعتبر من الحقائق الاكيدة • وعلى اية حال فمن المدهش أن نجد سكان وادي الرافدين القدماء قد استطاعوا اخضاع انهارهم لسيطرة مستديمة خصوصا اذا علمنا أن الفرات ظل محتفظا بنفس مساره تقريبا طوال ثلاثة آلاف سنة متواصلة ، ماراً بسپار ، بابل ، نفـر ، شروباك ، اوروك ، لارسا واور ، وهي المدن التي تقع الآن على مبعدة مسافة تتراوح بين (١٥ــ٥٠) ميلا شرق واديه الرئيسي الحالي • وما زلنـا لا نعرف الا القليل عن مسار دجلة القديم جنوبي وادي الرافدين ، خصوصا في المنطقة الواقعة جنوب كوت ــ العمارة • ويؤمل ان طريقة « مسح الملتقطات الفخارية السطحية » المطورة من قبل علماء « المعهد الشرقي » بشيكاغو ــ والتي استخدمت من قبلهم بنجاح في وادي ديالى والاقسام الوسطى مـن « سومر واكد »(9) ــ ستساعد على القـاء الضوء يوما ما على هـذه المعضلة المهمة للطبوغرافية التاريخية •

يتسم منــاخ وسط وجنوب العــراق بكونه من النوع « الجاف ، شبه الاستوائي » الذي تصل درجات الحرارة فيه حتى (١٢٠° فهرنهايتيه ــ ٥٠° مئوية) صيفا ويقل معدل سقوط المطر فيه على العشــر بوصات في فصــل الشتاء • لذلك فأن الزراعة تعتمد هناك على الري بشكل كلي تقريبا • وتحول ابعاد السهل ومظهره الجانبي اضافة الى معدل مناسيب مياه الانهار فيه دون استخدام نمط « الري الحوضي » بالشكل الذي كان يستخدم في مصر عــلى سبيل المثال حيث يغمر نهر النيل على هواه المنطقة المحيطة به لبعض الوقت، ثم تنسحب المياه من جديد • ولان فترة فيضان نهري دجلة والفرات مجتمعين تنحصر بين شهري نيسان وحزيران ــ اي في وقت جد متأخر بالنسبة للمحاصيل الشتوية ومبكر اكثر من اللزوم بالنسبة للمحاصيل الصيفية ــ لذلك فقــد كان من الضروري ارواء الحقول بارادة الانسان • وقد انجز هذا باستخدام نظام معقد من القنوات والمخازن والسدود والنواظم وغيرهــــا من وسائط «الري المنتظم» (10) • وكان ايجاد شبكة كفوءة من قنوات الري وادامتها ضد خطر التغرين السريع مهمة كبيرة ، شاقة ، ومستمرة تتطلب قوى عمل هائلة وتكاتف عدة مجاميع سكانية « ديموغرافية » • كما شكلت هـــذه الضرورة الملحة عوامل كمنت فيها الجذور التي أدت الى قيام الحرب الاهلية والوحدة السياسية على حد سواء • ولم يكن هذا كل شيء ، فسنة بعــد أخرى ، كان المزارع في وادي الرافدين يواجه خطرين مريعين اكثرهما غدرا يتمثل بتكون طبقة منبسطة من الاملاح التي تجلبها مياه الري تحت المزارع المروية مباشرة• ويمكن ان يؤدي هذا الى تحول الحقول الخصبة الى أرض جدباء خلال فترة قصيرة اذا لم يجر الاسراع باستخدام وسائل البزل والتصريف التي يبدو انها لم تكن معروفة بعد آنذاك • كذلك ، وطوال عهود التاريخ المختلفــة ، اضطر الانسان الى هجر قطع متزايدة ابداً من الاراضي لتتحول في النهاية الى صحارى (11) مقفرة • ويتأتى الخطــر الثاني من المعدل الهائــل والمتقلــب

لفيضانات النهرين(12) • ففي الوقت الذي نجد فيه ان نهر النيل ــ الذي تغذيه بالمياه البحيرات العظيمة شرق افريقيا وتأخذ دور المنظم له ــ يتميز بمعدل فيضان سنوي ذي حجم ثابت تقريبا ، فاننا نجد ان حجم فيضانات دجلة والفرات مشتركين لا يمكن التكهن بدرجتها اذ تعتمد على كمية الثلج والمطر الساقط على جبال ارمينيا وشمال العراق المتفاوتة سنويا • واذا كانت مناسيب المياه القليلة تعني ــ اذا ما استمرت عدة سنين ــ القحط والمجاعة، فان حدوث فيضان كبير واحد يكفي ان يلفظ الدمــار الهائل • عند ذاك ، يكسر النهر طوقه ويغمر الارض الواطئة في الجانبين على مد البصر ويقتلــع بيوت الطين واكواخ البردي المهلهلة ويضيع المحصول وسط بحيرة طينيــة واسعة مع المواشي وممتلكات قسم كبير من السكان • ولقد كان منظرا مرعبا لن ينساه مطلقا اولئك الذين شهدوا آخر فيضان كبير اجتاح العراق في ربيع عــام ١٩٥٤ • وهكذا نجد أن سهل وادي الرافدين استمر يحوم على الدوام بين الصحراء والهور • ويعتقد أن هذين الخطرين ــ بما يخلفان من شك وخوف من المجهول ــ هما سر ذلك « التشاؤم المتأصل » الذي يميز ، كما سنرى ، فلسفة سكان وادي الرافدين القدماء •

وعلى الرغم من هذه الاحباطات ، فلا يزال السهل الذي يرويه دجلة والفرات أرضاً زراعية غنية مع أنه كان اكثر غنى في غضون الازمنة التليدة ، اي قبل ان تطرأ عليه عملية تصحر واسعة النطاق • وكان بوسع كافة سكان وادي الرافدين القدماء العيش بيسر على المحاصيل الزراعية من نتاج ارض وطنهم • كما كان بامكانهم مبادلة فضلــة حبوبهم بمواد يســتوردونها من الخارج كالمعادن والخشب والحجر . ومع انهــم كــانوا يزرعون الحبوب كالحنطة والدخن والسمسم وغيره ، الا ان الشعير كان ، ولم يزل ، المحصول الرئيسي بسبب تحمله التربة قليلة الملوحة • وكما يتوقع المرء ، كانت طرق الزراعة بدائية ولكنها شافية في نفس الوقت • ولقد جرى وصفها بشــكل

مفصل الى حد ما في نص مسماري ممتع يدعى « تقويم المزارع السومري » كتب عام (١٧٠٠ ق • م) تقريبا(13) • ووفق هذا النص ـ ويبدو ان فحواه ارشادات يقدمها مزارع لابنه ـ كان يروى الحقل اولا بشكل خفيف ويداس بالثيران المنعلة ثم يصار الى تسويته باعتناء بواسطة الفؤوس • بعد ذلك يصار الى حرثه وبذره في نفس الوقت بمساعدة محراث ـ باذر من الخشب ينغرس في التربة حتى عمق « اصبعين » • ويبعد كل أخدودٍ زراعي عن الآخر مسافة قدمين تقريبا • وبعد ان ينمو الشعير ، يجرى غمر الحقل بالماء ثانية لثلاث او أربع مرات • وتصف ذات هذه الوثيقة كذلك عملية حصاد الشعير ودرسه بالعربة والمزلجة وتذريته ايضا • وكما يرد في « سفر راعوت » ، فان المزارع ينصح ابنه « بجعل الارض تقدم قوتاً للصغار واللقّاطة بترك بعض السنابل الساقطة على الارض » •

كان يشرع بالسقي الابتدائي وبالحرث في شهر مايس ـ حزيران ؛ اما الحصاد فقد كان يجري في شهر نيسان من السنة التالية • وغالبا ما كان بالامكان زراعة محصول ثانٍ بعد هطول أمطار الشتاء • ولقد كانت الارض شديدة الخصوبة معطاء بحيث لا تبدو الارقام الكبيرة التي قدمها سترابو وهيرودوت لمحصول الحبوب(14) المتحقق فيها سنويا مبالغاً بها كثيراً • وتأسيسا على النصوص المسمارية ، فقد خمن محصول الحنطة المنتج في أقصى جنوب العراق حوالي عام (٢٤٠٠ ق • م) بحجم يمكن مقارنته مع انتاج أفضل حقول الحنطة الكندية المعاصرة(15) • كما وفر الطقس الحار الرطب لجنوب العراق ظروفا جد ملائمة لزراعة أشجار النخيل التي تنمو على امتداد الانهار والقنوات • وتخبرنا النصوص القديمة بان غابات النخيل الشاسعة كانت موجودة في بلاد سومر منذ وقت جد مبكر يعود الى الالف الثالث ق•م ؛ وان التلقيح الاصطناعي كان معروفا ومطبقا(16) منذ ذلك الوقت • ولقد شكل الخبز والتمر ـ ويمتلك الاخير قيمة حرارية عالية ـ الغذاء الرئيس لسكان

العراق القدماء مع انهم كانوا يرعون ويربون الابقار والاغنام في الاراضي غير المزروعة وفي الحقول المراحة ، بينما كانت الانهار والقنــوات والبحيرات والخليج تزودهم بالسمك الوفير • وكانت تنشأ ، تحت حماية اشجار النخيل، بساتين لمختلف انواع الفواكه والخضر وتروى بواسطة آلة رفع مياه بسيطة جدا هي «الدلو» المستخدم حتى هذا الوقت وبنفس اسمه القديم(17) • وبالتأكيد فقد كان عموم سكان وادي الرافدين ، فيما عدا في أزمان المجاعات الاستثنائية المتسببة من الحروب او الكوارث الطبيعية ، يتمتعون بغذاء غني متنوع فقد كانوا في هذا المضمار أفضل بكثير من جيرانهم في سوريا وايران وآســيا الصغــرى •

تباينــات ســطحية اقليميــة

انحصر اهتمامنا لحد الان على المحور الرئيس لمثلث وادي الرافدين والسهل المحصور بين النهرين • ولكننا لو اتجهنا صوب ما يجاور حــدود هذا المثلث فسنواجه في الحال تغيرات كبيرة في المناخ والسطح • واذا ما تركنا جانبا التنوعات السطحية المحلية الثانوية ، فسيكون بوسعنا تمييز أربعــة أقاليم سطحية متباينة هي : الصحراء ، السهب « الستب » ، اقدام الجبال ، والمستنقعات •

وتتميز هذه المنطقة بكونها متموجة في الشمال ، مشــرّحة بالوديان العميقة في الوسط ومنبسطة غير متميزة في الجنوب • وتحد الصحراء كامل الشاطيء الغربي للفرات وتمتد لمئات الاميال داخل شبه الجزيرة العربية(18) • كانت الصحراء السورية ــ العربية هذه تقع خارج مستوطنات وادي الرافدين كما يؤشر الخط الحاد الذي يفصلها عن وادي الفرات حدود المســتوطنات العراقية لفترة ما قبل الاسلام • كان السومريون والبابليون ــ وعلى العكس من العرب ــ شعبا زراعيا أصيلا ولّى ظهره للصحراء وبقي شديــد التعلق

بـ « الارض الطيبة » ، أي بالسهل الخصيب • ولقد توجب عليهم أن يتحسبوا للبدو الاجلاف الذين دأبوا على مهاجمة قوافلهم ومدنهم وقراهم وحتى اجتياح بلدهم مثلما فعل الاموريون في بداية الالف الثاني ق ••م ، والارامیون، بعدهم بثمانمائة سنة • وكما سنرى فان حوادث النزاع التقليدي لمجتمع السهل الرسوبي المستقر والقبائل المعادية التي كانت تجوب الصحراء الغربية تملأ فصولا طويلة من تاريخ العراق القديم • وعلى الرغم من هذا فانه يجدر بنا كذلك الاقرار بحقيقة كون حياة وظروف الصحراء موجودة في مناطق مختلفة من وادي الرافدين نفسه • فلم تكن الصحراء ذات حضور قوي فيما بين النهرين التوأمين وحسب ــ مستعدة للزحف والحلول محل حقول الحب وبساتين النخيل كلما غيرت الانهار مجاريها او كلما تغرينت القنوات ــ بل ولقد وجدت هناك كذلك مناطق كبيرة ــ على يسار دجلة وفي الفرات الاوسط ــ لاتعدو كونها في الواقع اكثر من ارض بور تتخللها الوديان والبحيرات المالحة حيث لا يسكنها احد الا نادراً وتتجاوزها طرق التجارة •

وفي شمال ــ غرب وادي الرافدين ، فيما وراء الحافات النحيفة لجبل عبدالعزيز وجبال سنجار وصولا الى سفوح جبال طوروس ، كان السهل ــ الذي يطلق عليه العرب اسم الجزيرة ــ يستغرق كامل المائتين والخمسين ميلاً التي تفصل دجلة عن الفرات • وفي هذا السهل تتقارب غدران عديدة تتحد مع بعضها لتكون رافدين للفرات هما نهر البليخ والخابور اللذان ينتشران فيه كالمروحة • ويتكفل كل من هذين الرافدين والامطار الشتوية الغزيرة ، اضافة الى ذلك الحوض المائي الشاسع الذي تغذيه ثلوج الجبال القريبة ، بتزويد هذه المنطقة الفسيحة بما تحتاجه من مياه • وهكذا كانت مزارع الحبوب والبساتين تمتد على طول النهرين ، وتتجمع حول الينابيع والآبار بينما كان الكلأ ينمو في الربيع حول شبكة المياه المنتشرة في السهب • ولقد أتاحت هذه المنطقة ظروفا مثالية لرعي الماشية وتربية الخيول ، وشكل هذا

السهل الخصيب « رواقـا » طبيعيا ـ اي منطقة وصل ـ بين وادي دجلة الاعلى وسهول سوريا الشمالية • كما تقدم كوكبة التلال المدهشة ـ التي تمثل مدنا مدفونة ـ البرهان على كون هذه المنطقة قد استوطنت بشـكل كثيف ابـان العصور القديمة(19) •

وللزاوية الشمالية ـ الشرقية من العراق أهمية خاصة لدى مؤرخـي ودارسي المنطقة المتموجة بين دجلة وجبال كردستان • ويتراوح معدل هطول الامطـار في هـذه المنطقة بين (١٢ـ٢٥) بوصة سنويا • ومـن السـهل المتمـوج ، تشـرع الارض بالارتفـاع علـى امتـداد النهـر وخـلال سلسلة متوازية من التلال الآخذة بالارتفاع لتبلغ جبال زاگروس الوعـرة ذات القمم المغطاة بالثلوج ـ يتراوح ارتفاعها بين «٨٠٠٠ـ١١٥٠٠» قـدم فوق سطح البحر ـ والتي تفصل العراق عن ايران • وتخترق هذه الجبال اربعة روافد لدجلة هي : الزاب الكبير (الاعلى) ، الزاب الصغير (الاسفل) ، العظيم وديالى • تجتاز هذه الروافد المنطقة مائلة وقاطعة وديانا عميقة خلال حافات صخور الكلس او تتماوج حولها • ومناخ المنطقة حار في الصيف ، معتدل في الشتاء • وتبدو التلال الان جرداء نوعا ما ولكن ، هنا وهناك على سفوحها ، يمكننا مشاهدة مرج أو غابة صغيرة للبلوط او أشجار الصنوبر بينما ينمو الشعير والحنطة وأشجار الفاكهة والكروم والخضروات بيسر في الوديان ذات السفوح العالية • ولقد هيأت هذه المنطقة الجميلة موطنا لرجال الكهوف منذ عصور ما قبل ـ التاريخ ثم اصبحت مهدا لواحدة من اولـى مناطق الاستيطان الزراعي خلال العصر الحجري الحديث (النيوليثي) في الشرق الادنى ثم أصبحت قلب المملكة الاشورية العظيمة • ولعبت هـذه المنطقة الجذابة دورا مهما في تاريخ وادي الرافدين بيد ان مظاهر الحضارة فيها ـ حتى في عهد الآشوريين ـ بقيت مقتصرة على الارض التي يمكـن

زراعتها في اقدام الجبال • ولقد كانت هذه الجبال على الدوام حدوداً متنازعا عليها بين حكام وادي الرافدين وسكان الجبال من البرابرة الذين يشبهون بدو الصحراء ممن دأبوا على التطلع بطمع نحو السهل المزدهر القريب وتهديده •

وفي النهاية الاخرى من العراق ، تكون المستنقعات الواسعة التي تغطي القسم الجنوبي من دلتا دجلة والفرات منطقة خاصة تختلف كثيرا عن أقسام وادي الرافدين الاخرى • ولقد كونت هذه المنطقة ببحيراتها الضحلة التي لا تحصى، بمسالكها المائية الضيقة المتغلغلة في غابات البردي الكثيفة، بثروتها الحيوانية الكبيرة من الجاموس والخنازير والطيور البرية ، ببعوضها وجرارتها الخانقة ، واحدة من اكثر مناطق العالم غرابة ومتعة وفتنة[20] • ومن الثابت ان النصب والآثار القديمة قد تواجدت دوما هنا على اختلاف هيئاتها ونوعيتها• وفي الحقيقة فان « المعدان » ـ او عرب الاهوار ـ ما زالوا يحتفظون لدرجة ما باسلوب حياة السومريين الاوائل الذين استوطنوا حافات هذه المستنقعات منذ اكثر من خمسة آلاف سنة • ومن وجهة النظر الآثارية ، فما تزال المستنقعات العراقية « منطقة مجهولة » • وتوحي لنا تقارير المسافرين بان آثار المستوطنات القديمة الباقية فيها نادرة جدا ، ربما لانها كانت تتكون من قرى اكواخ البردي القريبة في صنعتها من اكواخ اليوم فيها والتي يجب ان تكون قد تلاشت تماما او طمرت تحت عدة اقدام من الماء والطين • مع ذلك فان من المؤمل ان تؤدي عملية استثمار وسائل البحث الحديثة ـ كاستخدام الطائرات العمودية على سبيل المثال ـ الى فتح حقل الاستكشاف في منطقة استطاعت على الدوام الاحتفاظ باهمية تاريخية مؤثرة •

وهكذا وداخل اطار وحدة ظاهرية ، فان العراق يبدو بكونه ارض المتناقضات • فحتى لو اعتبرنا السهوب الشمالية والمستنقعات والاهوار الجنوبية مجرد تنوعات منطقية للسهل الرسوبي الكبير فاننا نواجه هنا بونا شاسعا بين طبوغرافية ومناخ ونباتات السهل الرسوبي والمنطقة الجبلية • ولقد

كان لهذا البون ما يوازيه من الوجهة التاريخية فطوال العهود التاريخيـــة المختلفة للعراق القديم يمكننا ان نلاحظ نشوء تعارض بيّن بين بلاد سومر وآكـــد (او المملكة البابلية) من جهة وبلاد آشور من جهة اخرى • وبوسعنا دوما اقتفاء اثر هذا التعارض الذي يظهر خافتاً احيانا فتكشف عن وجـوده التمايزات الحضارية بينما يظهر في احيان اخرى صريحا وحادا تعبـر عنـه الصراعـات الطاحنـة •

طـــرق التجـــارة

قبل ان يطرق سمع العراقيين وجود ثروة ضخمة من النفط كامنة تحت أقدامهم بوقت طويل ، كانوا يستثمرون احدى اصول النفط وهي مادة القار • ولقد اعتاد سكان وادي الرافدين القدماء الحصول على هذه المادة من منزات وجدت في مناطق مختلفة من بلدهم ، خصوصا في منطقة الفرات الاوسط ، بين هيت والرمادي(*) • واستخدم العراقيون القار في اغراض شتى لم تقتصر على فن العمارة فحسب (كمشد للآجر ، ولصنع فواصل مانعة للرطوبـة في الحمامات وأقنية المجاري) بل واستعمل كذلـك في النحت واعمال الحفر والتطعيم وكمادة لطلاء القوارب ، وكوقود ، بل وحتى كدواء ايضا • وهناك براهين تثبت انه كان يصدر للخارج على الاقل خـــلال فترات معينة من التاريخ(21) •

كان القار المـــادة المعدنية الوحيدة المتوفرة في متنـــاول سكان وادي الرافدين القدماء • وعلى الرغم من غنى موطنهم بالمنتجات الزراعية المختلفة ،

(*) يقصد المؤلف بالفرات الاوسط المنطقة المحصورة بين دير الزور والرمادي؛ ويختلف هذا المصطلح عن المصطلح العراقي للفرات الاوسط الذي يطلق على مناطق تمتد بين الحلة والسماوة • وسبب هذا الاختلاف يعود الى ان المصطلح العراقي يأخذ بنظر الاعتبار الفرات « العراقي » فقط والذي تشكل المنطقة الآنفة الذكر وسطه في العراق •

الا انه كان يفتقر الى خامات المعادن اضافة الى الصخور الصلبة والخشب الجيد ــ وهي المواد التي كانت تستورد من الخارج منذ بداية العصور التاريخية • ومع ان بلدهم كان يخلو تماما من معدن النحاس الا ان سكانه اتاحوا له امكانية تطوير مؤثر لحضارة العصر الحجري ــ المعدني • كان النحاس قد اكتشف اول الامر ــ مثلما يعتقد بصفة عامة ــ في منطقة شمال ــ غرب ايران او في منطقة القوقاس ، وربما يكون قد استحوذ اصلا من اذربيجان او ارمينيا • وسرعان ما اكتشفت له مصادر جديدة في الاناضول (وهي التي انتجت الحديد بعد ذلك) وقبرص وفي البلد الذي تسميه النصوص المسمارية « ما گان » ، الذي يعتقد مؤقتا على الاقل ، بأنه القسم الجبلي من عمان • ويبدو ان القصدير كان يستورد من ايران والقوقاس وربما حتى من افغانستان قبل ان يبادر الفينيقيون بجلبه من اسپانيا في الالف الاول ق•م• وكانت الفضة تجلب في اغلب الاحيان من جبال طوروس ، اما الذهب فقد جيء به من مصادر مختلفة منتشرة بين الهند ومصر(22) • وكانت تتواجد في ايران مناطق عديدة بوسعها تجهيز البلد بالصخور الصلبة والاحجار شبه الكريمة، أما عمان فقد كانت مشهورة بحجر الديورايت الاسود الذي استعمل من قبل النحاتين في عصر سلالة اور الثالثة • وكان بالامكان الحصول على الخشب الاعتيادي من المناطق المتاخمة لجبال زاگروس ، الا انه كان يتوجب، للحصول على خشب الارز الثمين الضروري للمعابد ، العمل على جلبه من لبنان او من جبال الامانوس ، بينما كانت الانواع الاخرى من الخشب تصل من البلد المجهول المسمى « ملوخا » ، والذي يمكن ان يكون الاسم القديم للهند • وقد نشأت ، ومنذ وقت مبكر ، شبكة واسعة من الطرق التجارية التي ربطت الاقسام المختلفة داخل وادي الرافدين بعضها وببقية بلدان الشرق الادنى القديم (23) •

وكثيرا ما كان النقل النهري بين المناطق المختلفة داخل وادي الرافدين يتأثر بمناسيب مياه دجلة والفرات • ولقد وفر هذان النهران ــ بالاضافة الى قنوات الري الكبيرة ــ واسطة نقل ملائمة من الشمال الى الجنوب وبين القرى والمدن . ولعل تقديرنا للاهمية الحيوية لهذين النهرين كوسيلة للاتصال تتزايد لو تذكرنا بان قنوات الري ذاتها كانت تشكل عقبة بوجه النقل البري؛ وان جلّ السهل كان يكتسي بطبقة سميكة من الطين شتاء ويتعرض للتشطيط والانغمار في الربيع • وكان الحمار الحيوان الوحيد المستخدم في النقل البري قبل أن ينتشر استخدام الجمال على نطاق واسع في الالف الاول ق • م •

امتد من وادي الرافدين طريقان تجاريان كبيران يؤديان الى سوريا وساحل البحر الابيض المتوسط غربا • وبالطبع فقد كان هذان الطريقان مسلكين صحراويين بسيطين ولم تكن مرصفاتهما لتمتد أبعد كثيرا عن أبواب المدن التي يمران بها • كان الطريق الاول ينطلق من سپار (قرب الفلوجة) موازياً نهر الفرات فمدينة ماري ثم الاسواق التجارية الواقعة بين منطقة البو كمال ودير الزور • ويستقيم بعد ذلك قاطعا الصحراء ومارا بتدمر (پالميرا) حتى يبلغ منطقة الهوام حيث ينقسم الى عدة فروع تتجه نحو الموانىء الفينيقية ودمشق وفلسطين • ولم يكن عبور الصحراء ــ لا يزيد عرضها على ثلاثمائة ميل ــ محبذاً في الصيف كما كان هذا الطريق عرضة للهجمات المستمرة من قبل البدو • لذلك فقد كانت القوافل التجارية والجيوش الغازية تفضل ــ بصورة عامة ــ الطريق الآخر الأبعد والاكثر أمانا والمجهز جيدا بالماء والزاد • يترك هذا الطريق نهر دجلة من نينوى (أمام الموصل) ويقطع سهب الجزيرة من الشرق الى الغرب ماراً بمدن شوبات أنليل (ربما هي تل « شغر بازار ») وگوزانا (تل حلف) وحرانو (حران) ، ثم يقطع الفرات عند كركميش

(جرابلس) ، او عند آمار (مسكين) ، ليمر بحلب ، او على مقربة منها ، وينتهي عند وادي نهر « الاوروتنس » (العاصي) حيث تتفرع منه عـدة طرق جانبية تؤدي الى ساحل البحـر الابيض المتوسط وأواسط سوريا • وكانت تتفرع من نقاط عديدة على هذا الطريق طرق اخرى تؤدي الى كليكيا والاناضول ؛ كما كان يمكن بلوغ أرمينيا وشرق الاناضول من نينوى بتتبع نهر دجلة حتى ديار بكر ثم باجتياز جبال طوروس عبر الممرات الضيقة •

أما المواصلات مع الشرق فقد كانت اكثر صعوبة • فالقبائل القاطنـة جبال زاگروس كانت تتخذ على الدوام مواقف عدائية من وادي الرافدين ، كما كانت سلسلة الجبال هذه ذاتها تشكل عائقا هائلا يستحيل اجتيازه الامن ثلاث نقاط : رايات (قرب راوندوز) ؛ حلبچه (جنوب شرق السليمانية) ؛ وخانقين (في اعلى ديالى) • ويمكّن ممر رايات وحلبچه القوافل من بلوغ اذربيجان وبحيرة اورميه . بينمـا يؤدي ممر خانقين الى كرمنشاه وهمدان وما بعدهما من المناطق في الهضبة الايرانية • وكان هناك طريق رابع في أقصى الجنوب يمر بمحاذاة سلسلة جبال زاگروس من دير (قرب بدره) الى سوسه (شوش ، قرب دزفول) عاصمة عيلام • ولا يواجه هذا الطريق أيـة عقبة جبلية ــ على اعتبار ان الوديان السفلى لنهري كرخا والگارون التي تؤلف منطقة عيلام ــ ليست في الواقع غير امتداد شرقي لسهل وادي الرافدين • ولكن العيلاميين كانوا الاعداء التقليديين لسكان وادي الرافدين وكان هذا الطريق غالبا ما يسلك من قبل الجيوش الغازية بدلا من القوافل التجارية المسالمة •

يمر اخر طريق تجاري كبير بين العراق القديم وبقية ارجاء العالم بالخليج العربي (البحر الاسفل أو بحر الشمس المشرقة كما كـان يدعى آنذاك) • ومنذ بداية العصر الاسلامي ولحد الان ، شـكل الخليج العربي « رئـة » العراق باعتباره نافذة يطل منها على الهند والشرق الاقصى(24) ؛ بيد انـه

يصعب تخمين الدور الذي كان يلعبه في اقتصاد العراق قديما • وقد كانت العلاقات الاقتصادية بين وادي الرافدين والهند معروفة منذ أقدم الازمان وان لم يوجد ما يثبت أنها قد تمت عن طريق البحر وليس البر • ولقد وردت عدة اشارات ابتداء من نهاية الالف الثالث ق • م فصاعدا الى سفن تبحر من اور الى دلمون (البحرين) فماگان (عمان) وملوخا • وتوجد اثباتات اكيدة تدلل على ان ملوك آكد (٢٣٠٠ ق • م تقريبا) وملوك آشـور (في الالف الاول ق • م) قد حاولوا جذب البلدان المجاورة للخليج العربي ضمن المنطقة الواقعة تحت تأثيرهم السياسي والاقتصادي •

قد يستطيع هذا الوصف المقتضب أن يوضح حقيقة ان وادي الرافدين، على العكس مما قد يظنه البعض ـ لم يكن يهيء مناخا مثاليا لتطور حضارة أصيلة • صحيح أن الرافدين قد أنتجا الدلتا الخصيبة ولكن كان بوسعهما التسبب بالكوارث مثلما كان بوسعهما الاتيان بالرخاء • ولقد أمكن ـ اثر بـذل جهود جبارة ـ جعل الزراعة تتطور فيه الى حد كبير غير انه كان يوجد هناك ايضا نقص فادح في مواد حيوية للازدهار كالمعادن والحجارة والاخشاب• والى جانب هذا كانت الصحارى والجبال ـ وكلاهما موطن لاقوام معادية ـ يحيطان بالسهل من كل صوب تاركين منفذا صغيرا واحدا الى البحر الذي تقطن سواحله ـ حتى مسافة خمسمائة ميل ـ أقوام عربية وفارسية معادية• واذا ما اخذنا كل هذه الامور بالحسبان فسيبدو لنا السهب الشمالي وسفوح جبال كردستان اكثر ملائمة لقيام الحضارة من السهل الرسوبي الكبير • لذلك فلم تكن الصدفة وحدها هي التي هيأت لتلك المنطقة ان تصبح مهد حضارة العصر الحجري الحديث وموطنا لبواكير حضارة العصر الحجري ـ المعدني في وادي الرافدين • بيد ان حضارة وادي الرافدين أخذت شكلها وأبعادها

الحقيقية في الجنوب ، على حافات المستنقعات حيث استمدت أصولها وأينعت هناك • ويجدر بنا أن نعترف في هذا المكان بأن كل ما أنجزه الانسان في العراق القديم انما كان ثمرة الصراع العنيد المستمر ضد الطبيعة المخادعة والاعداء الخارجيين ؛ ذلك الصراع الذي يشكل سمة تاريخ هذه البقعة من العالم • وقبل أن نشرع بسرد هذا التاريخ ، اعتقد انه ينبغي لنا الآن ان نتوقف لحظة لتفحص المصادر التي يستمد منها المؤرخون معلوماتهم •



الفصل الثاني

في البحث عن الماضي

لاجل اعادة بناء تاريخ الماضي ، يستفيد المؤرخون من نوعين من الوثائق هما النصوص الكتابية والآثار المادية • وتعني الاثار المادية هنا ، حرفيا ، أية آثار أو مخلفات فنية ــ من أعظم المباني اتقانا حتى أكثر الادوات المنزلية تواضعا • وبينما تلعب الآثار المادية دورا صغيرا نسبيا فيما يتعلق بتأرخة الحقب التاريخية القريبة ، الا أن أهميتها تتعاظم كلما أوغلنا في القدم • فالمؤرخ الذي يبحث في تاريخ القرن التاسع عشر مثلا يستمد معظم مواد عمله من الارشيفات ونادرا مايولي أي اهتمـام لدراسة خرائط وتصاميم الكنائس والبيوت ، بينما تمتلك التفصيلات المعمارية أهمية بالغة بالنسبة لزميله الذي يعكف مثلا على دراسة حرب طروادة أو جمهورية أثينا الان النصوص مفقودة تقريبا هنا ويتوجب اسنادها بكل مصدر للمعلومات يتواجد في مجالات أو جوانب أخرى • ولعدم استطاعة المؤرخين الحصول مباشرة عـلى وثائق لم تكتب أبداً ، نراهم يعتمدون أساسا على مطبوعات أولئـك الرجال الذين يختصون في الحفر والبحث في المدن القديمة والمقابر الكبيرة ــ أي عـلى منقبي الآثار الميدانيين •

وعلى المؤرخين المتخصصين في دراسة تاريخ الشرق الادنى الاعتماد على علماء الآثار بدرجة أعظم عند دراستهم تاريخ وادي الرافدين ومصر وفلسطين في العصور القديمة عنها عند دراستهم لبقية بلدان المنطقة لان الآثار المادية والنصوص في هذه المناطق تقبع ــ لاسباب سنأتي على ذكرها تفصيليا ــ تحت اعماق الارض ولايمكن بلوغها الا بمساعدة عمليات البحث والتنقيب. ولقد بدأت التنقيبات الآثارية في العـراق عـام (١٨٤٣) واسـتمرت دون توقف منذ ذلك التاريخ وحتى الوقت الحاضر. اما اعمال التنقيب الاولى فقد ابتدأها منتسبون هواة أول الامر، ثم تطور علم التنقيب ليبلغ مستويات علمية رفيعة خصوصا عندما أدرك هؤلاء المنقبون أن عمليـة ملء صالات متاحف بلدانهم بالاعمال الفنية المستخرجة لا تشكل بحد ذاتها هدفا أساسيا وأن الضرورة تستدعيهم للإنكباب على اكتشاف نمط حياة الشعوب القديمة في هذه المنطقة خلال الازمنة الغابرة. ولقد اجبرتهم طبيعة عملهـم نفسها وحقيقة كونهم يعالجون مواداً هشة رصيفة قابلة للكسر ــ كالآجر الطيني والرقم المفخورة ــ، وضرورة تهديم الطبقات السكنية الواحدة تلو الاخرى للغور في الماضي ــ على استنباط أساليب عمل مناسبة ذات تكنيك عال منذ بداية هذا القرن. فجيء عندذاك بفرق من الاختصاصيين المتمرسين والمتدربين للاشراف على اعمال التنقيب لصالح الجامعات والمتاحف الاوربية والامريكية، ووضعت كل مصادر العلم الحديث في متناول ايديهم. وخلال الستين سـنة الماضية، تم التنقيب بشكل واسع النطاق في أكثر من ثلاثين موقعا آثاريـا تستغرق عمليا كل المدن الرئيسية للعراق القديم. ولقد كانت ثمار هـذه الجهود العالمية وفيرة بشكل مدهش حيث ادت الى تغيير كامل معلوماتنـا عن تاريخ وادي الرافدين القديم بعدما توالت اكتشافاتها بشكل غير متوقع. ويعترف المؤرخون ــ الذين لم تكن مصادر معلوماتهم عن العراق قبل قرن واحد فقط لتزيد على تلك التي يقدمها «الكتاب المقدس» وبعض المؤرخين

الكلاسيكيين ـ بانهم يواجهون الان صعوبات في معالجة وهضم الكميات المتزايدة من المواد والمعلومات المنهالة عليهم سنة بعد اخرى نجدهم يقيّمون بامتنان عال منجزات علماء الآثار(1) •

ولقد عمدنا الى ادخال هذا الفصل في دراستنا توخياً الى ان نبين للقارىء ما معنى اشاراتنا المتكررة في متن هذا الكتاب الى « الربوات » و « التلال » ـ التي تمثل المدن المقبورة للعراق القديم ـ والى «المستويات» « والطبقات » الاستيطانية . وسنقدم كلما كان ذلك ممكنا تواريخ مطلقة او نسبية حسبما يقتضي الحال لاهم التطورات • ويبدو لنا ان من حق القارىء ان يتعرف منذ البداية على تفاصيل الموضوع هذا ولا نشعر بوجود وسيلة تشبع فضوله احسن من تقديم موجز يشرح مواد وطرق وتطورات ما يسمى الان عموما بـ « آثار وادي الرافدين » •

مدن العراق المقبورة

يفاجأ غالبية السياح لدى اطلاعهم لاول مرة على المواقع الاثرية في العراق عندما يقادون الى « ربوة » ترتفع قليلا وسط ارض منبسطة ويخبرون بأن تلك « الربوة » كانت مدينة زاهرة في وقت ما • وبوسع هؤلاء السياح ملاحظة آثار رائعة كبرج أور أو باب عشتار في بابل لدى اقترابهم منها ، ولكنهم غالبا ما يقفون بمواجهة أكوام من الاتربة ممتزجة بفخاريات مهشمة وكسرات من الآجر فحسب • ولعل من الطبيعي ، والحالة هذه ،ان تتملكهم الدهشة ويتساءلون : كيف حصل كل هذا الدمار ؟

ولكي نجيب عن هذا السؤال يتوجب علينا أولا تبيان حقيقة كون تلك المدن القديمة قد تم تشييدها بالطين فقط لأن الحجر بالغ الندرة في العراق بينما يتوافر الطين في كل مكان تقريبا • ولقد بنى سكان العراق القديم بيوتهم من الطين المراكم أو من كتل طينية غير مهندمة مضغوطة معاً • وعندما

اكتشف سكان وادي الرافدين القدماء أن مزج الطين بالتبن والحصى أو فتات الفخار و « تشكيله » في هيأة آجر مجفف تحت الشمس وشده مع بعضه بالجص أفضل كثيرا من المواد الانشائية السابقة ، أصبح ممكنا عند ذاك تشييد جدران أقوى وأسمك واكثر انتظاما . وبالطبع فأن الآجر المفخور بالكور يتميز بكونه أعلى مقاومة وتحملا من اللبن خصوصا اذا ما جرى شده بالقار مع بعضه . بيد أن هذه الطريقة كانت كثيرة التكاليف بسبب شحة الوقود ولان القار كان يجلب من مناطق بعيدة نسبيا . وهكذا فقد اقتصر استخدام الآجر المفخور ، بصفة عامة ، على تشييد بيوت الآلهة وقصور الملوك، مع انهذا لم يكن يتبع دوما كقاعدة(2). وبوسعنا الاستنتاج من كل هذا أن معظم بنايات وادي الرافدين القديمة كانت تشيد من اللبن الاعتيادي ، اما السقوف فقد كانت تصنع من حصران البردي أو أغصان الشجر وينشر فوقها التراب ، كما كانت الارضية ترصف بالتراب المطروق المغطى أحيانا بالجص ، وتغطى الجدران بتماليط من الطين ايضا .

امتازت تلك البيوت ذات الجدران السميكة بكونها مريحة نسبيا لاعتدال حرارتها صيفا ودفئها شتاء ، ولكنها كانت تتطلب صيانة وترميما مستمرين . ففي كل صيف كان يتوجب اضافة طبقة جديدة من التراب على السقف تحسبا لامطار الشتاء القادم . كما كان من الضروري ايضا تعلية الارضية بين آونة وأخرى لان النفايات لم تكن تجمع آنذاك لكي ترمى في المزابل بل كانت تلقى ببساطة في الشوارع . ولقد سبب ذلك ارتفاعا تدريجيا في مستوى الشارع فأصبح يعلو على مستوى أرضية البيوت المحاذية له مما يسمح لمياه الامطار وللاوساخ ان تنز الى البيوت . ولتفادي ذلك ، وجب جلب أتربة جديدة لوضعها فوق الارضية القديمة واكسائها بالطين مرة أخرى . وهذا هو السبب الذي يجعل المنقبين يصادفون اثنين ، ثلاثا او اكثر من الارضيات المتعاقبة الواحدة تلو الاخرى في البيت الواحد .

ولو كانت هـذه الترميمات الضرورية تجرى بانتظام لاستطاعت بيوت اللبن الصمود سنين طويلة ، ولكن أمرا آخر كان يجري ايضا • فبسبب الحروب والحرائق والاوبئة والزلازل او الفيضانات ، كان السـكان يهجرون مدنـا باكملها تماما فتبقى السقوف بلا صيانة لتتهاوى أرضا ولتصبح الجـدران عرضة لعوامل التعرية المناخية من الخارج والداخل حيث لا تلبث أن تنهار هي الاخرى ايضا مالئة ساحة الغرفة الداخلية فتقبر الاشياء والمواد المتروكة من قبل سكان البيت المهاجرين • وفي حالات الحرب ، كان الدمار بالطبـع شاملا وسريعا اذ يعمد الاعداء المنتصرون عادة الى احـراق المدينة المقهورة واتلافهـا تمامـا •

ورغم انقضاء سنين عديدة على ترك هذه المدن تأتي اقـوام جديـدة لتستوطن فيها ثانية تجذبهم اليها مراكزها الستراتيجية أو مواقعها التجارية المركبة أو وفرة مياهها وربما حتى الآلهة التي كانت تعبد فيها سابقا • ولما كان يتعذر على الاقوام الجديدة ازالة كل تلك الكميات الهائلة من الانقـاض ، لذلك نجدهم يشرعون بتسوية الجدران المهدمة واستخدامها أسسا لبناياتهم الجديدة • وعندما تتكرر هذه العملية عدة مرات بمرور الزمـن ، تتعاقب الطبقات السكنية الواحدة فوق الاخرى فترتفع تدريجيا فوق مستوى السهل المحيط بها • كانت بعض تلك المدن تترك مرة والى الابد بينما استمر ، بهذه الدرجة أو تلك استيطان مدن أخرى ـ أربيل وكركوك مثلا ـ منذ أقـدم الازمان وحتى الوقت الحاضر • ولكن الغالبية العظمى من المدن القديمـة جرى هجرها في فترة أخرى بعد آلاف او مئات السنين من العمران البشري المستقر • وليس صعبا جدا تصور ما كان يحصل بعدئذ ؛ فتتراكم الاتربة والرمال التى تجلبها الرياح القوية مالئة الشوارع وكل المنحنيات ، بينمـا يتكفل المطر بتصفية سطح الانقاض المتراكمة ونشرها فوق منطقـة واسعة • وبالتدريج تأخذ تلك المدينة شكلها الحالي ، أي : الربوة المستديرة التـي يقـاد اليهـا السياح(3) •

من هنا تتوضح المهمة الكبيرة التى تقع بعد ذلك على عاتق علماء الآثار في سعيهم لفك العقدة الصعبة لتلك الجدران والاسس والارضيات وللحصول على تصاميم المباني وحفظ الاشياء التي تحتويها • ثم يتوجب عليهم ايضا تشخيص وتحديد تواريخ المستويات المتعاقبة المكونة للتلة • ويستخدم المنقبون الآثاريون طريقة أو أخرى من بين عدة طرق(4) آخذين بنظر الاعتبار في اختيارهم لها كمية الاموال ومقدار الوقت المتيسر لديهم •

ولعل أسرع وأقل الطرق تكلفة لمعرفة ما الذي يوجد في التل بصورة اجمالية هي طريقة اجراء عملية « سبر أعماق » تتمثل بحفر عدة خنادق (مجسات) من على سطح التلة بزوايا مختلفة • وكلما تغور هذه الخنادق في الاعماق ، كلما تتوالى عملية تجميع اللقيات كالفخاريات وغيرها ليستعان بها في تأرخة الطبقة السكنيه ؛ ويمسك جدول بالارضيات وأجزاء الجدران المصادفة • ومن الواضح ان هذه الطريقة غير مرضية ويجب أن يقتصر استخدامها في عمل الاستكشافات التمهيدية أو عند التنقيب في مواقع غير مهمة نسبيا • وهناك طرق اخرى لسبر الاعماق تشبه الطريقة الآنفة الذكر وتستخدم أغلب الاحيان في التنقيب في التلال العالية والضيقة • وتتلخص هذه الطريقة بحفر خندق طويل من جانب التل وليس من سطحه بدءاً من القمة ووصولا الى القاعدة • وبوسع المنقب الوقوف على مستويات وطبقات السكن بشكل أوضح بهذه الطريقة وان كان يصعب من الناحية العملية تحديد تصميم أية بناية منقب فيها •

وهناك طريقة ثالثة في التنقيب تمتاز بأفضلية نظرية وتكون بتقسيم سطح الموقع الاثري الى مربعات وبحفر كل مربع منها بالتعاقب حتى بلوغ عمق معين متساوٍ في كلها • بعد ذلك يبدأ بالحفر والتنقيب من جديد في « شريحة » أخرى وهكذا دواليك • ويجري ترقيم المواد المكتشفة في كل مربع وفي كل طبقة وتثبت مواقعها على خرائط • وكلما يستمر التنقيب تظهر

بوضوح أشكال النصب والآثار الاخرى المتواجدة في الموقع • وللاسف فان هذه الطريقة البطيئة والباهظة التكاليف نادرا ما تستخدم من قبل المنقبين ويتعذر اعطاء مثل تطبيقي لها في كل عمليات التنقيب التى جرت في منطقة الشرق الادنى فيما عدا موقع « بيبلوس » (جبيل) على الساحل اللبناني الذي تستمر فيه التنقيبات بهذه الطريقة منذ عام ١٩٢٦(5)• وكقاعدة، فان علماء الآثار يفضلون استخدام طريقة أخرى يمكن أن نسميها بعملية « سبر أغوار موسعة » حيث يجري اختيار بقعة معينة على سطح التل ويحفر فيها خندق • وما أن يصادف الخندق جدرانا مطمورة حتى يقوم كل خندق بتتبعها وابرازها من الوجهين حيث يمكن بعدئذ اظهار كل المبنى وتشخيصه • وتعالج عدة بقع بنفس هذه الطريقة ، واذا استدعت الحاجة ، يمكن لعملية الحفر أن تستمر للغور تحت المباني العلوية الاكثر حداثة المتواجدة في المنطقة بعد هدمها للكشف عن البنايات الكائنة تحتها • ويمكن ايغال « مسبار » (مجس) اختبار من بقعة أو بقعتين داخل التلة وصولا الى « الارض البكر » • ويساعدنا مثل هذا التجويف على استحصال مقطع طولي للتلة واخذ فكرة عن الطبقات السكنية المختلفة • وبالضرورة ، فان أقساما من الموقع الاثاري تبقى دون ان تمس غير ان ذلك قليل الاهمية اذا أمكن اظهار النصب الاثارية الرئيسية كالقصور والمعابد وعدد من بيوت الاهلين • ولقد أستخدمت هذه الطريقة في التنقيب بنمرود وبابل والوركاء واور ونفر وفي كل المواقع الآثارية الرئيسية في العراق وما تزال هي الطريقة المفضلة في التنقيب حتى الوقت الراهن بسبب اعطائها نتائج جد مرضية •

تأرخة الماضي

يمكن أن تكون عملية تأرخة النصب أو المكتشفات مسألة جد يسيرة كما يمكن أن تكون بالغة الصعوبة • فمن الواضح أن بناية يحتوي آجرها على نقش كتابي ما نحو « قصر سرجون ملك آشور » تصبح مؤرخة

« طبيعيا » شريطة ان نعرف متى حكم الملك سرجون الدولة الآشورية ؛ وهنا تكمن الصعوبة . ولان أغلب المواد والاشياء التي عثر عليها بالتنقيبات - بل وفي الحقيقة كل المواد المخلفة العائدة الى عصور ما قبل التاريخ - لا تحمل أي كتابات لذلك لاتعدو عملية تأرختها والحالة هذه ان تصبح مسألة تقريبية ونسبية حيث تعتمد على مواصفات محددة كأشكالها او أبعادها أو صنعتها . وتساهم التجربة والخبرة المتراكمة التي يحوزها المنقبون وعلماء الآثار من حفرياتهم في مختلف المواقع في المساعدة على ادراك ان آجراً بحجم معين أو سنديانات بأشكال خاصة أو أنواعا معينة من الاسلحة أو نماذج محددة من المنحوتات .. تتواجد حتما في مستويات معينة . وتصنف هذه المواد معاً لتكون ما تدعى بـ « الطبقة الحضارية » أو « الافق الحضاري » . فاذا صادف وأن احتوت أية مادة من هذه المكتشفات «تأريخا» ، أو ان وجدت لها صلة وثيقة لا تحتمل الشك بنصب آثاري آخر مؤرخ ، فيصبح من السهل عند ذاك أن تأخذ كامل الطبقة الحضارية المستكشفة مكانها التاريخي . أما اذا تعذر ذلك فتبذل محاولات لمقارنة الفترة التي كانت تستخدم فيها هذه المواد مع فترات أقدام او احدث منها لغرض تأرختها . وكمثال لذلك ملاحظة المنقبين ظهور أنماط معينة من السنديانات الملونة (ما تسمى بفخاريات « جمدة نصر ») في مواقع آثارية مختلفة جنوب وادي الرافدين في منطقة تتوسط طبقة حضارية معروفة لامتلاكها نوعاً خاصا من الآجر يتميز بكونه مسطحا في جانب ومقوسا في جانب آخر وطبقة حضارية اخرى تتميز بغلبة الفخار من النوع البسيط غير المنقوش . ولان بوسعنا معرفة تاريخ الآجر المسطح - المقوس ؛ الذي يعود الى الالف الثالث ق . م ، من كتابات ونقوش

شتى تعود الى عصر فجر السلالات (٢٨٠٠ـ٢٣٥٠ ق ٠ م) ، ولكون الفخار البسيط لا يحمل تاريخاً وانما يشكل جزءاً من طبقة حضارية معروفة باسم « اوروك » (جاءت هذه التسمية من اسم الموقع الذي اكتشف فيه هذا النوع من الفخار لاول مرة) ، لذلك يمكن اعطاء فخاريات جمدة نصر تأريخاً نسبيا يتوسط عصر اوروك وعصر فجر السلالات وينتهي حوالي عام ٢٨٠٠ ق ٠ م ٠ أما معرفة طول المدة التي استغرقها هذا العصر ، فتلك مسألة أخرى تتوفر وسائل مختلفة تتيح تقديم تخمينات عمومية عنها ٠

ومن الضروري عند التعامل مع التاريخ توضيح الحوادث المختلفة بالارقام المحددة وأعتقد أن من الضروري هنا تفحص سبل الحصول على هذه الارقام والدرجة التي يمكننا الوثوق بها ٠

كان الاغارقة القدماء يحسبون تاريخهم ابتداء من الاولمپياد (٧٧٦ ق٠م)، كما كان الرومان يؤرخون من سنة تأسيس عاصمتهم روما (٧٥٣ ق٠م) ، اما المسلمون فانهم يبتدئون تأريخهم من الهجرة النبوية (عام ٦٢٢ م) ٠ ولكن سكان وادي الرافدين القدماء لم يمتلكوا نظاما ثابتا للتأرخة حتى فترة متأخرة عندما تبنوا نظام التأرخة السلوقي (٣١١ ق ٠ م) ٠ قبل هذا التاريخ، كان سكان وادي الرافدين القدماء يؤرخو مادة معينة بنسبها ، ببساطة ، الى سني حكم ملوكهم وذلك باحدى الطرق الثلاث هذه ٠ اولا : تذكر سني حكم الملك بأرقام مجردة نحو « السنة الثانية عشرة من عهد (نبونائيد) (نبونيدس) ، ملك بابل ، » وثانيا : تعرّف كل سنة من عهد حكم الملك بحادثة مهمة كالانتصارات العسكرية أو الزيجات الملكية أو بناء المعابد ٠٠٠٠ الخ ، نحو « السنة (التي فيها) فتحت اوروك وايسن » ٠ وثالثا : يجري اطلاق اسم موظف كبير في المملكة على كل سنة من سني حكم الملك ٠ وكانت الطريقة الاولى قد استخدمها السومريون في بداية عهدهم وتبناها الكاشيون بعدئذ ، بينما عمت الطريقة الثانية في العهود

المتأخرة للسومريين وفي بداية العصر البابلي ، آما الطريقة الثالثة فقد اقتصر استخدامها عند الآشوريين فقط . وكان يمكن لطرق التأرخة هذه أن تقدم فائدة عملية لسكان وادي الرافدين القدماء شريطة امتلاكهم قائمة بمسميات سني حكم كل ملك من ملوكهم او قائمة بأسماء موظفيه الكبار ؛ كما كـان ضروريا ايضا اقتناء قائمة بمسميات سني حكم كل سلالة ملكية مع قائمـة اخرى بالسلالات التي حكمت البلد بالتعاقب . ولابد ان قوائم من هـذا النوع قد تواجدت قديما فبقي منها قسم لنا لحسن الحظ . وفيما يلي امثلة لبعض منها :

قائمة بسني حكم الملك حمورابي ملك بابل :(6)

(سنة ــ١ــ) أصبح حمورابي ملكا .

(سنة ــ٢ــ) رسخ حمورابي العـدل في البلاد .

(سنة ــ٣ــ) بنى (اي حمورابي) عرشا لمنصة الاله « نانا » الرئيسية في بابـل .

(سنة ــ٤ــ) بنى جدار لفناء « كاجيا » المقدس .

(سنة ــ٥ــ) بنى حمورابي « إن . كا . آش . بار . را » (؟)

(سنة ــ٦ــ) بنى حمورابي الـ « شير » ؟ للإلهة « لاز » .

(سنة ــ ٧ ــ) « دُحرت » ايسن واوروك .

(سنة ــ ٨ ــ) « فُتح » بلد إيموتبل .

ويلاحظ من هذه القائمة ان التأريخ الاخير يشير الى السنة السابعة من حكم الملك حمورابي .

قائمة الملوك « ب » وتغطي سني حكم « سلالة بابل الاولى » :(7)

« سوموابي » ملك ، ١٥ سنة •

« سومولايل » ، ٣٥ سنة •

« سـابو » ، ابنه ، كذا (أي ملك) ، ١٤ سنة •

« ابل ـ سن » ، ابنه ، كـذا ، ١٨ سنة •

« سن ـ مُبلط » ، ابنه ، كذا ، ٣٠ سنة •

« حمورابي » ، ابنه ، كذا ، ٥٥ سنة •

« سمسو ايلونا » ، ابنه ، كذا ، ٣٥ سنة •

قائمـة لمّو « كسرة »(8)

« شلمان ـ أشرد » ملك الدولة الاشورية ، (حملة) ضد اورارطو •

« شلمنصر »

« شمشي إيلو » مشير ضد اورارطو •

« مردوخ ـ ريماني » كبير السقاة ضد اورارطو •

« بعل ـ لشّر » الحاجب الاول ضد اورارطو •

« نبو ـ أشد ـ اوكن » أباراكو (رئيس الاستقبال) ضد إيتوع •

« پان ـ آشور ـ لامور » شنكو (كاهن الاضاحي) ضد اورارطو •

الـــخ •

وكان المدى الزمني لهذه القوائم متنوعا اذ يقتصر بعضها على ملـوك سلالة واحدة(9) في مكان واحـد بينما يتضمن البعض الآخـر منها ـ قائمـة الملوك (ب) المذكورة آنفا على سبيل المثال ـ عدة سلالات حكمت ، ظاهريا على الاقل ، بشكل متعاقب • ووجدت قوائم أخرى غطت فترات طويلة جدا

وضمت حكام عدة سلالات لعدة ممالك ، كقائمة الملوك السومريين الذائعة الصيت التي قام جاكوبسن باعادة ترتيبها ، حيث تغطي فترة تمتد من عهد الحكام الاسطوريين (لما قبل الطوفان) الى عهد الملك « سن ماجر » (١٨٢٧ـ ١٨١٧ ق ٠) وهو ملك سلالة إيسن الاولى(10) ٠

وكان يمكن أن تكون ترجمة تواريخ هذه القوائم الى ما يقابلها بنظام التأرخة المسيحي عملية مستحيلة تماما لولا جهود « كلوديوس بطليموس »(*) الاغريقي ، الاسكندري ، الذي قام (في القرن الثاني ق٠م) بتضمين احد كتبه قائمة بأسماء كل ملوك بابل وبلاد فارس ابتداء من نبوخذنصر (٧٤٧ ق٠م) الى الاسكندر الكبير (٣٣٦ـ٣٢٣) وتعرف هذه القائمة المشهورة بـ «قانون بطليموس » وهي لا تكتفي بتسجيل فترة حكم كل ملك فحسب بل وتقدم أيضا الحوادث الفلكية المهمة التي قامت في فترات حكام بعض اولئك الملوك ٠ والذي حدث الآن هو أنه قد أصبح ممكنا ، بعد جمع عدة رقم آشورية ، اعادة تركيب قائمة « لمو» طويلة ومستمرة (غير متقطعة) تغطي الفترة التي تنحصر بين حكم الملك أدد ــ نراري الثاني (٩١١ـ٨٩١ ق٠م) وآشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٣١ ق ٠ م) ٠ وتزودنا هذه القائمة بالحوادث الفلكية الرئيسية لهذه الفترة ٠ وتتوافق تواريخ « قانون بطليموس » الممتدة بين الاعوام (٧٤٧ـ٦٣١ ق ٠ م) مع قائمة الملوك « لمو » ، وكذلك هو الحال بالنسبة الى الكسوفات وحركات النجوم ٠٠ التي تذكرها كل من هاتين القائمتين ٠ كما وقد اكتشف علماء الفلك أن كسوف الشمس الذي يرد ذكره في قائمة « لمو » على أنه قد حدث في شهر « سيفان » « مايس ــ حزيران » من السنة العاشرة لحكم الملك آشور ــ دان قد حصل في الحقيقة يوم الخامس عشر من حزيران عام (٧٦٣ ق٠م) ٠ وهذا التاريخ هو نفس التاريخ

* (Claudius Ptolemaes) رياضي وفلكي وجغرافي اغريقي عاش في الاسكندرية (١٢٧ ــ ١٥١ ق٠م) ٠

الذي نحصل عليه بتتبع القائمة عكسيا واضافة سني حكم كل ملك من الملوك المذكورين فيها • وهكذا فقد تم التوصل الى تحديد تاريخ بلاد وادي الرافدين ، بشكل مطلق ، ابتداء من عام (٩١١ ق • م)(11) وكل الفترة التي تعقب ذلك • أما تأرخة الفترات السابقة لذلك التاريخ فترتكز على أسس أقل ثباتا • ففي الوقت الذي يمكن فيه ، نظريا الحصول على تواريخ محددة بالسنين لها من قوائم الملوك والسلالات الا أن الامر المؤسف هنا هو أن تلك القوائم قد أثبتت مرارا ارتباكها وعدم دقتها اذ لا تفرز العديد من الاختلافات الجوهرية فحسب بل وتشتمل ايضا على عدد من الثغرات والاخطاء الكتابية• ويستعرض بعضها سلالات على أساس انها قد حكمت بصورة متعاقبة ولكن الشواهد التاريخية المضبوطة تثبت انها كانت تحكم في حقيقة الامر في أزمان متداخلة بل وحتى متعاصرة • لذلك لا يجب أن نندهش اذا ما صادفتنا تواريخ متفاوتة لحوادث معينة في الكتب المنهجية المختلفة ؛ أو اذا ما واجهنا اختلافات في الاجتهادات بصدد تحديد تاريخ وقوع حادث معين كتحديد تاريخ تسنم حمورابي ملك بابل العرش حيث يرد مرة في عام (٢٣٩٤ ق • م) وذلك في المؤلفات التي تعود الى ثمانين سنة خلت (اوپيرت ، ١٨٨٨) ، ثم اصبح يؤرخ ، بعد الحرب العالمية الاولى في عام (٢٠٠٣ ق . م) (تورودانجن، ١٩٢٧) • ويحسب هذا التاريخ الان بين عام (١٨٤٨ ق • م) (سديرسكي ، ١٩٤٠) وعام (١٧٠٤ ق • م) (فايدنر ، ١٩٥١) ، اعتمادا على اجتهادات مختلف الباحثين • ولما كانت عملية تأرخة بداية حكم الملك حمورابي تشكل مفتاح تأرخة الالفين الثاني والثالث قبل الميلاد لذلك فقد ادى تقديم تأريخ حكم هذا الملك نتائج مهمة جدا خصوصا في حقل دراسة علاقة وادي الرافدين مع البلدان المجاورة(12) •

ومما يجدر بنا ذكره في هذا الصدد تلك المحاولات التي جرت في الآونة الاخيرة لجعل عملية تأرخة الماضي ترتكز على أسس اكثر علمية بفضل استثمار

الطرق الفيزياوية الحديثة ، خصوصا فيما يتعلق منها بالكربون ذي الوزن الذري (١٤) أو طريقة الكربون المشع المطورة عام (١٩٤٦) من قبل البروفسور د• ف • لبي (Libby) في شيكاغو(13) • ومبادىء هـذه الطريقة هي باختصار ما يلي : تحتوي كل العضويات الحية على عنصر الكربون الاعتيادي (وزنه الذري يساوي ١٢) ، كما وتحتوي ايضا على نظيره ذي الحيوية الاشعاعية وهو الكربون الذي يمتلك وزنا ذريا يساوي (١٤) ، والذي يتكون في الطبقات العليا من الجو بسبب تأثير الاشعة الكونية على النيتروجين ثم يسقط على سطح الارض ليجري امتصاصه من قبل النباتات ومن ثم الحيوانات• وتبقى النسبة بين الكربون (١٢) والكربون (١٤) ثابتة مدى الحياة وهي : واحد من البليون غرام من الكربون (١٤) لكل غرام من الكربون الاعتيادي• وعندما يتوقف امتصاص الكربون (١٤) بعد الموت ، تبدأ كميته في الجسم بالتضاؤل بشكل تدريجي منتظم حيث يتحول الى النيتروجين • ولما كنا نعرف منعطف تحلل الكربون (١٤) [المعروف بمنعطف نصف ـ الحياة] ويبلغ (٥٥٦٨ سنة) ، فان بمقدورنا اذن ايجاد التأريخ الذي ماتت فيه تلك العضويات ، أي معرفة عمرها • ويمكن تطبيق هذه الطريقة على كل المواد العضوية المكتشفة في الحفريات الآثارية كالعظام والخشب والفحم والمحار والبردي ••• الخ • ولكن فائدة هذه الطريقة تحددها عدة عوامل مؤثرة كعامل « الانحراف القياسي » (الخطأ في احتساب التحلل الاشعاعي العرضي) وكذلك « هامش الخطأ الاعتيادي » • وهذا يعني أن هذه الطريقة مع كونها قيمة جدا في تأرخة فترات ما قبل التاريخ ـ حيث تكون الاختلافات في بضع سنين مسألة قليلة الاهمية ـ لكنها غير مفيدة عمليا عند الحاجة الى التوصل لتأرخة زمنية مضبوطة تماما •

لقد جرى تحول المدن التي كانت مزدهرة يوما ما الى أطلال مهجورة بسرعة أكبر مما قد يتصورها البعض(14) • ففي منتصف القرن الرابع ق • م ، شاهد هيرودوت بابل وكانت ماتزال مدينة نشيطة، ولكننا نجده يعاف زيارة نينوى التي خربت قبل قرن ونصف فقط • وزينفون، الذي كان يقود عشرة آلاف مرتزق أغريقي عبر وادي الرافدين عام (٤٠١ ق • م) ، مر بقرب عاصمة الاشوريين العظيمة دون أن يلاحظها أبداً(15) • وبعد هذا التاريخ بأربعة قرون فقط نجد سترابو وهو يتحدث عن بابل كمدينة حطامات « مهجورة تماماً تقريبا »(16) •

وبعد مرور ألف عام ، وكلما تراكمت طبقات الاتربة فوق المدن القديمة بكثافة متزايدة ، كلما انمحت ذكراها تدريجيا • صحيح أن المؤرخين والجغرافيين العرب كانوا ما زالوا يعرفون أشياء عن ماضي العراق المجيد ، الا أن اوربا كانت قد نسيت الشرق تماما باستثناء رحلات « بنيامين اوف توديلا » (Benjamin of Tudela)(*) في القرن الثاني عشر ورحلات عالم الطبيعيات الالماني « راوفولف » (Rauwolff) بعده بأربعمائة سنة • ولم ينشط اهتمام الغرب بالآثار الشرقية قبل القرن السابع عشر الا بعدما أعد النبيل الايطالي « بيترو ديلافاله » تقريرا ممتعا عن رحلته عبر أرض وادي الرافدين جلبه معه الى اوربا عام (١٦٢٥ م) مع بضع آجرات وجدها في اور وبابل منقوشة « بكتابات ذات رموز مجهولة » ، على حد تعبيره • وبالتدريج ،

(*) بنيامين التطيلي •

فقد ازدادت أهمية وادي الزافدين كميدان يستحق التحري والبحث من قبل الاكاديميين والنبلاء على حد سواء ٠

وكان ملك الدنمارك اول من ارسل بعثة علمية الى الشـرق ، وصلت العراق عـام (١٦٩١ م) ، ولديهـا تعليمـات بجمـع اكبر قـدر ممكـن من المعلومات في مواضيع شتى بضمنها الآثار ٠ وقد عرضـت المخطوطات العديدة التي نقلها قائد تلك البعثة « كارستن نيبور » (Karsten Niebuhr) من برسيبولس على علماء اللغة الذين انهمكوا في حل رموزها ٠ ومنذ ذلـك التاريخ ولحد الان قام كل من زار وسكن الشرق من الغربيين باستكشاف الآثار وبجمع اللقيات واستنساخ المخطوطات ايضا ٠ ومن أكثر هؤلاء شهرة الفلكي والراهب الفرنسي جوزيف دي بوشان (Joseph de Beauchamp) (١٧٨٦ م) ، كـلوديوس جيمس رچ (Claudius James Rich) مقيم شركة الهند الشرقية والقنصل البريطاني العام في بغداد (١٨٠٧ م) ، سير جيمس بكنغهام (Sir James Buckingham) (١٨١٦ م) ، روبرت مينـان (Robert Mignan) (١٨٢٧ م) وجيمس بيلـي فـريزر (James Baillie Fraser) (١٨٣٤ م) وكذلـك هنري كروزويـك رولنسـن (Sir Henry Creswicke Rawlinson)(*) الضابط والمستكشف والفارس وعالم اللغة ، وهو الاعظم من بين كل هؤلاء ٠ ويجدر بنا كذلـك ذكـر البعثـة الحكومية البريطانية المسـماة « بعثة دجلـة ـ الفـرات » (١٨٣٥ــ١٨٣٦ م) برئاسة ف ٠ ر ٠ چزني (F.R. Chesney) الذي درس مسار النهرين وجمع ثروة من المعلومات عن المناطق المحيطة بهما ٠

وفيما عدا الحفرتين الصغيرتين اللتين حفرهما دي بوشـان ومينان في بابل ، فقد اقتصرت أعمال الباحثين الباقين على فحص وقياس الاطلال كمـا

(*)ولد عام ١٨١٠ وتوفي عام ١٨٩٥ نشر عدة كتب عن مدونات حجر بهستن ٠

شاهدوها ولم يتصوروا امكانية كشف النقاب عن حقيقة تلك « التلال المهجورة » ، على حد قولهم . بيد أن القنصل الفرنسي في الموصل پول أملي بوتا(**) (Paul Emile Botta) (الايطالي المولد) بدأ ، عام (١٨٤٣) اول التنقيبات الاثارية في خرسباد في العراق مكتشفا بذلك حضارة الآشوريين وفاتحا عصرا جديدا من الابحاث . واقتفى الانكليزي سير هنري لايارد (Sir Henry Layard) خطوات بوتا بسرعة عندما شرع بالتنقيب في نمرود ونينوى عام (١٨٤٥) وفي عام (١٨٧٧ م) قرر القنصل الفرنسي في البصرة « أميل دي سارزك » (Emile de Sarzec) التنقيب في تلوه قرب الناصرية ، اثر سماعه خبرا عن العثور على بعض التماثيل صدفة في ذلك الموقع ، فأكتشف السومريين . هكذا ، وفي غضون ثلاثين سنة فقط ، تم اكتشاف حضارة غير معروفة وسط دهشة العالم الذي أدرك أن وادي الرافدين يمكن أن يقدم كنوزا آثاريا لاتقل قيمة عن كنوز اليونان ومصر . كان بوتا ، لايارد ، سارزك ، نوفتوس (Loftus) ، سمث (Smith) ــ وهم رواد تلك الفترة البطولية ــ وبدون استثناء ، هواة بكل معنى الكلمة . فلم تكن لديهم الخبرة الكافية ولا كانت وسائلهم في البحث متطورة . كان هدفهم الوحيد اكتشاف النصب والتماثيل والمخطوطات وغيرها من القطع الفنية وارسالها الى متاحف بلدانهم . ولم يعر هؤلاء أدنى اهتمام بالآجر ولا بالفخاريات المهشمة ولم يضيعوا فيها كبير وقت ولكنهم مع ذلك افتتحوا طريق البحث العلمي وعملوا بنشاط واندفاع كبيرين رغم كل المصاعب .

وفي غضون ذلك ، انشغل في مكتبات اوربا رواد لا يقلون عن سابقيهم اندفاعا ويفوقونهم صبراً في المهمة الكبيرة وهي فك رموز الوثائق المكتوبة

(**) ولد في مدينة تورين (تورينو) الايطالية عام ١٨٠٢ وتوفي في عام ١٨٧٠ . وقد نقل الكثير من النفائس الآثارية العراقية الى فرنسا .

التى كانت تردهم بالآلاف • ان قصة تلك المغامرة الفكريـة ، التي استمرت مدة لا تقل على مائة عام واشترك فيها دارسون من عدة امم ، لا يمكـن ايرادها هنا ولا حتى باختصار(17) • مع ذلك فاننا نشعر بواجب ازجاء الشكر لرجال من امثال « گروتفند » (Grotefend) مدرس اللغة اليونانيـة في جامعة گوتنگن الذي قام بأول محاولة جادة وشبه ناجحة لقراءة الكتابـة الفارسية القديمة من رقعة مدونة بالخط المسمـاري استنسخها نيبور مـن برسيبولس ، ورولنسن الذي قام بين الاعوام (١٨٣٥–١٨٤٤ م) ، بالاضافة الى استنساخ نقش داريوس الطويل المحفور في أعلى سطح صخرة «بهستن» غربي ايران وتعريض حياته للخطر بأخذ مهمة ترجمته على عاتقه(***)• ولولا هذا النقش المكتوب باللغات الفارسية القديمة، البابلية، والعيلامية، والمسمى «بحجر رشيد الآشوري»، لكان من المتعذر التوصل الى قراءة تلك اللغات•ومن الذين يستحقون الشكر أيضا الانكليزي «ادورد هنكس» (Edward Hincks) وزميله الفرنسي « جول اوپرت » (Jules Oppert) وهمـا يستحقان ، بالاضافة الى زميلهما رولنسن ، لقب « الثالوث الكبير » في حقل المسماريات لانهم استطاعوا فك رموز القسط الاكبر من الخط المسماري ولانهم كانوا « فاتحي أوراق « كتب » الطـين المتربة المدفونة والمتناثرة في أرجاء الشرق الادنى القديم» على حد تعبير أحدهم(18) • ولقد بلغت عملية فـك رموز اللغة الآشورية ـ البابلية (التي تسمى الان باللغة الاكدية) ، التي بدأت منذ عـام (١٨٠٢ م) ، نهايتهـا الاكيدة عام (١٨٤٧ م) بحيث لم تحل سـنة (١٩٠٠ م) حتى أصبح بالامكان فهم اللغات الاخرى لوادي الرافدين القديم، وبضمنها اللغة السومرية ، بشكل كبير . ولا تملك اللغة الاكدية الان مـن الناحية العملية أية أسرار مغلقة بينما ما تزال هناك بعض الزوايا المعتمة فـي

(***) استنسخ رولنسن هذا النقش وهو معلق بحبل على ارتفاع (١٠٠ م) عن سطح الارض .

اللغات الاخرى وان كان بالمستطاع قراءتها بتأكد يتزايد على مر الايام • وفي متناول علماء الآثار اليوم حوالي ربع مليون رقيم ، وهو تخمين محافظ تماما(19) • وسوف تكتشف بالتأكيد كميات أخرى من الرقم يتعذر تخمينها الآن كلما استمرت قدما عمليات التنقيب الاثارية • وبوسعنا أن نقول في هذا الصدد ، وبدون مبالغة ، بأن ليس هناك أي بلد آخر في العالم استطاع تقديم مثل هذه الثروة من المخطوطات المحتفظة بنفس أشكالها الاصلية المكتوبة قبل آلاف السنين •

وبدخول العلماء الالمان مسرح التنقيبات الآثارية في المنطقة ابتدأت مرحلة جديدة من اعمال التنقيب • فقد أوجد « روبرت كولدڤي »— (Robert Koldewey) في بابل (١٨٩٩—١٩١٧ م) و « ڤالتر أندراي » في آشور (١٩٠٣—١٩١٤ م) تكنيكا صارما يصل حد الوسواس (شدة التدقيق في التفصيلات) في حقل معرفة (علم الآثار) كان الحظ والالهام هما الامرين السائدين فيه • وسرعان ما جرى تبني الطريقة الالمانية السابقة من قبل المنقبين الآخرين فشهدت السنوات العشرين الممتدة بين الحربين العالميتين ما يمكن اعتباره أحد أكثر الفترات ازدهارا في تاريخ البحوث الآثارية في وادي الرافدين • آنذاك كان « وولي » (Woolley) ينقب في اور ومقبرتها الملكية الفخمة (١٩٢٢—١٩٣٤ م) في نفس الوقت الذي كان فيه « هاينرخ » (Heinrich) وجماعته يشتغلون في اوروك ، بالاضافة الى « پارو » (Parrot) (*) في ماري، والانكليز في العبيد ونينوى والاربچيه وشغر بازار، والامريكان في تبه گوره ونوزي وفي حوض ديالى ، كما اشترك الانكليز مع الامريكان في التنقيب بموقعي كيش وجمدة نصر • وتم « فتح » التلول الصغيرة والكبيرة الواحدة تلو الاخرى وسبرت أغوارها • وتوصل هؤلاء

(*) اندريه پور احد علماء الآثار الكبار في قرننا الحالي . عمل مديرا لمتحف اللوفر بباريس .

الى تحديد الخصائص الاساسية لتاريخ وادي الرافدين قطعة فقطعة وتم الكشف عن حضارات رائعة سادت في فترات ما قبل التاريخ تلقي الضوء على المصادر الحضارية لذلك الجزء من العالم •

وفي غضون ذلك ، بزغ العراق كدولة مستقلة واصبح لبغداد متحفها الخاص • كما تم تدريب منقبي آثار عراقيين شباب لتستمر التنقيبات دون توقف حتى أثناء الحرب العالمية الثانية ولتقدم ثمارا رائعة في العقير (١٩٤٠ ــ ١٩٤١ م) وفي حسونه (١٩٤٣ــ١٩٤٤م) وعقرقوف (١٩٤٣ــ١٩٤٥ م) • وبعد انتهاء الحرب ، أستؤنف العمل من قبل الالمان : « لنتزن » (Lenzen) في اوروك والامريكان : « هانيس » (Heines) وماكـاون (MacCown) في عاصمة سومر الدينية نفر ، اضافة الى الفرنسيين : « پارو » (Parrot) في ماري عاصمة الفرات الاوسـط • كما قـام « مالاوان » (Mallowan) لصالح المتحف البريطاني ، باعادة سبر أغوار نمـرود العاصمة العسـكرية الآشورية التي لم يمسها أحد من المنقبين مدة تنيف على سبعين عاما • ونقب « ستن لويـد » (Seton Lloyd) وطه باقر وفؤاد سفر في ثلاثة مواقع جديدة لصالح المتحف العراقي وهي أريدو ــ أحد أقدم المدن المقدسة في العراق ــ وحرمل ــ وهو تل متواضع غني بشـكل غير متوقع بالنصوص المهمة ــ والحضر وهي العاصمة لمملكة عربية ما قبل اسلامية • كما اشترك اليابانيون مؤخرا في التنقيب في الجزيرة والدنمـاركيون في حـوض الزاب ملتحقين بذلك بحقل معرفة كان للتعاون العالمي فيه شأن كبير على الدوام • وفي الوقت الذي تجري فيه كتابة هذه السطور تكون كـل المدن الرئيسية لوادي الرافدين القديم ، اضافة الى عدد من المدن الاقل شهرة ، قد جرى التنقيب فيها أو أن عمليات التنقيب فيها ما تزال مستمرة • الا أن هناك مايزيد على (٦٠٠٠) تل اثاري تمتد من طوروس الى الخليج العربي تنتظر بفـارغ الصبر معاول المنقبين وتقدم مجال عمل يكفي لاشغال عدة أجيال جديدة من

علماء الآثار • وعلى الرغم من اننا ، في بحثنا عن الماضي ، كنا نسير نحـو الخلف ابتداء من الآشوريين الى البابليين فالسومريين ومَنْ بعدهم مـن الشعوب غير المعروفة العائدة للالف الرابع والخامس ق • م ، الا ان العصر الحجري في العراق قد أصبح الان واضحا تحت ضوء البحث • وعلى الرغم من وجود بعض الثغرات التاريخية التى لا يمكن اغفالها ، الا انه قد أصبح من الممكن أخيراً كتابة « تاريخ » كامل للعراق القديم ابتداء من العصـور السحيقة جدا عندما اختار الانسان تلال وكهوف كردستان مكانا للعيش تاركا لنا أدواته المتواضعة المصنوعة من حجر الصوان المشظى ومقدما بذلك الدليل المادي على وجوده •

الفصل الثالث

من الكهف الى الحقل

لم تمض فترة تزيد على الاثنتي عشرة سنة عندما كانت الكتب الدراسية والمجلات العلمية كذلك تلتزم جانب الصمت حيال عصور ما قبل التاريخ في العراق (صدرت الطبعة الاولى لهذا الكتاب عام ١٩٦٤) ٠ وقد تركزت أعمال الآثاريين في هذا المجال على سهل وادي الرافدين الكبير حيث تقبع مخلفات عصور ما قبل التاريخ ـ ان كانت موجودة يوما ما ـ مطمورة تحت طبقة سميكة جدا من الترسبات ٠ وقد أعطتنا أعمق مستويات التلول المكتشفة مواد كافية لعلماء التاريخ للتعرف على خمسة أدوار حضارية متعاقبة تعود الى الفترة الشبيهة بالتاريخية ٠ وتعلن هذه الحضارة وتفسر ايضا قيام عصر فجر الحضارة السومرية الاكدية حوالي عام (٢٨٠٠ ق ٠ م) ٠ الا أن كل تلك الادوار الحضارية الخمسة تعود الى العصر الحجري الحديث والعصر المعدني ولا تغطي،في أفضل الاحوال ، اكثر من ألفي عام فقط٠أما عصر ماقبل

التاريخ الحقيقي ، العصر الحجري للعراق ، فلم يكن معروفا من الناحية العملية . صحيح أن بعض أحجار الصوان قد وجدت على السطح في عدة مناطق من العراق وأن الاستاذة « د . أ . ي . گارود » (D.A. Garrod) — وهي عالمة آثار معروفة اشتهرت بدراستها لفلسطين في عصور ما قبل التاريخ — قد زارت كردستان العراق ووجدت ملتقطات تعود للعصر الحجري القديم في كهفين قرب السليمانية ، لكن هذه الاكتشافات أثارت اهتماما قليلا خارج نطاق دائرة ضيقة من الاختصاصيين . ولقد مرّ عقدان من الزمن قبل أن يقوم الاستاذ « ر . ج . بريدوود » (R.J. Braidwood) بنشر معلومات كافية عن ذلك الموقع الذي يعود الى العصر الحجري الحديث مثيرا ما يكفي من الاهتمام للتحفيز على قيام بحوث اضافية في هذا الحقل المنسي منذ زمن طويل . ومنذ ذلك الوقت ساهمت التنقيبات الآثارية الامريكية في برده بلكه ، پالي گوره وكريم شهر (عام ١٩٥١ م) وخارطة « مسح حوض الزاب » التي قام بوضعها « المعهد الشرقي » لجامعة شيكاغو بين عامي ١٩٥٤ — ١٩٥٥ م ، والاكتشافات المدهشة التى قام بها د « سوليكي » (Dr. R. Solecki) في كهف شانيدار — التي بدأت منذ عام ١٩٥١ م — في زيادة معلوماتنا كثيرا عن ماضي العراق الاقدم وملأت ثغرة مهمة في تاريخ الشرق الادنى كان وجودها مدعاة للاسف العميق .

ولكي نجعل وصفنا لهذا التطور الجديد في آثاريات وادي الرافدين أكثر وضوحا ، أجد من الضروري أن أتحدث عن المصطلحات الفنية التي يستخدمها المختصون بدراسة عصور ما قبل التاريخ(1) .

ويتزامن العصر الحجري القديم او ما يعرف بالمصطلح « پاليولثك » مع العصر الجيولوجي المسمى بلايستوسين (Pleistocene) لان علماء الجيولوجيا يعتبرون هذه الفترة أحدث فصل في التاريخ الطويل للارض . وقد شهد العصر

الحديث الاقرب ، الذي بدأ قبل حوالي نصف مليون سنة وانتهى حوالي عام (١٠٠٠ ق ٠ م) ، على الاقل في منطقة اوراسيا(*) وشمال أمريكا ، أربع فترات جليدية وسيطة لا تقل عنها عمراً ويفترض ، بصورة عامة ، أن الزحف الجليدي الذي كان يغطي النصف الشمالي من الكرة الارضية قد تزامن مع فترات أمطار غزيرة جدا متداخلة أيضا عمت المناطق المدارية ٠ وكانت الامطار الغزيرة والزحف الجليدي يظهران ويختفيان تدريجيا تتوسطهما مناخات أكثر دفئا أو جفافا بصورة نسبية ٠ ولتأرخة هذه الفترة يمكن الرجوع الى هذه الارقام التي اقترحها الاستاذ « ف ٠ ي زيونر » (F.E. Zeuner) ‏(2): ٠

العصر الجليدي الاول ٠ بدأ قبل حوالي (٦٠٠٠٠٠) عام ٠

العصر الجليدي الثاني ٠ بدأ قبل حوالي (٥٠٠٠٠٠) عام ٠

العصر الجليدي الثالث ٠ بدأ قبل حوالي (٢٥٠٠٠٠) عام ٠

العصر الجليدي الرابع ٠ بدأ قبل حوالي (١٢٠٠٠٠) عام وانتهى حوالي عام (٢٠٠٠٠ ق ٠ م) ٠

وخلال هذا الوقت ، وجد الانسان لاول مرة على سطح الارض يسكن العراء مرة ويلتجيء الى الكهوف مرة أخرى معتمدا في عيشه على الحيوانات يصطادها والفواكه البرية وجذورها التي قام بتجميعها ٠ وتتعرف على وجود « انسان » هذه الفترة من الادوات التي صنعها من الحجر أو العظام أو العاج ٠ ويعتبر مؤرخو عصور ما قبل التاريخ أن الادوات التي توجد في موقع معين تشكل «صناعة» وأن الصناعات المتشابهة تسمى «دوراً حضاريا» ٠ ويعطى كل دور حضاري اسماً مستقى من الموقع الذي اكتشف فيه لاول مرة أو الموقع الذي تم تحديده بواسطته ٠ وبصورة عامة ، فقد كان هناك اتجاهان

(*) اوربا وآسيا ٠

في صنع الادوات الحجرية وتشكيلها • فامـا أن يجـري تحويل نواة حجر الصوان أو حجر « الشرت »(**) بتشطيتها الى أشياء بيضوية الشكل الى حد ما ، أو يجري تحويل قشور هذه الاحجار بفعل الطرق الماهر الى مكاشط، سواطير ، مناقيش ، أسنة وما شاكل • ولكن التمييز بين حضارات « اللب » وحضارات « القشرة » هي ، على أية حال ، عملية نظرية أكثر من كونها حدا واقعيا فقد وجد في العديد من المواقع أن كلا من هذين التكنيكين قد مورس في نفس الوقت •

ويقسم العصر الحجري القديم « پاليولثك Palaeolithic » الى ثـلاث فترات ثانوية تسمى بالعصر الحجري القديم الادنى «Lower» والاوسـط «Middle» والاعـلى «Upper»

وتشكل ثلاث حضارات بدائية رئيسية هي الحضـارة الابيڤيليـة Abbevillian ، « الكلاكتونية Clactonian » و «الآشولية Acheulian في اوربا ، العصر الحجري الادنى الذي يمتد من العصر الجليدي الاول الى العصر الجليدي الاوسط الثالث ، وتغطي فترة تتراوح بـين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف عام • ولقد كانت تلك الحضـارات في الاساس ، حضارات « فؤوس يدوية » تختلف عن بعضها باستخدام التكنيك اللبي أو القشري وبتفاصيل ثانوية أخرى ايضا لاتهمنا الان • وتشبه الآثار البشرية المرتبطـة بهذه الحضارات ، بادىء ذي بدء ، مخلوقات شبه ـ قردية وان كان الانسان الحقيقي الذي لا يختلف كثيرا عن « الانسان العاقل Homo Sapiens » قد ظهر في الفترات المتأخرة منها •

ومن تكنيك عصر الحضارة القشرية ، انحدرت الحضارتان «اللفالوزيه و « المستيريه Mousterian » اللتان تميزان العصر الحجري الوسيط (النصف

(**) حجر الشرت (chert) حجر صلد يتكون اساسا من « كريتوكرستالاين كـوارتز » •

الثاني من العصر الجليدي الاوسط والثالث ولغاية نهاية العصر الجليـدي الرابـع) ٠ كان ذلك هو عصر سكان الكهوف وافضـل من يمثلهم هـو «انسان النياندرتال Neanderthal » المتوحش المنقرض الان ٠

ان الخصائص الرئيسية للعصر الحجري الاعلى ، الذي بدأ قبل حوالي ٣٥ الف عام ، تكمن في تزايد تعقيد وتنويع التكنيك القشري (الاورغنيشيه «Aurignacian» وأنواعها « الچاتلپيرونية (Chatelperonian) والغرافيشية (Gravettian) اضافة الى « السوليتيرية (Solutrean) والمگدلينيـة (Magdalenian) في اوربا الغربية) ، وتطوير أعمال العاج والعظام والقرون واتجاهات التعبير السحري ـ الجمالي في رسوم الحجر خصوصا في الحضارة المگدلينية الرائعة في فرنسا وأسبانيا ٠ ان المهارة التي امتلكتها أجناس متعددة من الانسان العاقل الكامل التطور والمتجول في اوراسيا وشمال أفريقيا بحثاً عن الطعام أدت في النهاية الى تشكيل عـدد متزايد من الادوات الصغيرة والاسلحة ، كما اندمجت تدريجيا صناعات النصول للعصر الحجري الاعلى في حضارات المايكرولثـك (Microlithic) (الكابسـية «Capsian» في أفريقيا والازيليه «Azilian» والتاردينوازيه «Tardenoisian» في اوربـا الغربية) التي تعود الى العصر الحجري الوسيط ميزولثـك (Mesolithic) وأخيرا فان اكتشاف الزراعة وتدجين الحيوان يؤشر بداية العصر الحجـري الحديث « النيوليثي » (Neolithic) ومن المعلـوم ان الاكتشـاف الآنف الذكر ـ الذي يعتبر بحد ذاته ثورة عظيمة ـ لم يصل أوربا حتى حـوالي عام (٣٠٠٠ ق٠م) بعدما كان قد تأصل في منطقة الشرق الادنى قبل ذلـك التاريخ بوقت طويل ٠

هذا هو الاطار الذي ينبغي علينا الان اذن ترتيب عصور ما قبل التاريخ في العراق داخلـه ٠

العصر الحجري القـديم في العراق

بالرغم من وجود بعض الشواهد التي تدلل على حدوث دورات زحف جليدي في جبال طوروس وزاگروس ، الا أن الطبقة الجليدية العظيمة التي اكتسحت معظم اوراسيا أربع مرات لم تتقدم أبدا أبعد جنوبا نحـو الشرق الادنى • وقد أدى هذا الى أن يتخذ العراق مركزا يتوسط المناطق المتعرضة الى المناخات شبه الجليدية والمناخات شبه المطرية • لذلك نجد ان التغيرات المناخية الجارية فيه خلال العصر الجيولوجي الپلايستوسيني لم تكن مؤثرة بالدرجة التي كانت عليها في الاقسام الاخرى من العالم • مع ذلك فـــان هاتين المنطقتين المناخيتين قد ساهمتا بصورة غير مباشرة بتشكيل خصائصه الفيزيوغرافية (اي الجغرافية ــ الطبيعية) • وكان تقلب مستوى مياه الخليج العربي تبعا لتغيرات النهر الجليدي القطبي يتميز بالارتفاع عندما ينســحب النهر الجليدي شمالا وبالانخفاض عندما يتقدم الاخير جنوبا مؤثرا بدوره على ضفاف الانهار ودرجة تعريتها • ومن الناحية الاخرى ، فقد تعاقبت أطوار مطرية مصحوبة بتعرية نشطة مع فترات جفاف تميزت بترسيب كميات هائلة من الطمى والحصى في قيعان الانهار • وقد أمكن تمييز أربع دورات مثـــل هذه تعاقبت على منطقة واحدة على الاقل من سفوح جبال كردستان(3) •وعلى الرغم من صعوبة تصور ذلك ، فقد مرت في الحقيقة عهود كانت فيها الانهار الكبيرة تنساب عبر صحراء بادية الشام كما كان دجلة والفرات نهرين واسعين جدا ، ربما بعرض نهر الامازون الان،كما كان الزابان ونهر ديالى يحملون مياها تزيد عشرة اضعاف على المياه التي يحملونها الان ويقطعون وديانا عميقـة وعريضة في حافات جبال كردستان • وخـلال معظم الفترة البلايستوسينية كانت الصحراء الغربية ومنطقة أقدام الجبال العراقية ، على التوالـــي ،

منطقة سهوب ومرتفعات استفادت من المناخ المعتدل نسبياً والثابت تقريباً مقدمة أحوالا جد ملائمة لوجود وازدهار انسان ماقبل التاريخ .

لم يعثر في العراق على اثار لحضارات خالصة تعود الى العصر الحجري الادنى لحد الان . وقد اكتشفت اكثر اثار الوجود البشري في العراق قدما عام (١٩٤٩ م) من قبل دكتور ناجي الاصيل ، الذي كان المدير العام لقسم الاثار في العراق ، في موقع برده بلكه الذي يبعد ميلا ونصف الميل شمال – شرق چمچمال ، بين كركوك والسليمانية(4) . فقد عثر على أدوات مصنوعة من حجر الصوان تعود الى العصر الحجري القديم ملقاة على الارض حول حجر المغليث النيوليثي الضخم(*) . ولدى اجراء عملية سبر أغوار اثارية في ذلك الموقع عام (١٩٥١ م) من قبل أستاذين أمريكيين، أمكن تتبع أصل تلك الادوات الى ما كان يوما ما عبارة عن « ورشة عمل » مفتوحة او « مكان تجمع » طمر تحت ترسبات طينية وحصوية يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة وخمسة أقدام(5) . وتتألف أدوات الصوان المكتشفة من فؤوس يدوية تشبه شكل القلب او اللوزة ومكاشط مصنوعة من قشرة حجر الصوان . كما وجدت فيه أيضا أدوات حصوية مصنوعة من حجر الكلس جرى تكويرها ثم أزيلت منها طبقتان قشريتان أو اكثر لاستعمالها للكشط . ولهذه « الصناعة » صلات وشيجة مع الحضارات الاشولية والتاياشيه (Tayacian) [وهي فرع من الحضارة الكلاكتونية] والمستيرية التي تعود الى بداية دور العصر الحجري الوسيط ، أي الى المراحل الاولى للعصر الحجري الاخير ، قبل حوالي (١٢٠٠٠٠) عام .

أما الخطوة الثانية في اكتشاف العصر الحجري الوسيط فتتمثل بالصناعة اللفالوزية – المستيرية الممتزجة المكتشفة عام (١٩٢٨ م) من

(*) حجر ضخم (megalith) خصوصا من النوع المستعمل في اعمال البناء القديمة او في البقايا غير المنحوتة للمواقع الحضارية البدائية .

قبل الآنسة دوروثي گارود في الطبقة الدنيا للكهف المظلم « هزار مـرد » الذي يبعد حوالي اثني عشر ميلا جنـوب السليمانية(6) • الا ان الحضارة المستيرية الحقيقية لم تصور بشكل أفضل في أي موقع اخر مثلما صورت في كهف « شانيدار » المنقب فيه عام (١٩٥١ م) من قبل دكـتور « ر • سوليكي » لصالح جامعة مشيگان(7) •

وكهف شانيدار ملجأ صخري يقع في خاصرة جبال برادوست يطل على وادي الزاب الكبير ولا يبعد كثيرا عن مدينة راوندوز الصغيرة • وما يزال هذا الكهف يستعمل لحد الان من قبل الرعاة الاكراد أبان فصل الشتاء • وبواسطة حفر أرضية استطاع دكتور سوليكي بلوغ عمق (٤٥ قدما) وتشخيص وجود أربعة مستويات استيطانية • ففي الطبقة (D) ، وهي أعمق وأسمك المستويات الاستيطانية الاربعة ــ يصل سمكها الى (٢٨ قدما)ــ أثبتت تراكمات متعاقبة من الرماد واماكن المواقد المحتوية علـى ادوات عظمية وصوانية أن هذا الكهف كان مسكونا في غضون فترات متعددة من العصر الحجري الوسيط • وتتألف المخلفات الفنية الحجرية من مسنـات ومكاشط ومثاقب تعود الى الحضارة المستيرية في طورها الاخير • أمـا العظام فتعود الى ثيران وخرفان وماعز وتعطي انطباعا عن توفر مناخ معتدل البرودة • كما وجدت ايضا عدة تروس سلحفاويـة • وتثير الهياكل العظيمة البشرية الاربعة اهتماما خاصا • أكتشفت هذه الهياكل في الطبقـة (D) وتعود الى طفل لم يتجاوز عمره الستة اشهر (اكتشف عام ١٩٥٣ م) والى ثلاثة رجال بالغين اكتشفت هياكلهم بين الاعوام ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧) •

كانت عظام الطفل واثنين من الرجال في حالة سيئة الا ان جمجمـة الهيكل العظمي الرابع ــ وتعود الى رجل عمره ٣٥ سنة وطوله خمسـة أقدام وثلاثة انجات ــ أمكن ترميمها الى درجة مناسبة من الدقة(8) • وتصور لنا هذه الجمجمة كل خصائص انسان « النياندرتال » بعظامه السميكة وفكه

الضخم العديم الذقن وجبهته المائلة وكذلك بحافات حواجبه البارزة ، مما يغرينا بالاعتقاد بأن البشر الاخرين المعاصرين له كانوا من نفس هذا الجنس • واستطاع الدكتور د • ت • ستوارت (Doctor D.T. Stewart) الذي قام بفحص تلك المخلوقات ، أن يشخص كون احد أذرع انسان شانيدار ، المشلول منذ الولادة ، قد بترت جراحيا بواسطة نصل صواني خشن(9) • ويبدو ان جميع هؤلاء الاشخاص الاربعة قد قتلوا اثر سقوط كتل حجرية كبيرة من سقف الكهف في فترات مختلفة • ويعتقد ان عمر ثلاثة من تلك الهياكل يعود الى ما قبل حوالي (٤٥٠٠٠) عام ، بينما يمكن ان يكون عمر الهيكل الرابع (٦٠٠٠٠) سنة حيث وجد في مستوى اوطأ ••

وتنقلنا الطبقة (C) من كهف شانيدار الى العصر الحجري الاعلى بشكل واضح تماما • فبواسطة اختبارات وجود عنصر الكربون (١٤) التي أجريت على النباتات المتفحمة في مواقد هذه الطبقة أمكن تثبيت الحدين الادنى والاعلى لعمرها • وقد وجد ان الحد الاعلى ينيف على (٣٤٠٠٠) عام ولا يقل عمر حدها الادنى عن (٢٥٥٠٠) عام • اما الادوات الحجرية فقد صنعت وفق الاسلوب « النصلي » الذي تتميز به الحضارة الاورغنيشية • ولتواجد بعض المنحوتات المصنوعة بعناية وبأشكال غريبة فقد اقترح لها الدكتور سوليكي اسم برادوست او المنحوتات البرادوستية نسبة الى أسم الجبل الذي وجد الكهف فيه • وفي الجزء العلوي من الطبقة (C) وفي معظم الطبقة (B) التي تليها وجدت نماذج من نفس تلك الصناعة مع ميل لتصغير الاعمال الفنية (العصر المايكروليثي) • وتتواجد الحضارة الاورغنيشية المتأخرة هذه ــ او ربما الكرافيشية الممتدة ــ في عدة مواقع حجرية قديمة في شمال العراق • فقد وجدت مكاشط دائرية ونصول سكاكين صغيرة ، اضافة الى أدوات أخرى ، بكميات كبيرة في كهف زرزي قرب السليمانية ــ عثرت عليها الانسة گارود ــ وفي كهف

بالي گوره شرق چمچمال ـ من قبل «ب • هو» (B.Howe) (10) • وتظهر كذلك في عدة كهوف استكشفت من قبل الاستاذ « بريدوود » ومساعديه بين الاعوام (١٩٥٤ـ١٩٥٥) ، خصوصا في كهفي كايوانيان وبـــراك الواقعين غرب وجنوب راوندوز(11) • ويبدو أن قسما من تلك الادوات على الاقل يمكن ان يكون قد استعمل كأسلحة لقتل الجياد البرية ، الغزلان ، الماعز ، الايائل ، الغنم ، او الخنازير التي عاشت انذاك في منطقة شبه باردة وجافة •

لم يكن انسان العصر الحجري القديم العراقي وحيدا • فمن خلال الصحراء السورية ـ حيث وجدت أعمال هذا الانسان في عدة مواقع ـ كان على اتصال بانسان العصر الحجري القديم في منطقة سوريا ـ فلسطين ، وفي الحقيقة ، لم تكن الصناعات الصوانية في هذين البلدين متشابهة في بعض التفاصيل بفعل عامل الصدفة فقط • كما كانت لهذا الانسان علاقات تجارية مع انسان شبه جزيرة الاناضول والمرتفعات الايرانية • فالمواد التي وجدت في كهفي شانيدار هزارمرد على سبيل المثال تشبه تقريبا تلك التي وجدت في كهف « بسيتون » غرب ايران وتتشابه ايضا في تفصيلات كثيرة مع المواد التي عثر عليها في كهف «گوراين» في تركيا • وقد صنع انسان شانيدار بعض أدواته من الحجر الاوبسيدي (زجاج بركاني) وأقرب مصدر له يقع في منطقة بحيرة « وان » في أرمينيا • وفي الحقيقة فان تقنيات الصناعات الحجرية قد انتقلت من مكان لاخر حتى بلغت قارة اوربا ، اذا اخذنا بالمصادر القائلة بأن الحضارة الاورغنيشية قد تفتحت اولا في منطقة الشرق الادنى • الا ان كردستان العراق ، وبسبب موقعها شبه المعزول في زاوية الهلال الخصيب ، حافظت على مميزاتها الخاصة بها • فطبقا لرأي سوليكي ، فأن الصناعة البرادوستيه تعتبر صناعة متفردة في الشرق الادنى كما ان انسان شانيدار لا يبدو أنه قد اختلط مع غيره او تطور الى مرتبة

الانسان العاقل كالاخرين بل انه بقي « محافظا » في تطور خصائصه الجسمية • واخيرا فان الحضارتين السولتيرية والمكدلينية ، اللتين أعقبتا الحضارة الاورغنيشية في اوربا وازدهرتا في العهود الحجرية القديمة المتأخرة ، لم تصلا أرض العراق أبدا ولا اي جزء اخر من اسيا الغربية • ففي هذه البلدان ، حصل الارتقاء من العصر الاورغنيشي الى العصر الميكروليثي (الميزوليثي) بشكل مباشر ، كما لم تكن الفترة الميزوليثية (العصر الحجري الوسيط) لتبتعد اكثر من خطوة قصيرة عن عصر الثورة النيوليثية (العصر الحجري الحديث) •

العصر الحجري الوسيط والحديث

تكشف المواد الدقيقة (المايكروليثيات) ــ تلك القشور الحجرية الصغيرة المصنوعة بأشكال لا حصر لها ــ عن مرحلة من التطور البشري أصبح فيها الانسان مجدا بما يكفي لانجاز أعمال دقيقة وذكيا بدرجة تؤهله لاكتشاف امكانية صرع فريسته عن بعد بواسطة السهام • ويظهر ان الحضارات المايكروليثية في الشرق الادنى قد انحدرت تدريجيا من صناعات النصول في العصر الاورغنيشي المتأخر • وقد تم ذلك ببطء شديد بحيث يصعب عمليا تثبيت نقطة ابتداء فترة العصر الحجري الوسيط بشكل دقيق • ويمكن ، عند الحاجة الى تواريخ ، اعتبار عام (١٠٠٠٠ ق • م) ــ وهو عمر الحد الاسفل للطبقة (B) في كهف شانيدار كما حددتها اختبارات الكربون المشع ــ كتخمين محتمل •

ومن الصعب ايضا تحديد تاريخ انتهاء العصر الحجري الوسيط • فبشكل او باخر تصبح عملية التفريق بينه وبين العصر الذي يليه ــ وهو العصر الحجري الحديث ــ مسألة مطاطية • ففترة العصر النيوليثي ، التي انتهت مع اول ظهور للمعادن ، بدأت بثورة في نشاطات الانسان في حقل

الاقتصاد كزراعة النباتات وتدجين الحيوانات ولم تقترن باستحداث تقنيات جديدة في الصناعات الحجرية حيث بقيت الادوات المايكروليثية تستخدم من قبل مزارعي العصر الحجري الحديث فترة طويلة جدا قبل ان تختفي تماما بشكل نهائي . وبالاضافة الى ذلك ، فاننا لا نستطيع ، اعتمادا على المواد التي في متناولنا ، تحديد تاريخ التحول المنطقي من اقتصاد « جمع القوت » الى اقتصاد « انتاج القوت » بصورة دقيقة . فبوسع المرء دائما المجادلة بأن المجرفة يمكن ان تستخدم لاجتثاث النباتات من الجذور اضافة الى امكانية استعمالها في الحراثة ؛ وان المناجل تستعمل لحصاد الحبوب التي تنمو طبيعيا او الحبوب المزروعة ؛ وان المطاحن اليدوية والهاونات تستعمل لطحن الحبوب البرية وربما ايضا لطحن الاصباغ مثلا . ولا يسهل دائما تقرير كون عظام الاغنام والماشية تعود في حقيقة الامر الى حيوانات برية أم حيوانات مدجنة . ولدى أخذ كل هذه الاحتمالات بنظر الاعتبار ، لايبقى سوى تواجد مواقع الاستيطان الدائمية دليلا تتخذه معيارا صحيحا في هذا الصدد لان الزراعة تربط الانسان بالارض . هنا ايضا يصعب في بعض الاحيان رسم خط تمييز ثابت بين الاكواخ الحجرية للصيادين الذين كانت الزراعة تمثل عندهم نشاطا عرضيا وبين الحقول التي تعود الى مزارعين مستقرين تماما .

والذي يبدو واضحا من الدلالات المتوفرة الان ان الثورة النيوليثية قد حدثت بخطوات متسارعة في منطقة الشرق الادنى في وقت ما حوالي عام (٧٠٠٠ ق . م) ، أي بوقت مبكر بالنسبة الى أية منطقة في العالم ، ربما لان الشرق الادنى قدم أفضل الظروف المناخية الملائمة وكان البقعة الوحيدة في العالم القديم التي نمت فيها حبوب الحنطة والشعير البرية . أما أين تم اختراع الزراعة بالضبط ، فتلك مسألة لم يتم حلها بعد لان كلا من العراق وفلسطين يمكن ان يدعي حاليا بأنه قد امتلك « أقدم القرى الزراعية طرا » .

ويمتاز العراق عن فلسطين في هذا الشأن بامتلاكه أربعة مواقع يقع كل منها قرب الاخر في شماله الشرقي وتصور بمجموعها نقطة التحول من العصر الحجري الوسيط الى العصر الحجري الحديث بشكل قاطع .

واول هذه المواقع هي الطبقة (B) من كهف شانيدار التي قدمت لنا صوانا مايكروليثيا وأدوات اوبسيدية(*) مشظاة بدقة ومهارة عاليتين بالاضافة الى المطارق والمساحي الحجرية وباختصار فاننا نواجه هنا كهفا ميزوليثيا تقليدي المميزات لا تتواجد فيه اية مؤشرات قاطعة لنشاط زراعي قائم .

اما الموقع الثاني ، كريم شهر الكائن شرق چمچمال بستة أميال ، فانه يغطي مساحة أيكرين(**) ويؤلف مستوى استيطانيا واحدا مطمورا تحت سطح الارض(12) . وقد عثر فيه على أحجار صوان مصنعة وفق النمط المايكروليثي لها صلة بعدة اشياء يمكن اعتبارها أدوات زراعية كالنصول والمناجل الصوانية، المجارف الحجرية المشظاة وأحجار الطحن أيضا . ووجد في هذه المواقع ايضا رصيف حصوي غير اعتيادي يمتد فوق المنطقة بكاملها ويوحي بأرضية لاكواخ معينة وان كانت خرائطها السكنية لم تكتشف بشكل مميز . واذا كان موقع كريم شهر مركز سكن شبه بدوي مثلما يعتقد ، فأنه يمثل في الحقيقة مرحلة جد مبكرة من التطور نحو حياة الاستيطان المستديم .

ويمكن ان يكون الموقع الثالث منطقة استيطان لنوع اخر من « الجماعة الزراعية» المستقرة ،الا وهو موقع «ملفعات»(13) . ففي هذا المرتفع الصغير قرب طريق كركوك ـ اربيل ، وجدت تجاويف لدور صنعت من الحجارة المراكمة وجرى رصف أرضيتها بالحصى وتحيط الاسيجة ببعض منها . وتتألف الادوات المكتشفة فيها من أزاميل وهاونات حجرية في الاغلب .

(*) الحجر الاوبسيدي زجاج بركاني لونه جد غامق ويحتوي شروخا محاربه .
(**) يساوي الايكر نحو أربعة آلاف متر مربع (٤٨٤٠ ياردة مربعة) .

وتفصل ثغرة حضارية لا يعرف أمدها بين « ملفعات » والموقع الرابع «جرمو» الذي لا يبعد كثيرا عن جمجمال وقد قام بالتنقيب في جرمو الاستاذ «ر • ج • بريدوود» من جامعة مشيگان الامريكية (عام ١٩٤٨ ، وبين عامي ١٩٥٠–١٩٥١ م)(14) • يقع التل الذي يبلغ ارتفاعه (٢٣) قدما في قمة جبل شديد الانحدار ويتكون من خمس عشرة طبقة سكنية متعاقبة • وتتميز عشر من تلك الطبقات بعدم وجود الفخاريات وتعود الى نفس المستوى الحضاري النيوليثي ماقبل الفخاري عاش سكان جرمو في بيوت مربعة مزدوجة الغرف مبنية من الطين المضغوط مع وجود افران طينية وأحواض مفخورة ومغطسة في الارض • ويبدو انهم كانوا يتناولون طعامهم بملاعق عظمية ويخيطون ملابسهم بابر من العظام ايضا • وترينا الفلكات المغزلية الحجرية أنه كان بامكانهم حياكة وضفر خيوط الكتان وربما خيوط الصوف ايضا • وكانوا يستعملون ادوات نصلية مايكروليثية ، مع أدوات اخرى طبيعية الحجم مصنوعة من حجر الصوان او الحجر الاوبسيدي ، خصوصا المناجل المصنوعة من الصوان والمثبتة بالقار الى مقابض خشبية • ولكن معظم المواد الكبيرة المنتشرة في الغرف ، كالفؤوس والمزاميل والهاونات والمجارش والسنديانات والمدقات ، استعمل في صنعها حجر الكلس المصقول بشكل جميل • ان تلك المواد ، اضافة الى حبوب الحنطة والشعير المتكربنة (المتحولة الى كربون) لاتدع أي مجال للشك فيما يتعلق بالنشاطات الزراعية التي مورست في جرمو • ومما يعزز هذا الرأي كون (٩٥٪) من عظام الحيوانات المكتشفة فيه تعود الى حيوانات داجنة كالخرفان والكلاب والخنازير والابقار • كان سكان جرمو يزينون أنفسهم بقلائد بسيطة مصنوعة من الطين او الحصى وبأساور رخامية أو محارية مخددة (رسمت عليها أخاديد) ويدفنون موتاهم تحت بيوتهم • كما كانوا يشكلون أجساما طينية للحيوانات وللمرأة الحامل « الالهة الام » التي يفترض

انها كانت تجسد لهم القوى المجهولة للولادة. وقد أرخت جرمو ماقبل الفخارية بواسطة اختبارات الكربون المشع على صدف القواقع بحوالي عام (٤٧٥٠ ق . م) ؛ الا ان اختبارات اضافية على الفحم أعطت ارقاما اكبر . ويعتبر الاستاذ بريدوود ان عام (٦٥٠٠ ق . م) هو التاريخ الاكثر احتمالا لها(15) .

وهكذا نرى ان شمال العراق كان مسرحا للثورة النيوليثية ـ وهو اهم العصور ـ قبل ان تهب رياحها على اوربا بثلاثة الاف وخمسمائة سنة. فعلى سفوح جبال كردستان ، التي ترويها الامطار الاطلسية كل شتاء ، كف الانسان أن يكون صيادا متجولا ومعتمدا على مهارته وحظه في كسب قوته فأصبح مزارعا مرتبطا بقطعة أرض صغيرة يحصل منها على غذائه المعتاد . ومن الطين بنى بيته واخترع أدوات جديدة لانجاز انواع جديدة من الاعمال . ومن الخراف والماشية أمن مصدرا سهلا ودائما للحليب واللحم والصوف والجلد . وفي نفس الوقت تطورت توجهاته الاجتماعية لان زراعة الارض والدفاع عنها يستلزم تعاونا اجتماعيا وثيقا . ولقد كانت كل عائلة تتكفل بانشاء حقل لها باستنباته وترعى قطيعها اضافة الى صنع أدواتها بنفسها . الا ان عدة عوائل ما لبثت ان تجمعت مع بعضها لتكون دسكرة هي جنين المنظمة الاجتماعية . وستحصل بعد ذلك ثورات اخرى فيحل المعدن محل الحجر وتتحول القرى الى « مدن » ثم تتحد هذه الاخيرة مع بعضها مكونة « ممالك » ما تلبث ان تصبح « امبراطوريات » غير ان أسس الحياة الجوهرية وعمل الانسان المنحني الى ارضه الام تحت رحمة الفصول لم تتغير منذ تلك الايام البعيدة .

ان غياب المواد الفخارية في عشر من خمس عشرة طبقة تميز جرمو كموقع لواحدة من أكثر الجماعات الزراعية بدائية ، وكاستثناء أصيل للمواقع النيوليثية الاخرى المكتشفة في غرب آسيا لان كلا منها قد اعطى من الناحية العملية شكلا او آخر من اعمال السيراميك فيما عدا الاستثنائيين الاخرين

اللذين يستحقان الاهتمام وهما « چتل » و « هيول » في الاناضول و «جريكو»(*)قرب البحر الميت على بعد ستمائة ميل من جرمو . وقد قامت الانسة « كاثلين كنيون » (Kathleen Kenyon) بالتنقيب حديثا في موقع سكن كبير يعود الى العصر النيوليثي ماقبل الفخاري في جريكو التي بنيت دورها باللبن كما بني حائط المدينة القوي بالحجارة غير المتداخلة[16] . ويبدو ان موقع جريكو أقدم من جرمو لو قبلنا بالرقم (٦٨٠٠) سنة ق . م كتاريخ محدد له والذي استنتج بواسطة اختبارات الكربون المشع على المواد المكتشفة فيه . وعلى أية حال فان الموقعين لا يتشابهان الا قليلا ولا يمكن التعرف على اي تأثير لاحدهما على الاخر . وعلى هذا يبدو ان الثورة النيوليثية قد قامت في أزمان مختلفة وبأشكال متباينة بعض الشيء ، في عدة مناطق من الشرق الادنى .

ان كسر الفخار التي عثر عليها في الطبقات العليا من جرمو واواني خزن الحبوب المكتشفة في تل حسونة وآنية الحليب وصواني نزع قشرة الحبوب المكتشفة في تل مطارة[17] هي الامثلة الاولى لاخر ما اخترعه الانسان النيوليثي . وكما يمكن ان يتوقع المرء ، فان كل هذه الفخاريات تهدف الى تطمين حاجة نافعة فحسب فهي خشنة وسيئة الشوي وسهلة الكسر وسمجة الا ان الحاجة اليها كانت تتعاظم دوما . ولم يتباطأ كوازو الشرق في تطوير صنعتهم كما دفعتهم القدرة الابداعية المتميزة لفنهم الى استخدام أنماط متنوعة من النقوش والتزيينات . ان الفخار المطلي والمصقول والمنقوش الذي سرعان ما سيظهر في معظم المواقع النيوليثية للشرق الادنى والاوسط لا تتبلور فيه قيم فنية عالية ولا يمثل تقدما حضاريا مهما ولكنه كان في نفس الوقت ذا فائدة كبيرة لعلماء الآثار لانه يؤشر لهم بداية عصر جديد . ويلعب الفخار

---

* (Jericho) مدينة فلسطينية قديمة تقع شمال البحر الميت وعلى اطلالها تقع الان مدينة اريحا .

المنقوش والمزين ــ الذي يمكن تميزه بسهولة اكثر من الفخار غير المنقوش ــ في علم الاثار نفس الدور الذي لعبته المستحاثات(*) فيعلم الجيولوجيا، فهو بمثابة العلامة المميزة للادوار الحضارية لعصور ما قبل التاريخ المتأخرة ويعاوننا في جهودنا لاعادة تركيب النموذج المعقد للتحركات العرقية والوشائج الحضارية العميقة التي تملأ تاريخ الالفي سنة القادمة في عصور ما قبل التاريخ لارض وادي الرافدين •

(*) المستحاثات (fossils) اية بقايا ، او طبعات ، او آثار حيوانية او نباتية عائدة الى عصر جيولوجي سابق .

الفصل الرابع

من القرية الى المدينة

هكذا رأينا كيف ان سفوح جبال زاگروس وحوض دجلة شمال العراق قد اصبحا مركزا لاستيطان المزارعين والرعاة في العصر الحجري الحديث منذ (٥٠٠٠) سنة ق . م . وقد عاش انسان ذلك العصر في قرى صغيرة بنيت دورها من الطين المضغوط واستخدم الادوات الحجرية ومارس سحر عصره الحجري ، متجمعا ، كما يبدو في وحدات اجتماعية مستقلة نادرا ما تزيد على العشيرة او العوائل الكبيرة . بعد هذا التاريخ بألفي عام تقريبا ، يبدأ التاريخ في القسم الاخر من العراق ، أي بين وادي دجلة والفرات الجنوبي حيث نواجه مجتمعا منظما ومعقدا بشكل راق ، فينقسم البلد بين دويلات عديدة تتمركز في مدن كبيرة نوعا ما سيدها اله يحكم بواسطة أمير يختاره . وأنتجت الزراعة المعتمدة على قنوات الري فائضا يكفي لاعاشة سكان آخرين من الكهنة المتفرغين والخدم والكتاب والفنانين ؛ فأكتشفت الكتابة واستخدمت في شتى الاغراض . وتظهر آثار العمارة والنحت وتصنيع المعادن

درجة التفنن الحرفي الذي يعكس قيما فنية نفيسة بشكل جلي تماما • أما الدين ، الذي أصبح يهيمن على الحياة الخاصة والعامة ، فقد كان يتمثل بالمعبد وهو مركز الثقل في اقتصاد كل دويلة • هذه هي باختصار الصورة التي قدمتها لنا الحضارة السومرية في بداية الالف الثالث ق • م • وغني عن القول أن العشرين قرنا التي تم فيها ميلاد وتكون هذه الحضارة تحتفظ بأهمية استثنائية وتستحق اهتماما وتمحيصا دقيقين •

ولا يمكننا هنا عرض قصة المرور من العصر الحجري الى ابواب التاريخ بشكل مفصل لان معلوماتنا عنها ما تزال جد ضئيلة • ولكننا نعلم علم اليقين أنها قد حدثت داخل حدود العراق نفسه • فبعد جهود اربعين سنة من التنقيبات الاثارية المضنية ، سقطت النظرية القديمة التي كانت تزعم بأن الحضارة السومرية قد تكونت في بلد مجهول بعيد وأنها قد صدرت الى العراق وهي ما تزال في عنفوانها الحضاري • فبوسعنا الان تتبع كل عناصرها واعادتها الى عصر او اخر من عصور ما قبل التاريخ داخل العراق نفسه • ويبدو أن بعضا من عناصرها قد دخل العراق بواسطة المحتلين الاجانب او بتأثيرهم كما كانت لعناصرها الاخرى جذور عميقة في ماضي هذا البلد السحيق بحيث يمكن اعتبارها أصيلة تماما • ولقد كانت الحضارة السومرية ، ككل الحضارات ، تناجا متمازجا تحدد شكله الى حد بعيد العناصر التي صبت فيه •

وسبب نقص الوثائق المكتوبة ، تبقى الشعوب التي كانت وراء هذا المشهد الرائع غير مسماة ففي الوقت الذي نعلم فيه بأن مجموعتين رئيسيتين مختلفتين لغويا — السومريين والساميين — قد تعايشتا في وادي الرافدين خلال العصور التاريخية المبكرة ، الا أننا لانستطيع اعطاء تأريخ أكيد لوقت ظهورهما والدور الذي لعبه كل منهما في ذلك التطور البطيء والمتقطع • كل ما نملكه لحل مشكلتنا هي البقايا العتيقة التي تتحدث عن نفسها بنفسها والتي

تكون قليلة الفائدة عندما يتعلق الأمر باعادة بناء الحوادث التاريخية والتحركات العرقية. ويبدو أن الفخار في هذا المجال هو من اكثر الآثار المتبقية فائدة حيث وجد بكميات كبيرة في كل المواقع الآثارية وهو يسمح بعقد الدراسات المقارنة . وعلى الرغم من ان التغيرات في اسلوب صناعة الفخار يمكن ان تكون وراءها أسباب عديدة ، أي أنها لاتعني بالضرورة تغيرا في طبيعة السكان ، الا أن أنواع السيراميك المختلفة تلقي ضوءا يمكن الاعتماد عليه لتحديد العلائق بين الحضارات المختلفة . ولا يجب نسيان حقيقة أن العراق القديم لم يكن بلدا اكثر انغلاقا من العراق الحديث فقد كان منفتحا على التيارات الحضارية لكل الدول المحيطة به ، كما كان له تأثيره الواضح عليها . وعندما نريد تحديد طبيعة هذا التأثر والتأثير ، اي تحديد كونه تجاريا أم سلميا خالصا أم مصحوبا بغزوات وهجرات الاقوام المختلفة ، فاننا نقف بمواجهة مشكلة عويصة . وكل ما يسعني قوله في هذا الصدد هو ان القسم الاخير من عصور ما قبل التاريخ، على سبيل المثال ، كان فترة تميزت بعدم الثبات السكاني بدرجة غير قليلة في منطقة الشرق الادنى . وبالتأكيد ، فكلما أصبح المناخ في ذلك الجزء من العالم أكثر جفافا كلما أدى ذلك الى ترك عدد كبير من القبائل المتهنة الصيد كوسيلة للعيش مناطق استيطانها الجبلية او الصحراوية السابقة وحاولت الاستيطان من جديد ــ بالعنف اذا اقتضت الضرورة ــ داخل حدود الهلال الخصيب حيث كانت تنتظرهم حياة أكثر امنا واستقرارا .

ان الحقبة الزمنية الطويلة التي نوشك على دخولها ، تلك القرون التي كانت فيها ارض وادي الرافدين حبلى بسومر ، تؤلف ما يسميه بعض علماء الآثار بـ « العصر الشبيه بالتاريخي » (Proto - history) . ويقسم هذا العصر الى خمسة ادوار طويلة تتميز كل منها بتجمع حضاري خاص يسمى باسم المكان الذي تم فيه تشخيص هذا التجمع لاول مرة . وهذه الادوار هي كما يلي وفق تسلسلها الزمني :

دور حسونه ــ سامراء

دور حلف

دور العبيد

دور اوروك (الوركاء)

دور جمدة نصر (غالبا ما يطلق عليه الان مصطلح « الــدور الشــبيه بالكتابي » (Proto-literate)

وكمــا ســنرى الان ، فــانهــذه التقسـيمات لا تنطبــق عــلى مساحــة البلــد الذي نــدرس ، اذ اقتصــر تواجــد الحضــارتين الاولتين على الجزء الشمالي فيه بينما عمت الحضارتان الاخيرتان القســم الجنوبي فيه • وبالاضافة الى ذلك ، فان على القارىء أن يعلم بأن الامر كله ليس واضحا تماما عند التطبيق العملي لهذا التقسيم كما هو مسطور علــى الورق وان العلماء مازالوا منقسمين حول مسألة تحديد الحد الفاصل المضبوط بين دور اوروك والدور الشبيه بالعهد الكتابي • وهم على خلاف حتى فــي تقرير الاسم المناسب الذي ينبغي اطلاقه على الدور الاخير • ولكننا سنتحاشى مناقشة نظريات من هذا النوع وسنركز على وصف العهود الحضارية الشبيهة بالتاريخية المتعاقبة في وادي الرافدين الواحدة تلو الاخرى(1) •

دور حســونة ــ ســامراء

ان الموقع النموذجي لهذه الفترة هو تل حسونه الكائن شمال الموصل بمسافة اثنين وعشرين ميلا • وقد قامت بالتنقيب فيه ، بين عامين (١٩٤٣ ــ ١٩٤٤م) ، مديرية الآثار العراقية تحت اشراف «ستن لويد» (Seton Lloyd) وفؤاد سفر(2) • وفي التربة البكر هناك تم اكتشاف فخاريات وأدوات سمجة بأعداد كبيرة تذكرنا بالجماعات الزراعية للعصر الحجري الحديث • ويظهر أن سكان هذا الموقع كانوا يتخذون الخيام والاكواخ كمنازل لهم حيث لم

يعثر على بنايات فيه • وفوق تلك الطبقة الاستيطانية البدائية وجدت ست طبقات سكنية ذات منازل اكبر حجما وافضل بناء ، تشبه في حجمها وتصميمها وموادها الانشائية ، وبشكل غريب ، قرى شمال العراق الحديث • ويتكون كل بيت من ست أو سبع غرف مرتبة في قاطعين ممتدين حول فناء • وقد خصص أحد القواطع للنوم بينما أتخذ القاطع الاخر عنابر ومطابخ • وكانت جدران البيوت تشيد بالطوب وترصف الارضية بخليط من الطين والتبن • اما الحبوب فقد كانت تخزن في أوان كبيرة مصنوعة من الطين غير المغمور وتدفن في الارض حتى حافاتها العليا • وكان يجري شواء العجين في أفران مقببة تشبه « التنور » المعاصر • ووجدت في الموقع هاونات ونصول مناجل صوانية ومعازق حجرية وفلكات مغزلية من الطين وتماثيل صغيرة تفتقد الجاذبية • كما وجدت أوان كبيرة محفوظة داخل البيوت تحوي عظام الاطفال الموتى وقد ارفقت معها الاكواب والاواني الصغيرة لاستعمالها « في الحياة الاخرى » • والغريب ان سكان هذا الموقع كانوا اكثر « انفتاحا » فيما يتعلق بحفظ هياكل الموتى البالغين حيث كانت تكوم في زاوية غرفة داخل صناديق دون كبير احتفال ، او تدفن في قبور صندوقية دون وضع الهدايا الجنائزية الاعتيادية •

كل هذه الاشياء تذكرنا بجرمو وبعصرها • ولكن وجود الفخار المنقوش يوحي بمرحلة تاريخية أعلى نوعا ما ويسمح باجراء مقارنات مفيدة بين حسونة واقسام اخرى من الشرق الادنى وتصنف المواد السيراميكية المكتشفة في حسونة الى ثلاثة اقسام يسميها المنقبون : القديم ، القياسي والسامرائي •

يتواجد الفخار القديم في المستويات (١-٣) ويتمثل في : أولا : جرار طويلة من الطين الخشن عثر ، عليها ، عملياً ، في كل المواقع التي تعود الى العصر الحجري الحديث في غرب آسيا ولا تقدم الا القليل جدا من المعلومات

حول أصلها • ثانيا : طاسات أكثر جمالا تتراوح ألوانها من البرتقالي الى الاسود أو الاحمر ، طبقا الى طريقة الفخر • وسطوح هذه الطاسات مصقولة بالحك بواسطة العظام أو الحجر • وهناك شك في أن يكون أصل هذه الطاسات عائد الى الغرب ، وبالضبط الى المنطقة المحصورة بين تركيا وسوريا (سقجي ــ غوزو في جبال الامانوس ومرسين في كليكيا وسهل العمق حول أنطاكيا) حيث عثر على كميات كبيرة منها هناك • ثالثا : جرار وطاسات ذات سطوح صقيلة ونقوش هندسية حمراء اللون • والظاهر ان هذا النوع من الفخار القديم المطلي قد أستخدم أولا في منطقة سوريا ــ وفلسطين ثم انتشر بعدئذ شرقا حيث وجدت نماذج تبعد كثيرا عن حسونه في اريحا ومجدو في فلسطين •

وهكذا فاننا نجد أنفسنا هنا ازاء برهان أكيد يدلل على وجود مجموعة حضارية انتشرت في كل منطقة الهلال الخصيب ، من البحر الميت الى نهر دجلة ، وتتركز بشكل متميز على امتداد ساحل البحر الابيض المتوسط • ووجد أيضا أن جماجم سكان حسونة التي تمت دراستها تعود ، مثل الجماجم التي عثر عليها في ببيلوس وأريحا ، الى نوع ذي أسنان طويلة يتميز بها جنس البحر الابيض(3) المتوسط ذي الرؤوس الطويلة ، مما يوحي بوجود وحدة ضمنية للسكان في هذه المنطقة مع ذلك ، فان ما تدعى بـ « أواني حسونة القياسية » ، والتي يتركز تواجدها في المستويات (٤ــ٦) ، تبدو غريبةعن فخاريات منطقةشمال العراق، ويظهر أنها كانت اساسا من صنع محلي• فالنقوش ، التي يقتصر ظهورها على قسم صغير من الاواني ، تتألف من تصاميم بسيطة (خطوط مستقيمة ، مثلثات ، تظاليل متقاطعة) وجذابة مرسومة بطلاء بنّي معدني على خلفية معدنية أو على زخارف غير عميقة • ويقتصر ظهور الاشكال على الجرار الكروية ذات الاعناق المستقيمة ، وعلى الطاسات ذات القواعد المسطحة أو الكروية •

ولكن منتجات الفخاريين المحليين تمتزج مع ذلك ، في الطبقات العلوية من حسونة ، بالفخاريات الفخمة حقا التي لا يتوقعها المرء متواجدة في اماكن بدائية كهذه • وتسمى هذه الفخاريات « أواني سامراء » لكونها قد أكتشفت أولا في مقبرة ما قبل تاريخية تحت بيوت عاصمة العباسيين المشهورة(4) • وتظهر النقوش والاشكال منتظمة بشكل رائع في سامراء • فعلى سطوح المواعين الشاحبة الكبيرة ، وحول حافات الطاسات ، وعلى رقاب وأكتاف الاواني المكورة ــ الوسط ، جرى رسم تصاميم هندسية دقيقة تنتظم في مجاميع أفقية ، أو تماثيل لعقارب ، طيور ، أسماك أيائل وحتى للبشر • ان هذه الرسومات ، وان كانت متوازنة تماما ومعالجة بشكل يعطي انطباعا بالحركة ، ولكنها مع ذلك تقليدية • وبالتأكيد فقد كان الاشخاص الذين صنعوا ولوّنوا تلك الاواني من الفنانين الكبار ، وهناك احتمال كبير في أنهم لم يأتوا من الغرب ، بل من تلك المنطقة المشهورة بالفخار المصبوغ وهي: ايران •على ان الانتشار المحدود للخزف السامرائي يوحي ، مع كل هذا ، بكونه قد صنع من قبل مجموعات صغيرة من الحرفيين اجتازت الحدود « رسميا » وليس من قبل غزاة محتلين• ويقتصر تواجد هذا النوع من الاواني على وادي دجلة العلوي ، من سامراء الى نينوى وفي قسم الجزيرة العلوي ــ تل حلف ، تل شغربازار ــ وفي مكان واحد على وادي نهر الفرات وهو موقع « باغوز » مقابل ابو كمال(5) •

هكذا نجد أن قرية حسونه المتواضعة تقدم صورة ممتازة للتأثيرات المختلفة التي تعرض لها عراق ماقبل التاريخ • ونجد سكان وادي الرافدين ، المدفوعين بتيارين مزدوجين (الشرق والغرب) ، والذين تملكتهم الروح الفنية المتميزة ، قد تقدموا ، بعد عدد غير معروف من السنين ، خطوة أبعد في مسار التطور الحضاري •

دور حلف

تتخذ الفترة الثانية الشبيهة بالتأريخية اسمها من تل حلف • وهو مرتفع واسع يطل على نهر الخابور قرب قرية رأس العين ، على الحدود التركية السورية • ففي هذه البقعة ، قام عالم الآثار الالماني «ماكس فرايهر فون اوبنهايم» (Max Freiherr von Oppenheim) بالكشف عن طبقة سميكة من الآجر المصبوغ باسلوب جميل ، تحت قصر احد الحكام الاراميين الذين حكموا في القرن العاشر ق • م • وقد تم هذا الاكتشاف قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى بوقت قصير ولم يجر نشره حتى عام ١٩٣١ (6) • آنذاك لم يكن يعرف سوى القليل عن العصور ما قبل التاريخية للشرق الادنى ، لذلك فقد كان هذا الاكتشاف عرضة للاخذ والرد • ولكن أعمال التنقيب التي قام بها البروفسور « م • ي • ل • مالوان » بعد ذلك التاريخ في نينوى(7) وتل الاربجية (قرب الموصل)(8) ، وفي تل چتل بازار (في الجزيرة)(9) ساعدت في وضع فترة حلف في مكانها التاريخي المناسب واعطت صورة متكاملة لمحتواها الحضاري واهميته •

وعلى الرغم من كون أدواتها تعود الى العصر النيوليثي الخالص ، الا ان حضارة حلف تقدم خصائص جديدة ومتميزة • صحيح أن دور السكن فيها لا تزال ذات طابع وحجم قرويين ولكن اكتشاف الشوارع المرصفة بالحجارة في الاربجية يوحي بوجود نوع من الخدمات البلدية ، وتتميز البيوت فيها بكونها أكبر مساحة. وافضل بناء من تلك التي وجدت في حسونة اذ يظهر هنا ولاول مرة اول أنواع الآجر الطيني في منطقة حوض نهر الخابور على الاقل • اما اكثر نصب هذه الفترة روعة فهي بالتأكيد الابنية المدورة -

« ثولوي » مفردها « ثولوس » مقارنة بقبور مسينا المتأخرة المشابهة لها • وقد وجدت عشر من هذه « الثولوي » في الاربجية ، اثنتان في كل طبقة سكنية • وتتميز هذه الدور بكونها مقببة ، ذات هياكل تشبه خلية النحل ، مبنية من اللبن ، تستقر على أسس دائرية من الحجارة يتراوح قطرها بين ثلاثة عشر واثنين وثلاثين قدما ، وتلحق بقسم منها غرف استقبال مستطيلة طويلة مبنية من نفس المواد • وعلى الضد من «الثولوي» المسيني ، فان النوع الذي وجد في وادي الرافدين يرتفع فوق مستوى الارض ولايحتوي عظاما ولا أثاثا أو قبورا ، بل كان في واقع الامر خاليا تماما • ولهذا السبب ، فانه يصعب جدا تخيل فائدته بالضبط • وقد قدمت عدة نظريات في هذا الصدد لا تبدو أية واحدة منها مقنعة للمرء • ويوحي عدد هذه الابنية المدورة القليل ، وموقعها المركزي ، والعناية التي كانت تولى لبنائها وترميمها ، وتراكم مدافن مواد النذور فيها ، بأنها كانت تلعب دورا مهما في حياة السكان • أو انها ربما كانت مراقد ، او مباني دينية من نوع ما • كما يحتمل انها كانت في حقيقة الامر مجالس مدنية يجتمع فيها سكان القرية من المتنفذين عند حاجتهم لاتخاذ قرار مهم على سبيل المثال وذلك بسبب شكلها الدائري • وتوجد الآن في جنوب العراق بيوت مصنوعة من البردي تتميز بالجمال والعلو تسمى «المضيف» وتستخدم للغرض الآنف الذكر • ولاتقل غموضا عن الدور المستديرة تلك الاشياء الصغيرة التي عثر عليها بكميات كبيرة في الاربجية وفي مناطق اخرى أيضا • ونعني هنا ، بالطبع ، حلي حجر «الاستيتايت»(*) ذات الاشكال المتنوعة واقراص الحجارة الصغيرة المثقوبة من الخلف والمنقوشة بالمستقيمات أو بالاشكال المتصالبة • وكانت هذه المواد ، التي يمكن ان تكون قد أرتديت حول الرقبة ، تطبع ، للدلالة على الملكية او الحيازة ، على كتل طينية تشد الى السلال او الى أوان مسدودة ، وتمثل أول شكل من اشكال الختم المنبسط الذي سبق ظهور الاختام

(*) (steatite) حجر الاستيتايت حجر صابوني هش •

الاسطوانية التي عثر عليها في أماكن عديدة وتشكل ، لعدة اعتبارات ، عنصرا مهما ومميزا لحضارة وادي الرافدين[10] • وتتميز حضارة حلف بالرؤوس الصولجانية المصنوعة من الحجر ، وبالتمائم التي تتخذ شكل رأس الثور او حافره او شكل الفأس ، والحمامة والآلهة الأم المصنوعة من الطين النضيج • ومما تجدر الاشارة اليه أن الالهة الام ــ التي يعود تراثها بالتأكيد الى العصر الحجري القديم ــ تظهر الان بصفات متميزة تماما • فنراها تجسد ههنا وهي في وضع جلسة القرفصاء وركبتيها مرتفعتين بشدة بينما يحيط ذراعاها بثدييها الثقيلين • أما الرأس ، فيجرد الى كتلة لا شكل لها ويمثل الجسد بشكل طبيعي ويغطى بالخطوط والنقاط الملونة والتي يمكن ان تمثل أوسمة او حليا او ملابس • وربما كانت هذه التماثيل تعاويذ تستخدم ضد مخاطر الوضع او العقم اكثر من كونها صورا حقيقية لاله ما •

واخيرا ، وليس اخرا ، يأتي الفخار • وفي هذا المكان يظهر الفخار تطورا هائلا يتجاوز الحضارات السابقة بشكل حاد • وبوسعنا القول ، بدون مبالغة ، أن فن السيراميك قد بلغ خلال فترة حلف درجة من التطور لم تبلغ في وادي الرافدين من قبل او من بعد ابدا • ولقد صنعت أواني حلف اليدوية من الطين الجيد الغني بمركبات الحديد واكتست بطبقة ملساء خفيفة بفعل عملية الشوي • وغالبا ما تكون جدران الاوعية الفخارية هذه رقيقة جدا وذات أشكال متعددة ومتطورة : الاواني البيضوية ذات الاعناق الاسطوانية المتسعة تدريجيا نحو الخارج ، الجرار القصيرة السميكة ذات الفوهات المعقوفة ، الكؤوس الكبيرة ، كؤوس القرابين ذات الارجل ، أوعية القشدة ذات الجانب الزاوي ــ الجؤجؤي(*) اما النقوش فيفتقر البعض منها الى الحركات الجريئة لفخاريات سامراء ، الا أنها مكيفة تماما للاشكال ومنفذة بدقة رائعة وبشكل يقترب من اسلوب نقش السجاد

(*) اناء يحتوي جانبا بارزا على شكل زاوية لها حيد طولي يشبه الجؤجؤ •

الايراني • فعلى شريحة بيضاء أو صفراء يوضع ، باللــون الاســود أو الأحمر أولا ، ثم بالالوان السوداء والحمراء والبيضاء ، نموذج منسوج بدقة يغطي معظم الاناء • ومن الاشكال الشائعة تبرز المثلثات ، المربعات ، الترابيــع ، الصلبان ، المروحيات ، والدوائر الصغيرة • كما تظهر أيضا رسوم تمثل أزاهير أو طيورا حاطة أو غزلانا منطرحة • واكثر هذه الاشكال تميزا هو « المربع المالطي » (Maltese square) ــ الذي يمكن ان يرمز الى معتقــدات دينية ــ المتكون من مربع بزوايا مثلثة ؛ والفأســ المــزدوج ؛ وأخيــراً « البكرانيوم » (bukranium) او رأس الثور المنمط •

وعلى الرغم من وضوح التأثير الايراني ، الا أن فخاريات حلف هي ، جوهريا ، نتاج محلي • ويمكننا تعقب مناطق انتشارها من مركزها حــول نينوى غربا على امتداد طريق القوافل المؤدي الى البحر الابيض المتوسط ، مروراً بالخابور (براك ، شغر بازار ، حلف) ، ونهر البليخ (تل اسود) ، ونهر الفرات (كركميش) وسوريا (كليكيا) وحتــى « ليسيا » • الا ان الاتصال الحضاري لا يتوقف هنا ؛ فقبل تمييز تأريخها البعيد ، اعتقد بعض الاساتذة ان فخاريات حلف المتعددة الالوان ذات أصل يوناني(11) • وهذا اعتقاد خاطىء بالتأكيد على الرغم من حقيقة امتلاكها بعض الصلات الاكيدة مــع الادوات المطلية العائدة للعصر الحجري الحديث في بلاد اليونان القارية • ومن الناحية الاخرى ، فان البنايات المستديرة ، (الثولوي) لها ما يوازيها في قبرص (خيروكيشيا) وكريت (سهل مساره) وفي الجزر البلوبونيزيــة (مسينا) وان كانت تعود الى عصر متأخر • وبالتأكيد فان الصدفة وحدها لم تكن هي التي جعلت من الآلهة الام والحمامة والفأس المزدوج وكذلــك « البكرانيوم » (رأس الثور المنمط) رموزاً قياسية للعبادة في كل من كريت المينوية والاناضول ما قبل الحيثية(12) • فهل يعود هذا التشابه الى الهجرات القادمة من الشرق أم أن مرده وحدة الحضــارة والاصــول الاجتماعيــة المشتركة ؟لم يحن الوقت لحد الان لتقديم اجابة شافية لمشكلة كبيرة مثل هذه •

دور العبيـد

وبعد ما تبدو أنها كانت فترة ازدهار حضاري استمر عدة قرون ، أتت حضارة حلف على نهايتها المفاجئة وهي ما تزال في قمة تطورها • فمن واحدة ــ او من عدة موجات ــ جاء ، كما يبدو غزاة من الجنوب الغربي لايران(13) جالبين معهم حضارة جديدة الى العراق تحمل اسم موقع صغير يبعد أربعـة أميال عن اور ويسمى « العبيد »(14) • ويكتسب هذا الموقع أهمية كبيرة هنا لانه يعني ان جنوب العراق قد اصبح مركزاً للنمو الحضاري بالاضافة الـى الشمال • وهذه هي المرة الاولى التي يبدو لنا فيها وادي الرافدين في وحدة حضارية كاملة ، بل ولعلها كانت وحدة سياسية ايضاً •

وللتأكيد ، فان هناك دلالات على أن النصف الجنوبي من العراق كان مأهولا خلال فترة عصر حلف • فالدراسات الجيولوجية الحديثة ، بالاضافة الى البحوث الاثارية ، أظهرت ان دلتا دجلة ــ الفرات قد تكونت في وقت اكثر تبكيراً مما كان يعتقد سابقا • لهذا فان الصورة التقليدية لوصف سكان العبيد على انهم قد « انتقلوا الى السهل وسكنوا الجزر الطينية التي كانت قد ظهرت تواً من البحر » يجب ان يعاد النظر فيها تماما • ففـي ما بين عامـي (١٩٣٧/١٩٣٩) اكتشفت البعثة الالمانية التي كانت تنقب في اوروك فخاراً من نوع مختلف في مكان قريب يسمى « قلعة حاج محمد » • ووجد ان ذلك الفخار يختلف في صناعته ونقوشه عن الفخار القياسي للعبيد(15) • ومما تجدر ملاحظته ان هذا الموقع قد وجد مدفونا تحت طبقة من الترسـبات الطينيـة سمكها عشرة اقدام ، وكان يقتصر ظهوره على قاع الفرات عندما تنخفض مناسيب مياهه • بعد ذلك جاء اكتشاف مديرية الاثار العراقية الغريب فـي موقع اريدو بين عامي ١٩٤٦/١٩٤٧(16) • كانت أريدو (أبو شهرين ، ستة

عشر ميلا جنوب غرب اور) واحدة من أقدس المدن القديمة في وادي الرافدين لكونها المسكن الارضي للاله « إنكي » ، اله المياه الجوفية وأحد الالهة الكبيرة في هيكل الالهة السومري • وآثارها الان معلمة بتلال خفيضة وكثيبات رملية في أقدم زقورة متهدمة مبنية ، كما يخبرنا بذلك آجرها المسطور ، من قبل ملوك السلالة الثالثة لاور ، حوالي عام (٢١٠٠) ق • م ولكن ، تحت زاوية من هذه الزقورة ، استخرج « المرحوم » الاستاذ فؤاد سفر وفريقه مجموعة من سبعة عشر معبداً بني الواحد منها فوق الاخر في غضون الازمنة الشبيهة بالتاريخية • وتتميز المعابد الثمانية الاعلى بأبنيتها المتقنة التي تعود الى فترات اوروك والعبيد • أما أطلال المعابد (٩ـ١٤) الواقعة تحت المجموعة الاولى ، فقد اعطت فخاريات تمتزج فيها صناعة العبيد بصناعة فخار قلعة حاج محمد • وأخيرا ظهرت ، في طبقات اعمق ، المعابد (١٥ ـ ١٦ ـ ١٧) ، والمعبد الاخير لم يبق منه سوى بعض الكسر الجدارية • ومن أوجه متعددة ، فان المعابد الاكثر تبكيراً تختلف عن أي شيء آخر معروف لحد الان في منطقة جنوب العراق • وتتكون هذه المعابد من غرفة واحدة صغيرة نوعا ما ومربعة مع محراب يواجه المدخل ، وقد بنيت من الآجر الطيني الموشوري الطويل الذي يحمل طبعات ابهام عميقة • وعلاوة على كل هذا فقد احتوت هذه المعابد على فخاريات مطلية تشبه تماما ، حسب رأي الخبراء ، فخاريات قلعة حاج محمد ولكنها تتصل بوشائج مع فخاريات حلف وسامراء ايضا(17) • اذن فان من الواضح تماما ، بناء على المكتشفات الانفة الذكر ، أننا حيال موقع قد استوطنه أناس لهم علاقة ما بالحلفيين في الشمال قبل بداية عصر العبيد بوقت طويل • أما الاستنتاج المهم الثاني فهو أن نفس التقاليد الدينية قد استمرت تمارس من قرن لاخر في نفس الموقع منذ الالف الثالث ق • م ولغاية ابتداء الازمنة التاريخية • ومن المحتمل أننا سنحصل على نتائج مماثلة لهذه لو أجريت عملية سبر

أغوار عميقة في مدينة نفر ، على سبيل المثال ، باعتبارها مدينة اله سومـري كبير اخر هو « انليل »[18] • ، وكلما اوغلنا اعمق فأعمق في الحفـر ، كلمـا وجدنا الحضارة السومرية وقد تجذرت عميقا في مجاهل الماضي السحيق •

ان السمة المميزة لحضارة العبيد ، هي ، كالعادة ، الفخاريات المصبوغة وهذه الفخاريات ، وان كان يسهل تمييزها في موقع ما بيسر اكثر من تمييز فخاريات حلف ، الا انها اكثر سماجة وأقل جمالا من الاخيرة • فالطيـــن المستخدم في صناعتها جرى شويه اكثر من اللازم والوانه المتنوعة تراوح بين الاصفر والبرتقالي والاخضر • وقد أستخدم في صبغ هذه الفخاريات خليط معدني بني غامق أو أسود مزرق • أما النقوش ، فانها تقتصر كقاعـــدة على جزء واحد من الاواني فحسب • وعلى الرغم من أن رســوم النباتات التي تظهر عرضا ورسوم الحيوانات ، كذلك ، لا تخلو من الرشاقة ، الا ان التكرار الممل للرسوم القياسية التقليدية (المثلثات ، الخطوط المنكسرة أو المتموجة والمجاميع المتصالبـة) يكشف عن بؤس كبير في الاخيلـة • مع ذلك ، يبقى نسيجها النباتي جذابا ، كما يبدو ان بعض نماذجها قد قولبت بمساعدة عجلة دوارة بطيئة الحركة أو ربما بواسطة « تورنه » • ولاول مرة تظهر الصنابير والعروات اليدوية • ومن بين الاشكال النموذجية ، يمكن ان يميز المرء كؤوسا ذات شكل يشبه الجرس ، وجرارا ذات مقابض شبكية ، وأواني مزدوجة التحدب ذات صنبور طويل يطلق عليه اسـم « عظم ظهـر السلحفاة » • ويتواجد هذا الفخار ، عمليا ، في كل أرجاء وادي الرافدين ، مع بروز اختلافات اقليمية بسيطة أو حادة ، خصوصا بين الشمال والجنوب ، حيث يتعدى الاختلاف هنا الى عناصر حضارية أخرى لعصر العبيد • وتصف كلمتا « الطين والبردي » حضارة العبيد في جنوب العـراق بشكل جيد • فبسبب ندرة الاحجار في ذلك القسم من أرض وادي الرافدين ، فقد اقتصر

استخدامها في صناعة الادوات الثقيلة والنصول الحادة وكذلك في صناعة الحلي الشخصية • أما المواد الاخرى فقد صنعت كلها من الطين بما في ذلك المسامير الطينية (والتي ربما كانت في الحقيقة مطارق هاونات) ، والمناجل الهلالية ، وحتى الفؤوس والبلطات والسكاكين • كما كانت تماثيل الإلهه الأم الصغيرة ، المشهورة جدا (تمثل في هيئة امرأة رشيقة فيوضع القيام ، ذات رأس افعواني متموج تكسوه لمة من الشعر المصنوع من القار) وتماثيل الرجال الصغيرة مصنوعة من الطين كذلك • أما البيوت ، فقد كانت معظمها تتألف من بنايات زنبيلية منسوجة من البردي وترتكز على أعمدة خشبية وتغطى بطبقة طينية • وقد وجد أحد تلك الاكواخ (أو هو بالاحرى فناء مفصول بجدار لبناية من الطابوق كتلك التي يمكن رؤيتها اليوم في البصرة وأطرافها) في مدينة اريدو وهو في حالة ممتازة • أما معابد هذه المدينة التي تعود الى عصر العبيد فقد شيدت من الطابوق الطيني الكبير المثبت مع بعضه بملاط طيني • وتتألف هذه المعابد من غرفة « مقدس » مستطيلة وغرف أصغر منها في كل زاوية • وفي احدى نهايات غرف المقادس ، وجدت دكة منخفضة يحتمل انها كانت تسند تمثال اله • وفي النهاية الاخرى، وجد محراب طابوقي ، او ربما مصطبة نذور • أما جدران المعبد فقد زينت من الخارج بأكتاف ومشاك تجتذب الضوء وتقلل من رتابة البناء المكسو بالتساليط الطينية • ومن الضروري أن تلاحظ هذه التزيينات بامعان لانها تمتلك معاني دينية غامضة ولكنها محددة حيث تستمر في الظهور ، عمليا ، عبر التاريخ كسمة مميزة لكافة البنايات الدينية في وادي الرافدين •

وعندما تتجه صوب الشمال ، نواجه بصورة مختلفة نوعا ما • والموقع الشمالي « النموذجي » هنا هو تپه گوره (خمسة عشر ميلا شمال شرق الموصل ، الذي قامت بالتنقيب فيه بعثة امريكية بين الاعوام (١٩٣١ / ١٩٣٨)(19) • ويضم هذا التل المرتفع والضيق ثماني عشرة طبقة

سكنية يتراوح تأريخها بين عصر حلف وأواسط الالف الثالث ق٠م ٠ ويتمثل فيه عصر العبيد بالطبقات (١٩ـ١٢) ٠ ولم تكن مساكن البردي معروفة في تپه گوره حيث شيدت كل البيوت فيها من الآجر ، كما أستعمل الحجر ايضا ٠ ووجد ان الاختام الحجرية المنبسطة ـ النادرة جدا في الجنوب ـ تظهر هنا بأعداد كبيرة وتحمل ، بدلا من النماذج المخططة ، رسوما لحيوانات وأناس ، وقد رتبت بما يمكن اعتبارها مشاهد ميثولوجية ٠ وتظهر الادوات المعدنية لاول مرة بأعداد قليلة ٠ وربما يكون سبب تواجد مثل هذا النوع من الادوات ـ التي يقتصر ظهورها تقريبا على هذا الموقع الخاص ـ قربه من مناجم المعادن في أرمينيا وآذربيجان والقوقاز(20) الا أن مميزات الشمال الخصوصية لايمكن ردها دائما الى العوامل الجغرافية فحسب ٠ ففي الوقت الذي تتشابه فيه معابد تبه گوره الثلاثة ـ المشيدة حول فناء يكوّن هيكلا إلهيا كبيرا ـ في الطبقة (١٣) مع معابد اور في اوجه عديدة ؛ ولكن وجود بناءين مستديرين « ثولوس » هنا يكشف عن تأصل تقليد وراثي مستديم يمتد في تأثيراته الى تماثيل الالهة ـ الام ـ التي تصور هنا جالسة ولكنها تلون وفق النمط الحلفي ٠ والاختلاف الاهم هنا هو عادات الدفن في اريدو وتبه گوره ٠ ففي احدى مقابر أريدو الكبيرة قرب احدى القرى ، دفن الموتى على اختلاف اعمارهم وهم مضطجعين على ظهورهم في مقابر محددة ومغطاة بالاجر ٠ اما في تپه گوره ، فان معظم مقابرها لاتعدو كونها حفراً بسيطة جلفة مجمعة حول المعابد تسجى فيها الاجساد منكمشة واحد الى جانب واحد بينما كان الاطفال يدفنون في جرار ٠ وهذا يوحي ، من بين عدة أشياء أخرى ، بأن ناقلي حضارة العبيدة كانوا أقلية في الشمال(21) وربما كان الحلفيون « المقهورون » لا زالوا يشكلون القسم الاغلب من السكان ، بينما كان الجنوب عبيديا باكمله ٠ وفي الفصول التالية سنرى كيف أن الفجوة

بين الشمال والجنوب قد أخذت تتزايد تدريجيا بعدئذ وكيف أن الجنوب كان هو المكان الذي قاد مسيرة البلد نحو الحضارة •

ان هذه التباينات الاقليمية ، مهما تميزت ، لا تنال من الوحدة الاساسية لحضارة العبيد التي يبدو أنها قد نشأت أولا في دلتا ما بين النهرين وانتشرت على امتداد دجلة والفرات لتشمل منطقة الجزيرة وشمال سوريا وكليكيا • وفي الوقت الذي تؤشر فيه جبال زاگروس وطوروس الحدود الطبيعية لهذه الحضارة ، الا أن ايا من هاتين السلسلتين لم يكن عائقا غير ممكن الاجتياز أمام التبادل التجاري • ومما يؤيد حقيقة ودرجة هذه التجارة وجود الادوات المعدنية في تپه گوره والحجر الاوبسيدي قرب الخليج العربي وحجر « الامزونايت » في اور (وهو حجر شبه كريم يتوفر في بلاد الهند فقط)• وعلى الرغم من ان نظام الري كان بسيطا جدا في السهل الجنوبي ، الا أن التجهيزات الغذائية كانت كافية لاطعام السكان المتكاثرين دوما • وتركزت مناطق الاستيطان الجديدة ، وعددها كبير جدا ، على طول النهرين الرئيسيين ، أو على مقربة من ضفافهما • وكان سكان هذه المناطق يتصلون بعضهم الآخر بوسائط النقل المائية ، كما تكشف عن ذلك نماذج القوارب الطينية التي وجدت في اور وأريدو • ويتعذر علينا أن نحدد الان طبيعة تلك المستوطنات فيما اذا كانت دساكر أو قرى أو مدنا صغيرة لان طبقة العبيد تقبع عميقا تحت الطبقات السكنية الاخرى ولم تبلغها سوى حفر الاختبارات التنقيبية الضيقة جدا • غير ان جميع المدن الرئيسية لسومر القديمة تطورت من مناطق السكن هذه • وهناك حقيقة عامة لها تطبيقاتها العملية العريضة هنا وهي أن من بين كل منشآت قرى العبيد ، كانت المعابد، بدون استثناء ، أكبرها وأفضلها بناء • كما أن تقاليد العمارة الدينية كررت نفسها دوما وبقيت مستمرة في نفس المكان منذ عصر العبيد وحتى العصور

التاريخية المبكرة ، أي طوال فترة تقترب من الالف عام • وهكذا نجد أن المدينة السومرية تنمو ليس حول قصر أو قلعة ، انما حول « ضريح » أو مرقد • وفي كل الاحوال ، كان المعبد هو المحور الذي تدور حوله معظـم النشاطات الاقتصادية والاجتماعية • ولا نشعر بأن لنا الحق الان ، في هذه هذه المرحلة المبكرة ، أن نأتي على ذكر اسم السومريين ، غير أن علينــا واجب ملاحظة حقيقة كون عصـر العبيد هو الذي مهـد الطريق لتطــور الحضارة السومرية •

بين الشمال والجنوب قد أخذت تتزايد تدريجيا بعدئذ وكيف أن الجنوب كان هو المكان الذي قاد مسيرة البلد نحو الحضارة .

ان هذه التباينات الاقليمية ، مهما تميزت ، لا تنال من الوحدة الاساسية لحضارة العبيد التي يبدو أنها قد نشأت أولا في دلتا ما بين النهرين وانتشرت على امتداد دجلة والفرات لتشمل منطقة الجزيرة وشمال سوريا وكليكيا . وفي الوقت الذي تؤشر فيه جبال زاگروس وطوروس الحدود الطبيعية لهذه الحضارة ، الا أن ايا من هاتين السلسلتين لم يكن عائقا غير ممكن الاجتياز أمام التبادل التجاري . ومما يؤيد حقيقة ودرجة هذه التجارة وجود الادوات المعدنية في تپه گوره والحجر الاوبسيدي قرب الخليج العربي وحجر « الامزونايت » في اور (وهو حجر شبه كريم يتوفر في بلاد الهند فقط). وعلى الرغم من ان نظام الري كان بسيطا جدا في السهل الجنوبي ، الا أن التجهيزات الغذائية كانت كافية لاطعام السكان المتكاثرين دوما . وتركزت مناطق الاستيطان الجديدة ، وعددها كبير جدا ، على طول النهرين الرئيسين ، أو على مقربة من ضفافهما . وكان سكان هذه المناطق يتصلون ببعضهم الآخر بوسائط النقل المائية ، كما تكشف عن ذلك نماذج القوارب الطينية التى وجدت في اور وأريدو . ويتعذر علينا أن نحدد الان طبيعة تلك المستوطنات فيما اذا كانت دساكر أو قرى أو مدنا صغيرة لان طبقة العبيد تقبع عميقا تحت الطبقات السكنية الاخرى ولم تبلغها سوى حفر الاختبارات التنقيبية الضيقة جدا . غير ان جميع المدن الرئيسية لسومر القديمة تطورت من مناطق السكن هذه . وهناك حقيقة عامة لها تطبيقاتها العملية العريضة هنا وهي أن من بين كل منشآت قرى العبيد ، كانت المعابد، بدون استثناء ، أكبرها وأفضلها بناء . كما أن تقاليد العمارة الدينية كررت نفسها دوما وبقيت مستمرة في نفس المكان منذ عصر العبيد وحتى العصور

التاريخية المبكرة ، أي طوال فترة تقترب من الالف عام • وهكذا نجد أن المدينة السومرية تنمو ليس حول قصر أو قلعة ، انما حول « ضريح » أو مرقد • وفي كل الاحوال ، كان المعبد هو المحور الذي تدور حوله معظم النشاطات الاقتصادية والاجتماعية • ولا نشعر بأن لنا الحق الان ، في هذه هذه المرحلة المبكرة ، أن نأتي على ذكر اسم السومريين ، غير أن علينا واجب ملاحظة حقيقة كون عصر العبيد هو الذي مهد الطريق لتطور الحضارة السومرية •

الفصل الخامس

ميلاد حضارة



لابد أن يكون القارىء قد لاحظ أننا قد امتنعنا عن اعطاء تواريخ مطلقة للادوار الشبيهة بالتاريخية والسبب هو عدم توفر نتائج اختبارات الكربون ذي الفاعلية الاشعاعية مما يجعل أية محاولة لبناء جدول تاريخي لهذه الفترات ، بالإستناد الى عمق الطبقات السكنية ، أو حساب الوقت الذي تستغرقه حضارة ما في مسار نموها وتطورها واضمحلالها ، انما ترتكز على أسس غير قويمة • وكتخمين مجرد ، ربما يمكننا الافتراض بأن فترتي حلف وحسونه قد استغرقتا كامل الالف الخامس ق • م ، بينما غطت فترة العبيد ، التي يبدو أنها كانت طويلة جُداً ، الستمائة أو السبعمائة سنة الاولى من الالف الرابع ق•م • وعندما نأتي على المراحل الاخيرة من العصور الشبيهة بالتأريخية ، فان قيام علاقات تبادل تجاري مع فلسطين ومصر(1) تساعد على تسهيل أمور التأرخة ولو بصورة نسبية • وبوسعنا هنا تقديم التواريخ التالية في هذا الصدد •

دور اوروك (الوركاء) (٣٣٠٠–٣١٠٠ ق٠م)

الدور الشبيه بالكتابي (٣١٠٠–٢٨٠٠ ق٠م)

وخلال الخمسمائة عام الاخيرة ، تطور النمو الحضاري ، الذي بقي حتى ذلك الوقت بطيئا ، بخطوات أسرع ، وأدى أخيرا الى تفتح الحضارة السومرية٠ ولكن هذا الارتقاء كان ، على أية حال ، مقتصرا على القسم الجنوبي من العراق اذ بدأ الشمال يتبع طريقا آخر ٠ ومع أن ذلك الطريق لم يكن بالضبط همجياً ، الا أنه كان متخلفا عن الجنوب في مجالات عديدة ٠ ولقد تجمعت عدة أسباب كي تهب الجنوب مثل هذا الامتياز ، فقد كنا قد رأينا كيف أن تأثير حضارة العبيد كان « مصطنعا » في الشمال ٠ ومن المحتمل جدا أن مزارعي حوض دجلة الشمالي كانوا أكثر « محافظة » وأقل انفتاحا واستعدادا للتطور من اولئك الذين سكنوا الفرات الاسفل ٠ ومن ناحية اخرى ، فقد ساهمت الانهار والقنوات الى حد ما في عزل القسم الجنوبي من العـراق عن الهجمات المدمرة للبدو وسكان أعالي الجبال ٠ غير أن العامل الاساس في ذلك البون كان بدون شك الجهد الاجتماعي المشترك الضخم الذي يحتاجه تنظيم الري الاصطناعي حيث تستوجب هذه المهمة تواجد سلطة تخطيطية وتنسيقية ، على الاقل في المجال الاقليمي ٠ وبالتأكيد ، فان هذه الضرورة قد أوجبت تركز السلطة والثروة ، منذ وقت مبكر ، في أيد قليلة ، وفي مناطق معينة ، فاصبحت بعض القرى أغنى وأكبر من غيرها ٠ وحول المعابد — التي نفترض انها قد أصبحت مراكز لتنظيم كل النشاطات الاقتصادية — تجمع ذلك القسم من السكان الذي أصبح يعيش للمعابد ومن المعابد وهم الكهنة ،

بمراتبهم المختلفة ، وأصحاب الحوانيت والحراس والمعمـاريون والبناءون والنجارون والحدادون والخزافون وكسّارو الحجـارة وغيرهـم • فنمت تلك القرى بالتدريج ثم أصبحت مدنا • وهكذا فقد تجـاوز جنوب وادي الرافدين نمط التنظيم الاجتماعي الريفي الى نمط التنظيم الاجتماعي المديني الذي يقدم ظروفا افضل لانعاش الاعمال الفنية وازدهـار التقدم التقني • كما ان العوامل الجغرافية ، التي جعلت ظـروف المعيشة اكثر صعوبة في الشمال عنها في الجنوب ، ساعدت هي الاخرى في جعل الاخير أكثر تحضرا • ولم تقتصر هذه الظاهرة التاريخية على أرض وادي الرافدين فحسب حيث نشاهد أن الحضارات القديمة في مصر والهند والصين قد ولدت هي الاخرى في أحضان الوديان العريضة الدافئة وتأسست كذلك على الري النهري •

يتزامن في العراق الانتقال من القرية الى المدينة مع ظهور أنماط فخارية جديدة ، واختراع عجلة الفخـار ، واستبدال الاختام المنبسطة بالاختـام الاسطوانية ، ومع تطورات عديدة أخرى تتوجت باختراع الكتابة قبل الالف الثالث ق•م بفترة وجيزة • وأمام هذا الحشد من التغيرات الهائلة يعتقـد العديد من المؤرخين أنها لا يمكن الا ان تكـون قد نجمـت عن غزو اجنبي متحضر جدا • فاذا سلمنا فرضا بأن هذا التطور انما يعود الى غزاة متحضرين، فان من الغريب أننا لا نعرف حتى القليل عن موطنهم الاصلي أو قوامهـم العددي أو الطريق الذي سلكوه أو حتى الشكل الذي اتخذه تدخلهم • فكل هذه الاسئلة اما يستحيل تماما تقديم أية اجابة عنها أو ان الاجوبـة المقترحة لها لا تصمد امام النقد والتحليل • ومن جهة اخرى ، فان أي تفحص متعمق لهذه الحضارة لا يسفر عن اكتشاف أية طفرات مفاجئة في ميادين التنظيم الاجتماعي ولا عن تحولات حقيقية في التقاليد المعمارية والدينية • ان ما نواجه هنا ليس « ثورة » فجائية كاسحة بل هو في الواقع « ارتقاء » حضاري في فصله الاخير بعد أن كان قد تجذر في ربوع وادي الرافدين قبل عدة قرون •

وتتبين المعالم المميزة للفترة الحضارية الناتجة من هذه الظروف الجديدة في مواقع قليلة فقط في جنوب العراق واحدها هو اوروك التي أطلق اسمها على هذه الفترة. وتبقى اوروك أكثر تلك المواقع اهمية مما يحتم علينا طبعا ان ندرس حضارتها في موقعها نفسه .

حضارة اوروك (الوركاء)

تقع أطلال اوروك ـ التي تطلق عليها التوراة اسم « أريخ » والمسماة في الوقت الحاضر « الوركاء » ـ في منطقة صحراوية ، حوالي منتصف الطريق بين بغداد والبصرة وقرب المدينة العربية السماوه . كانت تختص اوروك سابقا بالهين كبيرين هما « آن » أو « آنو » (إله السماء) وإلهة الحب « إينانا » المعروفة باسمها السامي « عشتار » . وفي وسط الاطلال ، وحول زقورة مشيدة بالآجر الطيني ينتصب معبد « إي ـ أنا » (بيت السماء) وهو مجموعة معقدة من الابنية أعيد بناؤها ووسعت باستمرار منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى عهد السيطرة الاخمينية . أما معبد آنو الاكثر تواضعا ، فيقبع في الجانب الآخر من المدينة . ولقد كانت هاتان المنطقتان مسرحا لتنقيبات علماء الآثار الالمان منذ عام (١٩٢٨ م) والذين اكتشفوا ، قبل الحرب العالمية الثانية ، البقايا المميزة للحضارة الجديدة ؛ وكانت تشتمل على معابد وأدوات فخارية واختام أسطوانية ورقم طينية(2) .

كانت معابد اوروك القديمة تتشابه كثيرا في تصميمها مع تلك التي تعود الى فترة العبيد في مدينة اريدو والتي سبق أن قدمنا وصفا كافيا لها . وتتميز تلك المعابد بالواجهات ذات الاكتاف وبالمقدس الطويل المحاط بالغرف الصغيرة وبالابواب الكائنة في جانبها الطويل . وتؤكد كل هذه المميزات استمرار التقاليد المعمارية وربما كذلك نوع العبادة والمعتقد . ففي « إي ـ أنا » اكتشفت ستة من هذه المعابد وقد رتبت أزواجا في ثلاث طبقات متعاقبة.

ولقد أغرت هذه الحقيقة البروفسور لنتزن الى الافتراض بأنها لم تكن مخصصة لعبادة « اي ــ ننا » فحسب بل وايضا لبعلها إله الخصب « دموزي » (تموز)(3) • وأكثر هذه الطبقات روعة هي أعمقها حيث تمتاز بمعابدها الكبيرة ــ بني أحدها باساس من حجر الكلس طوله(٢٦٠) قدما وعرضه (١٠٠) قدم ، «ببناية الفسيفساء» المدهشة • وتتألف من فناء طويل يمتد بين حرمين مع رواق معمد بثمانية أعمدة كبيرة مبنية من الآجر الطيني ومرتبة في صفين • ويبلغ طول قطر كل منها ثمانية اقدام • وتغطي كل الجدران الجانبية للفناء والاعمدة والدكات نماذج ملونة لتصميم هندسي مشكل بواسطة النهاية المسطحة لمخاريط من الطين النضيج ــ طولها ثلاثة أو اربعة انجات ــ مطلية باللون الاحمر أو الاسود او الابيض وملصقة بالطبقة الطينية للجدران • ولقد استخدم اسلوب النقوش الاصيل والبالغ التأثير هذا بكثرة خلال فترة اوروك الشبيهة بالتاريخية • ويمكن الان التقاط مخاريط الطين السائبة بالآلاف من اطلال الوركاء • وتفتقد الالوان الباقية على سطح هذه المخاريط بريقها الاصلي • وكل ما نحتاجه هنا هو بذل جهد صغير لتصور كيف كانت تبدو تلك الواجهة الفسيفسائية المطعمة بالمخاريط تحت ضوء شمس الشرق اللاهبة • ويمكن للمرء ان يتحسس الذوق الرفيع في اختيار الوان الجدران ايضا في أحد المعابد القديمة لـ « إي ــ انا » (المسمى بالمعبد الاحمر بسبب لونه الوردي) وفي تل « العقير » (جنوب بغداد مسافة خمسين ميلا) ــ حيث نقبت مديرية الآثار العراقية فيما بعد عامي (١٩٤٠ــ ١٩٤١) ــ في معبد يعود الى فترة اوروك مزوق باللوحات الجصية التي كانت وقت اكتشافها « لامعة كلمعانها في اليوم الاول من تنفيذها »(4) • وفي هذه اللوحات ، تظهر الاجسام البشرية ، التالفة لسوء الحظ ، منتظمة في موكب مع فهدين رابضين يحرسان عرش إله غير معروف • وتستقر كل المعابد التي وجدت في العقير على منصة طابوقية خفيضة كتلك المعابد التي تعود

الى فترة العبيد في اريدو ، ولكن ، وبمرور الوقت ، اصبحت هـذه المنصة أعلى ، مما يوحي بانها باتت مصدر أهمية اكبر من البناية نفسها • ومن هنـا ـ في كل الاحتمالات ـ ينبع أصل الزقورة (البرج المدرج) كتقليد فـي حضارة وادي الرافدين طوال الازمنة التاريخية(5) • ويصور هذا « الارتقاء » على نحو واضح معبد « آنو » في اوروك المتضمن ستة معابد مبتية بالتعاقب على منصة ترتفع خمسين قدما فوق السهل المحيط • وفي قمة هذه المنصة ، وجدت بقايا محراب (المعبد الابيض) ، وهي محفوظة بحالة جيدة وبشكـل عجيب ، ويعود تاريخها الى فترة اوروك المتأخرة • ان الوقوف بين هـذه الجدران ، التي بنيت قبل خمسة الاف سنة وخصصت لكهنة إله السـماء ، تعتبر تجربة فريدة ليس بوسع أي زائر نسيانها بسهولة •

وتتضاءل أهمية الاشكال الفنية الاخرى ازاء عظمة بناء المعابد • الا ان اختام فترة اوروك تقدم هي الاخرى اعمالا فنية متميزة وبحجم صغير • ففي ذلك العصر ، استبدلت معظم الاختام المنبسطـة بالاختـام الاسطوانيـة • والاخيرة هي اسطوانة صغيرة ، مصنوعة من الحجر الاعتيادي او شبه الكريم ، يتراوح طولها بين الانج والثلاثة انجات ، وسمكها بقدر سمك الابهام وتثقب طولياً كي يمكن لبسها مدلاة حول العنق • وعلى سطح هذه الاسطوانات ، كان يجري حفر تصاميم معينة تترك أثرها مطبوعاً على الطين عند سحبهـا عليه • ولقد صنعت هذه الاختام الاسطوانية المبكرة بمهارة عالية ، كما جرى تصميم وتزيين النماذج المختلفة للنباتات والحيوانـات ، ومشاهـد الحيـاة اليومية ، والمواضيع الميثولوجية ، بذكاء ودراية كبيرين • وتفوق الاهميـة التاريخية للاختام الاسطوانية كثيرا على قيمتها الفنية لانها المـادة الوحيـدة العائدة الى فترة اوروك التي يظهر فيها البشر فتعكس لنا التماعات عن مهنهم الحقيقية • فالختم الاسطواني الذي يصور مثلا مجزرة سجناء ، على سبيل المثال ، يوحي طبعا بالحرب مثلما يعبر تواتر ظهور الماشية في هـذه الاختام :

وهي تسير قطعاناً ، او وهي متجمعة او مهاجمة من قبل الضواري ، عن الانشغالات الرئيسة للفلاح • وتظهر كذلك صور احتفالات غريبة ينفذها كهنة عراة في عدد غير قليل من هذه الاختام • وهكذا يتوفر لدينا ولاول مرة اضافة الى الفن المصغر الجميل ، مصدر مهم للمعلومات ثبتت فائدته الكبيرة عند مؤرخي حضارة وادي الرافدين القديمة في كل الحقب التاريخية التي يتواجد فيها •

وتندهش منذ البداية لوجود انواع النقوش الفنية النفيسة والمترفة على البنايات وفي مقاطع الحجارة من جهة ، وندرتها في الادوات الفخارية ، من جهة اخرى(6) فمن كل فخار فترة اوروك ، غير الملون كقاعدة ، لا نجد ما يثير انتباهنا سوى بعض القطع السوداء الملمعة جداً ، وربما بعض الاواني المحمرة ايضا • اما بقية الفخاريات ، التي اما ان تكون غير ملونة او انها رمادية اللون ، فتتميز بالكآبة • وتفتقد الاكواب ذات المقابض والجرار ذات الصنابير المقوسة (التي تبدو بوضوح انها نسخ لقالب معدني) الى الرشاقة والجمال ، الا فيما ندر • وربما كان توفر الاواني الفضية والبرونزية ، بالاضافة الى اختراع عجلة الفخار ـ التي جعلت الانتاج الكبير ممكنا ـ مسؤولا عن ضمور فن كان مزدهرا يوما ما • ولا يستبعد ان تكون هذه الفخاريات ، على اية حال ، ذات منشأ اجنبي الاصل وانها قد تبودلت تجاريا ، او ربما استحصلت بالغزو •

غير ان فترة اوروك شهدت شيئا جديدا آخر ذا اهمية هائلة تفوق اهمية اختراع عجلة الفخار والاختام الاسطوانية او نقوش المخاريط الفسيفسائية • ولقد فتح هذا الاختراع عهدا حضاريا جديدا ، ولا تقل اهميته عن اهمية اكتشاف الزراعة في العصر الحجري الحديث • ففي معابد ايناننا في اوروك قبيل نهاية هذه الفترة ، ظهرت الكتابة لاول مرة في التاريخ على شكل رقم الكتابة الصورية •٦٠

تنتمي اصول الكتابة المستعملة في وادي الرافدين طوال العصور التاريخية المختلفة ، والمعروفة بالخط المسماري ، مثل غيرها من أنماط الكتابة البدائية القديمة والحديثة ، الى مجموعة من الرسوم الصغيرة المبسطة التي تسمى « الكتابة الصورية » • وتتميز نصوصها المبكرة التي عثر عليها في اوروك وفي اماكن اخرى بكونها معقدة بدرجة لا يمكن معها اعتبار تلك الرموز تمثل المحاولة الاولى للانسان لحفظ افكاره بكتابتها • وهناك احتمال قوي في ان تكون اولى تلك الكتابات المصورة « بكتوگرامات » قد نقشت على الخشب او رسمت على الجلود او على اوراق النباتات ، غير انها لم تصل الى ايدي المنقبين اذ لابد ان تكون قد تحللت في تربة العراق الرطبة منذ زمن بعيد • ولم تنج من هذه الوثائق الا تلك التي كتبت على الرقم الطينية •
كانت عملية الكتابة ، بحد ذاتها ، جد بسيطة • فقد كان الكاتب يتناول كتلة من الطين الجيد يشكلها في هيئة مقعد صغير ، ناعم ، مربع الشكل ، طول ضلعه بوصات قليلة • وبواسطة الحافة المائلة لقصبة من البردي ، يقوم بعدئذ برسم خطوط تقسم كل سطح من هذا المقعد الى مربعات ، ثم يملأ كل مربع برسومه المنقوشة • ويصار بعد ذلك اما الى شوي هذا الرقيم بالنار او يترك بدون شوي • والرقم المفخورة تمتاز بصلابتها الشديدة ، اما الرقم غير المفخورة ، فتتحول الى تراب بمجرد لمسها • اما اذا تم جمعها بعناية كافية ثم جرى تجفيفها تدريجيا في الظل وشويها بعدئذ في فرن ، فانها تصبح غير قابلة للتهشيم تقريبا •

وبالتدريج ، فقدت كتابة وادي الرافدين حرفها او شكلها التصويري ، فأصبحت العلامات الكتابية توضع في خطوط افقية وليس في مربعات او مجاميع عمودية مثلما كان الامر سابقا ، كما اصبحت خطوط الكتابة اصغر حجما واكثر التصاقا وصرامة وتجريدا • وبمرور الوقت ، لم تعد مقاطع الكتابة تشبه الاشياء التي كانت تمثلها ، كما اختفت الاقواس المشوشة وحلت محلها الخطوط

المستقيمة ذات السمك المتساوي • واخيرا ، تحولت الخطوط المستقيمة الى خطوط مثلثية او وتدية لان قصبة الكتابة الموشورية المقدمة كانت تغرز اولا في الطين قبل سحبها على سطحه • وفي حوالي اواسط الالف الثالث ق • م • ، تكامل هذا التطور وولدت الكتابة المسمارية الحقيقية ، على الرغم من استمرار التغيرات البسيطة الطارئة عليها بين الحين والاخر • ولقد ساعد هذا التدرج التطوري المستمر المختصين على تأرخة النصوص المسمارية بشكل مؤكد تقريبا مثلما يستطيع المنقبون تأرخة صحائف الفخار •

كتبت أغلب النصوص التي وصلتنا باللغة السومرية(8) • وتعتمد هذه اللغة ، بسبب غلبة المقطع الواحد عليها ، على المبدأ الذي يقدم لكل شيء او فكرة صوتا واحدا يساوي بدوره حرفا او مقطعا واحدا • وتتشابه اللغة السومرية في هذا المضمار مع اللغة الصينية • ولهذا السبب ، فقد كانت رموز الكتابة الاولى عديدة جدا حيث زادت على الالفي رمز يمثل بعضها اشياء سهلة التمييز كالادوات الزراعية ، الاواني ، القوارب ، رؤوس الحيوانات ، او أجزاء من الجسم البشري ، بينما لاتفصح الرموز الاخرى الا عن اشكال تقليدية خالصة • وبسبب الصعوبة الكبيرة التي يواجهها المرء في محاولته رسم الافكار بالرموز ، لذلك يحصل كثيرا ان نصادف رمزاً واحدا يستخدم للتعبير عن عدة كلمات ويمكن ان يقرأ بعدة اشكال • فالقدم مثلا لا تعنى فقط كلمة « قدم » فحسب (تلفظ « دو » في السومرية) بل تعني كذلك افكاراً ونشاطات تتصل بالقدم كالوقوف « كوب » والذهاب « جن » والمجيء او الاجتلاب « توم » • وبالتبادل ، فقد اعطيت بعض المفاهيم ذات المدلولات المعنوية المختلفة والالفاظ المتشابهة رمزاً واحدا • فالرمز الذي يعود الى القوس يستخدم ايضا للدلالة على السهم « تي » أو « تل » • وفي اللغة السومرية الكلاسيكية ، يؤشر للقراءة الصحيحة لرمز ما اعتمادا على السياق او المعنى أو باستخدام اشارات اخرى يطلق عليها اسم «تكملات صوتية » او

« محددات » او « أدوات نحوية » • غير ان النصوص القديمة لا تمتلك مثل هذه الاشارات • وبالاضافة الى ذلك ، فانها ، أي الاشارات ، وضعت بتشويش واضح ؛ كما استخدم بعضها الاخر في فترة مبكرة ثم تركت بعد ذلك ، مما ادى الى استحالة التعرف على فائدتها او فوائدها الصوتية • ولهذا السبب ، فان ليس بمقدورنا « قراءة » رقم الكتابة الصورية • فكل ما يمكننا قوله ان هذه الكتابات مثلا تمتلك كل مميزات نصوص الوثائق الاقتصادية (قوائم العمال والبضائع والوصولات ••• الخ) • وهي لاتفصح عما نريد معرفته اولا وقبل كل شيء : اي الحوادث التي جرت خلال فترة اوروك •

الدور الشبيه بالكتابي

في عام (١٩٢٥ م) ، اكتشف الاستاذ المتخصص في علم الاشوريات في جامعة اكسفورد « لانكدن » (S. Langdon) ، في جمدة نصر بين بغداد وبابل — فخارا متميزا يتألف أغلبه من جرار كبيرة سميكة منقوشة بتصاميم هندسية وطبيعية ملونة بالاسود والاحمر او باللون الاحمر فقط المضاف مباشرة الى الفخار الاصفر(9)• ثم جرى العثور بعدئذ على ما اصبح يسمى بـ « فخاريات جمدة نصر » في مواقع اخرى من جنوب وادي الرافدين وبكميات ضئيلة على الدوام • ولقد اعتبر هذا الفخار السمة المميزة لفترة حضارية سبقت بدء عهود التاريخ مباشرة اطلق عليها اسم « دور جمدة نصر» • ولدى استمرار البحث والتدقيق ، وجد ، على اية حال ، ان تواجد فخاريات ذات سمة معينة بكميات قليلة لا يمكن اعتباره كافيا للدلالة على وجود حضارة قائمة بحد ذاتها • وانه اذا توجب علينا رسم خط تاريخي فاصل ، فبامكاننا اعتبار اختراع الكتابة أشارة افضل لبدء عصر جديد ••من هنا جاء مصطلح « الدور الشبيه بالكتابي » المقترح من قبل مدرسة شيكاغو للمستشرقين والمستخدم من قبل عدد كبير من الاساتذة(10) •

ونلجأ هنا الى مصطلح « دور » وليس « حضارة » لعدم بروز اختلافات اساسية في العناصـر الحضارية بين الدور الشبيه بالتاريخي ودور اوروك • فكل ما نواجهه هنا لا يعدو لختلافا بسيطا في الشكل والنوعية • صحيح ان البقايا الآثارية لهذه الفترة ما تزال قليلة ، الا انها تكفي لاثبات غياب حصول التغيرات الفجائية في ميدان تصميم وتزيين المعابد ، وهذا أمـر لـه اهميتـه الكبيرة • فعلى الرغم من ان اهتماما اكبر قد اصبح يولى لتصميم المنصات ، الا ان نقوش المخاريط الفسيفسائية بقيت مستخدمة عموما ، واصبحت هذه المرة تثبت على الواح تلصق بالجدران بدلا من اكساء كامل مساحة الجـدار بها مثلما كان الامر سابقا • اما الاختام الاسطوانية فانها تحمل نفس المشاهد الدينية والحياتية المعروفة سابقا ، وان كانت قد باتت اكثر تقليدية وكلاسيكية • وتظهر الكتابة بشكل متزايد ولكن رموزها اصبحت اقل عددا و « واقعية » لانها استخدمت لقيمتها الصوتية فحسب • ويشبه معظم فخار هذه الفتـرة فخار اوروك المألوف ، اما فخاريات جمدة نصر النادرة فيمكن اعتبارها انتقالا في تقليعات الموضة المحلية ، ليس الا • اما دولاب الخزاف والمحراث ــ اللذان يصوران في الرقم ــ فلابد ان يكونا قد تم اختراعهما قبل هذه الفترة بوقت طويل وكذلك هي الحال بالنسبة للتعازيم المعدنية والحجرية التي تعكس بوضوح نتاج موروث حضاري اصيل • ومن بين كل هذه الاشياء ، يبقى فن النحت ممثلا للمشاركة الاصيلة الوحيدة للفترة الجديدة في مضمار تطور الفنون •

يظهر النحت ، وهو فن لم يكن معروفا ، من الناحية العملية ، في الفترات السابقة ، فجأة الان ويستخدم بولع في مختلف الاشياء • فتظهر منحوتـات لاسود تهاجم ثيرانا ولابطال يصرعون أسودا ولخنازير هائجة ولشياه وخرفان مسالمة وقد نفذت بتصميم مستو او مستدير على الاواني الحجرية والطاسات وعلى الاحواض والالواح الجدارية وعلى بعض الاختـام الاسطوانية النادرة • وتظهر كذلك اوائل التماثيل الصغيرة التي كان العباد يقدمونها لاربابهم كأيفاء

للنذور ، والاخير تقليد يتكرر كثيرا في بداية عصر السومريين التاريخي • كما وجدت في الوركاء مسلة منحوتة من حجر البازلت سمجة بدرجة ما ، تصور رجلين ملتحيين يصرعان اسدا بالرمح والسهم ، وهي من اقدم الاصول التاريخية لمشاهد الصيد الاشورية الذائعة الصيت • واذا كانت اغلب هذه المنحوتات لا تمتلك قيمة فنية متميزة ، فان هناك ايضا قطعتين فنيتين لا نظير لهما في كل كنوز العالم القديم المكتشفة حتى الان(11) • اولهما مزهرية من المرمر طولها ثلاثة اقدام منحوتة نحتا بارزا بمهارة فائقة ترينا الربة « إنانا » وهي تتقبل هدايا من رجل رفيع المقام ربما كان كاهناً او حاكما او حتى الها • وتعتبر هذه المزهرية الان من القطع الفنية الفريدة في فن النحت القديم وقد رممت لذلك بمشابك معدنية • اما القطعة الفنية الثانية فهي رأس امرأة بالحجم الطبيعي منحوت نحتا مجسما رائعا من المرمر الفاخر • ولسوء الحظ ، لم تعد العيون موجودة في مكانها • وقد جرى اخراج الوجه بمزيج من الواقعية الرهيفة وبألق فني عال نادرا ما يصادف قبل ابتداء الفترة الكلاسيكية للنحت الاغريقي •

ويعطينا التقدم التقني ، والانجازات الفنية الكبيرة ، والكتابة اعراضا لحضارة ناضجة تماما بمقدورنا تسميتها ، بدون تردد ، بالحضارة السومرية التي ولدت وانتعشت جنوب العراق وشعت على الشرق الادنى برمته واثرت تأثيرا عميقا على الحضارات الشرقية الاخرى • وبوسعنا الان اعتبار نصوص الكتابة الشبيهة بالعيلامية ، التي لم تفك رموزها لحد الان ، والتي وجدت قرب عيلام جنوب ــ غرب ايران ، قد استوحيت في الاصل من نمط الكتابة السومرية القديمة ، او انها قد كتبت من قبل اناس لهم علاقة وطيدة بالسومريين • ومع صعوبة فهم القنوات والظروف التي استعارت مصر خلالها من حضارة وادي الرافدين (12) ، الا ان القبور ما قبل التاريخية المتأخرة التي عثر عليها في نقاده بمصر اعطت اختاما اسطوانية من النوع النموذجي المستخدم في الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي للعراق • وقد استخدم المصريون هذه

الاختام ونحتوها بتصميماتهم الخاصة ؛ ولانهم لم يمتلكوا رقما طينية لسحبها عليها ـ لذلك فقد استعملوها كتمائم لعدة قرون • ونرى ايضا ان المضامين الفنية الاثيرة لدى النحاتين في وادي الرافدين ، كمشاهد الصيد والاسـود المفترسة والحيوانات ذات الرقاب الطويلة المنضفرة ، قد استنسخت من قبل النحاتين المصريين بنفس الطريقة التي قام فيها المعماريون المصريون للسلالة الاولى بتزويد مقابرهم الملكية بواجهات ذات فجوات مستعيرين بذلك تقليدا معماريا ثابتافي معابد وادي الرافدين القديمة،ولقد سبقت رموز الكتابة السومرية اكثر الحروف الهيروغليفية تبكيرا ، بل وان من المحتمل ان يكون مخترعـو الخط الهيروغليفي قد استوحوا حروفهم من الرموز السومرية المتقدمة • ان تأكد وجود هذا النوع من التأثير الوحيد الجانب ينطوي على اهمية كبيـرة خصوصا اذا وضعنا بعين الاعتبار حقيقة ان الصلات بين المركزين الحضاريين الكبيرين في الشرق الادنى كانت نادرة ومتكلفة طوال عهود التاريخ القديم •

والغريب انَ الحضارة السومرية القديمة بقيت مقتصرة على النصف الجنوبي من العراق ولم تنتشر في كل ارجائـه وان امكـن تعقب تأثيرات ضعيفة لها في ماري وفي منطقة الفرات الاوسـط الشمالي(13) • كما نقب البروفسور مالوان في الفترة الواقعة بين عامي (١٩٣٠ــ١٩٣٩ ق•م) في تل « براك » في حوض الخابور ، واكتشف معبدا نموذجيا يعود للفترة الشبيهة بالعهد الكتابي يرتكز على منصة • وقد اطلق مالوان على هذا المعبـد اسـم « العين » لاحتوائه الآلاف من التماثيل الحجرية المنحوتة بزوج من العيـون المحدقة(14) • ولكن تل براك لا يشكل اكثر من استثناء نادر وقد يمثـل مستعمرة تابعة لجنوب وادي الرافدين منعزلة عن سواها من المناطق المجاورة • ولاسباب غامضة ، فقد بقيت منطقة الجزيرة ووادي دجلة مغلقة بوجه التقدم الكبير المتحقق على مبعدة بضعة اميال نحو الجنوب • فطوال فترة اوروك ، وخلال معظم الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي ، بقي سكان تپه گوره ، مثلا ، يحاربون بالصولجانات والمقالع ، واستمروا في استخدام الاختام المنبسطة

وصنع الفخار باليد ، كما تجاهلوا الكتابة تماما مع انهم كانوا يعرفون العربة ذات العجلات الاربع ويدفنون موتاهم من الزعماء مع اثاثهم الثمين المترف الذي لم يكن يُجارى في الجنوب بعد . وقد اعقبت حضـارة تپه گوره في الشمال حضارة نينوى (الطبقة الخامسة من اعماق السبر الآثاري في نينوى) المتميزة بالفخاريات الجميلة الملونةالمصنوعة بالعجلةالدوارة. ولم يعرف سكان هذه المنطقة الاسلحة ولا الاختام الاسطوانية الا في العهد الذي كانت فيـه بلاد سومر قد ولجت العصور التاريخية . كما لم تظهر بواكير النصوص في نينوى الا عندما كان عصر « فجر السلالات » (٤٨٠٠ــ٢٤٠٠ ق . م) على وشك الافول في الجنوب عقب ظهور الفاتحين الاكديين(15) .

ولم يجر مطلقا تجاوز الفجوة الحضارية بين العراق وجنوبه بعد أن بدأت في نهاية الالف الرابع ق . م واستمرت طـوال العصور التاريخيـة القديمة . فبعد الاكديين جاء ملوك سلالة اور الثالثة السومرية ، وحمورابي في بابل ، وسيطروا على حوض دجلة الشمالي واقدام جبـال كردستان . ويبدو ، استناداً الى كتاباتهم المسمارية ان المقاطعات الشمالية كانت تعتبـر اجنبية نوعا ما وذات مستوى حضاري واطىء . وقد وضع هجوم « الحثيين » على بابل (١٥٩٥ ق . م) ، والفترة الطويلـة من الفوضى السياسية عقب السيطرة « الكاشية » عليها ، نهاية للسيطرة السياسية للجنوب على الشمال . حينذاك « انتقم » ملوك الشمال «لبلدهم » فحكم ملوك آشـور ونينوى في الشمال كل ارض وادي الرافدين . غير ان البابليين لم يرضخوا أبـدا لسيطرة هؤلاء « البرابرة » وحاولوا مرارا شق عصا الطاعة في نفس الوقت الذي كان فيه الملوك الآشوريون يقومون ، بانفسهم وباخـلاص عميـق ، بجمع النصوص السومرية القديمة ويشاركون باسـتمرار في اعياد السنة الجديدة في بابل معترفين بذلك بالفضل الكبير للحضارة القديمة في جنوب العـراق عليهم .

المشـــكلة السـومرية

منذ أن سلط الضوء على اولى مخلفات الحضارة السومرية قبل قرن من الزمان والبحث مستمر لمعرفة اصل السومريين • فمن هم اولئك الذيـن سيشغلون المرحلة التاريخية للالف سنة القادمة ؟ هل سكنوا العراق منـذ القدم ام انهم قدموا اليه مهاجرين من بلد آخر ؟ واذا كان الامـر الاخـير صحيحا ، فمتى حصل ذلك وما هو المكان الذي نزحوا منه ؟ لا تزال هذه الاسئلة باقية لحد الان دون اجابة • فحتى الاكتشافات الحديثة جدا لم تحسم الامر بل جعلت الاجابة عليها اكثر صعوبة • ولكن هذه الاكتشافات استطاعت على الاقل تقديم مواد جديدة لآراء قديمة تستند على واقع جديد • وفـي ضوء هذه الاكتشافات سنحاول هنا تفحص هذه المشكلة(16) •

جـاء اشـتقاق اسـم السـومريين مـن الاسـم القديـم للقسـم الجنوبي من العـراق « سـومر » أو ، ان توخينـا الدقـة « شـومر » الذي تشـير اليه النصـوص المسمارية عادة بالرموز « كي • أن • گي » (Ki - En - Gi) (17) ولقد تعايشت في هـذه المنطقة ثلاث مجاميع عرقيـة الواحدة جنب الاخرى منذ بداية العصور التاريخية • والسومريون هم اول تلك المجموعات حيث سادوا الجنوب الاقصى من العـراق ، بين نفر ــ قرب مدينة الديوانية ــ والخليج العربي • والمجموعة الثانية هم الساميون الذين تسيدوا وسط وادي الرافدين (في المنطقة التي اصبح يطلق عليها اسم اكد بعد سنة ٢٤٠٠ ق • م) • اما المجموعة الثالثة فقد كانت متناثرة ولا يعـرف أصلهـا ولا تمتلـك أي اسم محـدد ، ومن وجهـة النظـر التاريخيـة الحديثة ، لم يكن الخط الفاصل بين تلك العناصر الثلاثة المكونة لاول تجمع سكاني لوادي الرافدين في بداية العصور التاريخية ، سياسيا او حضاريـا

بل كان لغويا • فلكل منهم كانت تعمل نفس المؤسسات الاجتماعية وكلهم تقاسم العيش وفق نمط حياتي واحد ، كما امتلكوا نفس التراث الفني والمعتقدات الدينية والتكنيك الصناعي • اي ان جميعهم امتلك الحضارة التي قامت في أقصى جنوب العراق والتي غالبا ما تنسب الى السومريين وحدهم • اذن تبقى اللغة الوسيلة الوحيدة التي يعول عليها عند السعي لفصل وتشخيص كل واحد من الشعوب الثلاثة هذه • فكلمة «السومريين» لا تشمل سوى الشعب الذي كان يتحدث باللغة السومرية وليس اي شعب آخر • ويقصد بالساميين اولئك الذين كانوا يتكلمون لهجة سامية • وفي الحقيقة ، كان يمكن اغفال وجود العنصر السكاني الثالث لو لم توجد نصوص قديمة ــ وعددها قليل ويعثر عليها متناثرة هنا وهناك ــ تحتوي اسماء ليست سومرية ولا سامية • ويفسر لنا هذا الواقع سبب فشل كل المحاولات المبذولة لتحديد وتقييم العلائق بين السومريين والساميين في كل الحقول الاخرى عدا اللغة(18) • وهناك حقيقة اخرى جديرة بالملاحظة وهي عدم وجود جنس سومري لا بالمفهوم العلمي ولا الاعتيادي • فالجماجم المأخوذة من القبور السومرية ثبت بعد فحصها انها اما ان تكون جماجم طولية « دوليجو سيفالي » ، او مفرطحة « براكيسيفالي » • ويدلل هذا على امتزاج ما يسمى بالجنس الارميني مع جنس البحر الابيض المتوسط ، وان كان الجنس الاخير هو الغالب بدرجة ما(19) • اما بالنسبة للصفات الجسمية التي يمكن استخلاصها من التماثيل المنحوتة فهي تقليدية ولاتمتلك كبير اهمية في الحقيقة • فالانف الكبير والعيون الواسعة والاعناق الغليظة والقذال المسطح ــ وهي الصفات النموذجية المميزة للعنصر السومري ــ تظهر كذلك في تماثيل لاشخاص يحملون اسماء سامية والمتواجدة في مناطق سامية ايضا كمدينة ماري على سبيل المثال ؛ بينما ترينا المنحوتات ذات الحجم الطبيعي، كتلك التي تعود الى گوديا حاكم لگش السومري، انفا مستقيما قصيرا ورأسا طويلا •

فاللغة وحدها اذن هي التي تستطيع ان تفهرس جيدا العلاقات العرقية، فالاغارقة والحثيون والهندوآريون ، على الرغم من انتشارهم على رقعة شاسعة ، يتصلون ببعضهم الآخر بواسطة اللغات الهندواوربية التي يتكلمونها والتي يمكن ان تكون قد جاءت من موطن مشترك جنوب شرق اوربا . ولكن الامر يختلف تماما مع السومريين حيث لا تقدم لنا اللغة هنا اي عون ، فاللغة السومرية لغة إلصاقية اي انها تتألف من جذور فعلية تتغير أو تتداخل حسب موقع الادوات النحوية . وهي لذلك تعود الى نفس المجموعة اللغوية التي تضم لهجات عديدة يستخدمها الهنگاريون والبولنزيون(*) ، وان كانت لا تشبه عن قرب أية لغة معروفة من اللغات المندثرة أو الباقية . ويقدم لنا الادب السومري صورة لشعب مجد مثقف ، وجد متدين ، غير انه لا يعطينا معلومات عن أصله . وتدور حوادث القصص والاساطير السومرية في وسط غني بالانهار والبحيرات وبالبردي والنخيل ــ وهذه خلفية نموذجية لمنطقة جنوب العراق ــ وتعطي انطباعا قويا بأن السومريين قد عاشوا دائما في ربوع هذه المنطقة . وليس هناك ما يؤكد وجود اي موطن سالف للسومريين يختلف عن وادي الرافدين(20) .

ازاء كل هذه الصعوبات ، يتوجب علينا العودة الى علم الآثار ، اي الى العناصر المادية المكونة لحضارة السومريين . والسؤال الذي يفرض نفسه الان هو : اي من هذه المجموعات العرقية المختلفة المسؤولة عن قيام الحضارات المتعاقبة في العهد الشبيه بالكتابي في وادي الرافدين يمكن

(*) سكان الجزر «البولنيزيه» التي هي احدى الاقسام الثلاثة الرئيسية المكونة لجزر اوقيانوسيا ، وتتألف من جزر تقع في المحيط الهادي وتمتد من هاواي حتى نيوزيلندا . وتعود لغة البولنيزيين الى مجموعة اللغات « الاسترونزية » اما اللغة الهنكارية فتعود الى المجموعة « الاوگريه » (فرع من اللغات الفينو ــ اوگريه) وتشمل بالاضافة الى الهنكارية اللغتين الاوستياكيه والفوغليه في غرب سيبريا .

تشخيصها بانها هي الشعب الذي أصبح يتكلم اللغة السومرية في العصور التاريخية؟الا ان المعضلة يستعصي حلها بهذه الطريقة لاننا لا نعرف اللغات التي كانت سائدة في وادي الرافدين قبل فترة اوروك(*) وكل الاجابات المقدمة في هذا الصدد انما تعتمد على تعميمات عريضة وتفكرات ملهمة او حتى على تخمينات مجردة • وينقسم العلماء في هذه المسألة الى فئتين تذهب الاولى الى ان السومريين قد استوطنوا وادي الرافدين خلال فترة اوروك بينما تؤكد الفئة الاخرى بأنهم كانوا هناك على الاقل منذ فترة العبيد • وليس بوسعنا ، في هذا المكان ، الدخول في مناقشات مفصلة حول طبيعة هذين الاعتقادين غير انني اميل الى النظرية الثانية • صحيح ان الكتابة السومرية تظهر اول ما تظهر في نهاية فترة اوروك ، ولكن هذا لا يعني ان اللغة السومرية لم تكن مستعملة قبل تلك الفترة • كما ان ورود أسماء أماكن سومرية ولا سامية في ادب وادي الرافدين القديم لا يعني بالضرورة الاشارة الى اقوام استوطنت هذه المنطقة أبان حقبة تاريخية اكثر قدما من السومريين والساميين • اما بالنسبة الى التطور الحاصل في اسلوب صنع الفخار الذي يؤشر بداية فترة اوروك ، فليس بمستطاع احد أن يؤكد كونه قد حصل بفعل الغزو الاجنبي وانه لم يكن محض تطور محلي خالص في اشكال الموضة • وفي الواقع تبدو فترة اوروك من كل الاوجه ، عدا الفخار ، بانها نتاج تطور مستمر لاوضاع كانت موجودة فعلا إبان فترة العبيد • كما يعتبر استمرار التقاليد الدينية ذاتها عبر هاتين الفترتين امر له دلالاته المهمة بشكل خاص • فاذا ما اخترنا مثالا واحدا فقط من بين عدة امثلة اخرى ، فاننا نجد ان الطبقة السميكة من عظام الاسماك التي وجدت تغطي معابد العبيد في أريدو(21) تقطع بان الاله المعبود هناك لم يكن سوى اله الماء السومري « آنكي » •

(*) وسبب هذا بطبيعة الحال عدم وجود مدونات مكتشفة تعود الى قبل تلك الفترة التي تم في غضونها اختراع الكتابة .

هل بامكاننا « اقتفاء » أثر السومريين الى عصور أبعد في الماضي ؟ اذا قبلنا الفخار مقياسا موثوقا ، فان سكان العبيد يبدون وكأنهم قد وفدوا من ايران ؛ كما ان هناك مؤشرات توضح انهم ، على الاقل في شمال العراق، قد سلكوا سلوك الفاتحين ففرضوا قوانينهم على السكان الاقدم منهم . ومن الناحية الاخرى ، فان فخار أريدو يوحي بأن السكان الاوائل في جنوب العراق يعودون ، بهذا الشكل أو ذاك ، الى العبيد والحلفيين الشماليين ، وكأنهما لم يكونا غير فرعين لاصل واحد . وبالتأكيد فان الحلفيين يمكن أن يكونوا قد انحدروا بدورهم من مزارعي العصر الحجري الحديث في حسونة وجرمو . وهكذا كلما حاولنا دفع حدود مشكلتنا أبعد في بطون التاريخ ، كلما ضاقت واختفت في مجاهل عصور ما قبل التاريخ لدرجة أننا نصل في النهاية الى حد التشكك أصلا بمواجهتنا لثمة مشكلة جدية حقا . لقد كان السومريون ، شأنهم شأننا ، مزيجا من الاجناس وربما ايضا من الشعوب ؛ كما كانت حضارتهم ، كحضارتنا ، مزيجا من العناصر الاجنبية والمحلية الاصلية . اما لغتهم فتعود الى مجموعة لغوية كبيرة غطت كل منطقة غربي آسيا وربما امتدت أبعد من ذلك . واعتمادا على هذا ، يمكن أن يكون السومريون تفرعا لشعب استوطن الجزء الاكبر من الشرق الادنى في العصور الحجرية الحديثة والعصور الحجرية — المعدنية المبكرة . أي انهم ، باختصار ، يمكن ان يكونوا قد تواجدوا دائما في أرض العراق منذ تلك العصور السحيقة في القدم . وبهذا الاستنتاج نأتي على نهاية حديثنا حول مشكلة أصل السومريين متذكرين قول واحد من اكثر المستشرقين عبقرية في هذا الصدد (هـ . فرانكفورت) (H. Frankfort) « بأن المناقشة المسهبة لهذه المشكلة يمكن تماما أن تتحول في النهاية الى ملاحقة وهم لا وجود له مطلقا »(22) .

الفصل السادس

آلهة سومر

وبغض النظر عن الاصل الحقيقي للسومريين ، فلاشك أن حضارتهم قد تفتحت ، منذ عصور ما قبل التاريخ ، في ربوع العراق نفسه فعكست مزاج وطموحات المجتمع الفلاحي المحافظ المستقر الذي الف على الدوام العمود الفقري لهذا البلد . وليس هناك من شك في كون هذه الحضارة « عراقية » أساسا وجوهراً . ولهذا السبب ، فقد استمرت باقية حتى بعد إختفاء السومريين كأمة سائدة حوالي عام (٢٠٠٠ ق . م) ، وتثبتت واستمرت تستخدم من قبل الآموريين والكاشيين والكلدانيين (وهي الاقوام التي حكمت وادي الرافدين بالتعاقب بعد السومريين) بعد أن طرأت عليها بعض التحويرات الطفيفة . ولم تكن الحضارة الاشورية ــ البابلية للالف الثاني والاول قبل الميلاد لتختلف جوهريا عن حضارة السومريين القديمة . وعندما تتناول دراسة هذه الحضارات المختلفة من أية زاوية ، فاننا نضطر دائما الى العودة لتفحص النموذج السومري الاساس .

ويصح هذا الامر بشكل خاص في ميدان الدين • فلأكثر من ثلاثة آلاف عام ، عبدت آلهة سومر من قبل السومريين والساميين على حد سواء • ولاكثر من ثلاثة آلاف عام ، لعبت المعتقدات الدينية السومرية دوراً غير اعتيادي في توجيه مناحي الحياة العامة والخاصة لسكان وادي الرافدين، فقولبت مؤسساتهم وأغنت أعمالهم الفنية والادبية وعمت كل نشاطاتهم : من أرفع مهام الملوك وحتى أصغر الممارسات اليومية لرعاياه • ولم يلعب الدين الدور الكبير الذي لعبه هنا قط في أي مجتمع قديم آخر لان الانسان في هذا المكان كان يشعر على الدوام بانه معتمد كلياً في استمراره بالوجود على ارادة آلهته • ولقد كان لتبلور المجتمع السومري القديم حول المعابد واعتماده قاعدة ثيوقراطية في تنظيمه الابتدائي نتائج وتأثيرات عميقة وبعيدة المدى • فمن الناحية النظرية ، كانت الارض ، على سبيل المثال ، ملكاً للالهة ، لذلك نلاحظ ان الملوك الآشوريين الاقوياء ، الذين بسطوا سيادتهم على امبراطورية شاسعة امتدت من نهر النيل الى بحر قزوين ، لايعتبرون أنفسهم اكثر من عبيد متواضعين يسعون لارضاء الههم آشور ، مثلما كان حكام مدينة لگش السومريين قبلهم ، الذين لم تتجاوز سلطتهم حدود بقعة صغيرة من ارض وادي الرافدين مساحتها بضعة أميال مربعة ، يعتبرونها ملكاً لإله مدينتهم « تنگرسو » • ولكن هذا لا يعني أن العوامل الاقتصادية والنفسية لم تأخذ دورها الطبيعي الفاعل في رسم تاريخ العراق القديم ، كما هو شأنها في رسم تاريخ شعوب البلدان الاخرى • غير أنه لا يجب أبداً التغاضي او التقليل من شأن دور الدوافع الدينية في هذا التاريخ • وكتوطئة للعصور التاريخية التي نوشك على دخولها ، نجد من اللازم ان تقدم وصفاً موجزاً لمجمع الآلهة السومرية ولافكارهم الدينية المختلفة(1) •

مجمع الآلهة السومري

نستقي معلوماتنا عن المعتقدات الدينية والقيم الاخلاقية لبلاد وادي الرافدين من نصوص متنوعة تشمل القصص والاساطير الملحمية ، الطقوس والتراتيل ، الصلوات والتعازيم الدينية ، بالاضافة الى قوائم بأسماء الآلهة ومجاميع للاقوال المأثورة والامثال الدارجة ... الخ . وقد وصلتنا هذه المواد من ثلاثة مصادر رئيسية هي مكتبة الكهنة في نفر (المركز الديني للسومريين) ومكتبتي قصر ومعبد آشور في نينوى . وقد دونت بعض هذه النصوص باللغة السومرية(2) ويعتبر البعض الاخر منها نسخاً آشورية او بابلية لتقاليد سومرية الاصل وان كان لايوجد لقسم منها ما يوازيه في الادب السومري المكتشف لحد الان . واذا كانت تواريخ تدوينها الفعلي تتراوح بين نهاية الالف الثالث ق . م والقرون القليلة الاخيرة السابقة للميلاد ، الا ان بوسعنا الافتراض بأنها تجسم تقاليد شفوية موروثة تعود في الحقيقة الى فترة عصر فجر السلالات (٢٨٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق . م) ، بل وربما الى فترة أبعد من ذلك حيث ان عدداً من الآلهة السومرية والمشاهد الاسطورية يمكن تمييزها بوضوح وهي ظاهرة على الاختام الاسطوانية والمنحوتات العائدة الى فترة اوروك والفترة الشبيهة بالعهد الكتابي . أما عن احتمال وجودها قبل هذا التاريخ ، فانه يتعذر علينا تقديم الدليل الايجابي القاطع عليه وان كانت الاستمرارية غير المنقطعة للتقاليد المعمارية الموروثة ، وبناء واعادة بناء المعبد فوق الاخر في نفس المنطقة ، توحي لنا بأن بعضاً من الآلهة السومرية كان معبوداً في منطقة جنوب العراق إبان فترة العبيد .

ومع التطور التدريجي لحضارة جنوب وادي الرافدين ، ظهرت طبقة من الرجال توفر لها الوقت الكافي لتتأمل في المعضلات الكبيرة حول أصل البشر والخير والشر والموت والحياة الاخرى • وبالتأكيد ، فقد كانت عملية صياغة الافكار الدينية وصبها في هيئة أساطير تسير ببطء متدرج • وقد اضطلعت بهذه المهمة « مدارس » كهنوتية عديدة في أوقات متزامنة • ولكن، وبطريقة ما ، فقد أمكن في النهاية التوصل الى اتفاق عام على المبادىء • فبينما احتفظت كل مدينة بآلهتها الخاصة وبمجموعتها الاسطورية المتميزة ، نجد ان البلد كله كان هيكلا مشتركاً للالهة • وكان المجمع الالهي المقدس يدرك على اساس انه نسخة مطابقة للمجتمع البشري في سومر وينظم وفق هذا الاعتبار • فقد أسكنت السماوات بمئات من المخلوقات شبه البشرية الجبارة وحدد لكل منها مجال نشاط خاص • فكان أحدها يسيطر على السماء ويهيمن الآخر على الهواء والثالث على المياه العذبة وهلم جراه • حتى نصل الى المعبودات المتواضعة المسؤولة عن الحراثة والطابوق والصوان والمعاول • وفي الحقيقة ، فان تعابير «مسيطر على» أو «مسؤول عن» هي مسميات غير دقيقة تماما لان السومريين كانوا يؤمنون بأن كل عنصر او كل مجموعة من الاشياء تمتلك كينونة دينامية ولها مجموعة من المقومات النشيطة « وارادة » خاصة بها وان الآلهة تتجسم في هذه القوى المتأصلة في الطبيعة(3) • ولهذه الالهة ، مثل الألهة الاغريقية، كينونة جسدية ولها كل خصال وأخطاء البشر • فعلى الرغم من علمها وثقافتها الواسعة ، الا ان افكارها قابلة للنضوب • وعلى الرغم من عدالتها ، الا انها عرضة للحب والكراهية ، للغضب والغيرة ، ولكل العواطف البشرية الاخرى • وهي تأكل وتشرب وتثمل وتتخاصم وتتحارب وتتألم ويمكن أيضا أن تجرح ، بل وحتى ان تموت ، أي ان تذهب للعيش في « العالم الاسفل » • وبايجاز ، فقد كانت الالهة تمثل أفضل جوانب الطبيعة البشرية وأسوأها ، موضوعة في ميزان فوق بشري (سوپرماني) •

ولم تكن آلهة وادي الرافدين ذات مكانة او مركز متساو • فبعضها كان قليل الاهمية نسبيا لا يخصص له أكثر من مصلى صغير في زاوية من شارع ما • وكانت أهمية بعضها الاخر تقتصر على المدن التي تعبد فيها مثل الالهتين « شارا » و « وزبابا » (حاميتي « أوما » و « كيش ») شأنها شأن اقتصار هيبة الحكام على مقاطعاتهم فحسب • غير ان آلهة أخرى ، على الرغم من تخصص عبادتها في مدن معينة ، كانت ، بسبب طبيعتها ، معبودات جماهيرية شبه عامة كإله القمر « ننا » (يسميه الساميون « سن ») الإله الحامي لمدينة اور وأبنه (4) إله الشمس « اوتو » (« شمش » عند الساميين) ، الإله الحامي لمدينة « سبار » و « لارسا » • وكلاهما « مبدد للظلام » ، وهذه قدرة تحوز معنى مجازياً مؤثراً على كل مخلوق بشري • فبينما كان إله القمر «يقرأ المستقبل المجهول ويعرف مصائر الجميع» ، كان اله الشمس «يفضح الاشرار ويكشف العدول» عندما «يفيض ضياؤه القوي على الارض » • ولنفس هذه المجموعة يعود الإله « ننورتا (إله الحرب) و «نن ـ خورساك» (الالهة الام) ، «وأي ـ أنا» إلهة الحب والانجاب (المعروفة بشكل أفضل باسمها السامي « عشتار ») مع بعلها « دموزي »•

ويستحق دموزي (تموز ، بالسامية) ذكراً خاصاً هنا بسبب الاعتقاد الخاطىء السائد سابقاً بكونه إله الخضرة الذي يموت ويبعث كل عام رمزاً لاختفاء العشب والحبوب في الصيف وظهورهما من جديد في الربيع(5) • وقد تأسس هذا الاعتقاد بالاستناد على مجموعة من النصوص البابلية تدعى « مرثية الاله تموز » ـ التي تندب باسلوب شاعري وفاة ذلك الإله ـ وبسبب سوء فهم الاسطورة السومرية ـ الاكدية لنزول الإلهة « اي ـ ننا » (عشتار) الى العالم الاسفل(6) ؛ وعبادة الإله « ادونيس ـ تموز التي كان الفينقيون يمارسونها في نهاية الالف الاول ق • م • الا ان قراءة حديثة متطورة للاسطورة السومرية المذكورة آنفا ـ بالاضافة الى

مراجعة مستفيضة لكل الادب الديني المتوفر ـ حدت ببعض الاساتذة الكبار أمثال كريمر (Kramer) وجاكوبسن (Jacobson) وفالكنشتاين (Falkenstein) الى الاستنتاج بأن دموزي لم يبعث ابداً اذ لم يتم فك أسره مطلقا من غياهب العالم الاسفل بفضل تدخل « أي ـ انا » مثلما كان يعتقد سابقا ، بل انه قد أكره للذهاب الى هناك كي يحل محلها ومنع من العودة الى الارض ثانية(7) • لذلك فان من الضروري نبذ فكرة « إلـه الموت والبعث » الاثيرة عند بعض المؤرخين المختصين بالدين ، على الاقل فيما يتعلق بالاله « دموزي ـ تموز » • مع هذا فانه ليس بمستطاعنا نكران حقيقة انه كانت لدموزي(*) صلة قريبة بالخضرة والاغنام والبقر • ويمكن اعتبار اتحاده (زواجه) بالهة الحب مثلا نموذجيا (لعبادة الخصب) التي مورست من قبل شعوب الشرق الادنى قاطبة منذ العصر الحجري الحديث • غير أنه يجدر بنا ان نؤكد في هذا المجال بأن قوى الاخصاب في بلاد سومر لم تكن احتكارا او امتيازا يختص به الهان فقط • فالدور الذي كانت تلعبه « اي ـ ننا » مع زوجها في اوروك ، (وهي منطقة سكنهما) ، استطاعت أن تفي به آلهة اخرى ، لم تكن تمتلك بالضرورة ذات الشخصية الزراعية القوية ، في غيرها من المدن • ويعترف الان بشكل عام بحقيقة ان كل دولة مدنية كانت تؤمن خصب مراعيها وقوة اخصاب شعبها وماشيتها بواسطة « الزواج المقدس » بين الإله الذي يحميها وواحدة من آلهتها الخاصة ، وهو الزواج الذي كان يحتفى به ربيع كل عام ويشكل عنصراً أساسياً من احتفالات السنة الجديدة التي سنأتي على وصفها بعدئذ •

(*) يعتبر دموزي الان الهاً تابعاً الى العالم الاسفل (chtonic) في الميثولوجيا السومري (المؤلف) بات راي المؤلف هذا باطلا في ضوء النصوص المسمارية التي نشرها كريمر والتي تثبت بصورة قطعية ان تموز يبعث الى الحياة من جديد .

واخيرا تأتي الآلهة الذكور الثلاثة الذين امتلكوا شخصية قائدة في هيكل الالهة السومري وهم « آن » ، « إنليل » ، « آنكي » .

جسد الاله « آن » (« آنـو » او « آنـوم » في اللغـة الاكديـة) « شخصية السماء الجبارة »(8) (التي أشتق اسمه منها) واحتل المنصب الاول في هيكل الآلهة السومري . وقد كان هذا الاله في الاصل (يقـع معبده الرئيسي في اوروك) أعلى قوة في الكون وأب وملك كل الالهة الاخرى . وكما يفعل الآباء ، فقد كان يفصل في منازعاتهم وقراراته ، كقرارات الملك ، مطلقة لاتقبل الرد ولا الاستئناف . غير ان الاله « آن » ـ على الاقل في الميثولوجيا السومرية الكلاسيكية ـ لم يلعب دورا مهما في تقرير شؤون الارض وبقي « منعزلا » في السماء كرمز مهيب ولكنه باهت نوعا ما . وفي غضون فترة غير معروفة ،(9) ولسبب غامض ، رفع الاله الحامي لمدينة « نفر » ، وهو «انليل» الى ماكان في الحقيقة «المنزلة الاعلى» ؛ واصبح ، بمعنى ما ، الاله الوطني لكل بلاد سومر . وعقب مرور فترة طويلة ، انتزعت منه مكانته وسلطته من قبل اله بابل الغامض « مردوخ » الذي كان انليل ألين منه بكثير . واسم انليل يعني « سيد الهواء » الـذي يفيض (ينفخ) عظمة وحركة وحياة . وهو الاله الوحيد الذي كان بامكانه الادعاء بأنه « القوة السماوية التي فصلت الارض عن السماء »(10) ، اي القوة التي خلقت العالم . وجعله عباد مدينة نفر سيد البشرية وملك الملوك أيضا . واذا كان « آنو » او « آن » هو الاله الذي احتفظ بشارة الملوكية ، فان « انليل » هو الذي كان « يختار » حكام سومر ويضع على رؤوسهم التيجان المقدسة . وكما يقوم الملك العادل بتنظيم أمور مملكته باوامره ، كذلك قام « إله الهواء » « برفع العالم عندما تفوه بكلمة مجردة » :

فبدون إنليل « الجبل العظيم » ،
ما كان بالامكان تشييد أية مدينة ،
ولا بناء أية مستوطنة ،

ولا كان يمكن اقامة اية مرابط او حظائر للاغنام ،
وما كان يمكن « رفـــع » اي ملك
ولا يولد اي كاهن جليل ...
ومياه الانهار ما كانت لتتدفق فيضاناتها الغامرة ،
وطيور السماء ما كـــانت لتبني اعشاشـــها في الارض البريـــة ،
واســـماك البحـــار ما كـــانت لتضع بيوضها في أجمات القصب ،
وفي السماء ، ما كانت السحب لترسل امطارها ،
والنباتات والاشجار ، مفخرة السهول ، ما كانت لتنمو ،
وفي الحقول والمروج ، لم يكن للحبوب الطيبة أن تزهر
والاشجار الشامخة في غابات الجبـــال ، لم تكن لتثمر ...(11)

اما شخصية الاله الاكبر الثالث فهي اكثر غموضا وتعقيدا . فاسـم « آنكي » يعني ، حرفيا ، « سيد الارض » . ولان الارض لايمكن ان تثمر بدون الماء ، لذلك نجد ان « آنكي » يصبح اله المياه العذبة التي تجري في الانهار والقنوات والتي تسيل من الينابيع والابار ، جالبة الخصب والنمـاء الى دلتا وادي الرافدين . وكان الساميون يطلقون عليه اسم « ايا » ومعناها « بيت » او « معبد المياه » (12) . امتلك آنكي كل خصائص الماء واهـب الحياة ، فهو دائم الوجود ، رائق ، مطهر ، ومخصب ، وهو ايضا ــ كمـا توحي لنا ملحمة « ادابا » ــ متقلب ، مخادع ، وذو سحر خؤون . كمـا كان « آنكي ــ ايا » (حامي اريدو) اله الحكمة والذكاء ، فهو « ذو الاذان الواسعة الذي يعلم بكل ماله اسم » . وكان ايضا ملقن وحامي الصناعـات والحرف والفنون والاداب ، وهو حامي السحرة والمعلم العظيم والناظـر

الجبار الذي اخذ على عاتقه ضمان تأدية العالم المخلوق من قبل انليل لواجباته بشكل مناسب ، وهو :

الاخ الاكبر للالهة وخالق الازدهار ،
الذي يوازن ويحسب الكون !
وهو أذن وعقل كل البلدان .(13)

كما كانت هناك ايضا آلهة سومرية مهمة اخرى سنلتقي بقسم منها في الفصول القادمة . غير ان « آن »و « إنليل» و «آنكي» كان اعظم الالهة طرا حيث حكما العالم « بالقوة والحكمة الضرورية » وشكلا « الثالوث المقدس » المسؤول ليس فقط عن الاعمال التقليدية للكون ، بل وعن خلقه كما سنرى قريبا .

* * *

قصص الخليقة

تخيل سكان وادي الرافدين الارض في هيئة قرص مسطح محاط بحاشية من الجبال يطفو على محيط من المياه العذبة « الآبسو او الآبزو » . وعلى الجبال يستقر قوس السماء الذي يفصل الجو (ليل) عن الارض والذي تدور حوله الاجرام السماوية . وهناك نصف آخر مشابه يضم « العالم الاسفل » تحت الارض حيث تمكث أرواح الموتى . والكون كله (أنكي ، سماء ـ ارض) ينغمر ، كفقاعة كبيرة ، في محيط لاحدود له من الحياة البدائية غير المخلّقة . ولم تكن الارض عندهم لتشمل اكثر من وادي الرافدين والمناطق المجاورة له تماما . وفي وسط هذه « الارض » تقع مدينة « بابل » (بالنسبة للبابليين) ، وربما « نفر » (بالنسبة للسومريين) اما كيف تم خلق العالم ؟ ومن هو الذي خلقه ؟ فقد كانت أسئلة تتباين الاجوبة عليها حسب تباين الموروث الاسطوري المعتمد(14) . فتذكر احدى الاساطير بأن « آنو » هو الذي خلق السماوات وان « أنكي » قد خلق « الآبسو » مقرا (منزلا) له . وتنسب اسطورة ثانية خلق الكون الى اربعة آلهة عظيمة عملت بالتضامن . وتذكر احدى التعازيم التي كانت تستخدم لطرد « الحشرة » التي تسبب وجع الاسنان ، بأن « آنو » هو خالق السموات التي خلقت بدورها الارض ثم قامت الارض بخلق الانهار التي خلقت القنوات فالاهوار التي خلقت تلك « الحشرة » . غير ان هذه السلسلة تشبه حدوثات الاطفال (« البيت الذي بناه جاك » لدى الاطفال الانكليز مثلا)(*) ولا يمكن

(*) تستخدم هذه السلسلة لتعليم الطلاب اسماء الاشارة الانكليزية وتقول: « هذا هو البيت الذي بناه « جاك » الذي تزوج بائعة الحليب التي حلبت البقرة التي نطحت الكلب الذي نبح على القطة التي اكلت الفارة التي ... الخ » .

الركون اليها • وهناك نسخة طريفة أخرى تستحق الاهتمام ، وتعود الى مدينة « سبار » ، تذهب الى القول بأن اله بابل العظيم « مردوخ » قد بنى مصطبة من البردي (= زورقا) على سطح الماء ثم خلق التراب وأهاله حولها • وواضح هنا اننا حيال وصف دقيق للطريقة التي يعتمدها عرب الاهوار جنوب العراق في صنع الجزر الاصطناعية لاقامة اكواخهم المصنوعة من البردي عليها(15) • وبصورة عامة ، فقد كان السومريون يعتقدون بأن « المحيط البدائي »، المشخص بالإلهة « نمّو » ، قد انجبت لوحدها سماءً (ذكراً) وارضاً (انثى) فقط • فارتبطت السماء بالارض ، وكثمرة لاتحادهما ببعضهما ، ولد الاله انليل رب الهواء الذي فصل السماء عن الارض وقام ، مع الاخيرة ، بخلق كل المخلوقات الحية • ان النظرية التي تقول بأن المحيط كان العنصر البدائي الذي جرى خلق الكون منه ، وان الاخير (اي الكون) قد تنج من انفصال الارض عن السماء (وهو الانفصال الذي فرض بالقوة من قبل مجموعة ثالثة من الألهة) كانت شائعة عموما في سومر وبابل وآشور ، وتشكل الاساس الذي تعتمد عليه واحدة من اكثر قصص الخليقة التي بحوزتنا كمالا وتفصيلا وهي الملحمة البابلية العظيمة التي تسمى من اول جملة تبدأ بها « إينوما ايليش ••••» (حينما في العلى •••) غير « ان قصة التكوين البابلية » تمتلك مضامين فلسفية واسعة اذ تصف الخلق ليس باعتباره بداية بل كنهاية ، وليس باعتباره عملا غير مبرر وغامض اجترحه إلـه واحد ، بل كنتيجة لمعركة كونية بين ذينك الوجهين للطبيعة : الخير والشر ؛ النظام والفوضى •

و « إينوما إيليش ••• » قصيدة طويلة كتبت في سبع رقم جرى تأليفها اصلا خلال العصر البابلي القديم ، ابتداء من الالف الثاني قبل الميلاد، على الرغم من كون كل النسخ المكتشفة لحد الان تعود الى الالف الاول قبل الميلاد • ويلعب الدور الرئيسي في معظم النسخ « مردوخ » (الإلـه

الحامي لمدينة بابل) ، غير انه عثر على نسخة اشورية تستعمل اسم الالـه « آشور » (الـه موطن الاشوريين) بدلا من « مردوخ » • ومن ناحيـة اخرى ، فان احدى تلك الاشعار تطلق لقب « انليل الالهة » على مردوخ • وكما نعـرف ، فان مردوخ كان قـد اغتصب المنصب والامتياز من الالـه السومري « انليل » • لذلك ، فان بوسعنا التخمين شبه متأكدين بأن بطل الملحمة الاصلي كان الإله انليل كما تذكر لنا ذلك نظريـة نشأة الكـون السومرية المذكورة آنفـاً(16) •

استوحى واضعو أساطير وادي الرافدين الهامهم من مواقع بلدهـم • فلو وقفنا اليوم في صباح يوم كثيف الضباب قرب ساحل العراق الحالي في فم شط العرب ، فما الـذي سيلـوح لناظرنا ؟ سـنرى ، بلا ريب ، سـحبا منخفضة تتعلق في الافق ، وينابيع مياه عذبة تنز من تحت الارض وتختلـط بالمياه المالحة للخليج • اما المسطحات الطينية المنخفضة المؤلفـة للارض اليابسة ، فلا يمكن رؤية أكثر من بضعة اقدام منها • وكل ما حولنا مـن السماء والارض والبحر يمتزج في فوضى مائية ــ ضبابية مبهمة ، هكـذا تصور مؤلفو هذه الملحمة ، الذين يجب ان يكونوا قد لاحظوا مرارا مثل هذا المشهد ، كيفية بدء تكون العالم • فعندما « لم يكن هنـاك اي شيء مسمى » ــ اي عندمـا يكن هناك اي شيء مخلـوق ــ كتب واضـعو هذه الاسطورة : «كونت» «الآبسو (المياه العذبة) و تيامة (المياه المالحة) و « ممو » (الغيوم) مع بعضها جسما مضطربا واحدا » :

إينمـا لانبّو شمامو •••
حينما في العلى لم تكن السماء قد سميت بعد ،
والارض الصلدة تحتها لم تكن تحمل اسما ،
كان خالقهما « آبسو » الاصيل وحده موجودا .
(وكذلك) « ممّو » (و) « تيامة » التـي حملتهـم كلهم ،

كانت مياههم تمتزج في جسد واحد ؛
وحينما لم يكن اي كوخ من البردي قد تم نسجه بعد ،
ولا اية ارض قد ظهرت من المستنقع ؛
حينما لم يكن اي من الالهة قد خلق ،
او سمي ـ حيث كانت اقدارهم مجهولة ـ
عندئذ تكونت الآلهة من بعضها ...

وتبدأ في الوسط الذي وصفناه قبل قليل قطع اكبر من الارض اليابسة بالظهور من بين الضباب ، كلما ارتفعت الشمس ، ويظهر بوضوح خط الافق الفاصل بين السماء والمياه ، وبين الاخير والارض . لذلك كان أول الالهة في هذه الاسطورة ، وهما « لخمو » و « لخامو » يمثلان الطمى . ثم جاء « انشار » و « كيشار » الافقان التوأمان للسماء والارض . ثم أنجب « انشار » و « كيشار » ابنهما الاله « آنو » الذي أنجب بدوره الاله « أيـا » (انكي) . وفي نفس ذلك الوقت ، او بعده بوقت قصير ، ولدت عدة آلهة أدنى مرتبة من آبسو وتيامات . ولا تذكر القصيدة شيئاً عن تلك الآلهة عدا كونها مرحة ونشيطة وصخابة بحيث انها أزعجت «جوف» تيامات وأثارت غضب الوالدين لدرجة انهما قررا القضاء عليها تماما . وعندما علمت بخطتهما الآلهة الكبيرة : « لخمو » و « لخامو » و « انشار » و « كيشار » و « آنو » و « ايـا » اندهشت كثيرا واصابها الوجوم نتيجة ايمانها بحقيقة كون حيوية الحياة افضل من السلام المبني على (الخمول) والفوضى العميقة . وعلى اية حال ، فان « ايـا » ، الاله الاكثر حكمة ، اهتدى لطريقة لافساد مسعى الوالدين الشريرين بوضعه « خطة محكمة » : حيث سلط « نوبة » سحر على « ممو » سببت لـه الشلل ، كما جرى بنفس الطريقة تنويم « آبسو » وذبحه . بعد هذا الانتصار المزدوج ، عاد

« ايـا » الى معبده ، المؤسس الان على لجة المياه العذبـة (آبسـو) وانجب مع زوجته « دامكينا » ابنه « مردوخ » الذي امتلك صفات فذة

تامة كانت اعضاؤه بدرجة لا تصدق ...
كان غير ممكن الفهم ومتعذرا على الادراك .
اربع كانت عيونه واربع كانت اذانه ،
وحالما تنفرج شفاهه ، تنبعث السنة اللهيب .
كبيرة كانت اعضاء سمعه الاربعة
وعيونه ، مثلها في العدد ، ترى كل شيء .
كان اكثر الآلهة شموخا ، خارق القوام ،
اعضاؤه كانت عديدة ، وكان عملاقا ....

واثناء ذلك كانت « تيامة » ما تزال حية طليقة فاستبد بهـا الغضب واعلنت الحرب على الآلهة . فخلقت عددا من التنانين الوحشية والافاعي « ذات الاسنان الحادة والانياب المتعددة والدم المسموم » ونصبت احـد ابنائها ، وهو « كنگنو » الشرير ، على رأس هذا الجيش الرهيب . فلمـا سمعت الالهة بهذا التدبير ، اصابها الهلع والزعب ، « فضرب « انشار » عورته وعض ناجذيه بهلع » وأفتى بوجوب قتل « كنگو » . ولكن من ذا الـذي يجرأ على الاتيان بفعلة كهذه ؟ تقاعست الالهة ، الواحد بعد الآخر ، عـن القتال الا « مردوخ » الذي قبل التصدي لهذه المهمة الصعبة شـريطة ان تجعله الآلهة ملكا عليها . « اعقدوا مجلسكم » قال مردوخ « واعلنوا ان قدري هو الاعلى ، وان كلمتي ، وليست كلمتكم ، هي المقررة للمصائر» . ولم تجد الآلهة بدأ من النزول عند رغبته فاجتمعوا في وليمة ووهبوا ، وهم شبه سكارى ، القـوى الملكية وشارة السلطة الى « مردوخ » . واختار الاخير القوس والبرق والطوفان العاصف والرياح الاربع والشبكة أسلحة له ،

وارتدى « درع الرعب » و « عمامة الهالة المخيفة » وامتطى عربته ـ الصاعقة وانطلق بمفرده للقاء قوى الفوضى • وعندما رآه جيش الوحوش تفـرق هنا وهناك ، فاعتقل « مردوخ » قائده « كنگو » • اما « تيامة » فقـد أسرتها شبكة « مردوخ » وعندما فتحت فاها ادخل فيـه « مردوخ » الرياح الاربع ومزق قلبها بسهم وهشم جمجمتها بصولجانه ثم شطر جسدها شطرين « كانها محارة » « وأنشأ من الشطر الاول السماء ثم رفعها » اما الشطر الآخر فوضعه تحت الارض • وبعد هذا الانتصار ، نظم « مردوخ » « الكون » فثبت مسارات الشمس والقمر والنجوم في السماء الجديدة وقرر خـلق البشـر :

سأخلق وحشاً (لولو) يكون اسمه بشرا ؛
سأخلق الانسان المتوحش دون ريب •
وسيكون مسؤولا عن خدمة الالهة
كي تعيش مرتاحة !

وطبقا لنصيحـة « ايـا » ، فقـد قتل « كنگو » ومن دمـه صنع « مردوخ » وأبوه اول مخلوق بشري • بعد ذلك قسم « مردوخ » الآلهة الى قسمين يضم كل قسم ثلاثثمائة إلـه • وتوجب على القسم الاول منهم العيش في السماء ، وعلى القسم الثاني العيش عـلى الارض مع الانسان • وكمكافأة له على انتصاره ، شيدت الالهة معبد « مردوخ » الكبـير فـي بابل (ايساكلا)(*) واجتمعت ثانيـة في وليمـة كبرى « وأعلنـوا اسماءه الخمسين » •

(*) اي ـ ساگلا «e-sagilla»

وعلى الرغم من طفولية هذه القصة ، الا انها كانت خطيرة الاثر على البابليين • فقد قدمت لذهنيتهم المتدينة جدا « تفسيرا » خارقا ، ولكنه مقبول ، لنشأة الكون • وأوضحت من بين عدة أشياء اخرى ، كيف اتخذ العالم شكله المتصور • وأبانت بوضوح حقيقة وجوب خدمة البشر للآلهة، وشرحت سبب تواجد عنصر الشر الطبيعي لدى البشر المخلوقين من دم « كنگو » الشرير • كما بررت سبب حصول « مردوخ » (هو في الاصل انليل) على مكانته الجليلة بعد قيامه بعمله البطولي • الا انها ، وفوق كل شيء ، كانت تمتلك، قبل الزواج المقدس، قوة مؤثرة تشبه السحر • واذا كانت قصيدة « حينما في العلى •••• » قد بقيت تتلى من قبل كهنة بابل كل عام ، في اليوم الرابع من احتفالات السنة الجديدة ، طوال الفي سنة تقريبا ، فان ذلك يعود الى شعور البابليين بأن القتال الكوني لم ينته تماما أبدا ، وأن قوى الشر والفوضى كانت مستعدة على الدوام لتهديد ومنازلة النظام المكين للآلهة •



كانت صلة الانسان بالآلهة ، كصلته مع الناس الاخرين ، لها درجاتها • فاذا كان ملك بابل يخضع مباشرة لاوامر « مردوخ » ، فان الفلاح البابلي البسيط كانت له صلة أقرب بالاله « اشنان » (اله الشعير) ، او «شوموكان» (الـه الماشية) ، وليس بالآلهة « آنو » او « انليـل » • وبالاضافة الى هذا ، فقد كانت هناك الهة عديدة تكفلت الاهتمام بالحوادث المهمة في الحياة • فحيثما تتطلب الحاجة ، يمكن بترتيل ابتهـال او تقديم نذر مـن التمور استرضاء « گولا » (إلهة الإنجاب) أو « باسائ » حامي المسافـرين • وفي حالات الطوارىء الخطيرة ، يمكن التماس عون الآلهة الاكبر عن طريق الكهنة ، أو بشكل مباشر بواسطة « الاله الشخصي » الذي يتواجد دوما كالمـلاك الحارس الى جانب كل رجل وامرأة •

كان السومريون والبابليون والآشوريون يتطلعون نحو آلهتهم ، مثل تطلع الخدم نحو أسيادهم المحسنين ، بخوف ومسكنة ، وبحب واعجاب ايضا • فكانت من أعظم الخصال التي يجب أن يتصف بها كل من الملوك وعامة الناس هي اطاعة الارادة الآلهية لان خدمة الآلهة كانت تعتبر احدى الواجبات المقدسة • وبينما كان الاحتفال بالاعياد المتنوعة وانجاز الطقوس الدينيـة المعقدة من اختصاص الكهنة ، لذلك فقد كان من واجب كل مواطن ارسال النذور الى المعابد ، وحضور الاحتفالات الرئيسة ، والاعتناء بالموتى والصلاة والاستغفار ، اضافة الى التقيد بالاوامر العديدة والمحرمات التي تميز كل خطوة في حياته • فالرجل العاقل «يخاف الآلهة» وينفذ تعاليمها بدقة ومن يأتي بعكس ذلك لا يكون من الحمقى الغافلين فقط ، بل يجلب أيضا الذنوب المسببة لاكثر العقوبات اهلاكا للبشر • غير أنه من الخطأ الاعتقاد بأن دين

وادي الرافدين كان محض مسألة رسمية خالصة • فعندما كانت تقام الصلوات وتنشد التراتيل في المعابد ، كانت تتألق المشاعر الرهيفة وتتفجر العواطف الصادقة نحو الآلهة • لقد وضع سكان ما بين النهرين كل ثقتهم بآلهتم واعتمدوا عليها كما يعتمد الاولاد على آبائهم • وكانوا يحدثونها (أي آلهتهم) وكأنها الآباء والامهات الحقيقة لهم التي من شأنها ان تستاء فتبطش ، والتي يمكن ايضا ان ترضاؤها فتغفر لهم المعاصي والذنوب •

ولم تكن النذور والقرابين والتقيد بالاصول الدينية هو كل ما تحتاجه آلهة وادي الرافدين من عبادها • فاذا كان « جعل قلوب الآلهة تشع بهجة » و « جعلها تنتشي بالولائم الريانة » (18) أمرا واجبا بالتأكيد ، الا ان ذلك لم يكن كافيا بحد ذاته لأن عطف وبركات الآلهة لا تتنزل إلا على اولئك الذين يحيون «حياة طيبة»، والذين هم آباء صالحون ، وأبناء بررة، وجيران طيبون، ومواطنون صالحون ، والذين يقومون بالمعروف ويأتون العمل الصالح • ولقد كانت الالهة تقيّم ، كما نقيم نحن اليوم ، العطف والرحمة والاخلاص والعدل واحترام القوانين والنواميس الاجتماعية • وتوصي واحدة من « نصائح الحكمة » البابلية أن : اعبد كل يوم آلهتك و :

إظهر العطف للضعفاء
لا تهن المساكين
قم بالاعمال الصالحة ، وقدم العون في كل أيامك ••••
لا تشهر بالآخرين وحدث بالحسنات ،
لا تقل أشياء خبيثة ، وقل في الناس قولا جميلا

وكمكافأة للايمان الصادق وللسلوك القويم ، تقدم الآلهة للانسان المساعدة والحماية ساعة الخطر و « تجبر خاطره » وتهبه الصحة الموفورة والمركز الاجتماعي المشرف والثروة والابناء الكثيرين والسعادة والعمر

الطويـل • ولقد كان السومريون والبابليون قانعـين بهذا لأنهم كانوا اناساً عمليين ، متواضعين ، يحبون الحياة ويستمتعون بها فوق كل شيء • وكانت أعز أحلامهم العيش مخلدين الى الابد • وقد استهدفت العديد من أساطيرهم الشعبية ، خصوصا أسطورة « أدابا » و « گلگامش » ، شرح سبب حرمان البشر من امتياز الخلود •

ولكن الآلهة وحدها كانت خالدة ، أما موت الانسان ، فهو أمر لا مفر منه ويستوجب الرضا :

« وحدها الآلهة تعيش ابداً تحت الشمس ،
اما البشر فأيامهم معدودات ،
وكل ما يجزونه لا يعدو ريحا « ذاهبة »(20) •

فما الذي كان يحصل بعد الموت ؟ تثبت الآلاف من القبور ، بأدواتها وتجهيزاتها الجنائزية ، الاعتقاد السائد عند سكان وادي الرافدين بوجود الحياة الاخرى • فقد حمل الموتـى معهم أثمن عوائدهم وكانوا يتسلمون الطعام والشراب من الاحيـاء • الا أن تفاصيل مبدأ ايمان سـكان وادي الرافدين القدماء بالاخرويات المستحصلة من حكاية « نزول اي ـ أنـا الى العالم الاسفل » ، ومن ملحمة « گلگامش » ـ قليلة ومتناقضة في أغـلب الاحيـان • فـ « بلاد اللاعودة » كانت فضاء متراميا يقع في مكان ما تحت الارض فيه قصر منيف حيث تحكـم « أرشكيجال » (الالهـة السومرية « برسيفوني ») وزوجها « نرگال » (إلهة الحرب والطاعون) وحولهمـا عدد من الآلهة والحراس • وللوصول الى هذا القصر ، ينبغي لارواح الموتى أن تعبر نهرا بواسطة قارب (مثلما هو الامر في « حـادس » (Hades) الاغريق ـ وهو مثوى الموتى عندهم) ، وتخلع الملابس • بعد ذلك تحيى تلك الارواح حياة مرعبة قاسية :

حيث يكون التراب طعامهم والطين غذاءهم ،
حيث لا يبصرون اي ضياء ويعيشون في ظلام ،
حيث يكسون ، كالطيور ، بأثواب من أجنحة ،
حيث يعتلي التراب الباب والرتاج(22) .

ولكننا نعلم من مصادر أخرى بأن الشمس كانت تنير العالم الاسفل في مسارها حول الارض وأن إله الشمس « اوتو » كان يصدر أحكامه في الموتى ؛ أي أنهم لم يعاملوا جميعا في الحقيقة بمثل تلك القسوة . ويبدو أن فكرة السومريين عن الجحيم كانت غامضة كغموضها عندنا ، وان كمية كبيرة من أدب الحياة الاخرى لم يكن اكثر من تطريز شعري خيالي لفكرة فضفاضة .

غير أن الموت ، على أية حال ، لم يكن الامر الوحيد الذي استرعى اهتمام سكان وادي الرافدين فقد كان لهم ، مثلنا ، نصيبهم من الامراض والبؤس والحرمان والحزن ، وكانوا يتساءلون ، مثلنا ايضا ، : كيف يمكن أن يحدث كل هذا والآلهة (الحكيمة) تسير العالم ؟ كيف يمكن للشر أن يسود على الخير ؟ وبالتأكيد ، فقد كان بالامكان دوما القاء اللوم على الانسان نفسه . لقد كانت شبكة المحرمات والاصول الدينية المحيطة بانسان وادي الرافدين ضيقة لدرجة أن ارتكاب المعصية واثارة استياء الآلهة كان واحدا من أيسر الامور . الا انه حصلت هناك حالات تمت فيها معاقبة أناس لم يرتكبوا أية معصية ملومة ، حيث يبدو أن الآلهة قد تصرفت حيالهم بشكل غير مفهوم ابداً . ففي قصيدة بابلية تدعى « لدلول بعل نيمقي » (سوف أثني على اله الحكمة) ، يجري تصوير شعور رجل كان يتمتع يوما ما بالغنى والنبل وبالصحة الموفورة ، ولكنه يتحول فجأة الى شخص محطم ومكروه من قبل الجميع ويصاب بأفتك الامراض . وكما يحدث بعدئذ ، فان الاله «مردوخ»

يرق له أخيرا وينقذه من المصائب • الا أن « أيوب » البابليين مرت بـه ، كذلك ، لحظات راوده فيها الشك بحكمة السماء ، اذ كان يصرخ بمرارة :

من ذا الذي يعلم بارادة الآلهة في السماء ؟
ومن ذا الذي يدرك خطط آلهة العالم الاسفل ؟
أين تعلم الفانون طريق الرب ؟
هذا الذي كان حياً البارحة ، أصبح اليوم ميتاً •
للحظة يكون الانسان مكتئبا وفجأة ينقلب منشرحا •
مرة يغني الناس بنشوة ،
وفي لحظة تالية يئنون كأنهم ندابون محترفون ••••
انا حائر ازاء كل هذا اذ لا افهم جدواه(32) •

إلا ان « التشاؤم » المشهور عنـد البابليين كان اكثر بكثير من حالـة تفجر وقتي لليأس • كان ذلك التشاؤم في الواقع ميتافيزيقي الجوهر ولم يكن خلقيا لان جذوره كمنت في الظروف الطبيعية الظاهرة في وادي الرافدين ذاته • لقد كان وادي دجلة والفرات بلد التغيرات الشديدة المفاجئة • فنفس الانهار ، جالبة الحياة ، كان بوسعها ان تسبب الكوارث ؛ وفصول الشتاء غالبا ما تكون باردة قارصة أو جافة أكثر من اللزوم ، ولم تكن ريـاح الصيف أكثر ملاءمة منها • ويمكن للامطار الاعصارية أن تحول ، في لحظات قليلة ، سهلا ترابيا مجففا مهيأً للزراعة الى بحر من الطين • وفي أديم أي يوم جميل ، يمكن لعاصفة رملية أن تغلق السماء مسببة الدمار • وبمواجهة هذه الظواهر لقوى فوق طبيعية خارقة ، وجد سكان الرافدين أنفسهم مرتبكين متروكين بلا حول ولا قوة • ولف انسان وادي الرافدين القلق الشديد ازاء اعتقاده بأنه ليس هناك من شيء مؤكد • فقد كانت حياته وحياة افراد عائلته ، ومنتوج حقوله وماشيته ، وتعاقب فيضانات الانهـار ومستويات مناسيبها ، وتوالي

الفصول ، وحتى وجود الكون ذاته ، تحت رحمة القدر على الدوام • فاذا لـم تتملك الكون الفوضى ، واذا بقي العالم في استقرار ، واذا بقي البشر أحياء ، واذا عادت الحياة للحقول بعد حر الصيف اللاهب ، واذا استمر القمر والشمس والنجوم بالدوران في السماء ، فان كل هذا انما هو من عمل ارادة الآلهة • ولكن الارادة المقدسة للآلهة لا تصدر مرة واحـدة والـى الابد في أصـل كـل الاشياء • لذلك فقد كان من الضروري الاطمئنان الى تكرارها في بداية كل سنة ــ أي قبل مجيء الصيف القادم المريع ، حيث تبدو الطبيعة ميتة والمستقبل مكتنفا بكل ما هو مجهول • ولا يوجـد للانسان ما يعمله في ظل هذه الظروف الحرجة غير ضمان الارادة الطيبة للالهة بواسطة اجراء طقوس قديمة قدم الدهر تؤمن له اقرار النظام واستمرار الحيـاة • لذلك ، وفي ربيع كل عام ، كانت تقام احتفالات هائلة ومثيرة في مدن عديدة، وفي بابل بشكل خاص (تدعى « اكيتو » أو عيد السنة الجديدة) تشتمـل على طقوس الزواج المقدس للالهة ، وتلاوة قصة الخليقة العظيمة ، واعادة تثبيت الملـوك ، وتتوج أخيراً بتجمع كـل الآلهة الذيـن « يقضون في المصائر » بوقار • عندئذ فقط يكون بوسع الملك العودة الى عرشه والراعي الى قطيعه والفلاح الى حقله • وعندئذ كذلك يستعيد ساكن وادي الرافدين ثقته بما حوله فبامكان العالم ان يستمر بالوجود ، بارادة الآلهة المسترضاة ، لعـام آخر ايضاً •

الفصل السابع

عصر الابطال



واذا كان السومريون لا تنقصهم النظريات عن أصل الكون ، الا أنهم كانوا كتومين بشكل يدعو على الاسف في التحدث عن اصلهم ذاته . صحيح أن هنالك أسطورة تأتي على ذكر وجود أرض صافية ، نظيفة « لامعة » لم تعرف الموت او المرض او الحزن ، حيث كان:(1)

الغراب لايتفوه بصرخاته ،
وطائر « الاتيدو » لايصدر صيحات طائر « الاتيدو » ،*
والاسد لا يبطش ،
والذئب لا يختطف الحملان ،
وما كان الكلب المسعور آكل الاطفال معروفا ...

وتسمي هذه الاسطورة تلك الارض العجيبة « دلمون » ، وهو البلد الذي يساوي ، في النصوص التاريخية عموما ، جزيرة البحرين في الخليج

(*) لعله طائر الحداة .

العربي(2) • غير أن « دلمون » هنا يمكن أن تعني أي مكان خيالي بعيد وليس « جزيرة » البحرين بالضرورة • كما ليس هناك اية اشارة في اسطورة « دلمون » توحي لنا بكون هذه الجزيرة هي الموطن الاصلي للسومريين • وفي الحقيقة ، فقد كان السومريون ، كغيرهم من الشعوب القديمة ، يعتقدون بأن بلدهم هو « محور العالم » وانهم الاحفاد المباشرون لاول المخلوقات البشرية • وكانوا يستخدمون المقطع « كلام » للدلالة على فكرة « الموطن » وكذلك للدلالة على بلد سومر نفسه • اما المقطع « اوكو » فقد كان يرادف عندهم معنى « الشعوب » عموما وكذلك « شعب سومر » بشكل خاص • والجدير بالذكر ان للسومريين مفردة أخرى ترمز للبلد وهي « كور » ، وتعني « جبل » ، أستخدمت أصلا للاشارة الى البلدان الاجنبية فقط • ومن الواضح ان السومريين كانوا يشخصون أنفسهم بأنهم السكان الاوائل لارض وادي الرافدين ، بل وحتى اول من استوطن الارض طرا • كيف ، اذن ، كانوا يتصورون أزمنة « ما قبل التاريخ » الخاصة بهم ؟

من آدم الى الطوفان

رأينا في الفصل السابق كيف أن « أول انسان بدائي متوحش » قد خلق من دماء اله الشر « كنگو » على حد زعم « ملحمة الخليقة » البابلية • وهناك أساطير اخرى(3) تذكر أن الآلهة قد خلقت انساناً او انسانين ، اما من الطين او من دماء الآلهة الصغيرة ، او من كليهما معاً • غير أن تلك الاساطير لا تخبرنا بالذي انتهى اليه أمر اولئك الاجداد الاوائل للبشر • ولم يقدم لنا الادب السومري لحد الان أي شيء يوازي عن قرب قصة « آدم وحواء » و « فردوسهما المفقود » • ولايجاد النسخة العراقية التي تروي « سقوط الانسان » ، ينبغي لنا أن نرجع الى أسطورة « أدابا »(4) البابلية التي تعود الى وقت متأخر نوعاً ما • وتروي لنا هذه الاسطورة كيفية أن الاله « أيا » (انكي) قد خلق « ادابا » ك « أنموذج للرجال » ، فكان كاهن مدينة « اريدو » الذي دأب على انجاز المهام المتنوعة في معبد « أيا » وأهمها : تزويد الالهة بالطعام • وفي ذات يوم ، وبينا « أدابا » يصطاد السمك في « البحر العظيم » ، هبت فجأة ريح الجنوب بقوة فقلبت قاربه وشارف على الغرق • وفي غمرة انفعاله ، تفوه « أدابا » بلعنة سببت « كسر أجنحة ريح الجنوب» (التي كانت تشخص في هيئة طائر شيطاني) « مما أدى الى توقف هبوبها على البلد فترة طويلة » • ونظراًللاهمية الكبيرة للرياح الجنوبية (ــ الشرقية) في اقتصاديات جنوب العراق ــ حيث تجلب كل مطر العراق الضئيل الضروري للزراعة في الشتاء وتساعد على نضوج البلح في الصيف(5) ــ فقد أثار عمله هذا غضب الاله العظيم « آنو » • فبعث الاخير يطلب « أدابا » للمثول أمامه كي ينال جزاءه جراء فعلته • غير ان الاله «أيا» سارع لتقديم العون لكاهنه • فأسر له بأنه سيلاقي ، لدى بلوغه بوابة

« آنو » في السماء ، الهي النبات « دموزي » و « تنكشزيدا » (اللذين يبدوان وكأنهما قد « قتلا » بشكل غير مباشر من قبل « أدابا » حينما آذى ريح الجنوب) . فاذا ما عمد « أدابا » الى ارتداء ثوب الحداد وأبدى حزنا وندما حقيقيين على فعلته : فسيكون بوسعه عند ذاك تهدئة الالهين المهانين وكسب ودهما « فيبتسمان » له ، ويمكن حتى أن يذهب بهما الامر الى ان يقوما بالشفاعة له عند الاله العظيم . فاذا ماحصل كل هذا ، فان « آنو » سوف لن يعامل « أدابا » كمجرم بل كضيف وسيقدم له ، حسب العرف الشرقي ، الطعام والشراب والكسوة ليلبسها والزيت ليعمد جسده به . وحذر الاله « ايا » كاهنه « ادابا » بأنه ، في الوقت الذي بوسعه قبول الزيت والملابس ، الا انه :

« عندما يقدمون لك خبز الموت ،
فاياك ان تأكله .
وعندما تعرض عليك مياه الموت ،
فلا تشربها ....
نصيحتي هذه التي قدمتها اليك ، لا تتجاهلها ؛
والكلمات التي بها خاطبتك تمسك بها بقوة ! »

وجرى كل شيء لادابا مثلما كان قد تنبأ له الاله « أيا » ، بل ولقد ذهب به الامر الى بلوغ ما لم يكن يتوقعه الاله . اذ ان « آنو »، الذي تأثر كثيرا لمرأى حزن وندم « أدبا » ولاعترافه المخلص بالذنب ، قدم له ، بدلا من طعام وشراب الموت ، « خبز وماء الحياة » . ولكن « أدابا » الذي انصاع باخلاص لنصيحة سيده « أيا » ، اعتذر عن قبول التقدمة التي كانت يمكن أن تهبه الخلود . بعد هذا ، أمر « آنو » باعادة « ادابا » الى الارض . ومن الصعب ان نحدد هنا فيما اذا كان سبب هذا الخطأ (سوء التقدير)

يعود الى قصر نظر الاله « ايا » أم أن الاخير قد تعمد الكذب على كاهنه « أدابا » • غير ان المحصلة الاخيرة كانت ، بطبيعة الحال ، خسران « أدابا » لفرصته في الخلود بسبب طاعته العمياء مثلما فقد آدم خلوده بسبب عدم اطاعته أوامر ربه • وفي الحالتين ، فان الانسان كان هو الذي حكم على نفسه بالموت • غير أن هذه الاسطورة ، التي تقابل قصة آدم في الكتاب المقدس ، لا تذهب أبعد من هذا • فحتى لو رأينا في « أدابا » « آدم »(6) وادي الرافدين ، الا اننا نفتقد ذلك الخط الطويل من الاجداد الذين يصلون بينه وبين جد اليهود الحقيقي « ابراهيم » كما يقدمه لنا الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد) • لقد كان السومريون ، على العكس من جيرانهم الساميين ، قليلي الاهتمام جدا بعلم الانساب حيث كانوا يتصورون تاريخهم من وجهة نظر مختلفة • كانت محاكماتهم تذهب الى ان الالهة قد خلقت البشر لغاية محددة وهي اطعامها وخدمتها ، وانها (أي الالهة) قد ثبتت تفاصيل هذه الخدمة «وأتمت المناسك ورفعت قدرها الربوبي» • ولم يكن البشر عند الآلهة ، على أية حال ، أكثر من قطيع كبير غبي الى حد ما يحتاج « رعاة » وحكاما وملوكا متمسكين تختارهم وتنصبهم الآلهة لتنفيذ القانون السماوي• فمنذ وقت بعيد ، وبعد خلق البشرية مباشرة تقريبا، أنزل من السماء « التاج المجيد » او العرش المقدس للملوكية • ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، قاد الملوك ، الواحد تلو الاخر ، مصائر « سومر » و « أكد » لصالح ، او بالنيابة عن الالهة في السماء • هكذا كانت نظرية « الملكية ذات التفويض الالهي » تبرز الى الوجود تاريخيا لتصبح شائعة في وادي الرافدين منذ الالف الثالث ق • م فصاعدا • الا ان لدى بعض الاساتذة من المعاصرين وجهات نظر تختلف عن هذا اذ يعتقدون بأن النظام السياسي لسومر ، كان ، أصلاً ، يتسم بما يطلقون عليه اسم « الديمقراطية البدائية » • ويقولون بأن « الملكية » لم تظهر الا في وقت متأخر من العصور الشبيهة بالتاريخية عندما قام المحاربون الرئيسيون (لوگال) ــ الذين كانوا ينتخبون سابقاً من قبل

مجموعة من المواطنين لفترات قصيرة عند الازمات ـ بالسيطرة على دولة المدينة(7) . وقد صادفت هذه النظرية ـ قدمها الاستاذ « ث . جاكوبسن » من شيكاغو في دراسة معمقة ـ قبولا واسعا في اوساط المعنيين في الولايات المتحدة ولا يمكن تجاهلها بسهولة . وهكذا فان القطعة التي تصف (في قصة الخليقة) كيفية انتخاب » انليل « (أو مردوخ) لمنزلة بطل الآلهة لمحاربته « تيامة » وانتصاره عليها ، يمكن ان تكون انعكاساً لما قد جرى على الارض في ظروف متشابهة (مصيرية) . ولا يتطرق أي شك حيال وجود « المجالس المحلية » ابان عصر فجر السلالات السومري ، وخصوصاً « مجالس الشيوخ » التي كانت تلعب دوراً ما في توجيه حكومة كل مدينة . غير أن تلك المجالس ، كما يشير الى ذلك الاساتذة المتخصصون بالسومريات لم تكن تمثل أكثر من « هيئات استشارية » خالصة تدعى للانعقاد من قبل الحكام في حالات نادرة . ولذلك فلربما تبدو كلمة « الديمقراطية » ، هنا في هذا المجال ، اصطلاحا غير دقيق في وصف ذلك الواقع . واعتماداً على النصوص التي بحوزتنا ، فلا يوجد هناك مايثبت بشكل قاطع مرور أية فترة في التأريخ السومري جرى خلالها حكم دويلات المدن من قبل هيئات اجتماعية اذ لا نصادف ، كلما توغلنا أبعد في الماضي السحيق ، غير الحكام والملوك وهم يتسنمون مركزاً يلي مركز الآلهة مباشرة .

ونمتلك ، بالصدفة ، وثيقة تعطينا قائمة مستمرة (غير منقطعة) بأسماء الملوك الذين حكموا منذ باكورة العهود الملكية ولغاية القرن الثامن ق . م . تلك هي « قائمة الملوك السومريين » الشهيرة التي عني بترتيبها وطبعها الاستاذ جاكوبسن الذي اعدها بالاستناد الى خمسة عشر من النصوص المخطوطة المختلفة(8) . ان الاهمية التاريخية العلمية لهذه القائمة لاتقدر بثمن اذ لا تكتفي بتضمين وتلخيص التراث السومري السحيق في القدم وحسب ، بل وتقدم ايضا اطارا تاريخيا

ممتازا يمكن أن ترتب فيه معظم الاساطير العظيمة للعصر البطولي السومري بشكل متسلسل • فقد كان للسومريين ، مثل الشعوب القديمة الاخرى كاليونانيين والهندوس والجرمانيين ، عصرهم البطولي الخاص بهم ، عصر البشر أنصاف ـ الالهة والملوك العمالقة الذين وقفوا أنداداً للآلهة وأنجزوا ضروبا عجيبة من الشجاعة والاقدام • ونعلم الآن أن بعض هؤلاء الابطال على الاقل كانوا نصف أسطوريين وأنهم يعودون في الحقيقة الى التاريخ الفعلي القائم •

وطبقا الى « قائمة الملوك السومريين » فقد « أنزلت الملكية من السماء » في مدينة « اريدو » أولا • ويذكرنا هذا بحقيقة ان أريدو قد أعطت آثارا لاقدم المستوطنات السومرية في منطقة جنوب العراق • ثم ، وبعد فترة لا تقل عن (٦٤٫٨٠٠) سنة (حكم أريدو خلالها ملكان اثنان فقط) ، نقلت الملكية ، لسبب غير معروف ، الى « باد ـ تبيرا » (حيث حكم ثلاثة ملوك ، كان أحدهم الإله دموزي نفسه ، لمدة (١٠٨٫٠٠٠ سنة) • ومن « باد ـ تبيرا » انتقلت الملكية الى « لاراك » (ملك واحد ، ٢٨٫٨٠٠ سنة) ، ثم الى « سپار » (ملك واحد ، ٢١٫٠٠٠ سنة) ، ثم الى « شروباك » (ملك واحد ، ١٨٫٦٠٠ سنة)(9) • وبطبيعة الحال ، فان هذه الارقام المريعة ـ التي تذكرنا بسني أعمار أحفاد « آدم » كما ترد في الكتاب المقدس ـ لا تمتلك أية أهمية حقيقية ، وانما تعكس ، ببساطة ، اعتقادا كان شائعا بوجود عصر ذهبي عاش فيه البشر مددا أطول بكثير من الآجال المعتادة ، وتملكوا خلال ذلك صفات خارقة حقيقية • ويضطرنا الامر هنا الى عقد مقارنة أقرب بين هذه القائمة وأسفار العهد القديم • فبعد أن تأتي هذه القائمة على ذكر « أوبار ـ توتو » ملك شروباك ، وفي نهاية الفقرة الاولى لقائمة الملوك السومريين ، فانها تذكر هذه الجملة المهمة :

« وزحف الطوفان تواً بعد ذلك »

وتتملكنا هنا رغبة لا تقاوم للتوقف برهة لنتفحص واحدة من أكثر مشاكل وادي الرافدين التاريخية عرضة للاخذ والرد والاثارة ، على الاقل من وجهة النظر الآثارية والميثولوجية ، وتلك هي مشكلة «الطوفان العظيم».

الطوفان العظيم

في عام (١٨٨٢ م) ، أعلن جورج سمث ، رائد علماء الآشوريات الانكليز ، الى العالم بأنه قد اكتشف ، من بين رقم مكتبة « آشور ـ بانيبال» العديد الموجودة في المتحف البريطاني ، قصة للطوفان تتماثل الى حد يبعث على الدهشة مع تلك التي ترد في الكتاب المقدس (سفر التكوين ٥٠ ، ١١ ـ ٠٨ ، ٢٢) ، ولم تكن القصة التي عثر عليها وقتذاك غير جزء من قصيدة طويلة تستغرق متن اثنى عشر رقيما تعرف الان باسم « ملحمة گلگامش » . ويطالعنا بطل هذه الملحمة گلگامش ملك اوروك ، وهو يجد بالبحث عن سر الخلود فيظفر اخيرا بمقابلة « اوت ـ نابشتم »(*) (ابن «اوبار ـ توتو» ملك شروباك) وهو الشخص الوحيد الذي وهب الخلود . ويطلع « اوت ـ نابشتم » ، البطل گلگامش على ما يلي ، باختصار(10) :

في زمن ما ، « عندما كانت شروباك قد أصبحت مدينة قديمة » ، قررت الالهة تسليط طوفان لافناء الجنس البشري الآثم . ولكن الاله « أيا » أشفق على « اوت ـ نابشتم » ونصحه ، وهو يهمس له من خلال جدار كوخه المصنوع من البردي الرقيق ، بأن يقوض بيته ويترك ممتلكاته

(*) كما يكتبها المؤلف بمقطعين «ut-napishtim» وتردد كذلك بمقطع واحد « اوتنابشتم » (utnapishtim) .

وأن يشرع بالعمل لبناء سفينة ذات حجم معين ويأخذ معه « بذرة لكل مخلوق حي » ويتهيأ للطوفان الاتي • وفي اليوم التالي ، ابتدأ العمل لصنع السفينة ، وسرعان ما تم انشاؤها بحجم كبير ذي سبعة طوابق وكسيت بالقار • وجرى شحنها بالذهب والفضة والحيوانات المختلفة بالاضافة الى عائلة « اوت ــ نابشتم » وأقاربه وصناعه • وعندما انقلب الجو وأصبح « مرآه مفزعا » ، أيقن « نوح البابليين » بأن وقت الطوفان قد حان ، فدخل سفينته وأغلق الباب • ثم ، « وما ان ابتدأ الصبح حتى جاءت سحابة سوداء من الافق » فأثارت أفظع عاصفة من الرياح والامطار والرعود يشهدها أي مخلوق ، فتحطمت السدود وتلفعت الارض بالظلام ، وحتى الآلهة فزعت من ذلك وندمت على فعلتها •

جثمت الآلهة مرتعدة كالكلاب وتكرمشت بالحزن •
وصرخت عشتار باكية مثل امرأة في المخاض •••
كيف أمكنني شن الحرب لافناء ابناء شعبي
الذين كنت انا التي خلقتهم ••••
وبكي آلهة « الانوناكي »(**) معها ؛
وجلست الآلهة منحنية باكية •••
ولستة ايام وست ليال
عصفت الريح وهطل المطر المدرار وغلفت الزوبعة والطوفان
سطح الارض •••

وفي اليوم السابع هدأت العاصفة على أية حال• يقول «اوت ـ نابشتم» :

فتحت نافذة فملأ الضياء وجهي •
نظرت الى « البحر » فكان الصمت شاملا ،
فكل البشر كانوا قد تحولوا الى طين •

(**) مجمع الالهة السومري •

واستوت السفينة أخيرا على قمة جبل « نسر »(11) ولكن أياً من ركاب السفينة لم يستطع رؤية أي شيء ، عدا الصخرة التي كانت تمسك بالسفينة بقوة • وبعد انقضاء سبعة أيام ، أنفذ « اوت ـ نابشتم » « حمامة » لكنها عادت اليه ثانية • ثم بعث العصفور فعاد هو الاخر • فأرسل أخيرا الغراب فوجد أرضا يابسة ومكث ولم يرجع • عندئذ « سكب » « اوت ـ نابشتم » سائلا من على قمة الجبل تكريما للآلهة وقدم لها قربانا من القصب الحلو والسدر والآس « فتنشقت الآلهة الرائحة الزكية ، وتجمعت حول اوت ـ نابشم » كالذباب » • واذا كانت « عشتار » ، بشكل خاص ، قد امتلأت غبطة بنجاته ، الا أن الاله « أنليل » ، الذي سلط الطوفان والذي باءت مساعيه لافناء البشر بالفشل ، صب لومه على الاله « أيا » ، الذي أفشى سر الطوفان لاوت ـ نابشتم ، وحمله مسؤولية فشله في مسعاه • لكن « أيا» إنبرى للدفاع عن قضيته وقضية الانسان ببلاغة رائعة رق لها اخيراً قلب « انليل » فدخل السفينة ومنح « اوت ـ نابشتم » بركاته قائلا :

حتى الان كان « اوت ـ نابشتم » بشراً فحسب ،
ولكنه سيصبح منذ اليوم ، مع زوجته ، مثلنا نحن الآلهة ،
وسيسكن بعيدا في فم الانهار •

ولا حاجة بنا الى القول بان نشر « جورج سمث » لهذه القصة قد شغر العناوين الرئيسية في صحف ذلك الزمان وأثار اهتماما واسع المدى • ثم ، وكلما ازداد عدد النصوص المكتشفة ، كلما ظهرت نسخ أخرى لهذه الحكاية ، أقدم من « ملحمة گلگامش » (التي دونت في نينوى في القرن السابع ق • م) ، وان كانت أقل كمالا منها • وقد تغير اسم بطل هذه الاسطورة عدة مرات ، فنجد أن اسمه في النص السومري من نفر (الذي يعود الى عام ١٧٠٠ ق • م) هو « زيوسودرا » ، بينما يرد اسمه في اسطورة

بابلية (تعود الى تاريخ أقرب من سابقتها بقليل) على انه « أثر احاسيس » (أي الحكيم جدا)(12) • وعلى الرغم من وجود اختلافات أخرى في التفاصيل ، الا أن موضوع هذه الاساطير الرئيسي كان على الدوام نفسه اذ يدور حول طوفان مريع يغطي كل الارض فانيا كل البشر عدا شخص واحد (أو اثنين) • ويؤشر الطوفان ، في هذه الاساطير ، انعطافا واضحا في تاريخ البشرية الطويل وحلولا لجنس بشري محل جنس آخر • وهناك احتمال كبير في كون العبرانيين قد استعاروا هذه الاسطورة ، التي كانت تشكل تراثا ثابتا لدى سكان وادي الرافدين ، من العراق فضمنوها كتابهم المقدس ، خصوصا اذا أخذنا بنظر الاعتبار أن التشابه بينهما جد كبير • وبالطبع فقد أثار هذا الاحتمال مسألة مهمة أخرى وهي : هل توجد ثمة آثار لمثل هذه الجائحة على أرض وادي الرافدين تقطع بحصولها فعلا ؟

كان « سير ليونارد وولي » أول عالم آثار يجيب على هذا السؤال ، وهو الوحيد أيضا فقد قام ، خلال تنقيباته في مدينة اور بين الاعوام (١٩٢٩ ــ ١٩٣٤ م) ،، بايغال عدة حفر اختبارية عميقة الغور قرب جدار المدينة الداخلي ، ضمن منطقة المقبرة الملكية المشهورة ، التي يعود تاريخها الى عصر فجر السلالات وبعد اجتيازه عدة طبقات سكنية ، بلغ منطقة سمكها أحد عشر قدما قوامها الغرين النظيف المترسب من المياه والخالي عمليا من كل أنواع المتبقيات • ووجدت ، فوق تلك المنطقة وتحتها مباشرة ، كسر فخارية لمواد مختلفة تعود الى عصر العبيد ، ثم وصل أخيرا الى تربة الارض البكر • واستنتج عالم الآثار هذا بأن « تواجد أحد عشر قدما من الغرين يعني حدوث طوفان (فيضان) لا يقل ارتفاع مناسيب مياهه عن خمسة وعشرين قدما » • « ولابد لفيضان كهذا ، في أرض مثل أرض وادي الرافدين المستوية والمنخفضة ، أن يكون قد غطى مساحة يصل طولها الى

ما يقارب ثلاثمائة من الاميال وعرصها مائة ميل • اذن ، فنحن هنا ازاء دليل على حصول فيضان لم يعهد من قبل في أية فترة من تاريخ وادي الرافدين » • ولقد اعتبر « وولي » ، بجرأة بالغة ، هذا الفيضان ، الذي اكتسح مستوطنة « عبيدية » ، نفسه الطوفان المذكور في الكتاب المقدس(13) • ويضيف « بأن ورود خبر هذا الفيضان في الكتاب المقدس ليس فيه ما يثير الدهشة لاننا نعرف بأن « ابراهيم » « قد ذهب الى هناك من اور الكلدانيين » (سفر التكوين : ٥٠ ، ٣١) ويمكن تماماً ان يكون قد جلب معه الى أرض كنعان قصة الطوفان التي كانت ذائعة الصيت جدا بين سكان وادي الرافدين •

كان هذا الاكتشاف أحسن من أن يصبح حقيقة مسلماً بها ، ولم يأخذه أحد من العلماء بجد كبير ، فيما عدا « وولي » نفسه • فليس بالمستطاع استنتاج درجة وحقيقة فيضان ما اعتمادا على سمك طبقة طينية تظهر في منطقة محدودة فحسب • فبالاستناد الى نظرية « وولي » ، لابد لهذا الطوفان أن يكون قد غطى ، عمليا ، كل منطقة جنوب العراق • ولكننا نجد أن مدينة اريدو ، التي لا تبعد أكثر من خمسة عشر ميلا عن اور ، وتقع في منطقة أوطأ ، لم تقدم أي أثر من أي نوع لاي طوفان • صحيح أن طبقات من الطمى قد جرى اكتشافها في مناطق متعددة أخرى ، ولكن هذه الطبقات تتفاوت كثيرا في سمكها بالاضافة الى تفاوت عهدها التاريخي • فطبقة « الطوفان » في كيش تعود الى عصر فجر السلالات وليس الى فترة العبيد • ويمكن أن يقال نفس هذا الشيء بصدد الترسبات الغرينية التي وجدت في اوروك ولگش وفي مدينة « اوت — نابشتم » شروباك نفسها(14) • وازاء كل هذا فليس بوسع المرء الا أن يعتبر كل تلك المستويات الرسوبية بقايا لفيضانات محلية محدودة النطاق ولا يمكن ان تكون مخلفات فيضان عام وكاسح • وهكذا ، فان بامكاننا الاستنتاج بأن الحفريات الآثارية القائمة في العراق لم تقدم لحد الان الدليل القاطع على

حصول الطوفان العام . ولكن ما هو الاصل الذي ألهم سكان وادي الرافدين هذه الاسطورة ؟ جرى ، في الواقع ، تقديم عدة تفاسير لذلك . فيمكن ، مثلا ، لاية اسطورة تتأسس في مدينة ما ، او في عدة مدن تأثرت ، بوقت ما ، بفيضان قاسٍ بشكل استثنائي ، أن تتحول في مخيلة الشرقيين الى فيضان كوني . ويمكن في المقابل التفكير بحصول جائحة كبيرة شملت كل أرض وادي الرافدين ، فأثارت تخيلات سكانه . غير أن هذه التفسيرات ، على أية حال ، لا تجيب على اثنتين من الحقائق المهمة هنا وهما ، أولا : تأكيد القصص السومرية ـ البابلية ، علاوة على تلك التي ترد في الكتاب المقدس ،على أن الطوفان قد حصل بفعل هطول أمطار غزيرة جدا ؛ أي أن الطوفان لم ينتج من فيضان نهري دجلة والفرات . ثانيا : ان أسطورة الفيضان لاتعود الى منطقة الشرق الادنى فحسب بل انها شائعة أيضا لدى شعوب العديد من البلدان في كل أرجاء العالم(15) . وهكذا لا يبقى أمامنا الا أن نختار أحد هذين الاحتمالين : اما أن يكون الطوفان محض اسطورة اخترعتها الشعوب البدائية كي تمحو «شريحة» طويلة مجهولة من الماضي(16) ، أو ان الطوفان قد حدث فعلا ولكن في عصور ماقبل تاريخية جد مبكرة . فالامطار الإعصارية الغزيرة ، التي حلت محل الزحف الجليدي في الاقطار شبه المدارية كالعراق خلال عصر البلايستوسين ، قد شهدها الانسان ويمكن لذكريات تلك الامطار أن تكون قد انتقلت شفاها من جيل لآخر وتحولت أخيرا الى قصة لكارثة واحدة . ويمكن الدفاع عن أي من هاتين النظريتين ، غير اننا ربما لن نتوصل الى الحقيقة الاكيدة مطلقا ، وان الطوفان سيبقى، مثل قارة « اطلانطس »(*) المفقودة ، لغزا لا حل له الى الابد .

(*) اطلانطس جزيرة اسطورية في المحيط الاطلسي كان افلاطون اول من ذكرها ويدعي انها غرقت في البحر غرب مضيق جبل طارق .

« بعد الطوفان » تقول قائمة الملوك السومرين ، « أنزلت الملكية من السماء ثانية » هذه المرة في كيش (وهي مدينة تتمثل الان بمجموعة من التلال تبعد حوالي عشرة أميال شرق مدينة بابل)(17) • وتشتمل سلالة(**) كيش الاولى على (٢٣) ملكا معدل حكم كل منهم ألف عام • واذا ما حذفنا أحدهم ، وهو الملك الذي تعذرت قراءة اسمه على الباحث الذي جمع ورتب القائمة تأسيسا على رقم قديمة ، فسنلاحظ أن اثني عشر ملكا ، من أصل اثنين وعشرين ملكا ، يحملون أسماء أو ألقابا سامية مثل « كلبُم » (كلب) و « كالومو » (خروف) أو « « زوكاكيب » (عقرب) • ويمتلك ستة منهم أسماء سومرية ، بينما لا يعرف أصل أسماء أربعة ملوك آخرين • وهذا أمر بالغ الاهمية اذ يعكس مدى تمازج العناصر العرقية المختلفة في جنوب العراق منذ تاريخ مبكر،وسيطرة الساميين على كيش،والغياب الظاهر للتناحر بين السومريين والساميين في نفس « دولة المدينة »(18) • وكما سنرى في الفصل القادم ، فان لدينا من الاسباب ما تكفي للإعتقاد بامتلاك هذه السلالة أهمية تاريخية جزئية على الاقل ، ووجوب وضعها في الفترة التي تلي ، بقليل، عام (٢٨٠٠ ق•م) • وتورد قائمة الملوك هذه وصفا اسطوريا معبرا لشخصية أحد ملوكها ، وهو « أتانا »(***) ، باعتباره « الراعي الذي صعد

(**) لا يجب ، في تاريخ وادي الرافدين القديم ، فهم معنى كلمة « سلالة » على انه « العائلة المالكة » فهي تعني اية مجموعة متعاقبة من الملوك حكمت « دولة مدينة » واحدة لفترة تاريخية ما . وتكتفي قائمة الملوك السومريين بذكر السلالات التي حكمت ، الواحدة تلو الاخرى ، كامل بلاد سومر . (المؤلف) .

(***) ولعل اتينا هو الاصح .

الى السماء » • ولأننا نمتلك عدة رقم بابلية وآشورية مفصلة بشكل أكبر تتناول شخصية هذا الملك ، فان بوسعنا لذلك الاسهاب أكثر في الحديث عن هذا الموضوع(19) •

تبدأ اسطورة « أتانا » بما يشبه الخزعبلات فتروي ان الافعى والنسر قد تعايشا فوق نفس الشجرة ، في وئام تام ؛ واكيف أنهما دأبا على مساعدة بعضها البعض ، كما يفترض ذلك على الجيران الصالحين • الا أن النسر يلتهم يوما صغار الافعى ، فتذهب الاخيرة باكية الى اله الشمس (شمش) الذي يعلمها كيفية الاقتصاص لنفسها منه • وطبقا لمشورته ، تختبيء الافعى في بطن ثورميت وعندما يقدم النسر لاكل لحمه ، تمسك الافعى به وتكسر له « كعبه » وترميه في حفرة • ويحصل أن يقدم الملك « أتانا » ــ الذي لا ولد له والساعي بجد الى طلب « نبات الولادة » الذي ينمو في السماء فقط ــ الى الاله « شمش » يطلب منه العون ، فينصحه الاخير بانقاذ النسر وخطب وده وصداقته لكي يستخدمه واسطة للطيران الى السماء • وينفذ « اتانا » مشورة الهه و « على صدر النسر يضع صدره ، وعلى ريشه يضع كفيه ، وعلى جنبيه يضع ذراعيه » ويقلع ، وهو بهذا الوضع غير المريح ، في طيران يقطع الانفاس • وبالتدريج ، يلاحظ « أتانا » الارض وهي تتقلص « بحجم الحقل » والبحر « بحجم سلة الخبز » • وعندما تصبح الارض والبحار غير مرئية ، يصاب « أتانا » بالهلع ويخاطب النسر قائلا : « ياصديقي ، لن اصعد الى السماء » ويقفز نحو الارض رأسيا يتبعه النسر • ولسوء الحظ ، فان النص ينكسر عند هذه اللحظة الحرجة • غير ان بامكاننا الافتراض بأن « أتانا » قد بلغ مراده ، اذ لم يعمر لمدة (١٥٦٠) سنة محترمة فقط ، بل انه خلف ايضا ، طبقا الى قائمة الملوك اياها ، ابنا وولي عهد يدعى « بالح » •

وتعطينا قائمة الملوك السومريين انطباعا بأن آخر ملوك سلالة كيش الاولى ، وهو « آگا » ، قد هزم في احدى المعارك من قبل أول ملوك سلالة

اوروك الاولى • غير أننا نعلم بان هاتين السلالتين كانتا في الحقيقة متداخلتين، وان الملك « آگا » قد عاصر الملك الخامس لسلالة اوروك الاولى الذي هو «گلگامش» • ويتبين هذا في قصيدة(20) سومرية قصيرة تصف كيف أن «آكا» قد بعث انذارا الى « گلگامش » يطالبه فيه باستسلام « اوروك » الى « كيش » ، وكيف ان اوروك ، التي رفضت الانذار ، قد حاصرها الاعداء • ولكن ما أن أطل « گلگامش » العظيم من فوق السور ، حتى أرعب مرآه العدو الذي « استسلم » له صاغرا • وفي النهاية ، فان « آگا » هو الذي يصبح تابعا ل « گلگامش » وتستسلم كيش الى أوروك كما تذكر هذا قائمة الملوك• واذا كان الملوك الذين خلفوا « گلگامش » لم يحكموا كامل بلاد سومر واقتصرت سيادتهم على مدينة اوروك فحسب ، الا أنهم كانوا ايضا شخصيات عظيمة • فبعد « گلگامش » جاء « مسكيا گاشر » ابن اله الشمس « اوتو » الذي « دخل البحر وخرج (منه) الى الجبال » ، ثم جاء الملك « انمركار » الذي « بنى اوروك » وتلاه « لوگالبندا »* (الراعي المقدس) واخيراً حكم « دموزي » اله النباتات ، الذي تسميه القائمة هنا « صائد الاسماك »• وأعمال ما لايقل عن اثنين من هؤلاء الابطال ، أو أنصاف الآلهة ، معروفة جيدا لدينا بعد أن تم مؤخراً نشر اربع حكايات ملحمية سومرية كانت تشكل يوما أجزاء من سلسلة مغامرات « انمركار » و « لوگالبندا »(21) • وتدور كل هذه الملاحم حول العلاقات المتوترة بين اوروك واراتا ، والاخير اقليم بعيد تفصله عن سومر « سبعة جبال » ولعله المنطقة الكائنة غرب ايران(22) • وتطلعنا احدى هذه الحكايات باسهاب على الصعوبات الكبيرة التي واجهها « انمركار » في الحصول على الذهب والفضة وحجر اللازورد من «سيد ار ّاتا» ، تارة بالوعيد ، وتارة مقايضة بالحبوب • ويعبر هذا عن الوضع الذي لابد أن

(*) او « لوگال ــ بندا »

يكون قد استمر طويلا في تاريخ وادي الرافدين والذي ربما يفسر لنا سبب الحروب التي لانهاية لها الدائرة بين العراق ومنطقة عيلام في العصور القديمة • وتروي قصة أخرى محاصرة اوروك من قبل أقوام ال « مار • تو »، وهم البدو الآموريون من سكان بادية الشام والذين استوطنوا العراق وتغلبوا على السومريين في بداية الالف الثاني ق • م • ولو استطعنا الجزم بان هذه الحكايات انما تعكس وضعا سياسياً حقيقياً حصل فعلا في غضون عصر فجر التاريخ وليس حوادث جرت في العصر الذي كتبت فيه (حوالي عام ١٨٠٠ ق • م) ، فسيكون بامكاننا عند ذاك أن نجد فيها مادة مثيرة لدى المؤرخين •

وتتطرق اخيرا الى « گلگامش » ، خامس ملوك سلالة اوروك الاولى ، وابن الالهة « ننسون » وبعلها الكاهن الاعلى لاحدى مقاطعات اوروك المسماة «كلاّب» • وقد كان «گلگامش» ـ الذي تذكرنا مغامراته بتلك التي تنسب الى « اوليس » و « هرقل » معا* ـ أحد أشهر أبطال وادي الرافدين • ويصور لنا هذا البطل في هيئة رجل ملتح ، مفتول العضلات ، يقاتل الاسود والثيران في عدة نصب فنية تظهر في الاختام الاسطوانية العائدة الى الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي ، وفي المنحوتات البارزة في قصور الاشوريين الفخمة • وله ، مثل « انماركار » و « لوگالبندا » سلسلة من المغامرات الاسطورية تعود الى فترات مختلفة من حياته نعرف خمساً منها فقط(23) • غير ان هذا ليس كل شيء ؛ ففي الالف الثاني ق • م • ألفت قصيدة طويلة مزجت قسماً من القصص السومرية القديمة بمواد جديدة ، فجاءت عند ذاك « ملحمة گلگامش » العظيمة التي وصلتنا كاملة تقريبا بفضل الصدفة

(**) يوليسيس (أوليس ، عوليس) (Ulysses) بطل ملحمة هوميروس الاوديسة التي تصف العشر سنين من مغامراته التي تلت حرب طروادة وعودته الى بلدته ايثاكا . هرقل (هراقليس) بطل اسطوري يجترح اثنتي عشرة معجزة في الميثولوجيا الاغريقية .

وحدها • و « ملحمة گلگامش » قطعة فنية رائعة للادب الآشوري ــ البابلي وهي احدى أجمل ملاحم العالم القديم وأجد أن من الواجب علي ، ازاء كــل هذا ، أن أحاول هنا تقديم ملخص قصير وموجز لمحتواها ، محيلا القــارىء المتلهف الى الاطلاع عليها الى الترجمات العديدة الممتازة المطبوعة لها(24)•*

قصـــة گلگامش

تصف الملحمة « گلگامش » بأنه « هو الذي رأى كل شيء حتى نهايات العالم » ، وبامتلاكه ثلثين إلهيين وثلثاً بشريا آخر • وقد كان شديد البــأس ، شجاعا ووسيماً ؛ كما كان كثير الاهتمام بمدينته اوروك• وقد أعجب البابليون بشكل خاص بالسور المتين الذي شيده حولها ؛ ربما يكون هذا السور ذلك الجدار الذي يبلغ طوله ستة اميال ، العائد الى عصر فجر السلالات ، والذي ما زال يحيط بآثار مدينة الوركاء • ولكن غطرسة « گلگامشــ » وقسوتــه وفسقه أثارت عليه حفيظة مواطني اوروك الذين شكوه الى الاله الاعظم«آنو»• فأمر الاخير الالهة « أرورو » بخلق « ثور وحشي » آخر « يعادل گلگامش مرتين » كي يستطيع تحديه ولفت انتباهه بعيدا عن بنات وزوجات المحاربين والشرفاء اللائي لم يكن « گلگامش » ليتركهن بسلام • وهكذا فقد صنعت « أرورو » من الطين البطل « أنكيدو » في هيئة مخلوق ضخم ، متوحش ، كث الشعر ، يعيش في السهوب بين البهائم المتوحشة :

مع الغزلان يتغذى على العشب ،
ومع الضواري يتناكب في مناطق السقي ،
ومع المخلوقات المحتشدة يسر قلبه في الماء •

(*) ترجمة ملحمة گلگامش الى كافة اللغات الاوربية الغربية ، والى لغــات كثيرة اخرى • وترجمها للعربية كل من د • انيس فريحه والاستاذ حداد والاستاذ عبدالحق فاضل (ترجمها شعرا) وطه باقر •

وفي أحد الايام ، يشاهد أحد الصيادين البطل « أنكيدو » من مسافة بعيدة فيفهم ذلك الصياد سبب تخريب الفخاخ التي كان ينصبها وسبب هروب الطرائد من يديه ويخبر « گلگامش » بمرآه . فيقوم الاخير بنصب كمين للرجل المتوحش « أنكيدو » وان كان من نوع آخر حيث يعمد الى ارسال بغي الى السهوب ولديها تعليمات باغواء « أنكيدو » وتحويله الى شخص متحضر . ولم تواجه البغي كبير عناء في تنفيذ الجزء الاول من مهمتها . ثم تأخذ بيديه و « كأنها أمه » وتقوده الى اوروك حيث يتعلم الاستحمام ، وتطيب جسده بالزيت الزكي ، ويأكل الخبز ، ويشرب الخمور القوية . وعندما يسمع « أنكيدو » في اوروك بأن « گلگامش » عازم على « تمرين قواه الجنسية » ذلك اليوم في المبغى ، يسارع بالتصدي له ببسالة فائقة . ويجري ، عقب ذلك ، عراك مريع بين البطلين ينتهي بتبادل كلمات الاعجاب المتبادل وحلول السلام بينهما . وبعد أن يعثر « گلگامش » على رفيق له من منزلته ، « يقبل البطلان بعضهما الآخر ويصبحان صديقين »** .

ولكن « گلگامش » المتحمس والطموح ، يرغب في نيل الشهرة العريضة، فيقنع « أنكيدو » بمرافقته الى « غابة الارز » الواسعة الشاسعة حيث يسكن العملاق المخيف « حواوا » (او خمبابا) « الذي يمتلك فما من نار ونفسا من موت » . وبعد أن أعدا أسلحتهما وابتهلا للآلهة ، يغادر الصديقان اوروك . ولم يستطع البطلان بلوغ « غابة الارز » الا بعد قطع مسافة تحتاج ، في الاحوال الاعتيادية ، الى ستة أسابيع كاملة ، في ثلاثة أيام فقط حيث :

وقفا ساكنين وامعنا النظر في الغابة
وشاهدا شموخ اشجار الارز ...
فمن على وجه الجبال

(**) كان « گلگامش » ، في الحقيقة ، هو الغالب ، ولكنه يعجب بشدة مراس غريمه « انكيدو » فيتخذه رفيقا .

ارتفعت اشجار الارز فخمة سامقة
غامرة ظلالها ، مليئة بالحبور ...

وبعد ان أمسكا بحارس الغابة الغافل ، دخل البطلان المنطقة المحرمة وقام « گلگامش » بقطع الاشجار الواحدة بعد الاخرى . عندئذ خرج « حواوا » غاضبا وكاد ان يفتك بالمغامرين لولا اسعاف الاله «شمش» لهما بارساله « الرياح الثمانية » كلها ضد « حواوا » فسببت له الشلل التام . وبعد استسلامه للبطلين ، يلتمس « حواوا » منهما متضرعا الابقاء على حياته، غير انهما لايصغيان لتوسلاته بل يقطعان رأسه ويعودان الى اوروك ظافرين .

عقب هذا الانتصار الكبير ، تقع « عشتار » بحب « گلگامش »، فتعرض عليه الزواج ، الا أن « گلگامش » يرفض عرضها ويذكرها بضروب جحودها لعشاقها السابقين ــ ابتداء من « تموز » الذي « حكمت عليه بالنحيب سنة بعد اخرى » الى الراعي والمزارع اللذين حولتهما الى ذئب وعنكبوت . ويشتم « گلگامش » « عشتار » راميا اياها باقذع النعوت :

لست الا منفاخاً يعمل في البرد ،
باباً خلفية لاتمنع الصاعقة ولا الريح ،
قربة ماء تملأ من قبل حاملها ،
فردة حذاء توجع قدم صاحبها !

وبسبب الاهانة المرة هذه ، تطلب « عشتار » من « آنو » ارسال « ثور السماء » ليغتصب اوروك ، فيفعل عظيم الآلهة ذلك . وبعد أن يطرح الثور الرجال أرضاً ، الواحد تلو الاخر ، يمسك به « أنكيدو » من قرونه ويطعنه « گلگامش » بالسيف في عنقه . وبينما كانت « عشتار » تصب لعناتها على حاكم اوروك ، يقطع « گلگامش » فخذ الحيوان الايسر ويقذفه بوجهها .

كانت هذه الوقاحة اكبر من ان تتركها الآلهة تمر دون عقاب ، فتقـرر وجوب القضاء على احد البطلين • وهكذا يصاب « أنكيدو » المنكود الحظ (الذي تقع عليه القرعة) بمرض عضال يدب في جسده فترة طويلة ، فيستعرض ذكرياته واعماله السابقة ويلعن البغي التي أغوته ، ثم طفق يحلم بالعالم الاسفل المعتم حتى قضى نحبه • فيحزن «گلگامش» على فراق رفيقه حزناً شديداً لمدة سبعة ايام بلياليها «حتى نزلت دودة من أنفه» •

أثر موت « أنكيدو » كثيرا في نفس « گلگامش » ملك اوروك الشجاع الطموح اذ أدرك لاول مرة رعب الموت كاملا • فراح يتساءل : هل يمكـن أن يختفي هو مثلما اختفى صديقه المخلص « أنكيدو » ؟ ام هل أن بوسعـه تخطي المصير المرعب للبشر ؟ :

خائفاً من الموت أجوب السهوب ،
وقد اقضّت مصيبة اخي مضجعي
كيف أستطيع السكوت وكيف أبقى ساكنا ؟
صديقي الذي احب عاد الى الطين ،
هل يتوجب ، علي أنا ايضاً ، أن أرقد مثله
كي لا أستيقظ أبد الآبدين ؟

ويقرر « گلگامش » بعدئذ مقابلة « اوت ــ نابشتم » ، وهو الرجـل الوحيد الذي بقي حياً بعد الطوفان ، ليحصل منه على سر الخلود • وكـان عليه ، للوصول الى « اوت ــ نابشتم » ، أن يجتاز اولا جبل « ماشو » ، وهو جبل « مغيب الشمس ، الكبير ، المعتم » الذي يحرس مدخلـه « رجـال العقرب » • غير ان « رجال العقرب » هؤلاء يرقون لحاله عند مرآه فيسمحون له بالدخول • وعلى الجانب الاخر من الجبل ، يقابل «گلگامش» فتاة الحانة

« سيدوري » التي تعيش « على حافة البحر » • وتنصحه « سيدوري » بالكف عن الحزن والتجوال ، وتحبب له الاستمتاع بلذائذ الحياة ، ولكنها تتأثر أخيراً بحزنه العميق ، فترشده في النهاية الى مكان « اوت ــ نابشتم » الذي يسكن الجانب الآخر من بحر كبير خطير ، تمنع « مياه الموت » البشر عن بلوغه • ولم يتردد بطلنا ، فيعبر البحر بمساعدة النوتي « اورشناب » ويظفر اخيرا بمقابلة « اوت ــ نابشتم » الذي يروي له قصته وهي قصة الطوفان • ولكن هل بمقدور « اوت ــ نابشتم » مساعدة « گلگامش » في الحصول على وطره ؟ نعم ، بالتأكيد • فما عليه الا ان يحصل على نبات شوكي معين ينمو في أعماق المحيط ، يدعى « نبات الحياة » فيضمن خلوده • ويقوم « گلگامش » ، مثل غطاسي الخليج العربي الآن ، بشد الاثقال في قدميه ويغور في لجة البحر عميقا فيلتقط النبات الموعود • ولكن ، واأسفاه ! فبينما هو عائد الى مملكته ، تأخذ « گلگامش » سنة من النوم قرب ينبوع ماء فتخرج منه افعى تسرق من « گلگامش » النبات الثمين ، فيخسر الاخير خلود الحياة رغم تجشمه الصعاب والاهوال • وفي النهاية ، تختتم القصة بخاتمة متشائمة مثل تشاؤم حديث « اوت ــ نابشتم » الى « گلگامش » :

هل سنبقى ابداً نشيد المنازل ؟
وهل سيدأب النهر الى الابد بالارتفاع جالباً الفيضان ؟
وتستمر اليعسوب في ترك صدفتها
كي يختلس وجهها النظر الى طلعة الشمس •
فمنذ الايام الخوالي ماكان هناك اي دوام ؛
وكم يتشابه النائمون مع الموتى !

ذلك هو ملخص قصة « گلگامش » التي أفقدناها ، مع الاسف ، اريجها الشعري • وقد كانت بلا شك اكثر ملاحم الشرق الادنى شهرة ، فظهرت لها

عدة « طبعات » آشورية ـ بابلية ، وترجمت ، منذ القدم ، الى اللغات الحثية والحورية التي وصلت الينا • وبالطبع ، فقد كان « گلگامش ـ البطل » مجرد اسطورة خيالية محضة • ولكن ماذا عن « گلگامش ـ الملك » ؟ كان بمستطاع المرء ، حتى قبل سنوات قليلة فقط ، أن يشك حقا بوجوده ؛ أما الآن ، فتتوفر لدينا الاسباب ماتكفي لحملنا على الاعتقاد بأن ملكاً بهذا الاسم قد حكم فعلا مدينة اوروك ، وان لم يتوفر بعد اثبات قاطع على هذا • وهكذا ، وفي وقت ما ، كان يسود الانطباع بأننا ازاء أساطير لا تمت بصلة الى الواقع ، أما الان ، فنحن واثقون بأن عصر « گلگامش » لابد ان يكون قد تزامن مع الفترة المبكرة من العصور التاريخية لوادي الرافدين •



الفصل الثامن

عصر فجر السلالات



تقسم العصور التاريخية للعراق القديم ، مثل عصوره ما قبل التاريخية الـى فترات تتميز كـل منهـا بتغيرات سياسية مهمـة ، وبتطورات رئيسية أو ثانوية ، في الحقول الاجتماعيـة ، الاقتصاديـة ، والحضارية •

وتغطي اولى هذه الفترات جزءاً من الالف الثالث ق • م ، وتنتهي بفتح سومر من قبل ملك « أكد » السامي ، « سرجون » (حوالى عـام ٢٤٠٠ ق • م) • ولهذا ، فـان هـذه الفترة غالبا مـا تسـمى بـ « الفترة ما قبل السرجونية » ، على الرغم من كون مصطلح « عصر فجر السلالات » هو التسمية المفضلة الآن ، على الاقل من قبل المؤرخـين الذين يتكلمون الانجليزيـة •

متى تبدأ بالضبط العصور التاريخية في العـراق ؟ ان لهذا السؤال أهمية كبيرة تفوق الاهمية الاكاديمية البحتة ويستحق البحث والاستقصاء• نعلم أن الميزان التاريخي الوحيد الذي نملك ، وهو قائمة الملوك السومريين، يتألف من قسم أسطوري وآخر تاريخي • ولكن متى بالضبط تصبح أخبار

هذه القائمة ذات قيمة تاريخية موثوقة بحيث يمكن الاعتماد عليها ؟ هل يكون ذلك عندما تتوقف عن مصادفة الابطال الاسطوريين ، أي عندما نواجه ، بدلا منهم ، ملوكا حقيقيين ؟ الجواب الواضح هو : عندما تتوفر لدينا مخطوطة أصيلة تعود لاحد حكام سومر الاوائل الذين يرد ذكرهم في هذه القائمة . وكلما كان اسم هذا الحاكم يحتل مكانا أعلى في الخط السلالي للقائمة ، كلما اصبحت نقطة بدء التاريخ أكثر تبكيراً من قبل .

ولمدة طويلة ، لم تتوفر لدينا مثل هذه الوثيقة ذات الاهمية الحيوية . فحتى الحرب العالمية الاولى ، كانت معلوماتنا عن الفترة السابقة على العصر السرجوني مستخلصة كلها تقريبا من أعمال التنقيب التي أنجزت بين (١٨٧٧ — ١٩٠٩) من قبل الفرنسيين في لگش (التي تسمى الان « تل لوه » او تلوه ، وهي تل كبير كائن على مقربة من شط الغراف ، شمال الناصرية بخمسة وثلاثين ميلا)(1) . فبالاضافة الى الاعمال الفنية الرائعة ، أعطتنا هذه الحفريات عددا من المخطوطات التي مكنتنا من وضع قائمة لحكامها تعود الى « تاريخ » مبكر في الالف الثالث ق . م (حوالي سنة ٢٠٠٠ ق . م)(2) . ولسوء الحظ فان المعلومات التي أستحوذت بهذه الطريقة قد اقتصرت على مدينة واحدة . والاسوأ من هذا هو غياب أي ذكر لاي من أمراء هذه المدينة في قائمة الملوك السومريين لانهم ، وبدون شك، لم يعتبروا أبداً حكاما على كل بلاد سومر . وهكذا فقد كانت عملية تأسيس تاريخ وادي الرافدين اعتمادا على قاعدة ترتكز على مصادر مدينة لگش وحدها تشبه الى حد كبير محاولة اعادة بناء تاريخ « انگلترا » اعتمادا على أرشيفات « كانتربري » وقائمة باسماء دوقات مقاطعة « كنت »!(*)

في شتاء عام (١٩٢٢/٢٣) ، كان « سير ليونارد وولي » ينقب في

(*) « كانتربري » مدينة في مقاطعة « كنت » جنوب شرق انكلترا التي كانت قديما مركزا لمملكة انكليزية .

موقع العبيد قرب اور ، وهو الموقع الذي يطلق اسمه على احدى فترات ما قبل التاريخ لوادي الرافدين، فوجد فيه ، بالاضافة الى مقبرته ما قبل التاريخية رصيفا من الآجر الطيني كان يشكل يوما أساسا لمعبد صغير يحتوى نقوشا رائعة . وكان المعبد قد دمر تماما منذ القدم ، غير أن أجزاء كبيرة من نقوشه ، وبضمنها منحوتات برونزية بارزة ومكورة ، جرى تركها جانبا من قبل الاعداء فبقيت مدفونة تحت التراب في أقدام الرصيف . وبين أجزاء هذه « القمامة » الثمينة ، عثر « وولي » على رقيم من المرمر حفر عليه هذا النقش(3) :

« الى الإلهة ننخورساك ، آ ــ أنا ــ بادا ، ملك اور ، ابن مس ــ آنا ــ بادا ، ملك اور ، لننخورساك بني (هذا) المعبد» .

ولم يكن الملك « آ ــ انا ــ بادا » معروفا بعد آنذاك ، الا أنه كان من الميسور التعرف على والده « مس ــ أنا ــ بادا » باعتباره مؤسس سلالة اور الاولى التي يرد ذكرها في قائمة الملوك السومريين ، والتي أعقبت عهد سلالة اوروك الاولى . وهكذا ، فقد تم ، ولاول مرة ، تقديم البرهان المادي على أن أحد الذين حكموا سومر قديما ، وهو الملك الذي كان يعتبر في السابق شخصية أسطورية محضة ، قد وجد فعلا وقد تطورت معلوماتنا الان كثيرا عما كانت عليه وقتذاك . فقبل سنوات قليلة ، عثر عالم « الآشوريات » الالماني « دكتور . د . و . إدتسارد »
(Dr. D.O. Edzard)
في متحف بغداد ، على كسرة من قطعة مرمر كبيرة مجهولة الاصل تحمل كلمات مهمة قليلة نقشت برموز قديمة جدا :

«ا مي ــ باراك ــ سي ، ملك كيش »

وكما اثبت « إدتسارد »(4) ، فلم يكن هذا الملك غير « إن — مي — باراك — سي » المذكور في قائمة الملوك (اذ يمكن حذف « إن » باعتباره مقطعا يفيد اللقب) ، وهو الملك الثاني والعشرون لسلالة لكش الاولى (الاسطورية) ، وهو أيضا والد آكا » الذي شن الحرب على « گلگامش » كما مر بنا • ثم ، وبعد عام ، استطاع عالم « السومريات » « س • ن • كريمر » ان يثبت ، بمساعدة نص يدعى « مخطوطة تمّال » بان « گلگامش » كان معاصرا للملك « مس — أنا — بادا » في اور(5) • ومن كل ما سبق نستطيع الان الخلوص الى الاستنتاج التالي : (أ) ان « گلگامش » — ملك اوروك وبطل الملحمة المشهورة باسمه — قد عاش فعلا وحقيقة وفق كل الاحتمالات • (ب) وان « إنميراكيسي » ملك كيش ووالد « آكا » والخليفة المتأخر للبطل « أتانا » ، هو أقدم ملك سومري يعرف بصورة اكيدة حتى هذا الوقت •

ولكن هل ان بوسع المرء أن يكون أكثر دقة وتحديدا في هذا المجال فيقدم تواريخ « مطلقة » ؟ ما يزال الترتيب التاريخي للالف الثالث ق • م غير واضح تماما ، وهو عرضة للاخذ والرد • غير اننا اذا ما قبلنا الاعوام (٢٣٧١/٢٣١٦ ق • م) باعتبارها تمثل فترة حكم سرجون الاكدي طبقا الى التسلسل التاريخي المقدم لنا من قبل « سدني سمث » — وقمنا بترتيب تواريخنا بالسير نحو الخلف الى الماضي ، فسنحصل على تاريخ معقول (حوالي عام ٢٧٠٠ ق • م) لفترة تولي « أنميراگيسي » حكم كيش • ويمكن الان اعتبار هذا التاريخ نقطة ابتداء تجريبية لاستهلال العصور التاريخية في العراق القديم(6) •

دويلات المدن السومرية

يغرينا اهتمامنا المتركز الان على سومر على تناسي مدى صغر مساحة هذا البلد التي لم تكن لتزيد على العشرة آلاف من الاميال المربعة ، أي أقل بقليل من مساحة «بلجيكا» ، وبحجم أربع أو خمس مقاطعات انكليزية. ولقد تركزت الحياة فيه على ضفاف الانهار والقنوات . ولان نهر الفرات كان يقطع آنذاك طريقاً ينحدر نحو الشرق اكثر من واديه الحالي ، فان « مهد الحضارة » هذا لم يكن في الواقع أكثر من شريط من الارض طويل وضيق يمتد تقريبا من بغداد الى الاهوار المحاذية لساحل الخليج العربي .

كان هذا القطر الصغير منقسما الى عدة كيانات سياسية — دينية نسميها « دويلات مدن » . وتشتمل كل « دولة مدينة » على مركز المدينة وضواحيها والقرى الدائرة في فلكها مع الحقول والرياض وبساتين النخيل العائدة لها (أو بالاحرى الى آلهتها ، كما سنرى) . وقد أستخدم سهل « الاستب » ، المفتوح وغير المزروع ، المحصور بين مناطق الري ، مرعى للماشية ، وكان يدعى بالسومرية « إيدن » (وهي الكلمة التي يمكن أن يكون قد اشتق منها الإصطلاح « إيدن » الوارد في الكتاب المقدس)(*). ولا نعرف معدل مساحة كل دولة مدينة وان كان قد قدم الرقم (١٨٠٠ ميل مربع) كتخمين لمساحة دولة مدينة لگش التي قدر عدد سكانها عهد ذاك بحوالي (٠٠٠ ر ٣٠ — ٠٠٠ ر ٣٥ نسمة)(7) .

ولقد تأكد من المصادر المكتوبة بأن عدد دويلات المدن التي وجدت خلال عصر فجر السلالات في كل بلاد سومر لم تكن لتزيد على ثلاث عشرة مدينة . وهي ، من الشمال الى الجنوب ، : سپّار ، كيش ، أكشاك ، لاراك ، نفر ، أداب ، اوما ، لگش ، باد-تبيرا ، كيش ، اوروك ، لارسا ، أور

(*) وربما ايضا كلمة « عدن » (جنات عدن) الواردة بكثرة في القرآن الكريم .

وأريدو • ولكن الحفريات الآثارية أظهرت ان مدنا مهمة أخرى قد وجدت في مناطق أخرى من وادي الرافدين وكانت خاضعة لتأثير حضاري سومري كبير • تلك ، مثلا ، كانت حالة مدينة « آشور » (قلعة الشرقاط) الواقعة على نهر دجلة ، ومدينة « ماري » (تل الحريري) الواقعة على الفرات واللتين تبعدان عن نفر ، بالتعاقب ، مسافة (٢٥٠ و ٣٠٠ ميلا) • وبسبب فقدان الوثائق المكتوبة ، فاننا لا نعرف الى أية مجموعة عرقية ينتمي السكان الاوائل لمدينة « آشور » • الا أن المواد المكتشفة من قبل الالمان ، قبل الحرب العالمية الاولى ، في معبد « عشتار » القديم العائد لتلك المدينة كانت سومرية بشكل نموذجي(8) • ويمكن أن نردد نفس هذا القول بخصوص مدينة « ماري » ، على الرغم من معرفتنا ، استنادا الى أسماء الاشخاص الظاهرة في مخطوطاتها المحلية ، بأنها كانت مركزا عتيدا لمقاطعة سامية • وقد كشفت الحفريات الفرنسية في مدينة « ماري » ، والتي جرت قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها(9) ، عن عدد من النصب والتماثيل التي تعود الى الفترة ما قبل السرجونية وبضمنها ، على الاقل ، أربعة معابد وزقورة واحدة • وقد احتوى أحد هذه المعابد ، وهو المكرس للإلهة « نيني زازا » على « منليث » مخروطي (حجر ضخم على شكل عمود او مسلة) من النوع الشائع في معابد فلسطين القديمة السامية • الا أن تماثيل القار الصغيرة المكرسة لـ « أم اللؤلؤ » ، وبقايا الصدف التي تزين هذه المعابد ، تتماثل ، بشكل مدهش ، مع تلك التي وجدت في كيش واور • وكان الملوك والمواطنون الساميون في مدينة « ماري » يكرسون لآلهتهم تماثيل صغيرة لانفسهم منحوتة برشاقة فائقة • وتصور تلك التماثيل الصغيرة اولئك الاشخاص وهم يرتدون التنورة الصوفية السومرية التقليدية ويطلقون لحاهم ويحلقون شعر رؤوسهم ويصلون وفق الوضع السومري للمصلين ، أي بالايدي وهي مضمومة أمام الصور • وقد وجدت نصب وتماثيل مشابهة لهذه ، وان كانت أسمج منها ، في « تل أسمر »

(أشنونا) في وادي ديالى من قبل بعثة المعهد الشرقي في شيكاغو • وفي الحقيقة ، فان « تل اسمر » ، اضافة الى المواقع المجاورة له في « خفاجي » (توتوب القديمة) و « تل عقرب » ، قد أعطت علماء الآثار معلومات قيمة عن عصر فجر السلالات أغزر من تلك التي استحوذت من مدن اقليم سومر نفسه • ففي المدن القديمة الاخيرة ، تتواجد كقاعدة بنايات جد قديمة مدفونة تحت أطلال نصب وبنايات أكثر حداثة منها(10) • أما في « تل اسمر» و «خفاجي » فبامكاننا متابعة عملية اعادة بناء مستمرة للمعابد، وفق تصاميم متنوعة ، ولكن بنفس المواد الانشائية على الدوام ، اي بالآجر الشبيه بالمقعد ذي الشكل المحدب ـ المستوي ، المرتب بنحو منحرف أو مائل ، والذي يشكل السمة المميزة لهذا العصر في كل أرجاء وادي الرافدين • وفي « خفاجي » ، نعجب بمعبد يرتكز على مسند يتخذ هيئة تسييج بيضوي غريب الشكل • وبوسعنا اعادة بناء تلك المدن المبكرة ببيوتها الصغيرة المتلاصقة في شوارع ضيقة متعرجة • وبوسعنا ان نشخص في فخار وادي ديالى القرمزي ، برسومه المعبرة عن الحيوانات والبشر ، التوهج الاخير لفن الفخار الملون العائد لازمان ما قبل التاريخ • وبوسعنا أيضا حتى ان نلعب بدمى العربات الطينية التي كانت تستخدم كلعب للاطفال الذين عاشوا في تلك الازمنة الغابرة • مع ذلك ، فاننا ، في النهاية ، لانجد مندوحة عن العودة الى النصوص الادبية السومرية لاقليم سومر نفسه عندما نبتغي تكوين فكرة عن التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي لدويلات مدن عصر فجر السلالات(11) •

كانت كل عاصمة دولة مدينة تتكون من عدة قصبات او تجمعات سكنية ولكل منها معبده الخاص في المركز • وكانت كل المدينة ، اضافة الى الاقليم التابع لها ، تقع في ظل حماية اله واحد لم يكن يحمي الدولة فقط ، بل كان يمتلكها ايضا • فقد كانت « لگش » ، على سبيل المثال ، تعود

الى الاله « ننگرسو » ابن « إنليل » ؛ كما كانت « اور » تعود الى « نانا » اله القمر • ولا يجب فهم تعبيرات مثل « حقل ننگرســو » أو « انتصـــار ننگرسو على شارا (إله أوما) » بمعناها المجازي ، بل يجب أخذها وفق معناها الحرفي تماما • وكان سكان دولة المدينة يعودون كذلك ايضاً الـى الههم ، بالضبط الى إله القصبة التي يسكنون فيها • وكانوا يقسمون الـى مجاميع تسمى « شعب ننگرسو » و « شعب بابا » •• الخ • وكانت هناك فئتان اجتماعيتان سائدتان في المجتمع السومري هما الاحـرار والعبيـد • ويجب أن نلاحظ ان العبيد ، الذين كانوا يقتنون بأعداد محدودة مصدرها الرئيسي أسرى الحرب ، لم يكونوا يلعبون دورا كبيرا في اقتصاد سومـر خلال عصر فجر السلالات •

وكان بوسع الاحرار امتلاك البيوت ، البساتين ، بـرك الاسمـاك ، الحمير ، الاغنام والماعز ، والتصرف فيها بحرية • وكـان لديهـم أثاثهـم وأدواتهم الخاصة ومبلغ معين من الفضة • كمـا كان بعضهم يمتلك ايضـا قطعة من الارض • وهناك من الاسباب ما تكفي لجعلنا نعتقد بأن الحكـام والكهنة ، اضافة الى افراد عائلاتهم ، كانوا يمتلكون مقاطعات واسعة • اما هل كانت تلك المقاطعات الخاصة تشكل القسم الأغلب من مساحة دولـــة المدينة ام لا ، فتلك مشكلة عويصة سيكون لحلها تأثير حاسم على فهمنـا لطبيعة المجتمع السومري المبكر • فعلى الضد من النظرية القديمة القائلـة بأن اغلب الاراضي والماشية التابعة لدولة المدينة كانت ملكاً للآلهـة (أي ملكاً للمعابد) ، فان هناك نظرية جديدة تذهب الى القول بأن تلك الممتلكات كانت تعود في الحقيقة الى « النبلاء » وبضمنهم رجال الدين • وتستند كلتا هاتين النظريتين على أسس متينة ولكنها ضيقة ؛ اذ تعتمـدان الوثائـــق الاقتصادية والقانونية الاصلية العائدة لدولة مدينة واحدة هي « لگش » ، وعلى تخمينات عريضة مستنتجة من المناطق المجاورة التابعة لهـا ، وعلـــى

الارض التابعة لبعض معابدها • غير اننا نشعر بان البراهين المقدمة في صالح النظرية الحديثة لا تبرر ترك النظرية القديمة المتميزة باعتمادها مصادر موثوقة عديدة ، والتي تلائم مايبدو أنه كان توجها عاما في التطور التاريخي للمؤسسات السياسية في وادي الرافدين ، حتى لو كان هذا الانحياز يمكن ان يرمينا بتهمة تحبيذ الافكار المحافظة القديمة •

كان كل واحد من معابد « المدينة ـ الدولة » يمتلك حقوله ومراعيه الخاصة (تعود الحصة الرئيسية منها الى المبعد الرئيسي) المستثمرة من قبل سدنته • وقد قسمت الارض المزروعة الى ثلاثة أقسام هي : اولا « أرض المولى » (گانا ـ ني ـ إن ـ نا) التي كانت تستثمر من قبل كافة المواطنين لفائدة المعبد فقط • ثانياً « أرض الطعام » (گانا ـ كو ـ را) المخصصة مواردها للذين يعتاشون على موارد المعبد • ثالثا « أرض المحراث » (گانا ـ إين ـ لا) التي كانت تستأجر من قبل المزارعين مقابل سبع أو ثمن المحصول بعد الحصاد • وهكذا ، فقد كانت في متناول المعابد ثروة كبيرة كان إما أن يجري استهلاكها ، أو يعاد توزيعها ، أو تختزن أحياناً تحوطاً لمجاعة متوقعة ، أو يجري تبادلها مقابل بضائع تستورد من البلدان الاخرى كالمعادن والخشب والحجر • ولان كافة سكان دولة المدينة كانوا على الدوام رهن اشارة معابدهم ، لذلك فقد كان بوسع الاخيرة ان تأخذ على عاتقها تعهد بناء الاماكن المقدسة ، وتشييد التحصينات ، و شق القنوات وترميمها ، وغير ذلك من العمليات الكبيرة التي تتطلب عمالا وموارد كبيرة • ويفسر لنا الدور المفيد الذي كانت تلعبه المعابد في مجالات التنظيم الاقتصادي والتحفيز على الاعمال الشعبية السلطة الكبيرة التي كانت تتمتع بها ، وتقدم مبرراً منطقياً لها •

كان كل هذا يتطلب الشيء الكثير من اعمال التخطيط والسيطرة ومسك السجلات وغيرها من المهام ، وبوسعنا ان نلمس هنا احدى الاوجه المميزة المدهشة

لهذه الحضارة • فالمجتمع السومري لعصر فجر السلالات كان أبعد مايكون عن البدائية فقد ساده التنظيم المتكامل ، بل وحتى الزائد عن اللزوم • وكان الشعب السومري شعباً صارماً ذا عقلية « بيروقراطية » فترك لنا الآلاف من السجلات والقوائم والقسائم والعقود التي ترهق الباحث على الرغم من كونها مصدرا ثمينا للمعلومات • وتخبرنا النصوص الاقتصادية التي عثر عليها في « تلوه » (لگش) وفي « فاره » (شروپاك)(12) بانخراط كافة السكان العاملين في تلك المدينتين ؛ « نقابات » (اتحادات) متنوعة ، بعضها صغير القاعدة تماماً ويعكس تخصصا دقيقا • فقد وجد هناك مثلا رعاة يختصون برعي الحمير من الذكور ويختص آخرون بالاناث ، كما كانت هناك تجمعات منفصلة للسماكين تبعا لمكان صيدهم (فيما كانوا يصطادون في المياه العذبة او المياه شبه المالحة او في مياه البحر) • حتى سحرة الافاعي شكلوا حرفة خاصة يترأسها « ساحر الافاعي الاول » • وكان التجار والحرفيون ينظمون بشكل مشابه ويعملون تارة لحسابهم وتارة لفائدة المعبد الذي كان المنظم الوحيد للتجارة الخارجية • ووجد جيش من الكتبة والمفتشين والملاحظين والمنظمين وغيرهم من الموظفين في خدمة المعبد ، يوجههم مفتش عام « نو ــ باندا » ، وناظر « أگريگ » وكلاهما تحت امرة كاهن المعبد الاعلى « سانگا » الذي يسير ويدير آلة الدولة الضخمة هذه • واذا كان يتوجب اطلاق تسمية ما لمجتمع كهذا تركزت اغلب وسائل الانتاج فيه بيد « دولة قيادة الكهنة » ، والذي وجدت فيه الملكية الفردية أيضاً ، فيمكن ان تكون تسمية « الاشتراكية الثيوقراطية » مقبولة ، مع تذكيرنا بأن الوصفات الجاهزة هي ، بحكم الضرورة ، ذات صفة تقريبية ، وانها غالباً ماتكون مضللة •

حكام سومر الاوائل

كان حاكم دولة المدينة رئيساً لكهنة المعابد المختلفة باعتباره « الراعي »

المختار من قبل إله المدينة ، والمسؤول مباشرة أمامه . وفي النصوص القديمة العائدة لمدينة اوروك يطلق على الحاكم اسم « إن » ، وهو لقب يترجم عادة الى كلمة « المولى » وان كان يتضمن معنى مقدسا أعلى في الواقع . ولان « الإنْ » كان ساكنا محتملا لمجمّع المعبد ، لذلك فقد كان يبدو من المنطقي اعتباره الكاهن الاعلى لاله المدينة ورئيس المعبد الذي نمت حوله المدينة السومرية في أزمنة ما قبل التاريخ . وفي غضون عصر فجر السلالات ، كان الحاكم إما أن يسمى « إنسي » (حاكم) أو « لوگال » (ملك) . وكان المقطع « إنسي » يكتب « پا ـ تي ـ سي » وبقي يقرأ هكذا حتى وقت قريب . والاخير مقطع مركب يحتمل انه كان يعني (الرئيس « پا » الذي يخطط « سي » منطقة المعبد « تي »)(13) . اما كلمة « لوگال » فتعني ببساطة (الرجل « لو » العظيم « گال ») . ويصعب توضيح الفرق بين هذين اللقبين وان كان الاعتقاد السائد هنا هو ان كلمة « لوگال » كانت تطلق على الحكام المستقلين ، او على الملوك الذين يتسيدون ويديرون اكثر من دولة مدينة واحدة ، بينما كان اللقب « إنسي » يطلق على تابعي الـ « لوگال » من الحكام المحليين . اما زوجة الحاكم ، المسماة « نِن » (سيدة) ، فقد كانت تلعب دورا مهما في الحياة الدينية والاجتماعية للمدينة . وكان أل « لوگال » أو أل « إنسي » يسكن قصراً « إي ـ گال » (البيت العظيم) متميزاً عن المعبد . وقد تم اكتشاف قصرين من هذا النوع في جنوب العراق ، أحدهما في « كيش » والاخر في « أريدو »(14) ، وهما متشابهان تماماً في التصميم : يتكون كلاهما من بنايتين كبيرتين متجاورتين تحتويان غرفاً عديدة مطلة على فناء ـ وكانت أحداهما محاطة بجدار سميك مزدوج ـ كما وجدت في قصر « كيش » قاعة ملكية ذات صف من اربعة أعمدة أسفل الوسط .

كان الحاكم يدير ثروة معبد الاله ويحكم مدينته لصالحه (أي لصالح الإله) . ويجمع الملك بين أعمال القيادة العسكرية ، ورئاسة القضاء ،

وزعامة رجال الدين ، بالاضافة الى وزارة الشؤون الاجتماعية . وكانت احدى أكثر واجبات الملك قدسية هي بناء المعابد وترميمها وذلك نتيجة للاعتقاد السائد آنذاك بكون البشرية انما خلقت أصلا لخدمة الآلهة ، وان الحاكم يجب أن يكون اول خدمها . وتتوفر كتابات كثيرة جدا تشير باستمرار الى مثل هذه النشاطات العمرانية . فمن عهد « اور ـ نانشه » (أحد ملوك لكش الاوائل) والى عصر « آشور ـ بانيبال » (في القرن السادس ق . م) ، جرى تصوير عدة امراء لبلاد وادي الرافدين في منحوتات برونزية أو صخرية وهم يحملون على رؤوسهم سلال الطابوق الى المعابد المشيدة حديثا . وليس هناك من شك في أن رئيس المدينة كان يلعب دورا قياديا في أعياد السنة الجديدة ، كما كان يلعب دور « الاله ـ الذكر » في عدة مناسبات خلال احتفالات « الزواج المقدس » . وفي الحقيقة فان هناك من الاسباب ما تكفي لحملنا على الاعتقاد بأن بعضاً من الملوك السومريين ، مع زوجاتهم ، كانوا ، ومنذ وقت مبكر في بداية الالف الثالث ق . م ، وخلال العصر البطولي لـ « إن ـ مار ـ كار » و « لوگال ـ بندا » و « گلگامش » ، يعتبرون « آلهة حية » مقدسة ، أو على الاصح ، « نسخاً بشرية للالهة » التي تمثل على الارض في صورة « الزوجين المقدسين » اللذين يملكان دولة المدينة. ويبدو ان هذا هو افضل تفسير يمكن تقديمه للمشكلة المهمة التي اثارتها واحدة من اكثر الاكتشافات الآثارية غرابة في وادي الرافدين ، وهي تلك التي جرت في « المقبرة الملكية » لمدينة « اور » .

ولا يمكننا هنا تقديم وصف مفصل للمقبرة الملكية في اور ، اذ ان بالامكان قراءة ذلك في الكتب والمقالات الممتازة التي الفها سير ليونارد وولي(15) حول هذا الموضوع الجذاب. وليس هناك من شخص غيره يستطيع أن ينقل بوضوح وصدق مماثل ذلك الشعور الفياض بالدهشة الذي انتابه هو وفريقه عندما أخذ الذهب « ينضح » بكل معنى الكلمة من الارض تحت ضربات معاولهم ، وعندما ظهرت الى الوجود المعجزات

الفنية الواحدة تلو الاخرى • وليس هناك من أحد ، غير ذلك المنقب الفذ نفسه ، يمكنه شرح عمليات الانقاذ الرهيفة المضنية ، وعمليات الترميم الفني المتأنية للمواد الرائعة كالحلي والاسلحة التي كانت ترافـق الموتى ، والاوعية والخناجر الذهبية ، والتمثـال الذهبي المطعم بحجـر اللازورد « للكبش المصطاد في الاجمة » ولرؤوس الحيوانات المصاغة مـن الذهب والفضة التي زينت القيثارات ، ووشاح الرأس الذهبي للملكة « شبعاد » ، وفوق كل هذا ، الخوذة الذهبية الرائعـة لـ « مس ـ كلام ـ دوگ » • ولابد أن يكون لاكتشاف « وولي » المثير لمواكب الجنائز الغريبة ـ حيث يسير الموسيقيون مع قيثاراتهم ، والجنود بكامل أسلحتهم ، وحاشية نساء القصر بملابسهن البهية ، كل بمحض ارادته ، متجهين الى حفر الموت حيث يتعاطون السم الزعاف حتى الموت ـ تأثير مرعب ، حاد ، ومشهود في نفس القارىء يمتزج بالاعجاب والعجب المستديم •

ولكن مقبرة اور الملكية وضعت علماء التاريخ بمواجهة مشكلة جـد عويصة • فلا شك أنها تعود الى الفترة التي أعقبت عهد سلالة اور الاولى (٢٦٥٠ ق • م) مباشرة ، ولاشك كذلك في أن الاشخاص المدفونين بتلـك الفخامة لا يمكن أن يكونوا أقل من ملوك وملكات وأمراء • ولقد وجدت في القبور الملكية الستة عشر عدة نصوص كان بعضها منقوشا على أختـام اسطوانية ، ولكن لم يظهـر هنـاك سـوى اسمين فقط يتبعهما اللقب : « لوگال » (ملك) ، وهما : « مس ـ كـلام ـ دوگ » « بطل الارض الطيبة) ، و « أ ـ كلام ـ دوگ » (ابن الارض الطيبة) • كما ظهر اسمان آخران يعودان الى « نن ـ بندا » (زوجـة مس ـ كـلام ـ دوگ) و « پو ـ آب » (تقرأ « شبعاد » سابقا) ـ وهي زوجة ملك غير معروف ـ يحملان اللقب « نن » (أي الملكة) • ومع أن حقيقة كون القبور الملكيـة قد سلبت كلها منذ القدم (عدا اثنين فقط) يمكن أن تفسر الى حد ما سبب غياب المخطوطات الملكية الاخرى ، ولكن الامر مايزال باعثا على الارتباك(16) •

ومما تزيد في الارباك عملية ممارسة الدفن الجماعي لعدد يتراوح بين المرافقين الثلاثة والاربعة والسبعين مرافقا (أي ، عمليا ، كافة سكان بيت الملك) • وقد مورست مثل هذه العادة ، ولكن بحدود أضيق ، في بلدان أخرى ، وفي أزمنة مختلفة : في مصر ــ خلال عهد السلالة الاولى ــ ، وعند السيثيين والمغول في آسام ، وحتى لدى الكومانيين في منطقة روسيا الجنوبية وفي وقت متأخر يعود الى القرن الثالث عشر ق•م(17) ؛ ولكنها لم تمارس أو تظهر ابداً في وادي الرافدين خارج نطاق مدينة اور • ويمكن هنا التحجج ثانية بأن كافة القبور الملكية للعراق القديم قد وجدت مسلوبة وان هذا يفسر سبب عدم وجود وصف مكتوب لجنازة ملكية • غير ان التزام الصمت حيال احتفال يفترض انه كان من الاهمية بمكان أمر يثير الاستغراب ولا يمكن تفسيره الا بالافتراض بأن الدفائن الملكية المرتبطة بالتضحيات البشرية لم تكن غير تقليد محدود أقلع عن ممارسته في تاريخ جد مبكر ، ربما خلال عصر فجر السلالات ذاته • ولكن لم كل هذه التضحيات البشرية ؟ ان الوحيد الذي وصلنا والذي يشير الى ملك يدفن مع حاشيته هو قصة ملحمية سومرية تعرف بـ «موت گلگامش»(18) ونعرف الان بأن «گلگامش» و « مس ــ كلام ــ دوگ » كانا قد عاشا في عصر واحد تقريبا ؛ ونعرف ايضا ، من مصادر أخرى ، أن « گلگامش » كان يعتبر إله العالم الاسفل • وهذا يؤكد النظرية التي كان وولي أول من طرحها والقائلة بأن « مس ــ كلام ــ دوگ» و « أ ــ كلام ــ دوگ » و « پو ــ آبا » ، مع غيرهم من الملوك المجهولين والملكات الغامضات في المقبرة الملكية، كانوا أعلى من مجرد ملوك، أي أنهم كانوا آلهة أو أنهم قد مثلوا الآلهة على الارض ؛ ولهذا السبب فاننا نراهم قد وهبوا حق أخذ حاشيتهم معهم لحياة اخرى اكثر امتاعا بما لا يقاس من حياة البشر الاعتيادية فوق الارض •

وإذا كان ملوك وادي الرافدين قد توقفوا أن يكونوا « آلهة بديلة » في وقت مبكر من فجر التاريخ ، الا أنهم احتفظوا على الدوام بقسم من

وظائفهم الكهنوتية ـ مع كون المسار العام للتاريخ كان يجري دوما باتجاه الفصل التدريجي بين (مؤسستي) العرش والمعبد . وقد ابتدأ هذا التطور في العصور ماقبل السرجونية ، فمنذ حوالي عام (٢٥٠٠ ق ٠م) نجد ان « أتتمينا » (إنسي لگش) لم يعد الكاهن الاعظم لتلك المدينة . فعلى جدران سنديانة فضية جميلة مكرسة للإله « ننگرسو » ، نعثر على مخطوطة معبرة تذكر بأن (« دودو » كان كاهن (سنگا)الاله « ننگرسو » في تلك الايام)(19) . ولقد مرت أزمنة أصبح فيها الحاكم ، كما يبدو ، في صراع مكشوف مع كهنة المعبد . ففي مخطوطة مشهورة تعود الى «اورو كاجينا» ، وهو آخر أمراء « لگش » ، يذكر لنا هذا كيف انه(20) ، باعتباره نصيرا للآلهة ، قد وضع حدا للمفاسد التي كانت متفشية قبل عهده عندما كان مفتشو المحاكم يتدخلون في كل الامور ويفرضون الضرائب الباهظة على الدفائن وعلى الزيجات أيضا ، كما يبدو . وكانت البيوت تبتاع باثمان بخسة من قبل الموظفين الاغنياء ، كما كان الفساد عاما وقاسى الفقراء آلاما كثيرة . الا ان ما هو أدهى من هذا كله أن الانسي كان يجتني أطيانا شاسعة لزراعة « البصل والخيار » متجاوزا على أفضل حقول الآلهة ، كما كانت مقاطعاته تحرث بواسطة حمير وثيران تعود ملكيتها الى المعابد . فلما جاء « اوروكاجينا » ، أمر بابطال نفوذ ، وسحب يد عدة موظفين ، وخفض الضرائب ، وأعاد لننگرسو مركزه السابق في بنايات وحقول الحاكم :

« حرر مواطني لگش من الربا ، والاحتكار ، والجوع ، والسرقة ، والاعتداءات ، وأرسى دعائم حريتهم ... »

الا ان تلك الاصلاحات ، وان كانت قد طبقت على الجميع ، لم يكن لها تأثير دائم ، ففي غضون عهد حكم اوروكاجينا وقعت لگش ، مع بقية اقليم سومر ، في أيدٍ غير سومرية .

موجـز تاريخي

ان عملية اعادة بناء تتابع الاحداث خلال عصر فجر السلالات مهمة ليست سهلة ابداً ليس فقط بسبب ندرة النصوص التاريخية وايجازها وانما أيضا بسبب تزامن حكم عدة (سلالات) محلية ، وعدم ذكر الدور الذي لعبه بعض الحكام في قائمة الملوك السومريين • لذلك فسنكتفي ، فيما يلي ، بتقديم موجز مقتضب لتاريخ « ما قبل العصر السرجوني » ملفتين نظر القارىء الى ان عدة نقاط في عمليتنا هذه ما تزال عرضة للتبديل أو التعديل •

عندما تظهر اولى الكتابات الملكية المنقوشة ، وهي تلك التي تعود الى « إنميبراكيسي » (٢٧٠٠ ق • م) ، تكون سلالة كيش الاولى قد حكمت لعدة أجيال بحيث اصبح لقب « ملك كيش » يوازي ، تقريبا ، معنى (ملك البلاد ، ملك سومر) • واذا وثقنا بخطوطة «تمّال» ، يكون «انميبراكيسي» أول من بنى معبد « انليل » في نفر – التي سرعان ما أتخذت عاصمة دينية للسومريين ، مثل روما ومكة • وفي البدء ، كان ملوك وامراء سومر يتنافسون على ارسال أثمن الهدايا الى معبد « أنليل » ؛ ولكن ، وفي نهاية تلك الفترة، اصبح من الضروري للحكام ان (ينتخبوا من قبل « أنليل » في نفـر) اذا ما أرادوا أن يعترف بسلطتهم من قبل الامراء المحليين الاخرين ؛ كما أصبح امتلاك نفر شرطا لازما للسيادة على اقليم سومر • ومن المؤسف انه لم يجر تقديم أي تفسير مفصل لهذا التقليد • ويقترح مؤيدو نظرية « الديمقراطية البدائية » المذكورة سابقا ، انه ، وفي خلال الازمنة الشبيهة بالتاريخية وكلما كان الغزو الخارجي يتهدد بلد سومر ، كان ممثلو كافة دويلات المدن يجتمعون في نفر لانتخاب قائد عام للحرب • وان « انتخاب » انليل المدعى

شكل من كان يهيمن على البلد بأجمعه في العصور التاريخية يمثل استمرارا لذلك التقليد القديم • الا ان وجود ما تدعى بـ « عصبة نفر » أمر لم يجر اثباته بسند قوي ولا يعدو كونه مجرد تخمين في الجزء الاكبر من حيثياته • وبوسع المرء ان يأخذ بنظر الاعتبار ايضاً تأثير العوامل الاقتصادية • اذ يجب علينا ان نتذكر أن كلا من « كيش » و « نفر » كانتا تقعان شمالي بلاد سومر ولا بد لاقاليمهما ان تكون قد امتدت لتشمل كل المساحة المحصورة بين دجلة والفرات — اللذين كانا اقرب من بعضهما مما هما عليه الان في تلك المنطقة • لذلك فقد كانت هاتان المدينتان تسيطران على طرق التجارة الكبيرة — « طرق البرونز » المتجهة نحو أسفل النهرين التوأمين قادمة من ارمينيا والاناضول واذربيجان الى جنوب العراق — وربما سيطرتا ايضا على قنوات الري الرئيسية • وهكذا فقد كان بوسع من يسيطر عليهما ان يهيمن بالتالي على تجارة وصناعة سومر وهو ما يفسر الاهمية الكبيرة لامتلاكهما • مع ذلك ، فان من الصعب ادراك السبب وراء امتناع اي حاكم سومري عن استغلال هذا الوضع لجعل نفر عاصمة لحكومة مركزية قوية • ولعل اهمية نفر الكبيرة كانت تتأتى من اهمية الهها العظيم « انليل » ، وليس من ذاتها ، باعتبارها محض عاصمة دينية رفع الهها انليل ، بواسطة رجال الدين المحليين ، الى المرتبة الاعلى في هيكل الالهة السومري المقدس • ولقد وجد هناك وضع مشابه لهذا تقريبا في مصر القديمة حيث كان لكهنة « هليوبولس » اعمق الاثر على الديانة والسياسة المصرية على الرغم من انها ، مثلها مثل نفر ، لم تصبح مطلقا مركزا لسلالة حاكمة ما •

وطبقا للاسطورة ، فقد حصل « گلگامش » ، ملك اوروك ، على استسلام « آگا » ملك كيش ، فوضع بذلك نهاية لحكم سلالته • ولكن اور كانت في الحقيقة هي المدينة التي ورثت مركز كيش كدويلة قائدة وليست اوروك • ففي الكتابات الختمية التي عثر عليها في اور نجد ان « مس — أنا — ادا » يسمي نفسه « ملك كيش »، ومن المحتمل ان يكون نجلاه قد حكما نفر

لانهما قاما بترميم معبدها • وتوحي لنا الثروة الهائلة للملوك من اسلاف « مس ــ انا ــ پادا » التي ظهرت في اثاث القبور المترف (في المقبرة الملكية) بان اور كانت مدينة مزدهرة منذ فترة طويلة • وتؤكد هذا ايضا بقايا بنايات هــذا العصر الموجودة في اور والعبيد • ولكن ، وبعد ذلك التاريخ بنحو قرن او يزيد ، فقدت اور سيطرتها حيث زحفت من الجبال التي تحد شرق العراق قبائل العيلاميين التي قامت ، مع السلالتين الاجنبيتين العائدتين الى « آوا » و «وحمازي » ، بفرض كلمتها على قسم من اقليم سومر على الاقل• ولم تكن هذه الحادثة اول سلسلة الحروب المشتدة بين وادي الرافدين وبلاد عيــلام ــ وهي الحروب التي ستستمر بعد ذلك لحوالي الفي عام ــ حيث تخبرنــا قائمة الملوك السومريين بأن « انميراكيسي » قد « استحوذ على اسلحة عيلام كغنائم » ، كما توحي لنا قصص « انمركار » و « لوگالبندا » بان ذلــك الصراع كانت له جذوره العميقة التي تمتد الى ازمنة ما قبل التاريخية •

ويتركز اهتمامنا في هذه المرحلة على « لگش » ليس فقط لان اطلالها قد اعطت نصوصاً تاريخية أغزر من اية مدينة اخرى ، ولكن ايضا لان أحــد حكامها يوشك ان يلعب دورا مهما في بلــد تسوده فوضى عميقة يتسببهــا احتلالات في آن واحد • كان « إناتم » ، إنسي لگش (٢٥٥٠ ق • م)، مثل جده « اور ــ نانشه » بانيا متحمسا للمعابد ومنظما لقنوات الري ؛ كما صنعت منه الظروف السياسية مقاتلا عظيما ايضا • فقد طهر هذا الحاكم البطل بــلاد سومر من عصابات العيلاميين وضمن حماية زاويتها الشرقية بفتحه عدة مدن واقعة على حدود بلاد عيلام ، هذا ان لم يكن ، كم يدعي هو ، قد قام فــعلا باحتلال « عيلام ، الجبل العظيم الضارب رعبا ، بأكملها » • كما اخضع ايضا مدن اور واوروك و «اضاف الى امارة (نام-إنسي) لگش ،ملكية كيش ايضا»• ولكن الحرب التي وصلتنا عنها معلومات كثيرة وافية كانت في واقع الحــال صراعا داخليا ضد مدينة « أوما » (تل جوخه ، تبعد عن لگش مسافة (١٨)

ميل)(21) • وكان سبب ذلك الصراع حقل يدعى « گو ــ إيدن » الكائن بين حدود الدويلتين ، والذي كانت كل منهما تطالب به • وقبل اندلاع تلك الحرب بعدة اجيال ، كان « مسيليم » ملك كيش(22) (ربما كان هو نفسه « مس ــ آنا ــ پادا ») قد لعب دور الحكم في فض النزاع حول ملكية ذلك الحقل فنصب مسلته تذكارا اعتبر حجرا للحدود في تلك المنطقة •

أما الآن فقد :

« قام إنسي مدينة أومّا ،بامر الهه ، بالهجوم على گو ــ ايدن ، وبابتلاع الارض المروية والحقل الاثير لدى ننگرسو •••• فخلع نصب الحجر ودخل سهل لگش »

فواجه مشاة لگش ، المسلحون بالرماح الطويلة والمدرعون بالتروس الثقيلة ، جنود اوما في معركة انتصر فيها « إناتم » :

« بأمر انليل ، رمى عليهم الشبكة الكبيرة وجمع اكواما من اجسادهم في السهل ••• والذين بقوا منهم أحياء توجهوا الى إناتم ساجدين متضرعين من اجل حياتهم وانتحبوا ••• »

واختتمت الحرب بعقد معاهدة سلام ، فقام امير لگش « برسم الحدود مع إناكالي ، إنسي أوما ، واعاد نصب مسيليم الى موضعه السابق » ، وفرض على اومّا جزية كبيرة من الشعير •ولقد خلد انتصار إناتم ، او بالاحرى انتصار « ننگرسو » اله لگش على « شارا » اله أوما ، كما تصوره لنا النصوص ، بقطعة فنية رائعة من النحت السومري المبكر، والتي وجدت لسوء الحظ في عدة كسر • تلك هي « مسلة العقبان » (Stele of Vultures) التي سميت بهذا الاسم بسبب طيور القنص الكثيرة التي تنهش جثث الموتى • وفي نهاية عهد حكمه ، توجب على إناتم محاربة تحالف تألف من « كيش » و « ماري »

وقاده « زوزو (او انزي) ملك « أكشاك »(23) • وعلى الرغم من انه (اي إناتم) قد ادعى الانتصار في الحرب ضدهم ، ولكن هناك شك قليل في ان تكون تلك الحرب هي التي وضعت نهاية للامبراطورية الصغيرة التي كان قد أسسها •

كان القرن الذي اعقب موت اناتم مشوشا نوعا ما • ويبدو ان « ان ـ شاكوش ـ أنا » ، ملك اوروك ، و « لوگال ـ أنا ـ موندو » ملك آداب (تسمى الان «بسمايا» وتقع شمال تل فاره بستة عشر ميلا)(24) ، قد احتلا كيش ونفر على التوالي ، وجرى الاعتراف بهما سادة على سومر • ولكن سلطتهما كان يتهددها حكام ماري • فطبقا لقائمة الملوك السومريين ، فان ستة من ملوك ماري قد حكموا اقليم سومر فترة (١٣٦ سنة) • والرقم هذا مبالغ فيه بالتأكيد • ولكن حقيقة أن حكاما لمدينة تبعد كثيرا الى الشمال الغربي قد حكموا في جنوب العراق تعد اشارة صريحة الى حالة شبه الفوضى المتفشية وقتذاك في تلك المنطقة • ففي « لگش » ، التي أصبحت تحكم من قبل ابن أخ اناتم المدعو « أنتمينا » ، اندلعت الحرب مرة أخرى مع مدينة اوما التي كان ملوكها « معاضدين من قبل ملوك اجانب » لعلهم كانوا ملوك ماري نفسها• وفي مدونه مسهبة تستغرق اسطوانتين من الصلصال، يحدثنا انتمينا عما كان قد حصل في الماضي ، وكيف أنه قد « ذبح جنود اوما حتى بلغ المدينة نفسها » ، ووقف بحزم ضد مزاعم اميرها الجديد « ذلك السالب للحقول والمروج ، ذلك المتفوه بالشر » ، وحفر خندقا لحدود دائمة بين المدينتين المتصارعتين • ونعرف ايضا من مصادر اخرى ، ان انتمينا قد قام بعقد « ميثاق اخوة » مع جاره القوي « لوگال ـ كينيش ـ دودو » ، حاكم اوروك الذي وحدها مع مدينة اور في مملكة واحدة ، وان حكمه قد اختتم بسلام وازدهار • ولكن الوضع ما لبث ان تدهور في « لگش » بعد حفنة من السنين حيث اغتصب كهنة « ننگرسو » العرش

وتربعوا عليه لحوالي عقدين من الزمن ، موسعين ، كما مر بنا ، ثرواتهم الشخصية على حساب عوائد الآلهة . وقد أطاح بهم « اوروكاجينا » المشهور باصلاحاته الاجتماعية ، غير ان عهد حكمه لم يدم اكثر من ثماني سنين فقط ، اذ قام بعد ذلك امير اوما المتحمس والطموح « لوگال ـ زاگيزي » بالزحف على « لگش » فاحتلها وخربها منتقما بذلك لقرنين من الهزيمة . وعلى الأطلال المشتعلة للمدينة ، جلس عند ذاك كاتب مجهول ليدبج رثاء مؤلما استطاع ان يبلغ مسامعنا حتى في هذا الزمن(25) :

« احرق رجال اومّا (معبد) انناسورا ، واخذوا معهم الفضة والاحجار الكريمة .... واهرقوا الدماء في معبد « إي ـ انگور » العائد الى الإلهة نانشه وحملوا معهم الفضة والاحجار الكريمة ... اقترف رجال اوما الاثم ضد الاله ننگرسو بتخريبهم لگش ... اما بالنسبة الى لوگال ـ زاگي ـ زي ، امير أوما ، فلتجعله الهته « تندابا » يحمل إثمه الكبير على جبهته ! »

ولكن اللعنة هذه لم يكتب لها فعل سريع . فبعد لگش ، احتل لوگال ـ زاگيزي اوروك ونصب نفسه ملكا عليها . ثم استمر بفتح بقية اقليم سومر ويبدو انه قد أفلح في تحقيق مبتغاه . ففي سنديانة مكرسة لانليل في نفر ، يدعى لوگال ـ زاگيزي انه قد قام بفتوحات شملت كامل ارض وادي الرافدين ، اضافة الى سوريا :

(عندما وهبه انليل ، ملك كل البلدان ذات السيادة ، الملكية على الوطن (سومر) ، ووجه أنظار الامة اليه ، وجعل كل البلدان تنتظره ، وجعل (كل فرد) ، من حيثما تشرق الشمس الى حيثما تغرب الشمس ، يستسلم له . بعد هذا ، ضم اليه أقدام (كل شخص) من البحر الادنى (الخليج

العربي) و (على امتداد) دجلة والفرات ، حتى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) • لم يبق لـه انليل اي منافس من حيثما تشرق الشمس الى حيثما تغرب ؛ فخضعت كل البلدان ذات السيادة لسيطرته (كالابقار) في المرعى • وكانت الامة تروي (حقولها) بحبور في ظل حكمه ؛ وانحنى له كل حكام سومر التابعين ، وكل امراء البلدان المستقلة امام مكتبه التحكيمي في اوروك))(26) •

ومن الصعب تصديق امتلاك لوگال ــ زاگيزي لامبراطورية شاسعة كهذه ، ولعل هذه المخطوطة ليست في حقيقة الامر أكثر من قطعة خطابية حماسية مبالغة ؛ وربما كان الواقع بالفعل هو ان ملك اوروك قد استطاع الاستحواذ على استسلام أو تحالف الساميين في مدينة ماري الذين ربما كانوا بدورهم مسيطرين سياسيا على الساميين في سوريا • وعلى أية حال ، فان « الامبراطورية السومرية » للوگال ــ زاگيزي لم تبق قائمة أبعد من فترة حكمه ، اي لمدة خمسة وعشرين عاما فقط • حينذاك ، جاء طارق جديد هو الامير السامي سرجون الاكدي ليوجه للوگال ــ زاگيزي ولامبراطوريته ضربة ماحقة •

الفصل التاسع

التدخل السامي

تنافس وكافح الحكام السومريون ، طوال عصر فجـر السلالات ، للسيطرة على دزينة من المدن وعلى بضعة أميال مربعة من الارض الخصبة التي كانت تؤلف كامل اقليم سومر • وكان ساحل الخليج في الجنوب وكيش في الشمال يشكلان اقصى حدود طموحاتهم • وكانت « ماري » و «آشور» تبدوان مدينتين أجنبيتين بالنسبة لهم وقتذاك ، شأنهما شأن اقليم « عيلام » مثلا • ولكن ، وبعد عـام (٢٤٠٠ ق • م) بوقت قصير ، غـير الامـراء الساميون ــ من وسط العراق ــ مجريات الاحداث حيث لم يكتف سرجون ومن أعقبه من الحكام بالسيطرة على كافة دويلات المدن السومرية ، بـل هيمنوا ايضا على كامل حوض دجلة والفرات ، اضافة الى أجزاء من البلدان المجاورة مؤسسين بذلك اول امبراطورية عظيمة في وادي الرافدين • وتـم لاول مرة منذ عصر العبيد ما قبل التاريخي ــ حيث كان قسما وادي الرافدين الشمالي والجنوبي يرتبطان بعلائق ثقافية غير متينة ــ توحيد شطري العراق في وطن كبير واحد يمتد من طوروس الى (البحر الاسفل) ، ومن زاگروس

الى البحر الابيض المتوسط • وكانت هذه المنطقة تبدو لاناس تلك الفترة جد شاسعة ، اذا اعتبروها تشتمل على « مناطق العالم الاربع » ، أي أنها (الكون) • وعمرت امبراطورية سرجون الاكدي حوالي مائتي سنة وسقطت بفعل ضغط قبائل جبال زاگروس ، اضافة الى الاضطرابات الداخلية • بيد انها أرست مثلا لم يغب عن الاذهان ابداً ، فقد اصبح حلم كل الملوك الذين أعقبوا سرجون ، منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد وحتى سقوط بابل عام (٥٣٩ ق • م) ، هو اعادة وحدة وادي الرافدين وبلوغ ما يمكن تسميته بحدودها الطبيعية • ويتألف تاريخ العراق لهذه الفترة من محاولات الحكام الناجحة طورا والفاشلة أطوارا لتحقيق هذا الهدف • فمن هم اذن اولئك الساميون الذين دخلوا التاريخ بهذا الشكل العظيم ؟

الساميون

كان الاستاذ الالماني « شلوتزر » (Schlözer) هو أول من صاغ كلمة « سامي » كصفة للتعريف بمجموعة من اللغات الوثيقة الصلة ببعضها وذلك عام (١٧٨١ م) وبالنتيجة فقد سمي الشعب الذي يتحدث بهذه اللغات بـ « الساميين » • وقد اشتقت كلتا هاتين الكلمتين من « سام بن نوح » والد « آشور » و «آرام» و «عبران» (سفر التكوين ، ٥-٢١-٣١) والذي يدعى انه جد الاشوريين والاراميين والعبرانيين • ومن بين اللغات السامية الاوسع انتشارا الان اللغة العربية ، تليها الاثيوبية (الحبشية) والعبرية • اما اللغات السامية الاخرى ، كالاكدية (البابلية والاشورية) ، واللهجات الكنعانية ، فقد اندثرت ؛ بينما بقيت اللغة الآرامية ، بعد ان طرأ عليها تطور كبير ، تستخدم من قبل الكنائس الشرقية (السريانية) وكذلك في لهجات تتحدث بها اقليات في لبنان وشمال العراق • وتتشابه كل هذه

اللغات في عدة نقاط وتكون عائلة كبيرة متراصة • وأحد خصائصها الرئيسة هي ان جميع الافعال والاسماء والصفات تقريبا تشتق من جذور تتألف في العادة من ثلاثة أصوات صحيحة • ويؤدي ادخال صوت معلول معين ، طويل أو قصير(*) ، بين تلك الاصوات الصحيحة الى اعطاء دقة وواقعية للمفهوم الذي يمثله الجذر بمعنى عام • فالجذر العربي « ك ت ب » يحمل معنى « الكتابة » عموما ، ولو اردنا ان نقول (كتب فلان) نقول « كَتَبَ » ، و (يكتب فلان) : « يَكْتُبُ » ، والشخص الذي يقوم بالكتابة : « كاتِبْ » ... الخ وتسمى اللغات من هذا النوع باللغات المعربة تمييزا لها عن لغات اخرى ، كالسومرية ، وهي من النوع الملصق •

والمفردات « سامي » و « سامية » تسميات مقبولة ومناسبة طالما استخدمناها لاغراض لغوية • ولكن ، ولان اللغات السامية كانت شائعة في منطقة محدودة قبل الفتح الاسلامي الكبير ، فان هذا قد دفع بالعديد من الكتاب الى اعتبار الساميين جنسا خاصا ، أو بالاحرى مجموعة بشرية متناغمة ــ يرفض علماء الانثروبولوجيا الحديثون مفهوم «الجنس السامي»ــ لافراد يشتركون ليس في اللغة نفسها فقط ، بل وكذلك في الخلفية السايكولوجية ، وفي العادات والتقاليد ، وفي المعتقدات الدينية أيضا • أي أن هؤلاء الكتاب يعتبرون الساميين شعبا كبيرا واحدا • فهل هناك ما يبرر وجهة النظر هذه ؟ لهذه المسألة ، بطبيعة الحال ، أهمية كبيرة في موضوع بحثنا هذا وتتطلب فحصا دقيقا(1) •

تشتمل المنطقة التي كان يقطنها اناس يتكلمون السامية في الازمنة التاريخية القديمة على شبه الجزيرة العربية ومرفقاتها : بادية الشام ، سوريا ، فلسطين ، والهلال الخصيب • ولهذه المنطقة حدود بحرية وجبلية • وطبقا

(*) تعتبر الفتحة والضمة والكسرة اصوات علة قصيرة ، وتقابلها اصوات الالف والواو والياء وهي اصوات علة طويلة بالعربية .

الى النظرية القديمة ، كان كل الساميين قبائل بدوية تعيش وسط هذه المنطقة . وفي فترات مختلفة ، هاجرت مجموعات كبيرة منهم من الصحراء السورية ــ العربية للاستيطان ــ سلميا أو بالقوة ــ في الاقاليم المجاورة كوادي الرافدين وسوريا وفلسطين . والهجرات السامية هذه هي :

أ ــ هجرة الاكديين الى وادي الرافدين خلال الالف الرابع قبل الميلاد ؛

ب ــ هجرة الساميين الغربيين (الكنعانيين ــ الفينيقيين والآموريين) الى وادي الرافدين وسوريا وفلسطين في الالفين الثاني والثالث قبل الميلاد ؛

حـ ــ هجرة الآراميين حول كامل الهلال الخصيب في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ؛

د ــ هجرة النبطيين وغيرهم من العرب قبل الاسلام منذ القرن الثاني ق . م حتى القرن السادس الميلادي ؛

هـ ــ واخيرا ، هجرة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي .

وتبقى هذه النظرية جيدة ــ خصوصا بالنسبة الى المجاميع العرقية ــ اللغوية الثلاث الاخيرة ــ طالما يتعلق الامر بوصف تتابع معين للاحداث في اطار شمولي عام . ولكن من غير الممكن قبولها من الناحية التفصيلية دون ترميمها بشكل جاد . ان اعتبار الصحراء السورية ــ العربية مركزا انطلقت منه هجرات الساميين أمر غير وارد اطلاقا اذ لا تقدم اية بقعة فيها ، عدا اليمن وأجزاء من حضرموت وعمان وبعض الواحات في شبه الجزيرة العربية ، ظروف عيش ملائمة لمجاميع بشرية كبيرة(2) . وهناك شك كبيرة في ان تكون الصحراء الكبرى وسط شبه الجزيرة العربية (صحراء الربع الخالي) قد سكنت اطلاقا بين العصر الحجري القديم (عندما لم تكن صحراء بل أحراش سفانا) والالف الاول قبل الميلاد . فالحياة في مناطق صحراوية شاسعة مثل هذه تفترض مسبقا القيام بهجرات موسمية بعيدة

المدى بحثا عن المراعي • بيد اننا نجد ان الهجرات من النوع القصير المدى كانت وحدها الممكنة قبل انتشار استعمال الجمال في الشرق الادنى منذ القرن الثاني عشر ق • م فصاعدا • اما قبل هذا الوقت ، عندما كان البدو يمتطون الحمير ويمارسون رعي الاغنام ، فقد كانوا محددين في حركتهم اكثر من البدو الحاليين ، وما كان بمقدورهم الترحال بعيدا عن حدود حشائش الاستبس الممتدة بين دجلة والفرات ، وفي اقدام جبال زاگروس وطوروس ولبنان • وهناك كانوا على اتصال دائم وقريب مع سكان الريف الذين كانوا يشترون اغنامهم ويجهزونهم بالحبوب والتمور والادوات والاسلحة وبسلع اخرى ايضا • ويمكن للعلاقة بين الفلاحين والبدو ان تأخذ أشكالا متنوعة(3) • وعموما ، فقد كانت هاتان المجموعتان تلتقيان على الدوام في القرى أو في الاسواق خارج ابواب المدن فتتبادلان البضائع ، اضافة الى الافكار بالتأكيد • ثم يعود البدو مرة اخرى الى السهب الذي ربما كان يبعد اميالا قليلة فحسب • وفي بعض الاحيان ، كان يترك بعض افراد القبيلة رهطهم كي يحصلوا على عمل في المدينة كمرتزقة أو حرفيين أو تجار • وفي أحيان اخرى ، تقوم عائلة أو فخذ أو حتى عشيرة ما بأكملها بامتلاك ارض (أو قد تمنح اياها) فتكرس نشاطها اليومي في الزراعة ، اضافة الى تربية الاغنام • وليست قليلة المرات التي مارست فيها الحكومات المدينية سلطة ما على البدو ـ مستخدمة اياهم كجنود مساعدين بشكل خاص كلما اقتضت الضرورة • ولكن ، وفي أوقات عدم الثبات السياسي ، كان يمكن لهذا الموقف ان ينعكس تماما ، فتعلن قبائل ، او مجاميع قبلية مؤتلفة ، الحرب على المجتمع المديني المستقر ، فتجتاح المدن وتحتل المنطقة المجاورة ، صغيرة كانت ام كبيرة ، وتستوطنها في النهاية •

كانت عملية تمدين البدو عملية بطيئة شبه مستمرة تتخللها تداخلات مسلحة فهي لم تتخذ شكل حركة خارجية من وسط الصحراء الى المناطق الخصبة المجاورة ، بل كانت مجموعة من تحركات ذات مدى قصير (او متوسط)

ضمن المنطقة المحاذية نفسها ، أي من مناطق السهوب الى الارض المروية المجاورة • وهكذا يبدو ان الهلال الخصيب ، وربما ايضا اجزاء من المناطق المحاذية لشبه الجزيرةالعربية ، كانت هي الموطن الاصلي للشعوب المتحدثة بالسامية حيث سكنت هناك ، على ما يبدو ، منذ عصور ما قبل التاريخ • ولكنهم كانوا « يعلنون » لنا عن أنفسهم في فترات مختلفة اما لانهم يتبنون شكلا جديدا من الكتابة او لانهم يصبحون ، في وقت ما ، نشيطين عسكريا ومؤثرين سياسيا بما يكفي لان يجري ذكرهم في التقارير المكتوبة للمجتمع المديني المتحضر •

ان كون معظم القبائل البدوية في الشرق الادنى القديم قد تكلمت اللغة السامية لا يعني بالضرورة ان كل متكلمي اللغة السامية كانوا من البدو • وقد أدى عدم ادراك هذه المسألة الى كثير من الارتباك • فالصفات التي تطلق صوابا او خطأ على الساميين عموما ــ (ذهنيتهم المتميزة بنفاد الصبر ، الشجاعة ، العاطفية ، التقلب)(4) و (معتقداتهم الدينية التوحيدية ، غير الاسطورية ، المناهضة للطقوسية)(5) و (انغلاق مفاهيمهم الاجتماعية ــ السياسية على القبيلة) ــ لا تصح في الحقيقة الا على الساميين من البدو فقط وقد تطورت ، الى حد بعيد ، بفعل نمط حياتهم الخاص داخل القبيلة • واذا كان بعض العرب والآراميين والساميين الغربيين يقعون ضمن هذا التصنيف ، فاننا لا نمتلك اي دليل يؤكد أن أصل الاكديين في وادي الرافدين والكنعانيين ــ الفينيقيين في سوريا ــ فلسطين انما هو بدوي قطعا • وبالنسبة الى وادي الرافدين ، فاننا لا نعرف متى دخل الساميون البلد لاول مرة ــ هذا اذا كنا نصدق انهم قد دخلوه فعلا من مناطق اخرى • وقد جرت محاولات لربط واحدة أو أكثر من الهجرات العرقية التي جرت في العصور الشبيهة بالتاريخية مع اجتياح سامي ما • ولكن الاختلافات الكبيرة في آراء العلماء بهذا الصدد تعني ما يشبه الاعتراف

بالفشل(6) • وتظهر أسماء الاشخاص السامية وبعض النصوص المدونة باللغة السامية خلال عصر فجر السلالات(7) ، ويظهر توزيعها الجغرافي ان الساميين كانوا أقلية بين السومريين في الجنوب ، ولكنهم كانوا أقوياء ونشيطين ــ ان لم يكونوا مسيطرين ــ في منطقة كيش • واستنادا الى مخطوطات مدينة ماري ، وبالاضافة الى وثائق متأخرة اخرى ، يبدو انهم كانوا قد اصبحوا يشكلون بالتأكيد الجزء الاعظم من سكان شمال العراق• ومنذ العصر السرجوني فصاعدا ، أصبح يطلق على الجزء الاوسط من وادي الرافدين ، الممتد من نفر في الجنوب حتى هيت وسامراء ــ وبضمنه وادي ديالى الاسفل ــ اسم « بلد أكد » • ويكتب هذا الاسم عادة بالمقطع السومري المنفصل « اوري » • ولهذا فأن بوسعنا تسمية أول الساميين القاطنين وادي الرافدين بـ « الاكديين » • وتعتبر لغتهم ــ الاكدية ــ فرعا خاصا من لغات العائلة السامية ، وكانوا يكتبونها بالخط المسماري الذي اخترعه السومريون للتعبير عن لغتهم • ويبدو لنا هذا التبني للخط المسماري امرا غريبا اذ تختلف هاتان اللغتان عن بعضهما اختلاف اللغة الصينية عن اللاتينية • وفي الوقت الذي انتقلت فيه أعداد من المفردات السومرية الى اللغة الاكدية ، فاننا نجد ان السومريين قد اكتفوا باستعارة عدد محدود من الكلمات الاكدية نحو لفظة (هازي) وتعني «الفأس»، و (شام) ومعناها «سعر»، أو كلمة « سوم » وتعني « ثوم » • هذا هو في واقع الحال كل ما تمكننا المصادر المتوفرة في الوقت الحاضر ان تقوله بصدد هذه المسألة • ومما يستوجب الذكر هنا انه لم يكتشف ولا حتى مجرد نص سومري واحد يشير الى الاكديين كاعداء مهاجمين أو اكبدو رحل • ومع انه امر لم يثبت بعد ، فان من الممكن ان يكون التنظيم الاجتماعي والنظام السياسي الخاص بالا مختلفا عن ذلك الذي ارتكزت على أساسه دويلات المدن السومرية ، الا ان الذي يظهر بوضوح هو ان الاكديين قد مارسوا النشاط الزراعي وعاشوا

في القرى والمدن السومرية مشاركين في نمط الحياة والديانة والحضـارة العائدة لجيرانهم السومريين وكـل مانعرفه لحد الان يشير الى أن الاختلاف الجلي الوحيد بين الاكديين والسومريين انما هو اختلاف لغوي ، اذ لايمكن تمييز هاتين المجموعتين عن بعضهما في أي مجال آخر • ولقد غيرت السيطرة الاكدية على وادي الرافدين في العصر السرجوني مجريات التاريخ ، ولكنها لم تغير ، من حيث المبدأ ، الشخصية السومرية المهيمنة على حضارة وادي الرافـــدين •

سرجون الاكـــدي

ترك عهـد حكـم سرجون ــ وهو أول الملوك الاكديين ــ أثرا عميقا في نفوس السومريين ــ الاكديين بحيث أُحيطت شخصيته بهالـة مستديمة من الاساطير • ففي نص كتب في الازمنة الاشورية المتأخرة (القرن السابع ق•م) يرد وصف لولادته وطفولته بشكل يذكرنا بقصة ولادة موسى وكرشنا(*) وغيرهم من الرجال العظام :

كانت امي ، خائفة كما لم أعرف أبي(**) •
عشق اخـوة أبي التلال •
مدينتي هي ازوپيرانو الكائنة على شاطىء الفرات •
حملت امي الخائنة بي ، وبالسر ولدتني •
فوضعتني في سلة من الاسل ، وبالقار ختمت غطائي •
ورمتني في النهر الذي لم يغمرني ،
فرفعني النهر وحملني الى « اكي » السقاء •

(*) كرشنا هو واحد من اكثر المعبودات الهندية شـهرة ، وهو المجسد لـ « فشنو » الاله ، والمعلم المشهور في « بهاغافات ــ غيتا » التي هي قطعة من الملحمة « المهابهارتا » •

(**) الصحيح « كانت امي كاهنة عظمى » اينتو entu بالاكديـة •

فاتخذني « أكي » السقاء ابناً له ورباني .
ثم جعلني « أكي » السقاء بستانيا لـه ،
وعندما كنت بستانيا ، وهبتني « عشتار » حبها ،
ومارست الملكية مدة اربع و ... سنة(8) .

ان أحسن ما يمكن ان نعتبر هذا الكلام هو كونه تاريخا تشوبه صبغة رومانسية قوية ، على الرغم من أننا نفهم من مصادر موثوقة اخرى(9) ان الشخص الذي سيسمي نفسه « شارّو ــ كين » (الملك الصالح ، او الشرعي) كان ذا أصل متواضع بالفعل . وبشكل ما ، فقد استطاع حامل كأس ملك كيش « اور ــ زبابا » ان يطيح بسيده ويحمل عـلى اوروك حيث كـان لوگال ــ زاگي ــ زي حاكما لها وكان يعتبر السيد الاعلى على سومر . وقد مني « لوگال ــ زاگي ــ زي » ، الذي كان تحـت امرته خمسـون « إنسياً » ، بهزيمة منكرة فالقي القبض عليه وجلب الى كيش في « ياقـة كلب » حيث عرض على بوابة انليل . بعد ذلك قام المنتصر بالهجوم عـلى اور ، ولگش واوما حيث انتصر في كل مكان و « خرب أسوار » كل مدينـة اعترضته . ولكي يظهر بانه قد سيطر تماما على بلاد سومر بأكملها ، ابتدع التفاتة رمزية خالدة ــ وهي الالتفاتة التي ستقلد من قبل ملوك آخرين على سواحل اخرى ــ اذ غسل سلاحه في « البحـر الاسـفل » ، اي في مياه الخليـج العربـي .

كان بوسع سرجون الإكتفاء بلقب « ملك كيش » المعتبر ، الا انـه كان يمتلك طموحات اعظم . فأسس ، في مكان ما على الفرات ، عاصمـة جديدة هي « أكـد » ــ المدينة الملكية القديمة الوحيدة التي لم يكتشف محلها لحد الآن(10) ــ حيث شيد قصره واقام معابد لالهته الحامية «عشتار» ولزبابا اله الحرب في كيش . وكان الشيء الجديد الاساسي في حكمه هو انه

أصبحت للساميين الافضلية على السومريين ، فجرى تعيين حكام أكديين على كل دويـلات المدن الرئيسية ، واصبحت اللغة الاكدية تستخدم فـي المدونات الرسمية مثل اللغة السومرية • ولقد أولى سرجون احتراما كبيرا للمؤسسات الدينية السومرية، ونصب ابنته كاهنة لإله القمر في أور «نانا» • ولكي يثبت ملك أكد بانه لا يعتزم كسر التقاليد المقدسة القديمة ، فقـد اطلق على نفسه لقب « كاهن (آنو) المعمد » و « إنسي (انليل) الكبير » ايضـا •

وبعد أن قام سرجون بتقوية وتثبيت سلطته السياسية والدينية عـلى سومر ، وبعد ان وسع جيشه بشكل كبير ، جرد عدة حملات في اتجاهين على الاقل : عبر دجلة نحو ايران ، وعلى طول الفرات باتجـاه سوريا • وقـد صادف في الشرق مقاومة عنيفة من قبل جيوش أربعة حكام لجنوب ــ غرب ايران يقودهم ملك (أوان) • واستطاع سرجون في النهاية هزم أعدائـه وأصبحت عدة مدن ، بحكامها ، ونواب ملوكها ، وملوك عيلام وبراهشي ، والمقاطعات المجاورة ، تابعة له(11) • وخلال هذه الفترة يحتمل أن تكـون مدينة « سوسة » قد ارتقت ، ربما بامر سرجون نفسه ، من سوق متواضع الى مدينة ــ عاصمة • فاذا كان سرجون قد غذى ــ أو رضي فقط ــ بتحول مركز السلطة على غرب ايران من جبال « أوان » الى سهل عيلام ، الا أنـه ما كان ليتنبأ لنفسه بأن حاكما لهذه المدينة سيشارك في المسـتقبل القريب بالاطاحة بسلالته ؛ وان اسم سوسه سيصبح ، بعد عدة قرون ، رمزاً لهزيمة وادي الرافدين وهوانه • ويبدو أن حملته على « الشـمال ــ الغربي » كانت مجرد نزهة مسلحة ، وربما كان هذا أمراً غير صحيح • يقول سرجون بانه حالما وصل مدينة « توتول » (هيت) « انحنى للصلاة أمام » « داگان » (وهو إلـه الحبوب الذي كان معبودا على امتداد وادي الفرات الاوسط) ، فأعطاه « داگان » المنطقة العليا التي تتضمن ماري ، إيار موتي ، وإبلا حتى

غابة الارز وجبل الفضة . ولـم يعرف مكـان « إيـار موتي » و « إبلا » بشكل مؤكد (لابد انهما كانتا واقعتين شمال سوريا)(*) ، غير أن « غابة الارز » تعني لبنان أو جبال الامانوس ، كما يعني « الجبل الفضي » جبال طوروس . وكما يوحي هذان الاسمان ، فان سرجون قد استطاع بامتلاكهما أن يؤمن لنفسه تجهيزات كافية من الخشب والمعـادن الثمينة التي أصبح بالامكان نقلها بحرية وأمان بواسطة نهر الفرات لتصل الى بلاد سومر وأكد.

هذا هو أبعد مكان تقودنا اليه نصوص سرجون الموثوقـة نفسها . وبوسعنا كذلك أن نأخذ بعين الاعتبار حملة أخرى موجهة نحو الشمال على امتداد دجلة والتي بلغت الموصل باعتبارها واحدة من الحملات غير المدونة . وسبب هذا الاعتقاد يعود الى ظهور رقم مكتوبة باللغة الاكدية في تلـك المنطقة ، كما عُثر ، أيضا في نينوى(12) ، على تمثال برونزي غاية في الروعة لرأس يظن انه يمثل سرجون نفسه . ولكن ما هو موقفنـا من الانشاءات الادبية المتعددة الاشكال ، ذات التاريخ المتأخر ، التي تعطينا وصفا مفصلا، وحتى شعريا ، لحملات وفتوحات سرجون ؟ أين ، مثلا ، ينتهي التاريخ وتبدأ الاسطورة في النص المعروف بـ « ملحمة ملك المعركة » التي ترينا ملك أكد متوغلا في أعماق آسيا الصغرى(**) لحماية التجار من ابتزازات ملـك « بوروشاندا »(13) ؟ واذا كان بوسعنا التسليم باحتمال تجريده حمـلات ناجحة على كردستان ـــ وربما ايضا بانفاذه بعثـات عسكرية الى الخليج العربي حتى عمان ـــ فهل يمكننا فعلا أن نصدق كونه قد « اجتاز البحـر الغربي » ووطأ أرض قبرص وكريت(***) كما يوحي لنا بذلك بشير (فـأل) ،

(*) تم في عام ١٩٧٥ اكتشاف موقع ابلا في « تل مرديخ » جنوب مدينة حلب بحوالي ٣٠ ميلا وعثر في قصرها الملكي على الف وخمسمائة رقيم مصفوفة على رفوف خشبية . انظر عدد آب ١٩٧٧ ، مجلة العربي الكويتية .

(**) في اقليم كبدوكيا .

(***) تسميها المصادر المسمارية « كفتارة » . والمعروف أن التوراة تسمى كريت « كفتورة » .

وقائمة جغرافية غامضة نوعا ما ؟ لقد ألهبت شخصية أول فاتح عراقي عظيم حماسة ومخيلة المؤلفين القدماء الذين اعتقدوا بأن الملك الذي قال :

« والان ، على كل ملك يبتغي تسمية نفسه نـداً لي
ان يذهب حيثما ذهبت ! »(14)

لابد انه كان بمقدوره فتح « العالم » • مع ذلك ، فـان التطرف في التشكيك بهذه القصص ، مثل تصديقها حرفيا ، أمر غير مرغوب فيه ابداً ، فلابد لمعظم هذه القصص أن تحتوي على « حبات » من الحقيقة على الاقل •

استمر عهد حكم سرجون المجيد فترة لا تقل عن خمس وخمسين سنة (٢٣٧١–٢٣١٦ ق • م) • وتخبرنا الرقم التاريخية البابلية المتأخـرة(15) « بأن كل البلدان قد تمردت عليه عندما طعن في السن » و « أنهـم قـد حاصروه في أكد » • غير ان الاسد العجوز كان ما يزال يمتلك أنيابا ومخالب قوية : «فيتقدم للحرب ويهزمهم ويطيح بهم جميعا مدمرا جيوشهم الكثيفة» • بعد هذا يقال لنا ان « السوبارتو (قبائل البدو في أعـلى الجزيرة) قـد هاجمت امبراطوريته بكامل قوتها » ولكنها « استسلمت لجيشه » ، فقـام سرجون بمهاجمة مناطق أستيطانهم وبطش بهم بطشا شديدا •

الامبراطورية الاكدية

كانت الحوادث التي عكرت صفو السنين الاخيرة من عهد حكم سرجون نذيرة بالعصيان العام الذي عصف بسومر وايران بعد وفاته • ولقد أخمد ابنه الملك « ريموش » هذا العصيان بيد من حديد ، ولكن سلطة الملـك الجديد أخذت تتهددها المخاطر بين جدران قصره نفسه • فبعد تسع سنين من الحكم فقط (٢٣١٥–٢٣٠٧ ق.م) ـ استطاع خلالها أن يقود حملة موفقة ضد بلد عيلام ـ قام « خدمه بقتله برقمهم »(16) على حد تعبير احدى النذر البابلية • ويدلل هذا على ان الكلمة المكتوبة كانت قد اصبحت وقتذاك

سلاحا فتاكا واستبدل ريموش بالملك «مانشتوسو » (٢٣٠٥–٢٢٩٢ ق٠م) الذي ربما كان أخاه التوأم كما يوحي لنا بذلك اسمه « الذي كان معه ؟»(17)٠

كانت احدى الحوادث الرئيسة في عهد « مانشتوسو » الحملة البحرية التي قادها عبر الخليج العربي والتي وصفت كما يلي :

« عبر مانشتوسو ، ملك كيش ، بعدما أخضع « اشنان » و « شيريكوم » (جنوب – غرب ايران) البحر الاسفل بواسطة السفن ٠ فتجمعت لحربه جيوش ملوك اثنتين وثلاثين مدينة تقع في الجانب الاخر من البحر ٠ فهزمهم واخضع مدنهم ٠ ثم أطاح بسلادتهم وأصبح البلد كله في قبضته حتى مناجم الفضة ٠ وأخذ حجارة الجبال الواقعة وراء البحر الاسفل وصنع تمثاله وقدمه لإنليل»(18) ٠

وفيما اذا كانت هذه « الجبال في الجانب الاخر (وراء) البحر » هي تلك التي تقع في عمان أم في ايران فهي مسألة ما تزال موضع جدال ٠ ولكن هدف الحملة البحرية هذه مذكور بوضوح ، ولو نظرنا الى وضع وادي الرافدين آنذاك لفهمنا السبب وراء تجريدها ٠ كانت قوات سرجون قد اجتازت المناطق الشمالية ولكنها لم تحتلها بشكل فعال فاصبح سكان الجزيرة وشمال سوريا أحرارا من جديد بعد فترة وجيزة ٠ والى الشمال من ذلك ، احتل الحوريون – وهو الشعب الذي سيلعب دورا مهما في تاريخ العراق القديم – نصف الدائرة الكبير لجبال طوروس ؛ من « اوركيش » (شمال كركميش) الى بلد « نامار » (حول بحيرة وان) وربما تقدموا أبعد نحو الجنوب حتى الزاب الاعلى(19) ٠ وقام جيرانهم « اللولوبيون » بمد نفوذهم الى سهل شهرزور قرب السليمانية ٠ والى الجنوب من هؤلاء ،

سيطرت القبائل الكوتيه الهمجية على منطقة همدان وما جاورها من المناطق وسط جبال زاگروس • وفي أقصى الجنوب ، كانت هناك القبائل العيلامية الهائجة • ولم يكن أي من هذه الاقوام ذا صلة ودية مع الأكديين • ولانها كانت تسيطر على كل الممرات المؤدية من الاناضول وأرمينيا واذربيجان الى وادي الرافدين ، لذلك فقد انقطعت عن البلد الاخير طرق القوافل التجارية التقليدية التي كانت تؤمن له باستمرار ما يحتاجه من معادن النحاس والقصدير والفضة • ولدى انقطاع « طرق البرونز » هذه ، وجد الأكديون أنفسهم أمام احتمالين : اما ان يعمدوا الى تأمين مصادر أخرى تجهزهم بالمعادن — عمان او جنوب — شرق ايران ، مثلا — أو ان يشنوا الحرب في الشمال •

اختار نرام — سن (محبوب سـن) ، ابن مانشـتوسو ، الحرب ؛ وكوفيء ، على الاقل لفترة من الزمن ، بالظفر • فأضاف بفخر الى اسـمه لقب « ملك الجهات الاربع (للعالم) » [شار كبرات أربعيم] وأردفه بلقب « ملك الكون » [شار كشـّاتي] بالاضافة الى « ملك آكد » • كما أصبحت النجمة تعقب اسمه ، وهي المقطع الذي يرمز الى كلمة « اله » وتقرأ [دنگر] بالسومرية و [إيلـو] بالاكدية • وهكذا فقد أصبح « نرام — سن » إلهاً مثل « لوگال — بندا » و « گلگامش » من قبل • فهل فرض هذا الامر بسبب استفحال مرض جنون العظمة لدى « نرام — سن » ؟ كلا ، بالتأكيـد ، اذ لم يجر مطلقا تأليه أي من الملوك الآشوريين الجبابرة • وفي الحقيقة ينبغي لنا أن نعترف بأن تأليه عدد محدود من الملوك في تاريخ العراق القديم كانت ممارسة غامضة لم تفهم تماما لحد الان • ومن الافتراضات المقدمة بهـذا الشأن ذلك الذي يقول بأن اللقب المقدس كان يطلق فقط على اولئك الملوك الذين لعبوا دور الاله — الذكر في مراسيم « الزواج المقدس » التي كـانت تقام في عيد السنة الجديدة كل عام(20) • وهناك افتراض آخر يذهب الى أن اتخاذ صفة الاله كانت الوسـيلة الوحيدة التي اسـتطاع بواسطتها بنـاة

الامبراطوريات العراقية المبكرة هؤلاء أن يؤمنوا لانفسهم الخضوع المطلق من قبل امراء مملكتهم العديدين • وهذان التفسيران ليسا اكثر من افتراضين وهما مفتوحان للمناقشة •

كان « نرام ــ سن » ذا شخصية من طينة شخصية جده العظيم سرجون فأصبح مثله بطلا أسطوريا • كانت سني عهد حكمه الطويل (٢٢٩١ ــ ٢٢٥٥ ق • ب) مليئة كل الوقت تقريبا بالعمليات العسكرية التي جرت كلها قرب حدود وادي الرافدين • ففي الغرب « ذبح نرام ــ سن أرمان (حلب ؟) وابلا بسلاح الاله داگان وأخضع الامانوس وجبل الارز • »(21) وفي الشمال ، تشهد احدى المنحوتات الملكية البارزة المحفورة على صخرة في « پير حسين » (قرب ديار بكر) على خوضه حربا ضد « نامار » الحورية • كما شيد منزلا ملكيا في « تل ــ براك » وهو موقع ستراتيجي يفضي الى بلوغ قلب حوض الخابور ويسيطر على كل طرق الجزيرة(22) • وفي أقصى الجنوب ، يحتمل ان تكون ما گان (عمان ؟) قد أعلنت العصيان لان نرام ــ سن « حمل على ماكان وأمسك بملكها ماندانو بنفسه » • ولكن الحملة الرئيسية كانت موجهة ضد اللولوبيين الاقوياء • ويخلد انتصار الاكديين عليهم نحت صخري آخر وجد في « دربند ــ ي ــ گور » قرب « سار ــ ي ــ پول » في ايران ، وقطعة فنية رائعة من النحت العراقي الناتيء وهي المسلةالمشهورة التي وجدت في سوسة والتي يفخر الان متحف اللوفر بامتلاكها(23) • وترينا هذه المسلة نرام ــ سن مسلحا بالقوس ومعتمرا التاج المقرّن للآلهة وهو يتسلق جبلا شديد الانحدار ويطأ بأقدامه على جثث أعدائه يتبعه جنده المصورون بحجم أصغر • وتظهر الآلهة هنا برمزين مختصرين هما نجمتان في السماء ، بينما كانت تصور في منحوتات السومريين لعصر فجر السلالات وهي بمواجهة أقزام بشرية هم البشر •

هل انتهى عهد حكم « نرام — سن » بما يشبه الكارثة ؟ تصور لنا وثيقة تعرف بـ « الاسطورة الكوثية » ملك اكد « نرام — سن » وهو « مرتبك » ، مبلبل ، كئيب ، حزين ، ومرهق بسبب اجتياح اللولوبيين وأعدائه الاخرين أرض بلاده ، » ولكنه ينتصر عليهم في النهاية(24) . ان امتزاج الحقائق بالاخيلة هنا يدعونا ، مرة أخرى ، الى التزام جانب الحذر الشديد . وعلى أية حال ، فليس هناك من شك في أن « نرام — سن » كان آخر ملوك السلالة الاكدية العظام . فما أن توفي حتى أصبح الضغط الخارجي على حدود الامبراطورية مريعا . كان وادي الرافدين يحتفظ خلال عهد حكم « نرام — سن » بعلائق حميمة مع بلد عيلام حيث شمل نرام—سن مدينة سوسة برعايته الشخصية . كما قام حاكمها المتحمس « پُزُر — إنشوشناك » باخضاع قبائل جنوب جبال زاگروس لصالح ملك العراق . بيد أن «پزر إنشوشناك» هذا ما لبث أن أعلن استقلال مملكته اثناء فترة حكم « شار — كالي — شرّي » ، وهو الملك الذي خلف « نرام — سن » على العرش ، كما ترك استخدام اللغة الاكدية مستبدلا اياها باللغة العيلامية . ووصلت به الجرأة حد اطلاق اللقب السني (ملك الكون) على نفسه . ولم يكن ملك أكد ، الذي يعني اسمه (ملك الملوك) ، مقتدرا على التدخل هنا لانشغاله في اخماد التمردات التي اندلعت داخل بلد سومر نفسه وفي الحرب ضد اللولوبيين والكوتيين وبدو سوريا .

إختفى شار — كالي — شري ، مثل ريموش ومانشتوسو ، خلال فتنة عصفت بالبلاط الملكي عام (٢٢٣٠ ق . م) فسقطت الامبراطورية الاكدية بذات السرعة التي كانت قد شيدت بها . ولقد كانت حالة الفوضى في العاصمة قد بلغت الذروة ، وتشرحها لنا قائمة الملوك السومريين باسلوب معبر فيما يلي :

« من كان ملكاً ؟ من لم يكنه ؟
هل كان « إيگيگي » ملكا ؟
هل كان « نانوم » ملكا ؟
هل كان « إيمي » ملكا ؟
ام كان « إيلولو » ملكا ؟
كان رابوعهم ملكا حكم ثلاث سنين ! »(25)

بعد هذا ، نالت عدة مدن سومرية استقلالها حاذية بذلك حذو المثل الذي قدمته اوروك التي اصبحت تحكمها سلالة محلية (سلالة اوروك الرابعة ، خمسة ملوك حكموا لمدة ثلاثين سنة) تسنمت مقاليد السلطة فيها منذ الايام الاخيرة لعهد حكم « نرام ــ سن » ثم هاجم « پزر ــ إنشوشناك » من عيلام أرض وادي الرافدين ووصل قرب أكد . وفي كردستان ، نحت « انّوبانيني » ، ملك اللولوبيين ، صورته على صخرة تضم نقوشا اكدية تمجد بفتوحاته الكبيرة(26) . مع هذا ، فلم يكن العيلاميون ولا اللولوبيون هم الذين ربحوا المعركة الاخيرة الحاسمة ضد الاكديين ، بل كان النصر الاخير من نصيب الكوتيين الذين لا نعرف كيف ولا متى استطاعوا ذلك . وبقي السومريون والاكديون بعد ذلك ولفترة قرن من الزمان يخضعون لملوك ذوي أسماء غريبة نحو « إينيمگابيش » و « جار لاگاب » .

يزودنا نشوء وسقوط الامبراطورية الاكدية برؤية مسبقة لشكل ازدهار وسقوط كل امبراطوريات وادي الرافدين المتتالية التي تتميز بتوسع سريع تتبعه تمردات وحروب وثورات داخلية وخارجية مستمرة تنتهي أخيرا باحتلال أجنبي يقوم به الكوتيون الان والعيلاميون والكاشيون والميديون أو الفرس غداً . ان حضارة كحضارة بلد مثل العراق ترتكز على الزراعة والاشغال

المعدنية تحتاج شرطين أساسيين كي تستمر في الحياة والنمو • وهذان الشرطان هما التعاون الوثيق بين مختلف المجاميع الرسمية والسياسية ـ الاجتماعية داخل البلد نفسه ، والموقف الودي ، أو على الاقل المحايد ، من قبل سكان المناطق المجاورة له • ولسوء الحظ لم يستمر أي من هذين الشرطين قائما مدة طويلة • فلم يكن بالمستطاع مواءمة التمسك القومي الشديد لدى السومريين ، ذلك الشعور المتوارث من الماضي السحيق المرتكز على التمسك بالآلهة ، مع الخضوع لحاكم عام كان دائما من « الاجانب » • ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الثروات المتجمعة في المدن المزدهرة سببا دائما لجذب أنظار الرعاة الفقراء من التلال والسهول المجاورة، فيتعرض البلد اذ ذاك الى أعمال السلب والنهب والاغارة المستمرة • وما كان بوسع وادي الرافدين الاكتفاء بابقاء هؤلاء الطامعين بعيدا عن بلدهم ، بل كان يتوجب عليهم قهرهم واخضاعهم ان أرادوا ابقاء شرايين تجارتهم الحيوية مفتوحة • وفي مثل « حروب العصابات » هذه ـ على جبهتين في آن واحد ـ استهلك ملوك اكد ، ومن بعدهم ملوك اور وبابل وآشور ، جل قوتهم ، فتعرضت امبراطورياتهم للسقوط بعد آماد طويلة أو قصيرة •

يؤشر موت « شار ـ كالي شرّي » (٢٢٣٠ ق• م) ، من الوجهة العملية ، النهاية للعهد الذي يطلق عليه أغلب الاحيان اسم «الفترة الاكدية»ـ الذي ترك ،على قصره ، أثرا عميقا ومستديما في تاريخ وادي الرافدين • فقد توسعت كثيرا آفاق سومر الجغرافية ، ووجدت لغة أكد السامية مستمعين اكثر ، وامتزج قسما سكان العراق مع بعضهما استعدادا لمصائر مشتركة مقبلة، واستثمرت الحضارة السومرية ـ الاكدية ـ وعمادها الخط المسماري ـ ليس فقط من قبل سكان شمال وادي الرافدين بل وكذلك من قبل الحوريين واللولوبيين والعيلاميين • ومن جهة أخرى ، فقد أغتنى وادي الرافدين بورود البرونز والفضة والخشب والحجارة بكميات كبيرة ، بينما قدم سجناء الحرب

العاملون كعبيد قوة عمل رخيصة وغزيرة • وخضعت عيلام والبحرين (دلمون) وعمان (ماگان ؟) والخليج العربي برمته الى تأثير حضارة وادي الرافدين ، بينما تقدم السندیانات والنصب والحلي والاختام ذات الاصل الهندي التي وجدت في العراق الشاهد على قيام العلائق التجارية مع وادي السند (لعلـه كان هو المقصود بما تسميه النصوص السومرية « ملوخا ») حيث ازدهرت حضارة مشعة في « هرابا » و « موهنجودارو »(27) •(*) وفي الفن : كانت الاتجاهات الجديدة تسير نحو الواقعية فحلت البورتريتات الحقيقية ، بدرجة أو بأخرى ، محل الاجساد التقليدية التي كانت شائعة في فـن عصـر فجـر السلالات • ومن الناحية السياسية ، فقد قرعت هذه الفترة أجراس نعى عهد دويلات المدن الصغيرة وبشرت بحلول عهد المملكات المركزية الكبيرة(28) • وفي الحقول الاجتماعية والاقتصادية ، أدى إنحياز الاكديين للملكية الفردية وتكوين المقاطعات الملكية الكبيرة الى تفكك المبادىء الاساسية التي ارتكزت عليها مدينة ـ المعبد السومرية(29) • وحتى « الردة السومرية » التي اعقبت الفترة الاكدية لم تؤد الى عودة العادات والافكار القديمة اذ اتبع ملوك اور ، في عدة مجالات ، النموذج الذي أرساه سرجون الاكدي وملوك سلالته •

(*) موقعان اثريان في الباكستان الغربية قرب نهر السند كانا مركزي حضارة وادي السند القديمة .

الفصل العاشر

عصر النهضة السومرية



ماتزال معلوماتنا عن الكوتيين ـ الذين أسقطوا الامبراطورية الاكدية وحكموا وادي الرافدين مدة قرن من الزمان ـ أقل من القليل(1) • وتورد قائمة الملوك السومريين اسم واحد وعشرين ملكا للقبائل الكوتيـة ؛ ولكن خمساً منهم فقط خلفوا لنا رقماً مكتوبة • وتؤشر هذه الحقيقة ، بالاضافة الى صمت المصادر الاخرى ، الى فترة من غياب الاستقرار السياسي والنكوص الحضاري لوادي الرافدين • وبالتأكيد ، فلم يكن عدد المحتلين كبيرا ، ولكنهم استطاعوا اغتصاب البلد ومن المحتمل أنهم قد دمروا مدينة اكد واحتلوا نفر وبعض المواقع الستراتيجية الاخرى • ومن المؤكد ايضاً ان عدة مدن عراقية اخرى قد حافظت على استقلالها السياسي التام فأبقت جذوة المقاومة الوطنية متقدة لتتوج اخيراً بتحرير كامل تراب بلد سومر وأكد • ففي حوالي عـام (٢١٢٠ ق • م) ، حشد « اوتو ـ حيگال » ، إنسي اوروك ، جيشا إنتفض به ضد « ثعابين التلال الخبيثة » وتبعه في ذلك عدة امراء آخرين في جنوب العراق • ولما دحر العدو الاجنبي المكروه ، حاول ملك الكوتيين « تريقان » ان يلوذ بالفرار ولكنه لم يفلح اذ القي القبض عليه وسلم للقائد السومري :

« جلس اوتو ــ حيگال وتريقان مضطجع عنــد قدميــه .
فوضع (اوتوحيگال) قدميه على رقبته (اي رقبة تريقان)
واعاد سيادة سومر الى يديه . »(2)

ونهضت نفر من كبوتها ، ووقفت اوروك ــ التي قدمت منذ عهد گلگامشــش مالايقل عن أربع سلالات سومرية ــ على قدميها ثانية على رأس دويلات المدن السومرية . غير ان سلالتها الخامسة كانت قصيرة العمر . فبعد سبع ســنين من الحكم ، طرد « اوتو ــ حيگال » من قبــل أحــد رجاله وهــو « اور ــ نمّو »(*) حاكم اور الذي اتخذ لنفسه الالقاب « ملك اور ، ملك سومر وأكد » مؤسساً بذلك سلالة اور الثالثة (٢١١٣ ــ ٢٠٠٦ ق . م) والتــي يمثل عهد حكمها واحداً من اروع عصور تاريخ العراق . فلم يكتف « اور ــ نمو » وخلفاؤه باعادة تأسيس الامبراطورية الاكدية بطولها وعرضها ، بــل وضمنوا لوادي الرافدين ايضاً قرناً كاملا من السلم والازدهار خالقين بذلك عصر نهضة لامثيل له في كل ميادين الفن والأدب السومري .

اور ــ نمّــو وگوديــا

تتميز فترة حكم سلالة اور الثالثة ــ او « الفترة السومرية الحديثة » كما تدعى أحياناً ــ بكونها فقيرة بشكل واضح بالنصوص التاريخية اذا ما قورنت بالفترة السرجونيــة. فليس بوسعنا ، مثلا ، تتبع اور ــ نمو(**) في حروبه التي مكنته من توسيع رقعة مملكته . ولابد ان يكون سقوط الكوتيين الذي تلاه إغتيال « اوتو ــ حيگال » (الذي حمل النهر جثته) قد تسبب في نشوء فراغ سياسي كبير . وبوسعنا الافتراض بأن كامل وادي الرافدين قــد وقع في قبضة ملك اور في غضون فترة قصيرة نسبياً . وكرس « اور ــ نمو »

(*) يعني اسمه « رجل الالهة نمو » ولا علاقة لاسمه بمدينة اور. (المؤلف)
(**) كان اسمه يلفظ سابقا « اور ــ انكر » .

بقية عهد حكمه ـ الذي امتد بين الاعوام (٢١١٣ـ ٢٠٩٦ ق ٠ م) لانجاز المهمات الداخلية الملحة كاعادة النظام والازدهار للبلد والاعتناء بشؤون الآلهة (3)• فقام : « تطهير الارض من اللصوص وقطاع الطرق والمتمردين » ، ونشر ما تعتبر أنها أقدم مجموعة من القوانين في تاريخ العالم • وقد وجد الرقيم الذي يحتوي هذه « الشريعة » في « نفر » قبل اكثر من خمسين سنة وكان مهشماً بصورة سيئة ، ولم تنشر محتوياته الا في الآونة الاخيرة(4) • ويثير ماتبقى من هذه القوانين اهتماماً كبيراً حيث يظهر ان بعضاً من الجرائم على الاقل (كالأذى الجسدي) لم تكن تعاقب بالموت او بتشويه وقطع الاعضاء الجسمية ـ كما هو الحال في شريعة حمورابي والقانون العبري المتأخرين ـ بل كان الجاني يرغم على دفع تعويض نقدي بالفضة تختلف زنته وفق درجة خطورة الجناية • وهذا طبعا يدلل على وجود مجتمع راق الى درجة أعلى بكثير مما كان يتصور عادة • كما عمل اور ـ نمو على إنعاش الزراعة وتحسين المواصلات بشق الطرق والقنوات ، واعاد الصلات التجارية مع « ماگان » بعدما تعطلت ابان الاحتلال الكوتي : وحصن المدن تحسبا لاندلاع حروب قادمة • وبالاضافة الى هذا ، فقد انجز مقداراً هائلا من أعمال التعمير والترميم • ولكن اسم اور ـ نمو سيبقى يرتبط عند علماء الآثار بشكل خاص ، والى الابد ، بالزقورات او الابراج المدرجة التي أقامها في اور ، اوروك ، اريدو ، ونفر ، وفي مدن عديدة اخرى ؛ والتي بقيت حتى الان من أكثر نصب ومعالم هذه المواقع اثارة للدهشة والاعجاب • وسنتناول زقورة اور بالبحث فيما يلي كنموذج بأعتبارها أفضل الابراج المدرجة صموداً حيث بقيت محافظة على شكلها الاصلي رغم عاديات الزمن •(5)

شيدت زقورة اور باللبن المغطى : « بشرة » من الآجر المفخور المثبت بالقار سمكها ثمانية أقدام ، ويبلغ طول قاعدتها مائتي قدم ، وعرضها مائة

وخمسين قدما • وكانت تشتمل اصلا على ثلاثة طوابق • وعلى الرغم من ان الطابق الاول وجزءً فقط من الطابق الثاني قد بقي لحد الان ، الا ان ارتفاعها الحالي يصل الى حوالي الستين قدما • مع ذلك ، فان هذه الكتلة الهائلة تترك فينا انطباعا مدهشاً بالخفة بسبب التناسق التام لأبعادها و الانحناءة البسيطة لخطوطها ــ وهذا اختراع بقي مدة طويلة ينسب الى المهندسين المعماريين الاغارقة الذين شيدوا « الپارثنون »(*) بعد هذا التاريخ بألفي عام ــ والتناسق التام لابعادها • وفي مقابل الجانب الشمالي الشرقي للبرج تتقارب ثلاث مجاميع طويلة من السلالم نحو مستقر في المنتصف بين المصطبة الاولى والثانية • ومن هذه البقعة كانت توجد سلالم اخرى تؤدي الى الطابقين الثاني والثالث وتصل اخيراً الى الضريح الذي كان يتوج البناية كلها • وتشمخ الزقورة بجلال فوق مرتفع صغير يقع في قلب « المدينة المقدسة » ــ المساحة المسورة المخصصة للالهة والملوك الذين تشغل اماكنهم معظم القسم الشمالي من المدينة ــ كما كانت تبعث بظلها فوق باحة « نانا » ــ وهي ساحة منخفضة مفتوحة محاطة بالمخازن والمساكن المخصصة للكهنة ــ ومعابد إله القمر وزوجته الالهة « ننگال » والقصر الملكي والبنايات الاخرى الاقل أهمية منها ؛ وتتطاول فوق أسوار المدينة ــ العاصمة عاكسة نفسها على صفحة الفرات المنساب على امتداد جانبها الغربي • ويشكل الان الهرم البني ــ الاحمر شبه المستدير الكائن على قمة تل كبير من الاطلال الرمادية اللون أثرا موقعيا متميزاً يمكن مشاهدته من مسافة عدة اميال بعيدة • اما زقورات المدن الاخرى ، فلم تحافظ على نفسها مثلما فعلت زقورة اور ، تختلف عنها في عدة تفاصيل ، مع بقاء شكلها واتجاهها وموقعها بالنسبة الى المعابد الرئيسية الاخرى دون ان

(*) الپارثنون هو معبد الالهة « اثينا » على الاكروپولس في اثينا ، وقد اكمل هيكله عام ٤٣٨ ق.م ، ويعتبر افضل نموذج للفن المعماري الدوري في المعابد .

يطرأ عليها تغيير جوهري • ويحلو لنا الان التساؤل : ماهو الهدف الذي كان وراء تشييد مثل هذه الهياكل ؟

إعتقد رواد علم الاثار في وادي الرافدين ان الزقورات كانت ، ببساطة ، مراصد « للفلكيين الكلدانيين » ، او حتى « أبراجاً يقضي فيها كهنة « بعل » لياليهم بعيدا عن الحرارة والبعوض » • غير ان مثل هذه التفسيرات لا يمكن ان تصادف قبولا اذ لامعنى لها البتة • واول مايمكن ان يتبادر الى الذهن هنا هو مقارنة الزقورة بأهرامات مصر الفرعونية ، وفي الحقيقة لايمكن ان نستبعد تماما احتمال تأثر المهندسين المعماريين السومريين بفن العمارة المصري • غير انه من الضروري ايضاً هنا التأكيد بان الزقورات ــ على العكس من الاهرامات ــ لم تحتو قبوراً او غرفاً داخلية(6)؛ بل كانت تشيد ، كقاعدة ، فوق بنايات أقدم واكثر تواضعا كانت قد بنيت خلال عصر فجر السلالات في هيئة زقورات ذات طابق واحد بعد ان جرى تطوير تكنيك المصطبات التي كانت تسند معابد العبيد واوروك في الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي • وهذا هو الاعتقاد السائد حاليا حول الجذور المعمارية لزقورات وادي الرافدين • ولكن ادراك حقيقة كون هياكل اور ــ نمو العظيمة ليست الا تعبيراً عن المرحلة الاخيرة لتطور تكنيك معماري اصيل لا يفضي الى تقديم تفسير مضبوط عن اهمية الزقورات من الناحية الدينية • فما الذي دعا الى اقامة كل تلك المصاطب ؟ وما كانت وظيفة تلك الابراج ؟ ولما كانت اللغة هنا لاتساعدنا في تسليط أي ضوء على المشكلة التي نحن بصددها ــ « الزقورة » كلمة مشتقة من الفعل « زقارو » ويعني ببساطة (يبني عالياً) ــ فلا يبقى لنا سوى اختيار واحدة من بين عدة نظريات مطروحة في هذا الشأن (7) •

يعتقد بعض من المؤرخين ان السومريين كانوا في الاساس سكان مرتفعات ، وأنهم اعتادوا عبادة آلهتهم من فوق قمم الجبال ، ولذلك فقد

التجأوا الى بناء هذه الابراج لتأخذ شكل جبال اصطناعية وسط سهل وادي الرافدين المنبسط • ويعتقد آخرون ممن يرفضون التفسير الآنف الذكر ـ وهو تفسير مبسط مشكوك في صحته ـ بأن الغرض من وراء تشييد مصطبة المعبد ، والزقورة ايضاً ، كان رفع اله المدينة الرئيسي الى مكان أعلى من أمكنة الآلهة الاخرى ، وحمايته من عبث الدخلاء من غير الكهنة • وهناك مجموعة ثالثة من الاساتذة ترى في هذه النصب سلماً هائلا يصل ، كالجسر ، بين المعابد السفلى ـ حيث كانت تقام الطقوس والاحتفالات الدينية ـ والمعبد العلوي الذي يقع في « منتصف المنطقة الفاصلة بين الارض والسماء » حيث « يلتقي البشر مع الآلهة » في مناسبات خاصة • ونعتقد ان النظرية الاخيرة هي الاقرب الى الحقيقة • ومع أخذنا لكل ما سبق من الاقوال بنظر الاعتبار ، فاننا نجد في تعريف الكتاب المقدس للزقورة عندما يذكر ان « برج بابل (= زقورة بابل) قد اريد له ان يبلغ السماء » [سفر التكوين ـ ٦ ، ٤] أفضل التعاريف المقدمة • كانت هذه البنايات الضخمة ذات الرشاقة الغريبة تشكل في ذهنية السومري المتدين جداً « أماكن عبادة طابوقية » ـ مثلما كانت الكاتدرائيات القوطية « اماكن عبادة حجرية » ـ تهيىء للالهة دعوة مفتوحة دائمة للنزول الى الارض • كما تعبر في نفس الوقت عن واحدة من اروع محاولات الانسان للارتفاع فوق مستوى وضعه البائس ، ولتأسيس علائق اوشج مع الآلهة السامية ••

واعتمادا على الطابوق الممهور باسم « اور ـ نمو » والمنتشر في منطقة جنوب العراق ، يبدو لنا ان اقامة المعابد كان امتيازاً ملكياً فحسب • ولكننا نعرف مدينة لا تبعد كثيرا عن العاصمة اور تم فيها انجاز برنامج عمراني فخم يتميز بعظمة حقيقية تليق بمقام الملوك وذلك من قبل حاكمها المحلي • تلك هي مدينة « لگش » في ظل حكم الانسي المشهور « گوديا » •

مر بنا في الفصل الثامن كيف أن لوگال ـ زاكيزي حاكم أوما قد وضع

نهاية للصراع المستمر بين مدينته ومدينة لگش باحراق نصب الاخيرة وتحويلها الى كومة من الاطلال • غير ان المدن الشرقية نادرا ما كانت تخرب تماما الى الدرجة التي تصورها لنا مدونات محتليها • وهكذا نجد أن لگش قد حافظت على نفسها بشكل او بآخر وأصبحت ــ قبيل نهاية فترة الاحتلال الكوتي ــ في عهدة امراء نشطين استطاعوا ان يبقوا مستقلين وأخذوا على عاتقهم مهمة بعث مجد مدينتهم القديم • كان « گوديا » أحد هؤلاء الامراء المتحمسين وقد عاصر اور ــ نمو وربما كان معاصرا ايضاً لآخر ملوك الكوتيين • وتقدم لنا تماثيله ومخطوطاته العديدة أفضل نموذج للانجازات السومرية في ميادين الفن والادب والعمران •(8)

بنى گوديا ــ او بالاحرى أعاد بناء ــ مالايقل عن خمسة عشر معبداً في لگش• ولكن أياً من تلك المعابد لم يكن بدرجة فخامة وترف معبد «إي ــ ننو»، وهو معبد اله المدينة « ننگرسو » • ويشرح لنا « گوديا » ، في اسطوانتين كبيرتين من الفخار(9) ، سبب وكيفية بناء هذا المعبد ، ويزودنا ، بالصدفة ، بتفصيلات ثمينة عن الطقوس المعقدة الواجبة الاداء عند اقامة المعابد في وادي الرافدين قديما • كان السومريون يؤمنون بان البت بانشاء معبد ما هو من الامور التي لاتعود الى ارادة الحاكم او هواه ، انما يجب ان يكون وفاءً او استجابة لارادة الاله المعني مباشرة بالمعبد • وتتخذ هذه الارادة الالهية شكل حلم غريب :

« في قلب الحلم ، كان هناك رجل : طوله يضارع السماء ووزنه يماثل الارض •••• تربض الاسود على يمينه وشماله ••• أمرني ان أبني له معبدا ولكنني لم أفهم قلبه (= مراده) ••• كانت هنا امرأة • ما الذي كانت تمثله وما الذي كانت لا تمثله ؟ •••• كانت تحمل بيديها مرقماً من المعدن الوهاج ؛ وتحمل رقيم الكتابة السماوية الجميلة ؛ وكانت مندمجة في تفكرها » •

هرع گوديا المرتبك والمنزعج الى (والدته) الالهة « كاتمدوك » طلبا للعـزاء والطمأنينة • ثم استقل زورقا وقصد معبد الالهة « نانشة » (مفسرة الاحلام) فأوضحت له الاخيرة بأن الرجل الذي ظهر له في المنام كان الاله « ننگرسو »، وان المرأة كانت الهة العلم « نسابا » • ونصحت گوديا بان ينذر لننگرسـو عربة « مزوقة بالمعدن الوهاج وبحجر اللازورد » و :

« عندئـذ ستعين لك حكمـة اوالى ، حكمـة ننگرسـو ، الغامضة كالسماء ، الطمأنينة ؛ ولسوف يكشف لك عـن تصميم معبـده وسيشيده لـك المحـارب ذو الاحكـام العظيمـة • »

وامتثل گوديا لنصيحة الالهة نانشه ، وبعد ان وحّد مواطني لگش « مثـل أبناء أمٍ واحدة » ، وبعد ان جعل الطمأنينة تلج كل بيت :

« طفق يطهر المدينة المقدسة ويحيطهـا بالنيران ••• جمع الطين من مكان بالغ الطهر ، وفي مكـان نظيف صنع الآجـر ووضعه في القالب • إتبع الطقوس بكـل جلالهـا فنظـف أسس المعبـد وأحاطـه بالنيران ودهـن المصطبة بعطـر زكي •••• »

وبعدما أنجز كل هذا ، جلب الحرفيين من مناطق بعيدة :

« من عيلام جاء العيلاميون ، ومن سـوسه السوسـيون ، وجمعت ما گان وملوخا الخشب من جبالها ••• وجمعهـم گوديا مع بعضهم في مدينتـه « گرسـو » • وفتح گوديـا ، كاهن ننگرسو الاعلى ، ممراً داخل جبال الارز التي لم يدخلها احـد من قبل فقطع أشجارها بفؤوس كبيرة •••• ومثـل الافاعـي العظيمـة كـانت اشـجار الارز تطفـو على ميـاه (الانهار) •••• »

وفي مقالع لم يمسها احد من قبل ، صنع گوديا ، الكاهن الاعلى لننگرسو ، ممراً . ثم جيء بالحجارة كتلاً كبيرة ... وجلبت عدة معادن ثمينة الى الامير . فمن جبال النحاس في كيماش.... أستخرج النحاس في عنوق ، وجيء بالذهب من جبالها في شكل تراب ... لاجل گوديا إستخرجوا الفضة من جبالها وجاءوا بالحجر الاحمر من ملوخا بكميات كبيرة ... »

واخيراً إبتدأت عملية البناء ، وأكمل المعبد المختار في غضون سنة واحدة ، وأصبح البناء مستعدا لدخول الاله اليه باحتفال فخم مهيب . ونجد گوديا وقد إطمأن اخيرا وهو يطلعنا بفخر :

« إن إجلال المعبد يعم البلد ، وان الهلع منه يملأ (قلوب) الغرباء ؛ وان نور اي - ننو يحتوي الكون كالعباءة ! »

وللاسف لم يبق ، من الناحية العملية ، أي أثر لهذا المعبد الفخم . وكان يمكن أن نعتبر گوديا حاكماً كثير المبالغة لو لم تكشف لنا اعمال التنقيبات عن سبعة عشر تمثالاً رائعاً له استخرج أغلبها بصورة غير مشروعة . وقد نحتت هذه التماثيل من حجر الديورايت الاسود القاسي الملمع المجلوب من « ماگان » . وهي منفذة بخطوط بسيطة وبأيجاز في التفاصيل وبحس تعبيري شديد الروعة مما يعطيها مكاناً متميزاً في النحت العالمي . ان ظهور قطع فنية متفردة بهذا الشكل في معابد لگش تجعلنا نصدق بأن بقية النقوش والبنايات المنفذة في عهد حكم گوديا في تلك المدينة لم تكن أقل تفنناً وروعة منها .

ويقدم تمثال هذا الحاكم الشاب الجالس بوقار ، والذي تعلو شفتيه إبتسامة لطيفة ، ويداه مضمومتان الى صدره وعلى ركبتيه تمتد رقعة تحتوي تصميم معبد - او مسطرة قدم - أفضل صورة لشخصية ستختفي سريعا

لسوء الحظ . ونواجه في شخصية گوديا نموذجاً للحاكم السومري المثالي : فهو عادل ، متدين ، مثقف ، مخلص للتقاليد الموروثة ، مكرس ذاته لإسعاد شعبه ، يملأه حب مدينته والافتخار بها ، وهو ــ في هذه الحالة على الاخص ــ مسالم ايضا . فمخطوطاته لا تذكر لنا سوى حملة عسكرية واحدة فقط ضد « أشنان » (في شرق عيلام) . وليس هناك من شك في أن الخشب والمعادن والاحجار التي أستخدمت في أعمال العمارة في مدينته قد أستحوذت عن طريق التجارة ولم تكن غنائم أستحصلت بواسطة الاحتلالات العسكرية او التوسعات الاقليمية . وتؤكد لنا الصلات التجارية الواسعة لامير لگش حقيقة الرفاهية التي لاتصدق لمدينة سومرية خضعت للحكم الاكدي مدة قرنين من الزمان ولم يمض اكثر من قرن واحد على زوال السيادة الاجنبية عليها .

شولگي ، امار ــ سن ، والامبراطورية السومرية

توفي اور ــ نمو في حرب مجهولة بعد ان ترك وحيداً في ساحة المعركة «مثل إناء مهشم(10)» ، فخلفه ابنه «شولگي» الذي دام عهد حكمه مدة سبع واربعين سنة (٢٠٩٥ ــ ٢٠٤٨ ق . م) أمضى « شولگي » النصف الاول من عهد حكمه في نشاطات سلمية ، فأكمل تشييد المعابد والزقورات التي كان اور ــ نمو قد بدأ ببنائها ، كما اقيمت بنايات جديدة ، وأعيدت الآلهة الى مراكزها السابقة في رعاية كهنة كبار اختيروا من قبل الملك نفسه . واستحدث مكيال جديد للحبوب وهو المسمى (گور) [= سبعة بشلات ، ويعادل « البشل » ثمانية غالونات] ليحل محل المكاييل المحلية المستخدمة سابقاً . ومن المعتقد انه قد جرت في هذه الفترة عملية اعادة تنظيم شاملة للمملكة في الميادين السياسية والاقتصادية والادارية . وفي السنة الثانية والعشرين من سني حكمه ، شرع « شولگي » بسلسلة طويلة من الحملات العسكرية السنوية في سهول شمال ديالى ــ وفي تلال كردستان . ولم تتضح

بعد الاسباب التي دعت الى تسيير هذه الحملات • ومن غير الممكن ان نصدق تماماً بأن بعضاً منها كان ضرورياً لكسر مقاومة بعض المدن والمقاطعات غير المهمة نسبياً • ويجب ان نشير هنا ثانية الى ندرة النصوص التاريخية التي تغطي احداث كامل هذه الفترة اذ لاتتعدى مصادر معلوماتنا علـى مصـدر واحد يحوي قوائم مؤرخة ذات جمل مقتضبة ومكليشة نحو : (السنة التي دمرت فيها اوربيلوم) و (السنة التي دحرت فيها سيموروم ولولوبوم للمرة التاسعة) ••• الخ •(11) أما حيال المناطق الاخرى ، فقد إتبع « شولگي » سياسة أكثر دبلوماسية اذ زوج بناتـه لحكام « باراهشـا » و « أشنان » (جنوب ــ غرب ايران) ، وبنى في سوسه ــ التي اصبحت الان تخضـع بصورة كاملة الى الهيمنة السومرية ــ معابد لالهة عيلام الوطنية(12) • كما إتبع « شولگي » المثل الذي قدمه « نرام ــ سن » فلقب نفسه [ملك جهات (العالم) الاربع] ؛ وعبد كإله اثناء حياته وبعد مماته ايضاً • وكان يجـري تقديم النذور الى تماثيله في طول البلاد وعرضها مرتين كل شهر ، كما اطلق اسم « شولگي المقدس » على أحد اشهر السنة •

دام حكم أمار ــ سن ، نجل شولگي ، فترة تسع سنـوات فحسـب (٢٠٤٧ــ٢٠٣٩ ق • م) • وقد قسم عهده ، مثلما فعل أبوه ، بين تشييد المعابد وشن الحروب على المقاطعات الشرقية ذاتها • وقد عبد « أما ــ سن » ايضا ، واطلق على نفسه ، بعجرفة تامة ، لقب « اله الشمس (= حاكم) للارض » • وطبقا لما يقوله نص تاريخي متأخر ، فان وفاة « أمار ــ سن » كانت بسبب « رضّة حذاء »(13) ؛ وقد دفن الى جانب والده شولگي ــ وربما ايضـاً مع اور ــ نمو ــ في ضريح تحت الارض واسع ، وجد سليما ، وان مسلوبا في مدينة اور المقدسة قرب المقبرة الملكية الشهيرة(14) •

قاد « شولگي » و « أمار ــ سن » امبراطورية شاسعة لاتقل مساحتها

عن الامبراطورية الاكدية ، وتمتاز على الاخيرة بكونها أكثر تجانساً • فبينما إعتمد ملوك أكد في تثبيت سيادتهم على عساكرهم ووثقوا بملوك أجانب تابعين ، نجد ان حكام اور قد وسعوا ميدان النظام السياسي المتوارث في سومر ليشتمل على مناطق جد واسعة • فأصبحت الوحدة الادارية الاساسية في بلاد عيلام وسوريا ولبنان ، بالاضافة الى العراق ، هي « دولة المدينة » التي يقودها إنسي(يدعى « إيشاكو » بالأكدية) • ومن الناحية النظرية ، لم يكن الملك اكثر من إنسي يتبوأ منزلة أعلى بسبب إختياره من قبل إنليل في نفر لقيادة مصائر هذه الشعوب العديدة المختلفة • واذا كان « الانسيون » (جمع إنسي) في بعض المدن ــ مثل ماري وآشور ــ يتمتعون باستقلال شبه كامل ، الا انه وجد هناك أمراء آخرون في مدن أخرى كانوا مجردين تماما من امتيازات الانسي المتوارثة حيث جرى تنصيبهم وتثبيتهم من قبل الملك ، وامكن نقلهم من مدينة لاخرى ، وكان يزورهم باستمرار مفتشون ملكيون ؛ كما جرى وضع بعضهم تحت امرة حكام مقاطعات أكبر • ولم يكن هؤلاء اكثر من ولاة مفوضين على المقاطعات الخاصة بهم • وكان يجري تعيين امراء مقاطعات الحدود من بين السكان الاصليين لهذه المناطق • اما الموظفون الملكيون لوادي الرافدين فقد كانوا يختارون من بين المواطنين السومريين والاكديين • وقد أدت هذه السياسة الحكيمة الى رص المجموعات العرقية المختلفة مع بعضها ، وشجعت التقدم الاقتصادي والحضاري في المقاطعات البعيدة ، أمنت في النهاية ، سلماً داخلياً دام خلال معظم هذا القرن • وقد أجبرت عملية مركزة الحكم والوضع الخاص للمدينة ــ العاصمة ملوك اور على تحسين نظام المواصلات البرية • فاقيمت القلاع على طول الطرق الرئيسية ورابط فيها رجال الشرطة ، وتثبتت على الطرق محطات استراحة معينة ــ مدينة لگش على سبيل المثال ــ يحصل فيها سعاة ورسل الملوك على حصة مضاعفة من الطعام : الحصة الاولى لقاء مكوثهم في المدينة ،

والثانية « للطريق »(15) • ولما كانت القوافل التجارية تستخدم نفس طرق المواصلات هذه ، لذلك فقد اصبح بامكان العناصر المادية والروحية للحضارة السومرية ــ الاكدية أن تنتقل بسرعة وأمان من مكان لآخر في طول وعرض الامبراطورية • وقامت في هذه الفترة علاقات تجارية وثيقة بين عيلام وسومر ، وبين البلد الاخير وبلدان ذات حضارات متخلفة نسبياً كشمال سوريا التي حصلت من وادي الرافدين على الدفقة التي أوقدت تطورها الحضاري الخاص •

وعلى الرغم من توفر كمية ضخمة من النصوص والوثائق الاقتصادية الا ان البناء الاقتصادي للامبراطورية السومرية لم يزل غير واضح بشكله الكامل • فلأسباب عديدة ، لم يتجرأ أحد بعد للتصدي للمهمة الكبيرة التي تقتضي تحليل عشرين ألفاً من وثائق عقود البيع والشراء والمستندات المالية وجداول الرواتب والحسابات وغيرها المنشورة قبل فترة لغرض التوصل الى استنتاجات مفصلة وصحيحة منها • وليس بوسعنا الان تمييز الغابة عن الاشجار في هذا الميدان(16) • مع ذلك ، فلابد لاية مراجعة عجلى لهذه النصوص ان تتوقف عند نقطتين مهمتين اولهما تزايد أهمية الملكية الفردية والاعمال التجارية الخاصة ، وثانيهما الدور المتعاظم الذي اصبحت تلعبه السلطة المدينية في الحياة الاقتصادية للبلد • ولا نعلم كم كان حجم القطاع الاقتصادي الخاص الذي وجد في سومر وفي مناطق أخرى من الامبراطورية متمثلا بأشخاص امتلكوا الارض والبيوت والعبيد والحيوانات وكان بوسعهم تبادلها بعقود تجارية • أما الاسعار فقد كانت تتفاوت حسب نوعية البضائع وزمان ومكان تبادلها وتعادل بالفضة أو بالحبوب • وكمعدل وسطي ، كان ثمن الحقول وبساتين النخيل يساوي « شيقلا » واحدا من الفضة (حوالى ربع الاونس) لكل « سار » (مائة وستة عشر قدما مربعا) •

وكان ثمن العبد الصحيح الجسم يساوي أحد عشر شيقلا تقريبا ، وثمن الحمار خمسة « گور »(*) من الشعير(17) ، والخنزير بگورين • كما كان بوسع المزارعين استلاف بذور الحنطة لاغراض البذار من القصر أو المعابد بسعر فائدة يبلغ عشرين بالمائة من الكمية المستلفة أصلا • ولكن المرابين المحليين استطاعوا الاستحواذ على الثروات الطائلة بتقديمهم القروض المالية القصيرة الاجل بسعر فائدة يبلغ (٣٣ر٥٪) من المبلغ المستلف • وبالنسبة الى الارض المؤجرة ، كان البدل الاعتيادي الذي يستلمه صاحب الارض من مؤجرها يساوي ثلث المحصول بأكمله(18) • فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يبلغ الامر بالسكان الفقراء الغارقين بالديون الى بيع اطفالهم في سوق النخاسة كعبيد• وكان القسم الاعظم من السكان يفضل العمل لمصلحة المعابد المحلية او للملوك لقاء أجر دائم يدفع بالحبوب والمأكل والملبس • وفي كل أرجاء وادي الرافدين كانت المعابد ما تزال أهم مالك للارض وللمعادن الثمينة والمواشي ولقوة العمل • غير أن المعبد لم يعد يمتلك ذلك الوضع الاقتصادي المهيمن الذي كان يتمتع به ابان عصر فجر السلالات • وكانت لحكومة الملك مقاطعاتها ومخازنها وورشاتها وكتبتها وتجارها وحرفيوها وعمالها وعبيدها الخاصون بها• وكان في متناول أيديها اعداد كبيرة من الرجال المتهيئين للقيام بالاعمال الشعبية الواسعة النطاق اضافة الى جيش من الخدم المدنيين الساهرين على تثبيت سلطتها • غير ان التاج والمعبد لم يكونا مؤسستين متناحرتين بأي شكل من الاشكال اذ كان الملك يعتبر تقليديا الرئيس الاعلى للكهنة • وفي سومر ، كان الملك هو الذي يأمر ببناء المعابد ويقدم لها التبرعات المادية الكبيرة ؛

(*) يساوي الـ « گور » : ٣٣ غالونا ويدعى كذلك بـ « كورّو » . وفي بعض الاحيان كانت كيلة الـ « گور » لا تتجاوز الستة عشر غالونا او البشلين حسب رأي كونتينو .

وهو الذي يعين كهنتها الكبار ؛ ويرعى احتفالاتها الدينية الكبيرة وليس الأنسي المحلي • وبالمقابل كانت المعابد تدفع ضرائب دائمية الى القصر • وفي أوقات الازمات المالية الحادة ، كانت المعابد تضع كامل ثروتها تحت تصرف مليكها ؛ كما كان اقتصاد المعبد عرضة للاشراف المباشر من قبل الملك • ومن الناحية العملية ، لم يوجد هناك اي خط فاصل بين ممتلكات المعبد وممتلكات الدولة المتمثلة بالملك• فنجد ان شولگي قد شيد في « بوزوريش ـ داگان » (دريهم الحديثة) ، الكائنة جنوب مدينة نفر ، عنبرا واسعا نقلت اليه الاغنام والابقار والحبوب والجعة وغيرها من البضائع التي جلبت من جهات الامبراطورية الاربع • وكانت هذه المواد اما « هدايا » او دفعات تقليدية من النوع الذي يقدمه انسيو المدن المختلفة طبقا الى نظام الدورة السنوية الصارم المسمى « پالا »(19) • وكان هناك كتبة من المتمرسين والمختصين بالشؤون الحسابية يسجلون دخول وخروج البضائع بدقة سومرية نموذجية• وترينا قوائمهم وسجلاتهم أن معظم تلك المواد كانت أرزاقا للمعابد المختلفة في العاصمة الدينية نفر ، وان وجدت من الاسباب ما تكفي لحملنا على الاعتقاد بأن قسما كبيرا من المواد المخزونة في دريهم كانت توجه في الحقيقة الى اور لفائدة القصر الملكي(20) •

أدت مركزة السلطة الاقتصادية والسياسية بيد ملوك اور الى تكون مجتمع تهيمن الدولة عليه داخل اقليم واسع موحد اداريا • وكانت المشاريع الفردية الخاصة فيه ما تزال محدودة وعرضة للمخاطر • كما كان القسم الاكبر من السكان المحكومين مستعبدا تماما من الناحية العملية • اما الصناعة والزراعة الممولة حكوميا فقد كانت جد مزدهرة ، كما كانت الحكومة غنية ومقتدرة • ففيما عدا منطقة جبلية صغيرة في الشمال الشرقي من العراق ، كان الملك مطاعا من ببلوس(21) الى سوسة دون أن تنشط أية مقاومة جدية ضده • ولم تنشب في هذه الفترة أية حروب أهلية كما لم تثر الفتن داخل

القصر مثلما كان الامر ابان العهود السابقة • وكان سكان وادي الرافدين في تزايد مستمر ، وجرى تشييد المعابد في كل مكان تقريبا • فانتشرت حضارة سومر الرائعة في كامل رقعة الهلال الخصيب ، وأعرب السومريون عن امتنانهم للآلهة المسؤولة عن نصرهم ورفاههم بابتداع اعمال فذة في ميادين الفن والادب•ولابد ان تكون الامبراطورية السومرية قد بدت لمعاصري شولكي و « أمار ــ سن » صرحا متينا غير قابل للاهتزاز • غير ان الجنود الذين كانوا يحرسون الطرق الترابية على امتداد الصحراء كانوا يعلمون علم اليقين ان البدو كانوا على وشك التحرك وتوجيه الضربة القاتلة • كان هؤلاء البدو قد عبروا الفرات والخابور باتجاه الوادي الاخضر في جماعات صغيرة مسالمة في الظاهر ، ولكن لن يمضي طويل وقت حتى تتجمع هذه القبائل مع بعضها مكونة سيلا عارما لن تقف بوجهه أية قوة •

سقوط اور

تردنا أول اشارة الى أن الامور على الحدود الغربية لم تعد هادئة مثلما كانت في السابق خلال عهد حكم الملك « شو ــ سن » (٢٠٣٨ ــ ٢٠٣٠ق•م)؛ وهو أخو أمار ــ سن وخليفته على الامبراطورية • وقد قام « شو ــ سن » (المقدس) ، كغيره من ملوك اور السابقين ، باعادة بناء وترميم عدد من المعابد كما حمل على جبال زاكروس فدحر ائتلافا ترأسه عدة حكام ايرانيين(22) • غير أن الوصف المقدم لسنة حكمه الرابعة يتضمن نغمة غريبة اذ يذكر لنا أن الملك قد قام في تلك السنة « ببناء حصن مار ــ تو لصد التدنوم » • ونعلم من مصادر أخرى ان الاسم « مار ــ تو » في اللغة السومرية و « تدنوم » (أو « آموروم ») بالاكدية كان يطلق على البلد الواقع غرب نهر الفرات وعلى سكانه ايضا • وتتمثل هذه الرقعة الواسعة اليوم بسوريا والصحراء

المحيطة بتدمر ووادي نهر العاصي والجبال الموازية للبحر الابيض المتوسط . وكان قسم من سكان هذه المنطقة يقطن المدن والقرى ، ولكن السومريين او الاكديين دأبوا عند الحديث عن « المار ـ تو » أو « الآمـورو » (الذين نسميهم الان الآموريين) القصد بها تلك القبائل البدوية التي تجوب أرجاء بادية الشام وتعبر الانهار لرعي ماشيتها في سهوب وادي الرافدين(23) . وقد احتنظ السومريون بعلاقات وثيقة بدرجة خاصة معهم . وكانوا يعرفون جيدا اولئك الآموريين الرحل منذ عصر فجـر السلالات كاشخاص تركوا قبائلهم للعيش والعمل في المدن ، او كبدو كان ينظر الى حياتهم غير المهتقرة باحتقار واشـمئزاز :

« المار ـ تو الذين لا يعرفون الحبوب ...
المار ـ تو الذين لا يعرفون البيت ولا المدينة ؛
أجلاف الجبال .... المار ـ تو الذي يستخرج
الكمأ .... الذي لا يثني ركبتيه (لزراعة الارض) ؛
الذي يأكل اللحم النيء ، الذي لا يمتلك منزلا طوال حياته ،
الذي لا يدفن بعد موته .... »(24)

أو أيضا :

كانوا قد هيأوا قمحاً و « كو ـ نونوز » (حبوب) كمربى ، ولكن الآموري سيلتهمها حتى دون ان يعرف محتواها ! (25) .

ولقد سيرت ضد هؤلاء الاجلاف ، الذين دأبوا على مهاجمـة القـرى والقوافل ، عدة حملات تأديبية بواسطة رجال الدرك . وفي بعض الاحيـان كانت تسير ضدهم قوات عسكرية كبيرة . وكانت احدى سني حكم شار ـ كالي ـ شرّي ، آخر ملوك أكد العظام ، قد سميت باسم انتصاره عـلى

المار ــ تو فوق قمة « باسار » (جبل بشري) بين دير الزور وتدمر • كما نوجد هناك اشارات الى أسرى حرب آموريـين في مدونات « شولگي » و « أمار ــ سن » • ولكن الموقف بات معكوسا الان حيث نجد السومريين في موقف الدفاع المحض فيضطرون الى اقامة حصن في مكان ما بين مـاري واور لاتقاء شر غزوات البدو اياهم •

ولابد ان هذا الاجراء كان قد أمن تأثيراً فعالاً أول الامر حيث لانعود نسمع شيئا عن الآموريين خلال العشر سنين التالية • وفي غضون هـذه الفتـرة توفي « شو ــ سن » وأعقبه في الحكم (عام ٢٠٢٩ ق • م) ابنه المسمى « أبي ــ سن » • أما ما الذي حصل بالضبط خلال فترة انتقال الحكم هذه ، فتلك مسألة ربما ستبقى مجهولة الى الابد • فما ان توج الملك الجديد حتى تبعثرت الامبراطورية تماما فاعلنت دويلات المدن الغربية استقلالها الواحدة تلو الاخرى وانفصلت عن اور(26) • وكانت أشنونا اولى تلك المدن المنفصلة (في السنة الثانية من عهد حكم أبي ــ سن) تلتها سوسه (في سنة حكمـه الثالثة) • وفي نفس الوقت ، كان الآموريين يسلطون ضغطا متزايدا عـلى حدود المملكة • وفي السنة الخامسة ، اندفع هؤلاء مخترقين خطوط الدفاع السومرية وتوغلوا عميقا في قلب بلاد سومر • وترينا رسالتان تبودلتا بين الملك وأحد قواده المسمى « إشبي ــ إرّا » ــ وهـو من مواطني مدينـة ماري ــ مدى حراجة موقف الملك أبي ــ سن • فقد كان الاخير قد أصدر تعليمات الى «إشبي ــ إرّا» بشراء كمية كبيرة من الحبوب من نفر وايسن القريبة ونقلها الى اور • ولكن « إشبي ــ إرّا » يبلغ مليكه بأنه ليس بمستطاعه تنفيذ تلك المهمة لان « المار ــ تو » قد اجتاحوا البلـد وقطعوا خطـوط المواصلات المؤدية الى العاصمة ، وانهم على أهبة الاستعداد للهجوم عـلى إيسن ونفر نفسها • ويطلب « إشبي ــ إرّا » في رسالته أن يولى رسـميا للدفاع عن المدينة • ويوافق الملك في جوابه على طلبـه وينصح قائده بطلب

العون من الحكام الآخرين ، ويعرض عليه شراء الحبوب بضعف سعرها الاعتيادي • ويفلح « أبي ــ سن » في دحر المار ــ تو بعدئذ ، غير ان رعاياه كانوا قد اصبحوا يتضورون جوعا، كما باتت سلطته يتهددها مرؤوسوه أنفسهم • ففي السنة الحادية عشرة من حكمه (٢٠١٧ق٠م)، أعلن «إشبي ــ إر ّا» نفسه ملكا على إيسن ، وهي نفس المدينة التي كان قد طلب الدفاع عنها لصالح سيده ملك اور • وبالاضافة الى هذا ، كان أحد الشيوخ الآموريين المدعو « نبلانوم » قد توج ، قبل بضع سنين ، ملكا على لارسا التي تبعد مسافة خمسة وعشرين ميلا عن اور • ومما زاد الطين بلة ، أن العيلاميين لم يتوانوا في انتهاز هذه الفرصة لاجتياح سومر مثلما كانوا قد تعودوا في الماضي • وهكذا أصبحت الامبراطورية السومرية العظيمة الان ــ بعد ان تخلت عنها الآلهة وهوجمت من جبهتين ــ ظلا لمملكة تقتصر على العاصمة وما جاورها من المناطق فحسب • ولقد كافح أبي ــ سن حتى النهاية ، فحاول تأمين تحالف مع الآموريين ضد العيلاميين وجنود خصمه إشبي ــ إر ّا(27) ، غير أن خطته هذه فشلت ايضا • وفي عام (٢٠٠٦) وصل العيلاميون أسوار اور التي كانت قد بناها اور ــ نمو عالية « كعلو الجبل المضيء » ، فهاجموا المدينة العظيمة واستحوذوا عليها ثم أحرقوها وانسحبوا منها تاركين فيها حامية صغيرة • وأخذ « أبي ــ سن » المنكود أسيرا الى ايران « الى نهاية أشنان التي كان قد قام ، كالطير ، بتحطيم مدنها بنفسه سابقا »(28) ، وتوفي هناك • وبعد انقضاء عدة سنين ، عندما أصبحت اور مدينة مزدهرة مرة اخرى ، كانت فجيعة دمارها تذكر بالاسى وترثى من قبل السومريين الذين اعتبروها كارثة وطنية :

« ايه ابانا « نانا » ، ان تلك المدينة قد حولت الى رميم •••
وملأ شعبها ، وليس كسر الفخار ، كل محلاتها ؛
وتصدعت جدرانها والناس يئنون •

في أبوابها العالية ، التي كانوا فيها يتنزهون ، رميت جثث الموتى،
وفي شوارعها المشجرة ، حيث كانت تنصب الولائم ، اسـتلقوا متناثرين .
وفي كل طرقاتها ، التي كانوا فيها يتنزهون ، سجت جثث الموتى .
وفي ميادينها ، حيث كانت تقام الاحتفالات ،
استلقى البشر بالاكوام ....
اور التي أكل الجوع اقوياءها وضعفاءها ؛
وكوت النيران الآباء والامهات الذين لم يبرحوا منازلهم ؛
والاطفال المضطجعون في أحضان أمهاتهم ،
كاللا سماك حملتهم المياه بعيداً
وفي المدينة ، هجرت الزوجة وهجر الابن وانتشرت المتلكـات في كل جانب .
اواه يا ((نانا)) لقد دمرت اور وشرد أهلها .))(29)

الفصل الحادي عشر

الامـــوريـــون

يعتبر سقوط اور (في نهاية الالف الثالث ق • م) احدى نقاط التحول التاريخيـــة الكبيرة في العـــراق القديـــم • فهو لايعبـــر عن سقوط ســـلالة وامبراطورية فحسب ، بل ويؤشر ايضا الى النهاية السياسية للسومريين كأمة حاكمة في التاريخ • واذا كان العيلاميونهم الذين أسقطوا عاصمة الامبراطورية عندما تدخلوا في اللحظات الاخيرة الحاسمة ، فأن انفصال مقاطعات وأقاليـــم كاملة ، وعصيان قواد أبي ــ سن ، وتدخل الآموريين كانت هي الاســـباب الحقيقية لنكسة السومريين • ولم يمض طويل وقت حتى طرد العيلاميـــون من أرض العراق بينما بقي فيه الساميون الذين سيحتفظون بعروشهم ابتـــداء من هذا التاريخ وحتى ألف وخمسمائة سنة قادمة تقريبا •

كانت الامبراطورية السومرية قد سقطت حتى قبل احتلال اور ؛ حيث استعادت ســـوريا وعيـــلام حريتهما ، وانقسم وادي الرافدين الـــى خليط موزائيكي من الممالك الكبيرة والصغيرة اهمها تلك التي قـــامت في إيسن

ولارسا في الجنوب ، وفي آشور وأشنونا في الشمال • وبقيت هذه الممالك متعاصرة لحوالي قرنين من الزمان (٢٠٠٠—١٨٠٠ ق • م) • ولم تكن العلاقات بينها سلمية حيث دأبت المملكتان الجنوبيتان على شن الحروب على بعضها لامتلاك اور وحكم بلاد سومر وأكد ، كما تنازعت المملكتان الشماليتان حول السيادة على الطرق التجارية الكبيرة التي كانت تمر في القسم الاعلى من وادي الرافدين • وفي غضون ذلك ، استمر الساميون من البدو في دخول أرض العراق من جهة الغرب ناصبين خيامهم عند أقدام جبال زاكروس ، أو مشكلين ممالك جديدة حول المدن التي كانوا يحتلونها • ثم ما لبث أن أصبح حاكم احدى تلك المدن — وهو حمورابي في مدينة بابل — قويا بما يكفي لمقارعة جيرانه ؛ فاستطاع ، خلال النصف الاول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، أن يكتسح كل منافسيه ويسيطر على كامل أرض وادي الرافدين • ولم تعمر الامبراطورية التي بناها لوحده — والتي يمكن تسميتها بالامبراطورية البابلية القديمة — سوى فترة وجيزة • غير أن عاصمتها بابل بقيت ، مع منافستها مدينة آشور ، حتى بعد سقوط تلك الامبراطورية ، احدى قطبي حضارة وتاريخ وادي الرافدين •

كان الحكام الذين حلوا محل السومريين على الساحة السياسية اما أكديين من العراق ، او ساميين غربيين — « آموريين » بالمعنى الواسع للكلمة — قدموا من سوريا والصحراء الغربية • وكانت سوريا متحضرة بشكل متطور ، بينما كانت المنطقة الثانية اقليما بدويا متخلفا ، ولكن بدوه استطاعوا إستيعاب وتمثيل الحضارة السومرية — الاكدية بسرعة فائقة وبيسر ايضا ؛ لانهم جاءوا من مناطق خضعت للتأثير السومري فترة طويلة ، ولان اللغة لم تشكل أمامهم عائقا كبيرا • ولما كان هؤلاء الوافدون الجدد يتحدثون بلهجات سامية ، لذلك فقد تبنوا في الكتابة اللغة الاكدية (السامية) التي

سرعان ما أصبحت لها الغلبة على اللغة السومرية في المدونات الخاصة والرسمية • ولقد جرى هذا التحول بشكل متدرج في الجنوب بينما كان سريعا في الشمال • ولكن هذه الثورة اللغوية لم تؤثر على المفاهيم الدينية والفنية والاجتماعيةالتقليدية في وادي الرافدين والمتوارثة من العصور الشبيهة بالتاريخية • كما نجد ان الوافدين الجدد قد آثروا عبادة الآلهة السومرية بعد ان أطلقوا عليها اسماءهم السامية الخاصة ، كما كانت الملاحم والاساطير السومرية القديمة تستنسخ بخشوع وتترجم او يتم تبنيها بعد اجراء تحويرات جد طفيفة عليها • أما ندرة النتاجات الفنية لهذه الفترة فليس هنالك ما يميزها علمياً عن الفترة التي سبقتها •(1) وبصورة عامة ، فان الحضارة التي صنعها السومريون قد بقيت حية مشعة بعدهم ولم تندثر خلال سني التدهور السياسي تلك مثلما كانت قد استطاعت المطاولة في غضون عهود السيطرة الاكدية والاحتلال الكوتي •

وعلى أية حال ، فقد كان لظهور الساميين الغربيين أصداء عميقة ومستديمة على البناء السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعراق القديم • فأدى تقسيم البلد بين الممالك الى محو كل بقايا دويلات المدن القديمة ، واختفت معها معظم المبادىء التي كانت قد تأسست عليها • فلم يعد البشر والارض والماشية ملكا للالهة ، مثلما كان الامر في عصر فجر السلالات ، او الى المعابد والملك في ظل حكم سلالة اور الثالثة • فقام الملوك الجدد بمنح او تأجير قطع كثيرة من الاراضي الملكية او المقاطعات العائدة الى المعابد لآجال غير محدودة ، واسقطت الضرائب عن سكان عدة مدن ، واجبر المواطنون على العمل • ويبدو ان الحكام الجدد قد شجعوا بمختلف الوسائل والطرق تطور الملكية الخاصة ، فانبثق بسرعة مجتمع جديد : مجتمع الفلاحين الصغار، والمواطنين الاحرار ، والتجار المستثمرين ؛ وهو المجتمع الذي سيستمر بالتطور طوال العهود القادمة • واصبحت المعابد ، بعد أن انتزعت منها كل

امتيازاتها ، مجرد « مالك للارض مثل غيرها من الملاك ، ودافع للضرائب كغيرها من دافعي الضرائب » •(2) واستمر الكهنة يخدمون الآلهة ويعتنون بتطمين الحاجات الروحية للمواطنين ، بينما أصبح الملك يحكم ويرعى ازدهار رعاياه • ولكن الحياة الاقتصادية للبلد لم تعد في قبضة العائلة المالكة والمعابد بمفردها تقريبا مثلما كان الامر في السابق • فعلى الرغم من استمرار كل مملكة جديدة في تشخيص نفسها بالهها الرئيسي ، ودأب حكامها بادعاء كونهم مدينين بمناصبهم الى فضل الالهة عليهم ؛ الا ان وجهة النظر القديمة ــ التي لم يكن بموجبها بمستطاع أي أمير حكم بلاد سومر وأكد دون انتخابه من قبل « إنليل » في « نفر » ــ انقرضت الان تماما • كان الملوك السومريون (لوگال) يتضرعون لانليل لنوال بركاته لفتوحاتهم ، أما الان فقد اكتفى الشيوخ الآموريون الاجلاف ــ الذين اغتصبوا السلطة بحد السيف ولم يعرفوا قانونا غير شريعة الغاب ــ بالحصول على تفويض السلطة من الاله المحلي • ففقدت عند ذاك « نفر » أهميتها الدينية ، وجرد « إنليل » من امتيازه الملكي الخاص • وعندما أصبحت بابل العاصمة الوحيدة لوادي الرافدين ، استبدل اسم الاله « إنليل » بالهها الخاص مردوخ في ملحمة الخليقة البابلية • وليس من شيء يرمز بشكل أبلغ من هذا الى زوال السيادة السومرية •

تمتاز الفترة التي ابتدأت بسقوط اور وانتهت بعهد حكم حمورابي ــ والتي تسمى بعصر « إيسن » و « لارسا » ــ بحوادثها الكثيرة مما يدفعنا ، توخيا للوضوح ، الى تناول شمال وجنوب العراق بشكل منفصل ، مبتدئين بالقسم الاخير •

إيسن ، لارسا ، وبابل

تأسست مملكتا إيسن ولارسا(3)خلال فترة واحدة حيث لا يزيد الفرق بين تاريخي ظهورهما على ثماني سنين • غير أن إيسن بقيت ، لحوالي مائة عام ، تعتم بظلالها على غريمتها لارسا بسبب رجحانها عليها • فبينما رضي أمير لارسا الآموري (نبلانوم) بما لايزيد على المدينة التي أحكم سيطرته عليها ، كان « إشبي — إرا » حاكم إيسن يمتلك ثلاثة مراكز مهمة هي نفر واوروك واريدو ، كما قام — قبيل نهاية عهد حكمه — بأسر الحامية العيلامية التي بقيت مرابطة في اور فأنعش بذلك المدينة المحطمة التي كانت ما تزال تتبوأ مركزا جليلا • وأدى احتلال « سيار » من قبل حفيده « إيدين — داگان» الى توسيع حدود المملكة لتمتد من الخليج العربي حتى منطقة بغداد الحالية على طول مسار الفرات الاسفل ، ذلك الشريان الحيوي لسومر •

كان « إشبي — ايرا » أكديا من مدينة ماري ، ويظهر في أسماء اثنين من أحفاده اسم الاله الاعظم لتلك المدينة وهو « داگان » اله الحنطة • غير أن هؤلاء الساميين كانوا يعتبرون أنفسهم الورثة الشرعيين لملوك اور السومريين ، وكان معظم ملوكهم مؤلهين مثلما كان شولگي وأمار — سن من قبلهم ، كما ألفت الاناشيد الدينية على شرفهم(4) • واتخذ ملوك إيسن لانفسهم الالقاب (ملوك اور ، ملوك سومر وأكد) ورمموا وجملوا العاصمة القديمة وجددوا الصلات التجارية النشيطة مع دلمون (5)• ومن سخرية القدر أنهم قد اضطروا أيضا الى الدفاع عن حدود مملكتهم ضد اولئك الذين يدينون لهم بفضل امتلاكها ، فحاربوا العيلاميين وأقاموا الحصون ضد « المار — تو » وفرضوا الضرائب على قبائلهم البدوية • وكانت السومرية هي اللغة الوحيدة المستخدمة في المدونات الرسمية لمملكة إيسن •

ومما يجدر ذكره هنا هو أن كافة القطع العظيمة للادب السومري التي وجدت في مكتبة نفر المشهورة قد جرى تأليفها او استنساخها خلال هذه الفترة بطلب من الحكام المتعطشين للثقافة السومرية • لقد كانت سومر في تلك الايام مثل الامبراطورية الرومانية الآيلة الى السقوط حيث كان كل شيء فيها لاتينيا عدا أباطرتها •

واستمرت إيسن في تفوقها دون أية عقبة تذكر حتى عهد حكم ملكها « لبت ــ عشتار » (١٩٣٤ــ١٩٢٤ ق•م) الذي وضع «شريعة» من القوانين بقيت لنا منها ثلاث وأربعون مادة وأجزاء من مقدمتها وخاتمتها(6) • وتعالج أغلب قوانينها قضايا الارث والاراضي الزراعية وعقود الايجار وأحوال العبيد المملوكين وشؤونهم ، وتزودنا بمعلومات قيّمة ، وان كانت محدودة أيضا ، عن المجتمع الذي كان قد تشكل وقتذاك • ولسوء الحظ ، فقد اصطدم هذا المشرع المسالم في صراع مع مقاتل جبار يمتلك اسماً يشبه ايقاع طبول الحرب وهو « گونگنوم » ملك لارسا الذي ــ بعد أن فرغ من حملته على منطقة جبال زاگروس ــ هاجم في سنة حكمه الثامنة مملكة إيسن واحتل اور ونصب نفسه حاكما على بلاد سومر وأكد • وبعد بضع سنين ، وقعت في قبضته لگش وسوسه وربما اوروك ايضا ، فأصبحت مملكة لارسا تمتلك عند ذاك نصف جنوب العراق ولها بوابة تطل على (البحر الاسفل) •

كانت خسارة إيسن لمدينتها الرئيسية وميناءها ضربة موجعة لها ، زاد من وقعها انقراض العائلة المالكة فيها • فقد خلف لبت ــ عشتار ــ الذي توفي في السنة التي خسرت فيها مملكته مدينة اور ــ في الحكم مغتصب للعرش ما لبث أن دحر وقتل من قبل « أبي ــ ساره » حاكم لارسا • بعد هذا بعشرين سنة خسر مغتصب آخر للعرش في إيسن ــ ويدعى «إرّا ــ إيميتي» ــ مدينة نفر ذات المكانة الدينية المهمة لصالح غريمه « سومو ــ ئيل » من لارسا ، فاقتصرت عند ذاك حدود المملكة على إيسن وما جاورها من المناطق

فحسب • وتستحق قصة موت « إرّا ــ ايميتي » ذكراً خاصا هنا لانها تصور أحد التقاليد الغريبة والنادرة في تاريخ وادي الرافدين ألا وهــو تنصيب « الملك البديل » • فعندما تظهر نذر شؤم تنذر بخطر مخيف محدق بالمملكة ، وعندما يكون الملك خائفا من غضبة الآلهة ، كان يعمد الى تنصيب شــخص آخر من عامة الناس على عرش المملكة « كملك بديــل » • وكان للملــك البديل أن يحكم المملكة لمائة يوم قبل أن يصار الى قتله • وتصف لنا وثيقة تاريخية بابلية ما حدث في إيسن وقتذاك كالآتي :(7)

« لكي لا تنقرض الســلالة ، جعــل الملــك إرّا ــ إيميتي البستاني « إنليل ــ باني » يأخذ مكانه على العرش ، ووضع التاج الملكي على رأسه • ومات إرّا ــ ايميتي في قصــره لانه بلع حساء ساخنا(*) ؛ فــلم يتنازل إنليل ــ باني ، الذي كان على العرش ، عن الحكم ، فثبت ملكا » •

ويجب أن نضيف هنا أن ذلك البستاني المحظوظ قد أثّه بعد ذلــك واستطاع أن يحكم القسم القليل المتبقي من مملكة إيسن لمدة عشرين عاما ؛ بينما كان « نور ــ أدد » و « سن ــ إدينّام » من لارسا يدفعان بجيوشهما شمالا ويحتلان المدينة تلو الاخرى • غير أنه ، وفي هذه الفترة ، برز لهاتين المملكتين المتنافستين في تلك المنطقة عدو مشترك قوي يتمثل في بابل الصاعدة•

كان ملوك إيسن الاوائل قد أفلحوا ، طوال عهود حكمهم ، في ابعــاد خطر الآموريين عن حدود بلاد سومر • ولكن الاخيرين استطاعوا عبور الفرات للمرة الثانية وباعداد كبيرة وتدفقوا داخل العراق بعد تدهور سلطة مملكة إيسن• وسرعان مانصب زعماء الآموريين أنفسهم ملوكا على مدن كيش واوروك وماراد(8) وغيرها ، مؤججين بذلك حدة الفوضى السياسية • وخلال السنة

(*) ربما يكون « إنليل ــ باني » قد عمد الى دس السم لسيده في ذلــك « الحساء الساخن » كي يخلو له العرش وينفذ بجلده من الموت المحتوم .

الاولى من عهد حكم ملك لارسا «سمو ـ ئيل» (عام ١٨٩٤ ق . م) ، اتخذ احد هؤلاء الشيوخ الآموريين ـ واسمه «سورمو ـ آبوم» ـ مدينة لا تبعد عن كيش غير أميال قليلة باتجاه الغرب على الضفة الايسرى للفرات عاصمة له بعد أن كانت قد تجلت الاهمية التاريخية لخصر وادي الرافدين هذا . وكانت هذه المدينة تحكم من قبل « إنسي » على الاقل خلال فترة سلالة اور الثالثة غير أنها لم تلعب أبدا أي دور سياسي في مجريات الامور السومرية . كان اسم هذه المدينة باللغة السومرية (كا ـ دنگر ـ را) واسمها الاكدي (باب ـ إيليم) وكلاهما يعني « باب ـ الإله » . أما نحن فنسميها «بابيلون» (بالعربية بابل) نقلا عن اليونانيين . وكان واضحا منذ البداية أن حكام بابل الاذكياء المتحمسين مصممون بقوة على جعلها ليست مجرد مدينة كبيرة غنية فحسب بل وعاصمة للبلد بكامله . وقدمت لهم الخرب المستعرة بين إيسن ولارسا ، وتعدد الممالك الآمورية الصغيرة ، كل الاعذار التي كانوا يبتغون . ولقد توجب على الملوك الخمسة الاوائل من سلالة بابل الاولى الصبر الجميل مدة ستين سنة ، واستخدام الوسائل الدبلوماسية حينا والقوة والعنف أحيانا أخرى ، حتى استطاعوا أخيرا فتح بلد أكد قطعة فقطعة . ولدى اقترابهم من نفر ـ وهي مفتاح بلد سومر ـ جوبهوا بأقوى مقاومة أعدها لهم الامراء الاجانب الذين أصبحوا الان حكاما على لارسا .

لم يدع العيلاميون ، مثلما نعرف جيدا ، أية فرصة سانحة للتدخل في شؤون وادي الرافدين تمر دون استغلالها في الحال . فما أن أصبح عرش لارسا شاغرا ، اثر مقتل « سيلّي ـ أدد » في الحرب مع بابل بعد أن قضى في الحكم فترة وجيزة ، حتى سارع « كودور ـ مابوك » ـ وهو قائد عيلامي كان يتسيد القبائل الآمورية القاطنة بين دجلة وجبال زاگروش ـ باحتلال لارسا وتنصيب أحد أولاده ملكا عليها مكتفيا باحتفاظه لنفسه بلقب [أبو (=حامي) أمارتو] . والغريب ان ابني « كودور ـ مابوك » ـ وهما « واراد ـ سن »

(=خادم سن) و « ريم ــ سن (=ثور سن) ــ اللذان حكما مدينة لارسة بالتعاقب ، كانا يحملان اسمين ساميين وليسا عيلاميين • والاغرب من هـذا أن هذين الحاكمين الاجنبيين المستوردين حديثا قد تصرفا في كـل المجالات كملكين عراقيين أصيلين فشيدا ما لا يقل عن تسعة معابد ودزينة من النصب المهمة في مدينة اور وحدها فقط • وفي عصور أخرى ؛ كان بامكانهما أن يكونا حاكمين مسالمين كبيرين بمنزلة اور ــ نمو على سـبيل المثال ، ولكـن أنّى للسلام أن يعم بلد سومر ومملكة إيسن ما تزال متربصـة وبابـل في أوج نشاطها ؟ واستطاع « ريم ــ سن » هزم ائتلاف خطير يتزعمه منافسه البابلي، كما احتل في عام (١٧٩٤ ق • م) مدينة إيسن فأسقط أخيرا أقدم أعـداء لارسا • بعد هذا التاريخ بسنتين ، اعتلى حمورابي العرش في بابل •

الى هذا الحد ، يتوجب علينا ترك الجنوب لبعض الوقت ، وتوجيـه اهتمامنا نحو القسم الشمالي من العراق • ونقف هنا أيضا بمواجهة « الممالك المتحاربة » في تنافسها الحاد مع بعضها وان تباينت في ذلك الصراع الخلفيـة الحضارية والدوافع السياسية والاقتصادية •

اشنونا ، آشـور ، ومـاري

تقع أشنونا (تل أسمر) بين نهر دجلة وجبال زاگروس شرق نهر ديالى بعشرة أميال • وكانت حلقة وصل على الطريق الواصل بين القسم الشمالي من وادي الرافدين وبلد عيلام ، لذلك فقد أصبحت عرضة للتأثير الحضاري من قبل هاتين المنطقتين • فعلى الرغم من وقوعها ضمن منطقة الحضارة السومرية ــ الاكدية ، الا انها احتفظت بعلائق وثيقة مع البلـدان الشمالية فكان إلهها الرئيسي « تشباك » يتشابه مع الإله الحوري « تشب » ؛ كما كانت لها مع بلد عيلام صلات اقتصادية وحضارية متينة أيضا(9) • لذلك لم تكن الصدفة وحدها هي التي جعلت أشنونا تصبح ــ مـع سوسـه ــ أول دولـة مدينة تنفصل عن اور في السنة الثانية من حكم « أبي ــ سن » (٢٠٣٨ ق • م) •

وطبقا لمعلوماتنا ، كان الانتقال الى الاستقلال سريعا ، اذ أطلق حكام أشنونا على انفسهم لقب (خادم الاله تشباك) بدلا من (خادم ملـك اور) ، وأبدلوا أسماء الاشهر والسنين السومرية بأسماء محلية • كما أحيط معبد العاصمة الذي كان قد أقيم لملك اور المؤله « شو ـ سن » ـ بجدار دائري ، وشيد بجانبه قصر كبير ، واستبدلت اللغة السومرية باللغـة الاكديـة في المدونات الرسمية • وطفق حكام أشنونا الاوائل ـ الذين كانوا يحملون أسماء سامية أو عيلامية ـ يوسعون رقعة مملكتهم لتتجاوز بسرعة حدودها الاصلية • فقاموا بمساعدة المجاميع الآمورية ، باحتلال كامل وادي نهر ديالى الاسفل ، بضمنه المركز المهم لمدينة « توتوب » (خفاجي) ، وربما امتدت سلطتهم أبعد نحو الشمال لتشمل منطقة كركوك ايضا • وينسب بعض الاساتذة الى أحد هؤلاء الحكام ـ وهو المدعو « بلالاما » ـ « قانونا » كتب بالاكدية يسبق شريعة حمورابي بقرنين (كان « بلالاما » معاصرا لملك إيسن الثاني) ويتشابه معها في عدة نقاط • والجدير بالذكر أن « قوانين أشنونا »(10) لم تكتشف في تل أسمر بل في تل حرمل الصغير الواقع في أطراف بغداد والذي نقب فيـه علماء الآثار العراقيون بين الاعوام (١٩٤٥ـ١٩٤٩ م)(11) • كان تل حرمل (ويدعى قديما « شادوپوم ») المركز الاداري لمقاطعة زراعية تابعة لمملكـة أشنونا جرى فيه الاحتفاظ بنسخة من القوانين الملكية في « قاعة المدينة » للرجوع اليها وقت الحاجة بسهولة • ولقد أعطى هذا الموقع عددا من الرقم المهمة وخصوصا القوائم التاريخية والمسائل الرياضية •

اعقبت عهد حكم بالاما فترة من النكسات المستمرة حيث اجتاح أشنونا ملك « دير » (بدره الحالية التي تبعد زهاء خمسة وستين ميلا عن تل أسمر)، كما هزمها بعد ذلك حاكم كيش مجردا اياها من أغلب ممتلكاتهـا • غير أن « موسع أشنونا » (وهو اللقب الذي يطلقه على نفسه حاكمها « أبيق ـ أدد الثاني ») استطاع اخيرا اعادة مجد المملكـة ، كما ابتدأ في حوالي عـام

(١٨٥٠ ق ٠ م) فتـرة جديدة من التوسـع الاقليمي تم خلالهـا احتلال « رابيقوم » على الفـرات (منطقة قرب الرمادي) ، وآشور علـى دجلـة ، و «قبره» في سهل أربيل ، و «أشناكّوم» على نهر الخابور ٠ وتعطينا مواقع هذه المدن انطباعا واضحا بأن ملوك أشنونا قد استهدفوا الهيمنة على كامل وادي دجلة والجزيرة العليا وأقدام جبال كردستان ، وتأسيس رأس جسر على الفرات لتأمين سيطرة مؤثرة على طرق التجارة الكبيرة التي تصل الشمال والشـرق بعاصمتهم في مسارها العام نحو سوسه ٠ ولكن احتلال تلك المدن لم يدم أكثر من فترة وجيزة ، كما فشلت الجهود المستميتة التي بذلها حكام أشنونا المتأخرون لاعادة سيطرتهم على المناطق السابقة ، واصبحت أشنونا الآن محاطة من قبل اربع ممالك قوية هي بابل ولارسا وآشور في الشمال ، وماري في الغـرب ٠ ولقد شكلت كل تلك الممالك حاجزا لا إختراق له أمام طموحاتها في أقامـة حدود آمنة ٠

كان تأسيس المملكة الآشورية وارتقاؤها الى قوة عسكرية وسياسـة عظيمة حدثا كبيرا في هذه الفترة الغنية بالتطورات الجديدة ٠ تقع مدينـة آشور(12) (أو « آش ـ شور » إن توخينا الدقة)(*) في موقع ستراتيجـي منيع حيث شيدت فوق تلة تطل على نهر دجلة في أعلى النقطة التي يدخل فيها النهر منطقة الفتحة مخترقا جبال حمرين ٠ ولقد تكفل النهر الكبير بحمايتها من جهة وإحدى القنوات من الجهة الثانية ، كما امتازت تحصيناتها بالمتانـة فسيطرت بذلك على الطريق الذي يصل بلاد سومر وأكد بكردستان، او بمنطقة الجزيـرة العليـا ٠ كـان سـرجون ونـرام ـ سـن وملـوك اور قـد احتلوا بالتعاقب هذه المنطقةالستراتيجيةالتي تمتد جذور انشائها الى عصر فجر السلالات ، او ربما قبله ٠ وليس هناك مايثبت ان آشور قد استطاعت الظفر

(*) تطلق المدونات القديمة اسم « آشور » على المملكة وعلى إلهها ايضا . (المؤلف) . وطبعا على مدينة آشور لذلك (المترجم) .

باستقلالها قبل الثاني ق • م • ولكن المعادل الشمالي لقائمة الملوك السومريين ـ وهـي قائمـة الملوك الاشوريين الكبيرة ـ (اكتشفت في خرسباد وعني بنشرها « أ • پويبـل A. Poebel » عام ١٩٤٢)(13) تعطينا سلسلة من سبعة عشر ملكا الذين يجب ان يكونوا قد عاشوا منذ عصر فجر السلالات ـ هذا اذا سلمنا بالقيمة الظاهرية للقائمة • ولكن السلالات المسجلة بالتعاقب هنا مثلما هو الحال أيضا في القائمة السومرية ـ يمكن ان تكون قد حكمت في واقع الحال بالتوازي • وتذكر لنا هذه الوثيقة ان هؤلاء الملوك قد عاشوا في خيام ، وهذا يمكن ان يعني أنهم لم يكونوا حكاما فعليين لمدينة « آشور » بل كانوا مجرد رؤساء لقبيلة مهمة ما تسكن المنطقة المجاورة لتلك المدينة • ومما هو جديـر بالملاحظة أيضا أن أسماء عدد من الملوك الآشوريين الاوائل ـ مثل « توديا »، « اوشپيا » ، « سوليلي » ، أو « ككيا » ـ لم تكن سامية ولا سومرية ، بل تعود الى مجموعة عرقية ثالثة لعلها الحورية •

نالت مدينة آشور استقلالها اثر سقوط الامبراطورية السومرية مثـل العديد من المدن غيرها • ويستهل « پزُر ـ آشور » الاول ـ الذي يجب ان يكون قد حكم في حوالي عام (٢٠٠٠ ق • م) ـ خطاً جديدا من الملـوك ممن يحملون أسماء أكدية أصيلة نحو : « سرجون » أو « نرام ـ سن »(14) • ولقد خلف ملكان منهم ـ وهما « إيليوشومـا » و « أريشـوم » الاول ـ مدونات تشير الى أنهما قد شيـدا معابـد للالهـة « آشـور » و « أدد » و « عشتار » في المدينة •(15) وبالاضافة الى ماسبق ، فان الملك « إيليوشوما » الاول يعرف بكونه قد توغل عميقا في منطقة جنوب العراق خلال عهد حكم «إشمي ـ داگان» لولاية إيسن (١٩٥٣ ـ ١٩٣٥ ق • م) •(16) وربما كانت هذه هي الفترة التي تم خلالها توسيع رقعة المملكة الجديدة لتشمل مدينـة نينوى التي تبعد مسافة ستين ميلا شمال « آشور » • غير ان الساميين الغربيين ، الذين تدفقوا بأعداد هائلة صوب شمال العراق خلال القرون الاولى

للالف الثاني ق • م مثلما فعلوا في الجنوب ، كانوا هم المؤسسين الحقيقيين للقوة الآشورية الضاربة • فقد نصب رئيس احدى القبائل الامورية ــ واسمه «هاله» ــ خيام قبيلته في مكان ما بين نهر الخابور ودجلة ، وحكم خلفاؤه تحت حماية الملوك الاكديين ــ على آشور حتى قام أحدهم ــ وهو « إيلا ــ كبكابو» ــ بالاستقلال بالمدينة واعتلاء عرشها • وفي نفس هذا الوقت تقريبا ، أصبح قائد آموري آخر ملكا على مدينة ماري الواقعة على نهر الفرات • ومن هنا فصاعدا ستتشابك مصائر هاتين المملكتين الشماليتين ببعضهما الاخر •

يعرف القارىء مدينة ماري جيدا ، ولا نحتاج هنا الى تقديم تقرير مفصل عن تاريخها الطويل • يكفينا تتذكر ببساطة أن سلالة منها قد استطاعت ، كما يشاع ، حكم بلد سومر لفترة تنيف على المائة عام وذلك في غضون عصر فجر السلالات ، وانها ــ أي ماري ــ قد أحتلت من قبل سرجون الاكدي في مساره نحو شمال سوريا ، كما كانت مدينة اقليمية مهمة في عهد مملكة اور حيث كانت بعهدة « شاكنّا ناكو » نشيط • ونواجه بعد هذا فجوة تاريخية مؤسفة حتى حوالي عام (١٩٠٠ ق • م) عندما احتلها الساميون الغربيون ــ الذين ربما كانوا قد هاجروا اليها من حلب ــ واتخذوها عاصمة لمملكة امتدت رقعتها على طول نهر الفرات من الخابور وحتى مدينة عنه • كان اول ملوك سلالة ماري الآمورية المدعو « إياجد ــ ليم » معاصرا لئيلا ــ كبكابو الذي تبادل واياه ، كما يذكر لنا ، « أيمانا موثقة » •(17) ولكن تلك الصداقة انفرط عقدها في النهاية حيث جرى تحطيم « حصن » إياجد ــ ليم وتوجب على ابنه « إياحدون ــ ليم » اللجوء الى الحرب كي يستعيد السيطرة على المملكة • ولم يمض طويل وقت حتى انغمس حاكم ماري الجديد بفتوحات عسكرية طموحة اوصلته الى شواطىء البحر الابيض المتوسط :

« قهر البلد على ساحل (المحيط) وجعله يطيع اوامره وأجبره على اتباعه • وفرض عليه ضريبة كانت تسلم بانتظام •»(18)

ولابد لهذا النجاح الكبير ان يكون قد أثار غيرة الآشوريين • ولكن « إياحدون — ليم » مالبث أن اغتيل من قبل خدمه أنفسهم ، ولا نعرف مدى مسؤولية الآشوريين عن ذلك ، ولكنهم سارعوا لانتهاز تلك الفرصة لوضع أيديهم على ماري •

شمشي — أدَدْ الاول وابناؤه

بدأ الرجل الذي الحق ماري بمملكته وبنى ما أصطلح على تسميتها بالامبراطورية الآشورية الاولى — وهو « شمشي — أدد (أو « آدو ») » الاول (١٨١٤ — ١٧٨٢ ق • م) — حياته السياسية كطريد للعدالة •(19) فبعد أن اعتلى شقيقه المسمى « أمينو » العرش خلفا للملك إيلا — كبكابو ، لاذ شمشي أدد بالفرار الى الجنوب وجمع جيشا من المرتزقة دخل به « أقلاطوم » (وهي مدينة لم يشخص موقعها لحد الان وتقع في وادي دجلة الاوسط وكانت تابعة الى أشنونا) ثم زحف على آشور واختطف صولجان الحكم من أيدي أمينو • وما ان تم تتويجه حتى قاد جيوشه غربا الى جبال لبنان المكسوة بالغابات ، والى البحر الذي يحد العالم (البحر الابيض المتوسط) مثيرا اعجاب كل الفاتحين في وادي الرافدين :

« نصبت مسلة حفر عليها اسمي العظيم في بلد لابان (لبنان) على ساحل البحر الكبير • »(20)

كما احتل شمشي — أدد الاول بعد ذلك مدينة ماري عقب مقتل « إياحدون — ليم » ووضعها بعهدة ابنه « إياسما — أدد » ، وعين ابنا آخر له (وهو إشمي — داگان) نائبا له على أقلاطوم ، فأحكم الآشوريون بذلك سيطرتهم على دجلة والفرات وحكموا كامل شمال وادي الرافدين تقريبا •

ليست هناك في الواقع سوى فترات قليلة في كل تاريخ العراق القديم تتميز بغزارة الوثائق المكتشفة عنها مثل فترة حكم شمشي — أدد وأبنائه •

ولا نستقي معلوماتنا من المدونات الرسمية الاعتيادية فحسب بل ومن وثائق اخرى موثوقة وعالية الدقة هي الرسائل المتبادلة بين الأمراء الثلاثة ، وبين إياسما ـ أدد والحكام الاخرين ، اضافة الى تقارير الموظفين المختلفين المرفوعة الى سادتهم والتي تستغرق كلها متن ما لا يقل عن ثلاثمائة رقيم تشكل جزءا من الارشيف الملكي الذي وجد في قصر ماري(21) . ومع ان هذه الرسائل لم تؤرخ عموما ويصعب لذلك ترتيبها في تسلسل زمني ، الا انها تلقي ضوءا نسبيا على طبيعة الانشغالات اليومية للحكومة ، وعلى العلاقات بين حكومات آشور وماري وأقلاطوم ، اضافة الى الشعوب والممالك والقبائل المختلفة المحيطة بهذه المدن . واخيرا ، وليس آخرا ، فان تلك الرسائل تقدم صورة أصيلة عن أخلاقيات الحكام الثلاثة ، فللمرة الاولى نجد أنفسنا ليس ازاء أسماء مجردة فحسب ، بل وبمواجهة شخصيات حية بكل مساوئها ومحاسنها . فنعلم ان إشمي ـ داگان ـ الذي جبل كمقاتل صنديد مثل ابيه شمشي ـ أدد، كان على استعداد دائم للنزول الى سوح المعارك، ويبعث لاخيه بأنباء انتصاراته بفخر كبير فيقول له « حاربنا في « شماناحي » واحتللت البلد بأكمله فقر عيناً ! » .(22) وفي مناسبة أخرى ، ينتهز إشمي ـ داگان الفرصة « لتأبط اخيه » فيكتب له :

« لا تكتب الى الملك . ان البلد الذي أمكث فيه أقرب الى المدينة ـ العاصمة . والامور التي تريد الكتابة عنها الى الملك ابعث بها الي كي أقدم لك المشورة .... »(23) .

وعلى العكس من إشمي ـ داگان ، يبدو لنا أخوه « إياسما ـ أدد » في ماري اميراً مطيعا ، رقيقا ؛ ولكنه كسول ومهمل وجبان أيضا . لذلك نجد أن أباه يكتب له موبخا .

« مازلت طفلا ، ولم تنبت اللحية على ذقنك ، ولم تفلح حتى الان ، وأنت في أوج شبابك ، في بناء « منزل « لك ... »(24)

أو مرة أخرى :

« وبينما يقوم اخوك هنا (بقتل « الداويدوم ») ، تقبع أنت هناك وسط النساء . انك الآن ذاهب بجيشك الى « قناتوم » فكن رجلا ! فكما يقوم أخوك ببناء مجد عريض لنفسه ، اجعل لنفسك أيضا ، في بلدك ، اسما عظيما ! »(25)

وهكذا نرى شمشي ـ أدد ، الاب الحكيم ، الخبيث بحنكة ، الدقيق واللطيف احيانا ، وهو يبعث بالنصيحة والتوبيخ او التهاني لاولاده جاعلا ماري تخضع لسيطرته الوثيقة ، تلك السيطرة التي كان يمكن لاي أمير آخر اكثر نضوجا من إياسما ـ أدد أن يجدها أمراً لا يطاق .

كان البدو ، المتواجدون بكثافة عددية كبيرة في منطقة ماري بشكل خاص(26) مصدر قلق دائم للحكام الثلاثة . كانت هناك داخل المملكة وحولها ثلاث مجاميع قبلية كبيرة هم : «الحانيون » ، و « بنو ـ أيامينا » ، و « السوتانيون » . كان الحانيون (حانو) ، الذين استوطنوا على ضفاف الفرات منذ فترة طويلة ، يشكلون ، مع الاكديين ، أغلبية السكان المحليين حيث استقروا في قرى او مخيمات تحت إمرة شيوخهم وأعيانهم . وقد أُخضعوا بين آونة وأخرى لعمليات التعداد السكاني ، كما كان الشباب منهم ينخرطون في خدمة الجيش الملكي ـ حيث كان يعجب بميزاتهم العسكرية « اذ كان همهم الوحيد هو كيفية استثمار أسلحتهم وقهر الاعداء »(27) وعلى الرغم من أن هؤلاء المجندين الاشداء قد قاموا غير مرة بخرق النظام وسلب القصور التي تناط بهم حراستها ، الا أن الحانيين لم يشكلوا معضلة مستعصية . غير أن الامر كان مختلفا مع «أبناء الجنوب» ، اي مع بني أيامينا(28) الكثيري العدد ، الذين دأبوا على الترحال على طول مسار نهر الخابور أو عبر الفرات . كان هؤلاء على استعداد دائم للغزو ، واستطاعوا التملص من السيطرة المركزية ، كما تفادوا التعداد الملكي والانخراط في الجيش النظامي . وبالاضافة الى هذا ، قاموا

في النهاية بمديد المساعدة الى ملك أشنونا ، والى غيره من أعداء الدولة الآشورية • وعلى الرغم من كل هذا ، فقد اتبع إياسما ــ أدد حيالهم سياسة لينة ، فاعطاهم الارض والمحاريث في زمن المجاعة ، واحتفظ معهم بعلاقات لا بأس بها • اما السوتانيون (السوتو) ، وهم اكثر تلك القبائل عددا ، فيبدون كعصابات عنيدة تهاجم القوافل والمدن وتغتصب مقاطعات بأكملها بحيث أصبح استخدام القوة ضدهم أمرا ضروريا بشكل دائم تقريبا •

كانت العلائق بين المملكة الآشورية والممالك الصغيرة حولها تختلف من مكان لآخر ، ويمكن كذلك القول من يوم لآخر • فكانت ، كقاعدة ، ممتازة مع الغرب (سوريا) ، فنعرف مثلا أن « أپلاحاندا » ملك كركميش (جرابلس) قد أرسل « خمراً ممتازا » وأطعمة وحليا وملابس جميلة الى (أخيه) إياسما ــ أدد مانحا اياه احتكار مناجم نحاس معينة تابعة له وعارضا عليه اعطاءه « كل ما يرغب »(29) • كما نقرأ أيضا أن إياسما ــ أدد قد أهدى القوارب للبدو من رعاة الاغنام في « إيا محد » (حلب) لعبور الفرات ، وتزوج بابنة حاكم « قطانوم » (قطنه) وارسل العساكر لمساعدته(30) • وبالمقابل ، فقد وضع حاكم قطنه مراعيه تحت تصرف رعاة إياسما ــ أدد ، واقترح عليه ان يذهب لزيارته • اما شعوب وقبائل شمال وشرق سوريا فقد كانت أقل وداً بكثير • فطوال العشرين سنة التي تغطيها المراسلات الملكية ، نجد شمشي ــ أدد متدخلا في « البلد الشمالي» ــ حوض البالخ والخابور ــ وقائدا الحملات تلو الحملات على طول وادي الزاب وحول كركوك ، بينما كان إشمي ــ داگان المتحمس يحارب قبيلة « توروكو » والحكام الصغار في أقدام جبال زاگروس •

وتظهر في كل هذه الحروب يد خفية لحاكم لا تذكره رسائلنا بأكثر من « رجل أشنونا » ، الذي يجب أن يكون « دادوشا » ، وكما يوحي لنا الامر ، فان ملوك أشنونا كانوا قد فتحوا مرة معظم بلاد « سوبارتو » (اي القطر الآشوري) وقسما من « البلد الشمالي » (الجزيرة) ، ولكن التوسع

الآشوري في عهد شمشي ــ أدد حرمهم من مقاطعاتهم الشمالية ، وقطع عنهم طرق التجهيزات • ولم يكن دادوشا بالرجل الذي يقبل بمثل هذا الوضع • فقام ــ وهو الملك الصبور القوي الارادة والقائد العسكري الممتاز والدبلوماسي المحنك ــ بشن الحروب ، واعداد المخططات المضادة طوال عهد حكمه ، وشكل خطرا دائما لإشمي ــ داگان جاره القريب • كان الصراع بين ذينك الحاكمين مستديما تقريبا حيث دأبت جيوش تضم عدة آلاف من الجنود من كلا الجانبين على عبور الحدود غير الواضحة بين الدولتين والتحرك بشكل سريع من أو الى الممر العريض المحصور بين دجلة وجبال زاگروس • وهكذا نجد الآشوريين يحتلون في وقت ما « مالگيئوم » (ربما كانت قرب كوت العمارة) في عمق أراضي العدو ، بينما قامت جيوش من اشنونا ، بالتعاون مع قبائل التروكو في كردستان ، بالظهور حول منطقة كركوك • ولقد كانت حتى مدينة ماري مهددة بخطر الاحتلال حيث كانت أنباء تقدم الاعداء على طول الفرات مصدرا للكثير من الفزع في العاصمة الغربية : « ابعث إلي بالعساكر الكثيرة فورا » كتب إياسما ــ أدد لاخيه « ان المسافة بعيدة ! »(31) • غير أن الدخان لم يتحول الى نار لاهبة مثلما كان يخشى ، وانقذت ماري من الاحتلال ، لان الآشوريين كانوا أقوياء في حوض الفرات ــ ودجلة أيضا ــ بما يكفي للجم طموحات أشنونا •

ونعرج أخيرا على بابل الجار القوي الثاني للملكة الآشورية • كانت علاقات الاخيرة مع بابل باردة على العموم ، وان كانت مهذبة حيث لم يكن « سن ــ مبلط » (١٨١٢ــ١٧٩٣ ق•م) ولا « حمورابي »(١٧٩٢ ــ ١٧٥٠ ق • م) ، وكلاهما معاصر لشمشي ــ أدد ، قد وجه اهتمامه صوب الشمال • ولذلك نرى ان شمشي ــ ادد يبعث الى حمورابي رقما مستنسخة بناء

على طلب الاخير ، ونرى كذلك أن إياسما ـ أدد يتكفل باعادة قافلة كانت قد تأخرت في ماري ، وسجينا تروكيا كان قد هرب طالبا الحماية في تلـك المدينة(32) • ولا نشعر بوجود ظل للقلق من حمورابي الا في رسالة واحدة حيث يبدو أن إياسما ـ أدد قد بلغته معلومات عن بعض المشاريع المعادية المخططة من قبل « رجل بابل » ، ولكن أحد موظفيه يطمئنه ، بعد التحري قائـلا :

« ليهنأ قلب مولاي الان لان رجل بابل سوف لن يؤذي مولاي » •(33)

الا ان حمورابي سيقدم بالفعل على احتلال وتدمير مدينـة ماري بعد هذا التاريخ بثلاثين سنة •

الفصل الثاني عشر

حمورابي

ان الانتصار على أربعة ملوك أقوياء ، وتوحيد وادي الرافدين يكفيان بحد ذاتهما ، كمنجزين عظيمين ، لتميز حمورابي كواحد من أعظم ملوك وادي الرافدين • ولكن حمورابي كان يجمع بين صفات القائد العسكري الناجح والسياسي المحنك ـ كما تكشف عن ذلك أساليب معالجته لمنافسيه السياسيين ـ والملك العادل الذي يتوازى عنده حب العدل مع شدة القصاص • وترينا مدوناته اهتماما أصيلا بازدهار رعيته ، واحتراما عميقا للميراث الحضاري لبلد كان ، قبل كل شيء ، أجنبيا بالنسبة له • كما تثبت رسائله(1) بأنه ، وهو الملك الذي ينحدر من سلالة أحد الشيوخ الآموريين ، كان بمقدوره ادارة مملكته المترامية الاطراف بذات العناية والاهتمام البالغ بالتفاصيل الذي يميز عهود حكم أمراء دويلات المدن السومرية • ولقد أعادت فترة حكم حمورابي الطويلة والمجيدة الوحدة والسلام الى البلد

مرة أخرى ، وارتفعت مكانة بابل الى مرتبة المدينة ـ العاصمة وتكرست سيطرة الساميين على وادي الرافدين • وتتضافر الانطباعات عن القوة الاخاذة التي تكشف عنها الاعمال الفنية(2) لهذا العهد ـ ودرجة الكمال الرفيع التي بلغتها اللغة(3) الاكدية ، وحتى عملية اعادة الترتيب المصطنعة والكبيرة في هيكل الآلهة السومرية ـ الاكدية، لكي تجعل من الثلاث والاربعين سنة هذه (١٧٩٢ـ١٧٥٠ ق • م)(4) مرحلة ذات أهمية حاسمة في تاريخ العراق القديم • وليس هناك من شك في أن عظمة شخصية الملك حمورابي السياسي والمشرع تستحق ان يولى لها اهتمام خاص في هذا المكان •

رجل السياسة حمورابي

عندما تسنم حمورابي العرش ، كانت تركة أبيه « سن ـ مبلط » له لا تزيد على مملكة صغيرة نسبيا لا يتجاوز طولها ثمانين ميلا وعرضها عشرين ميلا تمتد من سپار الى ماراد (أي من الفلوجة الى الديوانية بالاصطلاحات الحالية) ، تحيطها من كل الجهات دول أكبر مساحة وأقوى ملوكا • ففي الجنوب كان يحكم ريم ـ سن ملك لارسا الذي استطاع ، قبل سنتين فقط، الاستحواذ على إيسن واضعا بذلك نهاية لعهد حكم السلالة المنافسة له (١٧٩٤ ق • م) وليضمن السيادة على جنوب العراق بأكمله • والى الشمال، كانت تتطاول في الافق ظلال ثلاث ممالك قوية في ماري وأقلاطوم وآشور وكلها في قبضة شمشي ـ أدد وأبنائه • وفي الشرق على الجهة الاخرى من دجلة ، كان دادوشا حليف العيلاميين ما يزال يحكم في أشنونا • ولم يكن ملك بابل الجديد أقل تصميما من أجداده في توسيع رقعة مملكته ، ولكنه آثر التريث فترة خمس سنين قبل أن يقوم بحركته الاولى • فبعد أن أمن على ثبات عرشه في بابل ، شرع حمورابي بمهاجمة منافسيه في ثلاثة محاور : فاحتل ايسن وتقدم على طول نهر الفرات جنوبا حتى بلغ اوروك في سنة حكمه السادسة • ثم حمل على « ايموتبال » (بين وادي دجلة وسلسلة

جبال زاگروس) فاستحوذ على المفتاح الذي يؤدي الى الهيمنة على مقاطعة « مالگوم » (أو ملكيئوم) وذلك في سنتي حكمه السابعة والتاسعة • كما قام في سنة حكمه العاشرة باحتلال « رابيقوم » شمال سپار • ومن ذلك ذلك التاريخ ولعشرين سنة متعاقبة بعد ذلك ، كرس حمورابي جل وقته لتزيين المعابد وتحصين المدن(5) •

ولا شك أن تلك السلسلة الخاطفة من العمليات العسكرية الناجعة قد أثارت حفيظة ريم ــ سن و « أبال ــ پي ــ إيل » الثاني الذي خلف دادوشا عام (١٧٩٠ ق • م) ، ولكننا لا نمتلك أية وسيلة نعرف من خلالها كيف انتقم هؤلاء لنفسهم • أما بالنسبة للآشوريين ، فكان بامكانهم أن يغتبطوا لانكسار (رجل أشنونا) لو لم يكونوا منشغلين بمشاكل أكثر أهمية حيث توفي شمشي ــ أدد في السنة السابعة من حكم حمورابي (١٧٨٦ ق • م) تاركا العرش الى أقدر أبنائه وهو إشمي ــ داگان • وكان إياسما ــ أدد الضعيف لم يزل واليا على ماري لدى تسنم أخيه عرش المملكة • ولدينا رسالة موجهة من الملك الجديد الى أخيه يؤكد له فيها أن مركزه سوف لن يتغير وانه ، أي إشمي ــ داگان ، سيقدم له الحماية والعون:

« دع عنك القلق فان عرشك هو ملكك قطعا وأنا أمسك بيدي (الآلهة) أدد وشمش • لقد لجمت شعب عيلام ورجل اشنونا فلا تخف • وستجلس على عرشك الى الابد ما دمنا نحيا سوية ؛ فدعنا نتبادل الايمان المغلظة للآلهة ونلتقي معاً فنعمر بيننا اخاء دائما »(6) •

ولكن ، وبعد مضي أشهر معدودات على ذلك ، تمت الاطاحة باياسما ــ أدد من قبل أمير من السلالة «الوطنية» لماري يدعى «زمري ــ ليم» وهو نجل إياحدون ــ ليم ــ الذي نجح في « اعتلاء عرش أبيه »(7) بمساعدة ملك حلب •

ما تزال الاراشيف الملكية لمدينة ماري ــ وهي التي أفادتنا كثيرا في الفترة السابقة ــ المصدر الرئيسي للمعلومات عن فترة حكم زمري ــ ليم ، وعن كامل عهد حكم حمورابي كذلك تقريبا(8) • فعلى الرغم من الحقد الاكيد الذي كان يضمره زمري ــ ليم للمغتصب الآشوري لعرش أبيه ، الا أنه كان حكيما بدرجة كافية للابقاء على مراسلات سلفه ، كما اتبع ، من الناحية الجوهرية ، نفس سياسته ؛ فشن بعض الحملات لتأكيد سلطته على (البلد العلوي) [الخابور والبليخ] ، واتبع مع البدو سياسة أحزم من سياسة سابقة فكبح جماح بني ــ أيامينا(9) • وفي عهده أصبحت العلاقات مع الغرب ودية أكثر من السابق حيث قام السفراء والرسل الوافدون من الممالك السورية بزيارة مدينة ماري بانتظام ، كما قام زمري ــ ليم بزيارة حلب بنفسه وكرس هناك نصبا للإله « أدد » حاميها (10) • وفي الوقت الذي لا يمكن أن تتوقع فيه أبدا قيام علائق ودية بين ماري وآشور ، ولكن ليس هناك ما يثبت أن إشمي ــ داگان قد حاول أبدا اسقاط زمري ــ ليم انتقاما لاخيه • وقد اقتصرت الاعمال المعادية بينهما على اجتياح مدينة أو مدينتين على الحدود قام خلالها جند أشنونا بمساعدة الآشوريين(11) ــ الامر الذي يجعلنا نعتقد بان إشمي ــ داگان قد استطاع أخيراً في ان يجعل من أحد أعدائه التقليديين حليفا مثابرا في هذا الصدد • وعلى أية حال ، فقد كان « رجل أشنونا » ــ الذي سيطر على القطر الشمالي ووجه حملة الى منطقة «حرّان»(12) ــ اخطر على عرش « زمري ــ ليم » من بقية جيرانه الشرقيين •

كانت تحركات حاكم أشنونا وحلفائه من العيلاميين تقابل بقلق متساوٍ من قبل أفضل أصدقاء زمري ــ ليم وهو الملك حمورابي • ولما كانت بابل وماري تشتركا في السيادة على حوض الفرات ، لذلك فقد كان بوسع أي من حاكميها أن يربح الكثير اذا ما اختار السير يداً بيد مع زميله

الثاني • وكان سفير زمري ــ ليم في بابل يواظب على اطلاع سيده على كافة الامور والاحداث المهمة الحاصلة في تلك المملكة • وفي المقابل ، كان الرسل البابليون يواصلون احاطة حمورابي علما بكل الاخبار التي تطرق مسامعهم في ماري • ويبدو أن «جهاز المخابرات» هذا كان يعمل بمعرفة ورعاية حاكمي المملكتين بأنفسهما • وكانت العلائق بينهما قد توطدت كثيرا فكانا يعيران العساكر لبعضهما البعض ــ حيث استدعي الجنود مرة من مدينة حلب لنجدة بابل(13) ويتبادلان تقديم الخدمات الصغيرة والكبيرة المتنوعة من النوع الذي يتوقعه المرء من جار صالح • ولكن ، وفي ضوء الحوادث التالية ربما كان موقف حمورابي أقل نزاهة مما يبدو ، كما يمكن أن يكون الاخير قد عمد الى استغلال حليفه لتقوية مركزة فحسب • وشيئا فشيئا تبرز من هذه الارشيفات غير المؤرخة شخصية سياسي داهية ، صبور ، ومتقلب ، يحالف أشنونا حينا ويعاديها حينا آخر ؛ يحارب ريم ــ سن مرة(14) ويتفاوض معه أخرى ، وفي غضون كل هذا ، نجده مراقبا للوضع أكثر منه متحركا حيث كان ينتظر الوقت المناسب لتوجيه ضربته بعد تأكده من الانتصار سلفا •

ويبدو أن الفرصة الثمينة قد سنحت له أخيرا في سنة حكمه التاسعة والعشرين ــ ولعل هذا كان أكثر تبكيرا مما كان حمورابي قد توقع لنفسه ــ عندما هوجمت بابل من قبل تحالف « عيلامي ــ كوتي ــ آشوري ــ آشنوني » مشترك حسب ما تقول كتاباته :

قام القائد الاثير عند مردوخ ، بعد ان دحر الجيش الكثيف الذي أعده العيلاميون •••• ، السوبارتو (الآشوريون) ، الكوتيون ، وأشنونا وملكيئوم ، بارادة الالهة العظيمة بتوثيق أسس سومر وأكد •)) (وصفة السنة الثلاثين من عهد حكمه)

وفي السنة التالية (١٧٦٣ ق٠م) بادر حمورابي بالهجوم على لارسا ـ يشجعه في ذلك « وحي » فأطاح بريم ـ سن الذي كان يسميه احتقارا « ملك إيموتبال » [كانت إيموتبال الموطن الاصلي لعائلة ريم سن] والذي حكم لارسا لمدة (٦٠ سنة) وهي أطول فترة حكم مسجلة في تاريخ وادي الرافدين ٠

وفي سنة حكمه الحادية والثلاثين تشكل حلف جديد ضده يضم قوى الاعداء السابقين المدحورين أنفسهم ٠ هذه المرة لم يكتف حمورابي « بهزم جيشهم » فقط بل وتقدم « على طول ضفة نهر دجلة » حتى « حدود سوبارتو » ٠ وكان هذا يعني ببساطة نهاية مملكة أشنونا ٠

أصبح حمورابي الآن سيدا على جنوب ووسط وادي الرافدين ، ولكنه لم يكن بالرجل الذي يقبل التوقف عند هذا الحد ٠ ولابد انه كان يحلم بامبراطوريات أكد واور العظيمة عندما قرر مهاجمة صديقه العتيد زمري ـ ليم :

> **« أسقط ماري وملكيئوم حربا ، وجعل ماري و ٠٠٠٠ وكذلك عدة مدن أخرى تابعة لسوبارتو بموجب اتفاقيات ودية (تستمع) الى أوامره ٠ » (وصفه سنة حكمه الثانية والثلاثين) ٠**

وتعطينا الكلمات الاخيرة انطباعا بأن زمري ـ ليم لم يفقد عرشه بل اصبح حاكما تابعا لحمورابي ٠ ومهما تكن حقيقة الامر ، فان الجيوش البابلية مالبثت أن ارسلت من جديد بعد هذا التاريخ بسنتين ربما لاخماد عصيان محلي في ماري ٠ وقد عمد الجيش البابلي هذه المرة الى هدم سور المدينة ونهب قصر زمري ـ ليم الجميل واشعال النار فيه وتحول عاصمة الفرات الاوسط الى رميم ابدي عام (١٧٥٩ ق ٠ م) ٠

واخيرا ، وفي سنتي حكمه السادسة والثلاثين والثامنة والثلاثين ، نجح حمورابي في « دحر جيش سوبارتو (آشور) » و « هزم كافة أعدائه حتى بلد سوبارتو • » أما ما الذي كان يبيته حمورابي لآشور فهذا أمر لم تعرف تفاصيله بعد • الا ان السلالة الاشورية استطاعت في الحقيقة البقاء على العرش بهذا الشكل او ذاك وان كانت قد تقوضت سيادتها على شمال العراق •

هكذا ، وفي بحر عشرين سنة فقط ، إختفت جميع ممالك وادي الرافدين الخمس باستثناء واحدة هي مملكة بابل • وأصبح العراق الان أمة واحدة بقيادة البابليين • ويصعب علينا هنا البت في المدى الذي بلغته سلطة حمورابي • فقد وجدت مسلة تحمل اسمه قرب دياربكر في أقدام جبال طوروس ، ولكن عيلام وسوريا إحتفظتا باستقلالهما • ففي ذلك الوقت كان هذان البلدان أقوى مما كانا عليه أيام اور — نمو لذلك فقد كانت السيطرة عليهما تتطلب وقتا وقوة أكبر مما كان في متناول حمورابي • وأطلق العاهل البابلي على نفسه الالقاب « الملك العظيم ، ملك بابل ، ملك كل بلد آمورو ، ملك سومر وأكد ، ملك جهات العالم الاربع » مع أنه ، وهو الحكيم ، لم يحاول ابتغاء هيمنة مؤثرة على « كون » ذلك الزمان •

المشرع حمورابي

وبعد ان حقق وحدة وادي الرافدين بحد السيف ، قام حمورابي بتشريع مجموعة من القوانين الادارية والاجتماعية والدينية تستهدف مركزة حكومته على أمة تضم عدة مجاميع عرقية تتميز بتباين وتنوع قوانينها وعاداتها ، وبتعدد آلهتها ، وبتطبعها على الخصوصيات والتقاليد المحلية • كما استهدفت هذه الاجراءات غلق المنافذ بوجه أية مشاكل محتملة الوقوع لخلفائه في المستقبل • فأخضع جميع حكام الدويلات الى سيطرة مركزية حازمة مما ضيق مجال التصرف أمامهم ، ولكنه كان بعيد النظر بما يكفي

ليعهد الـى مجلس للشيوخ بحل جميع الامور التي تهم المدينة ، والبت بقضايا المحاكم الصغيرة وجباية الضرائب • وهكذا فقد امتلكت رعية حمورابـي ظلاً من الحكم المحلي على الاقل • ولقنونة سلطة سلالته وقطـع دابر أيـة محاولة يمكن أن تقوم في المستقبل لادعاء الملوكية على بلاد سومر وأكـد ، لذلك فقد لجأ حمورابي الى تدبير ذكي اذ رفع مقام إله بابل « مـردوخ » ـ الذي لم يكن وقتذاك ليزيد على إله من الدرجة الثالثة ـ(15) ليصبـح رئيسا على مجمع الآلهة متذرعا بان السيادة الالهية قد وهبتُ لمردوخ من قبل الالهين آنو وإنليل ، وانه ـ اي حمورابي ـ قد بعث من قبل هذه الآلهـة العظيمة « لتحقيق رفاه الناس » •(16) وقام رجال الدين ـ بناء على التعليمات الملكية ـ باعادة ترتيب أنساب الالهة بما يؤمن اسباغ خصال وصفات الآلهة العظيمة الاخرى على مردوخ • كما أعاد هؤلاء كتابة ملحمة الخليقة ليسبغوا على مردوخ دورا قائدا • غير ان المعتقدات الدينية السومرية ـ الاكدية لم تتغير مبدئيا اذ جرى بناء وترميم وتزيين المعابد في كل مكان ، وفي مدينـة نفر نفسها ، وفقا للتقاليد الملكية السائدة سابقا • وتم ، وبحـذر شديـد ، تجنب الاتيان بأية حركة من شأنها تأجيج الشعور الديني لدى السكان •

ان القوانين المشهورة التي شرعها حمورابي :

كي يعـم العـدل أرجاء البلـد

ولازهـاق الاشرار والازديـاء ،

ولكي لا يستطيع الاقوياء ظلم المستضعفين ،(17)

لم يعد بالامكان اعتبارها « اقدم شريعة في العالم » حيث أن بحوزتنـا الآن وثائق مشابهة لها تعود الى عهود اور ـ نمو ولبت عشتار ، وبلالاما ـ هذا اذا ما تجاهلنا اصلاحات اوروكاجينا • ولكن شريعة حمورابي تبقى أكثر تلك الشرائع كمالا ، لذلك فهي تستحق منا وقفة متميزة(18) • ويجدر بنا أن نؤكد

في هذا الصدد أن مصطلح «شريعة» من شأنه في الحقيقة أن يكون مضللا الى حد ما حيث لا نواجه هنا اصلاحا قانونيا شاملا ، ولا مجموعة متكاملة مسهبة من الارادات القانونية المرتبة منطقيا كالقوانين الجوستينية او القانون المدني لناپليون(*) . وفي الحقيقة لم يكن يسود سكان وادي الرافدين أي نظام معين باستثناء « القانون العرفي » الشائع المتوارث من عهد لآخر ، والذي جرى تحويره بين الفينة والاخرى ليلائم الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتجلية خلال فترة زمنية محددة . ولقد كان واحدا من أهم واجبات كل حكام العراق ـ على الاقل منذ عهد الملك اوروكاجينا ـ هو إقامة « الميشاروم » ، وهي الكلمة التي يمكن أن تترجم بـ « العدل » ، مع كونها قد غطت في الحقيقة عددا من الامور المهمة الاخرى كالايفاء بالديون والالتزامات ، وتثبيت الاسعار ـ وقد كان الاجراء الاخير وسيلة مؤثرة في تنظيم اقتصاد البلد . كان هذا هو المقصود مثلا بالعبارة الواردة في وصفة السنة الثانية من عهد حكم حمورابي والقائلة بأنه قد :

(*) جوستنيان (فلاڤيوس انيشيوس جوستنيانوس « العظيم ») امبراطور بيزنطي (٤٨٣ ـ ٥٦٥ م) قنن محلفوه شريعة باسمه ؛ اما قانون ناپليون المدني فقد نشر بين الاعوام (١٨٠٤ ـ ١٨١٠ م) . ويتضح مما سبق الفارق الزمني الهائل بين شريعة حمورابي والقانونين المدنيين الروماني والفرنسي حيث تسبق شريعة حمورابي القانون الاول بنحو الفين وخمسمائة عام ، وتسبق القانون الثاني زهاء أربعة الاف عام . وعلى الرغم من كل هذا ؛ فان شريعة حمورابي لا تعدم امتلاك مباديء قانونية مشتركة مع أحدث القوانين البشرية (مبدأ القوة القاهرة ومبدأ عدم جواز التعسف في استعمال الحق الفردي) . كما ان طريقة تبويبها (تنقسم احكام الشريعة الى ثلاثة ابواب متميزة هي اولا : أصول المرافعات (المادة ١ ـ ٥) ، ثانيا : الصفقات (المادة ٦ ـ ١٢٦) ، ثالثا : الاحوال الشخصية (المادة ١٢٧ ـ ٢٨٢) تشبه تبويب القانونين المتأخرين المذكورين آنفا . وفي الحق فان شريعة حمورابي تعد مأثرة تاريخية وانسانية خالدة في حضارة العالم .

كما بقي لنا مثل طيب على إقامة العدل « عمل الميشاروم » في « مرسوم » أصدره الملك « أمّيصادوقا » أحد خلفاء حمورابي والذي نشر قبل بضعة أعوام .

ولقد عمد الملك الجديد حمورابي أول الامر الى تطبيق قوانين من سبقوه في معالجة كافة القضايا وذلك لضمان تأمين استمرارية للميراث الاجتماعي المحترم الذي كان يشكل في زمنه ، كما في كل الازمان الاخرى ، أحد المميزات الرئيسية لحضارة وادي الرافدين .(19) غير ان العديد من التغيرات الاجتماعية والاقتصادية المهمة مالبثت أن طرأت خلال عهده المديد ، الامر الذي استلزم تحوير وتعديل القوانين النافذة المفعول . واستجابة لهذه الضرورة ، فقد أصدر الملك أحكاما في جملة من المسائل والقضايا المنفصلة التي لم يسبقه اليها أحد من قبله . ثم جرى تدوين هذه القرارات الملكية « دينات شرّيم » وجمعت أخيرا مع بعضها لاستخدامها من قبل القضاة في المستقبل كمرجع ، فتكونت عند ذاك ما تسمى بشريعة حمورابي التي نمتلك لها عدة نسخ دونت على رقم طينية يمتد تاريخها من العصر البابلي القديم الى السلالة الكلدانية التي حكمت في القرن السادس ق . م .

وفي الفترة الاخيرة من عهده ، أمر حمورابي بتدوين أحكامه الملكية على مسلات وضعت في المعابد لتكون شاهدا على أن الملك قد قام فعلا بتنفيذ وظيفته المهمة «كملك للعدل » خير قيام ، وانه قد تصرف وفقا لما تعتمل به قلوب الآلهة . وتعتبر احدى تلك المسلات ــ التي وجدت في حالة ممتازة ــ عملا فنياً راقيا بحد ذاتها . وكانت هذه المسلة منصوبة أصلا في معبد الآلهة شمش في سپار ، ثم نقلها العيلاميون الى عاصمتهم سوسه كغنيمة حرب في القرن الثاني عشر ق . م . واكتشفت هناك من قبل الفرنسيين عام (١٩٠١ م) فنقلت الى متحف اللوفر بباريس . ويبلغ طولها ثمانية أقدام ، وقد صنعت من

حجر البازلت الملمع ، وشكلها شبه مخروطي . وفي قسمها العلوي نحت مشهد يمثل حمورابي في وضع الصلاة بمواجهة إله ما ـ لعله مردوخ او شمش اله الشمس والعدل ـ جالس على عرشه . أما بقية مساحة المسلة من الامام والخلف فهي مغطاة بأعمدة طويلة لنصوص محفورة بخط جميل ، ومكتوبة بلغة بابلية خالصة . ويلي المقدمة ، التي تحصي الاعمال الدينية التي قام بها الملك حمورابي ، مالايقل عن (٢٨٢)(20) قانونا يعالج مختلف الجنح والقضايا المتعلقة بالاعمال والتجارة والزواج والعائلة والملكية ، اضافة الى أجور وواجبات الحرفيين ، والمسائل المتعلقة بالزراعة والاجور ومعدلات التأجير وبيع وشراء العبيد . وتنتهي هذه القوانين بخاتمة طويلة تبتهل الى الالهة بانزال جام غضبها على كل من يشوه او يحرف نصوص « القوانين العادلة التي وضعها الملك القدير حمورابي . »

ويظهر من هذه الشريعة ، ومن وثائق متنوعة أخرى ، أن المجتمع البابلي كان منقسما الى ثلاث طبقات هم الاحرار (أويلو) ، المشكينو ، والعبيد (واردو) . ومصطلح المشكينو غير مترجم هنا ، وقد اقترحت عدة معادلات لغوية له نحو « العامّي » ، أو « الفلاح نصف الحر » أو « الفقير » (قارن لفظة « المسكين » بالعربية)(*) . غير أن هذا المصطلح يبدو وكأنه كان يعني في الحقيقة نوعا من التابع الحكومي الذي كان عرضة لالزامات وواجبات خاصة يحصل في مقابلها على امتيازات خاصة(21) . أما العبيد فقد كانوا يتخذون من بين أسرى الحرب واولادهم ، وكذلك من بين الاحرار الذين أفلسوا فباعوا أنفسهم أو أطفالهم لدائنيهم . وكانت تحلق رؤوس اولئك العبيد

(*) معنى المسكين بالعربية مختلف فيه . يقول ابن السكيت : (الفقير) الذي له بُلْغَة من العيش و (المسكين) الذي لاشيء له . ويقول الاصمعي : المسكين أحسن حالا من الفقير . ويقول يونس عكس ذلك . وفي الحديث « ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان وانما المسكين الذي لايسال ولايُفطَنُ له فيُعطى » . مختار الصحاح للرازي .

وتعلم باشارة مميزة • ويعتبر العبيد ملكا لاسيادهم ، ويعاقب بشدة كل من يساعد او يعيل الهاربين منهم • ولكن حالتهم لم تكن ميئوسا منها مثلما قد يتبادر الى الذهن حيث كان من الممكن فك رقابهم او تبنيهم من قبل أسيادهم ، كما وتتملكنا الدهشة عندما نعلم أن بعضا منهم على الاقل كان له حق الملكية ، وحتى الاقتران ببنات الاحرار (المادتان ١٧٥–٦) • وكانت الاجور والعقوبات تتغير بتغير المركز الاجتماعي • فمثلا ، كان سعر عملية جراحية تنقذ حياة المريض من الموت مثبتا بعشرة شيقلات من الفضة للاويلم ، وبخمسة شيقلات للمشكينو ، وبشيقلين للعبد (المواد ٢١٥–٢١٧) • و « اذا فقأ شخص عين رجل حر فيجب أن تفقأ عينه » ، ولكنه « اذا فقأ عين او كسر عظم أحد أفراد (طبقة) المشكينو فيترتب عليه ان يدفع « مانا » من الفضة » (يساوي الـ « مانا » ١–٢ پاوند) ، وفي حالة العبد يترتب على الجاني دفع نصف قيمته (المواد ١٩٦ ، ١٩٨ ، ١٩٩) • وجرى استبدال عرف التعويض بالنوع أو بالمال – الذي كان يشكل أساس نظام العقوبات السومري – ولو جزئيا ، بالموت او بالتشويه والقصاص الجسدي • وفي حالة كون المجني عليه ، أو المدعي ، رجلا من طبقة الاحرار ، فان قانون الثأر المريع كان يجري تطبيقه عادة على الجاني حتى وإن كان جرمه غير مقصود البتة • فمثلا :

> **« اذا اجرى جراح عملية كبرى على رجل حر بمبضع من البرونز وتسبب في موت الرجل •••• فيجب قطع (بتر) يده • » (المادة ٢١٨)**

وكذلك :

> **« اذا شيد معماري بيتاً لرجل حر ولم يتقن عمله فانهدم البيت الذي بناه وتسبب في مقتل صاحبه ، فيجب قتله • (المادة ٢٢٩)**

ولكن إنهدام البيت إذا :

« تسبب في مقتل عبد المالك فعليه (أي المعماري) تقديم عبد مقابله لمالك البيت . » (المادة ٢٣١)

وعلى الرغم من ان قوانين شريعة حمورابي تبدو لنا الآن جد صارمة ، الا أنها تقترب في تفصيلات عديدة ، وبشكل يبعث على الدهشة ، مع تصورنا الحديث للعدالة . فالقوانين المتعلقة بشؤون العائلة والملكية بشكل خاص تمثل جهدا رائعا لحماية النساء والاطفال من المعاملة التحكمية والبؤس والاهمال . واذا كانت العقوبات قاسية هنا ايضا ، الا ان تطبيقها كان يخفض بتقديم التماسات العفو والظروف المخففة . كان زنا الزوجة يعاقب بالموت ، ولكن كان بوسع الزوج أن يغفر لزوجته وللملك عاشقها ، فينقذون بذلك من أن يجري « شدهما مع بعضهما وقذفهما في مياه النهر » (المادة ١٢٩) . ولا يعاقب القانون زوجة سجين تدخل — أثناء غياب زوجها — بيت رجل آخر اذا ما اضطرت الى ذلك بسبب « عدم وجود شيء تأكله في بيتها » (المادة ١٣٤) . وكان بوسع الرجل أن يطلّق زوجته دون أي تعويض إن أساءت التصرف (مادة ١٤١) ، أما اذا طلقها لكونها لم تلد له طفلا فان « عليه اعطاءها مالاً يساوي قيمة هدية خطوبتها اضافة الى الدوطة (البائنة) التي جلبتها من بيت أبيها » (١٣٨)(22) . ويمكن لزوج امرأة مريضة التزوج باخرى ، غير ان عليه الاحتفاظ بزوجته الاولى في بيته والعناية بها مادامت حية ترزق (١٤٨) . وعند موت رجل ما ، تقسم تركته بين ابنائه ، غير ان من الجائز لارملته الانتفاع بها (١٧١) كما ولها الحق في التصرف بحرية بأي « حقل ، مزرعة ، بيت ، أو ملك منقول » كان زوجها قد وهبها إياه (١٥٠) . وعند وفاة الزوجة ، لاتعود دوطتها الى ابيها ، بل تذهب الى اولادها (١٦٢) . وهناك قوانين أخرى مشابهة تستهدف حماية أبناء « الزوجة الاولى » من

العَبْدة » (أي الأَمة) او الخليلة ، وتأمين الاطفال ضد معاملة لايستحقونها (١٦٨) •

وفي الشريعة نقطة أخرى تسترعي اهتماما عامّاً وهي عملية تواتر ذكر لفظة «إلْكوم » في المواد (٢٦-٤١) • ويبدو أنه قد وجد آنذاك عدد من الاشخاص من ذوي المهن المحددة كرجل الجندرمة (ريدوم) ، والبحار (بائيروم) ، أو أل « ناش بِلْتِم » (وتعني حرفياً « حامل الجزية ») ممن كانوا يستلمون من الملك الحبوب والاراضي والماشية مقابل تقديمهم بعض الخدمات أكثرها وضوحا هي تلك التي تتعلق بالمجال العسكري • وتبقى الثروة المستحصلة بهذا الشكل (الاقطاعيه - إلْكوم) ملكا خاصا للملتزم طيلة حياته ، وتقسم بين ورثته بعد موته • ولم يكن بالامكان بيعها ، أو وهبها الى الزوجة أو البنات وان كان يمكن استخدامها من قبل مالكها لدفع فديته اذا تم أسره اثناء قيامه بخدمة الملك ، كما يمكن تحويل حيازتها الى شخص آخر في حالة رفض الاول الايفاء بخدماته العسكرية ، أو اذا هرب من الخدمة • ويبدو واضحا أن هبة الالكوم لم تكن مكافأة بسيطة لقاء خدمات تؤدى للتاج ، بل هي اجراء ربما ابتدعه حمورابي نفسه(23) يستهدف ربط عدد من رعاياه بالارض وخلق وثاق قوي معهم يمكن مقارنته بالوثاق الاقطاعي الذي كان يربط بين السيد وأقنانه في اوربا القروسطية •

تلك كانت بايجاز بعض الخصائص الاساسية للشريعة المشهورة التي، وان كانت أقل أصالة مما كان يظن سابقا ، تبقى قطعة فريدة بطولها ورشاقتها ودقة اسلوبها وبالضوء الثمين الذي تسلطه على مجتمع تلك الحقبة المتطورة جدا • ولقد توجت هذه الوثيقة ، التي دونت في سني حكمه الاخيرة ، عهد هذا العاهل العظيم المليء بالمنجزات • وعندما

يستذكر الملك حمورابي نجاحاته الجمة ، فانه لا يتورع من التصريح بفخـر واعتـزاز :

« إستأصلت شـأفة العدو شمالا وجنوبا ؛
ووضعت حـدأ للحرب ؛
وطورت ازدهار البلد ؛
وجعلت الناس يهنأون بعلائق حميمة ؛
ولم أدع أحـدا يرهبهم .
فنادتني الآلهة العظيمة
فأصبحت الراعي المحسن الذي صولجانه الحق ؛
ونشرت ظلي الوارف على مدينتي .
وفي قلبي حملت شعب سومر وأكـد ؛
الذي نعـم بحمايتي ؛
وحكمت بسلام ؛
وحميتهم بقوتي . »(24)

الفصل الثالث عشر

في ايـــام حمورابي

وبغض النظر عن فتنة المشهد الدائم التغير للاوضاع السياسية والاقتصادية فان هناك أزمانا تستوجب التوقف برهة ازاءها ، وهناك فترات جد غنية بالوثائق لدرجة أن المؤرخ يجد نفسه مضطرا حيالها الى ترك الملوك والسلالات ، والممالك والامبراطوريات ، والحروب والدبلوماسية جانبا للالتفات الى دراسة المجتمع القائم كما كان بالفعل . فكيف كان الناس يا ترى يعيشون ؟ وما الذي كانوا يصنعونه في حياتهم اليومية ؟ مثل هذه الاسئلة تخطر على البال تلقائيا وتستحق أهميتها تقديم اجابة عنها .

تتجلى في عراق عصر حمورابي — أو بالاحرى في القرن الذي حل قبل تسنم حمورابي العرش بستين سنة (١٨٥٠—١٧٥٠ ق . م) — واحدة من تلك الفترات المتميزة بغزارة مصادر المعلومات عنها سواء كانت هذه

المعلومات مدونة أم آثارية • صحيح اننا مازلنا لا نعرف الا النزر اليسير عن عواصم جنوب العراق خلال هذه الفترة ــ حيث بقيت إيسن ولارسا غير مستكشفتين عمليا ، كما لم تستطع فترة ثمانية عشر عاما من التنقيبات في بابل سوى « تخديش » سطح ذلك الموقع الكبير اذ منعت مناسيب المياه الجوفية العالية علماء الآثار الالمان من الحفر أبعد من الطبقة التي تعود الى الفترة البابلية الحديثة(٦٠٩ــ٥٣٩ ق • م) باستثناء بقعة صغيرة واحدة أمكن اجراء عملية سبر أغوار فيها وتم الحصول منهـا على بعض الرقـم وأجزاء من جدران البنايات تعـود الـى السلالة البابلية الاولى في عمـق (٤٠ قدم) ــ ولكن حظ المنقبين الاخرين كان أكبر في المواقع الاخرى • فالنصب التي استخرجوها ــ من القصر الملكي في ماري ، وقصر الحكـام في تـل أسمر ، ومعابد وبيوت المواطنين في اور ، وهي أهمها جميعا ــ وان كانت قليلة الى حـد ما ، فأنها تمتلـك أهميـة ونوعيـة استثنائية • أمـا بالنسبة الى الوثائق المكتوبة فالوضع أفضل بكثير اذ لا نمتلك شـريعة حمورابي وحسب بل وكذلك رسائله والاراشيف الملكية في ماري اضافة الى العديد من النصوص القانونية ، الاقتصاديـة ، الأداريـة ، الدينيـة ، والعلمية من ماري ولارسا وسپار ونفر واور وتل حرمل ، ومن مواقع أخرى، يتراوح عددها بين (٣٠ــ٤٠) ألف رقيم • وفي الواقع فان بوسعنا القـول بدون مبالغة بأن معرفتنا لوادي الرافدين خلال عام (١٨٠٠ ق • م) تتجاوز معلوماتنا عن أي قطر أوربي قبل ألف سنة فقط • ومن الناحية النظرية ، فان بامكان المؤرخين رسم صورة شبه متكاملة ومفصلة لمجتمع وادي الرافدين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ق • م ولما كان عمل كهذا من شأنه أن يبتعد بنا خارج حدود اهتمامنا الحالي ، لذلك سنقتصر على رسـم صورة عامة لثلاثة أوجه رئيسة من المجتمع هي الاله في معبده ، والملك في قصره ، والمواطن في بيته •

الإله في معبده

تدهشنا كثيرا ضآلة التأثير الذي أحدثه ظهور الساميين الغربيين على هيكل الآلهة السومري ـ الاكدي • فمع أن الاله « آمو"رو » ـ الذي يتسمى الآموريون باسمه ـ كانت لديه معابده الخاصة به غير انه لم يحظ باحتفاء ولا بشهرة كبيرة • وعلى الرغم من وجود عدة آلهة سميت وتمذجت على نمط آلهة سوريا ـ فلسطين نحو : «أيل» ، «إر"ا» ، «ليم» ، أو «حمّو» وذلك منذ العصر البابلي القديم ، ولكن لا يوجد هناك ما يثبت أنها كانت تعبد بشكل منتظم على أرض وادي الرافدين • واذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل الامور الاخرى ، فان التجديد الاساس الحاصل هنا لا يتعدى ارتقاء « مردوخ » الى المنزلة الاعلى في مجمع الآلهة وامتلاكه لقوى الاله «انليل» • ولكن الطقوس المكرسة لمردوخ بقيت مدة طويلة مجرد احتفال رسمي يفتقد التعاطف الشعبي ؛ كما استمر شعب حمورابي ، والملك نفسه أيضا ، في التعبد لآنو وانليل وأيا وسن وشمش وعشتار وغيرها من الآلهة العديدة الاخرى التي تكلفت منذ أقدم الازمان بابانة « ثغرها المتبسم » لسكان العراق • ولقد أبقيت الآلهة السومرية ـ أصبحت يطلق عليها الان أسماء سامية ـ في معابدها الاصلية في كافة مدن سومر وأكد • كما تعزز التصاق عبادها بها ولم ينل من قوته تغير اتجاه الرياح السياسية في البلد • ويؤكد ظهور دمى الآلهة المصنوعة من الطين الفج ، ووجود « المصليات المدنية » ، وتواتر ظهور « مشاهد النذور » على الاختام الاسطوانية العائدة لهذه الفترة (1) تعزز العلاقة الشخصية الحميمة المعقودة وقتذاك بين الانسان والآلهة •

كانت المعابد (بيوت « بيتو » الآلهة كما كانت تدعى) ذات شكل وحجم متنوعين • فكان بعضها مجرد مصليات صغيرة ، تجتزأ من صف من الدور ، تشتمل على فناء مكشوف له محراب وقاعدة للتمثال المقدس(2) • كما كانت هناك معابد أخرى تضم عدة أقبية وغرف(3) • ثم تأتي أخيرا التركيبات المعبدية الضخمة والمعقدة للآلهة الاعظم والتي غالبا ما تتضمن عدة أضرحة للآلهة الثانوية ، وغرفا لايواء سكان المعبد وموظفيه(4) • ولم تعد مثل هذه المعابد تمتلك تلك البساطة المحببة التي كانت عليها المعابد السومرية الاولى اذ ازداد تعقيدها بمرور الزمن كي تستجيب الى الوظائف المتعددة لمجموعة دينية منظمة الى حد بعيد • وتعكس تصاميم هذا النوع من المعابد درجة عالية من التخصص في القيام بالطقوس المعبدية ، كما يبدو انه كان هناك تمييز بين أقسام المعبد المفتوحة للجماهير وتلك الخاصة بالكهنة ، او ربما بطبقة خاصة منهم • أما متى جرى ابتداع المفهوم القائل بأن التقرب للآلهة العظيمة لا يكون ممكنا الا بشكله المتدرج ، فتلك مسألة مختلف فيها كثيرا اذ يذهب قسم من الاساتذة الى نسبها للسومريين ، بينما يقول آخرون بأنها قد استحدثت من قبل الساميين ، ويتعذر علينا في هذا المقام مناقشتها تفصيليا(5) •

تشترك كافة المعابد الرئيسية في وادي الرافدين بخصائص معينة(6) حيث اشتمل كل منها على فناء كبير « كسال ماخو » محاط بغرف صغيرة تستخدم كمآو أو مكتبات ، ومدارس للكهنة ، ودوائر ، وورشات ، ومخازن ، وأقبية ، واصطبلات • وفي الاعياد الكبيرة ، كان يجري جمع نصب الآلهة التي تجلب من المعابد الاخرى في الفناء الواسع الذي يبقى مفتوحا في الايام الاعتيادية للجميع • لذلك لا يجب أن تتصور هذا الفناء ارضاً فضاء ساكنة وخالية تماما ، بل كانت في الواقع مكانا يشبه الدير من ناحية والسوق من ناحية أخرى يعج بالحركة والضوضاء ، ويزدحم بالناس والحيوانات ، ويجول

في انحائه رجال المعبد على الدوام ، بالاضافة الى التجار الذين يتعاملون معه ، والرجال والنساء الذين يجلبون له النذور ويطلبون منه المساعدة والنصح . وخلف الكسال ماخوهذا كان يوجد فناء آخر أصغر من الاول في الاحوال الاعتيادية مزود بمحراب في وسطه . ثم يأتي المركز الرئيسي للمعبد المسمى «أشرتو» ، وهو بناية لا يدخلها غير الكهنة الذين يطلق عليهم اسم « أريب بيتي » (اولئك الذين يدخلون المعبد) . وكان القسم الرئيسي من المعبد يشتمل ثلاث غرف متعاقبة هي : الدهليز ، وما قبل المقدس ، ثم المقدس (قدس الاقداس) . وتحتوي الغرفة الاخيرة على وثن الاله أو الالهة المكرس لها المعبد والذي يصنع عادة من الخشب المغطى بالاغصان الذهبية ، وينتصب فوق عمـود داخل مشكاة تبنى في الجدار الخلفي للمقدس . وعندما تكون كل أبـواب هـذا القسـم مفتوحة ، كانت تتسنى رؤيـة الوثن مشـرقا بشكل خفيف وسط ظلمة الضريح من قبل الزائر الواقف في الفناء الصغيرـ وليس الكبير ـ الذي يكوّن زاوية قائمة مع ممر باب المعبد . وعند أقدام الاله كانت ترتب سنديانات الورد ومحارق البخور ، كما كانت المصاطب الطابوقية تنتظم حول المقدس . أما غرفة ما قبل المقدس ، فتستند فيها نصب الآلهة والمعبودات الاخرى اضافة الى البلاطات (المسلات) التذكارية للملوك والنذور . أما بقية أثاث المعبد فهي محراب ذو دكتين ، ومصطبة للولائم المقدسة ، وأحواض للماء المطهر ، ومساند لشارات الآلهة ، أضافة الى الاسلحة الموقوفة . وكانت تستخدم مواد نادرة وغالية الثمن في بناء هذا القسم من المعابد اذ ترفـع السقوف بواسطة أعمدة من خشب الارز ، كما كانت الابواب تصنع مـن الخشب الثمين المقلّم بشرائط النحاس أو البرونز . وكحماية للمداخـل ، كانت تنصب فيها تماثيل لاسود أو ثيران أو لكائنات خرافية مصنوعة من الحجر أو الفخار أو الخشب . وفي زوايا المعبد ، كانت تدفن تحت الرصيف صناديق طابوقية تحتوي « مسامير » فخارية أو برونزية ، ومخطوطـات

ملكية ، اضافة الى نصب وتماثيل صغيرة للملوك الذين شيدوا المعبد أو رمموه . وتكرس « ودائع الاساس » هذه ـ التي تسمى « تمينو » ـ منطقة المعبد المقدسة وتؤشر حدودها ، كما كان يعتقد أنها تطرد شياطين العالم الاسفل .

كانت الطقوس والعبادات الدينية والاحتفالات تقام كل يوم في المعبد فيهتز الهواء بالموسيقى والتراتيل والصلوات ، كما تمتلىء مصطبة الاله بالخبز والزبد والعسل والفواكه ، وتملأ السندينات بالماء والخمر أو الجعة ، ويهرق الدم على المحراب ، ويمتزج دخان اللحم المشوي بلهيب خشب الارز أو البخور العبقة . كان جوهر الطقس هو خدمة الآلهة (الدولو) حيث كان الاعتقاد السائد وقتذاك هو أن الآلهة تحيا حياة مادية خالصة فهي بحاجة الى أن تنظف وتغسل وتزكى بالعطور والطيب وتلبس وتطعم يوميا . وكانت الاوقاف الثابتة التي يقدمها الملك نفسه ـ باعتباره الرئيس الاعلى للكهنة ـ للمعبد تتكفل بتأمين مصدر دائم للطعام والشراب والكسوة . وبالاضافة الى هذا ، فقد كان يجري شهريا تكريس عدة أيام أخرى ـ كالايام التي يظهر أو يختفي فيها القمر على سبيل المثال ـ لاقامة احتفالات مقدسة خاصة بالمناسبة . كما وجدت أيضا احتفالات عرضية أخرى للتطهير أو التكريس . وأخيرا يأتي عيد رأس السنة العظيم الذي يحتفل به في المدن الدينية المقدسة كل عام في الخريف والربيع . وكان الكهنة يعتبرون وسطاء بين الناس والآلهة العظيمة ، فيقدمون الذبائح ويتلون الصلوات والادعية ، ويرتلون الاناشيد لصالح المرضى والحزانى والمذنبين التائبين . ولانهم وحدهم يمتلكون ناصية فن «قراءة المستقبل المجهول» ، لذلك كانوا غالبا مايقصدون لطلب النصح ، أو للاستشارة من قبل الملوك وعامة الناس على حد سواء ، كما يلتجىء اليهم الناس طلبا لنبوءة أو تفسير أو فتوى معينة . ولقد هيء لكل واحد من تلك الطقوس منهج خاص يمتاز بصرامة وتعقيد تفاصيله

التي ما كان بالامكان تجاوزها(7) • وكانت الصلوات تتلى أولا باللغة السومرية ، ثم أدخلت اللغة الاكدية في صلوات المعابد خلال عهد حكم سلالة بابل الاولى • و يحوزتنا نص لشعائر « ستر طبلة المعبد » يخبرنا بأن صلاة معينة يجب أن تهمس داخل قصبة باللغة السومرية في الاذن اليمنى للثور ، وبالاكدية في أذنه اليسرى(8) •

امتلكت المعابد الكبيرة عددا ضخما من الكهنة المرتبطين بها • وكان أبناؤهم يترعرعون بين جدران المعبد ، ويحصلون على تربية متكاملة في مدرسته « بيت مومي » (معناها الحرفي « بيت المعرفة ») • وعلى رأس رجال الدين كان يقف الكاهن الاعلى ، أو « إينو » « وهي المرادف الاكدي للكلمة السومرية «إن» التي تعني المولى)، ويليه أل «أوريگالو» الذي كان في الاصل حارس الابواب واصبح الان الموظف الرئيس في المعبد • ومن بين الاعضاء المتخصصين من الكهنة كان أل « ماشماشو » الذي يقرأ التعازيم ، وأل « پاشيشو » الذي يطيب الالهة بالزيت ، وأل « كالو » وهو منشد المراثي ، وأل « أشيبو » طارد الارواح الشريرة ، وال « بارو » وهو مفسر الاحلام وقارىء الطالع • وبالاضافة الى هؤلاء ، كان يوجد أيضا عدد من الكهنة الصغار ، ونفر من المغنين والموسيقيين والحرفيين والخدم والعبيد • أما أعضاء المعبد من الاناث ، فلم يكن عددهن أقل تنوعا • وكثيرا ماكان منصب الكاهنة الاعلى « إنتو » يشغل من قبل امرأة من سلالة ملكية ،(9) كما كانت كاهنات أل « ناديتو » ـ اللائي كان بمقدورهن الزواج ولكن لا يحق لهن الانجاب مادمن يتواجدن في دير المعبد(10) ـ ينحدرن من أفضل العائلات المرموقة • والى جانب تلك السيدات المحترمات ، كانت توجد أصناف مختلفة من النساء اللائي كرسن أنفسهن الى ما كان يعتبر وقتذاك مهنة غير مخجلة ، بل شكلا خاصا من أشكال الاتصال بين الانسان والالهة ،! تلك هي مهنة « البغاء المقدس » • ولقد شكل كل اولئك الرجال

والنساء مجتمعا مغلقا له قوانينه وحقوقه وتقاليده الخاصة ، يعيش على موارد المعبد وعلى التجارة والايداع وعلى « عوائد المحراب »(11) أيضا • وكان لهذا المجتمع كذلك دوره المؤثر في تقرير شؤون الدولة ، وفي الحياة الخاصة لكل المواطنين • غير أن الايام التي كان فيها المعبد يشغل مركزاً يهيمن على كامل الحياة الاجتماعية ــ الاقتصادية للبلد كانت قد ولت الى غير رجعة ، اذ أصبح البلاط الملكي الان المركز الحيوي في البلد فهو قلب وعقل الدولة •

الملك في قصره

ان تغير مكانة القصر الملكي (يدعـى بالسومريـة « إي ــ گـال » وبالاكدية « إيكالّـوم » ومعناهما « البيت العظيم ») هي إحدى الخصائص المميزة للعصر البابلي القديم • ولقد تضافرت عوامـل عديـدة ــ تمركـز السلطة بيد الملك ، وضرورات الادارة المركزية ، ومقتضيات الابّهة الملكية ــ لتؤدي الى تحويل بيت الملك ، الذي كان قبل ذلك مجرد بنايـة متواضـعة نسبيا ،(12) الى مجموعة هائلة ومعقدة من الاقسام وغرف الاستقبال والدوائر والورشات ، اضافة الى العنابر المحاطة بالاسوار المنيعة والقويـة لاسـباب احترازية • وهكذا فقد أصبح القصر الملكي ــ الذي بات يقوم بدور المنزل والقلعة والسراي ــ مدينة داخل المدينة في ذلك العصر •

ولايوجد ماهو أفضل من البيت الملكي في ماري(13) تتخـذه مثـلا ونموذجا لشكل ووظيفة القصر الملكي • ولقد وجد القصر في حالة ممتازة ، ويعتبر أنموذجا رائعا ليس في مساحته وحدها ــ يغطي القصر مساحة تقارب انسبعة أياكر ــ بل وكذلك في تصميمه الذكي المنسق ، وفي جمال زخارفه ، والنوعية العالية لبنائه الفاخر • ولقد أسماه علماء الاثـار « جوهـرة الفـن المعماري الشرقي »(14) ، وكان يتمتع بشـهرة عريضـة لدرجـة أن الملـك « اوگاريت » ، الذي كان يحكم منطقة سوريا الساحلية ، لم يتوان عـن

ارسال ابنه ليقطع مسافة (٣٥٠ ميلا) في عمق البلد لا لشيء الا لزيارة « بيت زمري ــ ليم » (15) •

وتوجد في الجدار الخارجي الكبير للقصر ــ الذي يبلغ سمكه في بعض الاماكن أربعين قدماً ، والمشيد على أسس من الحجارة ، والمدعم بالابراج ــ بوابة واحدة فقط في قسمه الشمالي • وبعد الولوج في دهليز محروس واجتاز باحة صغيرة يليها ممر مظلم ، يواجه الزائر الفناء العظيم للقصر وهو أرض فضاء مهيبة مساحتها (٤٥٠٠ قدم مربع) تغمرها أشعة الشمس ومرصوفة ببلاطات من الجبس فيما عدا مركزها الذي يمكن أن يكون قد زرع بأشجار النخيل • ومن الجانب المواجه للمدخل تقودنا ثلاث دكات رشيقة البناء الى غرفة نظارة عالية ومستطيلة ربما كانت تستخدم من قبل ملك ماري كلما شاء مخاطبة رعاياه • كان رجال البلاط ، والسفراء ، والموظفون الكبار ، وغيرهم من الزوار المهمين يمرون خلال باب كائنة في الجدار الغربي لـ « باحة الشرف » ، ثم خلال ممر على شكل حرف (L) ، ليلجوا باحة اخرى أصغر من الاولى تتميز بترتيبها المتقن وبأرضيتها الجذابة المبلطة بمادة بيضاء صلدة ، وبجدرانها المكسوة بالمصورات الجصية المغطاة بمظلات بيضاء تقيها من الحرارة والامطار وتمتد فوق أعمدة من الخشب • وتمثل الصور ذات الالوان الجذابة ــ والتي بقيت محافظة على قيمتها الفنية حتى الان حيث يفتخر بعرضها متحفا اللوفر وحلب ــ مشاهد معبرة لاحتفالات دينية رسمية حيث ترينا ثوراً وقد جلب للتضحية ، ونشاهد ملك ماري « لامسأ يد عشتار » ومقدماً لتلك الالهة القرابين (وهو طقس تقليدي يقام في عيد السنة الجديدة) ، اضافة الى مشاهد متفرقة أخرى • وخلف هذه الباحة ، توجد غرفتان طويلتان احداهما خلف الاخرى تحتوي الاولى على دكة مكسوة ومصبوغة يمكن ان تكون قد أسندت في يوم ما تمثال « الالهة ذات السنديانة التي ينسكب منها

الماء » والتي وجد تمثالها بالقرب من الدكة وقد فقد رأسه ورمي ارضاً • أما الغرفة الاخرى فهي مقر العرش ، وتوجد في احدى نهاياتها مصطبة حجرية لعلها خصصت لجلوس أكابر الزوار • وفي النهاية الاخرى لها يوجد عدد من التدرجات السلّمية الطويلة الرائعة المؤدية الى رصيف مرتفع حيث كان يجلس العاهل بوقار الملوك •(16)

وتشكل غرفة النظارة مع غرفة العرش ومشتملاتهما قلب القصر ، تحيط بهما الاقسام المختلفة الاخرى له • وعلى جانبي البوابة هناك مآو للزوار ولحراس القصر • وعلى مقربة من الزاوية الشمالية الغربية للبناية توجد مجموعة من الغرف والحمامات ـ مايزال أحدهما يمتلك مغطسين من الطين النضيج ـ المزينة بشكل جميل ، والتي تشكل مع بعضها جناح المسكن الملكي الذي كان يسكن قربه حاجب القصر والموظفون الاخرون • والى الجنوب هناك مدرسة في غرفتين تحتويان صفوفا من المصاطب الفخارية ورقما طينية لكتابة التمارين المدرسية وجدت متناثرة هنا وهناك • وتمتد من « باحة الشرف » سلسلة من الاروقة المؤدية الى دير مزدوج (مصلى) يفترض انه كان مكرسا للالهتين « أنونيت ، وعشتار » إتخذه الملك معبدا خاصا به • أما بقية الغرف(ثلاثمائة غرفة) والباحات المختلفة الاخرى فكانت تستعمل كمطابخ ومخازن ومساكن للخدم ودكاكين للحدادين وكور للخزافين •

ولايقل عمران هذا القصر روعة عن تصميمه ، فالجدران ، السميكة جدا كقاعدة والتي يصل ارتفاعها في بعض المناطق الى حوالي الستين قدما ، جرى بناؤها من الآجر الطيني المكسو بعدة طبقات من التماليط الطينية والجصية ؛ كما أستخدم القار في إكساء عدة غرف خصوصا الحمّامات ودورات المياه لحماية الارضية والقسم الاسفل من الجدران • ولا توجد في كل غرف القصر شبابيك ، ولعلها كانت تنور إما بفتح مصاريع أبوابها العريضة والعالية

المواجهة للفناء ، او بواسطة فتحات مدورة في السقف يمكن غلقها بسدادات قمعية الشكل • أما شبكة المجاري فقد أستخدمت لها قنوات ضيقة من الطابوق مدت تحت الرصيف المبلط وأنابيب فخارية مكسوة بالقار تنزل الى عمق ثلاثين قدما تحت سطح الارض • وقد صمم جهاز المجاري هذا بمهارة وعناية فائقة بحيث ان مياه احدى العواصف المطرية الشديدة التي حدثت خلال أحد أيام التنقيبات فيه قد أخليت في غضون ساعات قليلة فقط ، أي أن شبكة المجاري تلك قد استطاعت أداء وظيفتها مرة اخرى وبكفاءة عالية حتى بعد مرور أربعين قرنا على توقف استعمالها !(17)

واذا كان قصر ماري يصور لنا الاماكن التي كان يسكن فيها ملوك وادي الرافدين ، فان الرقم المكتشفة في عدة غرف من القصر ، اضافة الى رسائل حمورابي المستخرجة من مدن اخرى ، تقدم صورة ساطعة عن الاهتمامات التقليدية للملوك • ولعل أكثر الحقائق إثارة للدهشة هي تلك المتابعة الزائدة التي كان يوليها الملك للشؤون المختلفة الخاصة بمملكته • كان الحكام المحليون ، وقادة الجيش ، والسفراء في البلاطات الاجنبية والموظفون على اختلاف مناصبهم ، بل وحتى المواطنون العاديون يكتبون باستمرار لعاهلهم ليطلعوه على مجريات الامور في مواقعهم الخاصة ، وليلتمسوا منه النصح أو العون • وفي المقابل ، كان الملك يصدر الاوامر والتشجيعات ، أو يوجه اللوم والعقوبات ، أو يطالب بمعلومات اضافية عن هذا الموضوع أو ذاك • واستمر لذلك سيل متصل من الرسائل بالدخول والخروج من القصر يحملها أو ينقلها سعاة ملكيون محروسون• وكانت الشؤون العسكرية والدبلوماسية تشغل الجزء الاكبر من مراسلات الدولة ، اضافة الى الامور المتعلقة بالاعمال الشعبية والقضائية • فنجد أن حمورابي على سبيل المثال يتدخل في لارسا ــ التي أصبحت عاصمة مقاطعاته الجنوبية ــ لتأمين اصدار اجراءات قانونية ولتعيين موظفين واستدعاء خدم

مدنيين لبلاطه والامر بحفر وكري القنوات • كما كان إياسما ــ أدد وزمري ــ ليم يصدران تعليماتهما لاحصاء البدو ، واعداد الجند واستدعائهم ، وتبادل الهدايا والافكار مع « اخوتهم » الملوك الاخرين • ولكن المسائل والمواضيع الاخرى الاقل أهمية كانت هي الاخرى محط اهتمامهم • ويتبين لنا ذلك من عدة أمثلة مأخوذة كيفما اتفق • فشمشي ــ أدد مثلا كان يكتب لابنه إياسما ــ أدد مقترحا عليه ارسال بنات إياحدون ــ ليم ــ اللائي أسرن في ماري من قبله وبلغن أخيرا سن الرشد ــ الى قصره الملكي في شباط ــ انليل كي ينسنى لهن تعلم الموسيقى • ويكتب إشمي ــ داگان الى أخيه طالبا منه تزويده بعدد من العربات المصنوعة في ماري التي تفوق نوعيتها تلك التي تصنع في أقلاطوم مع عدد من النجارين المهرة(18) • ونعلم كذلك أن الجراد قد ظهر في «ترقا »(19) وأن حاكم تلك المدينة قد بعث سلالا من تلك الحشرات الى سيده زمري ــ ليم الذي يعرب له ــ مثل العرب المعاصرين ــ عن استحسانه لذوقه(20) • وفي ترقا أيضا يظهر شخص قد حلم بطيف غريب يصبح فحواه مثار حديث المدينة فيثير ذلك اهتمام الملك الذي يبعث بطلب الاستماع اليه(21) • ونقرأ أن حاكم « ساگاراتم »(22) المدعو « إياقّيم ــ أدّو » قد أسر ليثا وأرسله الى زمري ــ ليم في قفص من خشب• وتكتشف على مقربة من ماري جثة طفل قتيل جرى التمثيل به فيسارع حاجب القصر « بهدي ــ ليم » ليؤكد للملك بأن تحقيقا فوريا سيجري بالمسألة لمعرفة الجناة • وتهرب جارية من القصر الملكي في آشور الى ماري فيوعز شمشي ــ أدد الى ابنه باعادتها اليه محروسة • ونعرف أيضا أن امرأة نفيت الى مدينة « ناهور » قرب حران قد بلغت بها التعاسة الى الدرجة التي دفعتها للكتابة الى زمري ــ ليم تسأله : هل يتفضل مولاي بالكتابة لاعادتي(الى ماري)كي ارى ثانية وجهه الذي أفتقد؟(23)وعلى هذا المنوال تسير الامور في الرقم الواحد تلو الاخر وكلها مكتوب باسلوب واقعي بسيط

يتناقض تماما مع اللهجة المفخمة للمدونات الرسمية : « الـى مولانا ، بلّغه بهذا : هكـذا يتكلم خادمكـم « س » ••• »(24) • ولدينا هنـا فرصـة نادرة نستطيع من خلالها أن نعايش هؤلاء الناس بشكل واقعي فنتفهم مشاكلهم ، ونشاركهم همومهم ، وندرك في نفس الوقت مدى سعة انتشار فن الكتابة ، وكم كان كبيرا عدد الكتبة ، ودرجة كفـاءة الجهـاز الاستشاري الملكي ، وتعـدد مشاغل وأعمال الملوك وموظفيهم من ذوي الضمائر الحية • ولا يوجد هناك شيء آخر يمكن أن يقدم لنا انطباعا أقوى عن الماضي من زيارة القصر الملكي في ماري ، والقاء نظرة على محتوياته ومضامين أرشيفاته •

المواطن في بيته

ينبغي علينا الان أن نتفحص حياة المواطن العادي (الاويلم) في ربوع وادي الرافدين قبل ما يقارب الاربعة آلاف سنة • وللقيام بذلك ، يتوجب علينا الانتقال الى مسافة (٦٠٠ ميل) جنوب الفرات ، من مـاري الى مدينة اور العظيمة • وهنا أيضا تتكفل الاثار العمرانية المقترنة بالنصوص بتقديم كل المعلومات التي نبتغي تقريباه فقد وجد سير ليونارد وولي عشرة آلاف ياردة مربعة من الشوارع والبيوت الخاصة بحالة جيدة • وعلى الرغم من مضي أكثر من أربعين عاما على تعرضها المستمر لعوامل التعرية المختلفة الا ان هذه الآثار ما تزال لحد الان تستحضر روح الماضي التليد بروعة لا تضاهيها غير روعـة أطلال مدينتي « پومپي » و « هيركيولائيوم »*(25) •

(*) پومپيي وهيركيولانوم مدينتان رومانيتان مقبورتان في اسـفل بركـان فيزوفيوس جنوب غرب ايطاليا • وقد قبرتا معا في انفجار لذلك البركان عام (٧٩ م) فاكتست معالمها بطبقة من الرماد البركاني يصل سمكها الى ستة امتار • وقد امكن اخيراً استخراج بيوت المدينتين مع جثث ساكنيها واثاثهم وحيواناتهم بل وحتى اطعمتهم المتكربنة مثلما كانت وقت انفجار البركان •

ويوسع هذه الشوارع ، المطينة شتاء والمتربة صيفا ، الممزوجة بالقمامة المرمية خارج الدور والتي لم ترفع أبدا ، أن تكون أي شيء عدا كونها جذابة. وتلتوي هذه الشوارع دون تخطيط يذكر بين صفوف متراصة من البيوت الشاحبة ذات الواجهات العديمة النوافذ والتي تخترقها أحيانا الابواب الصغيرة . وتنتشر هنا وهناك دكاكين صغيرة مجمعة في أسواق ، أو مشيدة بين الدور لتعطي انطباعا بهيجا وسط هذا المشهد . وتشبه هذه الدكاكين الى حد بعيد المخازن الشرقية الجديدة في السوق اذ تشتمل على غرفة واحدة مفتوحة للعرض تطل على الشارع مع غرفة ثانية أو أكثر كائنة في القسم الخلفي من الدكان تخصص لخزن البضائع . وكانت الاطعمة ، والملابس والبسط ، والاواني ، والروائح ، والبهارات ، تباع بمعروضات غير منسقة وبألوان زاهية ، وبروائح عبقة . وبين الفينة والاخرى يطالعنا اللهب الاحمر لفرن من دكان مظلم لحداد ، أو المصطبة الفخارية لـ « مطعم » كان بوسع المرء أن يشتري منه الخيار والبصل والسمك أو اللحم المطبوخ الشهي المقدم بطاسات فخارية ، أو المصلى الصغير الذي تميزه الدمى الطينية المعلقة على جوانب بوابته . كان دخول تلك المصليات ووضع حفنة من التمر أو الدقيق على المحراب ثم تلاوة صلاة قصيرة الى الاله الباسم في مشكاته مشواراً لا يستغرق اكثر من دقائق قليلة ولكنه كان ضمنيا بأن يجلب للمواطن بركات مستديمة .

ولابد أن حركة المرور كانت قليلة في تلك الشوارع التي هي أضيق من أن تمر بها العربات أو حتى الحمير المحملة باثقال كبيرة . وكان الخدم الذاهبون للتسوق ، والسقاة ، وباعة الخردة ، وغيرهم من السابلة يتجنبون لفح الشمس بالتزام ظلال الجدران ، بينما كان الكاتب الشعبي أو راوية القصص يقوم بقراءة ملحمة كلكامش في الصباح الباكر أو في أوقات العصر جامعا

حوله جمهرة من الناس عند مراكز تقاطع الشوارع التي يجتازها مرة أو مرتين في اليوم الكثير من الصبيان الصخابين في طريقهم من والى مدارسهم ٠

واذا دفعنا باب أحد الدور ودخلنا اليه فستكون بانتظارنا مفاجأة جميلة اذ سنجده معتدل الحرارة ، مريحا ، وأوسع بكثير مما كان يبدو لنا ونحن ننظر اليه من الخارج ٠ وبعد أن نغسل أرجلنا في حوض صغير ، نخطو الى الساحة الوسطى فنلاحظ انها مبلطة وان هناك في وسطها مجرى طولياً مفتوحاً يخلي مياه الامطار الساقطة شتاء ويمنع تجمعها ٠ ومن حولنا في كل الجهات تقبع بناية الدار ذات الجدران المكسوة بالتماليط المتماثلة والمتجانسة، المبنية بالآجر الطيني من الاعلى ، وبالطابوق المفخور المرتب بعناية زائدة والمثبت بالطين من الاسفل ٠ كما تظهر كذلك شرفةعرضها ثلاثة أقدام ، تسندها أعمدة من الخشب، تستدير حول الساحةمقسمةالدار الى طابقين يسكن أعلاهما رب البيت مع عائلته ، ويخصص الطابق الارضي للخدم وللضيوف ٠ ونستطيع أيضا تمييز أماكن المطبخ والورشة والمخزن وغرفة المغاسل ودورات المياه ٠ ثم نواجه أخيرا غرفة طويلة مستطيلة كان الضيوف يمتعون ويمضون ليلتهم فيها وهي « الديوان » الذي يميز كافة المنازل الشرقية ٠ ولابد أن يكون أثاث البيت ــ الذي لم يبق لنا منه شيء ــ قد اشتمل على بعض المناضد والكراسي والدواليب والصناديق اضافة الى الاسرة وأعداد من المقاعد والزرابي ٠

ان الوصف السالف الذكر ــ الذي يصح على معظم دور فترة إيسن ولارسا والعصر البابلي القديم في اور ــ يبدو اعتياديا لاولئك الذين زاروا الشرق الادنى اذ يتطابق كلمة فكلمة مع أي بيت عربي مشيد على الطراز القديم تتسنى لنا رؤيته في بعض محلات حلب ودمشق أو بغداد ٠ وهكذا نجد ان هذا النمط من البيوت ــ وعلى الرغم من انقراض الامبراطوريات ، وتبدل اللغات والاديان ، وترك العديد من العادات ــ قد بقي يستخدم دون أي تغيير لآلاف السنين وذلك لملاءمته تماما مناخ هذا الجزء من العالم وعادات سكانه٠

ولكن بيتنا البابلي كان يمتلك كذلك شيئاً آخر لم يعد له وجود الان وهو الباحة الطويلة الضيقة نصف المسقفة التي كانت تقع خلف بناية الدار • وكانت سقيفتها تحمي محرابا طابوقيا وعمودا ترتكز فوقه تماثيل صغيرة لآلهة البيت ، أي الآلهة «الشخصية» الاثيرة الى قلوب البابليين • وفي الجزء غير المسقف من الباحة ، وتحت الرصيف الطابوقي ، كان يوجد قبو مقدس تدفن فيه اجساد كافة أفراد العائلة عدا الاطفال الصغار الذين كانوا يدفنون في سنديانات توضع في المصلى البيتي او حوله • وهكذا نجد ان عبادة « الآلهة الشخصية » وعبادة الاجداد كانتا ترتبطان ببعضهما داخل البيت • ولم يعد الموتى ينقلون الى مقابر بعيدة عن المدينة — مثلما كان الامر في العهود المبكرة(26) — بل لقد استمروا يلعبون دورهم في حياة العائلة حتى بعد مماتهم •

تسلط الاشياء والرقم الموجودة في البيوت ضوءاً ثمينا على تطلعات وأعمال سكانها • فنعرف مثلا أن مدير مدرسة خاصة كان يدعى « إجمل — سن » ، وانه كان يدرس الكتابة والدين والتاريخ اضافة الى الحساب • وعلى الرغم من اننا لا نستطيع تصديق أن «كتاب » النحو السومري — الاكدي الذي عثر عليه في معمل حداد البرونز « جميل — ننكشزيدا » كان لاستعماله الخاص ، الا اننا نعرف السبب الذي حدا بـ « إيا — ناصر » — تاجر النحاس المضارب المنكود الحظ الساكن في « رقم — ١ — ، الشارع القديم » الى بيع جزء من عقاره الى جاره(27) • كان جميع هؤلاء مواطنين متواضعين من الطبقة الوسطى ، ويبدو من حجم وعمارة وطبيعة بيوتهم أن مستواهم المعاشي كان عاليا الى حد ما • واذا كان بعضهم متنعماً في عيشه لغناه ، فان القسم الآخر منهم كان نصف — مفلس • فقد ادى انتقال مركز السلطة والثروة من جنوب العراق الى وسطه في ظل حكم حمورابي ، علاوة على القيود المفروضة على التجارة البحرية عن طريق الخليج العربي ، الى التأثير بشكل كبير على موارد تجار اور الاغنياء(28) • غير أن مدينتهم لم تعد تتنقل بين الايدي مثلما كانت الحال من قبل ابان عهد الصراع بين مملكتي إيسن ولارسا فقد أصبح

وادي الرافدين الآن موحدا تحت حكم عاهل قوي وجليل • ولعل المستقبل كـان يلـوح للعديـد من رعايـا حمورابـي واعداً بالخير العميم ، ولكـن تلك الفترة من السلام والثبات السياسي لم تـدم أكثر من عشـرين سنة • وسيتوجب على الجيل الجديد مواجهة حروب جديدة ، كما سيطل على بداية تغيرات لن يقتصر تأثيرها على العراق ، بـل وستتعداه الى الشرق الادنـى برمتـه •



الفصل الرابع عشر

شعوب جديدة



في فجر الالف الثالث قبل الميلاد ، وبينما كان أمراء إيسن ولارسا يتقاتلون فيما بينهم في سوح بلاد سومر ، كانت هناك أحداث مهمة أخرى تجري وراء جبال طوروس وزاگروس . ففي ذلك الوقت ، دخلت أقوام جديدة قدمت من أماكن بعيدة منطقة آسيا الصغرى ، وأنشأت في قلب الاناضول ما سوف تعرف بعد ذلك بالمملكة الحثية . وفي نفس ذلك الوقت تقريباً ، استوطن أجانب آخرون أرمينيا وايران فحلوا بين ظهراني القبائل الحورية والكاشية كأرستقراطية حاكمة بعد هذا التاريخ بثلاثمائة او اربعمائة عام هاجم الحثيون بابل وأسقط الكاشيون المملكة العظيمة التي بناها حمورابي بجهد جهيد ؛ كما قام الحوريون وهم تحت إمرة قادتهم الميتانيين باحتلال الاجزاء الشمالية في أرض وادي الرافدين ، وفرضوا عليها سيطرة محكمة .

ينحدر الحثيون والميتانيون والطبقة الحاكمة الكاشيه من مجموعة عرقية ـ لغوية واسعة جدا تسمى « الهندو أوربية » • وكانت هجراتهم المذكورة آنفاً جزءاً من تنقلات أوسع مدارا عمت قارة اوربا والهند اضافة الى غرب آسيا • ولقد جلب الهندوأوربيون الحضارة بشكل مباشر او غير مباشر الى المناطق التي كانت ماتزال تعيش في العصر الحجري ـ المعدني (مثل شبه جزيرة الاناضول وبلاد اليونان) ، كما هددوا حضارة مناطق أخرى وصلت فيها الى أعلى المستويات ، وغيروا بشكل كبير الوضع القومي والسياسي والثقافي والاقتصادي للعالم القديم • كان تدخلهم في الشرق الادنى ذا تأثيرين عميقين مزدوجين أكثرهما وضوحا ظهور أمم فتية طموحة سيترتب على كل من العراق ومصر اعداد العدة لها • ومنذ عام (١٦٠٠ ق • م) فصاعدا ، أصبحت المسائل السياسية في الشرق الادنى ذات طابع اعلى وأشمل اذ تقلدت مرتبة عالمية واسعة • ولم يعد بالامكان اعتبار العراق وكأنه اقليم منفصل ـ او شبه منفصل تقريبا ـ عن بقية ارجاء العالم القديم اذ يتوجب علينا رسم تاريخ هذه الفترة على خلفية تتزايد رقعتها باضطراد تضم الآن مصر والأناضول وستدخلها في المستقبل ايران بأقوامها من الميديين والفرس ، وأخيرا أوربا بفاتحيها من الاغارقة ـ المقدونيين • ان تفهم التعاقب التالي للحوادث يتطلب توسيع نطاق أفقنا في هذه المرحلة بدرجة كبيرة • ولذلك فسنحاول في هذا الفصل رسم صورة فوقانية تحكي لنا عن الهجرات الهندوأوربية ، يليها موجز عن تاريخ الحثيين والحوريين والسوريين والمصريين ابتداء من القرن العشرين وحتى القرن السادس عشر قبل الميلاد بأرقام مدورة •

الهندو أوربيون

تطلق صفة أو مصطلح « الهندوأوربيون» على عائلة لغوية واسعة تضم اللغات التي تنطق بها الان شعوب بلدان بعيدة عن بعضها كبعد أمريكا عن الهند واسكندنافية عن أسبانيا • وتنحدر كل اللغات الاوربية الحديثة (باستثناء لغة اقليم الباسك في أسبانيا واللغة الفنلندية والهنگارية) ، اضافة الى اللغة الارمنية والفارسية وعدد كبير من اللهجات الهندية ، من هذه المجموعة • كما كانت تعود اليها سابقا اللغات الحثية والسنسكريتية والاغريقية واللاتينية ولغات عديدة أخرى • وعلى الرغم من الاختلافات الواضحة فيما بين كل تلك اللغات ، الا أن من اليسير اظهار كونها تترابط مع بعضها بشكل وثيق • ويعتقد بصورة عامة ان كل تلك اللغات قد انحدرت من لغة هندوأوربية عامة لم تترك لنا أي أثر مكتوب(1) • وبالاضافة الى هذا ، فان الدراسات اللغوية المقارنة لمفردات تلك اللغات جعلت قسما من الاساتذة يستنتج بأن كافة الشعوب المتحدثة باللغة الهندوأوربية كانت تحتفظ أصلا بانماط عيش متشابهة حيث يعتقد انها كانت تتألف في الاساس من رعاة بارعين في تربية الجياد ، كما كانوا يمارسون الزراعة بشكل متقطع ، ويعرفون العجلة والزورق ، اضافة الى تكنيك المعادن • ويعتقد كذلك انهم كانوا منظمين في عوائل وقبائل تعبد آلهة مجسمة • وأخيرا يلوح لنا — من توزيع المناطق اللغوية في العصور التاريخية المبكرة — ان موطنهم الاصلي ، قبل انقسامهم الى عدة فروع ، كان يقع في مكان ما بين بحر البلطيق والبحر الاسود ، ولعله كان في سهول روسيا الجنوبية • وتواجه المرء صعوبات جمة لدى محاولته ربط الحضارات الحجرية المعدنية التي خلفت لنا آثارا في اوربا الشرقية مع الشعوب الناطقة بالهندوأوربية اذ لا تظهر الكتابة في تلك المناطق

حتى الى تاريخ متأخر مما يجعل عملية التشخيص المحدد أمرا متعذرا • ولكن هذه الحضارات « اليوتنية » تمتلك صفة عامة هي وجود الفؤوس الحربية النحاسية في ركامات القبور • ويتفق معظم المؤرخين على ان « محاربي الفأس » يعتبرون بحق الممثلين الحقيقيين للهندوأوربيين وليس غيرهم • ولهذه الاعتبارات فان من الضروري ان يكون واضحا ان عملية اعادة بناء التحركات الهندوأوبية التي ستمر بنا بعد قليل هي في اكثر تفصيلاتها مجرد تخمين ويجب لذلك تناولها بالحذر المناسب •

اتخذت الهجرات الهندواوربية الاولى اشكالا مختلفة وبلغت عدة بلدان في أزمان متفاوتة • وكانت بالتأكيد جد بطيئة حيث غطت عقودا أو حتى قرونا باكملها • ويبدو ــ حسب معلوماتنا ــ أنها قد بدأت في نهاية الالف الثالث ق • م تقريبا وانتشرت في كل الجهات منطلقة من « موطنها الاصلي» جنوب روسيا • ففي اوربا(2) تحرك شعب « الفأس الحربية » شمالا على امتداد نهر الفولگا ، وغربا عبر سهول پولونيا والمانيا •وما ان حل عام (١٦٠٠ ق • م) حتى كان هؤلاء قد وصلوا الدنمارك وحوض الراين حيث امتزجوا مع مجموعة عرقية اخرى تدعى شعب « الكأس » أو « الكوب » • وسبب هذه التسمية يعود الى استعمالهم أواني ناقوسية كبيرة لغرض الشرب، وربما كان موطنهم الاصلي في أسبانيا • ويعتقد قسم من الاساتذة ان الحضارة التي نتجت عن ذلك الاندماج هي الطراز الابتدائي الاصلي للحضارة السلتيه (أي الهندوأوربية) التي ازدهرت في وسط اوربا خلال نهاية الالف الثاني ق • م • ولكن محاربي الفؤوس هؤلاء لم يكونوا هم الذين أدخلوا المعادن الى أوربا وان كانوا قد سرعوا عملية انتشارها بالتأكيد • فقبل مجيئهم كان النحاس معروفا فيتلك المنطقة ويجلب من القوقاز والاناضول من قبل تجار وحرفيين مسالمين كانوا يسلكون طريقا يحاذي نهر الدانوب أو يعبرون البحر الابيض المتوسط • ولقد تواجدت فيواقع الحال «جزر » للحضارات المدنية ــ

خصوصا في رومانيا ، وهنگاريا ، أسبانيا ، اليونان ، وكريت ـ تعوم وسط القارة التي كانت ماتزال تعيش في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) • ولليونان وكريت أهمية كبيرة بالنسبة لنا بسبب العلاقة الوثيقة الي كانت على الدوام بين بلدان بحر ايجة ومصر وآسيا الغربية •

يبدو أن حضارة العصر البرونزي الاول في بلاد اليونان(3) ــ الحضارة الهيلادية الاولى ــ قد تأسست في بداية الالف الثالث ق • م من قبل مهاجرين جاءوا من شبه جزيرة الاناضول واستفادوا من العلاقات التجارية الواسعة مع آسيا الصغرى وجزر الصقلاديز(*) وكريت • وفي حوالي عام (١٨٠٠ ق • م) كانت شبه جزيرة اليونان مسرحا لاحتلال واسع النطاق تلته تغيرات حادة في الفن المعماري وفي تقاليد الدفن وفن السيراميك ؛ كما شيدت المدن الكبيرة على اطلال القرى المتواضعة وحل الفخار الرمادي المصنوع بالعجلة الدوارة (دولاب) محل الاواني الفخارية الغامقة اليدوية الصنع التي تعود الى الفترة السابقة • ولما كان المستوطنون الجدد يدفنون موتاهم بمعية أسلحتهم البرونزية العديدة ــ وبضمنها فؤوس الحرب ــ لذلك فقد ساد الاعتقاد بأن الحضارة الهيلادية الوسطى قد جاء بها الهندوأوربيون • أما الحضارة الهيلادية المتأخرة ــ او الحضارة المسينية ــ فتبدو في عدة مجالات وكأنها نتاج التطور الداخلي للحضارة الهيلادية الوسطى • ولما كان المسينيون يتحدثون بلهجة هندوأوربية (أغريقية)ـ كما أثبت ذلك «فنترس» (Ventris) (**) الذي فك رموز خطهم المسمى (Linear B) (4) بمجهود عبقري ــ لذلك فقد كانوا أصلا من الاغارقة • وهكذا فان بوسع المرء الاستنتاج بأن الهجرات الهندوأوربية قد وصلت بلاد الاغريق القارية في بداية القرن الثامن عشر ق • م، أي في نفس الوقت الذي كان فيه حمورابي يحكم بابل •

(*) الصقلاديز (Cyclades) مجموعة من الجزر اليونانية الواقعة جنوب بحر ايجة .

(**) ڤنترس (مايكل جورج فرانسيس) (١٩٢٢ ــ ١٩٥٦ م) عالم لغة إنكليزي •

وبينا كانت ارض اليونان تفتح وتنظم بهذا الشكل ، كانت الحضارة المينوية المتميزة تزدهر في جزيرة كريت(5) التي كانت نقطة التقاء تأثير الحضارتين المصرية والآسيوية . وفي الحقيقة أدت الاتصالات المبكرة مع مصر الى تحفيز وتطور تلك الحضارة ، بينما نلاحظ ان الصناعة المعدنية ـ البرونزية المحلية كانت بالتأكيد ذات أصل أناضولي . وتذكرنا القبور المدورة (الثولوي) ، وتمائم الفأس المزدوج العائدة الى الحضارة المينوية المبكرة (٢٥٠٠ ـ ١٨٥٠ ق . م) بالنصب المماثلة لها ـ التي تعود الى تاريخ أبعد منها بكثير ـ المكتشفة في أرض وادي الرافدين والعائدة الى العصر الشبيه بالتاريخي غير ان النتاج النهائي لهذا التمازج الحضاري كان أصيلا جدا وذا خصوصية « غرب ـ اوربية » مدهشة تماما . فاذا كانت القصور المقامة في « نوسوس » و « ماليا » و « فايستوس »(*) تتماثل في عمارتها مع قصر ماري المعاصر لها الا أن تصميمها وتقوشها وفخارها لا يدين بشيء الى الفنون الاجنبية من قريب او بعيد ، وكذلك هي الحال بالنسبة الى خزفيات « قشرة البيض » من « كامارس » . كما لم يكن الخط الهيروغليفي ـ المينوي (Linear) A) المدون على الرقم الطينية ـ وهو الخط الذي لم تتم لحد الان عملية فك رموزه ـ ذا أصل أجنبي . وخلال العصر المينوي الوسيط (١٨٥٠ ـ ١٥٥٠ ق . م) ـ الذي يتزامن مع المملكة المصرية الوسطى وسلالة بابل الاولى ـ قدمت جزيرة كريت الى العالم اكثر مما أخذت أذ صدرت منتجاتها الى كافة بلدان بحر ايجة وشرق المتوسط ، كما ساعدت في انضاج الحضارة المسينية الفتية التي قامت في بلاد اليونان القارية . ولكن المسينيين وعلى أية حال قاموا في سنة (١٤٥٠ ق . م) بالنزول على أرض الجزيرة وتركوا بصماتهم على حضارتها ، وأسسوا امبراطورية جزائرية شملت كل بحر ايجة . وهكذا نجد الهندو اوربيين وقد غزوا البحر أخيراً .

(*) نوسوس (Cnossos) وماليا (Mallia) وفايستوس (Phaistos) هي مدن مينوية قديمة مخربة في جزيرة كريت والمدينة الاولى كانت عاصمة الحضارة المينوية القديمة .

ولدى انتقالنا من اوربا الى آسيا ، فاننا نلاقي مجموعة اخرى من الشعوب الناطقة بالهندواوربية ــ وهي الشعوب الآرية والهندوآرية ــ وقد تحركت جنوباً منطلقة من روسيا وذلك في نهاية الالف الثالث ق ٠ م وبعد فترة تجوال طويلة ، انبثق منها فرعان من اصل واحد اجتاز اولهما ايران او القوقاز ليتوغل في أرمينيا الجبلية وفي أقدام جبال طوروس حيث امتزج مع شعب آسيوي جد قديم هو الشعب الحوري ؛ بينما بسط الفرع الثاني هيمنته على قبائل آسيوية اخرى ــ الكاشيون ــ في الجنوب وسكن في تضاعيف جبال زاگروس والهضبة الايرانية ولكن معظم الآريين استمروا في طريق هجرتهم بمسار جنوبي شرقي حتى وصلوا أخيرا المقاطعات الهندية السابقة في السند والبنجاب والواقعة الان في الباكستان ٠ ولقد أظهرت أربع عشرة سنة من التنقيبات في موقعين يقعان في وادي نهر السند هما « موهنجودارو » و « هراپا » أن هذه المنطقة كانت موطن حضارة مزدهرة خلال الالف الثالث ق ٠ م ، تعرف بحضارة السند أو حضارة هراپا(6) ٠ والشيء الغريب هو ان هذه الحضارة تتماثل ــ بمدنها الجيدة التخطيط ، وبيوتها المريحة المبنية بالطابوق ، وبفخارياتها الملونة الجذابة ، واختامها المدونة والمحفورة برشاقة ــ مع الحضارة السومرية ، وبوسعنا مقارنتها بها ٠ وتوجد في الواقع من البراهين ما تؤكد وجود صلات تجارية بين اولئك «الهنود الاوائل» وبين سكان وادي الرافدين خلال العصر الاكدي ٠ الا أن الاريين قدموا بعرباتهم التي تجرها الخيول وكنسوا كل هذا في طريقهم اذا صدقنا من يقول بأن الكارثة المفاجئة التي أتت على الحضارة اللامعة في هراپا وموهنجودارو عام (١٥٠٠ ق ٠ م) وأدخلت الهند في فترة ظلام دامس دامت اثنى عشر قرنا ، قد سببها مجيء الغزاة الآريين ٠

تلك هي الخلفية العامة التي يتوجب علينا الان ان نتفحص في ضوئها مصائر شعبين احتفظا ــ بسبب موقعهما الجغرافي ــ بعلائق وثيقة مع أرض وادي الرافدين ، وأثرا بشكل كبير على تاريخه وهما الحثيون والحوريون ٠

الحثيون وآسيا الصغرى

على الرغم من أعمال البحث الحقلية الواسعة النطاق التي أجريت في تركيا خلال السنوات القليلة الماضية ، الا ان الاثار والتاريخ المبكر لآسيا الصغرى مازالا يعانيان من الثغرات التي تمنع الاحاطة بهما بشكل واف (7) • ولهذا فان تتابع الحضارات لما قبل التاريخ فيها يرسم بشكل جد عمومي • ومع أن تاريخ اولى الحوادث في هذه المنطقة يعود الى بداية الالف الثاني ق • م ، ولكنها لاتبلغ مسامعنا الا بالاشارات العرضية عنها الواردة في نصوص تعود الى تواريخ جد متأخرة • ولهذا فان الوصف التالي لها يتميز بصيغة «مرقّعة» بعض الشيء •

اكتشفت أكثر مناطق الاستيطان تبكيرا في هضبة الاناضول الجنوبية (هاسيلر ،چتل هويوك) ، وفي سهل كليكيا (مرسين ، طرسوس) وربما كان تاريخها يعود الى الالف السادس ق • م ، أي الى العصر الحجري (النيوليثي)• وتتماثل آثار تلك المواقع في اوجه عدة مع مميزات مواقع جريكو ، جرمو ، وحسونه ، المتعاصرة معها تقريبا ، خصوصا في الآلات والدمى وفن العمارة • كما ان المكتشفات الاخيرة في « چتل هويوك » أظهرت طورا حضاريا ماقبل ـ فخاري أعلى تنظيما وأصالة منها • ويوحي تواجد الفخار القديم الملمع في حسونه المشابه للفخار المكتشف في « مرسين » وفي سهل آموق بوجود وحدة حضارية بين هاتين المنطقتين ، أو على الاقل ، وجود علاقات تجارية كثيفة بين كل من سوريا وكليكيا وشمال العراق • ولابد لتلك العلاقات والصلات ان تكون قد توطدت خلال العصر الحجري المعدني الذي حل بعد ذلك (٥٨٠٠ ـ ٣٥٠٠ ق • م) ، وذلك اعتمادا على الكسر الفخارية الكثيرة

العائدة الى دوري حلف والعبيد ، التي اكتشفت في نفس المنطقة بجنب المنتجات المحلية الاصلية •

وخلال العصر البرونزي المبكر (٣٥٠٠ ــ ٢٣٠٠ ق • م) ، أصبحت مناطق اخرى من آسيا الصغرى تتمتع بكثافة سكانية كبيرة وبحضارة لامعة الى حد ما تفتحت في النصف الغربي من الاناضول (طرواده ، أليشار ، ألاجا ، پولاتي ، ومواقع اخرى) وانتشرت لتصل الى « مقدونيا » و «تيسالي» وجزر بحر أيجة • وبالمقارنة ، يبدو أن النصف الشرقي للبلد ،مع ارمينيا ،قد تخلفا عن الغرب ، وان كان هذا يمكن ان يكون مجرد انطباع كاذب مرده ندرة التنقيبات الآثارية المنفذة في ذلك الجزء من تركيا • وتتنوع حضارة العصر البرونزي في تفصيلاتها من منطقة لاخرى ، ولكن هناك من المميزات المشتركة ما تعطي كل حضارة آسيا الصغرى ما قبل التاريخية وحدة خاصة • فالفخار احتفظ على الدوام بلون واحد ، مصقول ، غامق وجذاب ؛ كما كانت البيوت تبنى بالحجارة والطابوق الطيني وتقوى جدرانها برزم خشبية • وتصل الاشغال المعدنية درجة عالية من الكمال التي يصورها مايدعى بـ « كنز پرايام » لطروادة الثانية (في حدود عام ٢٦٠٠ ق • م) والاثاث الفاخر للمقبرة الملكية في ألاجا (٢٤٠٠ ق • م) •

ولقد انتهت هذه الحضارة التي لا تملك إسماً بدمار شامل سببه الغزاة ؛ فقبع الجزء الغربي من آسيا الصغرى في فترة شبه مظلمة دامت عدة قرون • غير أن وسط الاناضول سرعان مانهض من كيوته • ويتميز العصر البرونزي الوسيط لهذه المنطقة ببقايا معمارية مهمة لمدن محصنة ، وباستخدام متزايد لنوع من الاواني الملونة المحلية تتضمن مايدعى بـ « فخار كپادوكيا » الجذاب • وفي الواقع ، فان تاريخ الاناضول الفعلي يبدأ في هذه الفترة بالذات على الرغم من كون اولى الوثائق المكتوبة عنه قد جاءتنا من أصول أجنبية •

كانت آسيا الصغرى واحدة من المراكز الرئيسية لصهر المعادن في الشرق الادنى ، وقد ادى هذا الى ازدهار تجارة نشطة بين وادي الرافديـن وجاره الشمالي منذ القدم • والى هذا يعود كذلك سبب تواجد المستوطنات الآشورية التجارية وراء سلسلة جبال طوروس خلال عهد حكم الملك الآشوري سرجون الاول (في حدود عام ١٩٠٠ ق • م) ، هذا ان لم تكن قد وجدت هناك قبـل هذا التاريخ أيضاً •(8) وكانت احدى تلك المستوطنات تقع في « بوغازكوي » ـ وهي المدينة التي ستصبح بعد ذلك عاصمة للحثيين ـ وتقع الاخرى ، وهي الاهم ، في « كولتبه » (كانيش القديمة) قرب مدينة « كيسري » في كبدوكيا • في هذه المناطق ، إستخرجت التنقيبات الآثارية التي قام بها الچيكيون والاتراك والتي دامت عدة سنوات بيوتا لتجار ومئات من الرسائل التجارية المدونـة بالطبع على رقم طينية مغلقة بظرف فخاري مختوم وقد كتبت باحدى اللهجات الاكدية المسماة « الاشورية القديمة » • ولكون تلك المراسلات تغطي اعمال مالايقل عن ستة أجيال متعاقبة ، لذلك فهي تتكفل باطلاعنا بالكثير عن التجار وأعمالهم ؛ فنعرف مثلا أنهم كانوا يصدرون الفضة والذهب والاحجار شبـه الكريمة الى بلاد آشور ويستوردون منها القصدير والمنسوجات • ويبدو أن القصدير ـ الذي ربما كان الآشوريون يحصلون عليه من آذربيجان ـ كـان يستخدم من قبل سكان الاناضول في صناعة البرونز من النحاس المستخرج من مصادر محلية • وكانت قيم المستوردات تدفع عموما بالفضة • أما نقل البضائع فكان يتم بواسطة قوافل الحمير ، وبمقدورنا تتبع الطريق الطويل الذي كانوا يسلكون من آشور الى كولتپة وبالعكس قاطعين الجزيرة وممرات طوروس • كانت نشاطات المستوطنين الآشوريين تهيمن عليها منظمة تدعى «كاروم»، والتي كانت تلعب دور غرفة التجارة ، ويترأسها عميد أو « ليمو » يعين كل سنـة • ولعل الاهمية الرئيسية لهذه « المراسلات » تكمن في كونها المصـدر الوحيـد المتوفر عن البناء السياسي والعرقي للاناضول في فجر تاريخها • وعلى الرغم من أن التجار الآشوريين كانـوا يقبضون بأيديهم على كل اقتصاد البلـد مـن

الناحية العملية ، الا انهم كانوا يحتفظون بعلائق ودية مع سكانه وزعمائه الذين اغتنوا بفضل الضرائب التي كانوا يجبونها في كل محطة من محطات التبادل التجاري تقريبا . وكان البلد منقسما الى حوالي عشر ممالك صغيرة يبدو أنها كانت تطيع حاكما واحدا يدعى « أمير الامراء » . وتعود أسماء عدة أماكن الى طبقة السكان الآسيويين القدماء (الحاتيين) ، ولكن تواجد الاسماء ذات الاصل الهندوأوربي باعداد كبيرة يوحي بان « الحثيين » قد استطاعوا عبور البسفور والتوغل في عمق آسيا الصغرى .

يغطي مصطلح « الحثيين » ، اذا ما أخذ بمعناه الاوسع ، مجموعة من الاقوام الدخيلة تتكون من ثلاثة شعوب تتحدث بثلاث لغات هندو اوربية مختلفة هي « اللويانية ، البلايكية ، والنسايتية » . كان اللويانيون اول من وصل آسيا الصغرى من هؤلاء ، ولعلهم كانوا هم الذين سببوا الدمار الذي أتى على حضارة العصر البرونزي المبكر ، ثم لحق بهم الاخرون الذين مالبثوا أن انتشروا في كل أرجاء شبه الجزيرة . استوطن اللويانيون ـ الذين كانوا يدونون لغتهم بالخط الهيروغليفي ـ غرب كليكيا على امتداد الساحل . وكان البلايكيون يستوطنون المنطقة المتموجة في « سيقاس » . اما من يسمون بالنسايتين (نسبة الى مدينة نيسا) فقد نزلوا في كبدوكيا . وفي الحقيقة فان مدينة « نيسا » (أو نيشا) هي نفسها مدينة كانيش ـ كولتيه . بعد ذلك بعدة قرون ، فتح هؤلاء الغزاة مركز هضبة الاناضول شرق أنقرة التي كان يطلق عليها سكانها المحليون اسم « حاتي » فتسمى النسايتون بهذا الاسم وصاروا يعرفون به . وقد لعب هؤلاء دوراً مهماً في تاريخ الشرق الادنى وذلك في غضون الالف الثاني ق . م .(9)

إستعار الحثيون من سوريا ـ أقرب البلدان المتحضرة اليهم ـ الخط المسماري الذي كان قد اخترع في وادي الرافدين وتبنوه في كتابة لغتهم الهندو اوربية الخاصة . وعلى الرغم من كون أغلب النصوص الحثية التي

بحوزتنا لاتعود الى تاريخ أكثر تبكيرا من القرنين الرابع عشر والثالث عشر ق ٠ م ، الا انها تشير أحيانا الى جوادث جرت في الماضي البعيد ٠ وتتحدث احدى تلك النصوص عن «پتخاناس» ملك «كسّاره» وعن ابنه «أنيتاس» الذي تغلب على خمسٍ ممالك مجاورة له بضمنها مملكة حاتي واتخذ نيسا عاصمة له ٠ ولما كانت أسماء هؤلاء الحكام تظهر أيضا في رقم وجدت في كولتپه ، ولان حملات أنيتاس تبدو وكأنها قد وضعت نهاية للمستوطنات الآشورية في كبدوكيا ، لذلك فمن الممكن تأرخة هذه الحوادث بحوالي عام (١٧٥٠ ق ٠ م) ٠ بعد ذلك نشبت ثورة في البلاط واستطاع ملك آخر لكساره — واسمه «لبرناس» الاول (١٦٨٠ — ١٦٥٠ ق ٠ م) أن يجعل «البحر حدوداً لمملكته» ثم وزع المناطق المحتلة على اولاده ٠ ولا يعرف ماهو أصل لبرناس هذا ، ولكن الملوك الحثيين يعدونه جدهم الاعلى ٠ ويجب أن نذكر في هذا الصدد بانه هو صاحب الفضل في تأسيس ماتسمى بـ «المملكة الحثية القديمة» التي استمرت في الحكم فترة وجيزة ولكنها مجيدة مثلما سنرى في الفصل القادم ٠

نترك الحثيين في الوقت الحاضر جانباً حيث يتوجب علينا الالتفات الى أحد أكثر جيرانهم أهمية وهم الحوريون ٠

الحوريون والميتانيون

عرف الحوريون قبل اكثر من ستين سنة من نص مسماري واحد فقط (رسالة وجدت في تل العمارنه بمصر) ومن الكتاب المقدس حيث يرد اسم «الحوريتيون» في سفر التكوين (٣٥، ٢٠ — ٣٠) ٠ ولقد أصبح الحوريون الان موضوعاً يثير الاهتمام البالغ لدى علماء التاريخ والآثار على حد سواء ٠ وعلى العكس من الحثيين ، لم يلعب الحوريون أي دور في سياسة الشرق الادنى حتى القرن الخامس عشر قبل الميلاد بحيث يبدأ إسمهم بالتألق لفترة وجيزة ٠ ومع أن لدينا الان من الدلالات مايثبت بشكل كاف بانهم كانوا يشكلون عنصراً

مهماً وفعالاً من سكان وادي الرافدين وسوريا خلال الالف الثاني ق • م ، ولكنهم ما زالوا من اوجه عديدة شعبا غامضا يمكن أن نذكر كل ما نعرفه عنه بكلمات قليلة(10) •

لاتوجد أية صلة تربط لغة الحوريين التي تكتب بالخط المسماري باللغات الهندو اوربية ولا السامية بل تعود في الواقع الى مجموعة غامضة من اللغات تدعى « اللغات الآسيوية » وأقرب لغة لها هي « الاورارطية » التي كان يتحدث بها شعب اورارطو (أرمينيا) في الالف الاول ق • م • أما آلهتهم الوطنية فهي الإله « تيشوپ » (إله عاصفة الجبال) وزوجته « هيبا » وهي نوع من (الإلهة الام) • واذا كانت مسألة امتلاكهم لفن خاص بهم ماتزال موضع نقاش ، الا ان الفخاريات التي عثر عليها في مستوطناتهم بمواقع معينة كانت جد متميزة • فقد خلفوا لنا اقداحا رشيقة مزينة بالزهور والطيور والتصاميم الهندسية ذات ألوان صفراء على خلفية رمادية غامقة • وتتغاير هذه الفخاريات مع فخار وادي الرافدين البسيط لتلك الفترة • ويؤرخ فخار الحوريين بصورة أكيدة مرحلة حضارية ، ويلعب في هذا المضمار دوراً يشبه دور الاواني الملونة في عصري حلف والعبيد الشبيهين بالعصر التاريخي •

تشير اصول الحوريين الدينية واللغوية الى انهم شعب جبلي باعتبار ان أرمينيا هي موطنهم الاصلي الذي لم يعزلوا انفسهم عنه أبدا • وكنا قد رأينا كيف انهم قد أسسوا ممالك لهم في الوديان العليا لدجلة والفرات خلال العهد الاكدي ، كما ان بعض الاسماء الشخصية المنفردة الواردة في التقارير الاقتصادية العائدة الى دريهم (قرب نفر) في ظل حكم سلالة اور الثالثة توحي بأن الحوريين قد شكلوا في بلاد سومر مجاميع صغيرة من المهاجرين يمكن مقارنتها بالاقلية الارمنية في مختلف انحاء العراق الحديث • ويتزايد حضور الحوريين في « الهلال الخصيب » خلال الربع الاول من الالف الثاني ق • م على الاقل في مناطق معينة ليتحول الى اقتحام سلمي • وأصبح هؤلاء

يشكلون النسبة الغالبة من السكان في مدينة « ألالاخ » السورية (بين حلب وانطاكيا) منذ عام (١٨٠٠ ق • م)(11) ؛ كما وجدت أسماء ونصوص دينية عائدة لهم في أرشيف ماري وجگر بازار • بعد هذا التاريخ بقرن اونحوه، بات الحوريون يمتلكون عملياً كامل شمال العراق فاحتلوا مدينة « گاسور » قرب كركوك وأبدلوا إسمها الى (نوزي) ، كما تبنوا لغة وتقاليد سكانها السابقين من الساميين مؤسسين بذلك كياناً حورياً جد مزدهر(12) • ووقعت تپه ــ گوره وتل بلا" (قرب الموصل)(13) داخل نطاق تأثيرهم الفعلي أيضاً • وبعد عام (١٦٠٠ ق • م) حل الفخار الحوري محل فخار حوض الخابور السمج الغريب ذي الالوان الفجة، وأصبح العنصر الحوري مهيمناً على شمال سوريا والعراق والجزيرة • لذلك يجب علينا ان لانستغرب ظهور مملكة حورية في تلك المناطق في بداية القرن الخامس عشر ق • م لها إقتدار كاف لصد كل من الآشوريين في الشرق والحثيين والمصريين في الغرب • كان قلب هذه المملكة يقع في مقاطعة البالخ ــ الخابور في منطقة يسميها الآشوريون « هانيگالبات » وتطلق عليها مدونات الساميين الغربيين اسم «نهاريم» (الانهار) • ومن المحتمل ان يكون اسم حوريينا (حوري) قد إستطاع البقاء حياً في كلمة « أورحو » وهي الاسم الاغريقي لمدينة « اورفه »(*) •

تسمي بعض النصوص المملكة الحورية في الجزيرة «مملكة ميتاني» • أشتقت كنية « الميتانيين » التي كانت تطلق على العنصر الهندو اوربي المتميز عن المجتمع الحوري خلال فترة معينة • ولا نعرف كيف ومتى حصل الامتزاج بين الهندوآريين(**) هؤلاء والحوريين ، وكيف أخضع الاولون الاخيرين ، ولكن ليس هناك سوى شك قليل في ان الهندوآريين كانوا ــ على الاقل خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق • م ــ يشكلون بين الحوريين

(*) مدينة تقع جنوب شرق تركيا شرق نهر الفرات إسمها السابق (أديسا) عندما كانت مركزاً مبكراً للديانة المسيحية •

(**) الهندوآريين هم الفرع الآسيوي من الاقوام الناطقة باللغات الهندو اوربية

طبقة أرستقراطية قائدة . وأكبر الاحتمال هو ان اسماء عدة ملوك ميتانيين ــ « متيوازه » و « تشراطا » ، والاصطلاح « ماريانو » الذي كان يطلق على بعض المحاربين ــ كانت ذات أصل هندوأوربي . وعلاوة على ذلك نجد ان احدى المعاهدات المبرمة بين الميتانيين والحثيين تتضرع الى الآلهة « ميتراسل ، أروناس ، إندرا ، وناساطيانا » (وهي بالطبع نفسها الآلهة الآرية المشهورة «ميثرا ، فارونا ، إندرا ونساطياس») جنبا الى جنب الإلهين تيشوب وهيبا . ولاشك ان هؤلاء البدو الختيدين القادمين من سهول روسيا هم الذين علموا الحوريين فن تربية الخيول (قام أحد الحوريين من مدينة بوغوزكوي بتأليف رسالة كاملة في هذا الموضوع مستخدما مصطلحات تقنية هندوأوربية) ، كما قاموا بهذه الطريقة بادخال ــ او بالاحرى ترويج ــ تربية الجياد في الشرق الادنـى .

واذا كان اسهام الحوريين في صـرح حضارة وادي الرافدين جديـرا بالاهمال(14) ، فان تأثيرهم على الحضارات الاقل تطورا في سوريا لابد وأن كان كبيرا على الرغم من صعوبة تحديد مداه بشكل واضح . ومهما يكن من أمر ، فان تدخلهم الواسع النطاق في سوريا يبدو وكأنه قـد وضع البدايـة لمجموعة من الهيجانات السياسية والتحركات العرقية التي أثرت على أماكن بعيدة ووصلت حتى الى مصر .

سوريا ومصر

تقاســم العراق وسوريا(*) وجنوب تركيا حضارات العصـر الحجري الحديث ، والعصر الحجري ــ المعدني للهـــلال الخصيب(15) في أزمنـة ماقبل التاريخ ، حيث تتشابه الطبقة الاستيطانية الاولى في جريكو مع مثيلتها

(*) يستعمل هنا مصطلح « سوريا » بمعناه الواسـع (= سوريا الكبرى) ويتضمن حاليا القطر السوري ، لبنان فلسطين وشرق الاردن . (المؤلف)

في جرمو ، كما ان المخلفات الفخارية لحسونة وحلف والعبيد قد جرى اكتشاف مثيل لها حتى في وادي الاردن جنوبا • ولكن سوريا لم تقدم مناخا جغرافيا ملائما لتأسيس مجتمعات زراعية واسعة عكس حالة سهل الرافدين ووادي النيل ، ولذلك نجدها وهي ما تزال تعيش في فترة بدائية نسبيا في الوقت الذي كانت فيه الحضارة تتبلور في كل من سومر ومصر • ويظهر من أسماء الاماكن التي وردت في النصوص المسمارية المبكرة أن سكان شمال سوريا في العصر البرونزي المبكر (الالف الثالث ق • م) لم يكونوا ساميين بل كانوا ينتمون الى مجموعة عرقية مجهولة الاصل ولعلها هي نفسها الشعب، أو الشعوب ، التي لاتمتلك إسماً والتي بنت الحضارات الشبيهة بالتاريخية فيها • وبعكسهم ، يحتمل ان يكون الساميون الغربيون قد إستوطنوا الساحل اللبناني وفلسطين منذ وقت جد مبكر وان كان هذا أمرا لم يتأكد بعد حتى الان • ان التمييز المقام هنا بين شمال وجنوب سوريا (يمر الخط الفاصل بينهما قرب شمال مدينة بيبلوس) يرتكز على قاعدة عريضة وينعكس على التطور الاقتصادي والسياسي والثقافي للبلد حيث انجذبت سوريا الشمالية ــ وذلك خلال العصر الاكدي وعهد حكم سلالة اور الثالثة ــ داخل منطقة التأثير العراقية ، بينما ولى لبنان وفلسطين ظهريهما شرقاً صوب وادي النيل(16) •

وتنعكس العلاقات بين سوريا ومصر ــ التي تأكد وجودها منذ أزمنة عصر ماقبل السلالات ــ بشكل جيد في وثائق المملكة المصرية القديمة (٢٨٠٠ ــ ٢٤٠٠ ق • م) • كان ذلك في عصر الاهرامات الكبرى حينما بدت مصر قوية شامخة لاتقهر مثل معالمها • واحتفظ الفرعون وموظفوه العديدون بجيش من العبيد الاجانب وبمجاميع كبيرة من العاملين النشطين تحت تصرفهم ،وكان كل هؤلاء يمتثلون لاوامر الفرعون وهو جالس كإله مجسم على عرشه في « ممفس » • واذا كان وادي النيل غنياً بالموارد ، الا انه كان يعاني نقصاً

جوهرياً في مواد أساسية أهمها الخشب المتوفر بكثرة في جبال لبنان الغربية بانواعه المختلفة (الصنوبر والسرو والارز) • ولذلك فقد نشأت حركة تجارية نشطة بين البلدين للحصول على المنافع المتبادلة • وانتشرت من مدينة بيبلوس (يسميها الساميون « گُبلا » والمصريون «كبيين ») — وهي المركز الرئيس لتصدير الخشب والخاضعة للتأثير المصري القوي — الحضارة المصرية على طول الساحل • غير ان العلاقات بين مصر وسكان أعماق فلسطين لم تكن بتلك الدرجة من الوئام ، حيث كان البدو — خصوصاً اولئك الذين يستوطنون في صحراء النقب — يشنون الغارة تلو الاخرى على مناجم النحاس المصرية في شبه جزيرة سيناء • وبلغت بهم الجرأة أحياناً الى الهجوم حتى على دلتا نهر النيل مجبرين الفراعنة على الرد عليهم بالمثل ، او حتى على تحصين حدودهم الشرقية • ولقد ادى سقوط « المملكة القديمة » الى ترك مصر مفتوحة دون أية حماية مما مهد للدور الكبير الذي لعبه « شعب الصحراء » ، « الآسياتي » خلال الثلاثمائة سنة التالية المتميزة بتفشي حالة شبه الفوضى •

شهدت القرون الاولى من الالف الثاني ق•م توسع الساميين الغربيين في سوريا ووادي الرافدين • ويثبت ذلك وجود فجوة بين الحضارتين البرونزية المبكرة والوسيطة ، وغلبة الاسماء السامية الغربية على سكان سوريا وفلسطين • وبينما استطاعت السلالات الآمورية أن تتسنم السلطة في عدة مدن عراقية ، نجد أن شمال سوريا قد جرى تقسيمه الى عدة ممالك آمورية أهمها مملكة «إيا محد» (حلب) و «كركميش» و «قطنا » • وقد ادت سنوات التأثير الحضاري السومري — الاكدي الطويلة الى ان يكون هذا البلد متأهباً ليخطو خطوات واسعة نحو الحضارة • فبنيت المدن الكبيرة المحصنة حول قصور الحكام المحليين ، كما ان المنحوتات المكتشفة في قصر الملك « إياريم — ليم » (ملك :لالاخ) ، على سبيل المثال ، لا تقل جودة عن تلك

التي وجدت في قصر زمري ـ ليم ملك ماري المعاصر له(17) • ولقد رأينا كيف ان ارشيفات ماري تقدم اثباتاً كافياً عن طبيعة العلاقات الوثيقة الطيبة بين وادي الرافدين وسوريا • وفي الواقع لايستطيع أحد نفي امكانية تصور وجود مجاميع كبيرة من الدويلات الآمورية الممتدة من البحر الابيض المتوسط وحتى الخليج العربي • وفي نفس الوقت فقد توثقت العلاقات التجارية بين سوريا وكريت فتأسست مستوطنة للتجار المينويين في اوگاريت (راس شمرة)(18)، كما وجدت الاواني الفخارية « الكمارية » الرائعة طريقها الى موائد ملوك سوريا • ولقد جددت مصر في عهد مملكتها الوسطى (٢١٦٠ ــ ١٦٦٠ ق • م) علاقاتها مع الساحل اللبناني ووثقتها بشكل أكبر ، كما حاولت صد التأثير الحوري المتزايد على شمال سوريا بتقديم الهدايا السخية لنبلاطات الآمورية • ويفسر لنا هذا سبب تواجد الجواهر والسنديانات والنصب الملكية المرسلة من قبل فرعون السلالة الثانية عشرة في مدن پيبلوس ، بيروت ، اوگاريت ، قطنه ونيراب (قرب حلب) •(19)

وتقدم لنا المنطقة الكائنة الى الجنوب من لبنان صورة مغايرة تماماً ؛ فهي أكثر فقراً بكثير من الشمال السوري وأقل إنفتاحاً من غيرها على التأثير الاجنبي • لذلك فقد كانت فلسطين في العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ ــ ١٦٠٠ ق • م) بلدا غير مستقر ومنقسما سياسيا يعيش في « مخاض جيشان قبلي »(20) ولم تكن للمصريين عليه أية سلطة تذكر حيث يبدو انهم لم يكونوا تواقين الى إخضاع سكانه لهيمنتهم السياسية والاقتصادية • أما مجيء ابراهيم واهله وحلولهم بين تلك القبائل غير المستقرة ــ وهو حدث لم يزل تأثيره واضحاً لحد الان في الشرق الادنى ــ فقد مر دون ان يلاحظه أحد تقريباً • كانت العشائر الصغيرة والقبائل الكبيرة قد دأبت منذ القدم الى التنقل من مكان الى آخر في بادية الشام ، وليس هناك مايدعونا للشك في حقيقة هجرة

ابراهيم من اور الى فلسطين عن طريق حران كما يصفها لنا الكتاب المقدس • وتوحي لنا مقارنة القصة المذكورة مع المواد المدونة والآثارية المتوفرة لدينا الان بان تلك الهجرة يجب ان تكون قد تمت حوالي عام (١٨٥٠ ق • م) ، او بعد هذا التاريخ بوقت قصير(21) • ولعل سبب تلك الهجرة يعود الى الاوضاع الصعبة المتردية التي عمت وقتذاك جنوب العراق الممزق بين ايسن ولارسا • ان الطابع التاريخي « للفترة الابوية(*) » يدعمه أيضاً ــ أو هذا ماكان يعتقد قبل بضع سنين ــ ذكر مجموعة من الناس كانت تعتبر من الاقوام الشرسة وتدعى « حبيرو » (او « عبيرو » بالمصرية) ــ وهو إسم جد قريب من كلمة « عبري » التي تطلقها التوراة على العبرانيين ــ وذلك في النصوص المسمارية والهيرغليفية العائدة الى القرنين الرابع والخامس عشر ق • م وبدا هذا وكأنه الاكتشاف الذي طال انتظاره لمصادر غير عبرية حول قوم ابراهيم ! غير ان الدراسة المتكاملة التي اجريت مؤخرا قد أثبتت بما لايدع أي مجال للشك بأن مجاميع الـ « حبيرو » تلك لاتمت بأية صلة كانت بالعبرانيين عدا تشابهها معهم بالاسم فقط اذ لم يكن هؤلاء شعبا ولا حتى قبيلة بل كانوا في الواقع طبقة اجتماعية أكثر أفرادها من اللاجئين (المتشردين) الذين غالباً ما كانوا يتحولون الى خارجين على القانون (22) •

وفي حوالي عام (١٧٢٠) قبل الميلاد ، أفلح رؤساء القبائل الفلسطينية ــ الذين أقلق هيجانهم وعداؤهم فراعنة السلالة الثانية عشرة المتأخرين ــ في إحتلال مصر وحكمها لحوالي مائة وخمسين سنة • ويعرف هؤلاء باسم « الهكسوس » ــ وهو المرادف الاغريقي للاسم المصري القديم لهم « هيكخيس » ويعني (شيوخ بلد التلال الاجنبي) •(23) وعلى الرغم من ان منطقة سيادتهم لم تتجاوز إقليم الدلتا المصري ، الا ان تأثيرهم الاجمالي على الحرب والفنون وحتى اللغة في ذلك البلد كان كبيراً • وعلى أية حال ، فقد

(*) تسمي الاسرائيليات كلاً من ابراهيم ويعقوب وإسحق « آباء » •

إستطاع أخيراً ملوك السلالة الثامنة عشرة اسقاط حكم الهكسوس وطاردوا فلولهم المدحورة حتى أبواب غزة ، فاستهلوا بهذا النصر ما يسمى : « عصر الامبراطورية الجديدة » (١٥٨٠ ـ ١١٠٠ ق ٠ م) وهو بالتأكيد أمجد فترة في تاريخ مصر القديمة ٠ وفي نفس ذلك الوقت تقريباً (١٥٩٥ ق ٠ م) ، سقط وادي الرافدين بأيدي محتلين أجانب هم الكاشيون ، فدخل العراق في عهدهم فترة طويلة من السبات السياسي ٠



الفصل الخامس عشر

الكاشيون

بعد ان تفحصنا الشرق الادنى بخطوط عريضة ، نعود الآن الى وادي الرافدين الذي تركناه ، كما يتذكر القارىء ، في نهاية عهد حكم حمورابي في منتصف القرن الثامن عشر ق • م •

كانت الهجرات العرقية التي وصفناها قبل قليل على وشك أن تؤتي أكلها آنذاك حيث كان الحثيون يوطدون سلطتهم على السكان المحليين في الاناضول ، والحوريون يحتلون شمال سوريا والعراق سلمياً ، وانتظمت كذلك طبقة ارستقراطية آرية ساهمت في تحويل الكاشيين الى مملكة محاربين أشداء وراء سلسلة جبال زاگروس • ولقد كان البلاط البابلي على علم بتلك التغيرات ولعله لم يجد فيها مايثير قلقه حيث أن أياً من تلك الشعوب لم يبدو انه سيشكل خطراً على العراق • وفي الواقع فان اول الشروخ في الصرح الذي شيده حمورابي لم ينجم عن عدوان أجنبي بل سببته عوامل ضعف ذاتية •

كانت إمبراطورية بابل ثمرة جهود رجل واحد، وترتبط ، بشكل كلي تقريباً بشخصيته القوية. ولما كانت هذه الامبراطورية قد تم تشييدها في غضون سنوات قليلة عبر ادماج خمس دويلات ـ كان لكل منها ماض عريق في الاستقلال ـ لذلك فقد كانت عملية مركزتها قد تمت بالاكراه وقبل نضوج ظروف ديمومتها. وكانت الجهود التي بذلها حمورابي لجعل بابل المركز السياسي والاقتصادي والروحي للبلد قمينة بأن تعد في المدى البعيد بالخير الوفير على وادي الرافدين ككل ، ولكن التأثير الآني لتلك العملية كان تحطيم المقاطعات وخلق حالة تذمر متزايدة في مدن سومر وآشور المجيدة حيث كانت ذكرى انجازات شمشي ـ أدد الكبيرة ما تزال حية في الاذهان . لذلك لانستغرب كثيراً عندما نعرف ان حمورابي ماكاد أن يتوفى (عام ١٧٥٠ ق . م) حتى اندلعت الانفجارات والعصيانات التي أدت الى التحلل السريع لمملكته لدرجة ان الحثيين عندما قاموا باحتلال بابل بعد ذلك بقرن ونصف، لم يعتبروا تلك المدينة في الواقع أكثر من عاصمة ثانوية . ومن الطريف أن نذكر ان المجد والقوة التي استعادتها بابل بعد ذلك كانت من عمل أجانب آخرين هم الكاشيون الذين تسنموا العرش المتروك شاغراً من قبل خلفاء حمورابي ومكثوا فيه فترة تنيف على الاربعة قرون .

خلفاء حمورابي

كان خليفة حمورابي ـ وهو إبنه المسمى « سمسو ـ إيلونا » (١٧٤٩ ـ ١٧١٢ ق . م) ـ يمتلك على ما يظهر بعض مؤهلات والده العظيم اذ حارب بثبات قوي أعداء بابل العديدين(1) ، الا ان الامر خرج من يديه لكثرتهم وكثرة التمزقات التي تتطلب رتقاً ، فكانت المحصلة الاخيرة خسارة فادحة في الارض. ففي أيام حكمه الاولى قام مغامر أطلق على نفسه اسم « ريم ـ سن » (وهو نفس اسم ملك لارسا الاخير) بتزعم عصيان في المقاطعات المجاورة لعيلام وبقي يصول ويجول في الساحة مدة لاتقل عن عامين قبل ان يقبض عليه

ويذبح . بعد ذلك قام « إيلوما ــ إيلو » الذي ادعى بأنه حفيد « دمنيق ــ إيليشو » آخر ملوك إيسن ــ برفع لواء الاستقلال في اقليم سومر وأصبح سيد كل المنطقة الى الجنوب من نفر وأسس بذلك ماتدعى ب « سلالة بابل الثانية » أو « سلالة الاقليم البحري » (١٧٤٠ ق . م) أعقبت هذا حرب ضروس طويلة الامد جرى خلالها إحتلال وحرق عدة مدن سومرية ، بضمنها اور ، من قبل العدوين المتنافسين كليهما . وفي نفس هذا الوقت تقريباً ، استعادت المقاطعات الشمالية الشرقية ــ التي كان حمورابي قد استطاع اخضاعها في آخر حملة له ــ حريتها يقودها هذه المرة أحد خلفاء شمشي ــ أدد المجهولين المسمى « أداسي » المشهورة عند الآشوريين بكونه قد « أنهى عبودية آشور » .(2) كما توجب على سمسو ــ إيلونا حماية مملكته ضد خطر إحتلال أجنبي اضافة الى مواجهة تلك السلسلة من الكوارث المحلية . ونعلم من أسماء السنين بأنه قد استطاع كسر جيش كاشي في سنة حكمه التاسعة ، وجيش آموري في سنة حكمه الخامسة والثلاثين ، هذا اذا لم نأخذ بعين الاعتبار الغارات التي كان يشنها السوتيون الذين دأبوا على أسر النساء والرجال وبيعهم كعبيد لسكان وادي الرافدين انفسهم(3) . وفي نهاية عهده ، كانت بابل ماتزال بمأمن من الاحتلال غير ان حدود المملكة تقلصت ثانية الى ما كانت عليه سابقا (أي حدود اقليم أكد) بعد ان سلخت منها مقاطعاتها الشمالية والجنوبية .

واستطاع خلفاء سمسو ــ إيلونا الاربعة الحفاظ على ميراثهم المنقوص لحوالي قرن من الزمان فصد « أبي ــ ايشوح » (١٧١١ ــ ١٦٨٤ ق . م) غزوة كاشية ثانية ، كما سمح للكاشيين ، او ربما شجعهم على الاستيطان في بابل للعمل في الزراعة ، ولكنه لم يفلح في منع « كاشتلياش الاول » ــ وهو زعيم الكاشيين ــ من الاستقلال بخانه (عنه الحالية) على الفرات على مبعدة مائتي ميل عن بابل(4) . كما بذل هذا الملك جهوداً كبيرة لاخراج « إيلوما ــ

إيلو » من مكمنه في اهوار جنوب العراق فأقام سداً على دجلة ولكنه فشل في الامساك بغريمه الذي استمر في حكم اقليم سومر دون أية منافسة • أما بالنسبة الى « أمّي ــ ديتانا » و « أمّي ــ صادوقا » و « شمشو ــ ديتانا » الذين حكموا بعد « أبي ــ ــ إيشوح » فيبدو أنهم لم يبذلوا غير جهد ضئيل لاستعادة المناطق التي خسرها التاج • وكل ما يمكن جمعه من المصادر والوثائق القليلة التي بحوزتنا هو أن الحرب مع الاقليم البحري قد استمرت سجالا وان البابليين قد انتصروا في عدة معارك وهزموا في معارك اخرى ، وبنيت المدن المحصنة في عدة أجزاء من المملكة • ووراء تلك الحصون قام احفاد جمورابي بترميم المعابد وشق القنوات وحكموا وادارو دفة مملكتهم بجد وعناية •(5) ومن المشكوك فيه أن هؤلاء الملوك المجدين ، النشيطين ، الورعين، الذين دأبوا على تقديم نصبهم للالهة عاماً بعد عام قد توقعوا ضربة العاصفة المتجمعة في الشمال الغربي وراء جبال طوروس المغطاة بالجليد التي ستطيح بعرشهم •

ذكرنا سابقاً ان اميراً حثياً لانعرف عنه سوى القليل جداً ــ وهو « لبرناس الاول » ــ قد أسس في الاناضول مملكة قام بتوسيعها على الفور حاكماً إياها من عاصمته مدينة « كسّاره »(6) التي لم يشخص موقعها لحد الان • واضاف ابنه « لبرناس الثاني » (١٦٥٠ ــ ١٦٢٠ ق • م) الى رقعة المملكة منطقة «حيثي» الكائنة في الانحناءة الكبيرة لنهر قزل ايرمق ، ثم سكن مدينة « حاتو شاش» المهجورة (بوغازكوي الحالية) وسمى نفسه منذ ذلك الحين « حاتو سيلس » (الرجل من حاتو شاش) • وسرعان ما اكتشف هذا الملك المحارب ان حدود مملكته كانت أضيق مما يجب فوجه انظاره الى بقع جديدة يضمها اليه • ولكن قبائل « الكاسكاس » التي تستوطن جبال البنتس في الشمال واللولوبيين في الغرب والحوريين في الشرق وقفوا حائلا أمام طموحه هذا • ولم تكن الطريق سالكة نسبيا الا باتجاه الجنوب ــ حيث كانت المنطقة

قد فتحت كما يبدو من قبل لبرناس الاول حتى مقاطعة كليكيا ـ المؤدي الى سوريا ، ومنها الى مصر أو وادي الرافدين وكلها بلدان خصبة الاراضي جمعت فيها آلاف السنين من الحضارة المجيدة ثروة عظيمة . وهكذا فقد اختار الحثيون السير جنوبا . وتعرج وثائق حاتوسيلس المكتشفة حديثا على ذكر مالايقل عن حملتين في ذلك الاتجاه دمرت خلالهما مدينة ألالاخ وحوصرت مدينة «اورشو» على الفرات شمال كركميش ثم جرى احتلالها . كما قهرت جيوش حلب (حلپا) في كوماجين . ويبدو ان الذي تلى ذلك هو محاصرة تلك المدينة التي كانت عاصمة لمملكة آمورية قوية لم تستسلم لحاتوسيلس الذي قتل في الحرب ضدها . غير ان ابن حاتوسيلس بالتبني وخليفته مورسيلس الاول (١٦٢٠ ــ ١٥٩٠ ق . م) نجح أخيراً حيث كان والده قد قتل اذ تطلعنا أحد النصوص الحثية بانه قد :

« دمر مدينة حلپا (حلب) وحمل الى حاتوشاش أسراها وكنوزها . »(7).

بعد حلب (عاصمة مملكة إيامحد الآمورية) استسلمت كركميش ، ومنها سار الجيش الحثي متتبعاً الفرات جنوباً ليظهر فجأة على أبواب بابل . أما ما الذي حدث بعد ذلك فهو أمر نجهله إذ لم يذكر لنا البابليون شيئا عن تلك الحادثة المؤلمة ، وان كنا نجد في مرثية متأخرة هذا المدخل(8) .

« حمل رجال حثي ضد شمشو ـ ديتانا وضد بلاد أكد ... »

ولكن المدونة الحثية التي اقتبسنا منها آنفاً تفصل الامر بشكل اوضح فتقول :

« بعد ذلك ، قصد (مورسيلس) بابل فاحتلها وهاجم الحوريين ايضا واخذ الاسرى والاسلاب من بابل الى حاتوشاش . »

وهكذا فقد أخذت بابل ونهبت . ونعلم من مصادر اخرى أن تماثيل مزدوخ

وزوجته الإلهة سربانيتم قد نقلت كغنائم وتركت لسبب غامض في مدينة « عنه » التي إنسحب اليها الحثيون . اما شمشو ـ ديتانا فقد خسر العرش وربما حياته ايضا . وهكذا اختفت بين عشية وضحاها وبدون كبير مقاومة السلالة التي أسسها شيخ آموري مجهول والتي جعل منها حمورابي مملكة ذائعة الصيت دام عهدها ثلاثة قرون (١٨٩٤ـ١٥٩٥ ق . م) .

العراق في ظل الحكم الكاشيّ

لو قدر للحملة الحثية أن تتلى باحتلال دائم لبابل لكان من شأن هـذا بالتأكيد أن يغير وقائع تاريخ الشرق . ولكنها ، أي الحملة ، لم تكن أكثر من غارة جسورة انتهت اثر عودة مورسيلس المنتصر الى حاتوشاش حيث قضت مؤامرات البلاط الخطرةضده على تواجده هناك ، ولم يعد ثانية أبداً.ولانعرف بشكل مؤكد ماكان مصير بابل بعد انسحاب الجيش الحثي . ويبدو أن الحاكم الكاشي في تلك الايام ـ وهو أغلب الظن الملك الثامن للسلالة ويدعى « آكوم الثاني » (كاكرايم) ـ قد إهتبل الفرصة السانحة فاعتلى العرش الذي تـرك شاغراً بمقتل شمشو ـ ديتانا . ومنذ ذلك الوقت حكم وادي الرافدين من قبل عدد كبير من الملوك الكاشيين الذين كانوا يطلقون على البلد اسم « كار ـ دونياش » والذين استمر عهد حكمهم مالايقل عن (٤٣٣) عاماً (١٥٩٥ ـ ١١٦٢ ق . م) .

كان الكاشيون الذين سكنوا ايران منذ أقدم الازمان (يسميهم الاديون « كاشّو ») قد استوطنوا اولاً الجزء الاوسط من سلسلة جبال زاكروس الذي يسمى الان « لورستان » جنوب همدان . وعلى العكس من جيرانهم الشماليين ـ الكوتيين واللولوبيين ـ لم ينهضوا بأي دور في التاريخ السياسي للشرق الادنى خلال الالف الثاني ق . م . ويبدو أن عدوانيتهم المفاجئة التي ظهرت فيأواسط القرن الثامن عشر ق.م ـ قد حفزها المحاربون الهندو اوربيونالذين قدموا من الشرق قبل قرن او قرنين من الزمان فعلموهم فن تربية الجياد وهيمنوا

الآلهة والاشخاص كتبت بهاتين اللغتين ــ لذلك فان كل ما بوسعنا قوله فيها على قبائلهم . ولاننا لا نمتلك نصاً مدوناً بأكمله باللغة الكاشية بل توجد لدينا نصوص أكدية تحتوي مفردات وتعابير كاشية تتمثل في قائمة باسماء انها لغة إلصاقية تعود الى مجموعة لغوية آسيوية واسعة ولعلها تتصل من بعيد باللغة العيلامية(9) . ويؤكد وجود آلهة آرية في البانثيون الكاشي تمازجهم مع العنصر الهندو أوربي حيث ترد أسماء نحو « شورياش » (« سوريا في الهندو اوربية) و « وماروتاش » (ماروت) « وبورياش » (ربما كان نفسه « بورياس » اله الرياح الشمالية عند الاغارقة) جنبا الى جنب الآلهة السومرية ــ الاكدية والآلهة الكاشية (كاشّو ، شيپاك ، هاريا ، شوماليا ، شوكامونا) . تلك هي كل المعلومات التي تتوفر لدينا عن الخلفية العرقية والثقافية لسكان الجبال هؤلاء .

ولسوء الحظ فان وضعنا ليس أفضل من سابقه فيما يتعلق بمعلوماتنا عن فترة الهيمنة الكاشية على العراق . وليس من شك في ان استمرار التنقيبات الآثارية يمكن ان يسلط الضوء على وثائق جديدة تفوق أهميتها على المائتي مخطوطة ملكية التي نمتلكها عن هذه الفترة(10) ــ وبعضها موجز وضئيل القيمة تاريخيا ــ الى جانب عدد من الرسائل القليلة والنصوص الاقتصادية . وكمية هذه الوثائق هي بالتأكيد يسيره جدا اذا ما قورنت بطول فترة الاحتلال هذه التي تتجاوز الاربعمائة عام ــ أي نفس المدة التي تفصلنا الان عن عهد حكم الملكة ألزابث الاولى(*) . وتأتي أغلب معلوماتنا في الواقع من مصادر اجنبية على « مملكة بابل » كرسائل تل العمارنة(**) المكتشفة في مصر أو وثيقة «التاريخ المعاصر» المدونة من قبل كاتب آشوري في القرن السابع ق.م(11) .

(*) الزابث الاولى ملكة انكلترا (١٥٥٨ ــ ١٦٠٣ م)
(**) يقع تل العمارنة على الضفة اليمنى من نهر النيل جنوب القاهرة بثلثمائة كيلو متر وقد كان إخناتون قد شيد في موقعه مدينته العاصمة .

ان هذا الصمت يجعل من الفترة الكاشية واحدة من أكثر العصور غموضاً في تاريخ وادي الرافدين ، وسرعان ما تخطر على بالنا تعابير « الفترة المظلمة » او « الانحلال » لدى تفحصنا لهذه الفترة . وعلى أية حال فاننا اذا ما إستثمرنا مصادرنا بشكل تام ، واذا ما أخذنا بعين الاعتبار النصب التي أقامها الملوك الكاشيون ، فان تلك الاعوام الطويلة من الانحلال السياسي تبدو ــ اذا ماقورنت بالسني الاخيرة لحكم سلالة بابل الاولى ــ فترة انتعاش ، بل وحتى تطور في بعض الحقول على الاقل . فليس هناك من شك مثلا في ان الكاشيين قد أعادوا الامن والسلام والوحدة الى بلد اكلته الحروب المستمرة طوال خمسمائة عام . كما حافظ الملوك الكاشيون على التقاليد المحلية ، وتصرفوا في شتى المجالات كملوك حكماء طيبين . لذلك نرى ان اول عمل قام به آگوم كاكرايم (١٦٠٢ ــ ١٥٨٥ ق . م) بعد أن اصبح ملكا على بابل هو استعادة تماثيل مردوخ وسربانيتم من عنه وأعادة تثبيتها في معابدهما التي أثثت بشكل فخم احتفاء بهذه المناسبة(12) . ويعتقد ان هذه الايماءة كان يبتغى منها كسب قلوب الرعايا ، ولكنها امتلكت أهمية اكثر من ذلك حيث اوضحت ان اولئك الملوك الاجانب قد اعترفوا بمردوخ كسيد للملكة الجديدة ، واعتبروا انفسهم الورثة الشرعيين للسلالة المنقرضة . وبعد هذا التاريخ بثمانين عاما دحر « اولامبورياش » ، ملك بابل ، « إيا ــ گميل » ملك سلالة القطر البحري فأعاد بذلك الى بابل كامل التراب السومري بعد عام (١٥٠٠ ق . م) ، ولا نعلم فيما اذا كانت قد جرت حروب اخرى اقل نجاحاً من سابقتها بين بابل وآشور ولم يجر تدوينها ، ام ان الكاشيين قد تخلوا عن أي امل في اعادة بناء امبراطورية حمورابي . ولكننا نعلم ان احد خلفاء آگوم وهو « بورنا ــ بورياش الاول » قد عقد مع الامير الآشوري « پزر ــ آشور الثالث » اتفاقية تخص الحدود الفاصلة بين المملكتين المارة حول منطقة سامراء ؛ وجرى كذلك توقيع معاهدة ثانية مماثلة بعد ذلك بقرن من الزمان بين « كارا ــ إنداش »

و « آشور ـ بعل ـ نشيشو » (١٤٣٠ ق • م)(13) • وهكذا فقد تكرس إنقسام وادي الرافدين الى قسمين هما بابل وآشور وهو الانشطار الذي ستدوم آثاره لحوالي الف عام قادم • وخلال كافة عهودهم ، اخذ الملوك الكاشيون على عاتقهم مهمة اعادة بناء وتزويق معابد نفر المشهورة ومعابد لارسا واور واوروك • لقد ترك لنا احد اولئك الملوك ـ وهو «كارا ـ إنداش» عملا فنياً مثيراً هو معبد شيدت واجهته بالآجر المصمم بشكل يعطي أجساماً لمخلوقات مقدسة في هيئة نحت بارز خفيف عند شده ببعضه(14) • كان هذا التكنيك البارع ـ الذي ربما استحدث كبديل للنقش على الحجر ـ شيئاً جديداً في وادي الرافدين ، ولقد بقي يستخدم بعد ذلك من قبل السلالة الكلدانية في بابل ، وكذلك من قبل الاخمينيين في سوسه وبرسيبولس • وكان « كوريكالزو الثاني » (١٣٤٥ ـ ١٣٢٤ ق • م) أكثر البناة الكاشيين تحمسا اذ لم يكتف بترميم مدينة اور المخربة في عهد حكم شمشو ـ إيلونا ، بل أسس مدينة جديدة مهمة تمثلها الان أطلال « عگرگوف » •

يقع برج عگرگوف ـ الذي يشمخ بظله على السهل مشكلاً أثراً بارزاً في المنطقة (ارتفاعه ١٧٠ قدما) ـ على مبعدة عشرين ميلا غرب بغداد • ويعتقد انه نواة لزقورة ضخمة كانت تنتصب يوما وسط «دور كوريكالزو» (= المدينة المحصنة (دور) مسكن الملك كوريكالزو) • ولقد كشفت لنا التنقيبات الآثارية العراقية التي اجريت في عقرقوف بين الاعوام (١٩٤٣ـ١٩٤٥ م) عن قاعدة الزقورة وسلمها الجميل إضافة الى ثلاثة معابد وقسم من قصر(15) مزين بمنحوتات جصية يضم ممشى مسقفاً ذا أربعة اعمدة تعتبر تجديداً معمارياً ثانياً • وقد كرست تلك المعابد الى « العائلة المقدسة » (انليل ، ننليل ، نثورتا) • ويصور لنا تواجد تلك الآلهة السومرية في مدينة أسسها ملك كاشي درجة استيعاب اولئك الاجانب للموروث الحضاري الوطني لوادي الرافدين في ذلك الحين • ووجدت كذلك عدة أشياء اخرى مثيرة للاهتمام

منها تمثال لكوريكالزو بحجم أكبر من الطبيعي نحتت عليه مخطوطة سومرية طويلة •(16) كما كان من بين المكتشفات دمى طينية قولبت بمهارة فائقة •

يعتقد بعض المؤرخين ان الفضل يعود للكاشيين في إدخال الجياد الى وادي الرافدين وهذا أمر غير صحيح تماماً • ان تعبير « حمار البلدان الاجنبية » (إنشور ــ كور ــ را) ــ وهو الاسم الذي يطلقه السومريون على الحصان يظهر في مواضع شتى ، وفي نصوص تعود الى سلالة اور الثالثة ، كما تذكر الجياد باسمها الاكدي « سيسو » في المراسلات الملكية لمدينة ماري(17) • الا ان استخدام الحصان للجر كان قد امسى بالتأكيد امراً اكثر شيوعاً خلال فترة الحكم الكاشية بفضل الحوريين والكاشيين أنفسهم • ولقد أدى ظهور العربات التي تجرها الخيول السريعة في سوح المعارك في الشرق الادنى ــ مثلما كان متوقعا ــ الى احداث ثورة في فنون الحرب ، كما ادى استبدال الحمير في نقل الحمولات بالعربات التي تسحبها الجياد الى جعل النقل البضاعي أسهل وأسرع مما سبق • وجرت تغييرات رئيسية وثانوية عديدة كان وراءها مجيء الكاشيين ، او أنها ، على الاقل ، قد حصلت في عهدهم • وتتراوح هذه التغيرات من استبدال طرق قياس مساحة الحقول الى موظة الالبسة وتغطي مجالات عديدة لا قبل لنا في وصفها بالتفصيل في هذا المكان • ولكن اثنين من تلك التغيرات على أية حال يحوزان أهمية خاصة عند المؤرخين : أولهما استبدال اسلوب التأرخة القديم المستند على أسماء السنين بنظام أسهل تعطى بموجبه سني حكم كل ملك ابتداء من اول سنة له بعد التتويج أرقاماً متسلسلة نحو السنة الاولى او الثانية او الثالثة ••• الخ من عهد حكم الملك « س » مثلا • أما الابتداع الجديد الآخر فهو ما يعرف بـ « الكـُدرّو » • وتعني هذه المفردة بالاكدية « الحدود » ، وهي عبارة عن مسلات غالباً مايطلق عليها اسم « أحجار الحدود » وان كانت في حقيقة الامر مواثيق هبوية وتسجيلات للاقطاعات الملكية من الارض تحفر على

الحجارة ويحتفظ بها في المعابد ويزود المالكون بنسخ طينية لها(18) • ويحتوي حجر الحدود « الكـُدُرّو » على قسمين اولهما وهو القسم الاعلى « ركتو » تنحت عليه صور الآلهة ـ التي غالبا مايستعاض عنها برموزها فيرمز للاله « شمش » بقرص الشمس وبهلال ا « سن » ومجرفة لـ« مردوخ » •••• الخ ـ والتي تمنح الارض من قبل الملك بضماناتها • وفي القسم الاسفل « ڤيرسو » تنقش مخطوطة مسهبة تذكر اسم الشخص المستفيد من الهبة وموقع ومساحة الارض بالضبط ، تعقبها الامتيازات الملحقة بها مع قائمة باسمـاء الشهـود ، واخيراً تأتي اللعنات المضاعفة المخيفة لتتنزل على كل من « يقوم في المستقبل بتخريب ، او تحريف ، او تشويه معالم الكـُدرّو » •

ان هذه النصب الصغيرة ، إضافة الى الاختام الاسطوانيـة والدمـى الطينية(19) ، هي تقريباً كل ما تبقى لنا من الاعمال الفنية للحقبة الكاشيـة ، والقليل منها ملفت للنظر • وتتسم هذه الاعمال بالضآلة والتواضع في القيمـة الفنية وبكون مضامينها كلائشية فاقدة للحياة • فالتصاميم الظاهرة على الاختام ـ التي أصبحت الان تغطى كلها تقريباً بالكتابة ـ وعلى أحجار الحدود تسودها الرمزية والجمود في أغلب الاحيان • لقد كانت الفنون التشكيلية تمر في تلـك الايام بفترة من الركود لم تنته الا في القرنين السابع والسادس ق • م إبـان ازدهار فن النحت الآشوري • اما في ميدان الادب فتتميز الفترة الكاشـيه بالمجهودات الكبيرة المبذولة للحفاظ على التراث الثقافي المستمد من عصـور امتازت بابداعات أعلى وأكبر • كانت وراء تلك الجهود وجهة نظر دينية ذات جدة نموذجية في تعاملها مع المعضلات المرتبطة بالمعتقدات • فاستنسـخت الاعمـال العلمية كالملاحظات الطبية والفلكية المتراكمة خلال فترات حكم إيسن ولارسا والفترة البابلية القديمة ، وصنفت في مجاميع مفصلة ، كما ألفت قواميس وقوائم بالرموز المسمارية • وكان قد تمت في ظل عهد سلالة بابل الاولى إعادة تنظيم وترتيب الاساطير والقصص السومرية ـ الاكدية لتصبح أبسـط واوضـح

وبأسلوب رشيق مجدد • اما في عهد الحكم الكاشي فقد أصبحت تلك القصص تصدر عن أجيال من كتبة المعابد وتدون بلهجة متحذلقة نوعا ما (اللغة البابلية الفصحى) تختلف عن « اللهجة البابلية الوسطى الدارجة » • واستبقيت المفاهيم الدينية والفلسفية الموروثة الا ان العلاقة بين الانسان والآلهة اصبحت تستند في أهميتها على « التخلي » و « الاستسلام » لمشيئة الآلهة بدلاً من « الثقــة » بها ، وعلى الخرافات بدلا من الايمان • وتوضح هذه الروحية الجديدة(20) بشكل واضح قطع من الادب الحكمي كقصة « لودلول بعل نميقي » المذكورة سابقاً ، بينما ينعكس التعصب الاعمى في « رزنامات أيام النحس » ومجاميــع التعازيم لطرد الابالسة • كل هذه المفاهيم لم تكــن أصيــلة في فكــر وادي الرافدين • ولكن كهنة بابل من ذوي الاطلاع الواسع استطاعوا الحفاظ على ادب وادي الرافدين من النسيان مثلما قام الرهبان الاوربيــون في العصـــور الوسطى بانقاذ عناصر الحضارة الاغريقية ـ الرومانية من الضياع • كان أدب وادي الرافدين قد تبوأ منزلة عالية في الشرق الادنى القديم أهلته لان يجـري تبنيه من قبل شعوب عدة بلدان تمتد رقعتها من الاناضول وحتــى مصــر • فترجمت ملحمة گلگامش الى اللغتين الحثية والحورية ، كما اكتشفت نسخ من الاساطير البابلية على ضفاف النيل • وعلاوة على ذلك ، فقــد كانت البابليــة « لغة سائدة » في كافة البلاطات والدوائر الدبلوماسية الشرقية طوال النصف الثاني من الالف الثاني ق • م ، أي في نفس الوقت الذي كانت فيه بابل شبــه خاملة ثانويا من الناحية السياسية • واذا كان وادي الرافدين قد امسى يلعب دوراً ثانوياً في الاحداث العالمية الجديدة فحسب ، الا انه كان ما يزال طويــل الباع في ميدان الحضارة •

الفصل السادس عشر

الكاشيون ، الآشوريون ، والقوى الشرقية

إتسمت ثلاثة من القرون الاربعة التي حكم خلالها الكاشيون وادي الرافدين بصراعات حادة بين أمم الشرق الادنى الكبيرة • وكان وراء هذه النزاعات احتلال المصريين لسوريا وتجدد مطالبة الحثيين بذلك البلد ، وتأسيس مملكة حورية ـ ميتانية امتد سلطانها من البحر الابيض المتوسط حتى جبال زاكروس وقفت حجر عثرة امام الطموحات المصرية والحثية وكذلك الآشورية بعدئذ • وبينما كانت المناطق المتنازع عليها ، وهي سوريا والجزيرة ، لاتبعد الا القليل عن بابل ، غير ان الملوك الكاشيين كانوا أكثر ضعفاً أو حكمة من ان يسمحوا لانفسهم بالتورط في تلك المعمعة حتى أواسط القرن الرابع عشر ق • م عندما أجبرهم الضغط الآشوري على دخول الحرب • واستمتع البابليون بين الأعوام (١٦٠٠ ــ ١٣٥٠ ق • م) ــ بارقام مدورة ــ بسلام شبه دائم

باستثناء حربهم المظفرة ضد مملكة القطر البحري والمناوشات التي جرت على إمتداد حدودهم الشمالية . وعندما كان الشرق يتأجج بعد عام (١٤٨٠ ق . م) في أتون حرب شعواء ، كان الكاشيون وحدهم هم الذين بقوا ينتظرون متفرجين على اشتباك الامبراطوريات ذاك . وبسبب الدور الثانوي نسبياً الذي لعبته بابل ، وآشور ايضا خلال فترة طويلة ، في الهيجان السياسي الكبير للالف الثاني ق . م ، لذلك سنقتصر هنا على تقديم موجز لتلك الحوادث المتشابكة التي يمكن الحصول على تفاصيلها من أي كتاب تاريخ يعالج الجوانب العريضة والواسعة لتاريخ الشرق الادنى . مع ذلك فسنتناول في هذا المقام ببعض التركيز تلك الحوادث التي جرت على ارض وادي الرافدين او التي أثرت على مصائر هذا البلد(1) .

مصر مقابل ميتاني

لم تلمس حالاً تأثيرات الوضع السياسي الجديد الناجم عن احتلال الهكسوس لمصر عام (١٧٠٠ ق.م) وسقوط سلالة بابل الاولى (١٥٩٥ ق.م) ويبدو أن القرن السادس عشر قد تميز بفترة ثبات نسبي قامت خلالها الامم التي ستتواجه بالمستقبل جيوشها في سوح المعارك بسوريا بتضميد جراحها وحد اسلحتها . كان قد تم طرد الهكسوس من دلتا نهر النيل منذ عام (١٥٨٠ ق . م) ولكن فراعنة السلالة الثامنة عشرة الاوائل كانوا منهمكين في تثبيت اقدامهم في أرجاء بلدهم نفسه ، ولم يشغلوا أنفسهم بمغامرات خارجية . وحتى حملة تحتمس الاول عبر سوريا حتى الفرات عام (١٥٢٥ ق . م) لم تكن اكثر من غزوة غير دائمة النتائج . وفي شبه جزيرة الاناضول ، كانت دعائم المملكة الحثية القديمة تتقوض ببطء بفعل الثورات الداخلية والهجمات الخارجية . فبعد إغتيال مورسيلس الاول ــ وهو الذي إحتل حلب وبابل عام (١٥٩٠ ق.م) ــ تخلى خلفاؤه عن أية مطالبة بالمناطق الكائنة الى الجنوب من سلسلة جبال طوروس . وفي القطر الآشوري ، كان يحكم أحفاد « إداسي »

ـ وهو الامير الذي خلص بلده من الحكم البابلي •الا ان اولئك الامراء سيبقون بالنسبة لنا مجرد أسماء في قائمة بسبب إقتصار مصادر معلوماتنا على المدونات الجدارية(2) ، وعلى إشارة عابرة الى « يزر ـ آشور الثالث » تـرد في وثيقة « التاريخ المعاصر » • أما بابل فقد كانت تستعيد وحدتها وتنظيمهـا بفضل الكاشيين غير الراغبين ، او بالاحرى غير القادرين ، على الانغماس في أحلام التوسع الخارجي • وربما كان الحوريون وقادتهم الميتانيون اكثر شعوب الشرق نشاطاً في تلك الحقبة • وبينما يحول الغياب التام لاي إثبات مكتوب دون طرح أية معلومات أكيدة عنهم ، الا ان بوسعنا التخمين ، إستنادا الـى حوادث تالية ، بان الحوريين والميتانيين قد انتهزوا فرصـة وجـود الفـراغ السياسي في كل من سوريا الشمالية وشمال العـراق الـذي خلفه سـقوط امبراطورية حمورابي وانسحاب الحثيين من وادي الرافدين من أجل تنظيـم أنفسهم في مملكة عظيمة في تلك المناطق •

ثم ، وفي فجر القرن الخامس عشر ، بدأت القلاقل فجأة من جديد فـي ارجاء الشرق الادنى تجلبها رياح آتية من اتجاه غير متوقع • كانت مصر ـ التي تحمي حدودها الصحارى تعيش منذ الفي عام في عزلة سياسـية ـ وليسـت تجارية ـ عن بقية بلدان الشرق • صحيح ان حدودها الشمالية الشرقية لـم تكن محصنة وانها قد تعرضت في أحايين كثيرة لهجمات الآموريين من البدو الرحل الذين دأبوا على عبور برزخ السويس والتوغل داخل الدلتا مثيرين قلقاً حاداً لدى اهلها ، ولكن هؤلاء البدو لم ينجحوا مطلقاً في بسط سيادتهم الكاملة على مصر • غير ان حادثة اجتياح الهكسوس لارض مصر واحتلالهم الطويل لها علمت المصريين درساً مفاده انهم اذا ما أرادوا تجنب احتلالات مشابهة في المستقبـل فان عليهم محاربة الآسيويين في بلدانهم نفسها واخضاعها لهم • تلك هي الفكرة التي كانت بذهن تحتمس الثالث عام (١٤٨٠ ق • م) عندما بادر الى احتلال سوريا وابتدأ بذلك بفتح آفاق جديدة امام الطموحات المصرية وقدم نموذجـاً

للسياسة المصرية بات يُحتذى به على مر العصور • وتؤكد حقيقة كونه قد احتاج سبعة عشر عاما كاملة كي يبسط سيطرته على فلسطين وساحل لبنان وسوريا بأنه قد واجه مقاومة تفوق المقدرة الفعلية لامراء سوريا وفلسطين ، أي ان الاخيرين لابد ان يكونوا قد حصلوا على العون الحربي بالرجال والمعدات من دولة قوية أخرى • ولم يكن الكنعانيون او الآموريون هم الأعداء الالداء للمصريين في سوريا بل كانوا الحوريين ـ الميتانيين الذين توغلوا داخل تلك المنطقة منذ أمد بعيد وأصبحوا وقتذاك جيدي التنظيم هناك • كانت مملكة ميتاني تهيمن على المنطقة التي يسميها الآشوريون « هانيگالبات »(3) وهي سهوب الإستب الكائنة بين دجلة والفرات الى الجنوب من سلسلة جبال طوروس • وكانت عاصمتهم « واشوكّانّي » تقع في مكان ما من هذه المنطقة (ربما قرب رأس نهر الخابور) حيث لم يحدد بعد موقعها بشكل قاطع(4) • وكانت حدودهم الشمالية والجنوبية غير محددة المعالم بالنسبة لهم مثلما هي بالنسبة لنا وإن كنا نعلم من مصادر حثية بان الحوريين كانوا قد إستطاعوا أن يوطدوا حكمهم في ارمينيا وان يهددوا مملكتهم (أي مملكة الحثيين) • وفي القرن الخامس عشر ق • م كانت المنطقة الواقعة بين سوريا الشمالية غرباً وبلاد آشور شرقاً كائنة في ظل الحكم الميتاني • وأول ملك ميتاني نعرفه هو « باراتانا » (حوالي عام ١٤٨٠ ق • م) الذي يرد ذكر إسمه في مدونة تمثال «إدريمي» ملك ألالاخ الذي يشير اليه باعتباره سيده ؛ كما يرد ذكره في رقيم عثر عليه في نوزي قرب كركوك(5) • وفي نوزي أيضاً عثر على خاتم خليفة « باراتانا » المدعو « شاوشاتار »(6) • وعلاوة على هذا ، فان هناك دلائل مقنعة على حضور التأثير السياسي الحوري ـ الميتاني فيأوگاريت وقطنا وفي فلسطين ايضاً وإن كان بشكل غير مباشر • ويمكن ملاحظة وجود تأثير أعظم من هذا في شمال العراق حيث تتوفر براهين كافية لحملنا على الاعتقاد بأن كافة ملوك آشور الذين حكموا بين الاعوام (١٥٠٠ ـ ١٣٦٠ ق • م) كانوا خاضعين

بالفعل الى نفوذ ملوك ميتاني حيث يعلمنا شاوشاتار بانه قد غزا آشور ونقل منها « باباً من الذهب والفضة » الى عاصمته واشوكاني عندما تجرأ أحد ملوكها على إعلان عصيانه .(7)

ولم تخضع انتصارات تحتمس الثالث الا قسماً من هذه المملكة الكبيرة للسيطرة المصرية . وفي سوريا ، استطاع الميتانيون الاحتفاظ بالالاخ وكركميش ، كما هيّجوا عدة تمردات كانت كافية لحمل امنوفيس الثاني على تجريد عدة حملات عسكرية تأديبية على المنطقة . وفي ظل عهد حكم الفرعون تحتمس الرابع (١٤١٣ ـ ١٤٠٥ ق . م) إنتهت بشكل دراماتيكي حالة العداء التقليدية بين طيبه وواشوكاني حيث ارسل الفرعون يطلب يد كريمة « أرتناما الاول » ملك ميتاني « سبع مرات »(8) ، كما تزوج امنوفيس الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٦٧) إبنة شوتارنا المسماة « كيلو ـ حيبا » . وكثيرا ما يُعلل هذا الانقلاب السريع في السياسة بخوف مصر من الحثيين وإن كان هذا أمراً غير مؤكد بالمرة . كان الملك الحثي « تودخالياس » الاول قد أسس في حوالي عام (١٤٧٦ ق . م) سلالة جديدة في الاناضول ، كما أكد باحتلاله حلب مطالبة الحثيين بحقوقهم في المقاطعات الكائنة الى الجنوب من جبال طوروس ـ وربما كان احتلال حلب قد جرى نكاية بالملك تحتمس الثالث(9) . ولكن خلفاء تود خالياس هذا مالبثوا أن إنشغلوا تماماً في حروب أناضولية مرهقة ولم يكونوا في وضع يجعلهم مصدرا للخطر الجسيم على مصر وميتاني بالدرجة التي تكفي لحملهما على التقارب مع بعضهما . وفي كل الاحتمالات لابد ان تكون الحقيقة وراء ذلك التبدل هي ان المصريين قد أدركوا عدم قدرتهم على احتلال كامل تراب سوريا ، وان الميتانيين من جانبهم قد ادركوا ايضاً استحالة استعادتهم لفلسطين والاجزاء التي اقتطعتها مصر من سوريا ، وهكذا فقد رضخ الطرفان للامر الواقع وقررا إحلال التحالف الودي محل العداء القديم بينهما .

عصر شوپيلوليوما

يتسم القرن الرابع عشر ق • م بكونه من أكثر الفترات غنى بالوثائق في الالف الثاني ق • م بعد عصر شمشي ـ ادد وحمورابي • فالمعاهدات والحوليات الحثية والمدونات الآشورية والوثائق الآشورية ـ البابلية ، وفوق كل هذا الثلاثمائة رسالة التي وجهت من قبل ملوك غرب آسيا الى امنوفيس الثالث والرابع المكتشفة في تل العمارنة بمصر(10) ، كلها ، تسلط ضوءاً ساطعاً على تلك الحقبة من الصراعات العسكرية والتحركات الدبلوماسية الذكية كما وتتكفل هذه الوثائق بالافصاح وبشكل مفصل عن شخصيات بعض من اقوى ملوك الشرق القديم واكثرهم جاذبية : كأمنوفيس الرابع (أخناتون) ـ الفرعون الغامض الذي كان مهتما بالدين اكثر من إهتمامه بالسياسة ـ وكوريكالزو الثاني ـ وهو الملك الكاشي الوحيد الذي نستطيع اعتباره فاتحاً ـ وآشور ـ أبلّط ـ الامير الذي حرر بلاده آشور وجعلها امة عظيمة مرة اخرى ـ ثم يأتي أخيراً اعظمهم طراً وهو العاهل الحثي المجد الذي فرض نفسه على كامل هذا العصر ، وهو : شوپيلوليوما •(11)

تعمقت العلائق الدبلوماسية والعائلية بين مصر وميتاني خلال الربع الاول من هذا القرن ، وامتدت الى الامم الاخرى سابغة على مجمل الشرق الادنى مظهر العائلة السعيدة التي لعبت فيها مصر دور الصهر الثري • فقام «تشراطا» بعد ان خلف أباه شوتارنا على العرش الميتاني عام (١٣٨٥ ق•م) ، بتزويج ابنته « تادو ـ حيبا » الى الفرعون امنوفيس الثالث ، وعندما مرض الفرعون العجوز هذا ، ارسل اليه تشراطا نسخة من تمثال « عشتار ـ نينوى» الذي كان مشهورا بطرده لاشد انواع الامراض فتكا • كما قام الملك الكاشي « كاداشمان ـ انليل » الاول بالحاق ابنته الى حريم امنوفيس واستلم منه

شحنات ضخمة من الذهب(12) • حتى الآشوريون ارسلوا سفراءهم الى بلاط طيبه ، بعد استحواذهم على موافقة اسيادهم الميتانيين طبعاً • ولكن ما ان حل عام ١٣٨٢ ق • م حتى اصبح شوپيلوليوما المجهول الاصل ملكاً على بوغازكوي وقاد بعد بضع سنين جيشا حثيا نحو سوريا • ولما فشلت حملته الاولى ضد حلب ـ التي إنتقلت الآن الى أيدي الميتانيين مرة اخرى ـ سارع الى تسيير حملة ثانية واجتاز الفرات قرب ملاطية متوغلا في بلاد ميتاني من الشمال فاحتل واشوكاني وسلبها ، ثم اتجه غرباً حيث عبر الفرات ثانية قرب كركميش فاحتل حلب واخضع المنطقة المسماة « نوهاشه » الى الجنوب منها ثم اغتصب قطنا وامسك بحصن قادش (« تل نبي مند » جنوب حمص) الذي كان يؤشر الخط الفاصل الشمالي لمنطقة الاحتلال المصرية في سوريا • وفي نفس الوقت فقد إستطاع بحنكته ودهائه اثارة القلاقل بين الامارات السورية كي يبسط نفوذه الى ممالك لم تكن تقع مباشرة في طريقه وبضمنها اوگاريت والالاخ • واخيراً ، وبعد ان ترك وراءه مساندين غيورين شجعان ، عاد الى وطنه حيث وجد امامه اعمالا صعبة ومهمات ملحة استنفدت كل نشاطاته لحوالي عشرين سنة قادمة •

كان هذا الانتصار العسكري والسياسي الكبير صفعة قوية للمصريين ، وكارثة شبه ماحقة للميتانيين الذين وجدوا أنفسهم فجأة وقد فقدوا كل ممتلكاتهم غرب الفرات • وفي سوريا ، قام الامراء المحليون ، ومن ورائهم الحثيون ، بالوثوب على جيرانهم الذين استصرخوا مصر لمد يد العون لهم • وتمتلىء أرشيفات تل العمارنة باخبار معاركهم ، اضافة الى اخبار النزاعات بين شيوخ فلسطين المهاجمين باستمرار من قبل عصابات الحبيرو • غير ان اغلب تلك الرسائل تركت دون اجابة حيث كان امنوفيس الثالث وقتذاك شيخاً مريضاً اضعف من ان يستطيع التدخل لصالح حلفائه ، ثم مالبث ان توفي بعيد الحملة الحثية تاركاً العرش لامنوفيس الرابع ، الفرعون الضعيف المتخنث

وذي الهوى الديني(*) (١٣٦٧-١٣٥٠ ق.م) والواقع تحت سلطان امه الملكة « تايه » . رفض امنوفيس الرابع ولاسباب عديدة التورط في وضع سوريا المعقد ولكنه استمر في اتجاه نفس السياسة الخارجية لسلفه فتزوج اصغر زوجات ابيه الميتانية تادو ـ حيبا ـ ربما هي نفسها « نفرتيتي » الجميلة ـ كما احتفظ بافضل مايمكن من الصلات الحميمة مع معاصره الكاشي الملك « بورنابورياش » الثاني (١٣٧٥ ـ ١٣٤٧ ق . م) ويمكن الاطلاع على تفاصيل تلك الصلات الحسنة بين الفرعون وملك كاردونياش من رسائل تل العمارنة حيث نجدهما يتبادلان الهدايا فيرسل الكاشي جياداً واحجاراً كريمة ويرد المصري بارسال العاج والذهب وخشب الابنوس . وفي بعض الاحيان كانت شحنة الذهب المستلمة فعلاً أقل من الكمية المعلنة رسمياً لذلك نجد ملك بابل يتشكى بمرارة قائلاً :

« ان شحنة الذهب الاخيرة التي بعثها اخي ـ لان اخي لم يولها عنايته الشخصية بل تكلف بذلك احد ضباطه الذي ختمها وارسلها ـ الاربعون ماناً من الذهب التي جلبوها ، عندما وضعتها في الفرن لم تعط زنتها كاملة »(13)

ولكن تلك التبرمات لم تكن اكثر من غيوم وقتية حيث استمر الرسل بالتنقل بين البلدين على الرغم من المسافة الشاسعة وشدة القيظ وشحة المياه وغارات القبائل الكنعانية او البدوية(14) . ونعلم كذلك ان امنوفيس الرابع قد تزوج باحدى بنات بورنابورياش فارسل بالمناسبة عدداً كبيراً من هدايا الخطوبة الى بابل غطت قائمتها اكثر من ثلاثمائة وسبعة خطوط(15) من نص في أربعة أعمدة !

(*) كان امنوفيس الرابع (اخناتون) اول حاكم في التاريخ يعلن ايمانه بالله واحد فقط .

واذا كان المصريون قد صموا آذانهم حيال الحاح تابعيهم السوريين عليهم بالتدخل فما الذي أبقى الميتانيين سلبيين تجاه العدوان الحثي على مملكتهم فلم يحاولوا استعادة مافقدوه من جراءه ؟والجواب هو أنهم كانوا على شفى حرب اهلية لان تشراتا انما تبوأ العرش اثر اغتيال اخيه الاكبر وقد كان هناك عدة امراء من البيت الملكي ينافسونه سلطته • فما كاد ان ينصب ملكا على ميتاني حتى أعلن شقيقه ــ ويدعى « ارتناما » ــ بانه ملك « حوري » واسس سلالة منفصلة وان كان من المشكوك فيه ان تكون المملكة قد انشطرت بين هذين الغريمين مثلما يذهب الى ذلك بعض المؤرخين • عمد ملوك حوري ــ ارتناما ونجله شوتارنا الثاني ــ الى طلب العون من الخارج واقامة علاقات ودية مع الامراء الآشوريين الذين كانوا ما يزالون خاضعين لهم • ولم يمض طويل وقت حتى تكون حزب قوي موال للحوريين والآشوريين في واشوكاني نفسها وتوجت دسائس البلاط التي سعرت من قبل ذينك الحليفين بمقتل تشراتا حوالي عام (١٣٦٠ ق • م) من قبل احد ابنائه • وعندما فشل خليفته الشرعي « متيوازه » في الحفاظ على عرشه ، لاذ بالفرار الى بابل ، ولكن بورنابورياش المتمسك بالحياد رفض ايواءه فالتجأ اخيراً الى البلاط الحثي • واقتسم الآشوريون ــ مع دويلة اخرى كانت تحكم في وادي دجلة الشمالي واسمها « ألشه » ارض مملكة ميتاني المنقرضة(16) • هكذا ، وبدون ان يرمي ولا حتى سهماً واحداً ، نجح آشور ــ أُبلّط الاول (١٣٦٥ ــ ١٣٣٠ ق• م) ليس في تحرير بلده من الهيمنة الميتانية فحسب بل وتسبب في سقوط المملكة التي كان آباؤه يدفعون لها الجزية صاغرين • وقد شجعه ذلك النجاح على ان يغدق على نفسه الالقاب السنية نحو « الملك العظيم » و « ملك الكون » وان يتبادل الرسائل بشكل مباشر مع « أخيه » الفرعون امنوفيس الرابع(17) ، كما زوج ابنته لبورنابورياش آملاً باعتلاء حفيد له عرش بابل في يوم ما •

جرت كل هذه الحوادث في غضون فترة وجيزة بعد ترك شوبيلوليوما لارض سوريا • وعندما قرر هذا العودة ثانية بعد مضي عشرين عاماً ، كان الوضع السياسي في الشرق الادنى قد تغير لصالحه • ففي مصر ، توفي امنوفيس الرابع عام (١٣٥٠ ق • م) وكان خلفاؤه ، وبضمنهم « توت عنخ آمون » ، منهمكين باصلاح النتائج المدمرة لسياسته الدينية اكثر من إهتمامهم بشؤون سوريا • والى الشمال من وادي الرافدين ، كانت المملكة الميتانية قد تحللت ، كما كان آشور ــ أُبلّط منغمساً ببناء قواته الآشورية • وفي بابل ، وإثر حرب اهلية قصيرة الامد أثارها مقتل حفيد آشور ــ ابلط(18) استطاع كوريكالزو الثاني تسنم العرش عام (١٣٤٥ ق • م) ولكن انظار هذا العمّار والمحارب الكبير كانت متجهة صوب الشرق هذه المرة فهاجم وهزم جيش « هرباتلا » ملك عيلام وحكم ذلك البلد لفترة من عهد حكمه على الاقل(19) • ولم يكن هدف شوبيلوليوما ليزيد على انهاء اي جيب للمقاومة في سوريا وتنظيم شؤون المناطق المحتلة • فوقع معاهدات ثنائية مع الامراء السوريين الطيّعين واعطى حلب لاحد ابنائه وكركميش لآخر ووضع نصب عينيه مهمة مساعدة متيوازه لاستعادة عرشه • واستطاع متيوازه ان ينتصر في الحرب التي اعقبت ذلك ، ولكنه قُهر اخيراً من قبل الآشوريين الذين تقدموا في العمق حتى الفرات ماحقين كل بقايا المملكة الميتانية • وعندما توفي شوبيلوليوما عام (١٣٣٤ ق•م) كانت كل سوريا حتى منطقة دمشق في قبضة الحثيين القوية ، ولكن المملكة الآشورية كانت قد أصبحت ثانية أقوى دولة في الشرق الادنى •

كان احتلال الموانىء النشطة المزدهرة مثل اوگاريت وصمور(20) بالنسبة للحثيين مصدراً اكيداً للقوة حيث كان الآخيون وغيرهم من الشعوب المقاتلة القاطنة سواحل آسيا الصغرى يقفون حاجزاً امامهم ويمنعونهم من بلوغ شواطىء البحر الابيض المتوسط • كما كانت سوريا نفسها غنية بالاراضي الخصبة اضافة الى امكان استخدام ارضها نقطة انطلاق للعمليات العسكرية في وادي الرافدين او في مصر • ولكن هذه المميزات اصبحت جد قلقة بسبب السلوك المتقلب العنيد للشيوخ المحليين ، فما ان توفي شوپيلوليوما حتى اندلعت العصيانات الكثيرة التي اجبرت ابنه وخليفته « مورسيلس الثاني » (١٣٣٤ ــ ١٣٠٦ ق • م) على التدخل هناك بنفسه • ولعله كان يعزي نفسه بمعرفة ان ملك مصر « سيتي » الاول كان مثقلاً بأوزار حمل مشابه في منطقة نفوذه الفلسطينية • وفي الحقيقة فقد كانت تلك التمردات في سوريا وفلسطين ــ والتي يحتمل ان تكون قد سعرت من قبل كل من الحثيين والمصريين ــ مجرد ظواهر لصراع أعمق بين ذينك الغريمين الكبيرين ، وهو الصراع الذي بلغ القمة عندما قرر الفرعون « رمسيس » الثاني الطموح ان يكرر نجاحات تحتمس بتوسيع حدود مملكته حتى الفرات • ولقد اختتمت تلك الحرب المعلنة ضد الحثيين بواحدة من اكثر المعارك شهرة في التاريخ القديم وهي معركة « قاديش » (١٢٨٥ ق•م) • ولكن تلك المعركة لم تسفر عن نتيجة حاسمة فكلا العدوين ادعى النصر على منافسه وكلاهما استعاد مواقعه السابقة • وبعد مضي ستة عشر عاماً ، أبرم رمسيس الثاني معاهدة سلام مع حاتوسيلس الثالث ملك الحثيين والتي نمتلك بالصدفة نسختها المصرية والحثية(21) ــ كتبت الاخيرة باللغة الاكدية ــ كما تزوج رمسيس أميرة

خثية . فما الذي كان وراء هذا التحول في المواقف ؟ هل ضاق هذان الغريمان من الاحتراب ؟ أم أن تفاقم قوة الآشوريين هو الذي جعل تقاربهما أمراً أسهل تحقيقاً مثلما كان الخطر الحثي سابقاً وراء تقارب المصرين والميتانيين ؟ ان التأكيد الذي اولته المعاهدة المعقودة بينهما على العبارات التي تنص على تقديم العون المتبادل في حالة تشوب حرب ضد أي منهما ، والعروض التي اقترحها حاتوسيلس على الكاشيين(22) في نفس ذلك الوقت تقريبا ، تغلب وجهة النظر الثانية .

ولقد بات مصير الآشوريين مرسوماً على الخارطة منذ بداية ظهورهم كأمة ضاربة . ففي الشمال والشرق كان الشريط الضيق من حوض نهر دجلة العائد الى الاله آشور تحيطه جبال عالية يستحيل اختراقها تقريباً تسكنها قبائل غوارة كالكوتيين واللولوبيين التي ماكان بالامكان اتقاء شرها الا بالتجريد المستمر للحملات التأديبية الصعبة . والى الغرب كانت سهوب الجزيرة تمتد لمئات من الاميال مفتوحة امام الجيوش المناوئة او قوات البدو الغازية . فكان امتلاك ذلك السهب يعني وضع اليد على صمام الامان لتلك الخاصرة ذات الاهمية الحيوية للآشوريين ، ويعني أيضاً الهيمنة على طرق تجارية ستراتيجية اضافة الى السيطرة على شمال سوريا مع فتح نافذة على البحر الابيض المتوسط . والى الجنوب وعلى مسافة قصيرة كانت تقع المدن المزدهرة لسهل دلتا وادي الرافدين الخصيب الذي كان مصدراً للاغراء الشديد وللقلق ايضاً حيث سعى كل من الاكديين والسومريين والبابليين لفرض سيادتهم على الشطر الشمالي من وادي الرافدين . وقد كانت حدود هذه المنطقة محصنة بكثافة خلال الالف الثاني ق . م وفي العهود التي اصبحت فيها بابل قوية ، كان كل مابوسع الاشوريين توقع ربحه هوالحصول على بضع قرى حدودية ليس اكثر ؛ اما عندما يدب الضعف في أوصالها ، فان كل شيء يصبح ممكناً امام الآشوريين وبضمن ذلك الوصول الى شواطيء الخليج العربي .

وتفسر لنا هذه الاعتبارات الجغرافية سلسلة الحروب الكثيرة التي تملأ كافة الحوليات الاشورية من القرن الثالث عشر فصاعداً كحرب العصابات في الجبال، والتحركات العسكرية في الجزيرة وحروب المواقع في وادي دجلة الاوسط • كان هذا هو الثمن الذي توجب على الاشوريين دفعه من دمهم ليس فقط من اجل التوسع والسيادة ، بل وكذلك من أجل ضمان حريتهم •

وما كاد آشور ــ أُبلّط ان يحرر وطنه من الهيمنة الميتانية حتى إحتدم الصراع على تلك الجبهات الثلاث • فقام ابنه « إنليل ــ نراري » بالهجوم على بابل ودحر قوات كوريكالزو ، ثم اتفقا ــ كما تعلمنا الوثائق ــ على « تقسيم الحقول والمقاطعات وتثبيت الحدود (من جديد)(23) » وتتحدث حوليات « أرك ــ دين ــ ايلو » عن شن حملات على جبال زاگروس بينما تخبرنا حوليات خليفته « أدد ــ نراري » الاول بانه قد وجه عساكره عبر الجزيرة واحتل ــ وقتياً على الاقل ــ تلك المنطقة حتى بلغ « كركميش الواقعة على ضفاف الفرات »(24) ويصور لنا نص آخر هذا الملك وهو يجبر الكاشيين على توقيع اتفاقية حدود جديدة(25) • ولكن افضل محارب لهذه السلالة الآشورية كان بالتأكيد الملك « شلمنصر الاول » (١٢٧٤ ــ ١٢٤٥ ق • م) الذي اخضع « الجبال المنيعة لاوروادري (اورارطو في ارمينيا) » و « بلد الكوتيين المتضلعين بالمغازي » ثم تحول ضد حلفاء الآشوريين سابقا وهم الحوريون فهاجم شاتوارا الذي يسميه « ملك هانيگالبات » وقراصنة من الحثيين والاحلاميين ودحرهم :

> **« خضت غمار المعركة وانزلت الهزيمة بهم فقتلت اعدادا لاتحصى من جنوده المندحرين المتناثرين •••• استوليت على تسعة من حصونه المنيعة مع عاصمته ، وأحلت مائة وثمانين من مدنه الى خرائب وتلال •••• اخضعت بلدهم لسلطتي وأحرقت بقية مدنهم بالنيران • »(26)**

ولعل هذا الانتصار بالذات كان وراء تقارب الحثيين مع المصريين ـ أحرزه الآشوريون بعد انقضاء بضع سنين على معركة قاديش ـ لانه ادى الى خسارة الحوريين لآخر معاقلهم ، كما اصبح الآشوريون في كركميش على ابواب سوريا ٠

وفي اواسط القرن الثالث عشر ق ٠ م تفاقمت حراجة وضع بابل المهددة من قبل جارها القوي في الشمال بسبب العودة المفاجئة للعيلاميين الى المعترك السياسي بعد غياب دام اربعة قرون ٠ كانت السلالة الجديدة التي اعتلت العرش في سوسه تضم امراء متحمسين عقدوا العزم ، من بين عدة أشياء اخرى ، على فرض سيادتهم على الكاشيين في العراق وعلى ما تبقى من قبائلهم في ايران ايضاً ٠ وبعد عام (١٢٥٠ ق ٠ م) بوقت قصير ، وجد ملك بابل التعس « كاشتلياش » الرابع نفسه ازاء عدوين متربصين هما « اوتتاش ـ كال » ـ الحاكم العيلامي الذي بني زقورة ومعابد «جوغا ـ زامبيل» الفاخرة قرب سوسه ـ والملك الآشوري «توكلتي ـ نتورتا» الاول (١٢٤٤ـ١٢٠٨ ق٠م)٠ وربح العيلاميون المعركة ضد بابل ولكن توكلتي نتورتا كان هو الذي استحوذ اخيرا عليها فامتلأ الآشوريون فخرا بذلك الانجاز الذي اصبح موضوع الملحمة الآشورية الوحيدة التي وصلت الينا وهي القصة الشعرية : المتحيزة طبعا : المسماة « ملحمة توكلتي نتورتا »(27) وتلقي هذه الملحمة اللوم كله على الملك كاشتلياش الذي يتهم بانه قد حنث بوعده وتآمر ضد آشور فاستحق لذلك تخلي الالهة عن بلده واندحاره ٠ غير ان التقرير الموجز لتلك الحرب المدون في مخطوطة جدارية في آشور يعطينا انطباعا بان توكلتي ـ نتورتا قد تحرك صوب بابل دون ان يستفزه احد :

« اجبرت كاشتلياش ملك كاردونياش على دخول المعركة فحققت هزيمة جيوشه ودحر محاربيه ٠ وفي غمار تلك المعركة اطبقت يبدي على كاشتلياش الملك الكاشي فوطأت على عنقه

الملكية مثل الكرسي وجلبته وهو مكبل وعار امام الاله آشور . واخضعت بلاد سومر واكد حتى ابعد حدودها لسلطتي فامتدت حدود ارضي الى البحر الاسفل ذي الشمس المشرقة . »(28)

بعد هذا اعتلى عرش بابل ، وبتعاقب سريع ، ثلاثة من الامراء الذين كانوا العوبة بيد الاشوريين ، وهوجموا من قبل العيلاميين الذين توغلوا في العمق حتى بلغوا مدينة نفر . ولكن البابليين استطاعوا بعد سبع سنين ان يعيدوا لانفسهم سلالتهم الوطنية فتقول إحدى التواريخ البابلية :

« ثار نبلاء اكد وكاردونياش واجلسوا « أدد ــ شوم ــ أصر » على عرش ابيه . »(29)

اما العاهل الذي كان اول ملك آشوري يصل ساحل الخليج العربي فقد مات ميتة شنيعة بعد هذا التاريخ ببضع سنين فنال جزاء اعماله :

« اما توكلتي ننورتا الذي جلب السوء لبابل فقد ثار عليه آشور ــ نادين ــ إبلي والنبلاء الآشوريون وخلعوه عن العرش . وفي كار ــ توكلتي ــ ننورتا حاصروه في قصره وذبحوه بسيفه . »(30)

ولم يستطع خلفاؤه الذين أوهنتهم النزاعات العائلية والحروب الداخلية اكثر من شن هجمات محدودة النطاق على بابل ، وكان العيلاميون ، وليس الآشوريون ، هم الذين وجهوا الضربة القاضية التي أركعت السلالة الكاشية عام (١١٦٨ ق . م) . ففي تلك السنة ، غادر « شتترك ــ ناخنتي » سوسه على رأس جيش كثيف وهاجم جنوب العراق ونهبه بشكل لم يسبق له مثيل فنقلت النصب المشهورة وأعمال النحت الفنية الرفيعة ــ مسلة حمورابي ونرام ــ سن ونصب مانشتوسو ــ الى سوسه لتبقى هناك الى الابد . وجرى

إحتلال بابل واعطاؤها لنجل شترك ــ ناخنتي ، ولكن اميرا كاشيا يمتلك إسما بابلياً جسيلاً هو « انليل ــ نادين ــ اده » (انليل واهب الاخوة) استطاع استعادة بابل مرة اخرى وحكمها لمدة ثلاث سنين قبل ان يطيح به أخيراً ملك عيلامي آخر يدعى « شيلاك انشوشناك » عام (١١٦٢ ق٠م)(31) ٠ولقد اخذ تمثال الاله مردوخ أسيراً من قبل العيلاميين ، مثلما كان قد اخذ سابقا من قبل الحثيين قبل اربعمائة وثلاثة وثلاثين عاما ٠ وهكذا أسدل الستار على عهد حكم أطول سلالة في تاريخ بابل ٠

وبمقدور المرء اعتبار سقوط السلالة الكاشية إشارة متميزة في تاريخ العراق القديم مع انها لم تكن في الواقع بتلك الاهمية الكبيرة اذا ما قورنت بالحوادث الاخرى التي جرت في الشرق الادنى خلال القرن الثاني عشر ق٠م ٠ ففي الوقت الذي هاجم فيه العيلاميون بابل كانت المملكة الحثية في بوغازكوي قد اختفت نهائياً ، كما كانت مصر ــ التي أفلتت لتوها من هجوم آخر من جهة الشرق ــ قد ضعفت كثيراً بسبب الفتن الداخلية فتوطن الفلسطينيون في أرض كنعان ، وقاد موسى قومه اليها ، بينما أمسى البدو الاراميون يهددون كلاً من الامراء السوريين والملوك الآشوريين ؛ والى الغرب بعيداً ، كان الاغارقة الدوريان يهاجمون شبه الجزيرة الهيلينية ٠ كما تحرك الهندوأوربيون من جديد في آسيا الغربية ناشرين استخدام الحديد ، مثلما كان أجدادهم قد نشروا من قبل استخدام الجياد ، فاتحين بذلك عصراً جديداً في تاريخ البشرية، ومبتدئين سلسلة من التحركات العرقية صاحبتها اضطرابات سياسية غيرت وجه الشرق بسرعة ٠

الفصل السابع عشر

عصر الفوضى



تفلت التحركات الكثيفة للاقوام الهندواوربية التي عمت جنوب شرق اوربا خلال القرن الثالث عشر ق ٠ م من أية محاولة لتحليلها وليس بوسعنا غير استنتاجها بتتبع انعكاساتها القوية على بلاد اليونان وغربي آسيا ٠ ولعل مجيء البلقانيين المنحدرين من القبائل الاليرية الكثيـرة النسـل والولوعـة بالقتال هو الذي دعا الى هجرة الاقوام التراقو ـ فريجية الى شـبه جزيرة الاناضول حيث أسقطوا المملكة الحثية بعد عام (١٢٠٠ ق٠م) بزمن قصير ، وهو الذي دفع بالدوريانيين والآيوليين والآيونيين الى شبه الجزيرة الهيلينية وجزر بحر ايجة والمقاطعات الغربية من آسيا الصغرى حيـث قضـوا علـى الامبراطورية المسينية (الآخية) في حرب طروادة حوالي عام (١٢٧٠ ق٠م)٠ اتجه سكان سواحل وجزر بحر ايجه (شعوب البحر كما كـان يدعوهـم المصريون) ، الذين خسروا ارضهم بسبب تعرضهم لتيار مزدوج من الغزاة ، نحو الجنوب على امتداد سواحل آسيا الصغرى وسوريا ووصلوا ابـواب

مصر مهددين إياها، وقد هزمهم رمسيس الثالث في البر والبحر (١١٧٤ ق٠م) الا ان بعض محاربيهم انخرطوا في خدمة الفرعون ، بينما استوطن آخرون منهم الحافة الساحلية من ارض كنعان ومن بينهم كان قوم « البلسيت » او الفلسطينيون الذين أعطوا ذلك البلد اسمه بعدئذ : فلسطين • وفي نفس هذا الوقت تقريباً ، ابتدأت هجرة عرقية اخرى ، وان كانت اقل شهرة من سابقتها ، من مكان ما حول بحر قزوين • دخلت هذه الاقوام الناطقة بالهندواوربية — والتي نسميها الايرانية — ايران من الشمال سالكة ، تقريباً ، نفس المسار الذي سبق ان اتبعه المهاجرون الهند آريون قبلئذ • ولقد بقي البارثيون (بارثاڤا = الفرثيون) والهراويون (هارايڤا) يستوطنون حدود تركستان(*) وافغانستان ، بينما تقدم الميديون (ما داي) والفرس (پارسوا) والزكيرتيون أبعد غرباً واحتلوا الهضبة المحصورة بين بحيرة اورمية ومنطقة اصفهان ، وفرضوا سيادتهم بسرعة على السكان الاصليين القليلي العدد والعدة •(1)

لم يتأثر العراق بشلال الهجرات هذا الذي شمل منطقة حوض البحر الابيض المتوسط وأواسط شبه جزيرة الاناضول وايران • ولكنه تزامن مع فترة تميزت بتزايد نشاط القبائل السامية البدوية التي كانت تجوب الصحراء السورية كالسوتيين والاحلاميين والاتحاد الكثيف للقبائل الآرامية أخيراً • ولقد شجع الفراغ السياسي الذي تركه في سوريا سقوط الامبراطورية الحثية والضعف النسبي للدولة الآشورية والبابلية القبائل الآرامية على اجتياح المنطقة الخلفية لسوريا وعبور الفرات والتوغل عميقاً داخل وادي الرافدين مؤسسين خلال تقدمهم في طول وعرض الهلال الخصيب شبكة من الممالك الصغيرة والكبيرة التي أحاطت بآشور وبابل من كل الجهات وكادت

(*) تركستان منطقة شاسعة غرب ووسط آسيا شرق بحر قزوين وتضم القسم الاوسط والجنوبي من مقاطعة سنكيانگ في الصين وجمهوريات الكازاخ والقرغيز والطاجيك والتركمان والاوزبك في الاتحاد السوفيتي والشريط الشمالي من افغانستان •

ان تبتلعهما • وفي نفس هذا الوقت ايضاً ، جاءت أقوام سامية اخرى ، وهم العبرانيون ، قادمة من صحراء سيناء ومستغلة الفوضى التي عمت ارض كنعان بعد انسحاب مصر من آسيا واحتلت مستطيلا كبيراً من الارض على ضفتي نهر الاردن جاعلة منه موطنا لها • واذا كان بوسعنا تتبع تقدم الآراميين في العراق الى حدما من خلال المدونات الملكية الآشورية ، وتتبع احتلال أرض كنعان من قبل العبرانيين بواسطة الاسرائيليين ، الا ان الظلام يكتنف احداث بقية بلدان الشرق الادنى للاعوام (١٢٠٠ــ١٠٠٠ ق•م) حيث تنقطع فجأة اخبار الاراشيف الحثية من بوغازكوي حوالي عام (١١٩٠ ق • م) كما لايصلنا من مصر غير النزر اليسير من المعلومات التي تسلط ضوءا خافتاً لايكاد يكفينا للوقوف على حقيقة انحطاط ذلك البلد العظيم على يد الفراعنة الرمسيسيين الاواخر ومن ثم انقسامه الى مملكتين متنافستين في فجر القرن الحادي عشر ق • م • وعندما ينبلج انصبح مرة اخرى على المنطقة عام (٩٠٠ ق • م) نلاحظ حصول تغيرات عميقة على الجغرافية السياسية لغرب آسيا • فنرى الامارات الارامية المزدهرة وقد امتدت من لبنان حتى جبال زاگروس ، ونجد بقايا « شعوب البحر » ، الفلسطينيون والزكاليون ، يتشاركون في ارض كنعان مع العبرانيين ، وعلى امتداد الساحل اللبناني يدخل الفينيقيون فترة من الازدهار العظيم ، بينما يصبح اقصى شمال سوريا وجبال طوروس موئلاً لعدة ممالك حثية ــ جديدة • اما مصر فقد أمست مقسمة وضعيفة ، بينما يبدو جليا غياب الاقتدار لدى الملوك الذين يعتلون عرش بابل بتعاقب سريع ، وحدهم الآشوريون إحتفظوا بما يكفي من القوة والبأس للانهماك في كسر شوكة الآراميين واعادة بناء امبراطوريتهم • ونلاحظ اخ[illegible] توطد مكانة الميديين والفرس وراء جبال زاگروس وان كانوا لم [illegible] لاخذ دورهم التاريخي المؤثر في المنطقة • تلك هي الشعوب التي سيواجهها الآشوريون مستقبلاً فيقاتلونها ويخضعونها كلها في حركة توسعاتهم العظيمة خلال الالف الاول ق • م •

العبرانيون والفينيقيون

تغنينا معرفتنا بالتوارة عن سرد تفاصيل التاريخ المبكر للعبرانيين • وكنا قد ألمحنا سابقاً الى نزوح ابراهيم واهله من اور في بلاد سومر الى « حبرون » في ارض كنعان ، ويمكن ان يكون ذلك قد تم في حوالي عام (١٨٥٠ ق • م)• وهناك أسباب تكفي لحملنا على وضع هجرة يوسف الى مصر في عهد حكم الهكسوس لها (١٧٠٠ ــ ١٥٨٠ ق • م) • ولقد عاش هؤلاء الذين يسمون انفسهم بـ « بني اسرائيل » في دلتا نهر النيل فترة طويلة لاتقل عن القرون الاربعة حيث ازدهروا هناك حتى تم طردهم من قبل الفرعون المصري « الذي جعله الله قاسي القلب » وهو في اغلب الاحتمال « رمسيس الثاني » (١٢٩٠ ــ ١٢٤٤ ق • م) وليس خليفته « ميرنفتاح »(2) • فبرز فيهم وقتئذ رجل حاد الذكاء قوي الشخصية ــ وهو اول مصلح ديني عظيم في تاريخ البشرية ونقصد به النبي موسى ــ أخذ على عاتقه مهمة توحيدهم تحت لواء دين واحد يدعو الى عبادة إله كوني واحد ، وقاد مسيرتهم الطويلة عبر شبه جزيرة سيناء ، وتوفي بعد ان اوصل قومه الى اعتاب ما يدعونه بـ « أرض الميعاد » • كان جوشوا(*) هو قائدهم التالي ، غير ان احتلالهم لارض كنعان لم ينجز في حقيقة الامر الا من قبل اثنتي عشرة قبيلة حاربت كل منها من أجل أرضها الخاصة تحت إمرة رؤساء مختارين « حكام » • ولابد ان يكون اتمام هذا الامر قد استغرق فترة لاتقل عن المائة عام • ولقد ادى تأسيس مملكة اسرائيلية في عهد حكم شاؤول والانتصارات التي احرزها داوود (١١٠٠ ــ ٩٥٥ ق • م) على الفلسطينيين والكنعانيين وعلى الدويلات الكائنة شرق الاردن (آمون ، ايدوم ، موآب) الى تكريس سلطة ذرية ابراهيم على ارض

** جوشوا (يوشع بن نون ــ يهوشع) (Joshua) الذي احتل أريحا .

فلسطين • وكان عهد سليمان فترة مجد عظيم لهذه الدولة الفتية(3) اذ اصبحت فلسطين تطيع ، ولاول مرة في التاريخ ، حاكما واحداً امتدت سلطته من « دان » (في اقدام جبل عرمون) الى « بئر السبع » على مشارف صحراء النقب • واصبحت « اورشليم » ـ التي كانت قبل ذلك مجرد مدينة صغيرة ثانوية ـ عاصمة لهذه الدولة حيث ساهم ، مثلما يقال لنا ، مائتا الف عامل في بناء معبدها • وكان جيشهم مزوداً باسلحة حديدية وبالجياد وعربات القتال • ومن ميناء « عزيون ـ جبر » (قرب العقبة) كانت سفن سليمان تمخر عباب البحر الاحمر وتعود محملة بالذهب من شبه جزيرة العرب واثيوبيا • وكان الملك نفسه ـ على الرغم من اشتهاره بحكمة القول ـ يعيش في قصر منيف بين سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة • كان هذا الاسراف اكثر مما يمكن لهذه الدويلة الصارمة ان تتحمله من الناحيتين المادية والاخلاقية ، لذلك فقد انتهى عهد حكم سليمان المجيد بنشوب العصيانات التي ادت الى انشطار المملكة بعد وفاته عام (٩٣٥ ق • م) الى شطرين : المملكة الاسرائيلية في الشمال وعاصمتها السامرة ، ومملكة يهوذا في الجنوب والتي بقيت تحكم من اورشليم • وهكذا فان فترة حكم المملكة الموحدة لم تدم اكثر من قرن واحد فقط •

والى الشمال الغربي من فلسطين ، كان كنعانيو لبنان وسواحل سوريا ـ الفينقيون كما يسميهم الاغارقة ـ اول ضحايا هيجان القرن الثاني عشر ق • م حيث ضربت الى الابد واحدة من اغنى مدنهم وهي « اوگاريت » من قبل « شعوب البحر »(4) • بينما اضمحل مركز مدينة بيبلوس الميناء الرئيسي لتصدير الخشب ـ التي خربتها الحروب الاهلية قبل هذا التاريخ خلال فترة عصر العمارنة ـ بسبب الضعف الذي أصاب مصر في ظل الفراعنة الذين أعقبوا رمسيس الثالث الذي ادى الى خسرانها للمستورد التقليدي للاخشاب المعروضة في اسواقها • ولكن ما ان حل عام (١٠٠٠ ق • م) حتى كان الوضع

قد تغير نحو الاحسن • فبسبب موقعها الستراتيجي الذي تنتهي اليه الطرق التجارية المخترقة لجبال لبنـان قاصـدة البحر الابيض المتوسط ، اصبحت « أرفاد » (جزيرة رواد) و « صيدونا » (سـيدون ، صـيدا الحديثـة) و « صوري » (تاير ، صور الحديثة) موانىء للممالك الآرامية القويـة في وسط سوريا • كما استفادت صور من مجاورتها للمملكة الاسرائيلية حيث قامت بتزويد الاخيرة بالخشب والحرفيين المهرة والبحارين(5) • وسرعان ما نمت هذه المدن الثلاث المزدهرة بالتجارة لتصبح المراكز الاقتصادية والسياسية الجديدة في فينيقيا •

كان الساحل السوري ــ اللبناني على الدوام نقطة التقاء اوربا بآسيا • وفي فجر الالف الاول ق • م ، ادى الاتصال المباشر طوال الفـي عـام مـع الكوتيين والمسينيين والقبارصة من جهة ، ومع كافـة امم الشرق الادنى من جهة اخرى ، الى تطور حضارة فينيقية رائعة في ربوع تلك المنطقة(6) • وكان الاسهام الرئيسي للفينقيين في كنز الحضارة البشرية هو بلاشك اختراعهـم للحروف الهجائية (الالفباء) التي اقتبسها منهم ، وباشكال متعددة ، الاغارقة في اوربا والآراميون في غرب آسيا ، والتي أدت اخيراً الى نسخ كل الانمـاط الكتابية المقطعية والرمزية (الصورية) التي كانت سائدة قبل ذلك • اما تحديد مكان وزمان هذا الاختراع بالضبط فتلك مسألة شائكة لانجد داعيا للتطرق اليها في هذا المكان(7) • غير انه يتحتم علينا على الاقل ان نذكر انه من بين المجاميع الهجائية الثلاث التي كانت مستخدمة في وقت واحد على ساحل البحر الابيض المتوسط خلال الربع الاخير من الالف الثاني ق • م ــ وهي الالفباء الكلاسية، الالفباءات شبه الهير وغليفية لبيبلوسـس ، الالفباء المسماريـة لرأس شمـرة (اوگاريت) ــ كانت المجموعة الاخيرة هي التي قدمت لنـا اكبر الفائدة في تقديم اسناد لادبيات جد مشوقة أدى اكتشافها الى توسيع وتعديل أفكارنـا عن الدين الكنعاني القديم وأساطيره بدرجة كبيرة(8) • واذا كان الفينيقيون

لم يكونوا في ميدان الفنون على تلك الدرجة من الاصالة ، الا انهم كانوا تلامذة ممتازين • كان حرفيوهم الملهمون المتأثرون بالفن المصري والايجي لايجاريهم في البراعة أحد في الشرق الادنى ، على الاقل خلال الالف الاول ق • م • فقاموا بنسج الاقمشة الجميلة المطرزة او المنقوشة باللون الارجواني السيدوني المشهور ، وصنعوا القوارير من الزجاج نصف الشفاف، وصقلوا الجواهر الرهيفة ، ونحتوا العاج بشكل فريد ، وكانوا اساتذة في اعمال الخشب والمعادن • وبالاضافة الى الخشب ، كان بلدهم ينتج الخمور والزيوت الذائعة الصيت • كل هذا شكل حمولة خفيفة وثمينة استطاع الفينيقيون ــ وهم بحارة متمرسون ــ ان ينقلوها الى انحاء العالم بانفسهم ، بعد ما حرر هجوم الدوريان على بلاد اليونان البحر الابيض من أسياده السابقين المسينيين • ولقد أصبح التريانيون (سكان صور) والسيدونيون (الصيداويون) والارفاديون قادة لحركة مدهشة من التوسع البحري الاستيطاني بلغ القمة في الفترة المحصورة بين القرنين التاسع والسادس ق•م بتأسيس مدينة « قرطاجة » عام (٨١٤ ق • م) ، وخلق مستودعات تجارية كبيرة في مالطا وسيليسيا واسبانيا ، واستكشاف سواحل الاطلسي الاوربية والافريقية •

الحثيون الجدد

وعندما تتجاوز الفينيقيين أبعد شمالاً ، وعلى امتداد ساحل البحر الابيض المتوسط في أقصى أعالي سوريا ، فسنتعرف على مملكة شعب يطلق عليه اسم « الحثيين ــ الهيروغليفيين » ؛ او ببساطة اكثر « الحثيين الجدد »(9) • ولعل هذين المصطلحين يتطلبان بعض التوضيح • كنا قد عرفنا سابقاً بان الحثيين الذين اتخذوا من حاتوشاش (بوغازكوي) عاصمة لهم قد استعاروا الخط المسماري لوادي الرافدين في كتابة لغتهم الهندو اوربية على الرقم الطينية • وفي نفس ذلك الوقت ايضاً ، استخدم نمط آخر من الكتابة

في آسيا الصغرى لتدوين الوثائق الرسمية والدينية على الحجر ؛ ويشتمل ذلك النمط على رسومات اوهيروغليفيات لاتمت بأية صلة لا الى الخط السومري ولا الى الخط الهيروغليفي المصري او الكريتي • وتظهر اعداد كبيرة من هذه المدونات في مواقع شتى من جبال طوروس وحتى شمال سوريا مرتبطة بنصب يمكن ارجاع تاريخها الى القرون الاولى للالف الاول ق • م ، أي الى مابعد سقوط الامبراطورية الحثية • ولقد أبانت لنا عملية فك الرموز الهيروغليفية للحثيين — التي تكفل بها عدة اساتذة والتي تأكدت الان واستكملت جوانبها المختلفة بفضل الاكتشافات المثيرة لنصوص فينيقية — حثية في قراتپه في كليكيا(10) (عام ١٩٤٧ م) — ان لغة تلك النصوص هي فرع من لهجات اللغة اللوية • واللويون هم أحد الاقوام التي دخلت آسيا الصغرى في بداية الالف الثاني ق • م • ويبدو ان التغيرات الكبيرة التي طرأت على السكان في القرن الثاني عشر ق • م قد دفعت اللويين — الذين كانوا يقطنون في الاصل الجزء الجنوبي الغربي من آسيا الصغرى — الى النزوح جنوباً وشرقاً واستيطان المقاطعات الجنوبية للامبراطورية الحثية الزائلة ، أي في المناطق التي استغنى عنها الفريجيون والتي تجاوزتها شعوب البحر • ولا يعدو هذا الامر ان يكون مجرد افتراض اذ يجدر بنا ان نؤكد في هذا الصدد انتفاء حصول اي انكسار او اية فجوة في عملية انتقال الحضارة الحثية الى تلك المناطق ؛ وان مصطلح « الحثيين الجدد » يستخدم كتعريف ملائم ليس الا • وهكذا فقد تواصل التأثير الحثي — الذي وفد الى سوريا بواسطة حملات شوبيلوليوما وخلفائه — بالحضور الواضح مدة تقارب الخمسمائة عام بعد سقوط مملكتهم •

ويغطي نوع من الفسيفساء المحكمة الصنعة والخاصة بالممالك الحثية الجديدة ، ابتداء من القرن العاشر فنازلاً ، المنطقة المحصورة بين سلسلة جبال طوروس ونهر العاصي والتي كان الآشوريون يسمونها « حاتي » أو « حاتي الكبيرة » (لم يزل الاتراك لحد الان يطلقون اسم « هاتاي » على مقاطعة

انطاكية) . فابتداء من الشمال ، نجد في قلب جبال طوروس مايقارب الاثنتي عشرة دويلة شكلت مع بعضها مايعرف بـ « اتحاد تابال » (توبال في الكتاب المقدس) . وفي وادي الفرات الاعلى ، نصادف مملكة حثية اخرى تدعى « كومانو » وعاصمتها « ميليد » (ملاطية) . ثم تأتي مدن « كوموهو » (كوماجين القديمة) وگورگوم حول مدينة ماركاس (ماراش) . والى الغرب: كان يقطن سهل كليكية الغني شعب « دانونا » المؤتمر بأمر ملك « أتانيا » (أطنه) والمهيمن على سكان الجبال المحيطة . والى الشمال من حلب ، كانت تقع « بأديا » (عاصمة سمعال وهي زنجرلي الحالية) في جبال الامانوس ؛ وكركميش ، وتلبارسب (تل أحمر) المهيمنة على ممر الفرات . اما حلب نفسها — التي استحوذ عليها وخسرها الميتانيون عدة مرات — فقد فقدت الكثير من اهميتها لصالح أرفاد(11) ؛ بينما حكمت ألالاخ من سهل آموق (هاتينا) من قبل « آزاز » أولا ثم من قبل مدينة « كوتانوا » غير المشخصة لحد الان. واخيراً فقد اثبتت المدونات الهيروغليفية التي عثر عليها في حماة ان الاخيرة كانت هي الاخرى قد أحتلت لفترة ما من قبل الحثيين الجدد .

سلطت الحفريات التي نفذت فيزنجرلي ، سقجي — گوزو ، كركميش، تل تايانات ؛ وفي قراتپه (أزيتاوانداز القديمة) الضوء الكثيف على فنون وعمارة الحثيين الجدد مما يساعدنا على تفهم درجة المقاومة التي واجهها الآشوريون عندما حاولوا إسقاط تلك الممالك الصغيرة الشديدة البأس . كانت تلك المدن الدائرية الشكل تتحصن داخل سور مزدوج كبير يحيط جداره الاول بالمدينة، ويلتف جداره الداخلي حول الجزء الاعلى منها (الاكروبولس) . وغالبا ماكان للقصر الملكي — الذي يتوسط المدينة — ممر يمهد الطريق اليه رواق باعمدة خشبية تستند على دكات حجرية منحوتة في هيئة اسود وكائنات خرافية رابضة. اما تصميم القصر ، فقد كان وفق النمط الذي يدعوه الآشوريون « بيت حيلاني » ، ويتألف من سلسلة من الغرف المستطيلة الواحدة خلف الاخرى ،

تتوازى جوانبها الطويلة مع جبهة البناية • وقد جرى تزيين الممر المؤدي الى الاكروبولس وواجهة القصر بألواح من حجر البازلت المنحوت أو من حجر الكلس تشكل بمجموعها قاطعاً خطياً للنصف الاسفل من الجدران • اما الموضوعات الشائعة الظاهرة على هذه الالواح فهي مشاهد الصيد والولائم الملكية واستعراض الجند ، وتتخللها مخطوطات هيروغليفية • وغالباً ما تكون هذه المنحوتات فجة سمجة وان كانت لاتخلو من الحركة والحياة ، كما ان قسما منها على درجة كبيرة من الجمال القاسي • وتتفق آراء معظم علماء الآثار في أننا هنا حيال تنوع محلي للفن الحثي تختلط به تأثيرات آشورية ومصرية وإيجية أيضاً • وبالطبع ، فسيماط اللثام عن التاريخ الكامل لتلك الممالك الحثية الجديدة متى ما تمت عملية الترجمة الصحيحة الكاملة للمخطوطات الحثية الهيروغليفية وجرى نشرها • ولقد سقطت تلك الممالك الواحدة تلو الاخرى بايدي الآشوريين وذلك في غضون الفترة المحصورة بين الاعوام (٧٤٥ ــ ٧٠٨ ق • م) لتختفي نهائياً كدويلات مستقلة ، كما ، أن قسماً منها كان قد إستسلم لمجاوريهم الآراميين قبل ذلك التاريخ بوقت طويل •

الآراميون

ماتزال مسألة أصل الآراميين، كالعادة في هذا المجال، مشكلة جد عويصة(12)• فاللغة الآرامية ــ شأنها شأن الكنعانية والعبرية ــ تعود الى المجموعة الشمالية الغربية من اللهجات السامية ، ولكنها تقترب جداً من اللغة العربية في نقاط عديدة مما يوحي لنا بأن الموطن الاصلي للآراميين كان شبه الجزيرة العربية ، أو أنهم قد تواجدوا يوماً ما في تلك المنطقة على الاقل • ومن الناحية الاخرى ، فأن هناك من الاسباب ما تكفي لحملنا على الاعتقاد بأن موطنهم الاصلي كان في الحقيقة في بادية الشام والهلال الخصيب ، كما يتحتم علينا في هذا الصدد ان نذكر حقيقة وجود علائق قربى عرقية غير محددة بين الآراميين والعبرانيين والتي يرد ذكرها في الكتاب المقدس الذي يطلق في احدى

المناسبات على « يعقوب » نفسه اسم « الآرامي المتجول »(13) • اما متى يظهر اسم الآراميين في المدونات المسمارية ، فتلك مسألة اخرى لم تحسم بعد • وتجري الاشارة عرضاً الى مدينة تدعى « آرامي » والى أشخاص يحملون اسم « آرامو » في المخطوطات الاكدية ومخطوطات سلالة اور الثالثة وكذلك في مدونات المملكة البابلية القديمة • ولان هذه الاشارات قد لا تكون في واقع الحال اكثر من تماثل لغوي ـ صوتي بين الاسمين ، لذلك لاينبغي علينا اخذها بانها مسألة مفروغ منها ؛ فيما عدا تاريخين فقط يعودان الى القرن الرابع‌عشر ، (او ربما الثاني عشر) ق • م تأسيساً على التسليم بوجود نوع من العلائق بين الآراميين والاحلاميين الذين يرد ذكرهم في رسالة مشوهة من رسائل تل العمارنة تلمح الى ملك بابل • ويتأكد وجود الاحلاميين خلال نفس تلك الفترة في بلد آشور وفي نفر وحتى في دلمون (البحرين) • وكان قد مر بنا سابقاً ان الملك شلمنصر الاول قد دحر الحوريين وحلفاءهم من الحثيين والاحلاميين في الجزيرة • وفي القرن التالي ، قام الاحلاميون بقطع الطريق بين بابل وحاتوشاش ؛ كما ان الملك توكلتي ـ ننورتا الاول (١٢٤٤ـ١٢٠٨ ق • م) يدعي بأنه قد فتح « ماري ، عنه ، رابيقوم (على الفرات) وجبال الاحلامو ، ايضاً »(14) • وهكذا نجد أنفسنا إزاء مجموعة من القبائل المشاكسة النشطة في بادية الشام ، وعلى امتداد الفرات ، وحول الخليج العربي ، وذلك منذ القرن الرابع عشر ق • م على الاقل • غير ان احدى مدونات تگلاثبلزر الاول « ١١١٥ ـ ١٠٧٧ ق • م » تشير ، ولاول مرة ، الى آل « أحلامو ـ آراميين » (أحلامي ـ أرمايا)(15) • ومنذ هذا التاريخ فصاعداً ، يختفي اسم الاحلاميين من الحوليات الآشورية ليستبدل بالآراميين (آرامو ، أريمي) • وتعمل الكلمة « أرمايا » في النص المذكور آنفاً عمل الصفة المضافة ، ويمكن ترجمة عبارة « أحلامي ـ أرمايا » كما يلي :

« (اولئك الذين من) الاحلاميين (والذين هم) آراميون » • وبناء على ذلك ربما يصبح بامكاننا اعتبار الآراميين فرعا مهما من قبائل الاحلاميين صعد نجمه بمرور الزمن ليمسي هو الغالب في هذه الفترة • وعلى أية حال ؛ فان من الممكن ايضاً ان يكون الآراميون والاحلاميون شعبين لا علاقة لاحدهما بالآخر البتة ، فيما عدا كون نشاطهما قد شمل منطقة واحدة مشتركة ، فاعتبرهما سكان وادي الرافدين شعباً صحراوياً « مقرفاً » واحداً •(16)

وعلى الرغم مما سبق ، فان ليس هناك من شك في كون الآراميين قد استوطنوا سوريا منذ تاريخ مبكر يعود الى القرن الحادي عشر ق • م حيث نقرأ في الكتاب المقدس ان كلاً من شاؤول وداود وسليمان قد هاجموا الممالك الآرامية الواقعة وراء الحدود الشمالية لمملكة أسرائيل وهي « آرام سوباح » في البقعة ، « آرام بيت رحوب » و « آرام معاكاح » حول جبل حرمون ، و «كيشور» في حوران ، واخيرا الدولة التي سرعان ما ستحكم كل هذه الممالك وهي دمشق « دمشقا » • والى الشمال ، كانت حماه على نهر العاصي بيد الآراميين الذين اصبحوا أقوياء بما يكفي لكسر طوق الحثيين الجدد • وفي غضون القرن العاشر او التاسع ، احتل هؤلاء « سمعال » (زنجرلي الحالية) ومنطقة حلب التي أسموها « بيت أگوشي » ، وتلبارسب التي اصبحت عاصمة مملكة « بيت اديني » ، وبذلك لم يبق في أيدي الحثيين غير سهل انطاكية (حاتينا) وكركميش من كل ارض سوريا • وفي نفس ذلك الوقت ، إجتاح الآراميون السهب الواقع شرق الفرات واستوطنوه بأعداد جد كثيفة جعلت كل تلك المنطقة تعرف باسم « آرام ـ نهارايم » (آرام الانهار) • وكانت « بيت بحياني » واحدة من اوائل ممالكهم في العراق والتي اتخذت من الموقع العتيق جداً لتل حلف ـ الذي هجر منذ العصور الشبيهة بالتاريخية ـ (يدعى الان گوزانا) عاصمة لها • وسنعرج على وصف عملية تقدم الآراميين في ارض وادي الرافدين في مكان آخر اذ نود الآن لفت انتباه القاريء الى طبيعة

اسماء الممالك الآرامية التي تتألف عادة من كلمة « بيتو ، بيت » (دار) ويليها اسم لاحد أجدادهم • وعلى الرغم من التشابه الظاهر بين هذه التسميات وبين مايوجد لدينا نحن الانكليز مثل «بيت هانوفر» او «بيت وندسور» وغيرهما ، الا اننا هنا ازاء الاسلوب الطبيعي عند القبائل للافصاح عن ملكية الارض • فالدولة او المملكة بالنسبة لهم هي الارض المحيطـة بخيمة او ببيت الرئيس وبخيام كل فرد من اقاربه الذين تتألف القبيلة منهم •

وسواء كان الآراميون يعملون تجاراً ام فلاحين ، رعاة ام عسكريين او خارجين عن القانون ، الا ان أصلهم كلهم كان واحداً يعود الى البدو الاجلاف الذين لم يساهموا باضافة أي انجاز الى حضارة الشرق الادنى العريقة • وبغض النظر عن طبيعة دينهم الاصلي ، فان مدوناتهم واسماءهم تبين لنا بانهم كانـوا يعبدون آلهة سومرية ــ اكدية وكنعانية مثل «حداد» (او أدد) اله العواصف و « أيل » (اله كنعان الاعظم) وسن وعشتار (يسمونها « عتّار ») والإلهـة الفينقية « عانات » (عاتّا) وغيرها • كما لاتوجد لهم أية إسهامات اصيلة فـي ميدان الفنون إذ ترسموا خطى الموروث الفني للبلدان التي استوطنوها ، فاستخدم ملوك دمشق على سبيل المثال النحاتين الفينيقيين ، بينما بقيـت سمعال في ظل حكمهم تحافظ على كل خصائص المدينة الحثية الجديدة • ولقد كشفت لنا الحفريات الآثارية في تل حلف « گوزانا » عن قصر لحاكم آرامـي يعتقد بأنه قد عاش في بداية القرن التاسع ق • م واسمه « كاپارا » •(17) والقصر عبارة عن بناية مشيدة وفق طراز « بيت حيلاني » مزخرفة بالواح لعلها اكثـر سماجة من المنحوتات المعاصرة لها في شمال سوريا ؛ وبنصب غريبة ــ بل وحتى مريعة ــ تعكس لدى التحليل مزيجاً من التأثيرات العراقية والحثية والحورية ، وهو ما يتوقعه المرء من منطقة في وضع حوض نهر الخابور تعرضـت باستمرار لتأثير كل تلك التيارات الحضارية •

غير ان الفضل انما يعود لاولئك البرابرة انفسهم في فرض لغتهم على كل الشرق الادنى بفضل ثقلهم العددي الهائل ، ولاستخدامهم في الكتابة ــ بدلاً

من الخط المسماري المرهق ـ الالفباء الفينيقية بعد تحويرها قليلاً وحملوها معهم الى كافة ارجاء المنطقة لتصبح الطريقة العملية السائدة في الكتابة بعد ذلك ببضعة قرون . ولقد كانت اللغة الآرامية وحروفها الهجائية قد نافست اللغة الاكدية وخطها المسماري في بلاد آشور منذ القرن الثامن ق . م ، لتنتشر إثر ذلك وبالتدريج فتعم انحاء المشرق . وعندما فتش الملوك الاخمينيون حوالي عام (٥٠٠ ق . م) عن لسان يتسنى لكافة رعاياهم فهمه ، لم يجدوا بديلاً عن تبني اللغة الآرامية رسمياً . وهكذا فقد اصبحت الآرامية في نهاية الفترة ماقبل المسيحية اللغة المشتركة لكافة بلدان امبراطوريتهم الواسعة بعد أن أمست اللغة السومرية والعبرية لغتين ميتتين ، كما كانت اللغة الاكدية على وشك الانقراض . اما اللغة الاغريقية التي جاء بها الغزاة المقدونيون فلم تكن تستعمل الا في المدونات الرسمية للعصر التالي بينما تسيدت الآرامية (وهي لغة يسوع المسيح) على كافة اللغات الاخرى في المنطقة بدون ادنى منازع باعتبارها اللهجة السائدة لجميع شعوب الشرق الادنى . ولقد بقيت كذلك حتى الفتح العربي الاسلامي للمنطقة في القرن السابع الميلادي . وحتى الخط العربي ، فانه مشتق من احد انماط الخط الآرامي المتصل ، ومثله ايضاً كافة الابجديات التي استخدمت وتستخدم في آسيا الغربية . وعلاوة على ذلك ، فقد استطاعت اللغة الآرامية ان تنبت في شمال العراق خلال القرن السادس ق . م ادباً سريانيا غنيا للغاية نقلته الارساليات النسطورية معها بعيدا نحو الشرق ليصل حدود منغوليا . وفي الواقع فان بعض اللهجات السريانية ما تزال حية لحد الآن في بعض انحاء الشرق الادنى وخصوصاً بين المجموعات المسيحية القاطنة في منطقة شمال العراق . وبالتأكيد فانه ليس بوسع سوى القليل جداً من اللغات الاخرى الادعاء بامتلاكها لمثل هذا الميراث التليد المتواصل .

حان الوقت الان للعودة الى موضوعنا العراق الذي تركناه في نهاية عهد حكم السلالة الكاشية قبل مولد المسيح بالف ومائتي عام تقريباً .

لم يدم طويلاً احتلال العيلاميين لبابل والذي تلى انتصارهم على الكاشيين اما بسبب استنفادهم لكل قدراتهم في حروبهم الواسعة النطاق في غرب ايران ، او لانهم تهيبوا لوجود الميديين والفرس ـ وهم أقوام وصلت ايران حديثا ـ كرأس حربة في ظهورهم • ومهما يكن من امر ، فقد انسحب الجيش العيلامي ، او أخرج عنوة ، من البلاد ، فأسس امراء ايسن سلالة بابل الرابعة والتي تسمى ايضاً بسلالة ايسن الثانية • ولم يمض طويل وقت حتى اصبح الملوك الجدد أقوياء بما يكفي للتدخل في شؤون الدولة الآشورية • وعندما غمت الفوضى أرض عيلام بعد انتهاء عهد حكم « شيلاك انشوشناك » المزدهر ، قام الملك البابلي « نبوخذنصر الاول »(*) (١١٢٤ ـ ١١٠٣ ق • م) بالهجوم على ذلك البلد ومنيت حملته الاولى بالفشل : « طاردني العيلاميون فوليت منهم فراراً ولذت بفراش البكاء والحسرة »(18) • ولكن انحياز أحد القادة العيلاميين ـ وهو « ريتي مردوخ » الى صف البابليين جعل الحملة الثانية تحقق انتصاراً لامعاً • ويعتبر سجل وقائع تلك الحرب ـ الذي نقش على حجر حدود خاص بمنطقة وهبت لـ « ريتي ـ مردوخ » مكافأة له على مساعدته البابليين ـ واحداً من أكثر التقارير العسكرية القديمة شاعرية :(19)

« من دير ، مدينة آنو المقدس ، وثب (ملك بابل) وثبة
بلغت ثلاثين فرسخا مزدوجاً • وفي شهر تموز (ـ آب)
انطلق في المسير • كانت نصول المعاول تبرق كالسنة

(*) « نبو ـ كودُري ـ اُصُر » ومعناه (ايها الاله « نبو » إحم ابني [او = الابن] الاكبر) . المؤلف .

اللهيب ، وحجارة الطريق تتوقد كالافران ، لـم يكن هناك (في الوادي) ماء ، وكانت الآبار جافة بما يكفي لايقاف اقوى الجياد ، وارباك الشبان الصناديد . الا ان الملك المصطفى مضى في مساره الى امام تسانده الالهة فهو نبوخذنصر الذي لايبارى .... »

وخاض الفريقان المعركة على شواطيء « اولايا » (نهر الكرخا) : ـ

« وبأمر عشتار وادد ، إلهي الحرب ، لاذ هولتلوديش ملك عيلام بالفرار ليختفي الى الابد ؛ فاستقام الملك نبوخذنصر منتصراً واخذ بلاد عيلام ، وسلب كنوزها .... » .

ولكن النصر هذا لم يسفر عن نتائج مستديمة حيث لم يجر هزم عيلام تماماً ، فتوجب على خلفاء نبوخذنصر خوض غمار المعارك لا لاجل الاستحواذ على مقاطعات اجنبية بل لحماية مملكتهم نفسها ضد المنافس التقليدي وهو الدولة الآشورية .

على الرغم من الازمة الخطيرة حول خلافة العرش ، والخسارة المؤقتة لمقاطعاتها الشرقية لصالح شيلاك إنشوشناك ، الا ان القرن الحادي عشر ق . م يعتبر بشكل عام فترة ازدهار بالنسبة للآشوريين حيث كان « آشور ـ دان الاول » الملك المعمر(20) ، و « آشور ـ ريش ـ إيشي » ـ وكلاهما عاصر ملوك سلالة بابل الرابعة ـ يستلمان الجزية من السوتيين ، كما استطاعا ابعاد القبائل الاحلامية واتقاء شرها ، وربحا بعض المعارك ضد بابل ، وبذلا جهوداً ضخمة لترميم معابد وقصور عاصمتيهما . غير ان الاخطار مالبثت ان أحدقت بآشور من كل الجهات في نهاية ذلك القرن وكادت ان تعصف بالدولة الآشورية لولا الجهود المستميتة التي بذلها احد أفضل الملوك الآشوريين العظام منذ

ايام شمشي ـ أدد وهو « تكلاثيلزر الاول »(*) (١١١٥ ــ ١٠٧٧ ق • م) • فمن الشمال عبر الموشكيون (ولعلهم الفريجيون انفسهم) جبال طوروس بعشرين الف مقاتل وزحفوا على طول وادي دجلة باتجاه نينوى • والى الشرق كانت القبائل الجبلية تتخذ موقفاً معادياً • اما في الغرب فقد استوطن الآراميون (الذين يرد ذكر اسمهم الان لاول مرة) على امتداد وادي الفرات وبدأوا بعبوره ايضاً ، كما استطاع احد ملوك بابل في الجنوب الاستيلاء على «اكالاتا » موسعا بذلك حدود مملكته لتبلغ الزاب الاسفل على مبعدة عشرين ميلا فقط عن مدينة آشور • ابتدأ تگلاثپلزر بالموشكيين اولاً فحمل عليهم وذبحهم مع حلفائهم • بعدها ، ولكي يضمن تماما سلامة حدوده الشمالية ، صعد « اعالي التلال وقمم الجبال الشديدة الانحدار » في بلاد « بايري » وتوغل في عمق ارمينيا واقام نصباً له في « ملازگيرد » الكائنة خلف بحيرة وان ، بينما قامت احدى جيوشه بتطهير اراضي « موسري » و « كوماني » في جبال زاگروس من الجيوب المعادية • وجرى دفع الآراميين بعيدا عن وادي الفرات ولوحقوا حتى في عقر دارهم معقل « جبل بشري » غرب دير الزور ؛ ولكن بادية الشام كانت تعج بقوات هذا العدو الجديد الشديد المراس :

> **« نازلت الاحلامو ـ آراميين في ثمان وعشرين معركة • و (في احدى حملاتي) عبرت الفرات مرتين في غضون عام واحد . ولقد هزمتهم في كل مكان من تدمر الكائنة في بلد آمورو ، وآنات الواقعة في بلد سوهو ، حتى رابيقوم التي تقع في كاردونياش (بابل) وجلبت ممتلكاتهم أسلاباً الى مدينتي آشور »(21)**

ولعل فتح تگلاثپلزر لسوريا قد تم خلال هذه الحملات حيث وصل الساحل

(*) تگلاثپلزر هو المرادف العبراني لـ « توكلتي ـ ايل ـ إشارا » ومعناه (إبن إشارا (اي ننورتا بن انليل) هو عوني) . المؤلف .

الفينيقي وفرض الجزية على ارفاد وبيبلوس وسيدون(22) • واخيراً جاءت الحرب المظفرة ضد بابل :

« حملت على كاردونياش ... فاخذت قصور بابـــل التي تعود لمردوخ ـ نادين ـ آخا ملك كاردونيـــاش واشـــعلت النيران فيهـــا ونقلت اثاث قصره معي • وفي المـــرة الثانية جردت نسقاً من عربات الحرب ضد مردوخ ـ نادين ـ آخا ملك كاردونياش فاصبت منه مقتلاً • »(23)

ولقد كان لملك آشور، بالاضافة الى الاهتمامات العسكرية، ولع بالصيد في المناطق المفتوحة فيذكر لنا في هذا الشأن بأنه قد اصطاد « اربعـــة ثيـــران برية كبيرة وقوية » في احدى رحلاته في ارض ميتاني ، و « عشـــرة افيـــال ذكور جبارة في ارض حران وفي حوض نهر الخابور » • كما صرع ثمانمائـــة أسد وهو يمتطي عربته الملكية وبطش بمائة وعشرين أسداً آخر وهـــو على الارض • وشملت « مجموعته » حتى كركدن البحر « الذي كانوا يدعونـــه بحصان البحر » والـــذي قتله في مياه البحر الابيض المتوسط قرب أرفاد•(24)

ولكن اغتيال تگلاثبلزر وضع نهاية لعهد حكمـــه المجيـــد • وتتميـــز الصورة التي يقدمها لنا العراق خلال القرنين العاشر والتاسع ق • م بتفاقم مد الاحتلال الآرامي على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الآشوريـــون لايقافهم عند حدهم ؛ وبافول نجم بابل وسومر واكد التي اصبحت أراضيها مفتوحة للسوتيين والاراميين ؛ وبالحروب الاهلية والخارجية المتكررة(25)؛ وبالمجاعات التي تجعل من المائة والستة والستين عاما المحصورة بين مقتـــل تگلاثبلزر واعتلاء أدد ـ نراري الثاني العرش عام (١٠١١ ق• م) عصرا مظلماً تزيد من اكفهراره ندرة مصادرنا عنه •

وبوسعنا اقتفاء آثار التوسع الارامي في شمال العراق من خلال الحوليات الاشورية المتقطعة(26) • ففي عهد حكم آشور ـ بعل ـ كالا (١٠٥٧ ـ ١٧٠٤ ق • م) كان هؤلاء ما يزالون على الضفة اليمنى من الفرات ؛ ولم تمض خمسون عاماً الا وقد عبر هؤلاء الفرات وتقدموا حتى حوض الخابور • بعد هذا بعقود قليلة وفي عهد حكم تگلاثبلزر الثاني (٩٦٦ـ٩٣٥ ق•م) ، نجدهم وقد وصلوا الى المنطقة المحيطة بنصيبين في منتصف الطريق بين الخابور ودجلة ، واستطاع بعد ذلك « آشور ـ دان الثاني » (٩٣٤ ـ ٩١٢ ق • م) دفعهم الى الوراء مثلما يدعي وان كان الواضح من حوليات « أدد ـ نراري » الثاني وخلفائه هو ان الآراميين قد أستوطنوا كامل سهب الجزيرة على نحو جد كثيف في فجر القرن التاسع ق • م وأسسوا ممالك لهم على الفرات (مملكة « بيت ـ أديني » على سبيل المثال) وعلى الخابور (بيت ـ بحياني وبيت ـ حديپه) ، كما احتلوا جبل « تور ـ عابدين » شمال نصيبين وقسما من شواطيء دجلة • وهكذا فقد اشرفت الدولة الآشورية ـ وهي وسط خطرين جسيمين هما البدو وسكان الجبال ـ على الاختناق •

وفي بابل كان الوضع اكثر سوءاً من آشور مثلما تبينه لنا الوثائق القديمة(27) • فقد كان الخليفة الثالث لنبوخذنصر الاول وهو « أدد ـ أپال ـ أدينا » (١٠٧٦ ـ ١٠٤٦ ق • م) رجلاً آرامي الاصل نصبه الآشوريون على عرش بابل أملاً منهم في تحويل اتجاه السيل الآرامي صوب جنوب العراق • وفي عهد حكمه سلب السوتيون وخربوا واحداً من أفخم المعابد في أكد وهو معبد شمش في سبار • وبين الاعوام (١٠٥٠ ـ ١٠٠٠ ق • م) حكم بابل سبعة ملوك ينتمون الى ثلاث سلالات • واول تلك السلالات كانت سلالة بابل الخامسة التي أسسها امير كاشي ولد في القطر البحري ؛ وكان مؤسس السلالة الثانية ـ وهي سلالة « بيت ـ بازي » ـ آرامياً ، اما السلالة الثالثة فقد كان مؤسسها عيلامياً • وفي فترة حكم « نبو ـ موكين

ـ ايلي » (٩٩٠ ـ ٩٥٥ ق ٠ م) ـ وهو اول ملوك سلالة بابل الثامنة ـ « لوحظت شتى صنوف نذر السوء القادم لا محالة » و « أمسى الآراميون أعداء لبابل » حيث قطعوا خطوط المواصلات بين العاصمة وضواحيها مما سبب تعذر الاحتفال بعيد رأس السنة ـ الذي يستوجب حركة حرة للتماثيل المقدسة من والى بابل ـ لعدة اعوام متتالية(28) ٠ اما بالنسبة الى الملوك الاخرين فلا نعرف عنهم اكثر من كونهم مجرد اسماء في قائمة ٠ وهناك احتمال كبير في ان تكون اعداد من القبائل الآرامية ـ كقبائل اللتيساو والبوكودو والگامبولو التي نتعرف عليها بواسطة المدونات الآشورية ـ قد استوطنت في وادي دجلة الاسفل وعلى تخوم بلاد عيلام خلال نفس هذه الفترة التي يكتنفها الغموض ٠ كما تدفقت قبيلة الكالدو (الكلدانيين) في عمق بلاد سومر ، ولم يكن احد ليتصور حينذاك بان الكلدانيين سيقدمون لبابل واحداً من اعظم ملوكها وهو نبوخذ نصر الثاني الذي سيحكم بعد هذا التاريخ بثلاثمائة سنة ٠ غير ان الدولة الآشورية ستكون في غضون ذلك قد نمت وبلغت ذروتها وسقطت كذلك ٠



الفصل الثامن عشر

نهوض الدولة الآشورية

لقد كانت الدولة الآشورية تمر بادنى جزر لها في نهاية القرن العاشر ق • م • واذا كان غياب الوحدة بين أعدائها قد انقذها من التعرض للدمار السريع ، الا ان خطر الخراب الاقتصادي كان مخيماً عليها لفقدانها لكل ممتلكاتها غرب دجلة وهيمنة الايدي الاجنبية على شرايينها الحيوية وهي طرق التجارة الكبيرة المارة عبر الجزيرة ومنافذ الجبال • كما احتلت الاقوام المعادية القاطنة في اعالي جبال زاگروس والمهيمنة على مقتربات تلك السلسلة حافات وادي دجلة ، بينما كانت القبائل الآرامية تنصب خيمها على أبواب آشور تقريباً • ولم تكن المنطقة التابعة للدولة الآشورية وقتذاك لتزيد على شريط ضيق من الارض لايكاد يبلغ طوله المائة ميلاً ولا يزيد عرضه على الخمسين ميلاً على امتداد نهر دجلة وأغلبه على الضفة اليسرى لهذا النهر • وعلى الرغم من صغر مساحة ارضها وانكشاف حدودها ، الا ان الدولة الآشورية كانت ماتزال قوية عنيدة بمدنها الكبيرة الحرة المليئة بالعربات والجياد والاسلحة وبالرجال المتمرسين منذ عقود عديدة في ضروب

الحرب الطويلة والذين كانوا افضل المحاربين في العالم حينذاك • والاهم من هذا كله كان احتفاظ سلالتها الحاكمة بالعرش بثبات ومقدرة حيث بقي التاج يتنقل في خط غير منكسر من ملك لاخر في نفس العائلة المالكة لاكثر من قرنين(1) • ولم تكن مثل هذه المميزات لتتوفر عند أي من ممالك الشرق الادنى المفتت والمشوش وقتذاك • فلقد كانت بابل نصف مخربة وقد احتلها الآراميون جزئياً ، كما كانت مصر وهي محكومة من قبل امراء ليبيين منقسمة على نفسها وضعيفة • اما المستوطنون الجدد ـ الفريجيون في الاناضول والميديون والفرس في ايران ـ فقد كانوا مايزالون بعيدين ومنافسين غير خطرين نسبياً • كما لم تكن تلك المملكة العظيمة التي ستصبح المنافس الاكبر للدولة الآشورية في المستقبل ـ مملكة اورارطو ـ قد تأسست بعد في ارمينيا • وهكذا نجد ان الدولة الآشورية ، وعلى العكس من مظهرها الخارجي ، كانت في واقع الحال اقوى امة في المنطقة آنذاك ، ولابد ان العديد من اناس ذلك العصر قد فكروا بانها لو اتيح لها الاستيقاض والامساك بزمام أمورها لما احتلت مكانة أدنى من اية دولة اخرى في العالم •(2)

نشوء امبراطورية

ولقد استيقظت الدولة الآشورية عام (٩١١ ق • م) عندما تسنم العرش « أدد ـ نراري » الثاني (٩١١ـ٨٩١ ق • م) الذي وان لم يبلغ شأن الملوك العظام ولم ينتقل اسمه الى الاجيال من بعده مثلما انتقل اسم سرجون وآشور ناصربال ، الا انه كان هو الملك الذي فك حصار اعدائه عن مملكته وهو الذي ابتدأ آخر واروع فصل في تاريخ مملكة العراق الشمالية • ولقد اعتبر هذا الملك الحرب التي خاضها وانتصر فيها حرب تحرير شعبية مصيرية(3) امكن بواسطتها ابعاد الآراميين عن وادي دجلة واخراجهم من جبال كاشياري التي كانوا يهددون منها نينوى ؛ واستعادة عدة

مدن في الجزيرة كانت قد « اقتطعت من جسم آشور » ففككت أسرارهـا او حصنت من جديد تحسبا لهجمات مضادة . كما جندت حملات اخـرى على كردستان قامت بـ « البطش باهلها بالاكوام » ودفعت القبائل هناك الـى الوراء بعيداً نحو قمم الجبال . اما « شمشي ــ مداميق » ــ ملك بابل في السلالة الثامنة ــ فقد هاجمه الآشوريون مرتين واقتطعوا منه بقعة كبيـرة من الارض الى الشمال من وادي نهر ديالى .(4) وبعد وفاة أدد ــ نراري ، ملك عرش آشور « توكلتي ــ نينورتا ــ الثاني » (٨٩٠ــ٨٨٤ ق . م) الذي يبدو لنا متحمسا كأبيه غير انه لم يعمر بما يكفي لتوسيع منطقة حكمه وان كان قد اعاد بناء سور مدينة آشور من « أساسه وحتى قمته » ، كما قام كذلك بقيادة حملة دائرية ضد المقاطعات الجنوبية الغربية التـي سـبق ان احتلها أدد ــ نراري فحاز بذلك على احترام الآراميين القاطنين هناك(5) . وعندما توفي توكلتي ــ نينورتا الثاني ، كانت حدود الدولة الآشورية تضم كل شمال العراق من زاگروس الى الخابور ومن نصيبين وحتى تكريت ، او ربما سامراء . واستلم هذه التركة خليفته الملك الشاب آشـور ناصـر بال الثاني الذي ابتدأ اولى الخطوات نحو تحويل مملكته الكبيرة المقتدرة الى ماندعوه بالامبراطورية .

وعلى اية حال ، فان من الخطأ الاعتقاد بان الامبراطورية الآشورية كانت مشروعاً مخططاً او هيكلاً منظما بني بفعل الالحاقات المتعمدة للبقعة تلـو البقعة والمقاطعة تلو الاخرى حول النواة الاصلية . ولقد كانت الحروب التي شنها الملوك الآشوريون عاما بعد عام والتي توجت أخيراً بالهيمنة على القسم الاعظم من الشرق الادنى ــ الحروب التي تملأ حولياتهم وتجعلنا نوشك على نسيان عظمة انجازاتهم الاخرى ــ ثلاثة أسباب مترابطة ومتشابكة . فكمـا اوضحنا سابقا ، لم تكن اهداف تلك الحروب الا دفاعية محضة في الاساس ، او انها كانت بالاحرى حروباً وقائية تستهدف حماية « ارض الاله آشور »

من اذى جيرانها المعادين . ولما كان النصر في المعارك يعني ايضاً أسر العديد من الرجال والحصول على الكثير من الغنائم اضافة الى احتمال جعل البلد المقهور يدفع الجزية ، لذلك فقد كانت هذه الحروب ذات طابع لصوصي فاضح . ولان الآشوريين كانوا دائمي التطلع الى استحواذ مناطق صيد شاسعة والى بقعة جغرافية يستطيعون منها شن الهجمات دون أن يواجهوا مقاومة جدية ، لذلك فقد قامت تلك الحروب الكثيرة(6) . وكلما كان البلد الاجنبي ممكن السلب وكان راغباً في دفع الجزية لقاء بقائه مستقلاً ، كلما انتفت الحاجة الى الحاقه بدولتهم وحكمه بشكل مباشر . وأخيرا وليس آخراً ، كان هناك وراء تلك الحملات العسكرية دافع ديني بل وحتى خلقي بالنسبة للآشوريين . فطبقاً الى فلسفة وادي الرافدين ، كان للملكة المقدسة في السماء مايوازيها على الارض ، وبما ان الاله آشور كان يتبوأ مكانة سامية بين الآلهة في السماء ، لذلك فقد كان من واجب ممثله على الارض — وهو ملك آشور — ان يستحوذ على منزلة مماثلة بين الملوك على الارض ؛ ولقد امكن طبعاً تحقيق هذا الهدف بالقوة وحتى بالارهاب اذا ما اقتضى الامر . وهكذا فان ماتبدو لنا بانها مجازر ونهب وسلب كانت في واقع الحال أموراً مشروعة من الناحية الدينية عند الآشوريين : فأعداء الملك هم ايضاً اعداء الآلهة وهم لذلك من « الابالسة الاشرار » الذين يستحقون العقاب والاذى . وهكذا فقد كانت كل حملة آشورية اجراءً وقائياً للدفاع عن النفس أولاً ، وعملاً لصوصياً ثانياً ، كما كانت حملة دينية « صليبية » ايضاً . واصبحت الغنائم المتجمعة والجزية المفروضة على البلدان الاجنبية مصدرا للرفاه ووسيلة لاضعاف اعداء محتملين اضافة الى كونها رمزا لانخذال واستسلام آلهة هذه البلدان امام آلهة اشور العظيمة .

وفي ربيع كل عام تقريباً كان الملك يدعو جنوده « بأمر آشور »ويقودهم في طرق العراق الترية أو خلال الممرات الوعرة لجبال طوروس أو زاگروس .

وفي البداية كان أعداؤه في تلك المناطق يقتصرون على رؤساء القبائل او الامراء المحليين فحسب ، وكان بعضهم يحارب بشجاعة كبيرة ، ولكنهم نادراً ماكانوا يفلحون في الدفاع عن أراضيهم . أما الامراء الآخرون فقد كانوا يلوذون هرباً الى الصحارى او يختبئون في ذرى جبال وعرة يصعب الوصول اليها ، والباقون منهم « يعانقون القدم » ـ اي قدم الملك الآشوري ـ جالبين معهم الهدايا وواعدين بدفع الجزية باستمرار فيأمنون بذلك على حياتهم واماراتهم من الهلاك والدمار . والويل الويل لمن يحنث بعهده منهم حيث توجه ضدهم في موعد الحملة القادمة بعثة عسكرية تأديبية فتهب العاصفة حينذاك على بلدهم وينكل بالعصاة ويقتل السكان او يستعبدون وتحرق المدن والقرى والغلات الزراعية ، كما يعمد الى قلع الاشجار أيضاً . وما ان يعلم الامراء المجاورون بهذا الامر حتى يدب الفزع في قلوبهم فيسرعون لتقديم هداياهم مشفوعة بالايمان المغلظة . ويعود الجيش الغازي الى آشور أخيراً ، بعد فراغه من أداء مهمته ، محملاً بالاسلاب ، يسير وراءه قطار من الاسرى المستعبدين ، ويتفرق جنده كل الى سبيله . وكمثال على ماكانت تحصل عليه الدولة الآشورية من هذه الحروب نورد فيما يلي قائمة بالغنائم التي استحوذ عليها الملك آشور ناصر بال من مقاطعة صغيرة واحدة فقط تقع في المنطقة الشمالية الجبلية :ـ

(٤٠) عربة محملة بالحلي وبأسرجة الجياد

(٤٦٠) جواداً مروضا

(٢) طالنت من الفضة و (٢) طالنت من الذهب(*)

(١٠٠) طالنت من الرصاص و (١٠٠) طالنت من النحاس

(٣٠٠) طالنت من الحديد

(*) يساوي الطالنت الواحد (بلتو) : ٦٧ ليبرة .

(١٠٠٠) وعاء من النحاس

(٢٠٠٠) مقلاة من النحاس

أوان نحاسية متنوعة

(١٠٠٠) بدلة من الكتان والصوف زاهية الالوان

موائد من خشب الـ « شا » وأرائك مصنوعة من العـاج الموشى بالذهب من قصر الحاكم

(٢٠٠٠) رأس من البقر

(٥٠٠٠) رأس غنم

هذا اذا لم نأخذ بعين الاعتبار أخت الحاكم وبنات نبلائه مع دوطتهن الثمينة وخمسة عشر الف رجل أسر وجلب الى آشور • وجرى في تلك الحملة ايضا قتل الحاكم المحلي في تلك المنطقة وفرضت الجزية على خليفته وقوامها : ألف رأس من الغنـم وألفي « گـور » من الحبـوب ومانين مـن الذهب وثلاثة عشر ماناً من الفضة(7) • ولقد شملت حملة آشور ناصر بال تلك ما لا يقل عن خمسة بلدان وتسع مدن رئيسية جمعت الهدايا والاسلاب من جميعها •

وكلما مـرت السنون ، كلمـا توسـعت حـدود « صـيد » الدولة الآشورية فواجهت ملوكها خلف الدول الصغيرة المجاورة لهم ممالك أكبـر وأقوى مثل مملكة اورارطو في ارمينيا وميديا في ايران وعيـلام ومصـر • وتحولت بالتدريج حروب النهب الى حروب ضم والحاقات غالية التكاليف • صحيح ان الدولة الآشورية كانت قد اصبحت اكثر قوة ، غير ان منافسيها كانوا قد ازدادوا ايضاً في العدد والصلابة ، كما جعلت المسافة البعيدة الفاصلة بين العاصمة الاشورية والممالك التابعة لها عملية استيفاء الجزية امرا صعبا ، وأصعب منها كان اخماد العصيانات فيها • ثم اصبح من الضروري بعد ذلك

أستبدال الحكام المحليين وحاشيتهم بحكام آشوريين وتقسيم المناطق النائية التابعة الى مقاطعات تشبه في وضعها السياسي تلك التي كانت موجودة في ارض آشور الام منذ أمد بعيد • وبهذه الطريقة نشأت امبراطورية مترامية الاطراف ذات آلية عسكرية وادارية ضخمة ومعقدة ولها تنظيم متكامل ومؤثر • ولم يجر أبداً تناسي الاهداف الاساسية وراء الحاق تلك المقاطعات بحدود المملكة حيث استمرت عملية جباية الضرائب تشكل محور عمل الحكومة الآشورية • ولاشك ان التجار الآراميين والبحارة الفينيقيين وغيرهم من الحرفيين قد استفادوا كثيراً من سهولة المواصلات واستتباب الامن في طول هذه البلاد الواسعة وعرضها ، ومن الطلب المتزايد على السلع الكمالية الفاخرة من قبل القصور الآشورية • ومن المحتمل ايضاً ان تكون بعض المقاطعات المتأخرة حضاريا قد نالت على ظل من التمدين في عهد الآشوريين(8) ، ولكن لايوجد لدينا أي اثبات يؤكد أن الفاتحين الجدد قد بذلوا أيما جهد من اجل تمثيل الحضارة المتطورة جداً لامبراطوريتهم الممتدة فوق كامل السهل المحصور بين دجلة والفرات ؛ كما لم يولوا كبير اهتمام لتطوير المقاطعات والدويلات البعيدة السائرة في فلكهم من الناحية الاقتصادية من اجل تحسين الحالة المعاشية لسكانها ولو بصورة غير مباشرة • فصمت المراسلات الملكية التي عثر عليها في نينوى ونمرود عن هذا الموضوع ، والغياب شبه التام للنصوص الآشورية في سوريا وفلسطين وارمينيا وايران ، والمستوى البائس لطبيعة المواقع الآشورية التي نقب فيها في تلك البلدان ، والاشارات المتكررة الى حوادث السلب والنهب والمجازر والتخريب الواردة في الحوليات الملكية ـ بغض النظر عن درجة مبالغتها ـ تؤكد كلها حقيقة حالة البؤس والركود الاقتصادي الذي كانت تعاني منه المناطق الخاضعة للسيطرة الآشورية• فقد كانت الرجال والجياد والماشية تجلب الى الدولة الآشورية بالآلاف، كما كان الدخل السنوي الهائل من الذهب والفضة والحديد والنحاس والحبوب وغيرها من البضائع يسجل بانتظام من قبل كتبة البلاط ؛ وكلها لم يجر عموماً شراؤها

بل كانت تؤخذ بالاكراه من سكان المقاطعات الشاسعة للامبراطورية • وهكذا فقد اصبحت الثروة تنتقل باتنظام من المناطق الحدودية المجاورة الى المركز ، أي من الدويلات الخاضعة و « المحمية » الى العاصمة آشور ؛ ولقد كان الآشوريون يأخذون الكثير ولايعطون سوى النزر القليل ، أي أن ازدهار الدولة الآشورية قد شيد وقتذاك على حساب بؤس حالة رعاياها ، الامر الذي جعلهم تواقين دوماً للمشاركة في الهيجانات والعصيانات المتتالية • وهكذا فقد كان النظام الذي ارتقت الدولة الآشورية على أساسه يحمل في « أحشائه » أل « جرثومة » التي تسببت في سقوطه •

آشور ناصربال (*)

نواجه مع نجل توكلتي ــ ننورتا أول ملك آشوري عظيم للفترة الجديدة من تاريخ الآشوريين • وقد جمع آشور ناصر بال الثاني (٨٨٤ــ٨٥٩ ق • م) كل مميزات ومساوىء الملوك العظام الذين سبقوه حيث كان طموحاً شجاعاً ، متغطرساً ، ومجداً وظالماً • ولانصادف في تمثاله الذي عثر عليه في نمرود والمعروض الآن في المتحف البريطاني أي ظل لابتسامة ، ولا حتى أية مسحة انسانية بل نجد انفسنا امام تمثال صارم لعاهل متجبر ذي أنف يشبه « منقار النسر » وأعين تتبدى عن نظرة مباشرة فاحصة لرئيس يتوقع من رعاياه طاعة مطلقة وفي يديه الرمح والصولجان •(9)

ما ان تسلم آشور ناصر بال العرش حتى استعد دون أي سبب واضح لغزو البلدان الجبلية الى الشمال من وادي الرافدين(10) فتوغل بعيداً حتى بلغ أرض كوتموخو في وادي دجلة الاعلى حيث استلم الجزية من عدة امراء محليين وحصل على الهدايا من الموشكيين او الفريجيين الذين امتلكوا مواقع على السفوح الجنوبية لجبال طوروس • وبينما هو منغمس هناك ، وردته انباء

(*) والشكل الدقيق لكتابة إسمه هو « آشور ــ ناصر ــ أبلو » ويعني (الاله آشور راعي الخليفة) . (المؤلف)

اعلان مدينة آرامية تابعة له العصيان في وادي الخابور الاسفل ، فسار من فوره لمعاقبة المتمردين وكلفه هذا قطع مسافة مائتي ميل في عز الصيف :

« إقتربت من مدينة سورو التابعة لملكة بيت حالويني(*) فاخذ اهلها الرعب من عظمة إلهي آشور وسارع رؤساء وشيوخ المدينة إليّ لينفذوا بجلودهم وعانقوا القدم ولسانهم يقول : ان كانت تلك مشيئتك ، فاذبحنا او ان شئت فدعنا احياء . إفعل بنا كل مايتوق اليه قلبك .... وبشجاعة قلبي وبحد سيفي عصفت بالمدينة ، فامسكوا بكافة العصاة وسلموهم إليّ . »)(11)

كما وجهت حملات تأديبية اخرى ضد متمردين آخرين في جبال الكاشياري بأرض زاموا (المنطقة المحيطة الآن بالسليمانية) وضد المتمردين في منطقة الفرات الاوسط وذلك في فترات مختلفة من عهد حكمه . وما ان استتب الامن في تلك المناطق حتى قام آشور ناصر بال بأول خطوة لفتح سوريا وبلوغ ساحل البحر الابيض المتوسط وهو الهدف الذي كان يراود من قبل مخيلة شمشي ـ أدد الاول والذي لم يكن بوسع أي ملك آشوري عظيم تجاهله . كانت هناك وراء الخابور والبالخ داخل الانحناءة الكبيرة للفرات دولة آرامية مهمة هي مملكة بيت ـ أديني ، فاجتاح آشور ناصر بال تلك المملكة واحتل بواسطة « الانفاق والمجانيق القاصفة وآليات الحصار » مدينة « كابرابي » (ربما هي نفسها مدينة اورفا) التي كانت « بالغة القوة ومعلقة في السماء مثل السحاب » . وقد دفع هذا حاكم بيت ـ اديني المدعو « أحوني » الى جلب الجزية وايداع

(*) حلب

الرهائن في أيدي الآشوريين فانفتح بذلك الطريق أمام الحملة السورية العظيمة في السنة التالية (٨٧٧ ق ٠ م) ٠ وتقدم لنا الحوليات الآشورية تفاصيل غزيرة عن تلك الحملة بحيث اصبح بمقدورنا تتبع الملك الآشوري وجيشه في مساره خطوة فخطوة من كركميش حتى بلوغه ساحل انطاكية عبر جبال الاورنتس ، واخيراً الى جبال لبنان والبحر العظيم في أرض آمورو حيث قام آشور ناصر بال بتكرار ما اجترحه الملوك السابقون :

((غسلت اسلحتي في البحر العميق وقدمت نذراً من الخرفان الى الآلهة ٠ استلمت الجزية من ساحل البحر من أهالي تاير (صور) ، سيدون (صيدا) ، وبيبلوس ، إضافة الى محالاتا ميز ، وآمورو ، ومن ارفاد التي هي (جزيرة) في البحر ، قوامها الذهب والفضة والقصدير والنحاس والاواني النحاسية والملابس المصنوعة من الكتان والموشاة بالزخارف الملونة ، اضافة الى مجموعة من القردة الكبيرة والصغيرة والاخشاب المختلفة الانواع وعاج حيوان الفظ (حيوان بحري شبيه بالفقمة) ٠ تلك كانت الجزية التي استلمتها منهم بعدما عانقوا قدمي ٠))(12)

وعاد الآشوريون الى موطنهم عن طريق جبال الامانوس حيث قطعت منها الاشجار وارسلت الى آشور ، ونصبت مسلة ملكية في المكان ٠ ولم يبد الامراء الآراميون والحثيون الجدد المأخوذون على حين غرة أية مقاومة جدية ٠ وعلى العكس مما يدعيه الملك الآشوري ، فلم تكن هذه الحملة فتحاً كبيرا بل كانت في الواقع الغزوة الطويلة المدى الاولى منذ عهد حكم تگلاثبلزر الاول قبل مائتي عام ٠ فحتى الرقعة التي استحوذ عليها داخل حدود وادي الرافدين كانت صغيرة نسبياً ٠ ولعل النتيجة الاساسية التي أنتهى اليها عهد حكم آشور ناصر بال هي تمهيد الطريق امام الملوك التالين

لتحقيق انجازات أعظم • ولقد شيدت الحصون في توشخان بوادي دجلة الاعلى وفي كار ـ آشور ناصر بال ونيبارني ـ آشور في الفرات الاوسط وملئت بالحاميات القوية (13) • فازدادت قوة وجبروت الدولة الآشورية واخذ سكان المنطقة الجبلية من جيرانها الادنين يعدون انفسهم من التابعين لها • كما ادرك كل الشرق الادنى بان الآشوريين قد امتلكوا مرة اخرى زمام المبادرة فارتجف هلعاً لهذا •

ولقد كان من حق شعوب الشرق الادنى ان تفزع بعد انتشار انباء قسوة آشور ناصر بال في كل الاصقاع • ولم تكن المثل الانسانية في الحروب معروفة وقتذاك ، وكان يكفي لفرض الاحترام والطاعة على الاتباع ان تروج بعض الامثلة المريعة بواسطة المدونات او الصور في مناطق مختلفة • كان ذلك ديدن كل الفاتحين الكبار في التاريخ القديم فقد اتبع كلهم سياسة الارهاب ولم يكن الآشوريون استثناءً منهم • غير ان آشور ناصر بال بز اولئك جميعاً فلم يكتف بقتل الحكام العصاة وسلخ ونثر جلودهم على اسوار المدن بل كان يأمر بتعذيب السجناء الاسرى العزل والمدنيين الابرياء نساءً ورجالاً وأطفالاً وباستمتاع سادي :

« اقمت عمودا على بوابة مدينته وسلخت (جلود) كل الرؤساء المتمردين وكسوت العمود بها • وبنيت بعضهم داخل العمود وخوزقت عليه آخرين • واوثقت بعضهم حول العمود ••••• وبترت اوصال الضباط •••• الضباط الملكيين الذين اعلنوا العصيان • وحرقت العديد من اسراهم بالنار واتخذت الكثير منهم عبيداً ، وجدعت انوف بعضهم وقطعت اذانهم واصابعهم وقلعت عيون آخرين • وصنعت عمودا من الاحياء وآخر من الرؤوس ، كما علقت جماجمهم على جذوع الاشجار حول المدينة ثم احرقت شبابهم وشاباتهم بالنار •

امسكت بعشرين رجلاً ودفنتهم احياء في جدران قصره ... اما بقيــة جنــوده فقـد اهلكتهـم عطشــاً في صحــراء الفرات ....))(14)

على هذا المنوال يستمر الحال في فصول جد عديدة مــن المخطوطات الملكية . وفي الواقع يصعب علينا ان نقول اي الامرين أرعــب : التعذيبــات نفسها ، ام الاسلوب الطرائقي المفصل والمستمر ذاتيا الذي كتبت فيه من قبل الجلادين الرؤساء .

ولعل من الانصاف ايضاً ان نضيف هنا بأن ذكرى آشور ناصــر بــال تمجد ايضا بأعمال أفضل من هذه ، فقد أشبع جزءا مــن تعطشــه الدمــوي براعته الفائقة في الصيد والتي خلدتها منحوتاته . كما كان يهوى علم الحيوان والنبات فجلب من المناطق التي سافر اليها والجبال التي اجتازها كل انــواع البهائم والاشجار والبذور كي تستنبت على تراب آشور . وعلاوة على ذلــك فقد كان مأخوذاً برغبة طافحة للبناء وهي الميزة التي توفرت عند كافــة ملوك وادي الرافدين العظام . فبالاضافة الى الترميمات التقليدية لمعابــد آشــور ونينوى ، قرر هذا الملك ان يبني لنفسه ، وفي وقت مبكر من عهد حكمــه ، « منزلاً ملكياً بعيداً عن العاصمة القديمة » . ولا نعرف ما الذي حدا بآشور ناصر بال الى اختيار موقع كالحو (مدينة كالح القديمة الوارد ذكرها فــي الكتاب المقدس واسمها الحالي نمرود وتقع على مبعدة ٢٢ ميلاً جنــوب الموصل) عاصمة له وان كانت تتمتع بموقع ستراتيجي ممتاز حيث يحميهــا نهر دجلة من الغرب والزاب الاعلى من الجنوب . وكان شلمنصر الاول قــد سبق ان أسس مدينة هنــاك في القــرن الثالث عشر ق . م ولكنهــا تهدمت وتحولت الى اطلال . واستخدم الآلاف من الرجال للعمل في العاصمة الجديدة لتسوية تلك الانقاض وتوسيع موقع البناء ، ثم بنى حائطا جبارا مدعمــا

بالابراج حول مستطيل يبلغ طول محيطه خمسة أميال تقريبا . واستخدم تلاً نصف اصطناعي في زاوية هذا المستطيل كأكروبولس يسند الزقورة مع معابد اخرى والقصر الملكي :

((قصر مشيد من خشب السرو والارز والعرعر والبقس والتوت والفستق والطرفاء ؛ بنيته منزلاً ملكياً لمتعتي الجليلة لكل العصور ، وصورت وحوش الجبال والبحار على حجر الكلس ووضعتها في ابوابه ..... وعلقت عليها اغصان اشجار الارز والسرو والتوت والعرعر ونقلت اليه الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد ، وهي الغنائم التي استحوذت عليها بنفسي وبكميات كبيرة من البلدان التي اخضعتها .))(51)

وجرى في نفس الوقت شق قناة من الزاب اطلق عليها اسم «پاتّي حيگالي» (ساقية الوفرة) كي تستكمل حماية المدينة وتروي السهل المحيط بها . كما جرى إسكان أسرى جيء بهم من المناطق المخضوعة الى العاصمة الجديدة لتي أصبح الاله ننورتا (إله الحرب) حاميها .

كان قصر آشور ناصر بال في نمرود من اولى المواقع التي نقب فيها في وادي الرافدين ، فاشتغل لايارد بين الاعوام ١٨٢٥–١٨٥١ م في القسم الاوسط منه ، وكم كانت دهشته هو وعماله عندما استخرجوا عدداً من الثيران المجنحة والاسود والحيوانات الخرافية الجبارة مع الواح منحوتة ومنصصة(16) وقد ارسلت بعض تلك الكنوز الى انكلترا وهي موضع فخر واعتزاز المتحف البريطاني حالياً . اما الكنوز الاخرى الثقيلة ، فقد تعذر نقلها فدفنت في الموقع ثانية لكي تستخرج مرة اخرى بعد قرن من الزمان من قبل علماء آثار انكليز

ايضاً • ومنذ عام ١٩٤٩م ، استطاع فريق المدرسة البريطانية للآثار في العراق برئاسة البروفسور مالاوان ان تستخرج بناية المدينة باكملها وحققت في كل عام اكتشافات مثيرة جديدة(17) • ولدينا الآن التصميم الكامل للقصر الذي كان يغطي مساحة تزيد على الستة أياكر وينقسم الى ثلاثة اقسام هي الاجنحة الادارية (سلسلة من الغرف حول فناء كبير) ، وجناح الاحتفالات والمراسيم بقاعته الفسيحة وغرفة العرش ، ثم اخيراً الجناح العائلي ويضم شققاً ملكية وغرفاً للحريم ومخازن ودورات للمياه • وفي الجناح المخصص للاحتفالات ، كانت البوابات الرئيسية تحرس بواسطة ثور « أوجنّي » مجنح كبير • وقد زوقت حيطان الآجر بالمنحوتات الجصية (الفريسكو) وبألواح محفورة ومكتوبة ، بينما رصفت الارضية بالآجر المفخور المختوم باسم الملك • ومما يميز الجناح الملكي وجود نظام تهوية في هيئة منافذ هوائية محفورة في سمك الجدار تسمح بدخول الهواء من السقف • ولقد اختفت اغصان الاشجار من على الابواب في الحريق الذي دمر نمرود وغيرها من المدن الآشورية عام ٦١٢ ق • م • مع ذلك ، فقد بقيت بعض المواد النفيسة ، كالواح العاج المنحوتة بجمال فائق والمكسوة بالذهب والتي كانت تزين الاثاث الملكي في يوم ما ، شاهدة على عظمة هذا المبنى • ووجدت كذلك عدة اسلحة وادوات برونزية وحديدية واوانٍ فخارية وعدد من الرقم الطينية • وبالتأكيد فان قصر آشور ناصر بال هو احد افضل بيوت الملكية الآشورية التي طاولت عاديات الزمن • ويواجه الزائر المتجول خلال العدد الهائل من الغرف والاروقة بعد اجتيازه ممرات ضيقة مخططة بألواح كبيرة ، وبشكل مفاجيء ، حيواناً مرعباً قدّ من الحجر تحت الضوء الخافت للممر ، ويساعدنا هذا على ان تتخيل تماماً نوع الاحاسيس التي كانت تتملك اولئك الذين دخلوا البناية للتقرب من « الراعي المجيد الذي لا يهاب المعارك

ومن بين المواد التي عثر عليها في القصر مسلة جد كبيرة تحمل صورة الملك ومخطوطة طويلة تروي لنا الاحتفالات الفخمة التي رافقت تدشين المدينة عام ٨٧٩ ق • م(18) ، حيث أقام آشور ناصر بال وليمة فخمة نمتلك قائمة مفصلة بأطعمتها لكافة سكان المدينة اضافة الى السفراء الاجانب • ولايقل عدد كل هؤلاء عن (٦٩٥٧٤) ضيفا نصبت لهم المآدب مدة عشرة ايام كاملة • ومن شأن الجملة الختامية لهذه المخطوطة ان تجعلنا ننسى للحظة الجوانب النسيئة لهذا العاهل العظيم حيث يقول :

« اولمت للشعب السعيد من كل البلادمع شعب كالحو لعشرة ايام وقدمت لهم الشراب وحممتهم وعطرتهم وشرفتهم ثم اعدتهم الى بلادهم بسلام وحبور • »

شلمنصر الثالث

يبدو ان شلمنصر الثالث(*) ــ الذي كان مشغولاً اغلب الوقت في سوح المعارك والذي دأب على تسيير حملاته العسكرية من نينوى أو من أحد قصوره المتعددة ــ لم يمض غير سني حكمه الاخيرة فقط في كالحو • غير ان نصبه الاكثر شهرة لم تأتنا الا من تلك المدينة ومن المناطق المجاورة لها • فقد عثر « لايارد » على احدى تلك النصب ــ وهي المسلة السوداء ــ في معبد ننورتا قبل اكثر من قرن من الزمان وهي معروضة الآن في المتحف البريطاني(19) • وتتكون هذه المسلة من كتلة ارتفاعها ستة اقدام مصنوعة من المرمر الاسود تنتهي بعدة دكات تشبه الزقورة الصغيرة دوّن حولها نص مسهب يقدم تعريفا بحروب الملك ، بينما تبين لنا خمسة الواح منقوشة في كل جانب دفعات الجزية المقدمة من قبل البلدان الاجنبية المختلفة بضمنها

(*) « شولمانو ــ أشاريدو » وتعني « الاله شولمانو هو الرئيس » • (المؤلف)

مملكة اسرائيل التي يشاهد ملكها « جيهو » وهو يحبو عند قدمي الملك الآشوري • كما سلطت التنقيبات الحديثة الضوء على تمثال للملك وهو في وضع التعبد وجد في نمرود وعلى بناية ضخمة تقع في زاوية سور تلك المدينة شيدها الملك بنفسه واستخدمت من قبل خلفائه حتى أوان سقوط الامبراطورية• وفي الحقيقة فقد كانت تلك البناية ــ التي يطلق عليها علماء الآثار اسم «حصن شلمنصر » ــ قصراً فخما بالاضافة الى كونها « إيگال ــ مشرتي » خاص بالمخطوطات اي : «المخزن الكبير» المعد «لحفظ تجهيزات الجند ، وصيانة عدة الحرب ، وخزن الغنائم من كل نوع(20) » • وكان الجند يتجمعون داخلها في ثلاث باحات فسيحة يتجهزون فيها بعدتهم ويتفتشون قبل استهلال الحملات السنوية ، بينما كانت الغرف المحيطة بها تستخدم كمشاجب للسلاح وعنابر واصطبلات وملاجيء للضباط • واخيراً فاننا نمتلك أيضاً المواد المعروفة باسم « بوابات بالاوات البرونزية » المكتشفة من قبل مساعد « لايارد » المدعو « رسام » ليس في نمرود بل في موقع « بالاوات » (إمگور ــ انليل القديمة) ــ وهي تلة صغيرة تبعد بضعة اميال الى الشمال الشرقي من مدينة نمرود ــ وذلك عام ١٨٧٨ م • وكان آشور ناصر بال قد ابتنى لنفسه هناك قصراً ريفياً اتخذه شلمنصر بعده مسكنا له فكسيت الابواب الرئيسية فيه بشرائط طويلة من البرونز عرضها عشرة بوصات تقريباً استخدم في نقشها تكنيك النحت البارز لتمثيل بعض مشاهد الحملات العسكرية لشلمنصر الثالث وقد ارفقت بها حكاية موجزة(21) • وعلاوة على القيمة الفنية والمعمارية الفائقة لها ، فان هذه النصب لا تقدر بثمن لغزارة المعلومات التي تقدمها لنا عن فن الحرب الآشوري خلال القرن التاسع ق • م •

يبز شلمنصر والده في كثرة حملاته وفي سعة مداها(22) فقد كرس واحداً وثلاثين عاماً من عهد حكمه الذي دام خمسة وثلاثين عاماً لشن الحروب على الاعداء ، فوطئت اقدام الجنود الآشوريين اماكن نائية لم يبلغوها من قبل في

ارمينيا وكليكية وفلسطين وفي قلب جبال طوروس وزاگروس وسواحل الخليج العربي ، واغتصبوا اراضي جديدة وحاصروا مدنا جديدة ، واختبروا قوتهم امام أعداء جدد • ولما كان هؤلاء الاعداء اقوى بكثير من الآراميين في الجزيرة او القبائل الصغيرة في كردستان العراق ، لذلك فقد اضعفت اخفاقاته العديدة من قيمة انتصاراته • وفي الحقيقة فان عهده يوحي لنا بوجود مهمة تركت دون إتمام ، وببذل جهود جبارة لم تؤت غير حصيلة جد ضئيلة • ففي الشمال مثلا ، ذهب شلمنصر الى ما وراء « بحر نايري » وتوغل في بلد اورارطو – وهي مملكة كانت قد تأسست حديثا وسط جبال ارمينيا العالية • وتخبرنا الادعاءات الآشورية كالعادة دوماً عن تحقيق انتصار كامل وتصف لنا اجتياز عدة مدن عائدة الى ملك اورارطو المسمى « آرامي » ، الا ان تلك المصادر نفسها تعترف بعد ذلك بفرار آرامي ، كما نعلم كذلك ان مملكة اورارطو قد اصبحت المنافس الرئيسي للامبراطورية الآشورية في القرن التالي • ومثل ذلك كانت نتيجة سلسلة الحملات الموجهة صوب الشرق والتي شنت في نهاية عهده اما بقيادته الشخصية او تحت امرة الترتانو « دايان – آشور » ضد الميديين والفرس الذين كانوا يستوطنون وقتذاك المنطقة المحيطة ببحيرة اورميا • هنا ايضاً كان الصدام وجيزاً و « النصر » عاجز عن تحقيق نتائج مستديمة حيث ترك في الواقع اولئك الميديون احراراً لتقوية مركزهم في ايران •

ولقد انتهت المحاولات المتكررة التي قام بها شلمنصر الثالث للاستيلاء على سوريا بالاخفاق ذاته ، اذ انتهز الحثيون الجدد والامراء الآراميون – الذين كان آشور ناصر بال قد اخذهم على حين غرة – سنوح الفرصة لتقوية انفسهم، كما ساعدت الهجمات الآشورية المتكررة عليهم على جمع كلمتهم لصد الخطر الجديد • واقتضى الامر توجيه ثلاث حملات متتالية من اجل الاطاحة بمملكة « بيت – أديني » وتأسيس رأس جسر على الفرات • وفي عام (٨٥٦ ق • م) أخذت مدينة تلبارسب (تل احمر الحالية) – وكانت عاصمة مملكة بيت –

أديني ــ واستوطنها الآشوريون وأسموها « كــار ــ شــلمان ــ شــارد » (رصيف شبلمنصر) • وعلى قمة التل المطل على الفرات شيد قصر استخـدم كقاعدة لانطلاق العمليات العسكرية ضد الجبهة الغربية(23) • ولقد واجـه الآشوريون في كل مكان تحالفاً يضم الحكام المحليين على استعداد لمقارعتهـم سواء كانوا يزحفون عن طريق جبال الامانوس أم على دمشق بطريق حلب • وعندما توغل شلمنصر الثالث عام (٨٥٣ ق • م) في سهل سوريا الاوسط ، نازله مناوئوه ــ وهم « ارحو ــ ليني » امير حماه و « أدد ــ إدري » اميـر دمشق (وهو « بن حدد » الثاني المذكور في الكتاب المقدس) بجيش جهزه « اثنى عشر ملكا من ملوك ساحل البحر » اعدوا لمواجهته (٦٢٫٩٠٠) مقاتل من المشاة و (١٩٠٠) فارس و (٣٩٠٠) عربة قتال و (١٠٠٠) جمل أرسلت من قبل « جنديبو في شبه الجزيرة العربية »(*) • واشتبك الجيشان في قرقرة (قرقار) على نهر العاصي ليس بعيداً عن حماه • يقول شلمنصر :

« ذبحت ١٤٫٠٠٠ من محاربيهم بالسيف • وامطرتهم ، مثل ادد ، بالهلاك ••••• كـان السهـل أضيق من ان يسـمح لاجسادهم بالسقوط كمـا ضـاق الريف الفسيح بدفنهم • وذرعت نهــر العاصي بجثثهـم مثـل الجسـر • »(24)

ولكنه اخفق في احتلال حماه ودمشق واختتمت حملته بتطواف وجيز علـى ساحل البحر الابيض المتوسط • ولقد سيرت حملات اخرى ضد حماه بعـد ذلك باربعة وخمسة وثمانية اعوام ولكنها لم تفلح في دخول المدن الرئيسيـة• وفي عام (٨٤١ ق • م) ، هوجمت دمشق مرة اخرى وكان الوضع مواتياً اثر اغتيال أدد ــ ادري واستبداله بـ « هزايل » (النغل)(25) • وهزم الاخير في موقعة جبل سانر (حرمون) ولكنه التجأ الى عاصمته ليعتصم بها ؛ وكان كل ما باستطاعة شلمنصر عمله هو تخريب الحدائق والبساتين المحيطة بدمشـق

(*) وهذه هي المرة الاولى التي يرد فيها اسم العرب في التاريخ •

وسلب سهل حوران الغني • بعدها سار بجيشه صوب الساحل البحري واستلم وهو في جبل الكرمل الجزية من تيرا (صور) وسيدون (صيدا) ومن « أياوامار حمري » (جيحو بن اومري ملك اسرائيل) (وهو اول شخصية ممن يرد ذكرهم في الكتاب المقدس تظهر في المدونات المسمارية) • وبعد اخفاق المحاولة الاخيرة لاحتلال دمشق عام (٨٥٨ ق • م) ، اعترف الآشوريون بفشلهم بتركهم سوريا وشأنها حتى نهاية عهد حكم شلمنصر الثالث •

اما في بابل فقد كان شلمنصر الثالث اوفر حظاً وان كان قد فشل هنا ايضاً في استثمار نجاحه فضيع فرصة جد مواتية لمملكة آشور • كان ملوك سلالة بابل الثامنة قد استطاعوا البقاء مستقلين حتى ذلك التاريخ فقد كانوا أضعف من ان يبادروا الى مناطحة الآشوريين واقوى من ان يطمع بهم هؤلاء• فحتى آشور ناصر بال آثر تجاهل المملكة الجنوبية ليوفر بذلك لمعاصرة البابلي « نبو ــ ابال ــ ادينا » (٨٨٥ ــ ٨٥٢ ق•م) فرصة كافية لترميم بعض الدمار الذي سببه الآراميون والسوتيون خلال عصر الفوضى(26) • وفي عام (٨٥١ ق • م) نشب نزاع بين ملك بابل « مردوخ ــ زاكر ــ شومي » وشقيقه الذي كان يساعده الآراميون ، فعمد الاول الى طلب العون من الآشوريين فقام شلمنصر بدحر المتمردين ، ودخل بابل ، وقدم الضحايا في معبد مردوخ « ايساكلا » ومعابد كوثا وبارسيبا ، وعامل سكان تلك البلاد المقدسة بكرم ورعاية :

« اعددت لشعب بابل وبارسيبا المحمي ، احرار الآلهة العظيمة ، وليمة فخمة فقدمت لهم الطعام والشراب وكسوتهم بالحلل الزاهية وقدمت لهم الهدايا • »(27)

ثم توغل جنوباً في اعماق بلد سومر القديم المحتل الان من قبل الكلدانيين «كالدو»،فهزم اعداء بابل في كل مكان ولاحق فلولهم « حتى ساحل البحر الذي يدعى النهر المر (نار ماراتو) » ، أي حتى الخليج العربي . ولم تكن تلك المعمعة كلها في الحقيقة اكثر من حملة تأديبية . وأقسم مردوخ ــ زاكر ــ شومي ــ وهو يلهج بالشكر والعرفان بالجميل ــ يمين الولاء لحاميه ملك آشور ولكنه بقي محتفظاً بعرشه . ولقد كان من الممكن وقتذاك تحقيق وحدة وادي الرافدين بشماله وجنوبه في ظل السيادة الآشورية دون اثارة اية مشاكل ، غير ان شلمنصر الثالث آثر لسبب مجهول ــ ربما كان انشغاله حينذاك في القسم الشمالي الشرقي من مملكته ــ الاكتفاء بنيل سيادة ثانوية من بابل ، وكان كل ماغنمه الآشوريون من تلك الحملة لا يزيد على مدينتين وبضع مقاطعات تقع على الحدود بين المملكتين . واصبحت بذلك الدولة الآشورية ــ التي كانت ماتزال مملكة عراقية شمالية خالصة ــ تحدها الانهار من الجنوب والغرب (ديالى والفرات) وسلاسل الجبال من الشمال والشرق (طوروس وزاگروس) .

اسودت الفترة الاخيرة من حكم شلمنصر الثالث بارهاصات داخلية جد خطيرة حيث تمرد عليه احد أبنائه المدعو « آشور ــ داينن ــ أپلو » تسانده سبع وعشرون مدينة بضمنها آشور ونينوى واربيل وعرفه « كركوك » . فأوكل الملك العجوز ــ الذي نادراً ماكان يغادر قصره في نمرود ــ الى ابنه الثاني شمشي ــ أدد مهمة اخماد العصيان ، فعمت الحرب الاهلية الشعواء ارض آشور لمدة اربعة اعوام كاملة . وكانت الدولة الآشورية ماتزال تسعر في اتون تلك الحرب الطاحنة عندما توفي شلمنصر الثالث فتسنم ابنه شمشي ــ أدد الخامس العرش عام (٨٢٤ ق . م) ومع عهده بدأت فترة من الركود السياسي للآشوريين دامت لحوالي قرن من الزمان .

الفصـل التاسع عـشـر

الامبراطورية الآشـورية

لم تكن ثورة عام ٨٢٧ق٠م الكبيرة وليدة ازمة عائلية داخل العائلة المالكة بالمعنى التقليدي ، بل كانت انتفاضة للنبلاء القرويين وللمواطنين الآشوريين الاحرار ضد « بارونات » المملكة الكبار ، اي ضد الحكام المحليين الاغنياء الذين كان آشور ناصر بال وخليفته قد ولاهم على المقاطعات التي احتلت ؛ وضد موظفي البلاط الكبار مثل الترتانو المدعو « دايان ـ آشور » الـذي جمع في يديه سلطات تجاوزت في اواخر ايام عهد حكم الملك شلمنصر الثالث طبيعة مسؤلياته الحقيقية ٠ كان مبتغى الثوار تنصيب ملك يتولـى الايفـاء بمتطلبات منصبه بشكل حقيقي ، وتأمين توزيع اكثر انصافاً لمناصب السلطة بين تابعيه ٠ ولقد كان هؤلاء يقاتلون من اجل قضية عادلة وتحت قيادة ولـي عهد الملك نفسه ٠ الا ان اجراء اصلاح اداري شامل من هذا النوع كان من

شأنه في تلك المرحلة ان يهز اركان المملكة التي كانت لما تزل ضعيفة نسبياً . وقد وطد شلمنصر نفسه على سحق المتمردين بسرعة ولم يكن هناك من هو اكفأ من ابنه الاصغر للقيام بمثل هذه المهمة . واستغرق الامر عامين حتى استطاع شمشي ـ أدد الخامس قمع الانتفاضة واجبار المدن السبع والعشرين على الاستسلام لسلطة الدولة من جديد بعد أن سبب أخوه « الفتن والعصيانات والمؤامرات من كل نوع » . ولقد أمضى شمشي ـ أدد الخامس بقية عهد حكمه (٨٢٣ ـ ٨١١ ق . م) في توكيد سلطته على البابليين وحكام المقاطعات الجبلية في الشمال والشرق الذين كانوا قد انتهزوا فرصة انشغال الآشوريين في حربهم الاهلية ليعلنوا ابطال « الحماية » الآشورية وايقاف دفع الجزية(1) . واخيراً فقد تم اعادة السلام والنظام للملكة دون ان يطرأ أي تغير كبير على الحكومات المحلية ولا على الدولة المركزية ؛ فاستمرت الاحقاد لتسبب في اثارة اعمال عنف وعصيانات جديدة صغيرة او كبيرة في السنين القادمة . ونجم عن غياب الاستقرار الاجتماعي وتأثيره الكبير على الهيكل الداخلي للدولة ضعف وقتي للمملكة الآشورية خلال النصف الاول من القرن الثامن ق . م . وكان لصغر سن ورخاوة بعض خلفاء شمشي ـ أدد الخامس ، والدور المتزايد الاهمية الذي اصبحت تلعبه مملكة اورارطو في الشؤون السياسية في المنطقة نصيب في خلق ذلك الركود المؤقت .

ركود الدولة الآشورية

كان أدد ـ نراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٣ ق . م) غلاماً صغيراً اول تسنمه للعرش بعد وفاة ابيه شمشي ـ أدد . ولخمس سنين بعد توليه مقاليد الحكم كان الحل والعقد في شؤون المملكة بيد والدته الملكة « سامورامات (سمير أميس الاسطورية) » . ولقد اكتسبت هذه الملكة ـ التي نادراً ما نجد اثراً لحكمها في المدونات الآشورية(2) ـ شهرة عريضة حيث صورت بكونها

« أجمل وأقسى وأقوى وأكثر ملكات الشرق شبقاً »(3) . اما كيف ارتبط اسمها بمثل هذه النعوت فتلك مشكلة عويصة كما تلوح للوهلة الاولى . والتفسير المحتمل(4) هو ان هيرودوت ـ الذي اخترع اسطورة سمير اميس في القرن الرابع ق . م ـ قد استنبط معلوماته عنها من كهنة بابل . فلابد ان تكون سامورامات ـ البابلية بالولادة ـ قد ساهمت بنشاط في عملية نشر التقاليدوالاصول الدينةالبابليةفي مملكتها (أي فيعملية «بيلنة» آشور حضارياً التي كانت احدى المميزات البارزة لتلك الفترة) . وغني عن القول ان كهنة بابل كانوا فخورين ودائمي الانتصار لملكتهم ، لذلك فان بامكاننا الافتراض بان كل الروايات المنسوجة عنها كانت مزوقة بذكاء . وقد تكفل خيال المسافر الساذج المستثار بشخصية هذه المرأة غير الاعتيادية باضافة الباقي . كما قام المؤلفون الاغارقة بعده بالاطناب كثيراً في التحدث عن محاسن ومساويء سمير اميس . واخيراً فقد نسب اليها انجازات هائلة نحو : بناء بابل ، فتح مصر والهند ؛ اي انها اصبحت تجسد في الحقيقة كافة انجازات وانتصارات الملوك الذين حكموا آشور قبلها وبعدها . ولعل من سخرية القدر ان تكون مآثر بناة الامبراطورية الآشورية من فحول الرجال قد انتقلت الى الاجيال التالية باسم انثى .

وما ان بلغ أدد ـ نراري السن التي تؤهله للقيام بواجباته الملكية حتى اظهر خصال الملك القدير المدبر(5) . ففي العام الاول من حكمه الحقيقي بادر بالهجوم على سوريا وفرض الجزية والضرائب على الحثيين الجدد ، الفينيقيين، الفلسطينيين ، اليهود وعلى الايروميين . كما نجح بالقيام بما فشل في تحقيقه والده في زمانه عندما دخل دمشق واستلم من « بن حداد الثالث » « ممتلكاته وبضائعه بكميات لا تحصى » . وبنفس الطريقة فقد أجبر الميديين والفرس في ايران على « الاستسلام لقدمه » على حد تعبير مدوناته الملكية ، بينما اصبح « ملوك الكالدو كلهم » أتباعاً له . ولكن انتصاراته هذه كانت مجرد هجمات

ولم تكن فتوحات مستديمة • وهكذا فلم تثمر الجهود المتقطعة لهذا الابن البار لشلمنصر الثالث عن نتائج مؤثرة ، كما تؤشر وفاته المبكرة بداية فترة طويلة من التدهور الآشوري •

خلف أدد ــ نراري في الملك اربعة من اولاده حكموا الواحد بعد الآخر• عن الاول ، وهو شلمنصر الرابع (٧٨٢ ــ ٧٧٢ ق • م) ، لايعرف الا القليل جداً ، ولكن يبدو ان سلطته كانت محدودة تماماً • ففي مخطوطة عثر عليها في تلبارسب (تل احمر) نجد ان قائده الاعلى « شمشي ــ ايلو » يفتخر باحرازه الانتصارات المؤثرة على الاورارطيين دون ان يكلف نفسه عناء ذكر اسم سيده الملك وهذه ظاهرة لاسابق لها في السجلات الآشورية(6) • ويتميز عهد حكم الابن الثاني ، وهو « آشور ــ دان الثالث » (٧٧١ ــ ٧٥٤ ق • م) بالحملات غير الموفقة على وسط سوريا وبتفشي الطاعون واندلاع الاضطرابات في آشور وعرفة (كركوك) وفي كوزانا (تل ــ حلف) ، وبكسوف للشمس ينذر بالويل والثبور • اما الابن الثالث وهو « آشور ــ نراري » الخامس (٧٥٣ ــ ٧٤٦ ق • م) فقد كان نادراً ما يجازف بترك قصره ولعله لاقى حتفه في ثورة نشبت في كالحو فنصب مكانه اخوه الاصغر تگلاثبلزر الثالث •(7)

وهكذا فقد اصبحت قوة الدولة الآشورية مشلولة من الناحية العملية ولفترة خمسة وثلاثين عاماً (٧٨١ ــ ٧٤٥ ق • م) • حصلت خلال تلك الفترة تغيرات كبيرة وصغيرة في الجغرافية السياسية للشرق الادنى حيث اصبحت بابل ــ التي اندحرت مرتين امام شمشي ــ أدد الخامس والتي حافظت على الرغم من ذلك على استقلالها ــ في حالة من الاضطراب والفوضى تذكرنا بأسوأ عهود القرن العاشر • فمنذ عام ٧٩٠ ق • م ، ولعدة سنوات اخرى، لم يعد يوجد ملك يحكم البلاد مثلما تعترف بذلك وثيقة بابلية • ونجد ان ملكها التالي ، وهو أديبا ــ مردوخ (٧٨٢ ــ ٧٦٣ ق • م) ، يصور احدى حملاته التأديبية الصغيرة الشأن ضد الآراميين الذين انتزعوا من أهالي بابل

وبارسيبا بعض الحقول والبساتين على انها انتصار مجيد(8) • وفي سوريا ، كان الامراء الآراميون منغمسين تماماً في نزاعاتهم التقليدية لدرجة انهم أخفقوا في تحقيق وحدة متماسكة بينهم • كما فقدت دمشق مكانتها السياسية بعد ان هوجمت في جبهتين من قبل الآشوريين ومملكة اسرائيل فحلت محلها مدينة حماه اولاً ، ثم انتقل الثقل السياسي الى ارفاد (تل رفاعات قرب حلب) عاصمة بيت ــ أكوشي • وفي ايران طفق الفرس بالهجرة من الشمال الى الجنوب نحو جبال بختياري فترك الميديون احراراً ليوسعوا رقعة بلادهم لتشمل كل الهضبة الايرانية • وحول بحيرة اورمية استطاع المينويون ــ وهم شعب لا صلة له بالهندو اوربيين ظهر انه كان متحضراً بدرجة أبعد كثيراً مما يمكن للمرء تصوره(9) ــ تنظيم انفسهم في امة صغيرة ولكنها قوية • ولكن أهم تلك التطورات كانت قد جرت في ارمينيا حيث تحولت اورارطو من اقليم صغير على شواطىء بحيرة وان الى مملكة بقوة وسعة المملكة الآشورية نفسها • اذ توسع سلطانها في عهد حكم ملكها « ارجستس الاول » (٧٧٨ ــ ٧٥٠ ق•م) لتمتد تقريباً من بحيرة سيفان في ارمينيا الى الحدود الحالية لشمال العراق ، ومن بحيرة اورمية الى وادي الفرات الاعلى في تركيا • وخلف تلك الحدود المحلية ، كانت توجد هناك عدة دويلات تابعة وقبائل تدفع الجزية الى اورارطو وتعترف بسيادتها عليها وترتبط واياها باتفاقيات عسكرية • هكذا كان حال السيمريين في القوقاز وكل الممالك الحثية في طوروس (تابال ، مليد ، گورگوم ، كوموحو) والمينويين في ايران • ولقد أظهر خليفة أرجستس ، « سردور الثالث (٧٤٩ ــ ٧٣٤ ق • م) دهاء وحنكة سياسية افلح بواسطتها في فك ارتباط ملك ارفاد متيع ــ أيلو من التحالف الذي كان قد عقده مع أدد ــ نراري الثالث(10) ؛ وعن طريق ارفاد انتشر سريعا التأثير السياسي الاورارطي بين الممالك الآرامية في شمال سوريا •

زودتنا التنقيبات الآثارية القديمة والمتأخرة في قسمي ارمينيا التركي

والسوفييتي ـ خصوصاً تلك التي جرت في « تيراك كالة » (روساهينا القديمة قرب بحيرة وان) وفي « كرمر أبلير » (تايسبايني القديمة قرب يرڤان) ـ بمعلومات مستفيضة عن تاريخ مملكة اورارطو »(*) . كانت مساكن مدنها الرئيسية تشيد من الحجر او من الآجر الطيني القائم على اسس حجرية . واحيطت مدنها بأسوار ضخمة يهيمن عليها حصن كبير تخزن فيه الاطعمة والزيوت والخمور والاسلحة تحسباً للحرب . وكان الحرفيون المحليون ماهرين في صهر المعادن فتركوا لنا عدداً من الاعمال الفنية الفائقة الجمال التي تعكس تأثراً قوياً بالفن الآشوري . وتشهد المسلات العديدة والمدونات الحجرية المكتوبة بالخط المسماري وباللغة الوانية (نسبة الى بحيرة وان) ـ وهي لغة متفرعة من الحورية ـ على بسالة وايمان الملوك الاورارطيين ؛ بينما تميط المئات من الرقم الطينية اللثام عن النظام الاقتصادي والاجتماعي للمملكة المرتكز أساساً على اقطاعيات ملكية واسعة يكدح فيها الجنود واسرى الحرب والعبيد . ولقد جعلت مراعي جبال ارارات والوادي الخصيب لنهر آراكس من اورارطو بلدا رعويا ـ زراعيا غنيا الى حد ما ، غير ان معظم ثروته كانت تأتي من مناجم النحاس والحديد في أرمينيا وجورجيا وكوماجين واذربيجان وكلها تقع تحت سيطرتها .

كان بزوغ امة كبيرة مزدهرة وقوية بهذه الدرجة ذا تأثير حاد على تاريخ الدولة الآشورية حيث اصبح الدور المتزايد الاهمية الذي تلعبه اورارطو في سياسة واقتصاد الشرق الادنى ـ علاوة على حضورها على ابواب العراق ـ مصدر قلق دائم عند الآشوريين ، بل وحتى تحدياً لهم . ولقد تعلم الآشوريون بفضل سلسلة من التجارب المنكودة في عهد شلمنصر الرابع ان محاولة تسديد ضربة مباشرة الى اورارطو في الوضع الراهن للامور سوف لن يكتب لها غير الفشل الذريع . كان على الآشوريين قبل ان يقارعوا غرماءهم

(*) او « اورارتو » و « الاورارتيين » .

الاقوياء ان يقووا مركزهم داخل العراق وان يخضعوا سوريا وغـرب ايران ويتمسكوا بهما بقوة لانهما كانتا القناتين اللتين ينساب منهما النفوذ الاورارطي خارج ارمينيا • ففي تلك المرحلة ، كان زمن الحملات الخاطفة السهلة المضمونة النتائج قد ولى ، واصبحت الدولة الآشورية امام خياريـن : امـا ان تبـرز كامبراطورية واسعة ضارية ، او ان تختفي وسط زحمة اعدائها الكثيرين •

تكلاثبلزر الثالث(*)

ولحسن الحظ فقد وجدت الدولة الآشوريـة في تكلاثبلـزر الثـالث (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق • م) الملك الموعود ، فقد كان شجاعاً ، حاذقاً وذا بعد نظر • استوعب تكلاثبلزر الثالث جيداً وضع مملكته واستخدم الحلول الناجعـة لدرء الخطر المحيق بالدولة فلم يكتف بـ « تهشيم » الحلفاء السوريين لاورارطو والميديين بل وأخضع مناطق جديدة الى الممتلكات الآشورية وأعاد تنظيـم الجيش لزيادة فاعليته ، كما أجرى اصلاحاً ادارياً كان قد طال انتظاره ممـا ضمن لدولته سلاماً داخلياً كانت بأمس الحاجة اليه • ومن جميع وجهات النظر فان تكلاثبلزر كان في الواقع هو المؤسس الحقيقي للامبراطورية الآشورية •

إستهدف الاصلاح الاداري الذي طبق بعد عـام (٧٣٨ ق • م)(12) وبشكل تدريجي تقوية السلطة الملكية والتقليل من النفوذ المتفاقـم للامـراء الكبار ، فأمر تكلاثبلزر بمضاعفة عدد المقاطعات الموجودة في بلاده وتصغيـر رقعتها • اما البلدان الواقعة خارج حدود دولته والتي اخضعهـا في حملاتـه المتعددة فقد استعيض عن حكامها المحليين بولاة آشوريين وجرى إلحاقهـا بجسم الدولة الآشورية كلما كان ذلك ممكناً • وقد عوملت كل تلك المقاطعات على اساس انها آشورية تماماً فاسندت الى حاكم يحمل لقب « سيد مقاطعة » (بعل پيجاتي) او الى«حاكم»(شاكنو ومعناها الحرفي «المعيَّن »)كان مسؤولا

(*) . يكتب احيانا « تكلاتبلاصر » او « تجلاتبلسر » او ما شابه .

عن تصرفاته امام الملك مباشرة • أما البلدان والشعوب التي تعذر دمجها برقعة الامبراطورية فقد استبقيت فيها حكوماتها المحلية ولكنها وضعت تحت اشراف « قيپو » (مشرف) • كما تم انشاء نظام جد كفوء للاتصالات بين القصر الملكي والمقاطعات التابعة ، فكان الرسل العاديون ينقلون باستمرار تقارير ورسائل الحكام ورؤساء المقاطعات او نوابهم الى الملك وكبار رجال البلاط ويعودون حاملين اوامر الملك (أمات شاري « كلمة الملك ») اليهم • وفي بعض الاحيان ، كان الملك يبعث بممثله الشخصي (الموظف ــ القربوتو) الذي كان يرفع لسيده التقارير عن المسائل السرية ويمتلك حق التصرف بحرية لمعالجة القضايا المهمة • ولقد استحوذ رؤساء المقاطعات وحكامها على سلطات عسكرية وقضائية وادارية ومالية كبيرة وان اقتصر نطاق سلطتهم على المنطقة الصغيرة الموضوعة تحت تصرفهم ، كما احتفظت السلطة المركزية لنفسها بحق التدخل في أي وقت وفي كل مسألة تقريباً • كانت المهمة الاساسية الملقاة على عاتقهم هي تأمين تسليم دفعات دائمة من الجزية « مداتّو » والضرائب والواجبات المختلفة التي كان يخضع لها الآشوريون والاجانب على حد سواء • كما كانوا مسؤولين عن تأمين سيادة القانون والنظام وتنفيذ اعمال الخدمات الشعبية وتجنيد العساكر في مقاطعاتهم ، والامر الاخير كان يتصف بأهمية بالغة للوطن الام • كان الجيش الآشوري يتألف اساساً من المزارعين والعبيد الذين يوفرهم مُلاك الاراضي الآشوريون لالحاقهم بخدمة الملك خلال الحملات السنوية • اما في عهد تگلاثبلزر فقد استبدل جيش السخرة هذا بجيش دائم « كِسِر شاروتي » = (وثاق الملكية) يتكون أساساً من فرق عديدة تمثل كل فرقة منها مقاطعة من مقاطعات المملكة • ولقد ادى هذا بالطبع الى مضاعفة القوة العسكرية للدولة الآشورية عدة مرات والى الحفاظ على أرواح ابنائها • ولكن هذا الجيش المؤلف من عناصر تفتقر الى التنظيم والانضباط ــ وبعضها اجنبي الاصل لايركن اليه ــ اصبح ، في المدى البعيد،

صعب القياد وذا بأس وجلد ادنى من بسالة وقوة شكيمة مزارعي شمال العراق الشجعان •

ومن البدع الاخرى التي ابتكرها تگلاثبلزر ، كان الترحيل الجماعي للاجانب غير المرغوب فيهم لايمانه بأنأنجح طريقة لمنع التمردات هي قلع مانسميه نحن الان : « الشعور الوطني » ـ الاخلاص للآلهة وللتقاليد المحلية ـ بواسطة مزج سكان الامبراطورية مع بعضهم • فجرى افراغ مدن ومقاطعات كاملة من سكانها الذين وُطّنوا في بقع نائية واستبدلوا بشعوب اخرى جلبت بالقوة من مواطن اخرى • ففي مابين عامي (٧٤٢ ـ ٧٤١ ق•م) على سبيل المثال ، جرى نقل (٣٠ ألف) سوري من منطقة حماه الى جبال زاگروس ، كما هجر ثمانية عشر الف آرامي من الضفة اليسرى لنهر دجلة الى منطقة شمال سوريا • وفي عام (٧٤٤ ق • م) تم في ايران ترحيل (٦٥ الف) شخص في حملة واحدة فقط • وفي عام آخر تأثر بهذا التهجير الجماعي مالايقل عن (١٥٤ ألف) شخص في القسم الجنوبي من وادي الرافدين(13) • وتصور لنا المنحوتات الآشورية من النمط البارز على حجر البازلت مشاهد مؤلمة لهؤلاء المنكودين وهم يحملون على اكتافهم حقائب صغيرة ويمسكون أطفالهم بايديهم سائرين في قطار طويل يحيطه العسكر ، بينما كانت زوجاتهم تتبعهم على العربات • وبالتأكيد فقد لاقى الكثير منهم حتفه لدى تجشمهم عناء قطع المسافات الطويلة تحت لفح الشمس • ولم ترد معاملة اولئك الذين بقوا منهم على قيد الحياة حيث وجدوا لهم ملاذاً في اطلال القرى المحروقة او في حصون اعدت لهم ، كما وجدوا أرضاً يزرعونها وسبباً يتعلقون من اجله بالحياة غير ان روح المقاومة لديهم ـ مثلما كان اسيادهم يتمنون ـ كانت قد انكسرت في انفسهم تماماً مرة والى الابد • ولقد اتبع خلفاء تگلاثبلزر نفس هذه السياسة القاسية ولكنها اخفقت في اعطاء النتائج المرجوة منها حيث لم تمنع اندلاع العصيانات وتفاقمها وادت ـ الى جانب الحروب المدمرة ـ الى

تزايد النقمة على الآشوريين من قبل سكان الشرق الادنى القديم • ويصور لنا خادم مدني بابلي من نفرتلك النقمة عندما يتجرأ مرة ويكتب الى ملكه اسرحدون قائلاً :

« ان مليكي يعلم بان كافة البلدان حاقدة علينا بسبب الدولة الآشورية • »(14)

وتكشف لنا حملات تگلاثبلزر الثالث عن طبيعة تفكيره المنهجي(15) • فقد كانت اولاها موجهة نحو جنوب العراق فبلغت نهر الاوكنو (الكارون) ودفعت عن بابل ضغط الآراميين ، وذكرت ملكها «نبو ناصر» — الذي كان قد اسس قبل ثلاث سنوات فقط سلالة بابل التاسعة القصيرة العمر — بان ملك آشور مازال حاميه المرهوب الجانب • وكالعادة فقد قدمت النذور والضحايا لمدن سومر واكد المقدسة ابتداء من سبار والى اوروك • ثم هاجم تگلاثبلزر سوريا ؛ او بالضبط حلف الحثيين الجدد مع الآراميين بقيادة « متيع — ايلو » حاكم ارفاد الذي كان تابعاً الى ملك اورارطو القوي « سردور الثالث » • ولقد خف الاخير لمساعدة حليفه ولكنه مني بهزيمة مؤثرة قرب « سمسات » على الفرات فهرب على ظهر فرسه « ليلاً ولم يعد يُرى » • وحوصرت ارفاد بعد ذلك غير انها استمرت تقاوم لمدة ثلاثة أعوام متواصلة قبل ان تستسلم اخيراً وتصبح عاصمة لمقاطعة آشورية عام (٧٤١ ق • م) • وفي نفس الوقت فقد أدى نجاح الحملة المجردة على « أزرياو » ملك يعديه (سمعال) وحلفائه على الساحل السوري الى ضم غرب سوريا ، وربما فينيقيا أيضاً ، الى ارض الامبراطورية عام (٧٤٢ ق • م) • ولقد ارعب هذا العديد من الامراء المحليين في الجوار فسارعوا الى جلب الهدايا والاتاوات وكان منهم « راسونا »(رزين) ملك دمشق ومناحيم ملك اسرائيل و « زبيبه » « ملكة العرب » • وفي كل الاحتمالات ، فقد كانت نقطة ابتداء الحملات الآشورية على سوريا هي مدينة « حداتو » (أرسلان طاش الحالية) بين كركميش وحران حيث اكتشف

فيها المنقبون احد قصور تگلاثبلزر المحلية وهو بناية متناسقة كبيرة الشبه في تصميمها بقصر آشور ناصر بال في نمرود وان كانت اصغر منها ؛ ووجد بالقرب من القصر معبد مكرس للالهة عشتار زودنا بقطعة فنية رائعة ، كما عثر في بناية اخرى على قطع جميلة من العاج المنحوت التي كانت تزين في يوم ما قصر هزائيل ملك دمشق ثم استحوذ عليها الآشوريون في عهد أدد — نراري الثالث كغنيمة حرب(16) • وبعد تغلبه على الحلفاء السوريين لمملكة اورارطو ، وجه تگلاثبلزر اسلحته شرقاً وذلك في الحملات التي سيرت في الاعوام (٧٤٤ ، ٧٣٩ ، ٧٣٧ ق • م) فالحقت معظم جبال زاگروس الوسطى بالدولة الآشورية ، كما وجهت حملة عبر الهضبة الايرانية الى قلب المنطقة التي كان يستوطنها «الميديون الاقوياء » وصولا الى قمة جبل « بيكني » (ديماقند) وحتى « صحراء الملح الى الجنوب الغربي من طهران » • ولقد كانت هذه هي المرة الاولى التي وجه فيها الجيش الآشوري في مسار بعيد كهذا • وتشهد البقايا القليلة لقصر محلي آخر يعود الى تگلاثبلزر اكتشف في « تپه گيان » ، قرب نهاوند على حقيقة هذه الحملات والاهتمام الكبير الذي اولاه ملك آشور للمقاطعات الايرانية(17) • بعد ذلك ، وربما في عام (٧٣٥ ق • م) ، نظم تگلاثبلزر هجوماً مباشراً ضد مملكة اورارطو فحوصرت عاصمة ملكها سردور المسماة « تشبا » (وان) دون ان يستطيع الجيش الآشوري الظفر بها •

وفي عام (٧٣٤ ق • م) ، عاد تگلاثبلزر مرة اخرى الى ساحل البحر الابيض المتوسط عندما بات الوضع هناك ينذر بالخطر إثر اضطراب الامور في صور وصيدا بسبب القيود التي فرضها الآشوريون على تصدير الخشب الى فلسطين ومصر • فتدخلت العساكر الآشورية « لتجعل الناس يتقافزون »(18) هناك • ومما زاد في تردي الاوضاع انبثاق تحالف معاد للآشوريين ضم كافة ممالك فلسطين وشرق الاردن نظمه الحكام الفلسطينيون

في عسقلون (عسقلان) وغزة • فتوجه تگلاثبلزر بنفسه لدحر المتمردين فقتل امير عسقلون في المعركة وهرب « رجل غزة الى مصر كالطير » ؛ كما دفعت آمون وايدوم ومواب ويهوذا الجزية الى آشور بالاضافة الى ملكة عربية اخرى اسمها « شمشي » • وبعد هذا التاريخ بعامين استدعى ملك يهوذا المدعو « آهاز » الآشوريين مرة اخرى لنصرته ضد اعدائه في دمشق ومملكة اسرائيل فعمد تگلاثبلزر الى احتلال دمشق ، والحاق نصف مملكة اسرائيل بآشور ، ونصب « هوشيا » ملكاً على سماريا (السامرة)[19] •

وفي غضون ذلك فقد حصلت عدة انقلابات في منطقة جنوب العراق بعد وفاة نبوناصر عام (٧٣٤ ق • م) اذ ادعى الزعيم الآرامي « اوكين — زير » عرش بابل فحاول الآشوريون إقناع اهلها بالانتفاضة عليه ووعدوا برفع الجزية عن رأس كل آرامي يتخلى عن زعيمه[20] • ولدى فشل الوسائل الدبلوماسية تلك في زحزحة المدعي عن عرش بابل ، تحرك تگلاثبلزر بنفسه فهزم المدعي هذا وخرب منطقة قبيلته ثم قرر ان يتولى حكم بابل بنفسه • وفي عيد رأس سنه ٧٢٩ ق • م نودي به ملكاً على بابل تحت اسم « پولو » بعد ان « أخذ يد بعل (مردوخ) » • ولم يمض على هذا الحدث اكثر من عامين حتى توفي تگلاثبلزر الثالث او « ذهب الى مصيره » على حد تعبير البابليين •

سرجون الثاني

ما يزال عهد حكم نجل تگلاثبلزر « شلمنصر الخامس » (٧٢٦—٧٢٢ ق • م) غامضا بالنسبة لنا اذ ان كل ما نعرفه عن عهده بشكل مؤكد هو ان هوشيا الملك الالعوبة للمملكة «الاسرائيليه» قد اعلن العصيان فقام شلمنصر بتطويق السامرة لمدة ثلاث سنوات ولا نعرف بالضبط فيما اذا كان هو الذي احتل تلك المدينة ام الملك الذي خلفه على عرش آشور[21] • كما يكتنف الغموض ايضاً الظروف التي جاءت بخليفته الى العرش اذ ليس بوسع احد البت في أصل هذا الاخير فيما اذا كان مغتصباً للعرش ام انه كان احد ابناء

تگلاثبلزر . وعلى اية حال فان اللقب السامي الذي اتخذه هذا العاهل لنفسه كاف لوحده للوعد بالمجد حيث اطلق على نفسه اسم « شارو — كين » (سرجون)(*) وهو اسم احد أوائل ملوك آشور واسم المؤسس المشهور لسلالة اكد(22) . وبعد تتويجه بفترة قصيرة وقعت حادثتان مهمتان سيكون لهما أبلغ الاثر على الستراتيجية والسياسة الآشورية في الشرق الادنى لمائة عام قادمة ، وهما : تدخل مصر في فلسطين ، وعيلام في بابل . وتكمن أسباب هذا التدخل في الانتصارات العظيمة التي سجلها تگلاثبلزر الثالث حيث كان واضحا ان تقدمه داخل الهضبة الايرانية قد ادى الى قطع طرق التجارة الوحيدة التي بقيت مفتوحة امام عيلام ؛ بينما ادى فتحه لفينيقيا الى حرمان مصر من أحد أهم زبائنها . وهكذا فقد انضم العيلاميون والمصريون مع الاورارطيين الى خندق اعداء الدولة الآشورية . وبسبب عدم استعدادهما على مقارعة دولة كانت في أوج قوتها ، لذلك فقد عمد العيلاميون والمصريون الى استثمار وسائط أبطأ تأثيرا وأأمن نتائج فقاموا باثارة وتغذية العصيانات في الاقاليم المحلية التابعة للدولة الآشورية . فكلما إستصرخهم الشيوخ الآراميون في جنوب العراق او الامراء الفلسطينيون المرتعبون من بطش الجيش الآشوري الضارب والمستعد ابداً للجمهم ، كلما وجد هؤلاء عندهم اذناً صاغية واستعداداً قلبياً لتقديم كلما تيسر لهم من الرجال والاسلحة والعتاد . وفي الواقع فان التاريخ السياسي لعهد حكم سرجون عبارة عن كفاح متصل ومرير ضد مثل هذه التمردات .

بدأت المتاعب في داخل الدولة الآشورية اولاً حيث بقي سرجون مشلول الحركة لمدة عام كامل بعد تتويجه بسبب الاضطرابات الداخلية التي انتهت اخيراً عندما تخلص المواطنون الآشوريون من « الاستدعاء لحمل السلاح ومن طلبات جابي الضرائب » المفروضة عليهم من قبل شلمنصر الخامس(23) .

(*) وتعني الملك الصادق .

بعد هذا الاجراء استطاع سرجون معالجة الوضع الحرج الذي خيم على بابل وسوريا خلال فترة تبدل الحكم • ففي بابل (التي اصبحت الآن الجوهــرة الثانية في التاج الآشوري) تسنم حاكم كلداني من بيت اياكين ــ وهي مملكة كانت تقع على سواحل الخليج العربي ــ يدعى « مــردوخ ــ ايال ــ أدينا » (= الاله مردوخ قد اعطى وريثاً) ــ وهو مروداخ بلادان المذكور في الكتاب المقدس ــ عرش بابل في نفس السنة التي اعتلى فيها سرجون عرش آشور • وكان مردوخ ــ ايال ــ ادينا يحصل على معونة قوية مــن « همبانيگاشــس » ملك عيلام مما شكل خطرا على مصالح الدولة الآشــورية فزحــف سرجون ضد اعدائه وواجههم في « دير » (بدره) بين دجلة وسلسلة جبال زاگروس • وتدعي مدوناته بانه قد احرز نصراً ساحقاً على العيلاميين ولكن هناك وثيقة بابلية محايدة تطلعنا بوضوح بان الآشوريين قد خسروا المعركة مع العيلاميين ، كما يذكر لنا نص بابلي آخر نشر حديثاً بان مروداخ شن الهجمات على الرعايا الآشوريين وانه قد كسرهم(24) • ومن التفصيلات الممتعة ان مدونة مروداخ بلادان الاخيرة قد تم العثور عليها في مدينة نمرود بعد ان كان سرجون قــد تكلف بجلبها من اوروك بعد عام (٧١٠ ق • م) ليبدلهــا في تلــك المدينــة باسطوانة من الصلصال تحمل روايته الخاصة لذلك الحادث والتي تختلف عن سابقتها بشكل جذري • ويرينا هذا كيف ان الدعاية السياسية وتكتيكــات « الحرب الباردة » ليست على كل حال امتيازاً مقصوراً على عصرنا الحالــي فقط • وليس هناك من شك في كون الآشوريين قد واجهوا مقاومة قوية لاننا نعلم وبشكل اكيد ان عهد حكم مردوخ ــ أپال ــ ادينا في بابل قد دام احد عشر عاماً (٧٢١ ــ ٧١١ ق • م) وان الملك الاخير كان يتمثل باخلاق الملوك العظام وليس بفضائح السادة البربريين فقد ترك لنا آثاراً لاصلاحاته ونشاطاته العمرانية في مدن عديدة •

ولم يكن التجمع المتحالف للمقاطعات السورية التي اعلنت العصيان بقيادة « إيلو ــ بعدي » ملك حماه ، ولا انتفاض « حنونه » ملك غزة بمساعدة جيش مصري باقل خطراً من التجمع الاول • ولكن سرجونا كان اكثر حظاً هنا حيث هزم ايلو ــ بعدي في القرقار ، كما والقي القبض على حنونه وسلخ جلده • اما القائد المصري المعاون له ــ واسمه « سبعي » ــ فقد «هرب وحيداً واختفى مثل راع سرق قطيعه»(25) وذلك عام (٨٢٠ ق • م) • وبعد هذا التاريخ بثماني سنين ، اشعل المصريون عصياناً آخر في فلسطين يقوده هذه المرة « أياماني » ملك اشدود وتتبعه مملكة يهوذا وايدوم ومواب ويحظى بمباركة «بعرو مصرو» : أي الفرعون المصري ، ولعله «بوخوريس» • وكان النصر حليف سرجون هنا مرة اخرى فهرب ايماني الى مصر ثم مالبث ان جرى تسليمه من قبل الملك النوبي الذي اصبح سيداً على وادي النيل ، فجلب الى آشور مكبلاً بالاصفاد(26) • هذا ولقد كان من نتائج الموقف الودي الذي اتخذه حاكم مصر الجديد (بيانخي ؟) حيال الآشوريين استتباب الوضع في فلسطين لما تبقى من عهد حكم سرجون •

ولا نعلم بالتأكيد طبيعة علاقة العيلاميين بالاضطرابات التي نشبت بين الاسر الحاكمة في منطقة جبال زاگروس والتي اتاحت لسرجون الفرصة لاخضاع عدة مدن ومقاطعات في كرمنشاه وهمدان وفرض الجزية على الميديين عام (٧١٣ ق • م) • غير اننا لانشك مطلقاً بهوية من غذوا الاضطرابات بين المانائيين والزكيرتيين والقبائل الاخرى في اذربيجان فقد استمرت مملكة اورارطو في الشمال تلعب دور المنافس الرئيسي للآشوريين وتتربص بهم الدوائر • وتكشف لنا اية نظرة سريعة نلقيها على مراسلات سرجون عن الاهتمام البالغ الذي كان يوليه الموظفون الآشوريون لنقل الاخبار عن تلك المناطق الجبلية الوعرة الى سيدهم الملك بحكم مراقبتهم الدائبة للوضع هناك لصالحه • ولقد كانت التقارير والاخبار تصله أولا بأول

عن كافة تحركات ملك اورارطو أو قادته وعن كل التغيرات في الولاء السياسي للشعوب المجاورة لمملكته(27) • مع هذا ، وعلى الرغم من كل التدخلات المتكررة التي قام بها سرجون لفرض سيادته على تلك المنطقة ، الا ان روساس الاول ملك اورارطو افلح في استبدال الحكام المانائيين الموالين للآشوريين بحكام آخرين متحالفين معه وذلك في الفترة الواقعة بين عامي (٧١٩—٧١٥ ق • م) • وازاء هذا ، لم يجد الآشوريون بدأ من التدخل لاعادة الامور الى نصابها ، فارسلت حملة كبيرة لشن الهجمات المضادة على الاورارطيين وحلفائهم في المنطقة عام (٧١٤ ق • م) • ويرد ذكر وقائع تلك الحملة العظيمة لسرجون في سنة حكمه الثامنة ولكن التقرير المفصل عنها يردنا في رسالة وجهها الملك سرجون الى « آشور ، أب الالهة ، والى الآلهة والإلهات المتحكمة بالقدر ، والى المدينة وسكانها ، والى القصر في وسطها » — وهي بالتأكيد وثيقة اعدت كي تتلى على الجمهور في ختام الحملة السنوية جرى تدبيجها باسلوب من شأنه أن يجعلها تخلق انطباعاً قويا لدى السامع(28) • ولقد كان تنقل الجيش الآشوري في ذرى جبال كردستان عملية شاقة محفوفة بالمخاطر بسبب التكوين الجغرافي الوعر لتلك المنطقة وتربص الاعداء له • غير ان النص المذكور آنفاً يصورها في قطعة شعرية على الوجه التالي :

« تتطاول القمة العظيمة لجبل سيمريا ، موطن بلت — ايلاني الشامخة كسنان الرمح فوق غيرها من الجبال فيرتفع ذراها في اعالي السماء ويغوص جذرها الى مركز العالم الاسفل • وهي ، كأنها العمود الفقري للسمكة ، لا ممرات لها من الجوانب ، كما يتعذر تسلقها من الخلف لبلوغ مقدمتها ، وتنتشر الثغور والهوات في انحائها فتلقي الرعب في قلوب ناظريها •••••

وبفضل العلم والعزم الشديد الذي حباني بهما الالهان ايا وبلت إيلاني ــ اللذين أطلقا ساقي كي اطيح بالاعداء ــ زودت روادي بمعاول من البرونز فتطايرت جرف الجبال العالية كالشظايا وجرى تحسين (توسيع) الممر • عند ذاك تسنمت قيادة جيشي وجعلت العربات والفرسان والمقاتلين على جوانبي يحلقون فوق الجبل كالنسور الباسلة •••• »(29)

وعبر سرجون بجنده الانهار والجبال خائضاً غمار المعارك في مساره حول بحيرتي اورميا ووان ، واستطاع في النهاية ان يحتل واحدة من أقدس مدن اورارطو وهي مدينة « مصاصير » (الى الجنوب من بحيرة وان) واخذ معه تمثال الاله الوطني « هالديا » • ولم يجر تحطيم مملكة اورارطو بشكل نهائي ولكنها منيت بهزيمة مرة • ولدى ورود انباء سقوط مصاصير الى ملك اورارطو « اورسا » (روساس) ركبه العار و « بخنجره طعن نفسه في القلب كالخنزير وانهى حياته • » •

ولكن الاورارطيين نجحوا في بث روح العداء للاشوريين في مواطن اخرى • ففي عام (٧١٧ ق • م) تآمر حاكم كركميش ــ التي كانت ماتزال مستقلة ــ على سرجون ورأى بام عينيه الجيش الآشوري وهو يجتاح مملكته ويحولها الى مقاطعة آشورية • وفي غضون السنوات الخمس التالية لاقت نفس هذا المصير ممالك « كوه » (كليكيا) ، گورگوم ، مليد ، كوموخو ، وقسم من تابال ، أي كافة الممالك الحثية الجديدة في طوروس • ولم يكن « رجل اورارطو » لوحده وراء كل هذه العصيانات اذ كان يعاونه ايضاً « ميتا » ملك موشكي (ميداس ملك فريجيا) الذي كان روساس قد استطاع جذبه الى منطقة نفوذه •

وبحلول عــام (٧١٠ ق ٠ م) كــان سرجون قــد انتصر في كل مكان، فاصبحت كل ارض سوريا وفلسطين (خلا مملكة يهوذا) وكامل سلسلة جبال زاگروس في قبضة الآشوريين القوية ٠ كما كان الميديون يحسبون في صـف الحلفاء التابعين ، وكانت اورارطو ما تزال تضـمد جراحهـا ، والمصريـون اصدقاء ٠ ولم يبق في الميدان من اعداء الآشوريين غير العيلاميين والفريجيين وكلاهما آثر الصمت والسكينة ٠ وحدها بابل بقيت في ظل حكم مروداخ ــ بلادان شوكة في خاصرة الدولة الآشورية فهاجمها سرجون في السنة أعلاه مرة اخرى الا ان ملكها الكلداني استطاع وبمساعدة كافـة القبائل القاطنة فـي بلاد سومر ، ان يقاوم الجيش الآشوري مدة عامين كاملين ٠ واخيراً ، وبعد ان حوصر في « دور ــ اياكين » (تل لحم) وجرح في يده ، « نفذ من بــاب مدينته كما تنفذ الفئران من الجحور » والتجأ الى ارض عيلام(30) ٠ فدخـل سرجون بابل و «أخذ يد بعل» مثلما كان قد فعل قبله الملك تگلاثبلزر الثالث ٠ ولقد كانت أصداء ذلك الانتصار ذات وقع بليغ في كل ممالك الشرق القديمة ٠ فعرض ملك فريجيا « ميداس » صداقتـه علـى سرجون ، كمـا لم يتـوان « اوبيري » ملك دلمون (البحرين) « الذي سمع بجبروت آشور » عــن ارسال الهدايا الى آشور ومثله فعل سبعة من ملوك «إياتنانا» (قبرص) «الذين يبعد موطنهم مسافة سبعة ايام في بحر الشمس الغاربة » ، كما أقسموا يمين الولاء للعاهل الجبار الذي وجدت مسلته في لارناكا(31) ٠ وهكذا فقد منيت كل المحاولات المتكررة لتقويض الدولة الآشورية بالفشل الذريـع واصبحت آشور في نهاية عهد سرجون اقوى مما كانت عليه في أي وقت مضى ٠

كان سرجون عندما يقود الحرب يؤثر الســكن في كالحـو « نمرود » العاصمة العسكرية للامبراطورية حيث رمم وحسن قصر آشور ناصر بـال فيها ، ولكنه لكبريائه قرر تشييد قصر خاص به في مدينته الخاصة ٠ لذلـك فقد قام في عام (٧١٧ ق ٠ م) بوضع حجر الاساس لـ « حصـن سرجـون »

(دور شاروكين) الذي كان ما يزال وقتذاك موقعا بكراً (يقع على مبعدة خمسة عشر ميلاً الى الشمال الشرقي من مدينة نينوى قرب قرية خرسباد الحالية)(32) • واختير لتلك المدينة تصميم مربع الشكل طول ضلعه يقارب الميل ، وتخترق سورها سبعة ابواب محصنة • ويحيط سورها الداخلي بمعقل كائن في قسمها الشمالي اشتمل على القصر الملكي ومعبد الاله « نبو » وبيوت فخمة خصصت لكبار الموظفين مثل « سن — آح — أصر » وهو وزير شقيق الملك • ولقد شيد قصر الملك على مصطبة ارتفاعها خمسون قدماً تشرف على سور المدينة ، ويشتمل القصر على مائتي غرفة وثلاثين باحة ؛ وينتصب في جزء منه مبنى كان يعتبر خطأ في السابق على انه « جناح الحريم » ثم اكتشفت بعد ذلك حقيقة اشتماله على ستة معابد تنتصب على مقربة منها زقورة ذات سبعة طوابق متعددة الالوان تتصل مع بعضها بواسطة سلم حلزوني • ويربط ممر منسق مبني من الحجارة قصر الملك بمعبد الاله نبو ؛ لان وظيفة الملك الدينية كانت تتشابك مع سلطته الدنوية في نظام الدولة الآشورية • وكما يسكن للمرء ان يتوقع ، فقد زين المنزل الملكي بسخاء حيث كانت الثيران المجنحة تحرس أبوابه وأبواب المدينة والمعقل ايضاً • واستخدم الطابوق الازرق الملفح في المعابد مظهراً رموزاً مقدسة • وتزين جدران معظم غرف القصر منحوتات جصية بارزة محدودة بالواح منقوشة ومنحوتة تمتد لمسافة تبلغ ميلا ونصف الميل وبدون شك ، فلابد ان يكون الالاف من اسرى الحرب ، والمئات من الفنانين والحرفيين قد ساهموا في بناء مدينة « دور — شاروكين » التي انجزت بكاملها في بحر عشر سنوات فقط • غير ان هناك ادلة تكفي للبرهان على انها لم تقطن الا لفترة وجيزة • ويذكر سرجون في احدى « مدوناته الدعائية » ما يلي :

« ليمن علي ، انا سرجون الذي اسكن في قصري هذا ، الاله آشور بالعمر المديد وبصحة البدن وابتهاج القلب وضياء الروح . »(33)

ولكن يبدو ان الآلهة لم تختر الاستماع لصلواته فلم تكد تمضي سنة على الافتتاح الرسمي لمدينة « دور ــ شاروكين » حتى « سار سرجون لحرب تابال فقتل هناك » . اما خلفاؤه فقد آثروا اتخاذ نينوى عاصمة لهم بدلاً من « برازليا »(*) وادي الرافدين القديم ، فتخربت خرسباد المهجورة تدريجياً .

(*) برازيليا هي العاصمة الجديدة للبرازيل البديلة عن « ريودي جانيرو » العاصمة البرازيلية القديمة وتقع الاولى وسط هضبة البرازيل .

الفصل العشرون

البيت السَرجوني



حكم احفاد سرجون ــ ويطلق عليهم أحياناً اسم « السرجونيين » ــ الدولة الآشورية بتعاقب مستمر فترة قرن من الزمان تقريباً (٧٠٤ ــ ٦٠٩ ق • م) فبلغوا بالامبراطورية الآشورية أقصى حدودها ، وبالحضارة الآشورية اوجها • ولكن حروب سنحاريب ، اسرحدون وآشور بانيبال التي تصورها لنا المخطوطات الملكية كحروب فتح مجيدة لم تكن في الواقع اكثر من هجمات مضادة ناجحة في أحسن الاحوال اذ اصبح الآشوريون في نهاية عهد سرجون يحكمون كامل تراب الهلال الخصيب واقساماً من ايران واسيا الصغرى وذلك اما بشكل مباشر او غير مباشر • وكانت لهم نوافذ تطل على البحر الابيض المتوسط والخليج العربي ، كما سيطروا على كامل وديان دجلة والفرات ، اضافة الى طريق التجارة الكبيرة عبر بادية الشام وجبال

طوروس وزاكروس • ولقد عاش الآشوريون في رخاء عريض حيث دأب رعاياهم وتابعوهم وحلفاؤهم على تجهيزهم بكل اصناف البضائع ، وكان بمقدورهم العيش بسلام ونعيم لولا الثورات المتفاقمة المندلعة في كل مكان بسبب سياستهم القمعية الاستفزازية ، وبسبب العون والتشجيع اللذين يلقاهما المتمردون من قبل مصر وعيلام على الاقل في بابل وفلسطين • ولقد كان احتلال مصر من قبل اسرحدون وتدمير عيلام بيد آشور بانيبال اجراءين احترازيين ليس الا ولم يكونا حملتي توسع انبثقتا من ستراتيجية مخططة بل جرى الركون اليهما لوضع حد لوضع لا يُحتمل • كان هذان الانجازان فصل الختام لاصطراعات طويلة حادة فرضت قسراً على الدولة الآشورية من قبل اعدائها أنفسهم • ولقد استخدم الآشوريون في ذلك الصراع الطويل المرير كل قوتهم حتى استنفدوها وفشلوا في إعارة اهتمام كاف للحدث المهم الذي تمخض خلال ذلك وراء جبال زاكروس والمتمثل في تكوين مملكة ميدية قوية ستكون في المستقبل اداة لسقوط الدولة الآشورية • وهكذا ، وعندما بدا ان النصر الكامل قد تحقق اخيراً لدى ارتقاء آشور بانيبال فوق جميع اعداء الدولة الآشورية عام (٦٤٠ ق • م) ، فقد انكشفت واضحة حقيقة ان هذا العملاق الجبار لا يمتلك اقوى من اقدام طينية ليس غير •

سنحاريب

وكما يوحي لنا اسمه سنحاريب ـ (سن ـ آحه ـ أريبا) « الاله سن عوض (موت) الاشقاء » ـ فلم يكن سنحاريب هو الابن البكر للملك سرجون • ولكن الاختيار وقع عليه لسبب مجهول ليكون الوريث الشرعي لسرجون بعدما كان قد تربى وتدرب في « بيت الخلافة » واسندت اليه العديد من المسؤوليات الادارية والعسكرية الرفيعة في عهد أبيه خصوصا على منطقة الحدود الشمالية للامبراطورية • لذلك فقد كان سنحاريب مؤهلاً تأهيلاً عالياً لممارسة واجباته الملكية لدى تسنمه العرش عام ٧٠٥ ق • م(1) •

كانت الحدود الشمالية الشرقية هادئة نسبياً طوال فترة حكمه بعدما كانت مسرحاً للعديد من المعارك إبان عهد ابيه . ولقد كانت انتصارات سرجون في كردستان وارمينيا وطوروس قد انزلت ضربات موجعة باورارطو وفريجيا فلم تعد الدولة الآشورية تخشاهما كعدوين قويين . ومما زاد في وهنهما تعرضهما لهجمات متواصلة من قبل اعداء جدد هم الاقوام السيمرية التي كانت تؤلف شعبا ولوعا بالحرب والقتال قدم من جنوب روسيا واجتاز في نهاية القرن الثامن ق . م جبال القوقاز ليتوغل داخل غرب اسيا . ولقد انتهز السيمريون هؤلاء ضعف الاورارطيين أسيادهم في الاعوام الاخيرة من عهد حكم سرجون فانتفضوا ضدهم من موطنهم في جورجيا والحقوا باعدائهم هزيمة ماحقة(2) . وما ان حل عهد سنحاريب حتى عمد هؤلاء الى التوغل أبعد على امتداد الساحل الجنوبي للبحر الاسود في تضاعيف سلسلة جبال البنتس لاجمين في مسارهم مملكة فريجيا وجارتها ليديا المملكة الفتية ذات الثراء العريض . وتوغل في نفس هذا الوقت سيمريون آخرون في الزاوية الشمالية الغربية من ايران وتحالفوا مع المانائيين والميديين . كانت الحملات الاربع التي وجهها سنحاريب الى الشمال والغرب متوسطة الحجم والاهداف حيث لم تتعرض بالسيمريين ولا الميديين بل استهدفت تأديب المتمردين من امراء المنطقة الوسطى من سلسلة جبال زاگروس ورؤساء مدن اقليم كردستان وحكام كليكيا ــ ولعل الاخيرين كانوا يحصلون على مساعدة جيوش اغريقية (3)ــ وضد احد ملوك تابال اخيرا .

وفي الحقيقة فقد كانت أنظار سنحاريب منصبة بشكل كلي تقريباً على قمع التمردات الخطيرة الشأن المندلعة في مقاطعات البحر الابيض المتوسط وفي بابل فور ذيوع خبر وفاة سرجون . ولقد افلحت الدعاية المصرية المضادة في فينيقيا وفلسطين على حمل « لوله » ملك صيدا و « صدقا » ملك عسقلان و « حزقيا » ملك يهوذا وسكان عقرون على قطع صلاتهم مع نينوى . ولما

توجه سنحاريب في سنة حكمه الرابعة (٧٠١ ق ٠ م) لتأديب العصاة لأذ لولـه بالفرار الى قبرص وسيق صدقا أسيراً الى آشور ، كما تم دحر جيش مصري ثم هاجم سنحاريب مملكة يهوذا فحاصر ودخل مدينة لچش(4) المحصنـة وارسل جيشاً ضد اورشليم • ويجدر بنا ان نذكر هنا المشهد المسرحي الذي يصفه « الكتاب الثاني للملوك »(5) • فمن على أسوار المدينة المقدسة تفاوض ثلاثة من موظفي حزقيا باللغة العبرية مع ثلاثـة من كبـار رجـالات البـلاط الاشوري : الترتانو ، الرابشاقة والرابشرش • عمد المفاوضون الاشـوريون الى الاستهزاء من اليهود الذين وثقوا بمصر « القصبة المنخورة » ووعـدوا بتقديم ألفي جواد شرط استسلامهم ثم لجأوا الى الوعيد أخيراً • ولكن حزقيا المشجع من قبل النبي يوشع رفض بعناد فتح أبواب اورشليم • ثـم توصـل الطرفان أخيراً الى حل وسط انسحب بموجبه الاشوريون تاركين المدينـة وشأنها بعدما استلموا جزية كبيرة ، حيث توجب على حزقيا ان يقدم « ثلاثين تالنت من الـذهب وثمانمائـة مـن الفضـة وكـل اصنـاف الكنـوز الثمينـة ، اضافـة الى بناتـه وحريمـه وموسيقييه من الانـاث والذكـور »(6) • ولقـد قـرر سـنحاريب في نهايـة حملتـه المشهورة هذه مهاجمة مصر ولكنه ما ان عسكر بجيشه في بيلوزيوم (تـل الفرامة شرق قناة السويس بثلاثين ميلاً) حتى فتك بجنده « مَلَكُ الالـه الذي نفذ بالليل وذبح خمسة الاف ومائة وثمانين جندياً » وفق رواية الكتاب المقدس ، أو : « قطيع من الفئران القارضة لكل شيء مصنوع مـن الحبـال والجلد » وفق رواية هيرودوتس ، او كما يقول لنا بروزيوس : « الطاعـون الذي أتى على (١٨٥) الف رجل مع قادتهم وضباطهم »(7) • اما المخطوطات الاشورية فانها ، كما يمكن للمرء ان يتوقع ، تلتزم جانب الصمت حيـال تلك الحادثة المشؤومة •

اما في بابل فقد كان الوضع هناك أسوأ بكثير عما كان في فلسطين • ولقد استمرت حروب الآشوريين ضد الاراميين وحلفائهم العيلاميين خلال معظم عهد حكم سنحاريب • ففي السنة التي تسنم فيها الاخير العرش ، غادر « مردوخ — أپال — ادينا » (مرودوخ بلادان) الخصم العتيد لسرجون ارض عيلام — حيث كان قد التجأ اليها سابقا كما يتذكر القارىء — وجمع جيشاً بمساعدة ضباط عيلاميين ضم كافة سكان جنوب العراق من الاراميين ودخل بابل ونصب نفسه ملكاً عليها • وما ان حل عام (٧٠٣ ق • م) حتى قاد سنحاريب جيوشه بنفسه ضد بابل ودحر مروداخ بلادان تحت اسوار كيش فولى الاخير هارباً ليختفي « وسط الاهوار والمستنقعات » حيث تعذر على أعدائه الظفر به • ولقد عمد سنحاريب الى نهب قصره والقي القبض على عدد كبير من الرجال كما سيق (٢٠٨٠٠٠) رجل الى آشور بعد ان تم تنصيب ملك جديد على بابل اختاره سنحاريب بنفسه واسمه « بعل — ابني » (وهو ابن سيد بناء) كان قد ترعرع في نينوى • ولم تكد تمضي ثلاث سنين حتى عاد مروداخ بلادان الى مسرح الحوادث من جديد،هذه المرة في «بيت—اياكين» موطنه الاصلي ، ليثير متاعب جديدة حملت الاشوريين على التدخل مرة اخرى حيث عزل بعل ابني ونصب مكانه ابن سنحاريب المسمى « آشور — نادين — شومي » • اما مروداخ بلادان فقد فوت على أعدائه فرصة مواجهته في معركة فاصلة اذ « جمع ارباب موطنه كلهم وشحنهم على متن السفن وولى هارباً كالطير الى هور « نجايد » الكائن وسط البحر »(8) • وانقضت بعد ذلك ستة أعوام سادها سلم مشوب بالحذر ، ثم وفي عام ٦٩٥ ق • م ، وبحجة الاستيلاء على المدن العيلامية « في الجانب الاخر من النهر المالح » حيث كان شعب بيت—اياكين قد انتشر، نظم سنحاريب حملة برية—بحرية جبارة من اجل تأمين جسر الى الخليج العربي خلال مملكة «القطر البحري» المعادية(9) • فارسل اسطولاً من السفن — بُني في نينوى من قبل حرفيين سوريين وسيره

بحارة فينيقيون وقبرصيون ــ في دجلة حتى بلغ مدينة « اوپا » (اوپس)(10) • ثم نقلت السفن من هناك براً الى قناة « اراحتو » لتستمر في ابحارها هذه المرة في نهر الفرات يتقدمها الجيش على اليابسة • ولعل سبب تبديل الانهار هـذا يعود الى ان دجلة كان يفرغ مياهه وقتذاك في اهوار شاسعة مما ادى الـى جعل مساره الجنوبي غير صالح للملاحة • وكانت نقطة الالتقاء في « باب ــ ساليمتي » قرب فم نهر الفرات حيث اعتلى الجيش الآشوري سفنه وعبر رأس الخليج العربي لينزل في ارض عيلام ويخضع بعض المدن ويعود محملاً بالغنائم والاسلاب • ولا يجري هنا ذكر مردوخ ــ أپال ــ ادينا الذي لابد ان يكون قد توفي في المنفى ، ولكن العيلاميين ردوا على تلك الحملة من فورهم فاجتاح ملكهم « هالوشو » ارض وادي الرافدين واحتل سپار كما القى القبض علـى آشور ــ نادين ــ شومي ونصب احد رعاياه ملكاً على بابل • وبهذا التدخل ابتدأت سلسلة من الصراعات الدامية بين آشور وعيلام استمرت سبع سنين وتخللتها انتصارات وهزائم للجانبين(11) • وفي عـام ٦٨٩ ق • م ، انتفض البابليون المحكومون من قبل حاكم موال للآشوريين واستحصلوا على مساندة ملك عيلام « اومان ــ مينانو » ودارت رحى المعركة في « حالوله » علـى دجلة • وتصنف الوثائق الآشورية هذه المعركة في مرتبة الانتصار الكاسح وان كانت قد أسفرت في الواقع عن نتيجة تقترب من الهزيمة(12) • عنـد ذاك تملك الغضب الشديد نفس سنحاريب فصمم على الثأر لنفسه من بابل وتجرأ على الاتيان بفعلة لم تخطر على بال احد من قبله قط اذ دمر المدينة المقدسة الجميلة والعاصمة الثانية للامبراطورية (وثاق السماء والارض) التي كانـت قد حظيت بصبر واحترام كافة الملوك السابقين :

« هاجمتها كالاعصـار ، وكالعاصفة أطحت بهـا ..... لم اترك من سكانها شيباً وشباناً اي فـرد فمـلأت بجثثهم طرقاتها • اما المدينة نفسها وبيوتها فقـد حطمتها وخربتهـا

وبالنيران دمرتهـا من اسسها حتى سـقوفها ... ولـكي ينسى (الناس) في المستقبل حتى تراب معابدها ، (لذلـك فقد) سـلطت عليهـا الميـاه فحولتها الى مراع . »

ولتهدئة قلب آشور مولاي كيمـا يركع الناس صاغرين ازاء جبروته الهائل ، ارسلت (عينات) من تراب بابـل هدايـا لاقصى الشعوب واختزنت بعضاً منـه في جـرة مستوره أودعتها معبد عيد راس السنة الجديدة بآشور . »(13)

لم تدع الآلهة العظيمة لسومر واكد جريمة كهذه تمر بدون عقاب ، فلم تكـد تمضي ثمان سنين على تخريب بابل ، وفي العشرين من شهر « تبت » (كانون الاول) من عام (٦٨١ ق . م) لاقى سنحاريب وهو يتعبد في معبده المصـير الذي يستحق اذ « هـشم بنصب الالهة الحامية » على يد احد ابنائه نفسه .(14)

ولقد كان سنحاريب ملكا قاسيا وجبانا حيث أوكل مهمة قيادة معظم حملاته الى قواده الكبار ، ولكن الامانة التاريخية تحتم علينـا ان ننوه بما يستحق من تقريض . فالملك الذي دمر بابل كان في نفس الوقت عـماراً عظيماً في آشور فلم يكتف باقامة وترميم المعابد والمباني الشعبية في العديد من المدن وبشق القنوات في طول البلاد وعرضها ، بل قام كذلك بتوسيع مدينة نينوى القديمة بعدما كانت مجرد « منزل ملكي » ، فأمر بتحصينها وتزيينهـا لكـي تصبح عاصمة تليق بالامبراطورية الشاسعة التي تحكمها . ولقد ازداد محيطها في غضون اعوام قليلة من الميلين تقريباً الى مايقارب الثمانية أميال ، فعانقـت تلتين تمثلهما الآن تلال قوينجق والنبي يونس (مقابل الموصل على الضفـة اليسرى من النهر) .(15) وسُمك سور المدينة الخارجي عال « كالجبـال » بينما زود سورها الداخلي بخمسة عشر باباً تفضي الى كل الجهات . ووسعت

ساحات المدينة وبلطت شوارعها وطرقاتها و « جعلت تبرق كالنهار » • وكان ينتصب في القسم الشمالي من المدينة (قوينجق) القصر الملكي القديم الذي هجر فأكل نهر التبلتو اسسه • فأمر سنحاريب بتقويضه وبنى لنفسه على مصطبة اقيست فوق نهر التبلتو (أحد روافد دجلة) قصره المنيف « القصر الذي لايبارى » :

« مددت عوارض من خشب الارز ، المجلوب من قمة الامانوس والمنقول بمشقة من (تلك) الجبال العالية البعيدة ، عبر سقوف (القصر) وبالنحاس البراق ثبت اغصان السرو الزكية على الابواب كي يفوح شذاها عند فتحها وغلقها واقمت رواقا صمم وفق نمط قصر حيثي ويدعى باللسان الآرامي « بيت حيلاني » ـ لمتعتي الملكية .»(16)

وصبت عدة اعمدة من النحاس ترتكز على اسود نحتت من البرونز في اشكال تشبه عملة نصف الشيقل ـ وهو تكنيك يفتخر سنحاريب باختراعه ـ لتزين بها أبواب قصره • ونصبت منحوتات لحيوانات من الفضة والنحاس والحجر في « اتجاهات الرياح الاربعة » • ومدت الواح ضخمة من حجر الكلس نحتت بمشاهد الحرب خلال الابواب بموازاة الجدران • واخيرا وعلى جانب من القصر افتتح « متنزه يشبه قمة الامانوس حيث استنبتت فيه كل انواع الشجيرات واشجار الفاكهة » • ولتشجيع الزراعة داخل المدينة وحولها ، فقد جلبت المياه من اماكن بعيدة بواسطة قناة شقت « خلال الجبال والوديان » • وتشهد بقايا قناة مائية بالقرب من قرية « جروان » على دقة الحوليات الملكية وعلى مهارة مهندسي الملك ايضاً(17) • وكان يحلو لسنحاريب المعتد بنفسه وباعماله ان يجري تمثيله بمنحوتات تصوره في تلال بلده الذي كرس له نفسه

بشكل مهووس • ففي بافيان قرب جروان ، ومالتاي قرب دهوك ، وفي جودي داغ على الحدود العراقية التركية 18[18] يمكن مشاهدة تمثال جبار منحوت على الحجر « للملك العظيم حاكم الشعوب المنتشرة » وهو ينتصب امام الآلهة التي الحق بها الكثير من الاذى •

أسرحدون(*)

أوقع اغتيال سنحاريب الدولة الآشورية في ازمة سياسية حادة نتيجة للصراعات داخل السلالة الملكية وان كانت تلك الازمة لم تدم فترة طويلة لحسن الحظ • ولقد أضطر اسرحدون (ويعني اسمه الاله آشور قد أعطى أخاً ») ان يشق طريقه الى العرش الآشوري بحد السيف مع كونه الوريث الشرعي له(19) • ولقد كان اسرحدون أصغر اولاد سنحاريب لذلك فقد أثار اختيار أبيه له وليا للعرش غيرة وحسد بقية اخوته • ويطلعنا اسرحدون في مقدمة حولياته كيف ان الدسائس التي حاكوها قد اوغرت عليه صدر أبيه حتى انه قد اضطر اخيراً الى ترك وطنه وطلب اللجوء في « مخبأ » ربما كان في كليكية أو تابال • وبعد اغتيال سنحاريب تنازع ابناؤه فيما بينهم لامتلاك العرش فخسروا لذلك دعم الشعب الآشوري لهم • و « بعون الآلهة » توجه الوريث الشرعي للعرش نحو نينوى على جناح السرعة ليطالب بحقوقه ، فجمع مغتصبو العرش جيشهم غرب دجلة لقطع الطريق امامه نحو العاصمة • وما ان بادر اسرحدون بهجومه عليهم حتى انضم اليه جيش اخوته بينما هرع شعب آشور لاستقباله ولثم اقدامه جاعلين جيشه « ينط فوق دجلة وكانها حفرة صغيرة » فدخل نينوى ظافراً • وفي شهر آذار من عام (٦٨١ ق • م) « جلس (أسرحدون) سعيداً على عرش والده » وهرب اخوته الى « بلد مجهول » • اما الزعماء الذين آزروهم فقد حكم عليهم بالموت مع اولادهم •(20)

(*) « آشور ــ احه ــ إدّين » (المؤلف)

كان اول عمل للعاهل الجديد هو التكفير عن فعلة سنحاريب بالبابليين فأمر باعادة بناء مدينتهم • وكانت الآلهة في سورة غضبها قد قررت وجوب بقاء المدينة مخربة مدة سبعين عاماً غير ان الكهنة لم يعدموا وسيلة للتغلب على تلك العقبة حيث قام « الاله الرحيم مردوخ بقلب كتاب القدر رأساً على عقب وأمر بتجديد المدينة في السنة الحادية عشرة » من تاريخ هدمها (يتحول الرقم (٧٠) في الخط المسماري بعد قلبه الى رقم (١١) مثلما يتحول الرقم العربي (9) الى (6) عند قلبه) • وطلب الى جميع مواطني كاردونياش بأن « يحملوا السلة » • ثم وفي الوقت المحدد ، لم يتم تجديد المدينة فحسب بل وجرى ايضاً « توسيعها ورفعها عالياً وجعلت (مدينة) عظيمة » مرة اخرى(21) • وعلى الرغم من ان بابل لم تكن قد خربت تماماً كما يحاول سنحاريب اقناعنا الا ان عملية اعادة بنائها استغرقت كامل عهد حكم اسرحدون وحتى سنة تسنم وليه « آشور بانيبال » العرش عام (٦٦٩ ق • م) • عندما رضي مردوخ والالهة الاخرى بالعودة من آشور كي يصار الى اعادة تنصيبهم في معابدهم ببابل(22) • ولقد اكسب هذا القرار العادل اسرحدون ود الكثير من الرعايا البابليين لذلك فلم تنشأ اية اضطرابات جديدة في جنوب العراق خلال بقية عهد حكمه ، فيما عدا محاولة ابن مروداخ ــ بلادان الاستيلاء على مدينة اور عام (٦٨٠ ق • م) • وقد بلغ التعاطف مع اسرحدون حداً جعل البابليين يتصدون بانفسهم للملك العيلامي « همباهالداش » لدى هجومه على بلدهم عام (٦٨٥ ق • م)

اما في المنطقة المتعبة الاخرى من الامبراطورية ، وهي فينيقيا ، فقد اثبت أسرحدون حقيقة انه اذا كان بوسعه ان يكون رفيقاً برعاياه ، فان بمقدوره ايضاً ان يكون شديد العقاب • فعندما قام ملك سيدون « عبدي ــ ملكوتي » باعلان عصيانه عام (٦٧٧ ق • م) القي القبض عليه وقطع راسه • كما «مزقت» مدينة سيدون و « رميت في البحر » والحقت ارضها بمدينة صور

المنافسة(23) • ولقد أمّنت تلك الاجراءات الصارمة السلام والامن على ساحل البحر الابيض المتوسط فوفرت بذلك الفرصة لاسرحدون لمعالجة القلاقل الخطيرة التي عمت الحدود الشمالية الشرقية للامبراطورية(24) •

ففي بداية عهد حكمه ، قام شعب بدوي آخر بعبور جبال القوقاز قادما من جنوب روسيا والتحق بالسيمريين الذين كانوا قد استوطنوا قبله بوقت قصير منطقة آسيا الصغرى وارمينيا وايران • ولقد ادى وصول تلك القبائل المسماة بالسيثية(*) (أشكوزاي بالآشورية) المتمرسة بفنون الحرب الى اعطاء دفقة لنشاطات اقربائهم السيمريين فقام هؤلاء بعبور جبال طوروس عام (٦٧٩ ق • م) وتهديد الحامية الآشورية في تابال واثاروا هياج حكام كليكية التابعين • فسارع اسرحدون لشن هجوم خاطف مضاد على ملكهم « تيوشبا » وجنوده و « قطعهم بالسيف » كما « داس على اعناق » المتمردين في كليكية • ولقد اجبر هذا العمل السيثيين والسيمريين الى التراجع الى ما وراء نهر قزل ايرمق وحولوا اهتمامهم نحو مملكة فريجيا حيث استطاعوا اسقاطها بعد ذلك بثلاث سنين وبمساعدة الاورارطيين • ولقد اغتبط اسرحدون لرؤية السيل البشري يحول مساره عن مملكته فعقد معاهدة سلام مع السيمريين ، كما زوج اميرة آشورية بـ « ارتاتوا » (بروتوتايس عند هيرودوت) زعيم السيثيين ، واقام علائق ودية مع « روساس الثاني » ملك اورارطو • اما في الجانب الشرقي لارمينيا فقد فشلت كل محاولات الآشوريين لفرض الجزية على المانائيين ــ الذين أصبحوا الآن ضمن منطقة النفوذ السيثي ــ السيمري القوي ــ خلافاً لما تدعيه المخطوطات الملكية الآشورية • والى الجنوب الشرقي من بحيرة اورميا ، كان يحتل الهضبة الايرانية الفسيحة الميديون الذين كانوا خاضعين نظرياً للسيادة الآشورية وان احتفظوا باستقلالهم الفعلي واقعاً • ولقد استطاع في نفس ذلك الوقت ملكهم « خشاترينا » (فراورتس)

(*) تكتب احيانا « الصيثية » او « الاسكيثية » = (Scythian)

تجل « داياكو » (دايوسس) ان يجمع كلمة قبائلهم العديدة تحت رايته حوالي عام (٦٨٠ ق • م) • وبذل اسرحدون كل ما في وسعه لمنع تطور وضع من شأنه ان يفضي الى قطع تجهيز الجيش الآشوري بالجياد الميدية ، وهو الوضع الذي لم يجر تقدير نتائجه على المدى البعيد بما يكفي من الوضوح • ولقد شنت عدة حملات فرسانية عبر الهضبة وصولاً الى الصحراء الكائنة شرق طهران استطاعت ان تلحق ثلاثة من الامراء الميديين الكبار ــ الذين طلبوا عون اسرحدون ضد تابعيهم ــ الى منطقة الحماية الآشورية وفرضت عليهم جزية ثابتة • كما استهدفت السلسلة التالية من العمليات العسكرية الناجحة في اقصى الجنوب الى انشاء دويلات حامية(*) تفصل بين عيلام ووادي الرافدين وذلك بمساعدة « الگامبولو » (قبيلة آرامية استوطنت الضفة اليسرى من وادي دجلة الجنوبي) • غير ان الانتصار الاكبر الذي حققه اسرحدون هناك هو نجاحه في وضع امير موال للآشوريين على عرش عيلام بعد وفاة همباهالداش احتفظ معه بعلائق حميمة واسمه « اورتاكي » وذلك عام (٦٧٥ ق • م) •

وفي الوقت الذي استحوذ فيه اسرحدون على سلام محفوف بالمخاطر في كل من بابل وفينيقيا وعلى امتداد (١٢٠٠) ميل من حدوده الشمالية الشرقية بفضل الجمع بين القوة العسكرية والنشاطات الدبلوماسية ، فانه كان يعد العدة ايضاً لمشروعه العظيم : فتح مصر • فمنذ وقت مبكر (عام ٦٧٩ ق • م) بادر الى احتلال مدينة « ارزاني » الواقعة على « حدود ساقية مصر » (وادي العريش في النقب) ، كما حاول كسب ود العرب الذين كانوا يستوطنون وقتذاك بادية الشام باعداد غفيرة حيث ماكان بمقدوره تسيير حملة عسكرية كثيفة صوب الاقسام الجنوبية الغربية من الامبراطورية دون الحصول على تعاونهم • فأمر مثلاً باعادة حصن « ادوماتو » (الجوف) الى حاكمه السابق « هزاعيل » بعد ان كان سنحاريب قد الحقه بالامبراطورية •

---

* (Buffer states)

وعندما ثار « أوابو » (وهاب) ضد ابن هزاعيل ، استلم الاخير معونة عسكرية متكاملة من الآشوريين(25) • واخيراً ولدى اطمئنانه في عام (٦٧١) الى استتباب الامور على كافة الحدود والى الموقف المؤيد او المحايد للعرب ، قاد اسرحدون جيشه صوب سوريا كخطوة اولى تمهد للوثوب على مصر • وحوصرت مدينة صور التي كان ملكها قد أشهر العصيان الا انها استبسلت في المقاومة فلم يضيع اسرحدون كثير وقت في محاولة فتحها بل زحف جنوبا ليصل « ربيحو » (تل رفح جنوب غزة) ويعبر صحراء سيناء حيث صادف جنده هناك من بين عدة اشياء مرعبة اخرى « افاعي مزدوجة الرؤوس تسبب لدغتها الموت الزؤام » وغير ذلك • وبعد خمسة عشر يوما من المسيرة الشاقة ، دخل الجيش الآشوري أرض مصر الخضراء •

وعلى الرغم من المقاومة الشديدة التي واجهها الآشوريون من قبل جيش الفرعون تهارقا ، الا ان فتح ذلك البلد الكبير لم يستغرق في الواقع سوى فترة جد وجيزة :

« من مدينة أشحويري حتى ممفيس (ممپي) ، عاصمته التي تبعد مسيرة خمسة عشر يوماً ، خضت يوميا وبدون انقطاع معارك جد عنيفة ضد تهارقا (تاركو) ملك مصر واثيوبيا الملعون من لدن كافة الارباب العظام ، وشككته بنبالي خمس مرات (فاصبته) بجراح (سوف) لن يبرأ منها ابداً • ثم حاصرت ممفيس منزله الملكي وفتحتها في بحر نصف يوم بواسطة الخنادق وفتح الثغرات وسلالم الانقضاض، فاخذت ملكته ونساء قصره وخليفته اوشانا حورو وابناءه الآخرين وممتلكاته وجياده وماشيته الصغيرة والكبيرة التي لا تحصى غنيمة الى آشور ؛ وابعدت كل الاثيوبيين من ارض مصر ولم أدع اي فرد منهم يعلن مبايعته

لي . ووضعت في كل مكان ملوكاً وحكاماً وضباطاً ومشرفين وموظفين واداريين محليين جدد . وفرضت ضرائب منتظمة لتقديم القرابين الواجبة الى آشور والالهة العظيمة الاخرى في كل الاوقات إضافة الى جزية تعود الي كسيد عليهم (تدفع سنوياً) بلا انقطاع .))(26)

ولكن مصر لم تكن بالغنيمة السهلة ، فبعد سنتين من تلك الحملة فقط ، عاد تهارقا من الجنوب حيث كان قد هرب واستعاد ممفس وأثار العصيان في دلتا النيل ضد الآشوريين . وبينما كان اسرحدون في سبيله للعودة مرة ثانية الى مصر لتأديب العصاة ، اصابه المرض وهو في حران وتوفى فيها عام ٦٦٩ ق . م .

وكان اسرحدون قد أعلن قبل ثلاث سنين ــ في مايس من عام ٧٧٢ ق . ــ وبحضور أجناد ونبلاء آشور وسفراء وممثلي البلدان الاخرى ، ابنه آشور ــ بانيبال وريثاً شرعياً على العرش ، وعين ابنه الاخر « شمش ــ شم ــ اوكن » نائباً للملك على بابل . ولقد وقع في نفس ذلك اليوم كل امراء الامبراطورية على معاهدة مسهبة ومفصلة تعبر عن اخلاصهم لولي العهد عثر حديثاً على نسخ منها في نمرود(27) . كما بادرت والدة اسرحدون الآرامية الاصل « نقيعه ــ زاكوتو » الى الالقاء بثقلها لصالح كفة آشور ــ بانيبال لتستحصل من البابليين وحاكمهم المقبل عهداً بالاخلاص لحاكم آشور القادم(28) . وهكذا نجد ان الملك الشجاع الحكيم اسرحدون لم يترك اي شيء للصدفة حيث أمّن بتدبيره هذا عدم نشوب نزاعات عائلية على خلافة عرشه بعد وفاته .

ولقد جرى تحول السلطة بيسر بعد وفاة اسرحدون حيث جلس الاميران في يوم واحد على عرشيهما ، آشور بانيبال في نينوى وشمش ــ شم ــ اوكن في بابل • ولكن رقعة الامبراطورية لم تقتسم بينهما • ومن المؤكد في كل الاحتمالات ان تدبير اسرحدون هذا كان يستهدف بالاساس ترضية الرعايا البابليين بمنحهم حكماً ذاتياً بعد التأكيد الواضح على اولوية كلمة آشور بانيبال على شمش ــ شم ــ اوكن وذلك لكل من يهمه الامر • وكانت للاخير السلطة كاملة داخل حدود مملكته بينما هيمن الاول على القطر الآشوري وعلى المقاطعات البعيدة والحكام التابعين ، وكان هو المسؤول الاول عن شؤون الحرب والسياسة الخارجية للامبراطورية ككيان واحد • وربما يبدو لنا هذا الاجراء تدبيرا غريباً الى حد ما ، غير ان النجاح بقي حليفه مدة طويلة نسبياً بلغت سبعة عشر عاماً متواصلة •

وبعد وفاة اسرحدون آلت الى آشور بانيبال(*) (٦٦٨ــ٦٢٧ ق•م)(29) مهمة اخماد التمرد المصري الذي بدأ في عهد ابيه • ولقد ارسل الملك الجديد من فوره قائد حربه الى سوريا حيث جمع جيوشاً جهزها « اثنان وعشرون ملكا من ساحل البحر ومن وسط البحر ومن الارض الرئيسة » زحفت كلها ضد مصر وسحقت جيشاً ارسله تهارقا لصدها ، فاضطر الفرعون المنكود هذا الى ترك ممفس في زورق والهرب الى طيبه (يسميها الاشوريون « نيع ») • ولم يتخلف الجيش الآشوري عن تعقب الفرعون الفار في عقر داره فدخلوا اخيراً مدينة طيبه عاصمة مصر العليا واجبروا تهارقا الى اللجوء « الى

(*) « آشور ــ بان ــ ابلو » وتعني (الاله آشور خالق الابن) . (المؤلف)

الجانب الاخر من النهر » • وبالتأكيد فقد كان هذا الانجاز انتصاراً عظيماً للآشوريين الذين اصبحوا الان على مبعدة حوالي (١٣٠٠) ميل عن موطنهم الام ، وفي وضع لايحسدون عليه وسط بلد اجنبي معاد له لغته ودينه وتقاليده الغريبة تماماً عنهم • ولم يكن بوسع آشور بانيبال وهو الولي المخلص للآلهة الآشورية ان يفعل مثلما سيفعل الاسكندر الكبير في وضع مشابه لهذا سيطرأ بعد ذلك التاريخ بثلثمائة سنة عندما توج نفسه باكليل الفراعنة المزدوج واعلن نفسه نجلاً لامين ـ رع اله مصر العظيم • ولما كان الحكم المباشر لبلد كبير مثل مصر يستلزم جنوداً وموظفين اكثر مما كان في متناول يديه ، لذلك لم يجد ملك آشور مناصاً من الاقتداء بسياسة والده غير المجدية ، فأعاد تنصيب اثنين وعشرين ملكا وحاكما محليا في منطقة دلتا نهر النيل والذين سبق ان عينهم اسرحدون من قبل ثم اضطروا الى ترك مناصبهم عندما انتفض عليهم تهارقا • كما وضعت في خدمتهم حاميات آشورية اقوى من سابقاتها وفرضت عليهم جزية اكبر • ولقد كان هذا الاجراء بمثابة دعوة مفتوحة للمصريين المغلوب على امرهم للانتفاض ثانية ضد الاحتلال الاجنبي • وبالفعل ، وما ان انسحب الآشوريون حتى :

« تحدث جميع الملوك بحديث العصيان وتوصلوا مع بعضهم الى الاستنتاج غير المقدس هذا : اذا كان تهارقا نفسه قد جرى طرده من مصر فكيف سيتسنى لنا نحن البقاء ؟ وبعثوا رسلاً من الفرسان الى تهارقا ملك نوبيا لعقد وثاق عهد من اجل ان « يعم السلام بيننا ، ويفهم واحدنا الاخر ، ونقتسم البلد بيننا لكي لا يكون الاجنبي حاكماً علينا ! » »(30)

غير ان الضباط الآشوريين أحسوا بالمؤامرة قبل استفحال أمرها فألقوا القبض على العصاة وأرسلوهم الى نينوى • وهناك تم اعدامهم جميعاً باستثناء « نيخو » (نيكو) الذي يجب ان يكون قد اظهر الندم الشديد فافرج عنه وارسل من جديد « في حلل زاهية » وخاتم التولية في اصبعه الى مدينته سايس • بعد ذلك عم الهدوء مصر لفترة وجيزة ، كما توفي تهارقا في المنفى عام (٦٥٥ ق • م) ليخلفه زوج ابنته المدعو « تانواتامون » الذي يسميه الآشوريون « تاندمان » • ولقد بادر هذا الامير الشاب الى التقدم بشجاعة من الجنوب و « اصاب مذبحة كبيرة في صفوف صبية العصيان »(31) واحتل ممفس ثم سارع الى تركها عائداً الى طيبه بعدما بلغته انباء زحف آشور بانيبال بنفسه على مصر بجيش جبار • ولدى اجتياح الآشوريين لطيبه مرة اخرى ، نهبوها وامعنوا فيها تخريبا « وكأنهم صاعقة الطوفان » واخذوا معهم غنائم ثقيلة لاتحصى بضمنها مسلتين طويلتين مطليتين بالبرونز • ولم تستطع تلك المدينة العظيمة ان تصحو أبداً من ذلك الدمار الذي لحق بها •

ومثلما يمكن للمرء ان يتوقع ، فقد كانت للعصيانات التي قامت على ضفاف النيل اصداء في فينيقيا حيث اعلن كل من « بعالو » ملك صور و « اياكن ــ لو » ملك ارفاد (جزيرة رواد) ــ الملكين المخلصين لآشور في عام (٦٦٩ ق • م) ــ رفضهما الامتثال لاوامر اشور بانيبال عام (٦٦٥ ق•م) فخف الآشوريون لـ « خنق » صور (التي كانت وقتذاك جزيرة مقطوعة عن الساحل اللبناني) بفصلها عن الارض الام ، فحلت فيها المجاعة وأجبر أهلها على الاستسلام في النهاية • وعمد الآشوريون الى استخدام تكتيكات مماثلة ضد ارفاد ، وقد أمكن هناك ايضاً الحصول على نتائج مشابهة ، الا ان حكام تلك المدينة عوملوا بالحسنى وبشكل يبعث على الدهشة ؛ ربما بسبب انشغال آشور بانيبال في المغامرة المصرية وعدم رغبته في خسارة حلفائه الفينيقيين ، فضلاً عن تعذر تحشيد جيوش كافية لفتح جبهات حرب جديدة • ولهذا

السبب ايضاً ، فقد رفض آشور بانيبال مد يد العون لملك ليديا « كايجز » (گوگو) حاكم « المكان البعيد الذي لم يطرق اسمه مسامع اجدادي الملوك » بعد أن أحدق به الخطر السيمري •

ولقد أتاح الانتصار على « تانواتامون » وعلى الفينيقيين لآشور بانيبال سنوات قليلة من الراحة مكنته من الالتفات صوب حدوده الشمالية والغربية • وعلى الرغم من عدم دقة المدونات الآشورية حول تسلسل حوادث هذه الفترة فان من المحتمل ان تكون الحملة المجردة ضد المانائيين الموصوفة في السجلات الملكية ؛ والضربة الموجهة ضد السيمريين تحسباً لهجوم متوقع منهم أفصحت عنه احدى النبوءات(32) ؛ والحلف مع « ماديس » حاكم السيثيين : الذي سيثبت فوائده الكبيرة بعد سنين قلائل ؛ والحرب ضد « اورتاكي » ملك عيلام الذي « تناسى فضل اسرحدون عليه » والذي « اجتاح بجيوشه ارض اكد كأسراب كثيفة من الجراد » ، كلها ، قد جرت بين الاعوام (٦٦٥ و ٦٥٥ ق • م) • اما الميديون فلا تعرج المصادر الآشورية على ذكرهم وان كنا نعلم بالاستناد الى مصادر اخرى بانهم كانوا خاضعين حينذاك للهيمنة السيثية المؤقتة • اما العلاقات مع اورارطو ، فيبدو انها كانت ماتزال طيبة مثلما كانت عليه خلال عهد حكم اسرحدون •

ويبدو ان الآلهة التي وقفت لحد الآن الى جانب آشور بانيبال قد انقلبت عليه فجأة بعد النصف الثاني من القرن السابع ق • م بوقت قصير • ففي حوالي عام (٦٥٥ ق • م) رفع بسامتك (بسامتيكوس الاول) — ولعله ابن نيخو — لواء الاستقلال في دلتا نهر النيل وطرد بمساعدة الايونيين والكاريين القوات الآشورية من مصر وتعقب فلولها حتى اشدود في فلسطين • وندين بهذه الاخبار الى المؤرخ اليوناني هيرودوتس(33) حيث تلتزم المدونات المسمارية جانب الصمت ، طبعا ، ازاء تلك الكارثة ، فيما عدا قطعة من « اسطوانة رسام » يُطلعنا فيها آشور بانيبال بان كايجز « قد ارسل

جنده لمد يد المساعدة لـ « توشاملكي » ملك مصر الذي نبذ سلطته (اي سلطة آشور بانيبال) »(34) • ولو كان هذا الامر قد جرى في وقت آخر غير هذا لما استطاعت مصر ان تفلت من يد الآشوريين القوية بهذه السهولة • ولكن الذي حصل هو ان القسم الاكبر من الجيش الآشوري كان منهمكاً وقتذاك في حرب ضروس ضد العيلاميين ، فاضطر آشور بانيبال الى التخلي عن مصر لانقاذ ارض وادي الرافدين • كان ملك عيلام في ذلك الوقت يدعى « تبت همبان » (تطلق عليه المدونات الآشورية اسم تيومان) وهو مدع للعرش استطاع قبل ذلك التاريخ بستة او سبعة أعوام اعتلاء العرش العيلامي وأجبر ابناء اورتاكي الى اللجوء الى نينوى • ولقد نشبت الحرب مع الآشوريين عندما طالبهم تيومان بتسليمه اللاجئين من اعدائه ، وهو الامر الذي رفضه آشور بانيبال • واتخذ العيلاميون من ذلك الرفض ذريعة للعدوان على ارض العراق تساعدهم في ذلك قبيلة الگامبولو غير الوفية • ولقد صد الآشوريون هجومهم واجبروهم على التراجع الى بلدهم ، ثم هزموهم مرة اخرى في موقعة « توليز » على نهر الكرخا • ولقد قتل تيومان في تلك المعركة وارسل رأسه الى نينوى حيث علق في حديقة القصر الملكي كما ترينا ذلك احدى المنحوتات العيقة المشهورة(35) ؛ كما جرى التنكيل بقبيلة الگامبولو جراء فعلتهم ، واقتسمت بلاد عيلام بين اثنين من اسرة اورتاكي هما « همبانيگاش » و « تماريتو » • وفي عيلام ، مثلما كان الامر قبل ذلك في مصر ، لم يكن بوسع الآشوريين وضع البلد المستسلم تحت حكمهم المباشر ، ولم تترك لهم حلولهم الوسطية التي تبنوها في تلك المنطقة أي خيار مناسب غير الانسحاب أو الخراب الكامل •

وما كادت الحرب مع العيلاميين تضع اوزارها حتى اعلنت بابل العصيان • كان شمش ـ شم ـ اوكن قد انتهج نهج الشقيق المخلص مدة سبعة عشر عاماً ولكنه أخذ تدريجياً بالروح الوطنية البابلية واعتقد بان بابل

تستحق ان تهيمن على العالم شأنها شأن نينوى . فعمد في عام (٦٥١ ق.م) الى اغلاق ابواب سپار وبابل وبارسيبا بوجه الآشوريين، وخطط لاقامة تحالف معاد واسع النطاق يضم الفينيقيين ، والفلسطينيين ، ومملكة يهوذا ، وعرب بادية الشام ، والكلدانيين ، والعيلاميين ، بل وحتى مملكة ليديا ومصر . ولو قدر لكل تلك الشعوب ان تبادر بالهجوم في وقت واحد لتحطمت الدولة الآشورية شر تحطيم . ولحسن الحظ ، فقد جرى اكتشاف تلك الخطة في الوقت المناسب فوجه إثر ذلك آشور بانيبال تحذيراً شديد اللهجة الى شعب بابل يقول :

« اما تلك الكلمات الجوفاء التي اسمعكم اياها ذلك الاخ العاق فقد بلغت كلها مسامعي وهي ليست الا ريحاً ذاهبة فلا تصدقوه ... لاتصغوا حتى ولا لحظة واحدة لاكاذيبه ، ولا تلطخوا اسمكم المجيد الناصع امامي وامام كل العالم بالعار ولا تجعلوا من انفسكم آثمين بحق الآلهة المقدسة . »(36)

بيد ان البابليين رفضوا الاصغاء اليه ، فزحف ملك آشور ضد اخيه ، واستمرت الحرب سجالاً بين الغريمين مدة ثلاث سنين كما تخبرنا بذلك احدى الوثائق البابلية ، تخللتها عدة معارك(37) . واخيراً لم يبق امام شمش - شم - اوكن اي امل بالنصر ، فاحرق قصره واختفى وسط النيران عام (٦٤٨ ق . م) . وهدأت بعد ذلك الامور في سومر واكد ، ونُصب نبيل كلداني اسمه « كاندلانو » حاكماً على بابل . وفي نفس الوقت انثنى آشور بانيبال لمعاقبة العصاة الآخرين فتورط بالحرب ضد العرب الذين لم يكتفوا بتقديم العون النشيط لشمش - شم - اوكن بل ودأبوا ايضاً على مهاجمة الدويلات الغربية الخاضعة للحماية الآشورية . ولقد كانت هذه حرباً صعبة

ضد أعداء مراوغين يقاتلون بشجاعة وتصميم ويختفون في الصحراء المخيفة « حيث لا توجد حتى طيور في السماء » • وعلى الرغم من كل ذلك فقد حقق الجيش الآشوري هنا مرة اخرى المعجزات فهزم « اواتع » وحلفاءه من النبطيين ـ الذين استوطنوا حول البحر الميت قبل ذلك التاريخ بوقت قصير ـ كما حوصر « أبياتغ » وقبيلته « قيدار » ومنعت عنها المياه واجبرت على « بقر بطون جمالها وشرب دمها ومائها الوسخ بفعل العطش » ، كما امسك بقائد آخر ـ يدعى «اواتع » ايضا ـ وهو نجل هزاعيل وارسل الى نينوى و « الحلقة في فكه والطوق في عنقه » • ولقد كانت غنائم تلك الحرب كبيرة جداً لدرجة ان آشور بانيبال لا يتوانى عن القول :

« بيعت الجمال في اسواق بلادي باقل من شيقل من الفضة (للجمل الواحد) ، واستلم شغيلة السوتامو الجمال وحتى العبيد كهدايا • واعطيت الجمال بقشيشا لصانعي الجعة وكدفعات اضافية للبستانيين ! »(38)

وبعد استسلام العرب ، ارسل آشور بانيبال جنده في حملة اخرى ، هذه المرة ضد محسنيه السابق الناكر للجميل ملك عيلام الذي قبل الرشوة من ملك بابل المتمرد شمش ـ شم ـ اوكن وقدم له المساعدة ايضاً • ولقد قامت اثر ذلك حرب ضارية طويلة تخللتها مؤامرات وثورات عديدة جاءت بثلاثة امراء متعاقبين الى العرش العيلامي ، ولا مجال هنا للخوض في تفصيلاتها المرهقة • ويكفي ان نذكر في هذا الصدد بان الآشوريين قد استطاعوا في عام (٦٣٩ ق • م) ان يحسموا المعركة الاخيرة الفاصلة لصالحهم فاجتاحوا كل ارض عيلام وسلبوا عاصمتها • ولعل ذلك كان محض عمل انتقامي حيث وجدت بين المغانم « املاك وبضائع وذهب وفضة تعود الى بلاد سومر واكد وكل ارض بابل كان ملوك عيلام قد سلبوها في غضون سبع غارات » •

وحطمت زقورة سوسه وانتهكت معابدها وأسرت آلهتها أو « رميت الى الرياح » • كما نبشت قبور موتى العيلاميين ومحي بلدهم من الخارطة بشكل رمزي :

« خربت ونبشت وفتحت للشمس قبور ملوكهم الاولين والآخرين الذين لم يخافوا اربابي آشور وعشتار ، والذين اغاظوا الملوك اجدادي ؛ كما نقلت عظامهم الى بلد آشور • ولقد أرقت عليهم ظلالهم ومنعت تقديم نذور الطعام وسكب المياه تكريماً لهم • ولمسيرة يوم وخمسة وعشرين يوماً ، دمرت مقاطعات عيلام ونثرت الملح والسحلو (نبات شوكي عليها ...... وجمعت تراب سوسة ومداكتو وحالتيماش وبقية مدنهم واخذته الى آشور .... ولقد نفيت من حقولهم ضجيج الناس واصوات الاغنام والبقر وصيحات الحبور في الاحتفالات ، وجعلت الحمر والغزلان البرية وكل بهائم السهل ترقد بين جنباتهم كما لو كانت في بيوتها • »(39)

وهكذا فقد جرى الانتقام لاهانات عديدة وانتهت خصومة دامت ثلاثة آلاف عام بين العيلاميين وسكان وادي الرافدين •

وبعد الانتصار على سوسه بوقت قصير ، احتفل آشور بانيبال بانتصاراته ، ومن على قصره المنيف في نينوى ، رأى هذا العاهل العظيم ، الغليظ القلب ، العالم وهو يركع تحت اقدامه • وجرى ربط ثلاثة من الامراء العيلاميين مع « ملك الجزيرة العربية » الى عربته • وكان اخوه الخائن قد لاقى المصير اللائق بجرائمه ونُصب على عرش بابل ملك العوبة • كما تم

قمع التجار المتغطرسين في صور وارفاد ، واليهود « من ذوي الاعناق المتخشبة »(40) ، والقبائل الارامية الهائجة دوماً . وجرى « تهشيم » الماناثيين ، وابعد خطر السيمريين ، وجلب حكام تابال وكليكية ـ اعداء الامس ـ بناتهم الى السرير الملكي ، وطلب « أرديس » ملك ليديا حماية الآشوريين بعدما كان قد شاهد بأم عينيه ارض بلاده وهي تحرق في عهد ابيه كايجز من قبل محاربي الشمال الاشداء بسبب مساعدته لبسامتيكوس . واصبحت نينوى تطوف على بحر من الغنائم جلبت من ممفس ، طيبة ، سوسة، ومن مدن عديدة اخرى ؛ واصبح « اسم آشور العظيم » يُجل ويُكبر من سواحل بحر ايجه الخضراء حتى صحارى شبه الجزيرة العربية المحرقة . ولم تظهر الامبراطورية الآشورية بمثل هذه العظمة ولا بمثل هذه القوة الهائلة في أي وقت مضى . ولكن كم كانت كثيرة تلك الظلال التي خيمت على هذه الصورة الاخاذة ! فقد كانت آشور قد فقدت ارض مصر الغنية الى الابد ، وجرى تحويل عيلام الى خرائب واطلال ، ودمرت بابل وملئت قلوب اهلها حقداً على آشور ، وجرى استعباد الفينيقيين وخسروا مكانتهم وامبراطوريتهم البحرية لصالح منافسيهم الاغارقة ، وكان الامراء من السائرين في فلك آشور لايركن الى ولائهم ، واضبح الجيش الآشوري مرهقاً ومستنزفاً بفعل قرن من الحروب الدموية الطاحنة ، واصبحت الدولة الآشورية محاطة من النيل الى البحر الميت ومن ارارات الى طوروس ومن قزوين الى زاگروس بحلفاء مشكوك باخلاصهم كالسيثيين والميديين الذين سرعان ماسينقلبون الى اعداء شرسين . وهكذا ، وبرغم كل مظاهر العظمة تلك ، فقد كانت الامبراطورية الآشورية في واقع الحال اضعف منها في أي وقت مضى . ولعل العديد من الناس كان يفكر سراً بما تجرأ وأجهر به أحد بني اسرائيل :

سياتي اليوم الذي
سيولي فيه الفرار منك
كل الذين يتطلعون الآن اليك ،
وقل : ها قد اصاب نينوى الدمار !
فمن ذا الذي سينعاها يومذاك ؟
هناك ستنهشك النيران ،
وسيقطعك السيف اربـاً
ويأكلك كالقادحه ....
ولن تبرأي ابداً من جراحك
فمصابك خطير .
وسيصفق بيديـه عليـك
كل من سيسمع خبرك
فمن ذا الذي لم يلحقه شرك المستطير على الدوام ؟(41)

الفصل الحادي والعشرون

مجد الدولة الآشورية



يتميز عصر آشور بانيبال ــ مثل عصر حمورابي من قبل ــ بكونـــه مرحلة تحول خطيرة في تاريخ العراق القديم نجد من الضــروري ان نتوقف بعض الوقت ازاءها • فبعد ان قدمنا وصفاً مسهبا لكيفية نشوء الامبراطورية الآشورية يتوجب علينا الان ، لكي نكون اكثر واقعية ، ان نتفحص ماكــان يجري خلف واجهة الحروب والمناورات السياسية المذكورة آنفاً • فما كــان مثلاً شكل البناء الاجتماعي ــ الاقتصادي لتلك الوحدة السياسية الواسعة المشتملة على كل مساحة الهلال الخصيب والتي امتدت ــ على الاقل لبرهــة من الزمن ــ من بحر قزوين الى وادي النيل ؟ وما كانت طبيعة مواد وطــرق وحجم تجارتها الخارجية والداخلية ؟ وكيف كانت انواع الصلات التي ربطت نينوى بالدول التابعة لها في وقت السلم ؟ وما كان التأثير الذي جلبته الهيمنة الآشورية على الحياة المادية والروحية للبابليين والسومريــن والايرانييــن وغيرهم من الشعوب ، بل وحتى على الآشوريين انفسهم ؟ أي بايجاز مــاذا « كانت » الامبراطورية الآشورية ؟

تتطلب الاجابة على هذا السؤال اجراء دراسة مقارنة لعدة نصوص ادارية ، قانونية ، اقتصادية ، ودينية لمختلف بقاع الامبراطورية . ولسوء الحظ، فان مثل هذه النصوص لم تتوفر بعد بكميات كافية . فمعظم معلوماتنا الحالية مستقاة من الوثائق التي عثر عليها في اطلال آشور ونينوى وكالحو والتي تعود الى ارشيفات القصور والمعابد فيها(1) ولكون تلك النصوص قليلة العدد نسبياً ومحدودة الاغراض ايضاً لذلك فهي لاتعكس الاحوال الاقتصادية التي كانت سائدة في ظل الامبراطورية الآشورية ككل مثلما لاتعكس البيوت الفسيحة الرحبة لمواطني آشور وخرسباد(2) وغيرهم من الموسرين والمستوى المعاشي للمواطن الآشوري الاعتيادي . وتتوقع الكثير من التنقيبات التي ستقام في مواقع المدن والقرى الثانوية . ويجدر ان نذكر في هذا الصدد ان احد مصادرنا الرئيسية لدراسة ملكية الارض والولاية عليها تأتي من عملية احصاء سكاني نفذت من قبل السلطات المحلية في حران . اما خارج الاقليم الآشوري ، فهناك القليل من المعلومات التي يمكن للمرء التوفر عليها . فلاسباب عديدة نجد ان فترة الحكم الآشوري في بابل لم تنعكس مصادرها بالغزارة التي تظهر فيها مصادر فترة العصر البابلي الحديث وفترة الحكم الاخميني . لذلك لايبقى سوى قدر ضئيل من المعلومات التي بوسعنا الحصول عليها من استعراض ودراسة الوثائق والنصوص الاقتصادية المتناثرة هنا وهناك في هذه المنطقة . اما بالنسبة الى بقاع الامبراطورية المحاذية للحدود مثل سوريا وفينيقيا وفلسطين والمقاطعات الكائنة في تضاعيف جبال طوروس وزاگروس فقد بقيت صامتة لحد الان اما بسبب قلة التنقيبات فيها او لكون معظم المراسلات التجارية لها كانت تكتب – من القرن الثامن ق . م فصاعداً – بالارامية على رقوق او اوراق البردي التي اختفت تماماً .

اذن فان هذا الامر يتطلب التريث لعدة سنوات قبل ان يكون بوسع المرء الكتابة عن التاريخ الاجتماعي – الاقتصادي للشرق الادنى في ظل حكم

الآشوريين ، هذا اذا كان بالامكان كتابته في يوم ما إذ لايستطيع المرء الركون الى تحليل مستحيل لعناصر هي ببساطة غير متوفرة ابداً • وبناء على ماسبق فسيقتصر تقريرنا الحالي على تقديم موجز سريع لافضل اوجه الحضارة الآشورية المعروفة لنا مبتدئين بثلاثة عوامل اثرت على عظمة الآشوريين ومجدهم الخالد وهي : الدولة ، الجيش ، والفنون • كما وسنقوم في الفصل التالي باستثمار مدونات مكتبة آشور ــ بانيبال المشهورة لوصف المرحلة التي وصلت اليها علوم وادي الرافدين في القرن السابع ق•م • وفي الواقع فان عملنا هذا يتوخى تصحيح الانطباع الذي يمكن ان يكون قد تولد بسرعة عند القارىء لدى اطلاعه على سجلات الحرب التي لاتنتهي لهذه الدولة فمن الخطأ الشنيع اعتبار الآشوريين امة قوامها شعب متوحش متعطش للدماء يقوده حكام مستبدون مصابون بجنون العظمة ؛ فقد كان الآشوريون في الحقيقة شعباً عظيما وأحد اكثر الشعوب تحضراً في عصره •

الدولة الآشورية

كان الرجل الذي يجلس على العرش في نينوى يجسد كما ترينا ألقابه (الملك العظيم ، الملك الجبار ، ملك الكون ؛ ملك بلاد آشور) كل القوة الضاربة لامة شجاعة ؛ ويتسنم أعلى المسؤوليات الحكومية والدينية • ولم يكن الموظفون المساعدون له وحكام المقاطعات المتثلون لاوامره والسفراء الذين ينقلون رسائله وزراء له ، بل كانوا مجرد « خدم » طيعين • ومن عدة وجوه ، فقد كان الملك هو الدولة • مع هذا ، فلا يعدو البون بين آشور بانيبال ، السيد المطلق لملايين من بني البشر ، وبين امراء دويلات المدن السومرية المبكرة ، الذين حكموا بقعة صغيرة من الارض ، ان يكون كامناً في درجة سلطتهم وليس في جوهرها • فقد بقي المبدأ الاساسي للملكية ذات التفويض الالهي ذاته مستمراً طوال فترة الثلاثة والعشرين قرناً بأكملها • ومن الناحية النظرية ، فلم يكن ملك اشور الا بشرا أختير من بين عامة الناس الآخرين ليمثل الالهة على

الارض ويحكم لصالح المجتمع(3) فهو المثل الارضي الدنيوي وآلة الإلـه آشور مثلما كان گوديا حاكم لگش ممثلا وآلة للاله ننگرسو • وفي الحقيقة ، وقبل ان يطلق « شمش ــ ادد » الاول على نفسه لقب « الملك » في القـــرن الثامن عشر ق • م ، فقد كان الحكام الاوائل لآشور يطلقون على انفسهم لقب « إيشاكّوم » وهو المرادف الاشوري للانسي (الامير) في السومرية • ولقد بقي ذكر هذا اللقب يتردد لفترة طويلة في القائمة الطويلـة للالقـاب الملكيـة الآشورية •

وكان من شأن مبدأ التفويض الالهي ان يفتح المجال لقيام أزمات سلالية مستديسة لو لم يجر تقييده بالطابع الوراثي الصارم للملكية الآشورية • فكان الملك الحاكم يختار خليفته من ابنائه بنفسه ويجعل الاعضاء الآخرين للعائلة المالكة ، اضافة الى رجال البلاط والنبلاء والامراء التابعين ، يعترفون ويبايعون ولايته للعهد امام الملأ • وكان المفترض وقتذاك ان الاله آشور هو الذي اوحى للملك بهذا الاختيار • بعد ذلك يُعلن الالهان « سن » و « شمش » بواسطة الوحي ترحيبهما بالولي المختار قائلين : « انه خليفتك من دون ريب ! » ؛ وان كنا نعلم ان هذا الامر لم يكن الا مجرد تقليد رسمي ليس اكثر • ويكفي للمرء ان يكون ابن ملك لكي يحق له التملك • ونلاحظ من المدونات ان العديد من الملوك الآشوريين كانوا يفتخرون بخط طويل من الاجداد الملوك يتصل فـي بعض الاحيان باسم البطل الاسطوري ادابا •

وما ان يتم اختيار الامير لولاية العهد حتى يترك هذا قصر ابيه ليدخل « بيت ــ ردوتي » أي « بيت الخلافة » الكائن في « تاربيصو » (شريف خان الحالية على دجلة) التي تبعد مسافة قصيرة عن العاصمة نينوى • وهناك كانت تجري عملية تهيئته للقيام بواجباته الملكية خير قيام • ويصار تدريجياً الـــى إيكال مهمات عسكرية وادارية حساسة اليه بضمنها القيام بوظائف الملك كرئيس الدولة في زمن الحرب • وكان بعض الامراء يحظون بتربية متكاملة الجوانب مثل آشور بانيبال الذي يصف تدريباته العسكرية والتربوية كما يلي :

« إمتلكت فـن سيدي آدابا : كنز المعرفة الكتابيـة المكنون بأكمله ؛ علامات الارض والسماء .... ودرست السماوات مع أساتذة زيت التقديس الجهابذة . وأوجدت حلولا لأسئلة طويلـة معقـدة في القسمة والضرب ، وقرأت الخط الفنـي السومري واللغـة الاكدية الغامضة التي يصعب تعلمها ، مستمتعاً بمطالعة أحجار ما قبل الطوفان .... كـانت هذه هي نشاطاتي كل يوم : امتطي فرسي واسير مرحاً ثم اقصـد مقصورة الصيد واحمـل القـوس واجعـل السـهم يطير رمزاً لشجاعتي . واقذف الرماح الثقيلة كما لو كانت مصنوعة من الخشب . وامسك باللجام كقائد (عربة) فاجعل العجلات تدور . وتعلمت معالجـة دروع « الأرينتو » و « الكابـابو » كقـواس بكامـل عدتـه وفي نفس الوقت تعلمت قواعـد السـلوك الملكي اللائقـة و (أتيكيت) السـير بخطـو الملوك . ووقفت أمام الملك مولاي وأصدرت أوامري للنبلاء ، فبدون موافقتي ما كان ليعين أي حاكم ، ولا كان يوظف أي مـدير في وقت غيابي . »(4)

وعندما يتوفى الملك ينعاه كل رعاياه ، ولم يكن يدفن في نينوى ولا في كالحو بل في عاصمة المملكة القديمة « آشور » حيث وجدت خمسة توابيت ثقيلة من الحجر كانت تضم في يوم ما أجساد آشور ــ بعل ــ كالا ، آشور ناصر بال ، شمشي ادد الخامس ، وربما ايضاً سنحاريب وزوجة اسـرحدون « ايشـار حامات » ، والتي جرى سلبها جميعاً منذ القدم . ولقد عمد الى وضـع تلـك التوابيت في غرف مقوسة تحت القصر القديم(5) . وبعد انتهاء مراسيم تشييع الجنازة بوقت قصير ، وفي نفس المدينة ، كان يجري تتويج الملـك الجديـد باحتفال بسيط . فيحمل الملك المصطفى على عرش متحرك يتقدمه كاهن يصيح بأعلى صوته « آشور هـو الملك ! آشور هو الملك ! » حتـى يصـل الموكب

« الإيكور » (معبد الاله الحامي للوطن) فيلجه الملك الجديد ويقدم للاله كأساً من الذهب مملوءة بالزيت ، وماناً من الفضة ، وكساءً رائع التطريز والزخرفة . ثم يقوم الكاهن الاعلى بتزييته وهو راكع أمام الاله ويقدم له شارة الملوكية « تاج آشور وصولجان ننليل »(*). ثم تتلى العبارات التالية:

« التاج على راسك فليبقه آشور وننليل ، سادة التاج ، عليك مائة عام ...
ولتتبارك قدماك في إيكور وذراعاك الممتدتان نحو آشور إلهك .

وليتبارك قدماك في إلهك كهنتك وكهنة ابنائك . اجعل بصولجانك المستقيم ارضك واسعة .
وليهبك آشور رضاً عاجلا وعدالة وسلاماً . »

ثم ينتقل الملك الجديد الى القصر فيستقبل زواره من النبلاء والموظفين حيث يسلمهم شارات وظائفهم من جديد . وفي الواقع لم يكن لهذا التقليد اكثر من اهمية رمزية فقط حيث كان يجري تعيين اولئك الموظفين بعد استحصال موافقته المسبقة عليهم . وبوسعنا ان نفترض بعد ذلك ان احتفالاً شعبياً عاماً كان يعقب تلك المراسيم .

كان ملك آشور يحكم بنفس الاسلوب الذي حكم به كل ملوك وادي الرافدين ، وان كانت مراسلات الدولة الرسمية توحي لنا بان السلطات المحلية قد ترك لها مجالاً اوسع في التصرف عما كانت عليه في ايام حمورابي على سبيل المثال . وكان يجري اطلاع الملك اولاً باول على كافة المسائل المهمة التي تجري

(*) الالهة ننليل هي زوجة آشور ، وكانت اصلا المرادف الانثوي للاله انليل . (المؤلف)

داخل امبراطوريته وفي البلدان الاجنبية على حد سواء • وكان الملك يصدر الاوامر ويوجه النصائح ويعين الاداريين ويعالج الشكاوى ويستقبل ويرفه عن الموظفين الكبار والسفراء والاجانب ويجري مراسلات عديدة بمساعدة جيش من الكتبة • وكقائد أعلى للجيش ، فقد كان يعد خطط الحملات العسكرية ويفتش الجند ويقود الحملات العسكرية بنفسه في أغلب الاحيان • وفي خارج سوح المعارك ، كان يستعرض شجاعته وبراعته في الصيد بالرمح في اراضي القصر • وبالاضافة الى مهامه الوظيفية وتشريفاته ونشاطه في الصيد — وهي الفعاليات التي يمكن مقارنتها باعمال رئيس دولة عصري — كان يتوجب عليه ككاهن ان يكون عبداً لنظام طقوس سحرية — دينية معقدة تأخذ منه الكثير من الوقت وتضيف ثقلاً آخر الى مسؤولياته اليومية الجمة • فباعتباره العبد الاول للآلهة ورئيساً للكهنة كان عليه متابعة عمليات تشييد المعابد وصيانتها وتعيين قسم من الكهنة والمشاركة الفعالة في الاحتفالات الدينية الرئيسية المقامة داخل الاقليم الآشوري وفي بابل ايضاً كعيد القمر الجديد واحتفالات السنة الجديدة ، اضافة الى الطقوس الخاصة به لوحده كطقس « التاكلتو » (الاكل) — وهي وليمة كانت تقام على شرف كل الالهة(7) مقابل تقديمها الحماية له — وطقس « بيت — رمكي » (بيت الحمام) الذي تجري فيه اقامة الصلوات المختلفة الى الآلهة في حمام ملكي • وكممثل لشعبه كان على الملك ان يلعب دور « الطلسم » والا أصبح كبشاً للفداء والحقت به امام الالهة كل آثام المجتمع(8) • وعليه ان يصوم بين وقت وآخر وان يحلق ذقنه وفق المراسيم الخاصة بذلك وان يقوم باعمال مهينة اخرى • وعندما تعمد الآلهة الى التحذير من نذر الشؤم على مصير الدولة ، لايستطيع الملك عند ذاك الافلات من الموت الا باللجوء الى الحيلة المعروفة بتنصيب « الملك البديل » • وكان قد مر بنا سابقاً مثل" لهذه العادة الغريبة في فترة ايسن — لارسا ، اما الان فتشير رسالة كتبت في عهد آشور بانيبال الى أمر مشابه(9) لها حيث يظهر

ان رجلاً يدعى « دامكي » وهو ابن احد النبلاء الاكديين قد اختير من قبل عرافة غائبة عن الوعي ليلعب دور الملك البديل فزوج بسيدة من البلاط الآشوري ثم جرى قتله واياها بعد فترة حكم قصيرة . ولقد كانت هذه ممارسة متطرفة نادرة الحدوث يعود سببها الى اعتقاد كان سائداً عند سكان وادي الرافدين القدماء مؤداه ان الالهة تظهر ارادتها باشكال شتى ، لذلك فقد كانوا على اهبة الاستعداد دوماً لمراقبة الظواهر والاشارات الالهية والتعرف على مغزاها المصيري . وكانت « الكهانة » « علماً »(10) رسمياً جد متطور في الدولة تعتمد تفسيراته على حركة النجوم والكواكب السيارة وتفسير الاحلام والظواهر الطبيعية وهيأة اكباد الخرفان المقدمة للآلهة وهجرة الطيور وميلاد الوحوش وسلوك قطرات الزيت على سطح الماء او اوجه السنة اللهيب وغيرها. ويُحذَّر الملك بالشكل المناسب مشافهة او تحريرياً بالتنبؤات الملائمة وغير الملائمة . ولا يتم التوصل الى قرار مهم بصددها دون استشارة كهنة الـ «البارو» (العرافين) او المنجمين الخاصين بالبلاط . وفيما يلي نموذجان اخذا من المراسلات الملكية : كتب « بعل ــ اوشيزيب » الى اسرحدون يقول :

« عندما تتلألأ نجمة كالمشعل وقت شروق الشمس ويختفي عند الغروب ضياؤها فهذا يعني ان جيش الاعداء سيهاجم بقوة .
وعندما تهب الرياح الجنوبية فجأة وتستمر لتصبح عاصفة ، والعاصفة تتحول الى اعصار فان الامير سيحصل على الثروة من اية غزوة يقوم بها . »(11)
وكتب « زاكير » الى آشور بانيبال يعلمه :
« في اليوم الخامس عشر من شهر تبت ، وفي الساعة الوسطى ، حصل خسوف للقمر بدأ من الجانب الشرقي

وتحول الى الغرب . وسبب ذلك هـو استفحال الشـر في بلاد آمورو وفي ارضها . ويقع ذنب ذلك على ملـك آمـورو وبلـده لسماحهم لعـدو الملـك مـولاي بالتواجـد فـي ارض آمورو . ليتصرف مولاي الملك كما يحلـو لـه فيـده ستمسك به وستنجز هزيمته (أي هزيمة ملك آمورو).»(12)

وفي المثال التالي نقرأ استنتاجات « فحص » اجري على كبد خروف بناء علـى طلب من الملك ، وتشير المصطلحات الغامضة الواردة فيه الى تفاصيل علـى سطح الكبد :

« وبايجاز ، فان « الطريق » مزدوج ؛ يعبـر الايسر منـه الطريق الايمن ، وليس هناك « كـال » . وهناك « اصبع » بجانب « المحطة » ، والجـزء الخارجي للكبد يحتوي عـلى تلف من الجانب الايمـن ، ولا يوجـد « سا . تي » عـلى « التـاج » .

المجمـوع خمس علامـات غير ملائمـة
لا توجد ولا حتى علامة واحـدة ملائمة
(النتيجة هي) غـير ملائمـة . »(13)

غير ان من الخطأ على اية حال الاعتقاد بأن السياسة الخارجية والداخليـة للدولة الآشورية كانت تسيرها نبوءات المنجمين . فكلنا يعرف ان تاريخ هذه الدولة يحمل طابع الواقعية . وكان المنجمون والعرافـون في واقـع الحـال يقدمون للملك مجموعة عامة من الظروف وله الحرية دوما في ان « يتصرف كما يحلو له » . ولقد حصل في عدة مرات ان الملك كان يعمد الى طلب آراء عدة منجمين بالتعاقب للحصول على النبوءة الملائمة لخطته التي اتخذها هو بنفسه.

ونظرياً ، لم يكن بوسع الملك المطلق ان يحكم دون موافقة ومعاونـة

الارستقراطية الآشورية المسماة « ماربانوتي » (ابناء الخليقة) فاليهم كان يقدم الملك ولي عهده المختار وكانت مسألة قبولهم اياه او عدمها اساس السلام العائلي للمملكة . فالثورات التي اعقبت عهود شلمنصر الثالث وسنحاريب على سبيل المثال انما نجمت اساساً عن اعطاء قسم من النبلاء تأييدهم لمرشح آخر غير ولي العهد المختار . كان قواد الجيش وكبار الكهنة وحكام المقاطعات المولون عليها من قبل الملك ينحدرون من الطبقة العليا للمجتمع فقط ، وتعتمد وحدة الامبراطورية والتسيير المنتظم لحكومتها على ولائهم للملك او للعرش . ولا يعرف غير النزر القليل عن طبيعة تنظيم مهام الادارة المركزية وتقسيمها بسبب كون الالقاب المتخذة من قبل الموظفين الكبار لا تعكس دائماً طبيعة وظائفهم ، او بسبب كون تلك الوظائف لم تكن محددة بشكل واضح وصارم . ولم يكن هناك وزراء بالمعنى الحديث للكلمة ولكن وجدت مجموعة من المستشارين من بينهم اربعة او خمسة يتقلدون أعلى الوظائف في الدولة وهم : « التارتانو » (قائد الجيش) ، « الرابشاقه » (كبير السقاة) ، « الناگر ايكالّي » (حاجب القصر) ، « الاباراكّو » ، و « الشاكنو » . وفيما عدا التارتانو لم يكن احد من هؤلاء الموظفين ليؤدي مهمة متخصصة واضحة . وكان يجري تعيين هؤلاء لمدة ثلاثين عاماً — وهي المدة التي كانت تساوي وقتذاك العمر كله — ويقطعون اقطاعيات واسعة يستثمرونها لحسابهم ، كما كانوا نبلاءً رفيعي المقام اكثر من كونهم موظفين دنيين وتعطينا قوائم اللمو (التي تطلق اسماؤهم على سني حكم الملوك) نظام تدرجهم اذ كان يرمز الى السنين الخمس الاولى من عهد حكم الملك باسمائهم وبشكل متعاقب ، ثم تكنى السنوات الاخرى باسم الملك وتليه اسماء حكام المقاطعات . وكان النبلاء من ذوي المنزلة الرفيعة يمتلكون دوراً واسعة وسط العاصمة ، شأنهم شأن الملكة الام وابناء الملك وبناته ، ولديهم بلاطهم الذي كان نسخة مصغرة من البلاط الملكي الكائن في القصر الملكي ، ويستخدمون المئات من الرجال والنساء للقيام بخدمتهم . كان كل هؤلاء

يعيشون من ريع اراضيهم الخاصة ، او على المقاطعات الواسعة التابعة للتاج ، ويتسلمون حصصهم من غنائم الحرب ومن الضرائب المزدوجة المفروضة على سكان الاقليم الآشوري والبلدان التابعة(14) • وكلما كبر حجم الامبراطورية كلما توسعت بلاطات نينوى • ولاشك انها كانت قد تضخمت في عصر السرجونيين بشكل مريع واصبحت فاسدة تماماً حيث تحول افرادها الى طفيليات تقتات على موارد الدولة كما اصبحت مركزاً لمؤامرات لاتنتهي •

وتلي مرتبة النبلاء طبقة « الأُمّانة » (الاختصاصيون) ، وهو اسم كان يطلق على الرجال الاحرار الذين يمتلكون مهنة خاصة كالصيارفة والتجار والموسيقيين والكتبة والحرفيين وغيرهم • وقد انتظم هؤلاء في طوائف تشبه تلك التي عرفت في القرون الوسطى وزاولوا نشاطاتهم العملية في اماكن خاصة بهم في المدينة ودربوا الصناع ونقلوا مهاراتهم لابنائهم • وبما ان ازدهار المملكة كان يعتمد على اعمالهم لذلك فقد كانت مكانتهم تساوي تقريباً مكانة النبلاء • وعلى الرغم من كونهم مواطنين مهجنين ، وان قسماً منهم كان اجنبي الاصل ، الا ان الملك كان يعاملهم باحترام كبير • وفي الحقيقة فلم يكن « شعب آشور » الذي انحاز الى جانب اسرحدون في صراعه على امتلاك التاج و « المدينة واهلها » الذين وجه سرجون كلامه لهم في اعلانه عن نتائج حملته على كردستان سوى هؤلاء « البرجوازيين » الآشوريين • اما الموشكينو فقد كانوا قد اختفوا عند ذاك كطبقة اجتماعية متميزة وان بقي المصطلح يدل على المستضعفين الذين لا يتمتعون بأية امتيازات ، أي بنفس دلالة كلمة « مسكين » في العربية • اما أدنى الطبقات الاجتماعية فقد كانت طبقة الـ « هوبشي » غير المعروفة بشكل جلي والمتكونة ظاهرياً من العمال غير الماهرين في الزراعة والجنود الاعتياديين والعبيد (أرده) الذين كانوا يجندون للخدمة من بين اسرى الحرب وباعداد كبيرة ومتزايدة وبشكل مستمر • وبالطبع فان كلمة « العبد » توحي بمدلولات ممقوتة ،

ولكن حتى في ظل العبودية الآشورية فلم تكن حالة اولئك العبيد مريعة مثلما يمكن ان يسود الاعتقاد • فمع انه كان يسمح ببيعهم وشرائهم (كان « ثمنهم » يتراوح بين الشيقلات العشر الى ما يزيد المانا من الفضة في ايام آشور بانيبال) ، الا ان الوثائق القانونية تظهر لنا ان بعضاً منهم كان بوسعه تعلم حرفة خاصة ، والاستحواذ على ملكية ما ، واستعارة الحبوب والاموال ، والشهادة في المحاكم ، وحتى امتلاك عبيد خاصين بهم • وبين الحين والاخر ، كان بامكان القليل منهم الظفر بوظائف ادارية شبه راقية •(15)

ومهما يكن من امر فقد كانت كافة الطبقات المتفاوتة المكانة للمجتمع الآشوري ، على اختلاف ثرائها وثقافتها ، تتشارك في أداء واجب عام هو تواجدها المستمر رهن اشارة الملك لانجاز الاعمال الشعبية الكبيرة وللاشتراك في ميدان « الصناعة الوطنية » لآشور وهي : الحرب •

الجيش الآشوري

كان الجيش ــ وهو الاداة الاساسية في عظمة وجبروت الآشوريين ــ يُستدعى كل عام تقريباً ، ويساق من الجبال ذات القمم المغطاة بالثلوج في ارمينيا وايران الى اهوار مملكة القطر البحري وصحارى مصر المحرقة بدون كلل ، وكان النصر حليفه على الدوام تقريبا • ويكمن سر نجاحاته(16) ــ مثله مثل الكتائب المقدونية والفيالق الرومانية ــ في نوعية جنده وافضلية اسلحته بالاضافة الى صرامة تنظيمه •

وفي الاصل ، كان الجيش الآشوري يجند من بين صفوف المزارعين من سكان شمال العراق ، وهم جنس هجين من المحاربين الاشداء الذين جمعوا بين جرأة البدوي وعناد الفلاح وخشونة قاطن الجبال • ولما اتسع مسرح العمليات العسكرية وواجه الآشوريون اعداء أقوى ، اصبح القوام العددي للجيش لايفي بالمرام • ولقد مر بنا آنفاً كيف ان تكلاثبلزر الثالث قد ألف

جيشاً دائمياً تشتمل اغلبيته على مقاتلين جندوا من قبل الحكـام المحليين للمقاطعات الحدودية للامبراطورية • ولقد ضم الجيش الآشوري عند ذاك فرساناً من ايران ومن المستوطنات الارامية في مملكة بابل ، وراكبين للجمال من الجزيرة العربية ، ومشاة من الاناضول وسوريا ـ فلسطين • وبالاضافة الى هذا وجدت هناك قبائل معينة ـ كقبيلة ايتواي ـ اسقطت عنها الضرائب مقابل تجنيدها بشكل عام • كما كان بالامكان استدعاء المواطنين الآشوريين الاحرار عند الحاجة غير ان العديد منهم كان بوسعه ارسال عبد يحل كبديـل محله او دفع « بدل » يتمثل في « ثمن » عبد من الهوبشي • ثم مالبثـت ان اشتركت البلدان التابعة بوحدات مهمة في الجيش الآشوري فانضمت اليـه مجاميع من الميديين والسيمريين والسيثيين طمعـاً في الغنائـم او كمرتزقـة وباعداد متزايدة • اما في عهد اسرحدون وآشور بانيبال فقد اصبح الجيش تشكيلة غير متجانسة القوام ففقد الكثير من قوته وحماسته(17) • ولعل هذا يوضح لنا الى حدما لم جاءت هزيمته الاخيرة سريعة ويسيرة •

وعلى الرغم من كثرة سجلات الحرب الواردة الينا الا اننا لا نمتلك غير القليل من المعلومات عن حجم وتنظيم تكتيكات الجيش الآشوري • فمـن النادر ان تعرج تلك السجلات الى ذكر عدد الجنود المشاركين في القتال ، عدا في حالة واحدة او في حالتين عندما يطلعنا آشور ناصر بال عن اشتراك خمسين الفاً من مقاتليه في معركة القرقار ، وحينما يحدثنا شلمنصر الثالث عن تسييره مائة وعشرين الف مقاتل ضد جيش العدو الذي كان قوامه سبعين الفاً • واذا كانت خسائر العدو تمط وتضخم عادة فان الاصابات في صفوف الآشوريين انفسهم لم تكن لتذكر ابداً • كما ان هناك العديد من الثغرات في مصادرنـا عن التدرج الوظيفي في الجيش • فمن الترتانو والرابشاقة ـ الـذي غالبـاً ماكان يتقلد مهام مساعد القائد ـ تنقل حالاً الى « قواد السبعين » و « قواد الخمسين » • ونعرف ايضاً انه كانت توجد عدة درجات لضباط الفرسان ، وان

حرس الملك (رجال الخناجر) ووحدات اخرى كان لها « عقداؤها » • ويجري دوما وصف المعارك باسلوب فخم يفتقر الى الوضوح مزدانا باصخب الالوان. كما لانستطيع معرفة التكتيكات الحربية المطبقة فيها عدا الاشارات النادرة الى شن الهجمات المباغتة او الى نصب الكمائن(18) • وتبقى مشاهد الحرب الكثيرة المنحوتة على الالواح في قصور نمرود المصدر الرئيسي للمعلومات علاوة على مثيلاتها الموجودة في خرسباد ونينوى والمشاهد المنحوتة في بوابات بالاوات البرونزية • ولدى استقرائنا لها نجد ان المشاة كان ينقسمون الى فئتين : فرق المشاة الخفيفة (القواسة والخذافة) وفرق المشاة الثقيلة (الرماحة) • ويرتدي افراد فرق المشاة الخفيفة تنورة قصيرة ولا يتقلدون أي اسلحة دفاعية بينما يحمي الرماحة اجسادهم بالدروع المزردة او بترس دائري او مستطيل يزيد ارتفاعه احياناً على ارتفاع الرمّاح نفسه • وكان الخذافة حاسري الرؤوس اما القواسة والرماحة فقد كانوا يرتدون خوذاً مخروطية طويلة او مريّشة تشبه الى حدما الخوذة الاغريقية • وبالاضافة الى اسلحتهم الخاصة(19) ، فقد كان معظم المشاة يحملون سيفا قصيرا او خنجرا او صولجاناً ويرتدي كلهم — على الاقل منذ عهد تكلاثبلزر الثالث — جزماً قصيرة مشدودة من الامام • ويلبس الفرسان بزة مشابهة ويتسلحون بقوس صغير او برمح طويل ولكنهم لم يستخدموا السروج ولا المهاميز • اما في عصر السرجونيين فقد كانت الجياد تحمى بدروع تشبه شبهاً غريباً تلك التي كان يستخدمها فرسان القرون الوسطى • ووجد هناك صنف ثالث من الجنود كانوا يحاربون على متن عربات خفيفة ذات عجلتين يسحبها جوادان او ثلاثة جياد ويعتلي كل واحدة منها ثلاثة أو أربعة رجال هم قائد العربة والنبّال وشخصان يحملان الدروع • اما في مؤخرة الجيش الزاحف فقد كان يسير الخدم من الرجال والنساء والعربات المحملة بالتجهيزات والمؤن • وكانت الانهار تعبر اما بواسطة الزوارق الاعتيادية او بزوارق البردي المكسو بالقار

(الكفة العربية المستخدمة لحد الان في اطراف وادي دجلة الاعلى) ، او بواسطة جلود الماعز المنفوخة .

وكانت احدى العُدد الاساسية للجيش الآشوري هي أسلحة الحصار الستراتيجية بسبب كون العديد من المدن وقتذاك ــ وخصوصاً تلك التي تتواجد في ارمينيا وسوريا ــ محصنة بشكل متين مما يجعل عملية الاستيلاء عليها مهمة غير سهلة بالمرة . ولكن الجيش كان يزود بفريق حيوي من المهندسين الذين يعمدون الى املاء الخنادق المقامة حول الاسوار ويوجهون القذائف على المتاريس ويحفرون الخنادق بينما يقذف المهاجمون باسهمهم من على ابراج ثابتة او متحركة ويعملون جاهدين لفتح الثغرات في النقاط الضعيفة وفي الابواب بواسطة المنجنيقات الضخمة ويتقدم الجيش تحت حماية دروع كبيرة . وكان الجيش المدافع المُحاصر داخل الاسوار يقاوم برجم آلات الحرب بالنار الزيتية وبالمشاعل او بتصفيد المجانيق بالسلاسل . اما الهجمة الاخيرة فقد كانت تنفذ بمساعدة السلالم . وما ان تؤخذ المدينة وتنهب ويقتل سكانها او يؤسرون حتى تحرق بالنيران أو تقلب رأساً على عقب او يصار احياناً الى تحصينها مجدداً نظراً لاهميتها الستراتيجية .

ولما كانت الحرب مصدراً للفخر الاثير لدى الملوك الآشوريين لذلك فقد انهمك النحاتون بامر اسيادهم في تصويرها من جوانبها المختلفة وبأدق التفاصيل . فترينا منحوتات بارزة اريد لها ان تعكس استعراضات دونت على المسلات والاحجار وحول التماثيل الجنود الآشوريين وهم يزحفون ويقاتلون ويقتلون ويسلبون ويدكون أسوار المدن ويحرسون أسرى الحرب . وتمتلك هذه السلسلة من سجلات الحرب ــ التي لم تجار من قبل أي بلد آخر ــ بالاضافة الى مشاعر الرعب ، رسومات أنيسة تصور لنا الجنود في أوقات الراحة في معسكراتهم وفي خيامهم وهم يعتنون بجيادهم وينحرون الأبقار ويطبخون الطعام ويأكلون ويشربون ويلعبون ويرقصون . وتضفي هذه

المشاهد الصغيرة المليئة بالحياة على مأساة الحرب لمسة انسانية منعشة • فمن داخل ذات المقاتل الشرس تنبثق هنا شخصية مألوفة متجانسة لاناس بسطاء متواضعين مرحين تتميز بهم كافة مراتب وضباط جيوش العالم في الماضي والحاضر وفي المستقبل •

الفنون الآشورية

لقد انتهت اسطورة الجيش الآشوري منذ وقت بعيد اذ تكبد هزيمة ماحقة وتحطم في النكبة الكبيرة خلال الاعوام (٦١٤–٦٠٩ ق• م) ، ولكن النصب الفنية الآشورية استطاعت ان تفلت من الدمار وبوسعنا الان الاستمتاع بها فهي مؤثرة بنوعيتها الراقية وبعددها الكبير •

ومنذ ان وصلت اولى التماثيل الحجرية الضخمة الى اوربا قبل اكثر من مائة عام ، أصبح مصطلح « الفنون الآشورية » يوحي بأعمال النحت وخصوصاً النمط البارز منه • ولسبب غير معروف نلاحظ ان اعمال النحت المكور تكاد ان تنعدم في المواقع الآشورية الكائنة على ضفاف دجلة خلال الالف الاول ق • م ؛ فلم تقدم العواصم الآشورية الا تماثيل قليلة أفضلها – تمثال آشور – ناصر بال في المتحف البريطاني – تقليدي الصنعة ، عديم الحياة وادنى في أوجه عديدة من اعمال الفنانين السومريين العظام • وعلى العكس من هذا فان اعمال النحت البارز تبدو ممتعة على الدوام اذ تمتلك جمالاً حقيقياً وتمثل بلا ريب « أعظم إنجازات الآشوريين وأكثرها أصالة »(20) •

وفي الحقيقة فان تكنيك فن النحت البارز كان قديماً قدم وادي الرافدين نفسه ولكنه اقتصر لوقت طويل على المسلات المنصوبة في المعابد • وكان أول تعبير بارز له يتمثل في « مسلة الصيد » العائدة الى الوركاء (اوروك – الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي) واستمر يستثمر في قطع فنية رائعة (مسلة العقبان

العائدة الى انياتم مثلاً ومسلة النصر لنرام ـ سن) حتى العصر الكاشي والبابلي الوسيط في احجار الحدود (الكُدُرّات) • ولقد حرص الآشوريون على المضي قدماً في توظيف هذا الموروث الفني في بعض الموضوعات الدينية (كمنحوتة الالهة آشور كاله للنبات الموجودة في متحف برلين)(21) غير انهم مالبثوا ان اقتصروا على استخدامه في تنفيذ تماثيل الملك فحسب • غير ان المسلات الملكية المقامة عادة في مواقع البلدان المحتلة لتخليد ذكرى الانتصارات الآشورية لاتعدو ان تكون في افضل الحالات اعمالاً فنية امينة لعلها تتفوق بقيمتها التاريخية على قيمتها التنفيذية الفنية • أما أعمال النحت البارز على الالواح الحجرية فربما كانت أجنبية الاصل • ويبدو أن فكرة استخدام النحت في تزيين الابنية قد انبثقت اول الامر في بلاد الاناضول بين الحثيين الذين زينوا جدران قصورهم بالالواح المنحوتة منذ الألف الثاني ق • م • ولقد وجد الآشوريون ان في بلدهم ما يكفي من الحجارة الجيرية (الكلسية) المسامية الهشة والملائمة لشتى الاغراض احدها النحت • كما لجأوا الى استيراد مواد افضل من الخارج عندما لم تعد الصخور الجيرية تفي بالمرام • وكانت في متناول ايديهم امكانات غير محدودة لتقطيع ونقل كتل الحجارة الضخمة ، كما امتلكوا فنانين وحرفيين مهرة وممتازين للقيام برسم ونحت المواضيع عليها • ولقد ادى تبني الآشوريين لهذا الاختراع الحثي الى البلوغ به الى درجة فريدة من الكمال • اما المنحوتات الضخمة للثيران والاسود المجنحة برشاقة التي حرست ابواب قصورهم بادية وكأنها قد ظهرت فجأة منها فقد نحتت برزانة فائقة فجاءت عالية الانسجام في كتلتها ومتفردة في غنى تفصيلاتها الدقيقة • كما تتميز الالواح المنحوتة نحتاً بارزاً خفيفاً ـ والتي كانت تمتد في خطوط على طول جوانب الغرف والممرات والمنفذة بشكل يحتم تدقيق النظر اليها ـ بكمال توازن تكويناتها وتكشف عن حدة في الملاحظة ـ خصوصاً فيما يتعلق بالحيوانات ـ وباحساس بهيج بالحركة يلف كامل بنائها • هو ذا في الحقيقة

فن رفيع يفوق كل ما انتجه العالم لحد الان في هذا الميدان ولا تفوقه شموخاً سوى المنحوتات المجسمة لبلاد اليونان القديمة فقط •

وفي الوقت الذي يتعذر علينا فيه ان نقدم هنا حتى مجرد تحليل موجز عن المنحوتات البارزة الآشورية(22) الا ان الرغبة تغري بنا الى ان نتطرق الى سمة غريبة لهذا الشكل من الفن تميزه تماما عن النتاجات الاخرى المماثلة له في كل الشرق الادنى القديم• كانت كافة النصب الفنية لوادي الرافدين حتى ذلك الوقت تمتلك اهمية دينية وتدور ثيماتها بهذا الشكل او ذاك حول الآلهـة• اما النحت الآشوري فنجد ان الملك قد اصبح فيه الموضوع المركزي • وهو هنا لا يتقمص قوة او حجماً خارقاً مثل « الاله ـ الملك » في المنحوتات المصرية البارزة ـ بـل هـو هنا بصفتـه عاهـلاً آدمياً وان كان متسيدا وشديد العزم • وبالاضافة الى هذا ، وعلى الرغم من اننا نجده مصوراً وهو يقـوم بفعاليات مختلفة كاستعراض الجند والصيد والراحة واستلام الجزية واستقبال الرعايا وقيادة الجيوش في الحرب ، الا اننا لا نصادفه ابداً مصوراً وهو يؤدي مثلاً واجباته الدينية • وكان يجري تمثيل الجن وانصاف الالهة والابطـال في هذه المنحوتات الا ان الآلهة كانت غائبة فيها على الـدوام ـ فيمـا عـدا المنحوتات الحجرية ـ او يستعاض عنها برموزها (الرمح المغروس في المحراب او القرص المجنح في السماء) • ولما كانت الملكية تندمج في الدولة الآشورية بالدين مثلما كان الامر في العصور السومرية والبابلية السابقة عليها ، فاننـا لانجد بعد هذا غير تعليل واحد لهذه الظاهرة وهو ان الالواح المنحوتة التي زينت القصور الملكية لم تكن في الواقع غير نمط من أنماط الدعاية السياسية اريد لها ان تقدم في شكلها القصصي ، اضافة الى وظيفة التجميل ، خدمـة اخرى غير تأمين رضا الالهة او خطب ودها ، وهي بعث الاحترام والاعجاب والرهبة في نفوس البشر • وفي الواقع فان الانطباع العام الذي تتوفر عليـه هنا هو ان عمل النحاتين الآشوريين يظهر باعتباره احدى اولـى المحاولات

المبذولة لأنسنة الفنون وتجريدها من المعنى السحري او الديني المتوارث فيها منذ العصور ما قبل التاريخية .

ومن المعروف منذ امد بعيد ان بعض التماثيل والمنحوتات البارزة كان يجري تلوينها من قبل الفنانين الآشوريين . ومن جهة اخرى فقد استخدم في المعابد والقصور الآشورية نوع من الطابوق المصقول ذي الالوان الوهاجة رسمت عليه مواضيع زخرفية او تصويرية تعتبر في الحقيقة مرحلة انتقال بين النحت البارز والتصوير على الجص (الفريسكو)(23) . واعتماداً على نتائج التنقيبات الحديثة فان بامكاننا الافتراض بأن الرسومات الجدارية كانت تزين جدران معظم البنايات الرسمية ان لم تكن كلها بالاضافة الى جدران عدد من المنازل الخاصة ولان الالوان وضعت على طبقة رقيقة من الملاط ، لذلك فقد اختفت عموماً فيما عدا في خرسباد ونمرود وتل احمر (تل بارسب) حيث استنسخت عدة اجزاء منها او نقلت الى المتاحف والرسومات الجدارية من هذا النوع ، ذات الجذور العميقة في فن وادي الرافدين(24) ، اشتملت بشكل رئيسي على مواضيع دنيوية ، كما اتخذت أشكالاً عديدة طبقا لحجم ووظيفة الغرفة . وهي تتراوح بين الافريزات البسيطة لتصاميم هندسية الى الواح متقنة غطت الجزء الاكبر من الجدران واشتملت على مواضيع عن النباتات والحيوانات ومشاهد للحرب والصيد وصور ملكية منسقة في مجاميع افقية . ويبدو ان فن الرسم الآشوري ، استناداً الى النماذج التي بقيت لنا منه ، ليس بادنى منزلة من فن النحت الآشوري . كما تعكس المصورات الجصية في تل احمر ، والتي طبعت مؤخراً بالالوان لاول مرة(25) ، حرية عظيمة في التعبير بالاضافة الى النوعية الرفيعة لصنعتها الفنية .

كان الآشوريون ماهرين — او ربما يجب ان نقول بانهم قد استخدموا اختصاصيين مهرة — في شغل المعادن فخلفوا لنا بعض القطع الجميلة جداً المصنوعة من البرونز ، والعديد من الاوعية والحلي المصنوعة من الذهب

والفضة • كما كانت الاماء المشتغلات في الورش الملكية ينسجن زرابي ذات تصاميم متقنة زينت حواشها بشرائط متناسقة والتي بوسعنا رؤيتها في الاردية التي كان يلبسها الملوك ورجال حاشيتهم والتي اخرجت على الحجر بكامل تفصيلاتها الدقيقة • وبعكس النحاتين الآشوريين فقد فضل الحجارون المواضيع الدينية والاسطورية التقليدية على المواضيع الدنيوية • وتظهر لنا الاختام الاسطوانية المصنوعة في العصر الآشوري الحديث والمنحوتة بمهارة وعناية فائقتين جمالاً اخاذاً قاسياً متميزاً بالبرودة • ومن بين ما تدعى بـ « الفنون الثانوية » تحتل المنحوتات العاجية المستخرجة من قبل المنقبين في المواقع الآشورية مركز الصدارة •

كان شغل العاج معروفاً في وادي الرافدين منذ عصور فجر السلالات(26) ثم مالبث ان اختفى ليظهر من جديد في أواسط الالف الثاني ق • م في البلدان الخاضعة للتأثير المصري مثل فلسطين (لجش ، مجيدو) وساحل شرق المتوسط (اوگاريت) • ولقد أدى ازدهار المدن الفينيقية والمملكة الاسرائيلية والدويلات الارامية في سوريا وتطور علاقاتهم التجارية بشكل وثيق مع مصر ـــ التي قامت بتزويدهم بالمواد الاولية ـــ الى تطور استثنائي لهذا الضرب من الفن ليس فقط في منطقة سوريا ـــ فلسطين (السامرة ، حماه) بل وكذلك داخل اركان الدولة الآشورية وفي ايران (زوية) وحتى في ارمينيا (توبراك كاله) وذلك منذ بداية الالف الاول ق • م • وليس هناك من شك في ان القسم الاكبر من العاجيات المكتشفة في مواقع آشور ، خرسباد ، ارسلان طاش (حداتو) ، وفي نمرود بشكل خاص ـــ وهو اغنى المواقع طراً ـــ(27) قد استلمت كضرائب او أُخذت كغنائم من المقاطعات الغربية للامبراطورية • ولكن هناك العديد من القطع العاجية التي تعكس اسلوباً والهاماً آشورياً خالصاً لابد ان تكون قد صنعت في ورشات الآشوريين انفسهم وان كان يصعب البت فيمن قام بتنفيذها واقعاً : الفنانون السومريون ـــ الفينيقيون

الاجانب ام الفنانون العراقيون انفسهم • ولقد استخدم العاج في تزيين الكراسي ، العروش ، الاسرة ، الابواب ، والحواجز ؛ او جرى تشكيله في هيأة صناديق واوان وسنديانات او ملاعق ودبابيس وامشاط ومقابض ، وبتكتيكات متنوعة كالنقش والنحت البارز ، بهيئة مكورة او منبسطة ، وُطعّم باحجار شبه كريمة ، كما كان يجري تلوين بعضه او إكساؤه بالذهب او يترك على لونه الاصلي • ولا تقل روعة وغزارة الموضوعات المعالجة فيه عن روعة صنعته الفنية ، فبالاضافة الى المواضيع المصرية الخالصة ــ مثلاً « حورس » او « الهة حاتور » ــ نشاهد ثيمات لنساء خلف الشبابيك ولابقار وغزلان وغرافين (حيوان خرافي نصفه اسد ونصفه الاخر نسر) ، والتي هي فينيقية في الاسلوب ، اضافة الى الحيوانات البرية والنساء والالهة العارية ومشاهد الصيد والمواكب والتي يعتقد الخبراء بان بعضها سوري وان بعضها الاخر عائد الى وادي الرافدين • ومما تجدر الاشارة اليه ان اغلب مواضيع هذه القطع الفنية سلمية ولا يظهر الا لماماً الجسد المتصلب لـ « ملك آشور الجبار » لوحده او بمعية جنده • وتوحي كل تلك النساء المبتسمات ــ موناليزا نمرود المثيرة للاعجاب مثلاً ــ واولئك الموسيقيين والراقصين المبتهجين ، وبنات الهول الساكنات الغامضات ، والابقار الراضعات عجولهن بتلك الحركة الرشيقة المحببة لرؤوسهن وهي تلعق وليدها ، بالاسترخاء اللطيف المأنوس • وبغض النظر عن حقيقة مكان صناعتها ، فان العاجيات المستخرجة من المواقع الآشورية تلقي ضوءاً جديداً على طبيعة ذهنية ممتلكيها فهي الشاهدة على ان الآشوريين كانوا ذواقين للسحر والرشاقة بالضبط كما تشهد مكتباتهم على تحمسهم للمعرفة والاطلاع الواسع •

الفصل الثاني والعشرون

نساخ نينوى



كان سير هنري لايارد ، وهو رائد المنقبين الانكليز في العراق ، يقوم بالحفر في قصر سنحاريب في نينوى عام (١٨٤٩ م) عندما فتح « غرفتين كبيرتين كُوِّمت فيهما الرقم حتى ارتفاع قدم او اكثر »(*) •(1) بعد ذلك بثلاث سنين توصل مساعده هرمز رسام الى اكتشاف مماثل في نفس تلة قوينجق في قصر آشور بانيبال حفيد سنحاريب • وهكذا فقد جمعت رقم يزيد عددها على خمسة وعشرين الف رقيم ارسلت كلها الى المتحف البريطاني بلندن حيث تشكل الآن أغنى وأنفس مجموعة من نوعها في العالم(2) • ولدى القيام بفحصها ، فقد وجد انها ـ أي مكتبة آشور بانيبال ـ يمكن ان تصنف

(*) وفي الحقيقة فان اغلب الرقم المكتشفة في قصر سنحاريب انما تعود الى آشور بانيبال الملك الذي استخدم منزل جده مركزاً له في سني حكمه المبكرة . (المؤلف) .

الى قسمين يشتمل اولهما على « الوثائق الارشيفية » مثل الرسائل والعقود والمخطوطات الاقتصادية والتاريخية ، ويتألف القسم الثاني من « الوثائق الملكية » المتضمنة مواضيع ادبية ودينية وعلمية • ويشكل القسم الاخير الجزء الاهم من المجموعة الملكية وتزداد اهميته عندما نعلم ان العديد من تلك الوثائق هي في الحقيقة نسخ لرقم سومرية وبابلية قديمة جرى استنساخها في نينوى بناء على طلب الملك الآشوري نفسه • كما تقدم لنا الرسائل الكثيرة المحفوظة في ارشيف المراسلات الملكية البرهان على ان ملوك آشور كانوا ايضاً متعطشين للثقافة وانهم قد اشرفوا بانفسهم على تنظيم عملية بحث واسعة النطاق عن المخطوطات القديمة خصوصاً في البلدان ذات الحضارة الراقية كبلاد سومر وأكد • فنجد ان آشور بانيبال على سبيل المثال يرسل الى شخص يدعى « شادونا » قائلاً :

عند تسلمك لرسالتي هذه ، خذ معك اولئك الرجال الثلاثة (تذكر الرسالة اسماءهم بعد ذلك) والرجال الضليعين من مدينة بارسيبا وابحث عن كافة الرقم الموجودة في البيوت او التي تتواجد في معبد ايزيدا ••••• وتصيَّد الرقم النفيسة المتوفرة في ارشيفاتك والتي لا مثيل لها في آشور وابعث بها الي • ولقد كتبت الى الموظفين والمراقبين ••••• وسوف لن يقوم اي فرد منهم بحجز اي رقيم عنك • واذا صادفت اي رقيم او اي مدونة اخرى كتبت عليها مخطوطة شعائرية لم اطلبها منك ولكنك تعتقد بانها يمكن ان تكون ذات فائدة ما لقصري فانشدها والقطها ثم ارسلها الي•))(3)

ولم تكن القصور الملكية المكان الوحيد الذي حفظت فيه الرقم الثمينة اذ امتلكت كل العواصم والمدن المحلية الرئيسية في الدولة الآشورية مكتبات معبدية بل وحتى مكتبات خاصة حيث تم العثور على مكتبات مهمة في كل

من مدن آشور ونمرود • كما استطاعت الحفريات الانكلو تركية التي اجريت مؤخراً في موقع « سلطان تپه » قرب حران ان تعيد الى الحياة مجموعة ثمينة من النصوص الادبية والدينية التي كانت بحوزة كاهن لاله القمر « سن » واسمه « كوردي ــ نرگال » وتتضمن قطعاً فنية راقية من الادب كقصة « الرجل الفقير من نفر » التي لم تكن معروفة قبل ذاك اضافة الى « ملحمة گلگامش » و « اسطورة زام ــ سن » وقصة « المعذب الصالح »(*) •(4)

وحالما تصل الرقم الطينية الى العاصمة الآشورية حتى كان يجري استنساخها بالخط المسماري الدقيق المهذب الذي تتميز به هذه الفترة او يحتفظ بها كما هي • ولقد جرت حينذاك عملية اعادة صياغة لنصوص عديدة برمتها أو لاجزاء منها ، كما جرى تكييف نصوص اخرى بما يلائم ذلك العصر • إلا انعدداً من النصوص غيرها جرى استنساخه بالنص حرفياً • وكثيراً ما نصادف مخطوطات تتخللها فراغات لجمل او لكلمات تعذرت قراءتها في النص الاصلي مما حدا بالمستنسخ الى اضافة تعليقاته الخاصة اليها او تذييل هامشها بعبارة « أل° إدي » (لم أفهم) او « هيپو لابيرو » (كسر قديم) • وفي بعض الاحيان لم يكن الكاتب يستنسخ النص على الرقم الطينية بل على سطح من الشمع المنشور كطبقة فوق الواح خشبية او عاجية يجري ربط عدة الواح منها لتشكل معاً قطعة واحدة قابلة للطي كالباب المُصرّع • ولقد اكتشفت في عام ١٩٥١ أعداد من ألواح الكتابة هذه ــ ما يزال بعضها يحمل آثاراً لتآليف فلكية ــ داخل احد الابار في نمرود حيث كانت قد القيت فيه عند احتلال المدينة(5) • وبينما كان يجري عادة حفظ الوثائق التجارية والادارية في الجرار أو في السلال الا ان النصوص المكتبية تبدو وكأنها قد رتبت على رفوف خاصة بها • ولانها وجدت متناثرة على ارضيات المباني

(*) المعذب الصالح هو ايوب البابليين الذي سبق ذكر ملخص لقصته في الفصل السادس من الكتاب .

المخربة ، لذلك فان من العسير تماماً فهم طريقة التصنيف المطبقة عليها • مع ذلك فان بمقدورنا التعرف على الرقم العائدة الى نفس المجموعة حيث كان يجري ترقيمها أو إختتامها بسطر تابع يذكر الجملة الاولى للرقيم التالي • وكمثال على ذلك نجد ان الرقيم الثالث لـ « إينما إيليش » (قصة الخليقة) ينتهي بهذه الجملة :

« واقاموا له غرفة اميرية »

والتي يُستهل بها نص الرقيم الرابع لنفس القصة • كما نرى ان الرقيم الحادي عشر للنسخة الآشورية لملحمة گلگامش ينتهي بالخاتمة التالية :

« الرقيم الحادي عشر لـ « هو الذي رأى كل شيء »
(المجموعة) گلگامش ،
كتبت طبق الاصل ودققت .
قصر آشور بانيبال ، ملك الكون ، ملك الآشوريين • (3) »

ان الحماس الذي ساد عملية جمع هذه الآثار المسطورة التليدة والعناية الشديدة التي اوليت لحفظها لاتشرف كتبتها فحسب ، بل وكذلك الملوك اسيادهم ايضاً • ومن سخرية القدر ان يكون الآشوريون الذي جلبوا الكثير من الويلات والدمار لوادي الرافدين هم انفسهم الذين حفظوا للاجيال القادمة القسط الاكبر من الكنوز الروحية العائدة لبلاد سومر واكد وبابل ولبلدهم نفسه •

علوم وادي الرافدين

من غير المحتمل ان تكون مكتبة آشور بانيبال قد استخدمت من قبل الملك نفسه ، لانه قليلاً ما كان يتوفر له الوقت او تتملكه الرغبة في مطالعة الآلاف من الرقم المجمعة وفق اوامره حتى وان كان قد قام فعلاً بـ « فك رموز

الاحجار العائدة الى ما قبل الطوفان » لادخال البهجة الى نفسه ، او بقراءة « قصص الملاحم العظيمة لگلگامش واتانا وادابا » • ولابد ان مكتبة القصر كانت مفتوحة امام كتبة البلاط والمعابد حيث كان بوسعهم التزود منها على المصادر المدونة التي كانوا يبتغونها • وربما كانت المكتبة جزء من « اكاديمية » (بيت مومي = بيت المعرفة) من النوع الذي ازدهر في مدن عديدة وفي عصور مختلفة اسست لجذب وجمع علماء وادي الرافدين في نينوى • ولقد توفرت لهؤلاء في تلك المكتبة ، اضافة الى الاعداد الغفيرة من المؤلفات الادبية والتاريخية والدينية ، حقولاً لمواضيع معرفية متنوعة كالبحوث اللغوية وقوائم بمصنفات النباتات والحيوانات والمعادن والقوائم الجغرافية والوصفات الطبية والجداول الرياضية والملاحظات الفلكية وغيرها • أي باختصار : مجموعة متكاملة من الوثائق العلمية تشكل في واقع الحال دائرة معارف كاملة بحقول المعرفة الآشورية ــ البابلية • اما قيمة هذه الوثائق بالنسبة لنا فهي جد كبيرة ، مثلما كانت قيمتها عند العلماء الاقدمين ولكن لاسباب مختلفة تماماً • ومع ان توفر مثل هذه الوثائق يحفز على اجراء عملية استقصاء شاملة لعلوم وادي الرافدين ، الا انها لاتكفي لوحدها للايفاء بمتطلبات عملية من هذا النوع وبهذا الشمول • ولقد قمنا باستنباط معلوماتنا لهذا الفصل من مصادر اخرى احدث أو اقدم من مكتبة آشور بانيبال في قوينجق العائدة الى القرن السابع ق • م مثل النصوص العلمية من نفر وتل حرمل وآشور واوروك والتي تتراوح تواريخها بين نهاية الالف الثالث ق • م وحتى القرن الثالث ق • م ، والتي كانت لها اهمية استثنائية بالنسبة لنا •(7)

تسبب اليونانيون ــ الذين عرفوا الكلدانيين واعجبوا بهم اكثر شيء باعتبارهم سحرة وعرافين فحسب ــ في الحاق الكثير من الاذى والتشويه بسمعة وذكرى الكلدانيين • صحيح ان السحر بمعناه العريض ــ الكلمات والاعمال التي يراد بها التأثير على القوى الخارقة ــ كان وثيق الاتصال بالدين

السومري ـ الاكدي ، وان فن التنجيم قد تمت عملية تكامله وتصنيفه وقنونته في ارض وادي الرافدين منذ وقت مبكر(8) ، الا ان ابتذال الممارسات السحرية لم يصل درجته القصوى الا في نهاية العصر السابق لظهور المسيحية. ولم يكن السحر والتنجيم الشعبي ليشكل الكلمة الاخيرة في حكمة البابليين ، ولم يتطور الا كمؤشر للانحلال في حضارة كانت آيلة للزوال وقتذاك . اما الآن فنحن واثقون تماما من ان السومريين والآشوريين والبابليين على حد سواء قد نعموا تقريبا بجميع المواصفات المطلوبة لذهنية ذات توجه علمي بشكل حقيقي . فقد امتازوا قبل كل شيء بتطلعهم الشديد لضروب المعرفة ، ذلك التطلع الذي حدا بهم الى جمع الرقم القديمة وتأسيس متاحف للآثار التليدة وجلب انواع نادرة من النباتات والحيوانات غير المعروفة من مناطق تبعد كثيرا عن موطنهم . واتصفوا كذلك بالصبر والاناة وبالولع بالتفاصيل المنعكس بوضوح في كافة نشاطاتهم ابتداء من مجموعة التقارير وانتهاء باعمالهم الفنية الرفيعة التي خلفوها لنا . كما امتلكوا ايضا قوة ملاحظة نفاذة ودرسوا الطبيعة بحماس مسجلين وموحدين كمية كبيرة من المعلومات لاغراض المعرفة الخالصة أكثر من غرض توخي فوائدها العلمية ، وساروا شوطا بعيدا في طريق الاكتشافات العلمية ، على الاقل في بعض حقول المعرفة . واخيرا فان رياضيات وادي الرافدين تقدم البرهان الساطع على ولع سكان العراق القديم بممارسة فن التفكير المجرد الى درجة نادرا ما وجدت عند سكان العصور القديمة ما قبل الكلاسية .

وحالما يدخل التلميذ مدرسته(9) حتى يكون بوسع كاتب المستقبل هذا ان يجد أمامه المجال واسعا لتطبيق وممارسة تلك الخصائص الاصيلة الموروثة عنده . كان التعليم في المدارس شفوياً بالاساس ـ لم تكتشف اية مناهج مدرسية في أي موضوع لحد الآن ـ وهو الامر الذي ادى الى تطوير ذاكرته السماعية . ثم حملته ضرورة استيعاب وحل

رموز الكتابة المسمارية ــ التي يسكن قراءة كل رمز منها ككلمة منفصلة او كمقطع ذي قيم صوتية عديدة ــ على الانغماس في دراسات لغوية معقدة نوعاً ما لتعلم لغتين مختلفتين عن بعضهما هما السومرية والاكدية ــ وبدلاً مــن الالفباء ، كان يتوجب عليه استظهار قوائم طويلة من الرموز مع أسـمائها والفاظها ومدلولاتها في هاتين اللغتين • ولحسن الحظ ، فقد بقيت لنا العديد من تلك القوائم المقطعية والتي بدونها ما كان بالامكان ابداً فك رموز اللغة السومرية وفهمها(10) • وفي المرحلة التالية ، كان يتوجب على التلميذ تعلم كيفية استخدام جداول التصاريف والمفردات ــ قوائم للاشياء والمصطلحات او التعابير ذات الموضوع الواحد ــ اضافة الى القواميس المصنفة بلغتين او بثلاث لغات تتضمن اللهجات السومرية ، الكاشية ، الحثية ، والاغريقية • وتستحوذ الرقم التي نقشت عليها الاشارات التصويرية ، جنبـاً الى جنب معادلاتها المعنوية في اللغة الآشورية الحديثة ، على اهمية خاصة بالنسبة لنا • ان حقيقة كون تلك الرموز التصويرية قد بطل استعمالها منذ اكثر من الفي وستمائة عام قبل ذلك التاريخ وانها نادراً ما كانت لتشكل اي قيمة عمليـة للآشوريين ، تقدم شاهداً آخر على تلهفهم للبحث المعرفي الخالص • وكان العلم عموماً يقع في مملكة الالــه « آنكي ــ ايـا » ، كما كان يحميه الاله « نبو » ابن الاله « مردوخ » ، بينما كانت الالهة « نسابا » « التي تحمل المرقم بيدها » تشرف على فن الكتابة الصعب ذي المنزلة المشرفة •

ولقد دفع نظام التربية هذا بالعلماء الآشوريين ــ البابليين الى تسجيل ملاحظاتهم وتقديمها الى زملائهم وطلابهم بهيئة قوائم ؛ فجاءت علوم وادي الرافدين في حقول علم الحيوان والنبات والمعادن مثلا على شكل مفردات، رتبت ترتيباً يشوبه الارتباك على الرغـم من ان تلـك العملية كانت تمثـل محاولة جادة لتصنيف مادة علمية ضخمة(11) •

وتتألف اغلب النصوص الجغرافية من قوائم بأسماء البلدان والجبال والانهار والمدن بالاضافة الى خطوط المواصلات الثمينة جدا للمؤرخ خصوصا عندما تؤشر تلك الطرق المسافات بين المدن بمقياس « بيرو » (ستة اميال تقريباً)(*) • ولم تكن هناك ، على حد علمنا ، خرائط حقيقية ، غير انه تم العثور على تصاميم لحقول ومدن أكثرها أهمية هو تصميم مدينة نفر الذي يوازي بدقته روائع مسوحات الآثار التي نفذها علماء الآثار المعاصرون• كما نمتلك لهم ايضا « خارطة للعالم » بدائية الاخراج مرسومة على الطين يعود تاريخها الى القرن السادس ق • م وتتمثل الارض فيها بسطح مستو يحده محيطياً « النهر المر » وفي الوسط يسير نهر الفرات • وعلى الجهات الاربع للبوصلة يجري ذكر اسماء بلدان غير معروفة بكلمات مقتضبة • وفي اقصى الشمال ، جرت الاشارة الى بلد يدعى « الارض التي لا ترى الشمس مطلقاً » والذي يوحي لنا بان البابليين كانوا قد سمعوا بالشتاء القطبي المظلم(12) • واذا ما طرحنا جانباً الحوليات الملكية والكتابات المحفورة على الابنية ـــ والتي لم تكن في الحقيقة لتصور الحوادث التاريخية بشكل متجرد بل كانت نصوصاً دونت لاغراض الدعاية وللوفاء بالنذور ـــ فاننا نجد ان التاريخ الواقعي قد جرى تقديمه مجدولاً (على شكل جداول) : فهناك قوائم باسماء الملوك وكبار رجالات الحاشية والعوائل النبيلة ، كما ان هناك ايضا قوائم تزامنية و ••• الخ • وحتى التواريخ البابلية المتسلسلة الاحداث ـــ والتي هي اقرب ما تكون من السرد القصصي لاخبار تاريخية متعاقبة ـــ فلم تكن في الحقيقة اكثر من قوائم باحداث حقيقية جرى تطويرها في اطار سردي• وتتوفر لدينا ايضا جداول رياضية وفلكية وقوائم طبية للاعراض المرضية المختلفة وتكهنات بالاختلاطات المحتملة للامراض ، هذا اذا لم نشأ التحدث عن قوائم بالالهة ، المعابد ، الاعياد ، نذر الشؤم ••• الخ • وكثيرا ما يطلق على علوم وادي الرافدين ، بشيء من السخرية ، اسم « علم القوائم » • غير

(*) او خمسة اميال ونصف الميل •

ان من الواجب ان نؤكد هنا على ان التعليم كان في واقعه العملي شفهيا فقط ، وان الوثائق التي بقيت لنا ليست اكثر من « كتيبات » او « ملازم جيب » فحسب ولا يجب الحكم عليها باعتبارها مناهج مدرسية . وليس هناك من شك في ان الآشوريين والبابليين كانوا يعرفون معلومات أكبر بكثير مما يبدو منعكساً في كتاباتهم لاول وهلة . وكمثال على ذلك فان نقل ونصب كتل كبيرة من الحجارة وشق القنوات الطويلة لسحب المياه يستوجب بالاساس التسليم بوجود معرفة متقدمة لعدة قوانين فيزياوية ، كما قد جرى تطبيق ناجح لبعض مبادىء الكيمياء في تحضير العقاقير والاصباغ وفي صنع الزجاج الملون ولآجر المطلي بالميناء . وبالاضافة الى هذا ، وعلى الاقل في حقلين علميين مهمين هما الرياضيات والفلك فان بوسعنا التعرف عن كثب على طبيعة التركيب الذهني الذي هيمن على التطور العلمي ، ففيهما بالضبط تتبين اعظم الانجازات التي قدمها وادي الرافدين في ميدان تطور العلوم .

الرياضيات والفلك

نستنبط معلوماتنا عن رياضيات وادي الرافدين(13) من صنفين من النصوص : قوائم الاعداد المرتبة بانماط متنوعة (سلاسل الجمع والطرح وجداول الضرب والقسمة .... الخ) ، وتمارين الاسئلة . ومما يثير الدهشة ان الجزء الاكبر من تلك المسائل الرياضية هو عبارة عن تمارين أعدت للطلاب المتقدمين (او حتى كرياضة فكرية محضة) ولم تكن ـ كما يمكن للمرء ان يتوقع من مجتمع ينعت بـ « البدائية » او « القدم » ـ تتعلق بمسائل معمارية او مساحية او غيرهما من المواضيع ذات الاهمية العملية . وتوضح لنا الامثلة التالية هذه الحقيقة بشكل جلي :

مسألة رقم واحد :

« وجدت حجراً ولكنني لم اقم بوزنه ، ثم أضفت $\frac{١}{٧}$ (وزنه) الى $\frac{١}{١١}$ (وزنه) ووزنته فكان ماناً واحداً . فما كان الوزن الاصلي له ؟ كان وزنه : ماناً واحداً ، ٨ شيقلات و $\frac{١}{٢}$ ٢٢ « خطأ . »(14) .

مسألة رقم اثنين :

« لو طرح عليك احدهم هذا السؤال : قمت بحفر مساحة مربعة الى عمق يساوي طول ضلعها واستخرجت (منها) « موساروا » واحداً (٣٦٠) ونصف (حجم) من التراب وجعلت قاعدتي (الارضية) مربعة فكم هو العمق الذي وصلت اليه ؟ » « عليك في حلك ان تتعامل مع العدد ١٢ . خذ متبادل العدد ١٢ واضربه في (٠و٠و٣٠ر١) الذي هو حجمك وستجد ان الناتج يساوي (٠ر٣٠ر٧) . ما هو الجذر التكعيبي للعدد (٠ر٣٠ر٧) ؟ انه (٣٠) . اضرب (٣٠) في (١) وستجد ان الحاصل هو (٣٠) . ثم اضرب (٣٠) في (١) وستجده (٣٠) أيضا . اضرب (٣٠) في (١٢) وستجده (٠ر٦) (اي ٣٦٠) . (اذن) (٣٠) هو (طول) ضلع مربعك و (٠ر٦) (٣٦٠) هو عمقك . »(15) .

وتظهر لنا الجملة التي تقدم المسألة الاولى بأنها افتراضية تماما . وقد أعطي الجواب في خاتمتها اما الطريقة التي اتبعت للتوصل الى اعطاء الجواب فيجب ان تكون قد أوضحت شفوياً من قبل المعلم . اما المسألة الثانية فهي على العكس من الاولى حيث تم فيها تطوير طريقة الحل خطوة فخطوة . وسنرى بعد ذلك ان الرياضيين البابليين قد استخدموا الجذور التكعيبية بمهارة ومنذ عهد مبكر في القرن الثامن عشر او السابع عشر ق . م والذي هو تاريخ الرقيم الذي وجدت فيه هاتان المسألتان . كما كانوا يلمون طبعاً

بالجذور التربيعية واستطاعوا حساب الجذر التربيعي للعدد (٢) بدقة فائقة حيث لم يرتكبوا في احتسابه سوى خطأ جد صغير اذ اعتبروه (١ر٤١٤٢١٣) بدلاً من الرقم الصحيح (١ر٤١٤٢١٤) • وكانت الحسابات في رياضيات وادي الرافدين تتميز بسجيتين رئيستين : اولاهما انها كانت تعتمد نظام عد ستيني وثانيهما استخدامها لنظام قيمة مرتبي (مكاني) فريد في التاريخ القديم حيث استخدمت كل انظمة الاعداد القديمة ـ بضمنها النظام الروماني ـ الطريقة التجاورية • فوفقا لنظام العد المستخدم في وادي الرافدين كانت قيمة اي رقم معطى تختلف طبقاً لمكانه في العدد المكتوب • (هذا هو نفس الشيء الذي نفعله نحن عندما نكتب مثلا الرقم ٣ر٣٣٣ الذي يعني ٣٠٠٠ ، ٣٠٠، ٣٠، ٣ على التوالي) • ولقد كان للنظام الستيني ونظام القيمة المرتبية افضليات جمة واضحة في حل العمليات الحسابية • ولكن ، ولسوء الحظ ، فقد استخدم النظام العشري ايضا داخل وحدات النظام الستيني نفسه ، كما لم يكن الرقم (صفر) معروفاً حتى العصر السلوقي • ولذلك فان تفسير المسائل الرياضية تكتنفها صعوبات حقيقية حتى بالنسبة للمتخصصين ، وعلينا لذلك ان نفترض بان الطلاب كانوا يزودون على الدوام بالتعليمات الضرورية للحل بصورة شفوية •

والنقطة الاخرى التي تستحق التأكيد هي ان علماء الرياضيات البابليين كانوا يفضلون طرق الحل الجبرية (دون استعمال الرموز) على استخدام طريقة الحساب البسيطة • وتظهر حدود الكثير من مسائلهم انها يمكن ان تحل فقط بعملية مقابلة تستخدم معادلات من الدرجة الثانية • فمسألة مثل:(16)

« قمت باضافة (٧) امثال ضلع مربع لي مع (١١) امثال سطحه فكان الحاصل (٦ر١٥) (في العد الستيني) • اكتب (٧) و (١١) » •

تفترض طبعاً هذه المعادلة :

١١ س^{٢} + ٧ س = ٦ر١٥

ويظهر كذلك من الرقم الطينية ان البابليين كانوا ضليعين بالدالات وان حساباتهم قد تضمنت في بعض الاحيان علاقـــات لوغاريتمية ، اسسية ، وسلسلية ، كما كانوا ولوعين بالتفكير المجـرد ويحبون الارقام لنفسها شبه متناسين فوائدها العملية • ولهذا السبب فقد كانت هندستهم اقل تطوراً من الجبر •ومع انهم كانوا قد احاطوا ببعض الخواص الاساسية للمثلث والمستطيل والدائرة ، الا انهم فشلوا تماماً في محاولتهم لتوضيحها ، كما كانوا يحسبون مساحات السطوح المتعددة الزوايا واضلاعها بتخمين تقريبي • وعندما تظهر الاشكال الهندسية على الرقم الطينية فان القصد منها عادة هو تصوير مسائل حسابية وبعكس الاغارقة ، فقد كان البابليون أقل اهتماماً بخواص السطوح والخطوط والحجوم من اهتمامهم بالحسابات المعقدة التي اوحت بها علاقاتهم المتقابلة مع بعضهم •

ولقد وجدت الرياضيات في الفلك ميداناً رحباً للتطبيق واعطت العلم الاخير درجة عالية من الدقة لم تدان ابداً في التـاريخ القديم(17) • كـانت حاجة سكان وادي الرافدين الى دراسة حركات الاجرام السماوية تتـأتى من اهتمامين ملحين هما علم ماوراء الطبيعة ، والكرونولوجيا (علم تقسيم الزمن الى فترات وتعيين تواريخ الاحداث وفق تسلسلها الزمني) • وطبقا للمبدأ السائد الذي مؤداه انعكاس احداث السماء على الارض ، فقد كان يعتقد انه اذا ما تم التعرف على احوال الالهة والملوك والبلدان عن كثب وهي في اصولها السماوية على الكواكب ومجاميع النجوم ، واذا ما اصبح ممكنـاً التنبؤ بعلاقاتهم مع بعضهم فسوف يكون من الممكن ايضا التنبؤ بالمستقبل الخاص بالارض وتلطيف نوائبه الى درجة ما • ومن هنـا جاءت روحيـة الشكوكية المأساوية التي تحددت بها اسس فلسفة أرض الرافدين القديمة • ولهذا فقد كان التنجيم هو اساس علم الفلك على الرغم من ان الاسلوب الذي اتبع في الدراسة لم يكن متحجراً ابداً بل كان يترك المجـال مفتوحاً امـام

الابداعات الالهية والبشرية على حد سواء ، ولم تظهر خرائط البروج المحددة الا في العهد الاخميني • ومن الناحية الاخرى فقد توجب على سكان وادي الرافدين ايجاد حل لمشكلة التقويم القمري حيث كان قد جرى تبني دورة القمر الشهرية منذ اقدم الازمان كوسيلة ملائمة لقياس الزمن • وتبدأ السنة الجديدة وفق هذا التقويم مع ظهور اول قمر جديد عقب الاعتدال الربيعي وتقسم الى اثني عشر شهراً لكل منها تسعة وعشرون او ثلاثون يوما • ويبدأ كل يوم مع غروب الشمس ويقسم الى اثنتي عشرة « ساعة مزدوجة » (بيرو) والتي تقسم بدورها الى ستين « دقيقة مزدوجة » • وهذا هو بالطبع نفس النظام الذي ما نزال نستخدمه الى يومنا هذا والذي ندين بفضل اكتشافه الى البابليين • ولسوء الحظ فان السنة القمرية هي اقصر من السنة الشمسية باحد عشر يوما تقريبا ، لذلك فقد كان التفاوت بين كل سنتين يبلغ فترة فصل كامل بمرور كل تسع سنين • وبالاضافة الى هذا ، فقد كان الشهر القمري يبدأ عند المساء حينما يهل الهلال الجديد لاول مرة • ولكن سكان العراق يعرفون جيدا حقيقة ان السماء الشرقية ليست صافية على الدوام مثلما يتصورها الاوربيون وان الغيوم والغبار والعواصف الرملية يمكن ان تجعل من عملية رؤية الهلال مسألة مستحيلة • اذن كيف كان بمقدور الفلكيين في البلاط تقرير وقت ابتداء الشهر الجديد ، وكيف كان باستطاعتهم حساب التاريخ المضبوط ووقت بداية اي شهر مقدماً ؟ وبكلمة اخرى ، وباعتبار ان حركات القمر ترتبط بتلك التي تعود الى الشمس ، ما هي قوانين الدورة القمرية والدورة الشمسية ؟ ان النتائج المثيرة للدهشة والعجب التي توصل اليها الفلكيون العراقيون القدماء في هذا الحقل لم تنتج ابداً من دقة وكمال آلاتهم حيث لم تكن تلك لتزيد على المزولة الشمسية والساعة المائية وآلة البولوز (آلة تسجيل الظل المنعكس بواسطة كرة صغيرة معلقة فوق نصف كرة) ، بل كانت بسبب الملاحظة الدقيقة واستخدام الرياضيات لاستقراء المعلومات المستحوذة بالملاحظة • فمنذ وقت مبكر استطاع الفلكيون في العراق تحديد

« طـرق » الشمس والكواكب السيارة وقسمت الى اثنتي عشرة « محطة » والتي قسمت بدورها الى ثلاثين درجة (وهذا هـو أصـل دائـرة البروج Zodiac) •ولدينا ملاحظات عن كوكب الزهرة (عشتار) كتبت في عهد سلالة بابل الاولى ونماذج مفصلة للنجوم تعود الى القرنين الثامن والسابع ق • م • ولم يمض طويل وقت حتى أصبح بالامكان التنبؤ بخسوف القمر وبكسوف الشمس ايضا وبدرجة مضبوطة نوعا ما • ولعدة قرون • جـرى حـل المشكلة المتأتية من التفاوت الحاصل بين السنة الشمسية والقمريـة بشكل تحكمي حيث كان الملك يقرر كبس (اضافة) شهر او شهرين الـى السنة • وفي القرن الثامن ق•م ، استطاع الفلكيون العراقيون التوصل الى حقيقة ان كل (٢٣٥) شهرا قمريا يؤلف بالضبط تسع عشرة سنة شمسية • لذلك ، ونزولا عند نصيحتهم ، فقد امر الملك نبوناصر عام ٧٤٧ ق • م بكبس سبعة أشهر في تسع عشرة سنة قمرية ، واصبح « تقويم نبو ــ ناصر » الاساس المعتمد خلال السنوات ٣٨٨ــ٣٦٧ ق • م • (18) وفي غضون ذلـك بذلت جهود كبيرة لتنظيم تقاويم فلكية قمرية ــ شمسية ــ كوكبية • ولقد جاءت جداول الاهلة والاقمار وخسوفاتها المرسومة من قبل « نبو ريماني » (يسميه سترابو: نبوريانوس) في بداية القرن الرابع ق•م صحيحة بشكل لا يصدق (19)• ثم قام « كدينّو » (سيديناس) ــ وهو أعظـم الفلكيين البابليين قاطبة ــ والذي زاول نشاطاته الفلكية حوالي عام ٣٧٥ ق • م ــ باعطاء الامـد المضبوط للسنة الشمسية بخطأ لا يزيد على أربع دقائق و ٣٢٫٦٥ ثانيـة • لقد كان خطأه في حساب قيمة حركة الشمس من نقطة تقاطع المدارين أقل في الحقيقة من الخطأ الذي ارتكبه الفلكي المحدث « أوبولتزر » عام ١٨٨٧ م (20)•

الطب

لايمكننا طبعاً توقع دقة عالية في الطب فقد كان ما يزال يعتبر فناً أكثر منه علما ولم يبلغ شأوى علم الفلك• الا ان طب وادي الرافدين جدير بالدراسة

والاهتمام لاسباب رئيسية ثلاثة : اولهما لكونه جاء معززاً بالوثائق المسهبة ، وثانياً لانه كثير الامتاع ، واخيراً لانه غالبا ما أبتلي بسوء الفهم .(21)

اعتقد سكان وادي الرافدين بان المرض هو بمثابة عقوبة تسلطها الالهة على البشر جراء آثامهم(*) . وينبغي هنا فهم كلمة « الاثم » بمدلولها الواسع الذي يغطي ، علاوة على الجنح والجرائم الخلقية ، الهفوات الصغيرة ، واغفال اداء الطقوس الدينية ، او التجاوز غير المتعمد على بعض المحرمات . ولقد كان الاعتقاد السائد وقتذاك هو ان بوسع الآلهة المهانة ان تضرب بشكل مباشر لذلك نجد أن شريعة حمورابي واحجار الحدود البابلية والمعاهدات السياسية كلها تطلب الى الالهة بانزال جميع ضروب « الدواهي الخطيرة » و « العلل المميتة » بحق كل من تسول له نفسه اتلاف او تحريف الوثيقة . كما كان بمقدور الكهنة والاطباء على حد سواء تمييز « يد » مختلف الالهة من الاعراض الظاهرة على المرضى . وكان بمستطاع الالهة من جانبها ان تطلق يد الابالسة فتستحوذ على الشخص المصاب ويهاجم كل ابليس منهم عضواً معينا من جسده ويستمرؤه على غيره . كما كان بامكانها جعل الرجل او المرأة تخر صريعة لنوبة يسلطها ساحر او ساحرة(22) . اذن فقد كان المرض عند سكان وادي الرافدين القدماء ، جوهرياً ، انعكاساً ظاهراً لعيب خلقي خفي ما ، وشارة سوداء ولعنة تجعل الانسان نجساً من الناحية الروحية بالاضافة الى كونه غير سليم جسدياً ، ولما كانت علة الروح تقتضي الركون الى التطبيب الروحي لذلك فقد كان العلاج المطبق في اغلب الاحوال ذا منحى سحر — ديني . فكان يطلب الى كاهن الـ « بارو » او العراف ان يعمد الى اكتشاف الذنب الكامن المسؤول عن اثارة حنق الآلهة متوسلاً بكل الطرق التي في متناول يده . كما كان كاهن الـ « اشيبو » يتكفل بطرد الشياطين باستثمار الطقوس والتعازيم السحرية ، ويجري استرضاء الآلهة باقامة الصلوات وبتقديم القرابين .

(*) كما آمنوا ايضاً بامكان ان يتسبب المرض نتيجة لـ « عين شريرة » سلطها احد الرقاة من (البشر) .

ولو كان طب وادي الرافدين يقتصر على التطهير الروحي فحسب لما استحق اسمه هذا • ولكن الدراسات المستنفذة الواسعة التي اجريت مؤخرا للنصوص التي نمتلكها استطاعت الكشف عن جانب آخر مختلف تماماً • فقد اثبتت تلك الدراسات وجود اطباء حقيقيين في بلاد واي الرافدين استطاعوا ، على الرغم من ايمانهم بالاصل ما فوق الطبيعي لاكثر الامراض ، ادراك وتمييز مسببات الامراض الطبيعية كالتربة والقاذورات والطعام والشراب وحتى العدوى • وكان هؤلاء ينصحون مرضاهم في بعض الاحيان بالذهاب لاستشارة كهنة البارو والاشيبو ، ولكنهم كانوا على الدوام يلاحظون اعراض الامراض باهتمام زائد ويبينون حقيقة كونها عوارض جانبية ام امراضاً ، ويستخدمون العلاجات الكيماوية أو الاداتية • وهكذا ، والى جانب الطب الكهنوتي السحر ــ ديني (اشيبوتو) ، كان يوجد على الدوام طب آخر عقلاني الطابع مفيد (اسوتو) •

لم يكن الطبيب (آسو) كاهنا ولا ساحراً بل كان شخصاً معتبراً ينتمي الى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى للمجتمع الآشوري ــ البابلي • وكان يمضي اعواماً عديدة في المدارس لتعلم العلوم الاساسية لعصره ، كما كان يتوجب عليه التدريب لعدة سنوات اخرى مع زميل اقدم يحيط خلالها باسرار فنه • وقد قامت شريعة حمورابي التي كرست تسعة قوانين للطب (او للجراحة بالاحرى) بتحديد سعر اجراء العمليات المعنية وقضت ببتر اليد وحتى بالموت على الاخطاء الوظيفية الجسيمة مما يعطي انطباعاً بان مهنة الطب كانت خاضعة لسيطرة الدولة ويلقي ظلالاً من الشك على كفاءة ممارسيها من الاطباء ، غير ان تلك القوانين لم تكن اكثر من نماذج او امثلة لقرارات اتخذت في حالات استثنائية ولا يوجد ما يثبت انها قد دخلت حيز التطبيق الفعلي قطعاً • وفي الحقيقة فقد حظي الاطباء في كل العصور باحترام وتقدير عاليين ولعلهم كانوا يحددون اجورهم بانفسهم • وكان الطلب على مشورتهم

عالياً اذ نعرف ان البلاطات الملكية كانت تتبادل الاطباء مع بعضها حيث نجد ان « تشراطا » ملك ميتاني قد قام في القرن الرابع عشر ق • م بارسال اطبائه الى بلاط الفرعون امنوفيس الثالث ، كما بعثت بابل باطباء منها الى العاهل الحثي « حاتوسيلس » الثالث (١٢٧٥ ــ ١٢٥٠ ق • م) •

وبحوزتنا عدد غفير من القوائم في اعراض الامراض والوصفات الطبية التي دونت من قبل الاطباء ، علاوة على عدد من الرسائل الموجهة اليهم او المرسلة من قبلهم • ولقد استطاع البروفسور « لابات » اعادة بناء « رسالة » متكاملة عن الطب التشخيصي والتكهني(23) تأسيساً على عدة رقم خطت بين القرنين الثامن والخامس ق • م وتعود الى نفس المجموعة • وتستغرق هذه الرسالة متن اربعين رقيماً قسمت الى فصول خمسة كرس الفصل الاول منها الى طاردي الارواح الشريرة فيقدم ترجمة للعلامات المنذرة بالويل والتي يمكن ملاحظتها في الطريق الى بيت المريض :

« عندما يتوجه طارد الارواح الى دار المصاب ••• فيشاهد خنزيراً اسود اللون فان ذلك المصاب سيلاقي حتفه ؟ (او) سيشفى بعد عناء شديد •••• واذا شاهد خنزيراً ابيض اللون فان المريض سيبل (او) يمتحن •••• اما اذا رأى خنزيرا احمرا فان ذلك المريض سوف (يموت ؟) في الشهر الثالث (او) في اليوم الثالث •••• »(24)

ويلي ذلك وصف مختلف الاعراض المرضية التي جمعت مع بعضها حسب الاعضاء الجسمية او الاعراض المتزامنة او الامراض ، وحسب ترتيب ظهورها • وكرست المجموعة الاخيرة الكائنة في ستة رقم للامراض النسائية وامراض الاطفال • وجرى التأكيد في كل هذه الرسالة على التكهن اكثر من التشخيص

، ولم تذكر العلاجات الضرورية الا فيما ندر . وهناك نصوص طبية اخرى او مجاميع من نصوص عالجت امراضاً لاعضاء معينة من الجسم فقط ، كما اهتم البعض الآخر منها بفن التطبيب بشكل خاص . وفيما يلي بعض الأمثلة المختارة من بين الامراض التي يمكن تشخيصها في الحال :

الصرع Epilepsy :

« اذا كان عنق (المريض) ملتوياً على الدوام نحو اليسار ، واذا كانت اطرافه العليا والسفلى ممتدة ، واذا كانت عيونه شاخصة نحو السماء وواسعة الانفتاح ، واذ سال اللعاب من فمه ، واذا كان يشخر ، واذا فقد وعيه ، واذا ، في النهاية .... فهي نوبة « مرض شديد » ، يد « الاثم » .(25)

حصاة المثانة Vesical Calculus

« اذا .... لثلاثة ايام كانت عنده حصاة في المثانة (ابان موشتيني) فعلى هذا الشخص ان يشرب البيرة . (وهكذا) فان الحصاة ستتفتت ، واذا قام هذا الشخص ، بدلاً من شرب البيرة ، بتناول كمية من المياه ، فسوف يذهب الى مصيره (اي يموت) . »(26)

اليرقان الشديد Icterus gravis

« اذا كان جسد المريض اصفر ، ووجهه أصفر ـ مسوداً وسطح لسانه اسود ، فانه « آحازو » ... ولمثل هذا المرض لا ينبغي للطبيب عمل اي شيء لان هذا الشخص مائت لا محال ، فمن غير الممكن شفاؤه »(27) .

وبينما كان تشخيص واستشراف الامراض من قبل اطباء وادي الرافدين يتمثل في مزيج من الخرافة والملاحظة الدقيقة ، الا ان فن التطبيب عندهم لا علاقة له بالسحر . واقدم مجموعة ادوية معروفة لدينا هي جمهرة من وصفات طبية يعود تاريخها الى سلالة اور الثالثة(28) تورد طرق تحضير دهونات وغسول واخلاط من مواد معدنية ونباتية ؛ وهي تركيبات بقيت تستخدم على مر العصور وحتى قبل مائتي ، او ثلاثمائة عام قبل يومنا هذا . وكان المرضى يتعاطون العقاقير الطبية بكل الطرق والاشكال الممكنة ، خلال الزرق . فقد كانت هناك استخدامات طبية للمخاليط والكمادات ، الحقن ، الجرع ، المستنشقات ، المبخرات ، المقطرات ، المراهم ، المروخات ، والمحملات (الفتائل) . وكثيراً ما يتعذر علينا تشخيص بعض من النباتات الطبية والاملاح التي استخدمت في تركيب العقاقير . ولكن ، وفي بعض الحالات ، فقد امكن التعرف على عدة مواد بقيت تستعمل حتى وقت قريب ، كما ان بعضها ما يزال قيد الاستعمال لحد الان في مختلف الصيدليات . ففي الوصفة التالية مثلاً ، يجري استخدام الافيون عن طريق الفم مع المهدئات لمعالجة احتباس البول :

« إطحن بذور الخشخاش بالبيرة واجعل المريض يشربها ؛ ثم إطحن بعض المر (صمغ راتنجي) وامزجه بالزيت ثم انفخه في احليله بانبوبة من البرونز واعطه شقاراً (شقائق النعمان) مطحوناً مع البيرة (من صنف) الاپانو . »(29)

وفيما يلي وصفة معقدة وان كانت معقولة استخدمت في حالة « تضيق الرئتين »:

« خذ أجزاءً من كلوة خروف ، نصف « كا » من التمر ، (١٥) كيسال من زيت شجر التنوب ، (١٥) كيسال من زيت شجر الصنوبر ، (١٥) كيسال من القار ، (١٣) كيسال من الاوبوباناكس ؟ ، (١٠) كيسال من راتنج الجلبينة ، (٧)

كيسال من الخردل ، (٢) كيسال من النراح (صنف من الحشرات) .... إسحق هذه العقاقير في هاون واخلطها مع الدهن والتمر . اسكب الخليط على جلدة غزال وإطوها ثم ضعها على المنطقة المؤلمة واتركها ثلاثة ايام . وفي خلال ذلك ، على المريض ان يشرب البيرة الحلوة ويتناول الطعام الساخن جداً وان يمكث في مكان دافيء . وفي اليوم الرابع ، ازل الكمادة ... الخ))(30)

وفي بعض الاحيان كان الطبيب يعمد الى تقديم نصائحه المؤثرة في طريقة تطبيق علاج ما.ففي رسالته الى آشور بانيبال،يشرح الطبيب الشخصي للملك « آراد ــ نانا » وجهة نظره في علاج الرعاف :

((اما فيما يتعلق بنزيف الانف .... فلم يجر استخدام الضمادات بشكل مناسب اذ وضعت على جانب الانف بحيث تتدخل باستنشاق الهواء وينساب الدم الى الفم . ينبغي غلق الانف حتى نهايته لحجز دخول الهواء و (عندئذ) سيتوقف النزف .))(31)

ولا يستطيع الاطباء المعاصرون تغيير كلمة واحدة من هذه الاجراءات .

واخيراً يتوجب علينا ذكر نص مدهش طبع حديثاً يثبت ان سكان وادي الرافدين ، على العكس من الاعتقاد السائد ، كانت لديهم تصوراتهم عن علم حفظ الصحة والطب الوقائي . كتب زمري ــ ليم ملك ماري الذي عاش في القرن الثامن عشر ق . م الى زوجته « شبتو » يخبرها :

« بلغني ان السيدة « نانامي » قد اصابها المرض ، وبما ان لديها صلات عديدة مع اهل القصر وتستقبل عدة سيدات في قصرها، لذلك يجباصدار اوامر صارمة بعدم الشرب في الكأس الذي تشرب فيه ولا يجب ان يجلس احد على المقعد الذي تجلس عليه او ينام في السرير الذي تنام فيه . ويجب منعها من استقبال عدد كبير من النساء في بيتها لان مرضها معد (صابتو : حرفيا « ماسك ») . »(32)

اذن ، وعلى الرغم من تسربله بالخرافة ، فقد تميز طب وادي الرافدين ببعض سمات العلم الايجابي الناجع ، وهو العلم الذي انتقل الى الاغارقة وعبّد الطريق مع الطب المصري للقيام بالاصلاح الابقراطي العظيم للطب في القرن الخامس ق . م . وعلى الرغم من انه قد استمر قائماً لمدة الفي عام ، الا انه لم يحرز غير تقدم جد بطيء..فقد اقام اطباء وادي الرافدين،شأنهم شأن فلكية، اسس فنهم على مبادىء ماورائية (ميتافيزيقية) فأوصدوا بذلك الابواب امام البحث المثمر عن تفسيرات عقلانية لمنشأ الامراض . لقد اكتشفوا أجوبة للكثير من اسئلة « متى » و « ماذا » يمرض الانسان ، غير ان الفضول كان يعوزهم ليسألوا أنفسهم « كيف » و « لماذا » يمرض الانسان . ولم يجربوا مطلقاً تأسيس النظريات في هذا المجال بل كرسوا جل اهتمامهم ، بتواضع ، وربما بحكمة ايضاً ، لجمع المعلومات . وبعد ، فان لمن الانصاف ان نقرر هنا انهم كثيراً ما تجاوزوا في انجازاتهم تلك غيرهم من علماء الشرق القديم .



الفصل الثالث والعشرون

الملوك الكلدانيون



ما ان حل عام ٦١٢ ق • م ، اي بعد مضي فترة تقل عن ثلاثين عاماً على احتفال آشور بانيبال بنصره الكبير ، حتى قوضت النيران قصـــور نينـــوى العظيمة وسقطت معها الدولة الآشورية • بعدها اصبح ملوك بابل الكلدانيين ـ الذي كانوا مع حلفائهم الميديين وراء كل ذلك الدمار المفاجيء القاســي الحاسم ـ الاسياد المطلقين على وادي الرافدين • وشهد عصرهم عمرانا هائلا في القسم الجنوبي من العراق وغدت بابل ـ وهي الان اجمل وأكبر مدينة في الشرق الادنى ـ مركزاً لحركة نهضة معمارية ، فنية ، أدبية ، وعلمية واسعة النطاق • وبدا الامر وكأن نينوى جديدة اخرى قد ولدت في ارض العراق • وبالفعل فان حملات نبوخذنصر الثاني في الغرب توحي بان امبراطورية بابلية كانت على وشك الحلول محل الامبراطورية الآشورية البائدة • ولكـــن « العصر البابلي الحديث » المتألق كان قصير العمر فقد جاء بعد آخر ملـوك العراق العظام امراء ضعاف ما كانوا بمستوى المسؤولية ولم يستطيعوا الوقوف بوجه الخطر المريع للعدو الجديد الذي ظهر في الشرق • ولم يطـل عـــنم

(٥٣٩ ق • م) حتى سقطت بابل دون مقاومة تذكر في يد الملك الفارسي المنصور « كورش » •

تلك ، ببساطة مأساوية ، هي الحوادث التي ستستغرق الفصل الاخير من تاريخ وادي الرافدين كبلد مستقل والتي يجب ان تتناولها الان بالشرح المفصل •

سقوط نينوى

تتوقف حوليات آشور بانيبال الرسمية عن الظهور بغتة بعد عام ٦٣٩ ق • م تاركة سني حكمه الثمانية الاخيرة تقبع في ظلام دامس • ولا يعرف السبب وراء ذلك الصمت المفاجيء وان بدا انه عائد الى خليط من الحروب الاهلية والانتكاسات العسكرية • ويذكر لنا هيرودوت ــ الذي يبقى عملياً مصدرنا الوحيد للمعلومات عن هذه الفترة ــ ان فراورتس ملك ميديا قد اغار على الآشوريين وانه قد لقي حتفه في المعركة ضدهم ليخلفه « كي ــ أخسار » (اوڤار خشاترا) • ولم يمض طويل وقت حتى هيمن السيثيون على الميديين واجبروهم على دفع الجزية مدة ثمانية وعشرين عاما • وقام اولئك الفرسان القساة بالانتشار في تضاعيف جبال زاگروس وشنوا الغارات على الدولة الآشورية وعلى سوريا وفلسطين • وكان بوسعهم دخول مصر لولم يقدم فرعونها بسامتيكوس على رشوتهم اتقاء لشرهم • ولكن كي أخسار استطاع اخيراً ان يستعيد حرية شعبه بقتله الزعماء السيثيين السكارى اثناء وليمة • ويذكر هيرودوت وهو يشير الى حرب اخرى ان هجوماً ميديا على نينوى قد تم صده بمعاونة جيش سيثي ، وهذا امر قابل للتصديق خصوصاً اذا عرفنا ان آشور بانيبال كان قد تحالف مع الزعيم السيثي « ماديس » •(1) ويبدو ان كل تلك الحوادث قد جرت خلال الاعوام ٦٥٣ (تاريخ مقتل فراورتس) و ٦٣٠ ق • م • اما اي اثر تركته تلك الحوادث على كيان الدولة الآشورية

فهو امر لا يخبرنا به هيرودوتس • ولكن اذا كان خبره عن انتهاك السيثيين لارض آشور صحيحاً ، فان حقيقة اقتدار هؤلاء البرابرة على المرور عبر كامل تراب الامبراطورية والعودة الى موطنهم بسلام تقدم اثباتاً ساطعاً عن حالة الوهن الشديد التي لحقت بالجيش الآشوري • وبدون شك فان مفتاح الكارثة الاخيرة التي انتهت اليها فترة الاعوام (٦١٤ــ٦٠٩ ق• م) يكمن في هذه السنوات الغامضة •

وتسند الاضطرابات التي نشبت في اجزاء الامبراطورية اثر موت آشور بانيبال عام ٦٢٧ ق • م احتمال اندلاع حرب اهلية • ولقد توجب على خليفة آشور بانيبال ــ وهو ابنه المدعو « آشور ــ تل ــ ايلانى » (آشور بطل الالهة) ــ سحق عصيان مضاد قبل ان يظفر بالعرش ، كما واجه عصيانا ثانيا قبيل نهاية فترة حكمه القصيرة • وفيما عدا هذا لا يعرف عن ذلك الملك سوى القليل من الاخبار نحو ترميم بعض المعابد واتخاذ مايدعى بـ «القصر المحروق» في نمرود مكانا للاقامة(2) • وربما كان قد تم تتويج اخيه المدعو « سن ــشار ــ إشكون » (الاله سن ثبت الملك) في عام ٦٢٣ ق•م، والذي يبدو انه قد واجه معارضة قوية من قبل مواطنيه(3) في الوقت الذي كان فيه الوضع السياسي خارج الدولة الاشورية يزداد حراجة باضطراد •

كان هناك القليل مما يمكن ان يثير القلق من جهة الشمال فقد كانت نشاطات مملكة اورارطوقد حجمت من قبل جاراتها القويات ، كما لم يبد السيمريون ــ وهم الان في ظل الهيمنة السيثية ــ أيما اشارة عن تبييت العدوان • اما « كي أخسار » في ايران فقد كان منهمكا بتنظيم جيشه وتحويله الى آلة حرب ضاربة • ومن « اكبتانا » (همدان) عاصمته كان يحكم منطقة « الميديات الثلاث » الممتدة من بحيرة اورميا الى منطقة طهران ، كما كان يهيمن بشكل غير مباشر على الفرس القاطنين الى الجنوب والغرب • اما المدن الفينيقية فيبدو انها كانت قد قطعت صلاتها بالدولة الآشورية

قبل فترة من الزمن ، كما كانت سلطة نينوى على فلسطين غير مؤثرة لدرجة ان « جو سياح » ملك يهوذا استطاع ان يوسع نطاق اصلاحه الديني ليمتد وقتذاك حتى منطقة السامرة في مملكة اسرائيل الزائلة(4) • غير ان الخطر المفاجيء جاء هذه المرة من جهة الجنوب حيث انتهز البابليون فرصة ضعف الاشوريين لاستئناف نضالهم التقليدي لنيل الاستقلال • كان « كندلانو » ـ الحاكم الذي نصبه آشور بانيبال على بابل بعد اخماد عصيان شمش ـ شم ـ اوكن ـ قد أشهر هو الاخر عصيانه • وبعد وفاته في عام (٦٢٧ ق • م) ، آلت قيادة الانتفاضة ضد الاشوريين الى حاكم القطر البحري المدعو « نبو ـ أپال ـ أسر » (نبوبلاسر) وهو آرامي من قبيلة الكالدو • ولم تفلح العساكر الاشورية المرابطة في نفر في الحاق الهزيمة به • وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ٦٢٦ ق • م ، وبعد عام من حروب العصابات(5) ، جلس نبوبولاسر على عرش بابل ومنذ ذلك اليوم ابتدأ الحكم الرسمي لسلالة بابل الحادية عشرة والاخيرة والتي يطلق عليها ايضا اسم « المملكة الكلدانية » او «المملكة البابلية الحديثة» • ولحسن الحظ فان سلسلة جديدة من الاخباريات البابلية تظهر مرة اخرى مع بداية تلك السنة مما يجعل بمقدورنا تتبع تاريخ بابل خطوة اثر خطوة ، بل وحتى يوما بعد يوم تقريبا ؛ كما تتكفل تلك الوثائق بتقديم تسجيل ثمين لقصة سقوط نينوى مع غيرها من المدن الآشورية(6) •

اشتملت وقائع الحرب الدائرة بين البابليين والآشوريين طوال احدى عشرة سنة (٦٢٦ـ٦١٥ ق • م) على سلسلة من الغارات والغارات المضادة استهدفت السيطرة على شبكة من المدن المحصنة التي تمركز فيها الاشوريون جنوب العراق • ولقد استطاع نبوبلاسر في النهاية الاستيلاء على مدينة نفر ذات الاهمية الستراتيجية وتحرير كامل بلاد سومر واكد • كما وقد بلغت به الجرأة حداً دفعه الى الزحف عام (٦١٦ ق • م) على امتداد الفرات حتى

منطقة حران وعلى طول دجلة حتى مدينة عرفه (كركوك) وآشور التي حاصرها ولم ينجح في دخولها • ولخطب ود العيلاميين الذين كانوا قد نجحوا حينذاك في استعادة حريتهم ــ اعاد لهم نبوبولاسر تماثيل آلهتهم المأسورة في بابل ولكنه فشل في دفعهم لتقديم العون العسكري له ، كما لم يكن ليتجرأ لوحده بشن هجوم شامل ضد غرمائه الآشوريين • اما « سن ــ شار ــ إشكون » الملك الآشوري الذي وجد نفسه في موقف الدفاع ورأى بام عينيه سلطته وقد تحداها البابليون على تراب وطنه فقد لجأ الى التحالف مع المصريين الذين رحبوا بتلك الفكرة لعدم نسيانهم انفلاتهم الضيق من الاجتياح السيثي قبل فترة وجيزة ، والذين كانوا يتابعون انباء تقدم الميديين في ايران وآسيا الصغرى بقلق متزايد • ولعل واقعة الاضطرار الى طلب الانقاذ من ارض مصر من قبل فاتحيها السابقين تظهر لنا مدى حراجة الموقف الذي وجد الاشوريون أنفسهم متكبلين فيه • غير ان المصريين ، على اية حال ، لم يستطيعوا تقديم مساعدة نشيطة لحلفائهم حتى الاعوام (٦١٢ــ٦١١ ق • م) اي بعد فوات الاوان •

وربما كان بمقدور الآشوريين التسليم بقبول الحكم الذاتي لبابل ، والتوصل واياهم الى اتفاق مرض للطرفين لو لم يقم الميديون ــ الذين تصرفوا بشكل مستقل ــ بالقاء ثقلهم في كفة الميزان السياسي ضدهم عندما اجتاحوا الاقليم الآشوري في عام (٦١٥ ق • م) واحتلوا عرفة • وفي الشتاء التالي زحفوا ضد نينوى ، وبدلا من الهجوم عليها ، تحركوا شمالا صوب آشور واحتلوها عام (٦١٤ ق • م) :

« قام (الميدي) بالاغارة على المدينة ••• ودك (؟) سور المدينة واعمل السيف بالقسم الاعظم من سكانها وسلبها ونقل معه منها الاسرى • »(7)

اما البابليون فقد وصلوا متأخرين بعض الشيء ليشاركوا في القتال ضد الآشوريين ، فالتقى نبوبولاسر بكي اخسار (يسميه البابليون « اوماكيشتار ») تحت اسوار مدينة آشور ، واقاما عهد الصداقة والسلام بينهما • وتوثق حلفهما بعد ذلك بزواج ابن نبوبولاسر ، نبوخذنصر ، بابنة كي اخسار « اميتس »(8) • ومنذ ذلك اللقاء فلاحقاً ، اصبح البابليون يقاتلون يداً بيد مع الميديين ، كما بات مصير الدولة الآشورية في كف عفريت •

قضى نبوبولاسر السنة التالية بشن حملات غير مظفرة على امتداد نهر الفرات ، ولم يتسن له ، حتى صيف عام (٦١٢ ق • م)، البدء بشن الهجوم على العاصمة الآشورية نينوى • دافع الآشوريون عن مدينتهم بقوة ، ولم يتمكن البابليون والميديون من التقدم في البداية الا ببطء شديد • واخيراً ، وبعد شهرين من الحصار المتواصل !

« شنوا هجوماً كاسحاً ضد المدينة في آب (تموز ـ آب) الـ •••• يوم ، فاحتلوا المدينة وانجزوا هزيمة الرئيس • وفي ذلك اليوم (قتل ؟) الملك الاشوري « سن شار اشكون » ، وحملت الغنائم العظيمة من المدينة والمعبد الذي حول الى تل (تلو) من الاطلال واكوام من الانقاض • »(9)

وعند نهاية عام (٦١٢ ق • م) كان قد تم تحطيم ثلاث عواصم آشورية هي آشور (العاصمة الدينية) ونينوى (المركز الاداري) وربما نمرود ايضا (مركز القيادة العسكرية) بالاضافة الى جميع المدن الآشورية الرئيسية الاخرى(10) • مع ذلك فقد بقي شبح المملكة الآشورية يمور فوق شمال العراق لمدة ثلاثة اعوام اخرى • فبعد مقتل سن ـ شار ـ اشكون ، جلس على العرش احد ضباطه تحت اسم « آشور ـ أبلط » ـ

وهو نفس اسم ذلك الملك العظيم الذي حرر بلده في القرن الثالث عشر من الهيمنة الحورية ــ الميتانية ــ فجمع حوله ما تبقى مــن الجيش الآشوري واعتصم في حران مع بعض الجنود المصريين الذين بعثوا متأخرين لتقديم المساعدة • وعندما زحف البابليون و « الامان ــ ماندا » « الميديون ؟ »(11) على حران ، ترك الجيش الآشوري ــ المصري المدينة والتجأ وراء الفــرات فسقطت المدينة في ايدي الميديين • وفي السنة التالية ، واثر فشل محاولة ثانية له لاستعادة سلطته ، اختفى اشور ــ أبلط •

هكذا ، وفي غضون فترة قصيرة لم تتعد السنين الثلاث ، هوى ، وبشكل مأساوي المــارد العملاق الذي جعل العالم يرتعب هلعا منه طيلــة ثلاثة قرون • اما نبوبولاسر فقد اكتفى بوصف ذكرى انتصــاره اللامع بكلمات وجيزة :

« ذبحت بلد السوباروم (آشور) وأحلت ارض العدى
الى اكوام ورميم •••
وارغمت الآشوريين ، الذين حكموا منذ زمن بعيد كافة
الشعوب والذين جلبوا باستبداهم الثقيل الاذى لشعب
الوطن ، على ترك (بلاد) اكد ، وخلعت نيرهم • »(12)

وعلى حد علمنا ، فلم يكلف احد نفسه عناء الجلوس على اطــلال نينوى المخربة ليبكيها بمرثاة معبرة(13) •

نبوخذنصر

لا يبدو ان الميديين قد طمعوا بالمملكة التي ساهموا باسقاطها فقد انسحبوا قانعين بحصتهم من الغنائم الى ما وراء سلسلة جبــال زاگروس وحولوا انظارهم صوب ارمينيــا وبقية انحــاء آســيا الصغرى • وبقي البابليون يسيطرون على القطر الآشوري بكامله ولكنهم لم يحتلوه ، كمــا

لم يصلحوا الخراب الذي سببوه لانهم كرسوا كافة جهودهم لانجاز النهضة الحضارية الدينية لجنوب العراق واكتفوا في مجال السياسة الخارجية ، بحماية حدودهم المتاخمة لجبال طوروس واخضاع سوريا وفلسطين . وكان البلد الاخير قد سقط بايدي المصريين حالما تملص من اسياده الآشوريين حيث قام الفرعون « نيخو الثاني » باجتياح فلسطين في محاولة متأخرة وغير مثمرة لانقاذ حلفائه الآشوريين فدحر جيش جو سياح ملك يهوذا ـ الذي حاول بحماقة الوقوف بوجهه(14) ـ عام (٦٠٩ ق . م) وقتله . ثم احتلت الجيوش المصرية كركميش ومعبر الفرات . وكانت السيادة على كركميش والهيمنة على الساحل الفينيقي وساحل سوريا مسألة جد حيوية تهم البابليين اكثر مما كانت تهم سابقيهم الآشوريين، فعملياً ، كانت كل تجارتهم قد اصبحت الآن قائمة مع الغرب . ولقد كان بوسع الملوك الكلدانيين التخلي عن كل مسعى لاعادة بناء الامبراطورية الاشورية ، كما كان بوسعهم التخلي للميديين عن البلدان الواقعة خلف جبال زاكروس وطوروس ، ولكن ما كان بمقدورهم التسليم بخسران المقاطعات الفينيقية الغنية ولا الرضوخ لمرأى حجب نافذتهم المطلة على البحر الابيض المتوسط من قبل المصريين . وتمتلىء عهودهم بحملات مستمرة على « بلاد حاتي » ، ولم تكن فتوحاتهم المزعومة في تلك المنطقة غير صراع لا ينتهي لتأمين المصادر الحيوية للرفاه البابلي .

وبعد انتصاره النهائي على الآشوريين ، اخذ نبوبولاسر ـ الذي اصبح الان شيخاً طاعناً في السن ـ يعتمد اكثر فأكثر على ابنه « نبو ـ كدوري اصر » (نبوخذنصر) في قيادة العمليات الحربية . فأوكل الى ولي عهده الامير الشاب الباسل مهمة قيادة العمليات الحربية . وبعد ان امضى عامين في محاولات متعثرة لاقامة رؤوس جسرية في النقاط الاخرى على وادي الفرات ، جمع نبوخذنصر جيشه وهاجم كركميش في شهر (مايس ـ حزيران)

من عام (٦٠٥ ق ٠ م) ٠ ولقد أبدت الحامية المصرية فيها ــ المعززة بمرتزقة يونانيين ــ مقاومة شديدة ، ولكنها اخذت في النهاية وذبحت ٠

((اما بقية الجيش المصري الذي افلت من الهزيمة (بسرعة لدرجة انه) لم يستطع الحصول على السلاح ، فقد هاجمهم الجيش البابلي في منطقة حماه وهزمهم بحيث ان اي فرد منهم لم تكتب له العودة الى موطنه))(15) ٠

بعد هذا الانتصار اصبحت كل سوريا وفلسطين مفتوحة امام البابليين الذين واصلوا تقدمهم حتى ((پيلوسيوم)) على الحدود المصرية عندما بلغ نبوخذنصر نبأ وفاة ابيه ٠ ولما كانت وفاة اي ملك في الشرق تشكل على الدوام لحظة حرجة ، لذلك فقد خف ولي العهد بالعودة الى بابل دون تأخر فدخلها في بحر ثلاثة وعشرين يوما وتوج حال وصوله اليها في ٢٣ ايلول عام ٦٠٥ ق ٠ م٠

كان البابليون يعلمون جيدا انه اذا كان احتلال سوريا امرا يسيرا الى حد ما فان الاحتفاظ بها مسألة غاية في الصعوبة ٠ وكان بالامكان اكراه شمال سوريا على التسليم بالامر الواقع ، ولكن ما كان بوسع الفينيقيين ولا الفلسطينيين ولا اليهود القبول بدفع الجزية لبابل عن طيب خاطر بعد ان كانوا قد توقفوا لتوهم عن دفعها لنينوى بعد لأي ٠ وبالاضافة الى هذا ، فان مصر ــ التي لم تكد ترى حلمها القديم بـ ((المستعمرة)) السورية يتحقق حتى توارى كالسراب ــ كانت قد اصبحت على استعداد اكبر من اي وقت مضى لسكب الزيت على النار ٠ ولم يمض طويل وقت حتى وجد نبوخذنصر نفسه مضطراً لاستعراض عضلاته كل عام تقريبا على سواحل البحر الإبيض المتوسط لاخماد العصيان تلو العصيان مثلما كان سرجون واحفاده قد اعتادوا فعله من قبل ٠ فلم تكد تمض فترة عام على معركة كركميش حتى عاد نبوخذنصر الى سوريا ثانية وجمع الجزية من دمشق

وصور وصيدا واورشليم ولكنه اضطر الى تدمير عسقلان التي تمرد حاكمها ، وتتطرق الوثائق الى ذكر معركة كبيرة وان لم تكن حاسمة بين ملك بابل ومصر في عام (٦٠١ ق ٠ م) حيث « تقاتلا في اشتباك قريب ودمّرا بعضهما »(16) ٠ و في عام (٥٩٩ ق ٠ م) ارسل نبوخذ نصر العساكر من مخيمه السوري لتمشيط الصحراء ضد عرب « قيدار » ٠ وخلال شتاء عام (٥٩٨ـ٥٩٧ ق ٠ م) رفض « يهواقيم » ملك يهوذا ـ الذي صم اذنيه لتحذيرات النبي ارميا ـ دفع الجزية فجاء رد الفعل البابلي سريعا وحاسما ٠ ففي ١٦ آذار من عام ٥٩٧ ق ٠ م جرى احتلال اورشليم ونصب ملك يهودي آخر على عرش مملكة يهوذا اسمه « صدقيا » ؛ كما جرى اجلاء ثلاثة آلاف يهودي الى وادي الرافدين(17) ٠ وللاسف فان ثغرة في سلسلة الوثائق البابلية تحرمنا من المضي في الاسترسال في الحديث لتغطية حوادث السنوات التالية ٠ ولكننا نعرف من مصادر اخرى ان خليفة نيخو المدعو « بسامتك الثاني » قد قاد حملة على سوريا في عام (٦٠٠ ق ٠ م) وان الفرعون « ابرايس » (٥٩٥ ـ ٥٧٠ ق ٠ م) قد احتل غزة وهاجم صور وصيدا(18) ٠ ولقد تشجع الملك المنصب صدقيا بوجود جيش مصري على مقربة منه وبامكانية الاعتماد على مساعدته عند الحرج فاعلن العصيان على بابل ٠ فوجه نبوخذنصر جيشه من مركز قيادته في « ربلا » قرب حمص لمعاقبة مملكة يهوذا ، وبعد حصار دام ثمانية عشر شهراً ، استسلمت اورشليم ؛ والقي القبض على صدقيا الذي هرب الى جريكو (اريحا) و :

« اخذوا الملك وجلبوه الى ربلا مقام ملك بابل وحاكموه ثم ذبحوا اولاد صدقيا امام ناظريه وفقأوا عينيه وكبلوه باغلال من النحاس ونقلوه الى بابل ٠ »(19)

وأجلي الآلاف من اليهود مع ملكهم الى بابل بينما التجأ آخرون الى مصر ٠ وعين حاكم محلي على مملكة يهوذا وسلبت اورشليم وهدمت

اسوارهـا كما احـرق « بيت الالـه » وهو المعبـد الذي بنـاه سليمـان وهكذا فقد « تقلت يهوذا بعيدا عن البلاد » بعد مضي (١٣٥) عاما عـلى سقوط مملكة اسرائيل وذلك في حزيران من عام ٥٨٧ ق • م •

كانت المهمة الاخيرة لنبوخذنصر في سوريا هي محاصرة مدينة صور الثائرة ذلك الحصار الذي دام ـ كما تخبرنا وثيقـة له ـ ما لا يقل عـن ثلاثة عشر عاما وانتهى بالاستيلاء على المدينة واستبدال ملكها بآخر • وتشير كسرة من رقيم معروض في المتحف البريطاني الى حملة جردت ضد الفرعون « اماسيس » عام ٥٦٨ ق • م ويرد فيها ذكر اسم مدينة مصرية غير انهـا لا يمكن ان تعتمد كاثبات كاف للتدليل عـلى ان البابليين قد وطأوا ارض وادي النيل[20] • وقبل انتهاء عهد نبوخذنصر بعشر سنين على الاقـل اصبحت المقاطعات الغربية في قبضة الكلدانيين القوية ، واصبح جبل لبنان ، ذلك المصدر الدائم للخشب ، مفتوحا للاستثمار المنتظم :

« جعلت ذلك البلد سعيداً باجتناب اعدائه في كل مكـان وارجعت كل اهله المتناثرين الى مستوطناتهـم • وحققت ما كان قد عجز عن الاتيان به كافة الملـوك السابقين اذ فتحت ممراً خلال الجبال الشديدة الانحدار وفتت الصخور وانشأت طريقا مستقيما لـ (نقل) الارز • وجعلت شـعب لبنـان يعيش بأمان مـع بعضه ولـم اسمح لاي كـان بازعاجه • »[21] •

وفي غضون ذلك ، كان الميديون يواصلون تقدمهـم شمالا فهاجموا ارمينيا ـ كانت مملكة اورارطو قـد اجتيحت وخربت مدنها من قبل الميديين والسيثيين في بداية القرن السادس ق • م ـ وكذلك منطقة كبدوكيا • وعندما تقابل كي اخسار الميدي مع ملك ليديا « اليانس » وجهاً لوجه في « معركة

الكسوف » عام ٥٨٥ ق • م ولـم يفلحا في حسـم نزاعهما بالسـلاح ، قام نبوخذنصر بالتحكيم بينهما واستطاع التوصل الى عقد هدنة بـين بلديهما وثبت خط الحدود الفاصل بينهما على نهر « الهالس » (قزل ايرمق)[22] • غير ان نبوخذنصر قام من جانبه ـ اما باتفاق مع حليفه او كاجراء وقـائي ضد هجوم ميدي محتمل من جهة الشمال ـ باحتلال كليكيا وحصن عدة مدن اخرى تقع « على امتداد حدود اورارطو » • وعلى العكس مما يعتقده بعض من المؤرخين ، فلا يوجد ما يثبت ان نبوخذنصر قد قام فعـلا بفتح بـلاد عيـلام[23] •

ويكتنف الغموض السنوات الاخيرة من عهد نبوخذنصر الذي يبدو انه قد انقضى وسط اضطرابات داخلية • ولم يدم عهد ابنه « اويل مردوخ » (مردوخ الشرير في العهد القديم) سوى عامين (٥٦٢ــ٥٦٠ ق • م) وخلفه في الحكم قائد بابلي من عامة الناس تزوج باحدى بنات نبوخذنصر اسمه « نرگال ـ شار ـ أصر » (نرگلصر) • وكان هذا الملك معروفاً في السابق لدى المؤرخين باعماله العمرانية فقط ، امـا الان فانـه يتوجب علينا ذكر تجريده حملة مظفرة على كليكية[24] • وبعد شهرين من حكم ابن نرگلصر المسمى « لباشي مردوخ » ـ الذي كان ما يزال طفلا صغيرا ـ اغتيل ونصب البابليون محله قائداً رفيع المقام يدعى « نبونيدس » الذي ينحدر من سلالة ملكية • غير ان احداثاً جديدة اخرى كانت قد جرت في ارض ايران والتي سيكون من شأنها تغيير وجه العالم القديم مرة اخرى •

سقوط بابل

يتميز آخر ملوك بابل المستقلة نبو ـ نايـد(*) (يسميه الاغارقـة نبونيدس) (٥٥٦ــ٥٣٩ ق • م) بكونه احد اكثر الشخصيات غموضـاً

(*) « الاله نبو قد رفع الملك » (المؤلف) . ويسمى ايضاً « نبو ـ نهيد » . المترجم

وتفرداً في السلسلة الطويلة من ملوك وادي الرافدين • فهو نجل « الحاكم والامير الحكيم » المدعو « نبو ــ بلاطسو ــ إكبي » ، وكانت امــه احدى كاهنات الاله سن في حران ، وربما كان كلا أبويه من أصــل ملكــي • كــان نبونيدس في العقد السادس من عمره عندما تسنم العرش بعد ان تقلد عــدة مناصب ادارية مرموقة خلال عهد نبوخذ نصر ونركلصر • وكان نبونيدس شديد التأثر بامه ــ التي توفيت في عام ٥٤٧ ق • م عن عمر يناهز المائة واربع سنين والتي شيعت جنازتها مثلما تشيع جنائز الملوك(25) ــ فورث عنها اهتماماً دائباً في الشؤون الدينية والعبادة الخاصة شبه الوحدانية للاله الذي خدمته امه طوال حياتها • ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان البابليين مــن ذوي الهوى الفارسي قد بذلوا كل مابوسعهم لتشويه سمعة ملكهم العتيــد نبونايد بعد وفاته لخطب ود أسيادهم الجدد • ففي قطعة هجاء تعرف بـ « السيرة الشعرية لنبونيدس » يتهمه هؤلاء بكونه شخصاً مجنوناً وكذاباً تفاخر زوراً بانتصارات لم تطلها يداه ابداً ، وكافراً جدف بالوهية مردوخ وعبد « سن » « الاله الذي لم يشاهده احد في البلاد »(26) • ولقد انتشرت تلك الاتهامات اللئيمة الملفقة انتشاراً لم يكن مختلقوها انفسهم يتوقعونه وادت بسبب اختلاط الاسماء ، الى فبركة قصة مشينة حول جنون نبوخذ نصر الواردة في سفــر دانيال ، كما وجدت لها صدى في « رقائق البحــر الميت » المشــهورة(27) • ولقد اضطر حتى اكثر المؤرخين المعاصرين تريثاً الى الاعتراف بان تلك الوثائق تمتلك ظلالاً من الحقيقة • وتوحي لنا بعض من مدونات نبونيدس بأن الاله سن قد ارتقى في عهده الى منزلة اعلى من منزلة الاله الوطني مردوخ ، وان معابد اله القمر المنتشرة في طول البلاد وعرضها كانت تحظى باهتمام خاص حيث لم يكتف نبونيدس بترميم زقورة اور وعدة معابد اخرى فيها على نحو فخم ، بل وقد عمد الى اعادة بناء معبد سن في حران المسمى « أي هول • هول » الذي كان قد خربه الميديون خلال حربهم ضد الآشوريين • وعلى الرغم من كل هذا ، ومع ان تلك الاعمال قد عبرت عن المبدأ او الفكرة الاساسية الثابتة

لعهد حكمه ، الا ان القول بان نبونيدس قد سعى ـ لاسباب سياسية او نفسية لاستبدال الاله مردوخ بالاله سن في عمادة مجمع الآلهة البابلي ربما يعني الشطط في الاستنتاج • فالمعابد الاخرى القائمة على ارض وادي الرافدين قد استفادت هي الاخرى من همة وحماسة هذا الملك ، وبضمنها معبد مردوخ الكبير في بابل • ولقد دأب هذا الملك الورع على البحث عن الـ « تمينو » (أي ودائع الاساس) التي تؤكد كون المكان ارضاً مقدسة قبل الشروع ببناء المعابد • ويؤكد هذا تمسكه الشديد بالتقاليد الدينية لبلاد سومر واكد • وبسبب حفرياته الكثيرة بحثاً عن تلك الوثائق المدونة ، فانه يطلق عليه لقب « منقب الآثار الملكي » على الرغم من ان اهدافه ووسائله في البحث لم يكن ليجمعها جامع بالتنقيبات الآثارية • وبالتأكيد فقد شارك هذا الملك رعيته بالولع في دراسة الماضي وكان هذا الولع احدى سمات العصر الذي حكم فيه • فخلال العصر البابلي الحديث ـ الذي يمتد في الحقيقة ليشمل العصر الاخميني التالي ـ جرى استنساخ العديد من الوثائق القديمة وإعداد وتجميع قوائم الملوك وقطع الاثار القديمة بحماس متزايد • ومن الامثلة الممتعة في هذا المجال أن سير ليونارد وولي قد اخذته الحيرة عندما كان ينقب في اور بقصر « بعل ـ شالتي ـ ننار » ـ وهي ابنة نبونيدس والكاهنة الاولى للاله سن ـ فوجد في نفس البناية وفي نفس الطبقة الاستيطانية مواد تعود الى عصور متفاوتة جدا ، مثل حجر حدود كاشي ، وقطعة من تمثال للملك شولكي ، ومخروط طيني يعود الاحد ملوك لارسا • ولم يدرك انه كان يستكشف المتحف الخاص ببعل ـ شالتي ـ ننار الا بعد مضي بعض الوقت•(28)

وعلى الضد من الشخصية الضعيفة لهذا الملك التقي تنتصب شخصية « كورش الثاني » القوية والذي اعتلى انعرش الفارسي في عام ٥٥٩ ق • م ـ أي قبل تتويج نبونيدس بثلاثة اعوام ـ والذي اتخذ لنفسه القاب (الملك الاخميني العظيم ، ملك بارسوماش وأشنان) •

كان الفرس ـ وهم شعب يتكلم لغة هندواوربية ـ قد دخلوا ايران من جهة الشمال في نهاية الألف الثاني ق • م في وقت متزامن مع مجيء الميديين الذين احتفظوا بعلائق وشيجة معهم • ولقد استمر الفرس بالتقدم ببطء على امتداد سلسلة جبال زاگروس حتى وصلوا اخيرا الى سلسلة الجبال التي ستكتسب اسمهم بعد ذلك والكائنة الى الجنوب من الهضبة واحتلوها • وفي نهاية القرن السابع ق • م ـ وهو القرن الذي يتيح لنا التعرف على تاريخهم بشكل افضل ـ انقسموا الى مملكتين يحكمها احفاد « تأيسبس بن اخمينس » (حاخامانيش) • فحكمت في القطر الفارسي (پارسا او بارسوماش) ـ المنطقة المحصورة بين اصفهان وشيراز ـ عائلة « آريارامنس » وهو الابن الاكبر لتايسبس ، بينما حكمت في الغرب على امتداد حدود بلاد عيلام ـ اي في بلد « أنشان » (أو « انزان ») ـ عائلة شقيق آريارامنس المدعو كورش الاول • وكانت كلتا هاتين المملكتين تابعتين للميديين • ولجيل او لجيلين ، كان لبيت آريارامنس الارجحية على بيت كورش ؛ الا ان « قمبيز الاول » (٦٠٠ ـ ٥٥٩ ق• م) ـ (وهو ابن كورش) ـ قلب الوضع لصالحه• ومما رفع في مقامه زواجه بابنة «استياجس» سيده الميدي• ولقد اثمر ذلك الزواج بميلاد كورش الثاني الذي اصبح يحكم في بداية عهد نبونيدس ، من قصره في « بزار كاديه » ، على منطقة كبيرة ولكنها معزولة في ايران ، ويدفع الجزية لجده • ولكن الامير الفارسي لم يكن ينقصه الطموح او الذكاء فبدأ باخضاع القبائل الايرانية المجاورة له ، وقام بتوسيع حدود مملكته ببطء وحذر شديدين • ثم مالبث ان قدم له ملك بابل الضعيف الفرصة الذهبية للاستحواذ على امبراطورية شاسعة •

كنا قد عرفنا كيف ان الحلم الاثير الذي كان يراود مخيلة نبونيدس هو اعادة بناء معبد الاله سن في حران • ولم يكن هذا المعبد عزيزاً على قلبه فقط بل كان امتلاك سوق وحاضرة تلك المدينة الستراتيجية المهيمنة على الطرق المارة من شمال وادي الرافدين الى سوريا وآسيا الصغرى امراً ذا اهمية حيوية

لاقتصاد وأمن المملكة البابلية • ولسوء الحظ ، فقد كانت حران قد وقعت في ايدي الميديين منذ عام ٦١٠ ق • م ، وكان لاقبل لنبونيدس منفرداً بمقارعة الميديين الاقوياء ، لذلك فقد التفت صوب الفرس خلفاء العيلاميين وطلب من ملكهم الطامع مد يد المساعدة له فقبل الاخير• وأحس استياجس ملك الميديين بالمؤامرة فاستدعى حفيده الى « أكبتانا » ولكن كورش رفض الاصغاء اليه• فقامت بين الطرفين حرب طاحنة انتهت بانتصار الفرس ، والقي القبض على استياجس ـ الذي خانه قادته انفسهم ـ ووجد كورش نفسه وقد اصبح سيداً على المملكتين الفارسية والميدية بحلول عام ٥٥٠ ق•م • ولقد جرى التطرق الى ذلك الحادث المهم ـ المعروف منذ امد بعيد في مدونات المؤرخين القدماء(29) ـ في المدونات المسمارية المعاصرة له ايضاً(30) • فيذكر لنا نبونيدس بأن الاله مردوخ قد ظهر له في المنام وانه قد اوعز اليه ببناء معبد « أي ـ خول ـ خول » في حران ، فلما اعترض الملك قائلاً بان حران واقعة في قبضة الامان ـ ماندا (الميديين) ، اجابه مردوخ :

« ان الامان ـ ماندا الذين تتحدث عنهم ، هم وبلدهم والملوك في صفهم ، لن يبقوا في الوجود ؛ ففي السنة الثالثة القادمة ساجعل خادمهم الشاب كورش ، ملك انشان ، يفرق بجيوشه القليلة الامان ـ ماندا الكثيرين ويطردهم • »
فقام (كورش) بأسر استياجس (اشتوميكو) ملك الامان ـ ماندا واخذه مكبلا الى بلده • »

وتقدم لنا ما تسمى بـ « وثيقة نبونيدس » عرضاً آخر اكثر دقة للصراع :

« استدعى الملك اشتوميكو جنده وزحف ضد كورش ملك انشان ليواجهه في معركة ، فتمرد جيشه ضده وسلموه بالاصفاد الى كورش • » (31)

بعد انتصاره على الميدين ، بدأ كورش سلسلة من الحملات العسكرية العبقرية التي امنت له بعد عشرة اعوام امبراطورية اوسع بكثير من اية امبراطورية سابقة شهدها العالم القديم . كان هدفه الاول مملكة ليديا حيث كان يحكم الملك « كرويسس »(*) الفاحش الثراء . وبدلاً من عبور جبال ارمينيا ، قاد كورش جيشه بامتداد الطريق المحاذي لسلسلة جبال طوروس خلال سهل الجزيرة . وبعد ان عبر نهر دجلة جنوب نينوى وزحف غرباً بطريق حران ، قام باحتلال كليكية التي كانت تابعة وقتذاك لبابل كاسرا بذلك وثاق الحلف المعقود مع نبونيدس مما دفع البابليين الى الانحياز الى جانب مملكة ليديا مع المصريين حلفائها التقليديين . ولم يكن بوسع اي من الحليفيين — المصري او البابلي — ارسال العساكر لنجدة كرويسس الذي واجه الفرس وحيدا واندحر في موقعة «تيريوم» عام (٥٤٧ ق . م) . وبعد ابتلاع مملكة ليديا ، سقطت المدن الآيونية الواحدة تلو الاخرى واستسلمت كل آسيا الصغرى للحكم الفارسي . وما ان أمّن كورش انتصاره هناك حتى وجه اسلحته في الاتجاه المعاكس فسقطت في قبضته بالتعاقب كل من پارثيا وآريا — مملكتان في شرق ايران — وسوگديا وبكتريا في تركستان وافغانستان وقسماً من الهند . واصبحت الامبراطورية الفارسية تمتد الان من بحر ايجه الى جبال الپامير — اي لحوالي ثلاثة آلاف ميل تقريباً . وازاء عملاق كهذا لم يكن لبابل ثمة امل في البقاء مستقلة .

وفي غضون تلك الفترة لم يكن نبونيدس في بابل ، بل كان مقيماً بالجزيرة العربية . ونقرأ في احدى الوثائق بانه قد توجه في سنة حكمه الثالثة الى سوريا وجمع جيشه في « ارض حاتي » (اسم سوريا وقتذاك) ودخل الصحراء العربية ليحاصر « ادومو » (الجوف ، ٢٨٠ ميلاً شرق العقبة) وهي مستوطنة مهمة كان الاشوريون قد قاموا باحتلالها مرة . ولا نعلم فيما اذا

(*) والمعروف بشكل افضل باسم « قارون » .

كان نبونيدس قد عاد بعد ذلك الى بابل بسبب وجود كسر في الرقيم ، ولكن مستهلات سني حكمه السابعة والحادية عشرة تذكر بان الملك كـان يقيم في تيماء (تيما)(32) مما ادى الى تعذر الاحتفال بعيد رأس السنة الجديدة . وتيماء هي واحة كبيرة غرب الجزيرة العربية استطاع نبونيدس التحرك منها بسهولة من واحة لأخرى وصولاً الى « أياثريبو » (يثرب ـ المدينة المنورة) كما تعلمنا بذلك مدونة اكتشفت حديثاً في حران .(33) اما ما الذي كـان يفعله ملك بابل في اصقاع الجزيرة العربية تلك فهي واحدة من أعوص وازعج المشاكل في تاريخ العراق القديم . ولقد قدمت العديد من التفسيرات لها(34) اكثرها منطقية يزعم بان نبونيدس بعد ان خسر بسبب الميديين والفرس طـرق التجارة الشمالية والغربية لوادي الرافدين حاول تأمين «طريق تجارة التوابل» الممتد من اليمن الى مصر وفلسطين ماراً بالحجاز . اما التبرير الرسمي الذي تقدمه الوثيقة المعروفة بـ « مخطوطة حران » فهو ان نبونيدس قد ترك بابـل مختاراً بسبب اندلاع الحرب الاهلية وتفشي المجاعة . الا ان أياً من تلـك التفسيرات لاتقدم جواباً شافياً عن سبب غيابه عن عاصمته مدة لاتقل عـن العشرة اعوام الا اذا افترضنا بانه قد منع من العودة اليها من قبل اعدائـه انفسهم .وكان نبونيدس قد ترك مقاليد الحكم بعهدة ابنه « بعل ـ شار ـ اصر » (بيليشاصر) وكان هذا محاربا كفءً ولكنه لم يكن سياسيا محنكا فترك سلطته يتهددها حزب موالٍ للفرس تزايد تأثيره باضطراد . ولقد كانت سياسة كورش في جميع البلدان التي اخضعتها انتصاراته للسيطرة الفارسية تقريباً هي خطب ود رعاياه الجدد وليس تخويفهم او ارعابهم من اجل فرض طاعته عليهم . وكان يحلو له اظهار نفسه بمظهر المحرر لتلك البلدان كما كان يعامل اسراه برحمة ويحترم ، بل وحتى يشجع العبادات والتقاليد المحلية . وهكذا فقد اكتسب شهرة عريضة في جميع انحاء الشرق الادنى . ووجـد هنالك نفر من اهل بابل ممن كان يتوهم بانه لن يخسر سوى القليل بتحوله

الى احد رعايا هذا الملك « الطيب » . وهكذا فقد كان القدر المحتوم جلياً لكل ذي عين ، فقد كتب على بابل ان تسقط غنيمة سهلة في يديه .

هاجم كورش مملكة بابل في خريف عام ٥٣٩ ق . م ؛ فأمر نبونيدس ، الذي عاد اخيرا من منفاه في الجزيرة العربية ، ابنه بيليشاصر بنشر جنوده على امتداد نهر دجلة لصد جيش العدو عن العاصمة ، غير ان التفوق العددي للجيش الفارسي كان هائلاً جداً . ومما زاد الطين بله ان « گوبارو » (كوبرياس) حاكم « گوتيوم » (القطر الآشوري) ـ الذي كان يتوجب عليه حماية الزاوية اليسرى من جيش بيليشاصر ـ قد انحاز الى صف اعداء بابل فانكشف جيشها . وتصف لنا « وثيقة نبونيدس » الاحداث التي اعقبت ذلك بالتفصيل :(35)

« في شهر تاشريتو (ايلول ـ تشرين الاول) ، عندما هاجم كورش جيش اكد في اوبس على نهر دجلة ، تمرد سكان اكد ولكنه (أي نبونيدس) فتك بهم واربكهم . وفي اليوم الخامس عشر أحتلت سبار بدون قتال ولاذ نبونيدس بالفرار . وفي اليوم السادس عشر دخل گوبارو حاكم گوتيوم مع جيش كورش بابل بدون معركة . ثم القي القبض على نبونيدس في بابل لدى عودته اليها . وحتى نهاية الشهر مكث حاملو الدروع الكوتيون في ايساگلا (معبد مردوخ) ولم يحمل احد منهم السلاح في ايساگلا ومنشاته . ولم يفوتوا الفرصة السانحة (للاحتفال) . وفي شهر اراحسامنو (تشرين الاول ـ تشرين الثاني) ، وفي اليوم الثالث منه ، دخل كورش مدينة بابل فنشرت الاماليد الضخمة امامه وفرض وضع « السلام » على المدينة ، وارسل كورش تحاياه لجميع سكان بابل .... »

وقتل بيليشاصر في موقعة اوبس ومن المحتمل ان يكون نبونيدس قد فارق الحياة في بابل وان كانت المصادر الاخرى تزعم بان كورش قد عينه حاكماً على مقاطعة كرمان في وسط ايران(36) • ولم يجر تدمير المدينة مثلما كانت قد دمرت نينوى من قبل بل عوملت بابل بكل احترام • فمنذ اليوم الاول للاحتلال الفارسي (١٢ تشرين الاول ٥٣٩ ق • م) بذل المحتلون قصارى جهودهم لتجنب كل ما من شأنه الاساءة الى البابليين واثارة الحساسيات باي شكل من الاشكال • وبذلت جهود كبيرة لاعادة توطين اهلها في مساكنهم ولغرض القانون والنظام في ارجاء البلد ، كما اعيدت آلهة سومر وأكد — التي كان نبونيدس قد نقلها الى بابل اثناء الحرب — الى مقادسها « الاماكن التي تجعلها سعيدة » • حتى الآلهة الاشورية التي اسرها الميديون لدى اجتياحهم أرضها اعيدت الى معابدها بعد ان اعيدبناؤها • وأعلن كورش للجميع بأنه يعتبر نفسه خليفة للحكام الوطنيين ، وانه يجل ويعبد مردوخ و « يثني على رأس إلهه العظيم فرحاً »(*) • وفي الواقع فان هذه الاجراءات تكاد أن تغري بنا الى تصديق المحتل الفارسي عندما يعلن في مخطوطة سطرت باللغة الاكدية على اسطوانة طينية (37) بان البابليين قد استقبلوا حكمه بحماس :

« إنحنى له (اي لكورش) كل شعب بابل اضافة الى كامل بلاد سومر واكد بامرائها وحكامها ولثموا اقدامه سعيدين باستلامه الملكية . وبوجوه مشرقة بالسعادة حيوة كسيد استطاعوا بعونه الانتقال من الموت الى الحياة . ولقد جنبهم الاذى والكارثة جميعاً فعبدوا اسمه ! »(**) .

(*) ذلك هو ديدن جميع الغزاة على مر العصور لخداع الشعوب المقهورة وتجميل صورتهم امامها .

(**) لا يخفى مدى ابتذال قطعة الدعاية الكاذبة هذه وديماغوجيتها .

الفصل الرابع والعشرون

عظمة بَابل

خلف لنا عصر الملوك الكلدانيين القصير الامد ذخيرة عميقة الغور في سجلات التاريخ • وتساعدنا النصب والمدونات الملكية والرسائل والوثائق التجارية المتوفرة باعداد هائلة على اعطاء صورة صحيحة شبه متكاملـــة للمملكة الحديثة • ومن هذه المجموعة من المصادر تنبثق ظاهرتان تضفيان على كامل تلك الفترة خصوصية متميزة اولاهما التحديث الديني الموصول بنشاط عمراني واسع النطاق ، وثانيهما استعادة المعابد لدورها كوحدات اجتماعية ـ اقتصادية كبيرة •

كانت الظروف والطبيعة الجغرافية وأرادة الحكـام قـد حتمت عـلى الدولة الآشورية إن تتحول الى امة عسكرية متوسعة • ولقد ادت ذات هذه العوامل الفاعلة المفعول خلال الف عام من التدهور السياسي الى جعل بابل

الوريث الشرعي والحامي الحقيقي للتراث السومري الاكدي وقدس وادي الرافدين المعترف بها والمحترمة من قبل حتى الآشوريين انفسهم • لذلك فقد اتخذت النهضة البابلية في القرن السادس ق • م شكل احياء وتحديث ديني حيث كرس الملوك الكلدانيون وقتاً وجهوداً وأموالا طائلة لاعادة بناء المعابد واحياء الطقوس القديمة والاحتفال بالاعياد الدينية بعروض فخمة • وفي مخطوطاتهم الملكية جرى التأكيد على انجازاتهم العمرانية أكثر من اعمالهم الحربية • وكان بوسع اولئك الملوك الادعاء ، شأنهم شأن سابقيهم ، بتملك « الكون ذي الجهات الاربع » ، ولكنهم فضلوا تسمية انفسهم بلقب « معيل (زانينو) ايساگلا وايزيدا » (وهما معبد مردوخ في بابل ومعبد ابنه نبو في بارسيبا) المدون على الآلاف من الرقم المتناثرة في القسم الجنوبي من العراق • ولقد شملت نشاطاتهم العمرانية الهائلة كافة المدن الرئيسية في بلاد سومر واكد من سپار الى اوروك واور • وأولي ، كما هو متوقع ، اهتمام خاص بالعاصمة فأعيد بناؤها من جديد ووسعت وحصنت وزينت لتصبح احدى عجائب العالم • ولم يتوان النبي « ارميا » في الوقت الذي تنبأ بسقوطها ، عن وصفها بكونها « كأساً ذهبية بيد الرب اسكرت كل الارض» ؛ كما ان هيرودوت الذي يعتقد بانه قد قام بزيارتها فعلا حوالي عام ٤٦٠ ق • م ، يعلن باعجاب ظاهر بانها « تتجاوز في عظمتها اي مدينة اخرى في العالم المعروف »(1) •

فهل استحقت بابل فعلا تلك السمعة الرفيعة ام ان هذه الشهرة كانت، كما في امثلة اخرى ، وليدة المبالغة الشرقية والسذاجة الاغريقية • ان الاجابة على هذا السؤال لا يجب البحث عنها في التلال الجرداء ولا في اكوام الآجر التي تشكل الان أغلب معالم هذا الموقع الشهير بل في مؤلفات كولدفي ومساعديه عندما نقبوا فيها خلال السنوات ١٨٩٩ــ١٩١٧ م لصالح المتحف الشرقي

الالمانــــي (Deutsche Orient Gesellschaft) (2) • ولقد احتاج الالمان الى ثمانية عشر عاما من العمل الشاق الدؤوب لاكتشــاف تصميم المدينــة بخطوط عريضة واستخراج قسم من نصبها الرئيسية فحسب • وبحوزتنــا في الواقع شواهد آثارية كافية لاستكمال وتأكيد او تنقيح وصف هيرودوت لها ، ولمشاركته في تحمسه لها •

بابل المدينة العظيمة

وبدون شك فقد كانت بابل مدينة جد كبيرة بالمقاييس القديمة للمدن حيث غطت مساحة خمسمائة ايكــر واحتوت على (١١٧٩) معبــداً باحجام مختلفة • وبينما يقدر عدد سكانها في الظروف الاعتيادية بمائة الف نسمة ، غير انه كان من الممكن ان تأوي ربع مليون نسمة ان لم يكن اكثر • وكان الفرات ، الذي ينساب الان الى الغرب من اطلالها ، يقسم شكلها المربــع الى قسمين ، كما كانت محاطة بسور داخلي • ولــكن و « لكي لا يضغط العدو على خاصرة بابل » فقد أقام نبوخذنصر سوراً خارجياً طوله عشرة اميال تقريباً فأضاف بذلك « اربعة آلاف ذراع من الارض الى كل جانب من جوانبها » • وكانت الارض الشاسعة المحصورة بين ذينــك السورين ببيوتها المبنية من الطين واكواخها المصنوعة من البردي والمنتشرة وســط البساتين وغابات النخيل بمثابة ضاحية للمدينة احتوت على حد علمنا على بنايتين رسميتين فقط هما القصر الصيفي لنبوخذنصر ـــ اطلاله كائنة الان فـــي الزاوية الشمالية الشرقية للمدينة مؤلفة التل الذي تطلق عليه اسم بابــل حالياً وربما ايضا « بيت اكيتو » اي المعبد المكرس لعيد رأس السنة الجديدة والذي لم يشخص موقعه بالضبط حتى هذا الوقت •

وكانت أسوار بابل (3) ببناياتها الرائعة مثار الاعجاب في الازمنة القديمة فقد حصنت بالابراج واحيطت بالخنادق المائية وبنيت في جدارين سميكين

متوازيين من الآجر المفخور جرى وصلهما مع بعضهما بحشوة من الحجارة الطابوقية . وكانت قاعدة قمة السور الخارجي مثلا يزيد عرضها على الستة والثلاثين قدما وتتسع لمرور عربـة او حتى عربتين تسحبهمـا اربعة جياد مرة واحدة فتعطي المقاتلين حرية التحرك السريـع من طرف لآخـر في المدينـة . ولكن ، وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات ، فقد اثبت هذا النظام الدفاعي المريع فشله ساعة الامتحان اذ تسلل الفرس الى المدينة ــ بغض النظر عمـا اذا كانوا يمتلكون عملاء متواطئين معهم في الداخل ام لا ــ عبر قاع الفرات عند انخفاض مناسيب المياه فيه فاخذوا المدينة على حين غرة وليبرهنوا بذلك ان لكل الحصون مساوئها وان قيمتها الحقيقية انما تكمن في طينة الرجال المدافعين وراءهـا (*) .

وشيدت في السور الداخلي ثماني ابواب اطلق على كل باب منهـا اسم اله . وتتميز الباب الشماليـة الغربية ــ او باب عشتار التي كان لهـا دوراً مهما في الحياة الدينية للمدينة ــ بكونها افضل الابواب التي بقيت قائمة لنا اذ ما تزال جدرانها تنتصب الى ارتفاع يبلغ ستة وثلاثين قدماً فوق مستوى الارض الحالي(4) . وكغيرها من ابواب مدن الشرق القديم ، فقد اشتملت على ممر طويل مقسم بواسطة ابراج مسلطة الى عدة منافذ مـع غرف للحراس خلف كل منفذ . وتكمن الاهمية الحقيقية لباب عشتار فـي زينتها الرائعة فقد كسي الجدار الامامي لها وكامل سطح الممر بالآجر المزجج الذي تبرز منه منحوتات لتنينين ملونة بالاحمر والابيض (ترمز الى مردوخ) وثيران

(*) يقال ان بابلياً يدعى گوبارو كان على اتصال مع الفرس وانه تآمر معهم ضد بابل حث دفع رجال الحامية فيها الى السكر في ليلة عيد راس السنـة الجديدة مما مكن الفرس من التسلل اليها والناس عنهم في غفلة . ولقـد مر بنا سابقاً ان گوبارو هذا كان حاكما على گوتيوم من قبل نبونيدس وانه قد انحاز الى صف اعداء بابل وهاجمها معهم وعليه فان من المحتمل ان تكون الحكاية الاولى عن گوبارو موضوعة .

(ترمز الى ادد) في صفوف متبادلة ، كما جرى تزيين حتى اسسها بشكل مشابه وان لم يستخدم الآجر المزجج هنا • ويقدر العدد الاجمالي لاشكال الحيوانات المرسومة فيها بخمسمائة وخمسة وسبعين شكلا • اما ممرها فقد زود بسقوف عالية • ولابد ان يكون منظر تلك المخلوقات الغريبة البارقة تحت ضوء المشاعل الخافتة قد سببت تأثيراً مخيفاً يوحي بالرهبة والجلال لدى الخارجين والداخلين من خلالها •

ويصل باب عشتار من الشمال شارع واسع رائع الجمال اطلق عليه البابليون اسم « اي – ايبور – شابو » (« الذي » لا يعبره الاعداء) والمعروف الآن بشكل افضل باسم « شارع الموكب » • كان هذا الشارع – الذي يبلغ عرضه ثلاثة وستين قدماً – مبلطاً بالواح من حجر الكلس الابيض وبيرش حمراء ، ويحده من الجانبين جداران سميكان لا تقل روعة الانطباع الذي يتركانه على روعة باب عشتار، اذ كان ينتصب على كل جانب منهما ستون اسداً جباراً (ترمز الى عشتار) ذات اعراف حمراء او زرقاء نحتت نحتاً على آجر مزجج (ازرق اللون) • وخلف ذينك الجدارين توجد ثلاث بنايات كبيرة اطلق عليها الالمان اسم « الحصن الشمالي » (Nordburg) « الحصن الرئيس » (Hauptburg) و « الحصن الامامي » (Vorwerk). ويشكل ثلاثتهما جزءاً من النظام الدفاعي للمدينة وان بدا ان الحصن الرئيسي قد استخدم ايضا كدار للسكن من قبل الامراء او الملوك(5) • ولقد اعطتنا آثاره عددا من المخطوطات والمنحوتات التي تتراوح تواريخها بين الالف الثاني والقرن الخامس ق • م من بينها تمثال « الاسد الرابض على شخص » والمعروف بـ « أسد بابل » • ولا يعرف اصل هذا النصب الكبير المنحوت بخطوط عريضة • وعلى الرغم من انه يبدو لنا غريباً عن كل ما يعرف عن فن النحت في وادي الرافدين ، الا انه يقدم انطباعا ساطعاً بالعظمة والقوة بحيث اصبح رمزاً لماضي العراق المجيد • وفيما وراء باب عشتار نحو الداخل

يستمر شارع الموكب ممتداً اضيق قليلا الى قلب المدينة فيمر امام القصر الملكي ويجتاز قناة اسمها « لبل حيكالا » (جالبة الوفرة) ثم يطل على ضاحية الزقورة الواسعة ليستدير غرباً نحو الفرات في منطقة يمتد منها جسر قائم على ست ركائز تشبه القوارب • كان شارع الموكب يقسم المدينة الى قسمين : فالى الشرق كانت توجد اعداد كبيرة من دور السكن الخاصة (تل المركز)(6) ، والى الغرب والجنوب كانت ترتفع القصور والمعابد الفخمة •

وخلف جدران المدينة مباشرة يقبع الحصن الجنوبي على مقربة من باب عشتار وهو « البيت اعجوبة الانام ، مركز الوطن ، المنزل المشع ، مسكن الجلالة » اي ببساطة ، القصر الذي ابتناه نبوخذنصر على اطلال قصر اصغر منه كان قد شيده والده نبوبولاسر(7) • وكان يعرج على هذه البناية الواسعة عبر شارع الموكب خلال باب واحدة كبيرة تضم خمس باحات متتالية تحيط بكل منها المكاتب وغرف الاستقبال والشقق الملكية • وعلى العكس من القصور الآشورية ، فلم تكن تحرس الابواب منحوتات حجرية فخمة ، كما لم تمتد على الجدران الواح منحوتة او مصورات ناتئة • والزينة الوحيدة الموجودة هنا ـ والتي كان يتوخى منها بعث السرور لدى الناظر وليس الرهبة ـ تضمنت صوراً لحيوانات وتخطيطات لبنايات واعمدة بالالوان الصفراء والبيضاء والزرقاء والحمراء على الواح من الآجر المصقول• وهناك بناية غريبة الشكل في الزاوية الشمالية الشرقية للقصر تسترعي اهتماما خاصاً حيث تقبع تحت مستوى الارض وتشتمل على ممرات ضيقة واقبية مقوسة صغيرة • ولقد وجد في احدى تلك الاقبية بئر غير مألوف الشكل له ثلاثة اعمدة الواحد منها جنب الآخر ربما كانت جزءاً من مضخة سلسلية وتغري هذه البناية بنا الى اعتبارها البناء التحتي لحدائق سقفية، اي « جنائن بابل المعلقة » التي وصفها المؤرخون الكلاسيكيون والتي اقيمت ،

كما تخبرنا بذلك احدى الروايات من قبل نبوخذنصر الادخال البهجة في نفس زوجته الأميرة الميرية « آميتس »(8) .

والى الجنوب من القصر الملكي ، ووسط ارض فضاء يحيطها جدار مليء بالطلمات والدخلات ، ينتصب « برج بابل » وهو زقورة كبيرة تدعى «اي ــ تمين ــ آنكي» (معبد اساس السماء والارض) ، وتاريخه قديم قدم مدينة بابل نفسها . وكان سنحاريب قد قام بهدمه وقام نبوبولاسر ونبوخذنصر باعادة بنائه ولكنه تهدم من جديد حيث لم يتبق منه سوى اسسه ليعكف على دراستها المنقبون الآثاريون . وفي الحقيقة فان اية عملية تستهدف اعادة بناء معبد ايتمنانكي تعتمد جوهرياً على المعلومات القليلة التي تزودنا بها تلك الدراسات اضافة الى وصف شاهد عيان لها هو المؤرخ هيرودوت ، وعلى قياسات اعطيت لنا باصطلاحات غامضة نوعاً ما في وثيقة اسمها « رقيم ايساكلا »(9) . وبالتأكيد فقد كان هذا المعبد نصباً جباراً حيث بلغ عرض قاعدته ثلثمائة قدم ومن المحتمل ان يكون ارتفاعه قد قارب المائتي قدم . ولقد اشتمل على ما لا يقل عن سبعة طوابق حيث كانت السلالم الثلاثية تؤدي من قسمه الجنوبي الى الطابق الثاني ، كما كان يدلف الى بقية طوابقه بواسطة المنحدرات . وفي القمة كان يشمخ ضريح (ساجورو) « مزين بالاجر المطلي باللون الازرق اللامع » وصفه هيرودوت كما يلي :

« وفي البرج الاخير (= الطابق الاخير) ينتصب ضريح جليل وضعت في داخله اريكة كبيرة فخمة الكساء والى جانبها منضدة ذهبية . ولا توجد اية تماثيل في الضريح ولا يمكث فيه اي مخلوق ليلا عدا امراة واحدة من الاهالي يقول الكلدانيون بان الاله قد خصها بالاختيار دون غيرها من النساء اللائي يعملن كاهنات عنده . ويذكر الكلدانيون

ايضا ـ وان كنت لا اصدقهم شخصيا ـ بان الاله نفسه معتاد على زيارة الضريح والاستلقاء على الاريكة ٠٠٠)) (10)

وكما هو واضح فان الوصف السابق يعكس تقليدين مختلفين اولهما نزول الاله من السماء الى الارض واستخدامه الساحورو مكانا للراحة ، وثانيهما طقس « الزواج المقدس » الذي كان ـ يقام ـ كما سنرى بعدئذ ـ في مكان آخر غير الزقورة : اما في « بيت اكيتو » او في « ايساگلا » ٠

وتعني لفظة « ايساگلا » « المعبد الشامخ الرأس » وقد اطلقت على معبد مردوخ الاله الحامي لمدينة بابل وسيد الالهة في مجمعها البابلي منذ ايام حمورابي ٠ ولقد اشتمل هذا المعبد على مجموعة من البنايات الكبيرة السامقة والباحات الفسيحة الكائنة الى الجنوب من ايتمنانكي على الجانب الآخر من شارع الموكب وليس في اقدام الزقورة حيث تتواجد اغلب معابد وادي الرافدين ٠ وكان كل ملوك بابل قد خصوا هذا المعبد العظيم بعنايتهم خصوصا نبوخذنصر الذي أعاد بناءه وزينه بسخاء باعتباره « قصر السماء والارض ، مقعد الملوكية » :

« جلبت لمدينتي بابل ، بين يدي مردوخ ، الفضة والذهب والاحجار الكريمة النادرة والبرونز والخشب من ماگان ٠ وجلبت كل غال وبراق من نتائج الجبال وكنوز البحار من كميات هائلةمنالبضائع والهدايا الفخمة٠ وفي ايساگلا ، قصر ربوبيته ، انجزت تعميرات واسعة فجعلت جدران ايكنوا مقدس مردوخ ، انليل الالهه ، تبرق كشعاع الشمس ، وكسوت الجدران الداخلية للمعبد بالذهب البراق كانه الجبس ٠٠٠٠ وبحجر اللازورد والمرمر ٠٠٠ ودو ـ ازاك ، موضع تسمية القدر ٠٠٠٠ ضريح الملوكية ، ضريح اله الربوبية ، الحكيم بين الآلهة ، معبد الامير مردوخ ، الذي كان قد زين جدرانه احد الملوك قبلي

بالفضة ، وشيته انا بالذهب الوضاء حلية اخاذه .... ان قلبي يغريني باعادة بناء ايساكلا ويشغل هذا الامر بالي على الدوام . ولقد سقفت الاكوا بافخر ما املك من خشب الارز الذي جلبته من لبنان حيث الغابة النبيلة .... وفي داخل المعبد كسوت الواح الارز المتين هذه بالذهب البراق ، كما زينت اسفل الواح الارز بالفضة والاحجار الكريمة . ولقد كنت اصلي كل يوم لاتمام بناء ايساكلا .... »(11)

ويؤكد هيرودوت لنا ثراء معبد ايساگلا حيث يعرج على ايراد وصف لـ « معبد اسفل » بعد وصفه للزقورة فيذكر :

« هناك تمثال ذهبي عظيم لزوس(*) (مردوخ) وهو يجلس أمام مصطبة ذهبية كبيرة الى جانبها مقعد وكرسي صيغا من الذهب ايضاً . ويقول الكلدانيون بان الوزن الاجمالي للذهب الموجود هنا يساوي ثمانمائة طالنت (= ثلاثة اطنان) وفي الخارج ، يوجد محراب ذهبي يليه محراب ثانٍ اكبر منه تنحر عليه الذبائح الكاملة النمو . ولا يجوز نحر الا القرابين الرضيعة على المحراب الذهبي . اما المحراب الاكبر فيقدم الكلدانيون عنده نذوراً من البخور تصل زنتها الى الالف طالنت كل عام .... »(12)

وبعد ثلاثة وعشرين قرناً من زيارة هيرودوت لبابل ، كان معبد مردوخ العظيم يقبع مطمورا تحت ما يزيد على الستين قدما من الاتربة والرمال مما يجعل عملية تنفيذ تنقيبات مكثفة فيه مسألة شبه مستحيلة . ولقد استطاع الالمان بعد

(*) زوس (Zeus) هو عميد الألهة عند الاغارقة وحاكم السماء . ويقابله جوبيتر عند الرومان .

جهد جهيد استخراج المعبد الرئيسي حيث امكن تشخيص الاكوا وضريح مردوخ ومصلى صغير مكرس لزوجة مردوخ الإله سربانيتم ومعابد اخرى لغير هؤلاء من الآلهة مثل ايا ونبو وكلها ينتظم ضمن عدة غرف رتبت على نحو متناسق حول فناء مركزي • ومن البناية الملحقة به « انباو » لم يمكن تشخيص غير الجدران الخارجية والابواب • ولم يقدم لنا معبد ايساگلا عمليا اي اثر ثمين فقد جرى نهبه تماماً منذ وقت بعيد • وعلى قمة التل الاصطناعي الذي يدفن ايساگلا يقع الآن قبر عمران بن علي ليخلد للمسلمين قدسية ذلك المكان من ارض بابل •

عيد السنة الجديدة

في ربيع كل عام كانت بابل تتحول الى بؤرة للتقوى والورع المتأصلين في نفوس شعب سومر واكد فتتجه انظار كل الناس طوال احد عشر يوماً صوب المراسيم الدينية الاحتفالية القائمة في العاصمة باعتبارها المجيبة عن آمال وآلام كل مواطن يعيش على ارض وادي الرافدين • وكان الاعتقاد السائد هو ان البشرية تشترك في التجديد العظيم الحاصل في الطبيعة ، وان الماضي قد انمحى ، والكون قد عاد ، وقتياً ، الى حالة الفوضى الشاملة ، وان مصير البلد خلال العام التالي يتوقف على الحكم الذي ستتفوه به الآلهة • ولم يكن بمقدور اية طقوس خالية من التعقيد والسحر ايجاد حل للمعضلة الواقعة لا محالة ووضع حد للخوف الهائل من المجهول الذي يلف كيان الجنس البشري •

وينبثق عيد رأس السنة (اكيتو) بالشكل الذي كانت تتم فيه مراسيمه في بابل خلال الالف الاول ق • م(13) من تأثير مزدوج لتيارين قويين من العقائد الدينية السائدة اولهما عبادة آلهة الخصب ذات الاصول العميقة الغور والشائعة في جميع انحاء الشرق الادنى منذ عصور ما قبل التاريخ ، وثانيهما

نظرية نشأة الكون السومرية الاحدث تاريخاً نسبياً • وكنا قد بينا سابقاً كيف ان كل دويلات المدن السومرية كانت تؤمن خصوبة حقولها ومواشيها وسكانها بواسطة الزواج المقدس بين إله وإلهة المدينة • ويأتي ذكر قيام مثل هذه الزيجات في نصوص تعود الى عصر سلالة اور الثالثة ، على سبيل المثال ــ بين « ننگرسو » و « بابا » في لگش ، وبين « نانا » و « گولا » في اور ، وفي اوروك بين « آنو » و « إنانا » ، وبين « انليل » و « ننليل » في نفر • وتقام مراسيم هذا الاحتفال ــ وتدعى بالسومرية « زاگموك » (عام جديد) ــ مرتين كل عام ، في الربيع والخريف ، وتنظم وتدار من قبل الامير او الحاكم المحلي الذي يبدو انه كان يلعب دور الاله الذكر في التقمص البشري للاتحاد الالهي وذلك منذ وقت جد مبكر • ثم طور رجال الدين في نفر قصة نشأة الكون فنسب خلقه الى انليل بعيد انتصاره على تيامات وقوى الظلام • وبعد الخليقة ، اصبح مجمع الالهة العام برئاسة « اله الريح » الذي يجمع بيده مصائر الارض وقدر البشرية • ولم يكن الخلق والبت في المصائر مسألة نهائية ثابتة تجري مرة واحدة لتستمر ابداً ، بل كان الاعتقاد السائد هو انها عرضة للنظر والمراجعة السنوية المشروطة تأسيساً على مبدأ تجدد الصراع الكوني كل عام واستحالة التكهن بنتائج ذلك الصراع • وهكذا فقد امتزجت في عيد رأس السنة الجديدة البابلي فكرة الزواج المقدس بقصة الخليقة في وحدة متناغمة حيث جرت مزامنة تحول الطبيعة من الجدب الى النماء مع استتباب النظام الالهي الكوني في اطار جدلي • وفي تلك « الدراما » المزدوجة اسند الى مردوخ الدور الرئيسي ليجمع مع شخصيته الخاصة كاله للخصب والنماء شخصية انليل بطل وملك الآلهة •

ويبدأ عيد الاكيتو في بابل في الاول من نيسان (آذار ــ نيسان)(*) ويستمر لمدة احد عشر يوماً •(14) وتخصص الايام الثمانية الاولى للتكفير ،

(*) يستهل البابليون عامهم بشهر نيسان •

حيث يفترض ان الاله مردوخ يكون محتجزاً اثناءهـا في « جبـل » العالـم الاسفل[15] • ومن الفاتح من نيسان وحتى اليوم الرابع منه لا يقيم اي مـن العباد في معبد ايساگلا عدا الكهنة حيث تقام الصلوات وتنشد التراتيل ويجري التهيؤ للاحتفالات التالية • وفي اليوم الرابـع ، « وبعد الوجبة الثانيـة عند الغروب » يقوم الكاهن الاوريگالو بتلاوة قصيدة « اينما ايليش » (قصـة الخليقة) المسهبة كاملة • ويكرس اليوم الخامس للتطهير حيث يقوم الكاهـن « المشماشو » برش الماء المطهر في اركان المعبد ودق الطبول وتلاوة الادعيـة وحرق البخور ، ثم يجري اخيراً نحر خروف وتمسح جدران المعبد بدمائه ويرمى رأسه وجسمه في النهر • وكان يفترض ان « كبش الفداء » هـذا يأخذ معـه كل آثام تلك السنة • ولما كان المشماشو يغدو نجسا جراء هـذه الطقوس ، لذلك فقد كان يتوجب عليه ترك ايساگلا لما تبقى من ايام العيد • وفي غضون ذلك ، كان الاهالي يعبرون عـن هياجهم بطريقـة أقـل رسمية • ولا يذكر لنا ما الذي كان يجري في شوارع بابل بالتفصيل غير ان هناك نصا منقوشا على رقيم مكسور غير متماسك[16] يشير الى تعالي اصوات البكاء والنحيب عند الاهالي ، ثم يبلغ الهياج اشده في وضع فوضوي حيث تنشب العراكات في اماكن عديدة وتندفع عربة « بعل » (مردوخ) بدون سائق مسرعة الـى بيت اكيتو ، كما يبدو ان احد المجرمين كان يتخفى بلباس الملك وتطلق يده حـرة للعبث في المدينة •••• تلك بالتأكيد انما هي تجليات للهستريا الجماعية التـي ربما كان مبعثها محاولة خلق صورة للفوضى التي عمت الكون بسبب اختفـاء الاله •

وفي اليوم الرابع يتوجه الملك الى بارسيپا (برس نمرود ، عشرة اميـال جنوب بابل[17]) كي يستدعي الاله نبو ــ الذي يتوجب عليه فك اسر ابيـه مردوخ من سجن العالم الاسفل ــ ويعود مصطحباً تمثال نبو الى ايساگـلا بعد يوم • وفي باب المعبد يتخلى الملك عن شارة الملوكية ــ الصولجان والحلقة

وانسيف ـ مسلماً اياها الى الكاهن الاوريگالو الذي يضعها على كرسي امام مردوخ ثم يلطم الملك على خده . ويطلعنا الطقس الذي ندين له بهذه التفاصيل بان الكاهن هذا كان :

« يقوم بمرافقة (الملك) الى حضرة الاله بعل ... وعليه ان يجره من اذنيه ويركعه على الارض ... وعلى الملك ترديد ما يلي لمرة واحدة (فقط) :
لم اذنب ياسيد البلدان ولم اغفل ربوبيتك .
لم اخرب بابل ولم اسبب لها الهوان ... ولم انسَ مناسك معبد ايساگلا كما لم اوسع باللطمات خدي اي من عبادك ... ولم اهنهم . لقد حرست على بابل ولم اقوض جدرانها ...»

فيقوم الكاهن بطمأنة مليكه قائلاً :

«لاتخف .... سيستجيب الاله بعل لصلواتك ... وسيعظم سلطانك ... ويعلي ملوكيتك ... وسيباركك الاله بعل الى الابد ويحطم اعداءك ويسقط مناوئيك . »

ثم يعيد الكاهن للملك شارته ويلطمه مرة اخرى :

«على الكاهن لطم خد الملك ، فان سالت دموعه ... (فهذا يعني ان) الاله بعل راض, وان لم تظهر الدموع (فتلك دلالة على) ان الاله بعل غاضب وان العدو سينتفض ويسبب سقوطه . »(18)

ان رمزية هذا الطقس المهين جلية تماما حيث يقوم الملك هنا ـ الذي هو بمثابة كبش فداء للمجتمع ـ بالتكفير عن آثامه ، كما يجري تذكيره بانه مدين بسلطانه الى رغبة الالهة وليس لاي شخص آخر . وبعد تطهيره واعادة تثبيته ، يكون

بوسعه دخول المعبد للقيام بدور هام في احتفالات الايام التالية بحيث يتعذر عمليا الاحتفال بالعيد عند غيابه •

وفي غضون اليومين التاليين تصل الى بابل تباعاً الهة سبار ، كوثا ، كيش ، اوروك ، والمدن الاخرى قادمة عن طريق البر او بواسطة الانهار ، بينما ينغمس الملك في ايساگلا بانجاز مناسك عديدة تستهدف اعادة مردوخ الى الارض • وفي اليوم الثامن من نيسان يُبعث مردوخ من جديد فيدخل الملك ضريح الاله و (يأخذ بيده) ـ وهذه ايماءة تلخص المشاركة الملكية في العيد ويضعه في الباحة الفسيحة لايساگلا ويقدم له الالهة الاخرى الواحد تلو الاخر • وخلال الجلسة الالهية الاولى هذه تمنح السلطة لمردوخ كما هو مذكور في ملحمة الخليقة ، ثم يقام موكب هائل مهيب يضم تماثيل جميع الآلهة يتقدمها مردوخ في عربته الوهاجة بالذهب والفضة والتي يقودها الملك بنفسه وتطوف في شارع الموكب عبر بابل وسط اريج البخور واصوات الاغاني والموسيقى بينما يركع الناس تعبداً لدى مرور الموكب • ويترك الموكب المدينة مغادراً من باب عشتار ، وبعد سفرة قصيرة على الفرات ، يبلغ بيت أكيتو المعبد الضاج بالنباتات والاوراد وسط ميدان فسيح(19) • وتنقصنا تفاصيل الاحتفالات التي كانت تقام هناك غير ان من المؤكد انه كان يجري الاحتفالات بانتصار مردوخ على قوى الشر والعماء • ويذهب عدد من الباحثين الى ان اتمام مراسيم الزواج المقدس كان يجري في بيت اكيتو في حين يعتقد اخرون بان ذلك كان يتم في ايساگلا بعدئذ • ومهما يكن من امر ، فقد كانت الالهة تمكث هناك ثلاثة ايام وتعود الى ايساگلا في الحادي عشر من نيسان حيث تجتمع من جديد لتقرر « مصائر الارض » • ولا نعرف ما المقصود بهذا المصطلح الغامض • وربما كان يصارُ الى الاعلان عن نبوءات تتعلق بحوادث معينة كالحروب والمجاعات والفيضانات •••• الخ ، او ربما كانت الالهة تعيد تأكيد حمايتها لبابل ولملكها بعبارات عامة • ويختتم ذلك الاجتماع بوليمة كبرى ترافقها انغام الموسيقى

والصلوات • وفي اليوم الثاني عشر من نيسان تعود جميع الالهة التي كانت قد قدمت الى بابل راجعة الى مدنها ، كما يعود الكهنة الى معابدهم والملك الى قصره ، ويختتم الاحتفال بعيد رأس السنة العظيم •

الحياة الاقتصادية

لم تكن ذرى الفكر الديني الشامخة لتنفصل بمسافة بعيدة عن الواقع الدنيوي للحياة الاقتصادية في مملكة بابل الكلدانية حيث كان رجال الدين يتابعون باهتمام في مناطق عديدة ، تطمين الحاجات المادية للمواطن اضافة الى الحاجات الروحية • وعلى سبيل المثال ، ترينا ارشيفات معبد اوروك العظيم « إنانا » انه كان يستحوذ على اقطاعات كبيرة يستأجر بعضها للمزارعين ويتولى رجاله الاشراف على بقيتها • كما كان هذا المعبد يتولى القيام بنشاطات تجارية واسعة داخل وخارج حدود وادي الرافدين مؤلفاً بذلك وحدة اجتماعية ـ اقتصادية شبه مستقلة عن الحكومة المركزية(20) • وكانت تلك النشاطات المتنوعة توجه من قبل اداري « شاتامّو » يساعده مفتش « كيبو » بالاضافة الى عدة كتبة من الكهنة • واستخدم المعبد ملاكاً كبيراً من العاملين فقد كان بخدمته الرجال الاحرار « ماربانوتي » اصحاب المهن المختلفة لانجاز هذا الامر او ذاك ، والاجراء من المزارعين والعبيد لحرث وحصد الحقول العائدة له وحفر وصيانة قنوات الري فيها ، ورعي ماشيته وضمان نقل وتخزين بضائعه ويجب ان نخص بالذكر هنا طبقة « الشيركا » (مفردها شيركو) من بين خدم المعبد ومعناها الحرفي : « المكرّس » وقد الف هؤلاء طبقة اجتماعية جديدة تتوسط طبقتي الاحرار والعبيد قوامها الرجال والنساء ممن جرى وقفهم لخدمة المعبد مدى الحياة • وتولى هؤلاء انجاز مهمات متنوعة دون أن يتقاضوا أي أجر خاص ـ فيما عدا تولي كهنة المعبد مهمة اطعامهم واكسائهم طبعاً(21) • وكانت الموارد المالية للمعبد تشتمل على غلة الارض وارباح التجارة وريع

الحقول والبيوت والضرائب الدينية المفروضة على المواطنين اضافة الى قسم من النذور والقرابين التي كان تقديمها مسألة طوعية من الناحية النظرية وان كانت الزامية عملياً • ومن المحتمل ان تكون قد تواجدت تنظيمات اقتصادية اجتماعية اخرى مشابهة لهذا المعبد في المدن الاخرى ايضاً وان كانت اغلب الوثائق الاقتصادية التي عثر عليها في بابل وسپار وباسيپا واور والتي تم نشرها حتى الان تعالج في حقيقة الامر صفقات مقامة بين اشخاص منفردين فحسب(22) •

ومن المحتمل ان يكون الدور الاقتصادي المهم الذي لعبته قسم من المعابد على الاقل ابان عهد السلالة الكلدانية قد تطور اصلا خلال القرنين العاشر والحادي عشر ق • م فقبل ذلك التاريخ ، كانت السمة التاريخية العامة تتجه نحو التخفيض التدريجي لامتيازات المعابد بخلق اقطاعيات ملكية كبيرة وتطوير الملكية الخاصة • غير ان مجريات التطور التاريخي اتخذت مساراً مغايراً لسابقه خلال العصر المظلم للاحتلال الآرامي • وعلى الرغم من نقص الشواهد المكتوبة ، الا ان بوسعنا الافتراض غير مغالين بان اجتياح المحتلين الآراميين للسهل وسيطرتهم عليه قد دفع مزارعي وحرفيي وادي الرافدين الى الالتجاء الى المدن او الى ضواحيها ووضعوا انفسهم في خدمة السلطة الوحيدة المتبقية وقتذاك والمتمثلة برجال الدين المحليين • وهكذا فقد اصبحت المعابد مرة اخرى مراكز لكينونات اجتماعية ــ اقتصادية ــ حضارية في جنوب العراق ــ وهي حالة تذكرنا بالدور الذي لعبته الاديرة في العصور الوسطى الاوربية ــ وامتلكت تسهيلات غير محدودة لتوسيع رقعة سيطرتها • وفي ظل الهيمنة الاشورية، حيث تتوفر النصوص مرة اخرى، يبدو ان ثروة المملكة البابلية كانت تتركز في «مدنها الرئيسية» • وقد عمد ملوك الدولة الآشورية ــ الذين اعتمدوا المعابد بدرجة كبيرة لتوطيد الثبات السياسي في بابل ــ على شملها تحت اشراف اداري صارم ولجأوا أحياناً الى «الاستعارة من كنوزها»(23) • ولقد

حرر سقوط الدولة الآشورية المعابد من التدخل الحكومي الى حد بعيد • ولم يكتف نبوبولاسر ونبوخذنصر ـ بسبب تقواهما واخلاصهما للتقاليد الدينية الاصيلة الثابتة باعادة بناء المعابد وتزيينها ، بل ولقد امتنعا عن التدخل في شؤون منظمة المعبد واكتفيا باجتزاء نسبة عشرين بالمائة من مواردها • اما نبونيدس فقد لجأ على العكس من سابقيه الى اخضاع نشاطات المعبد الاقتصادية للاشراف الملكي الدقيق فانتدب لهذه المهمة اثنين من الموظفين الكبارهما : « الضابط الملكي سيد العينة » و « الضابط الملكي المؤتمن على صندوق الملك » ووكلهما على معبد إنانا في اوروك وزودهما بالتعليمات للاشراف على صفقات هذا المعبد وتأمين جباية منتظمة لضريبة العشر الملكية • وبالتأكيد فقد كان هذا الاجراء هو الذي اوغر صدور الكهنة عليه وجعلهم ينحازون الى جانب كورش ضد « هرطقة » الملك •

ولابد ان يكون هذا التوجه السياسي الجديد المقوت قد أملته صعوبات مادية جدية • فقد كان نبوخذنصر قد انفق مبالغ طائلة على اعادة بناء عاصمته بابل وغيرها من المدن ، كما لم تكن النشاطات « التنقيبية » لنبونيدس نفسه اقل تكلفة من سابقاتها • وبالاضافة الى ذلك ، فقد توجب على الحكومة اعالة جيش دائمي كبير • وباستثناء عيلام ، فقد كانت جميع البلدان الشمالية والعربية مغلقة الابواب عملياً امام تجارة وادي الرافدين • وعلى الرغم من بقاء سوريا وفلسطين بايدي البابليين إلا ان التمردات القائمة باستمرار فيهما جعلت تلك البقع البعيدة مصدراً للاعباء الثقيلة اكثر من كونها مصدراً للعون والرفاهية • ومما زاد في تردي الامور فقدان المدن الفينيقية الكثير من مقومات رخائها وثروتها بعد ان اصبح القرن السادس ق • م العصر الذهبي للتوسع الاستيطاني والبحري للاغارقة مما ادى الى انتقال تمركز الموانىء التجارية الرئيسية لشرق المتوسط من الساحل اللبناني الى

الموانىء اليونانية والايونية والليدية والى كليكيا ومصر • وبالطبع فقد افضى تضخم الانفاق وشحة الموارد المالية للمملكة الى استنزاف الخزينة الملكية مما اثر كثيراً على اقتصاد بابل عموماً • وتكشف دراسة لصفقات البيع والايجار عن زيادة ملحوظة في الاسعار بين بداية الفترة البابلية الحديثة ونهايتها • فالامة (العبدة) التي كانت تكلف (٤٠) شيقلا من الفضة حوالي عام (٦٠٠ ق٠م) اصبح سعرها (٥٠ شيقلا) بعد ذلك التاريخ بخمسين عاماً • وكان بالامكان في عهد نبوخذنصر شراء (٢ـ٤) « كـا » من الارض المزروعة بالشيقل الواحد ، غير ان قوته الشرائية اقتصرت في عهد نبونيدس على (١ـ٢ « كـا » فقط(24) وشملت الزيادة في الاسعار المواد الغذائية والملابس وغيرها من السلع الضرورية ذات الاستهلاك اليومي • ولاسباب عديدة فان من الصعب علينا رسم صورة واضحة عن معدل الاجور ، وان كان يبدو انها قد بقيت واطئة الى حد ما طوال هذه الفترة • فمثلا كان معدل الاجر الشهري للعامل غير الماهر يساوي تقريبا الشيقل الواحد ــ اي ما يكفي لشراء بشلين من الحنطة وثلاثة بشلات من التمر وهو ما كان يكفيه بالكاد لاطعام افراد عائلته • ونتيجة لهذا العوز فقد تعود الناس استلاف الاموال لآماد طويلة مما زاد في التضعضع الاقتصادي لبابل بفعل تضخم الكريدي •

والا يجب هنا اخذ مصطلح النقود بمعناه المألوف حاليا لان العملات المسكوكة ــ والتي يقال ان الليديين هم الذين اخترعوها في القرن السابع ق • م ــ لم يجر تداولها على نطاق واسع في الشرق الادنى قبل عهد داريوس الاول (٥٢١ـ٤٨٦ ق • م) وكان البابليون يتداولون قطعاً صغيرة من الفضة ذات اشكال متنوعة واوزان محددة • فكان الشكلو (شيقل) يزن حوالي ٣/١٠ الاونس ، ويساوي « المانا » حوالي الستين شيقلاً ووزنه ثمانية عشر اونساً تقريباً • اما البلتو (الطالنت) فيزن ستين مانا ، اي حوالي

(٧٦) باونا • وكان يستخدم في التداول ايضا نصف الشيقل ، وكذلك في بعض الاحيان ما تسمى بـ « شي » وتعني حرفياً « حبة الفضة » • ويعـود تاريخ استخدام هذا النظام في ارض وادي الرافدين الى اقدم الازمان فقد وجدت في ارضه قطعة من البرونز معلمة بكتابات او بصور تضمن درجـة نقاوتها منذ وقت مبكر من الالف الثاني ق • م • كما استخدم الآشوريون مسكوكات من الفضة والرصاص ثم استخدام النحاس بعدئذ في عقد الصفقات التجارية • والشيء الجديد الذي تم استحداثه في الفترة البابلية الحديثـة هو تبني معيار للفضة ، وكانت النسبة بين قيمة الفضة الى الذهب تتراوح بين (١٤) و (١٠) ــ (١) • ولقد ساعد استخدام مسكوكات قياسية كنظام للصلة على جعل تدوين الحسابات امراً اسهل كثيراً ، كما يسر ايضا عقد الصفات • ولكنه شجع في نفس الوقت تطور التسليف لسبب بسيط هو سهولة كنز « العمـلات » الفضية والمضاربة بهـا • ولقـد ادى استعمال المعادل العام الجديد في التبادل الى تفشي الربا وزيادة الرهونات وازداد معهما عـدد المدينين المنتقلين الى طبقة العبيد في كل مكان(25) • وخلال القرن السادس ق • م ، ازدهر التسليف الخاص بشكل لم يعهد من قبل في العراق حيث استطاعت شلة من « العوائل المصرفية » القليلة العدد ــ كعائلة « أجيبي » في بابل ــ الاستحواذ على ثروات طائلة من مجرد تسليف الاموال بسعر فائدة عال يتراوح بين ٢٠ و ٣٠٪ فاصبحت اغنى من المعابد ، بل وربما اغنى من الحكومة نفسها في نفس الوقت الذي كانت فيه الفاقة تعم القسم الاكبـر من السكان •

ولا يجب المبالغة في اهمية ظهور نظام وحدة النقـد وتطور التسليف الواسع النطاق كظاهرتين اقتصاديتين مثلما لا يجب التقليل من اهمية ظاهرة انبعاث المعابد كوحدات اجتماعية ــ اقتصادية كبيرة وتساعدنا كل هـذه المؤشرات الجديدة على تفسير ما جرى بعد ان فقدت بابـــل استقلالها

السياسي حيث ساهم الكساد الاقتصادي في اضمحلال حضارة وادي الرافدين • غير ان المعابد استطاعت من جانبها ابقاء جذوة تلك الحضارة حية متقدمة لستمائة سنة اخرى تقريبا • وبصدفة فريدة فقد كتب على هذه الحضارة المجيدة ان تموت مثلما كانت قد ولدت تماما ، اي : تحت اجنحة الالهة •

الفصل الخامس والعشرون

مــــوت حضـــــارة

كانت المدينة العظيمة التي وصفناها قبل قليل تقبع ، حتى قبل مدة ليست بالطويلة ، مدفونة تحت طبقة سميكة من الاتربة مثل غيرها من مدن وقرى العراق القديم • وكانت تشاهد هنا وهناك على هذه التلال آجرة نقشت عليها كلمات بلغة لم يكن بوسع اي استاذ قراءتها ؛ كما لم يكن يعرف عمليا اي شي عن النصب الفنية والقطع الادبية الفاخرة والنشاطات العلمية التي انتجها وادي الرافدين خلال ثلاثة آلاف عام من التاريخ • وهكذا فقد اصبحت حضارة وادي الرافدين القديمة يطويها النسيان • وحتى في وقتنا هذا ، فان المرء لا يتمالك نفسه وهو يواجه اكثر الآثار خرابا عن التساؤل : متى ، كيف ، ولماذا انقرضت تلك الحضارة العظيمة ؟

ولو كان الاخمينيون قد عاملوا بابل مثلما عامل الميديون والبابليون نينوى لما كانت هناك ثمة مشكلة اذ يقدم لنا تاريخ الشرق الادنى ـ بالاضافة الى الآشوريين ـ امثلة اخرى لامم وحضارات اختفت بين عشية وضحاها

تقريبا بعد ان وقعت فريسة حروب مهلكة كالمملكة الحثية في بوغاز كـوي ومملكتي اورارطو وفريجية • ولكن الاخمينين لم يخربوا بابل، كما لم يخربوا المدن الاخرى التابعة لها• وتؤكد لنا اعداد من النصب والمخطوطات التي يعود تاريخها الى الفترات الاخمينية والهيلينية والبارثية بقاء حضارة وادي الرافدين حية حتى القرن الاول ق• م• فكيف أضمحلت تدريجيا لتنقرض تماما في النهاية؟

يبدو ان هنــاك سببين يفســران لِمَ لم يحظ سؤال جد مهم كهـذا بالاهتمام اللائق به حتى هذا التاريخ • فمن جهة يغطي هـذا السؤال ثلاثة حقول منفصلة من البحث العلمي التاريخي المرهق • فالمؤرخون المتخصصون في دراسة تاريخ الشرق الادنى السامي والمؤرخـون للعبرانيين وللاشوريين لا يرغبون طبعاً في بحث واستقصاء مادة تقع في حقل اختصاص دراسة التاريخ الاغريقي والايراني الذي لا يلمون به الماماً كافيا ، في حين يعامل المؤرخون المتخصصون في التاريخ الهيليني والايراني ــ وهم بمواجهة مشاكل اكبر ــ وادي الرافدين كموضوع ثانوي كائن خارج نطاق الاطار العام لدراستهم • ومن جهة اخرى فان اضمحلال وسقوط حضارة ما في اي مكان من العـالم هي على الدوام مسألة معقدة تعتمد على عوامل سياسية ، عرقية ، لغويـة ، دينية ، اقتصادية ، وجغرافية متشابكة ، والتي هي ــ في حالتنا هذه ــ خارج نطاق دائرة معرفتنا في اغلب الاحيان • مع ذلك ، فانه يجدر بنا الآن بعد ان وصفنا باسهاب كيفية ميلاد حضارة وادي الرافدين ان نحاول ، على الاقل ، استقصاء عملية احتضارها • وسنورد فيما يلي من الصفحات تسجيلا مركزاً لتاريخ وادي الرافدين خلال ثلاث فترات من الهيمنة الاجنبية تعاقبت عـلى الحكم فيه بعد عام ٥٣٩ ق • م ــ وهو العام الذي فقدت فيه بابل استقلالها السياسي الى الابد • وهذه الفترات هي :

الفترة الاخمينية (٥٣٩ـ٣٣١ ق • م)

الفترة الهيلينية (٣٣١ ــ ١٢٦ ق • م)

الفترة البارثية (الفرثية) (١٢٦ ق • م ــ ٢٢٧ م)

الفترة الاخمينية

ربما بدا للعديد من البابليين ان احتلال الفرس لبلدهم ليس اكثر من مجرد استبدال سلالة حاكمة باخرى ٠ وما ان انجز احتلال بابل حتى عادت الحياة بين دجلة والفرات تأخذ مجراها الطبيعي واستمرت النشاطات الاقتصادية كالمألوف ؛ مع فارق ان العقود اصبحت تؤرخ الآن وفق سني حكم «كوارش»، ملك بابل ، ملك البلدان » بدلا من سني حكم نبونيدس ٠ وسلمت رئاسة حكومة المدينة اول الامر الى قائد نبونيدس المسمى كوبرياس ، ولكن ابن كورش المسمى « قمبيز » (كامبوزيا) كان هو الذي « تناول يد الاله بعل » في عيد السنة الجديدة لنيسان عام ٥٣٨ ق ٠ م(1) ٠ ومن ذلك الحين اصبح قمبيز نائباً للملك على بابل يحكمها من مركز قيادته في سبار وله هيأة ادارية من الموظفين المحليين ٠ وعندما قتل كورش في معركة بعيداً عن بابل عام ٥٣٠ ق ٠ م ، اصبح قمبيز ذو الخبرة بالتاج الملك على فارس ٠ ولا تتوفر لنا سوى معلومات قليلة عن هذه الفترة اهمها ان الجنود البابليين قد تم الحاقهم بالجيش الفارسي وانهم قد ساهموا في احتلال مصر ٠ ومهما تكن حقيقة الرواية عن السلوك الارعن للملك الفارسي في وادي النيل ، الا انه من المؤكد ان البابليين قد استمتعوا بسلام كامل خلال عهد حكمه ٠

وبوفاة قمبيز المبكرة في عام ٥٢٢ ق ٠ م انتهى شهر العسل هذا لان اخاه « بارديا » الذي اغتصب العرش هزم وذبح بعد ذلك بثمانية أشهر من قبل داريوس(2) ٠ وعلى الرغم من كون داريوس ينحدر من سلالة ملكية ـ فهو حفيد اريارافس ويعود لذلك الى العائلة الاخمينية ـ الا ان سلطته جرى تحديها على الفور ٠ فقد رفض عدة مرازبة كان كورش قد عينهم

الخضوع للملك الجديد ، بينما جمع فراورتس الثاني في ميديا ومدع آخر للعرش في فارس الكثير من الانصار حولهما • ولم تتأخر بابل ـــ التي بقيت هادئة حتى ذلك الوقت ـــ عن الالتحاق بالثورة فقد كان ما يزال يعيش في ظهرانيها رجال كانت شعلة الحرية لما تزل تلتهب في صدورهم • ويذكر لنا الملك الفارسي في مخطوطة مسمارية طويلة كتبت بثلاث لغات هي الفارسية القديمة والبابلية والعيلامية نقشت على حجر بهستن قرب كرمنشاه لتخليد ذكرى انتصارات داريوس على اعدائه(3) ـــ كيف ان شخصاً من بابل يدعى « لندتنو ـــ بعل » قد جهز جيشا بعد انادعى بانه «نبوخذنصر بن نبونيدس» واستلم عرش بابل • فزحف عليه داريوس بنفسه ، وسحق الجيش البابلي على دجلة والفرات وطارد الثائر حتى عاصمته حيث القي القبض عليه واعدم • وطبقاً للعقود المؤرخة فان عهد نبوخذنصر الثالث قد دام من شهر تشرين الاول الى كانون الاول من عام ٥٢٢ ق • م • وفي شهر آب من عام ٥٢١ ق•م ، وبينا كان داريوس منهمكاً في القتال من اجل تاجه في ميديا وارض فارس ، قام البابليون « بشق عصا الطاعة مرة اخرى » • وكان مدعي العرش هذه المرة والذي ادعى كذلك بانه نبوخذنصر بن نبونيدس ـــ ارمينياً اورارطيا يسمى « اراخا بن هلديتا » • فوجه داريوس ضده احد قواده المدعو « فندفارنا » :

« قلت له « سر الى الامام ! قاتل هذا الجيش البابلي الذي يرفض ان يتبعني ! » فزحف فندفارنا ضد بابل بجيشه (الفارسي) • ومنحني اهورافردا(*) عونه ، وبارادته قاتل فندفارنا البابليين واسرهم • وبعد انقضاء ٢٢ يوما من شهر مرگزانا ، القي القبض على اراخا والنبلاء انصاره

(*) وهو في الزرادشتية رمز الروح او المبدأ الكوني المناهض لقوى الظلام، التي يمثلها « أهريمان » •

الرئيسيين . عند ذاك اصدرت اوامري .. « يجب خوزقة اراخا واتباعه من النبلاء في بابل » ! »(4) .

وقتل نبوخذنصر الرابع في السابع والعشرين من تشرين الثاني عام ٥٢١ ق . م . وفي بداية عام ٥٢٠ ق . م ، وبعد ان تخلص داريوس اخيراً من كافة اعدائه ومنافسيه ، جرى الاعتراف به ملكاً في معظم ارجاء الشرق الادنى . فبدأ على الفور باجراء العديد من الاصلاحات الكبيرة التي استهدفت توطيد اركان سلطته وتوحيد المناطق المختلفة من امبراطوريته الشاسعة مع بعضها . فاعيد تنظيم الجهاز الاداري وفق النمط الآشوري فازداد عدد المرازبة وتحددت سلطتهم اكثر بتعيين حكام عسكريين وجباة ضرائب ومفتشين ملكيين . وكان رسل الملك ينفذون بسرعة من بحر ايجة الى الخليج العربي سالكين شبكة منظمة من الطرق التي تثير الاعجاب . واخضعت جميع الشعوب التابعة الى قانون واحد على غرار شريعة حمورابي كما جرى توحيد نظم التداول فاصبحت تستند على قاعدة الذهب واصبح « الدارك » الذهبي هو العملة الشائعة في اعمال التجارة والتسليف والذي كان يعادل عشرين شيقلا من الفضة . وبقيت بابل ــ التي اعيد تنظيمها وسحقت ثورتها واثقل كاهلها بالضرائب واخضعت لهيمنة ملكية صارمة ــ هادئة خلال ما تبقى من عهد حكم داريوس الطويل الامد (٥٢٠ــ٤٨٥ ق.م) .

وفي السنة الرابعة من عهد حكم « احشويرش » (زيركس)(*) ، قام البابليون بآخر محاولة لاستعادة حريتهم (عام ٤٨٢ ق . م) حيث تبين لنا عقود الصفقات التجارية التي عثر عليهافي دلبات وبارسيبا وبابل ان كلا من « بعل ــ شيماني » و « شمش ــ اريبا » قد اعتبر ، بالتعاقب ، ملكا على بابل ؛ فحكم الاول في شهر آب والثاني في ايلول . كما تعلمنا مصادر اخرى

---

* (Xerxes) او خشرخيش ايضاً

ان المرزبان « زوفيروس » قد قتل في بابل وأن احشويرش قد غضب غضباً شديداً لقتله فارس اخاه بالرضاعة « مگابيسيوس » لضرب الثورة(5) • وكان اخماد الاخير لثورة بابل وحشياً فقد قام بتعذيب وذبح الثوار بشكل فظيع وان كان يصعب تقدير حجم الخراب الذي اصاب بابل وقتذاك بشكل مضبوط • فاذا كان هيرودوت قد قام فعلا بزيارة بابل بعد تلك الحادثة بعشرين عاماً فان وصفه لها يسمح لنا بالاستنتاج بأنها قد عانت اذى قليلا بدرجة ما • وفي الحقيقة فان « أبو التاريخ » يكتفي بذكر ان احشويرش قد سلب من ايساگلا التمثال الكبير للاله مردوخ المصنوع من الذهب • غير ان كتابات المؤرخين الآخرين مثل « آريان » و « ستيسياس » و « سترابو » توحي لنا بان اسوار المدينة قد جردت وان المعابد قد سويت مع الارض(*) • ولما كان اسم ايساگلا والمعابد الاخرى يتكرر وروده في نصوص متأخرة ، لذلك فمن المحتمل ان تكون تلك المعابد قد خربت جزئياً وتهدمت في القرون اللاحقة بسبب تركها دون صيانة •

كان لفشل البابليين في استعادة استقلالهم الوطني نتائج ذهبت ابعد من مجرد خسارتهم لمجدهم وسمعتهم • فقد كان ملوك وادي الرافدين . منذ ابعد الازمان ، مسؤولين امام الالهة عن ازدهار رعاياهم وعن بناء وصيانة المعابد والقصور والتحصينات وحتى حدائق وميادين المدن التابعة لهم • ولقد دأب هؤلاء الملوك على تأمين حفر القنوات وتوسيعها وكريها وانشاء السدود والنواظم وصيانة حقوق الارض • وفي بلد مثل العراق القديم كانت الاعمال من هذا النوع تكتسب اهمية حيوية بالغة • فبغض النظر عما كان بوسع المعابد انجازه في مجالاتها الخاصة ووفق امكاناتها المحدودة . لم يكن بوسع احد غير الملك المقيم باستمرار في ارض هذا البلد والمتفهم على الدوام لحاجاته

(*) ويذكر كونتينو ان الاضرار التي لحقت بمعبد ايساگلا كانت شديدة لدرجة انها اجبرت الاسكندر المقدوني على التخلي عن رغبته في اعادة بنائه •

تأمين الاموال وقوة العمل اللازمة لانجاز مثل هذه المهمات على نطاق البلد باكمله . لقد كان وادي الرافدين بلداً مشلولاً الى حد بعيد بدون حكامه الوطنيين، وهكذا فقد كان الاستنتاج الوارد تماماً في ظل ظروف كهذه هو تهدم البنايات المهجورة وامتلاء القنوات بالترسبات وتحول قسم من التربة الخصبة الى صحار .

وقد قام الملوك الاخمينيون الاوائل بالايفاء ببعض المهام الملكية التقليدية في وادي الرافدين ، واعني بذلك واجبهم نحو واحدة من اغنى واكثر المناطق تحضراً في امبراطوريتهم . فلدينا مثلا معلومات عن قيام كورش بترميم معبد سن في اور ومعبد اي — انا في اوروك . وانشأ داريوس في بابل — التي كان يمضي الشتاء فيها — مستودعاً وقصراً لولي عهده مع «ابادنا» (قاعة مسنودة باعمدة وفق طراز خاص) لقصره الخاص(6) . ولكن لا يبدو ان احشويرش وخلفاءه — الذين انشغلوا على الدوام بحروب طاحنة تتطلب نفقات هائلة — قد اولوا كبير اهتمام لبابل حيث تفتقر الفترة المحصورة بين تسنم احشويرش العرش عام ٤٨٥ ق . م وفتح الاسكندر المقدوني لبابل عام (٣٣١ ق . م) الى المخلفات المعمارية والمخطوطة بشكل ملفت للنظر . وتثبت لنا الوثائق التجارية التي وجدت في وضعها الاصلي(7) ان بابل وبارسيبا وكيش ونفر واوروك واور كانت ما تزال مدناً تنبض بالحياة ، كما كان بعضهما مزدهراً الى حدما . ولكن لا يبدو ان اياً من منشآتها قد تم ترميمه او اعيد بناؤه . هذا في جنوب العراق ، اما شماله (القطر الآشوري) فقد كان ما يزال يعاني من الدمارات الهائلة للاعوام ٦١٤—٦٠٩ ق . م . ويورد زينفون(*) — الذي سار عبر المنطقة الاشورية عام ٤٠١ ق . م بصحبة عشرة آلاف مرتزق يوناني — وصفاً لنمرود (التي يسميها لاريسا) كمدينة مهجورة تماما ، كما لم يستطع حتى تمييز اسوار نينوى « في التحصينات

* (Xenophon) زينفون مؤرخ وكاتب اغريقي صاحب كتاب الصعود «Anabasis»

الكبيرة » التي شاهدها قرب « مسيلا » (الموصل ؟)(8) . وفيما عدا اربيل كانت كل المدن الآشورية الاخرى قد تحولت الى انقاض أو اصبحت مجرد قرى صغيرة .

ومما ساهم في تدهور واضمحلال حضارة وادي الرافدين الظروف الاقتصادية الجديدة غير المؤاتية فيها . فالشريان الرئيسي للامبراطورية الاخمينية ــ اي الطريق الملكي الممتد من ساردس الى سوسه ــ اصبح يمر الآن عند اقدام الجبال متجاوزاً بابل . اما التجارة مع الهند والشرق عموماً فقد كانت حكراً على الايرانيين باعتبارهم اقرب الى تلك البلدان . وفصلت سوريا عن وادي الرافدين وذلك اما في عهد داريوس او احشويرش . وكانت الضرائب على شمال العراق وجنوبه اللذين اصبحا يكونان معاً المرزبانية التاسعة في الامبراطورية جد كبيرة فقد توجب عليهما دفع جزية سنوية قوامها الف طالنت من الفضة الى التاج وتجهيز البلاط الفارسي بالطعام خلال اربعة اشهر في السنة . وعلاوة على ذلك فقد توجب على العراق تحمل العبء الثقيل المتمثل في ارضاء الادارة المحلية الشديدة الطمع . واذا ما صدقنا هيرودوت فان مرزبان بابل كان يستلم يومياً « أرتبا » (حوالي مائة باينت) من الفضة ، وكان يحتفظ بـ (١٦٫٨٠٠) جواد ، كما كانت تشترك اربع من القرى لتوفير الطعام لكلابه الهندية !(9) وبسبب كل هذا فان الزيادة في الاسعار التي لوحظت خلال العصر البابلي الحديث قد بقيت مستمرة في الصعود خلال الفترة الاخمينية اذا ارتفعت تكاليف المعيشة في الفترة الذي تلت وفاة داريوس الى الضعف دون ان يرافقها ارتفاع في معدل الاجور . كما ارتفعت كلفة بدلات الايجار ايضا فقد كان ايجار منزل متوسط الحالة العمرانية يكلف خمسة عشر شيقلا في الشهر الواحد خلال عهد حكم كورش فارتفع الى اربعين شيقلا في عهد «ارتازيركس الاول» (**) (٤٦٥ ــ ٤٢٤) (10) . وبالتأكيد

(**) يكتب اسمه احياناً « ارتاحششتا » (Artaxerxes) وهو « اردشير الاول » .

فقد استثمر المرابون والصيارفة الكبار هذه الظروف فاستطاعت عائلة «موراشو» في نفر مثلا ان ترتهن معظم الاراضي المحيطة بالمدينة حيث كانت تؤلف شركة تجارة قوية عملت بين الاعوام ٤٦٠ـ٤٠٠ ق٠م ، استملاك واستئجار القنوات والمواشي وعدد الصيد • وكان المصدر الاساسي لدخل هؤلاء يتأتى من اعارة الأموال بسعر فائدة يتراوح بين ٤٠ـ٧٠٪ الى ملاك الارض في نفر لتمكينهم من دفع الضرائب المترتبة عليهم الى الحكومة الاجنبية(11) •

وليست باقل اهمية مما سبق التحولات العرقية واللغوية التي نجمت عن السيطرة الاخمينية • فسكان بابل والمناطق المجاورة لها الذين امتزجوا بالميديين والعرب واليهود والمصريين والاوراطيين وغيرهم من الاجانب خلال العهود الاشورية والبابلية استلموا من جديد دفقة كبيرة من الدم الفارسي في ظل حكم داريوس واحشويرش • ولقد تم منح الكثير من الفرس مقاطعات في بابل بامر الملك كما عين آخرون في مناصب مهمة مختلفة كالقضاء والادارة وغيرها • ومع هؤلاء دخلت آلهة ايران ارض وادي الرافدين • واذا كان صحيحا ان تلك الالهة لم تكن وقتذاك موضع عبادة منتظمة وان الامر الذي أصدره احشويرش(12) بمنع عبادة اية آلهة باستثناء اهورامزدا لم يجر تنفيذه او التقيد به ابداً من قبل شعب بابل فان من الصحيح ايضا ان مجرد حضور واقع قيام عدد من البابليين باستبدال اسمائهم السامية باسماء ترتبط بالآلهة السامية باسماء ترتبط بالآلهة الآرية يكشف عن خفوت قوة الايمان الشخصي واضمحلالها• ولم يكن بوسع اي من اللغات المحلية فرض نفسها كلسان عام لكل هذا الخليط من الناس باستثناء اللغة الآرامية السامية التي كانت واسعة الانتشار في غرب آسيا ، والتي يسهل تعلمها ، والتي تلائم تماماً الكتابة على الرقوق والبرشمانات (ورق شبيه بالرق) • وكان داريوس قد اعلن عن تبنيه لها رسميا كلغة عامة لامبراطوريته المترامية الاطراف فحلت بذلك محل

للغة البابلية في المساكن والشوارع والمحلات • وهكذا فقد اصبح من المتعذر على مواطني وادي الرافدين قراءة وكتابة اللغتين الاكدية والسومرية بخطها المساري فيما عدا كتبة المعابد ونخبة من المثقفين • وتثبت لنـــا النصوص الادبية والدينية والتاريخية العديدة المستنسخة خلال الفترة الاخمينيةـ بالاضافة الى اعمال المنجمين الرائعة أمثال نبوريماني وكدينو ـ ان مظاهر الحضارة التقليدية لوادي الرافدين كانت ما تزال حية تماما في تلك الدوائر المحدودة • الا ان المدونات الدينية كانت قد اصبحت عديمة المعنى بالنسبة الى الاغلبية الساحقة من السكان • ويعلمنا التاريخ بان الامـة التي تنسى لغتها تنسى ماضيها وتفقد شخصيتها بسرعة • وهكذا فقد كان وادي الرافدين في اواخر القرن الرابع ق • م بلداً منتهكاً ؛ مفقراً ، وشبه فاقد لشخصيته الوطنية عندما جاء الاسكندر الكبير ليعطيه حياة جديدة مختلفة تماماً •

الفترة الهيلينية

فتحت معركة « گوگاميلا » ـ قرب اربيل في اول تشرين الاول عـام (٣٣١ ق • م) ـ الطريق امام الاسكندر المقدوني لدخول بابل وبلاد فارس مثلما كانت موقعة « ايسوس » قد مهدت له الطريق قبل ذلك بسنتين لدخول سوريا ومصر • واستسلم له الجيش الفارسي المتمركز في بابل بدون قتـال فدخل الفاتح المقدوني العاصمة السامية القديمة دخول المنتصرين • ولقـد ادرك الاسكندر الكبير ، مثل كورش من قبله ، انـه لن يكون بوسعه حكـم ما يزيد على مائة امة مختلفة دون استمالة قلوب ابنائها • لذلك فقـد امـر بتقديم الذبائح لمردوخ وباعادة بناء المعابد التي كانت قـد خربت من قبـل احشويرش • ولقد كانت المهمة الاخيرة تستدعي بذل جهود هائلة لذلك فلم يكتب لها ان تتم ابداً(13) • اما البابليون فقد رحبوا بالاسكندر واعترفوا فوراً بملكيته • وبعد ان مكث في بابل شهراً ، انطلق الى سوسة في حملتـه

العظيمة صوب الشرق التي اوصلته الى نهر الكنج . وعندما عاد بعد ذلك بتسع سنوات كان ذهنه مليئاً بالمشاريع العظيمة اذ قرر ان تصبح كل من بابل في العراق والاسكندرية في مصر العاصمتين التوأمين لامبراطوريته ففكر بربطهما بحراً حول شبه الجزيرة العربية التي خطط لفتحها في اقرب وقت . وكانت من مشاريعه عملية استكشاف المحيط الهندي وجعل الفرات صالحاً للملاحة حتى مصبه في الخليج العربي ، وانشاء ميناء كبير في بابل وآخر في فم النهر . الا ان اغلب تلك المشاريع لم يدخل حيز التنفيذ فقد عاجلته المنية وهو مقيم في بابل في الثالث عشر من شهر حزيران عام (٣٢٣ ق . م) وعمره اثنان وثلاثون عاماً .

وعندما توفي الاسكندر الكبير لم يكن ابنه ـ الذي سيعرف بعدئذ باسم الاسكندر الرابع ـ قد رأى النور بعد فنصب اخوه « فيليب ارهيديوس » ملكاً على مقدونيا . الا ان سلطة هذا الامير الشاب ذي الذهنية المتخلفة بقيت اسمية فقط اذ انتقلت السلطة الحقيقية الى ايدي قادة الاسكندر المعروفين باسم « ديادوكي »(*) الذين تقاسموا ارث الامبراطورية بينهم وكافحوا لمدة اثنين واربعين عاما لمنع اي منهم عن اعادة بنائها مجددا . وخلال تلك الفترة ـ وهي واحدة من اعوص حقب التاريخ القديم ـ تناقلت السلطة في بابل ايد عديدة . فخضعت اول الامر الى مجلس عسكري بقيادة « بيرديكاس » الذي كان وصياً على العرش . وبعد مقتل الاخير على يد رفاقه عام (٣٢١ق.م) انتقلت بابل تحت امرة قائد سلاح الفرسان المقدوني سلوقس . وفي عام (٣١٦ ق . م) ، استطاع « انتيگونس » حاكم فريجيا الطموح ان يطرد سلوقس من بابل مجبراً اياه على الالتجاء عند بطليموس في مصر . ولكن سلوقس مالبث ان عاد ليستحوذ من جديد على ولايته عام (٣١٢ق.م) كما استطاع حمايتها بنجاح ضد الغارات التي شنها انتيگونس وابنه « ديمتريوس » لغرض استعادتها .

---

* (Diadochi) وتعني « الخلفاء ».

ولقد كان ذلك الصراع تطاحناً حاداً جلب الويلات على بابل وولايتها لدرجة ان احدى الوثائق البابلية التي تصف هذه الحوادث تأتي كثيراً على تكرار فكرة البكاء والحزن والدمار الذي سببته تلك الحروب للمنطقة(14) • وعندما هُزم انتيگونس اخيراً ثم قتل في افسس بفريجيا عام (٣٠١ ق • م) اقدم سلوقس على الحاق ولاية سوريا والنصف الشرقي من آسيا الصغرى الى بابل • ولكن الحرب ما لبثت وان اندلعت من جديد ، هذه المرة في الشرق بين سلوقس ، بطليموس ، ديمتريوس والحاكم المقدوني على تراقيا المدعو « لسماخوس » • وفي ايلول من عام (٢٨١ ق • م)(15) ، وبعد مضي بضعة اشهر على الحاق سلوقس الهزيمة بلسماخوس في « كوروبيديون » (قرب ساردیس) ، قام ابن بطليموس بطعن سلوقس حتى الموت • وكان الاخير قد اتخذ لنفسه لقب الملك منذ عام (٣٠٥ ق •م) ، ولكن « سني حكم سولوكو» — اي فترة الحكم السلوقي — لم تبدأ بالنسبة للبابليين الا في اليوم الاول من السنة التي اعقبت عودته من مصر أي في نيسان من عام ٣١١ ق • م • ولقد كانت هذه هي المرة الاولى التي يجري فيها استخدام نظام تأرخة عددي متصل في ارض وادي الرافدين •

خلف سلوقس ابنه « ابسس » الذي امتد حكمه على منطقة واسعة تمتد من حدود الهند حتى مصر ، ومن البحر الاسود الى الخليج العربي • غير ان تلك الامبراطورية كان ينقصها التجانس لذلك فقد بدأت بالانحلال فور تكونها تقريباً • وما ان حل عام (٢٠٠ ق • م) حتى كان احفاد سلوقس قد خسروا عملياً جميع مقاطعاتهم ومحمياتهم فيما وراء سلسلتي جبال طوروس وزاگروس • وبعد ان احتل الفرثيون بابل عام (١٢٦ ق • م) كان كل ماتبقى بحوزتهم لا يزيد على دويلة الى الشمال من سوريا تمزقها الازمات العائلية والتي سقطت فريسة هينة للرومان عام (٦٣ ق • م) • وفي واقع الحال ، ومنذ ان اسس سلوقس مدينة انطاكيا على جبال الاوروتس في مايس عام

٣٠٠ ق • م وجعلها مدينة اقامته المفضلة ، فان المملكة السلوقية كان دائماً مملكة سورية في الجوهر • وحتى اذا اخذنا بعين الاعتبار المحاولة الفاشلة التي قام بها « انتيوخس الثالث » (٢٢٣–١٨٧ ق • م) لاستعادة المناطق الشرقية ، فان النشاطات السياسية للمملكة السلوقية كانت تتركز بصورة كلية تقريباً على التناحر المستديم مع البطالسة في مصر للاستحواذ على الموانىء الفينيقية وعلى المنطقة الكائنة خلف الساحل • ولقد جلبت الفترة الاخيرة السلم للبابليين — الذين لابد وان اغتبطوا لرؤية دمار الحروب ينتقل من ارضهم الى « البلد وراء النهر » (عبر نهري) وهو الاسم الذي اطلقوه فترتئذٍ على سوريا(16) • ولكن هذا الانتقال كان يعني كذلك ان بابل قد خسرت المركز المتاز الذي كان يمكن ان تستحوذ عليه لو انها بقيت عاصمة للمقدونيين • ولقد أملت اعتبارات جغرافية وتاريخية مختلفة على المقدونيين اتخاذ مثل تلك الخطوة • وهكذا ، ولعدة سنين مقبلة ، فان مركز العالم السياسي والحضاري والاقتصادي سينتقل من ضفاف الفرات الى سواحل البحر الابيض المتوسط •

وبلا شك فقد كان اكبر انجاز مستديم للاسكندر المقدوني وخلفائه هو تأسيس العديد من المدن في مصر وغربي آسيا والتي جرى تنظيمها وفق الطراز اليوناني للمدينة ، وأقدم على استيطانها ، بالاضافة الى اليونانيين ، ابناء الشرق ايضاً • ولا يعرف بالضبط تماماً السبب الذي كان يكمن وراء اتخاذ هذا التدبير • فهل كان مرادهم تأسيس شبكة من المراكز السياسية العسكرية ام انهم كانوا يزمعون توسيع رقعة تأثير الحضارة الاغريقية واسلوب الحياة العائد لهم في بلدان الشرق ؟(17) غير ان النتائج التي حصدوها كانت واضحة تماماً فقد اصبح الشرق الادنى « مهلنساً » بدرجات متفاوتة ، كما تغير ، وبشكل عميق ، نمط الحياة المدينية في تلك المناطق • ولدينا معلومات عما لا يقل عن دزينة من مثل هذه المدن المقامة في ارض وادي الرافدين لوحده(18)

تمتد من « اديسا ــ انطاكيا » في اقصى الشمال الى « الاسكندرية ــ جاراكس » على ضفاف الخليج العربي او بالقرب منه . وكقاعدة ، فقد بنيت هذه المدن بجانب المدن والقرى القديمة او على انقاضها ، على الرغم من ان تصميمها وخصائصها المعمارية كانت مستحدثة تماماً . وكانت مدينة سلوقيا « تل عمر ــ مقابل طيسفون على دجلة »(19) التي اسسها انتيوخس الاول عام ٢٧٤ ق . م ــ ربما فوق موقع « أُپا » (أوپس السامية) ــ اكبر تلك المدن ليس فقط في وادي الرافدين ، بل وكذلك في جميع ارجاء المملكة السلوقية فقد ناهز عدد سكانها الستمائة الف نسمة . وتوضح لنا المسوح الجوية المعمول لها « تصميمها الشبكي » بشكل واضح حيث تنفصل صفوف المنازل بشوارع مستقيمة تتقاطع مع بعضها بزوايا قائمة . ولقد استطاعت حملتان تنقيبيتان مختصرتان نفذتا فيها استخراج العديد من الدمى الطينية والتماثيل الصغيرة والعملات والمواد الاخرى ذات الصبغة الهيلينية المتميزة . غير ان البنايات المستخرجة فيها تعود في الواقع الى طبقة استيطان فرثية اقيمت فوق انقاض طبقة سكن هيلينية . ولقد واجه المنقبون وضعا مماثلا في مدينة « دورا ــ يوروپوس » (الصلاحية الواقعة على الفرات على مبعدة ثلاثين ميلاً من مدينة ماري القديمة) وان كانوا قد استطاعوا هنا استخراج بقايا آثار عمرانية اغريقية تشتمل على حصن وقصر ومعبد واحد على الاقل وذلك تحت البنايات الفرثية .(20)

ولقد اقيمت جميع المدن الهيلينية على طريق التجارة العظيم الذي يربط آسيا الوسطى مع وادي الرافدين وازدهرت اعتماداً على عمليات النقل البضاعي . كانت سلوقيا بشكل خاص نقطة التقاء طريقين بريين قادمين من الهند (يخترق اولهما بكتريا وشمال ايران ويمر الثاني عبر برسبولس وسوسه) اضافة الى الطريق البحري المهم الآتي من الهند عن طريق الخليج العربي ، وعدة طرق اخرى تخترق شبه الجزيرة العربية . ومن سلوقيا كان يصدر الى سوريا

الذهب والعاج والتوابل والبخور والاحجار الكريمة بالاضافة الى منتجات وادي الرافدين : كالحنطة والشعير والتمور والصوف والقار اما عبر طريق الفرات المار بمدينة دورا — يوربوس او على امتداده عبر الجزيرة مروراً بنصيبين وأديسا . ولقد كانت العلاقات التجارية بين اوربا وآسيا وقسم من افريقيا غاية في النشاط خلال الحقبة الهيلينية . ولايشك بحقيقة ازدهار المملكة السلوقية بشكل عام على الاقل خلال القرن الثالث ق . م . اما معلوماتنا عن بابل فهي للاسف قليلة وان كانت النصوص التجارية المدونة العائدة الى اوروك بشكل رئيسي توضح لنا قيام نشاط اقتصادي لا بأس به داخل نطاق المدن الكبيرة القديمة وانخفاض الاسعار دون المعدل العالي الذي كانت قد بلغته ابان الفترة الاخمينية .(21)

ولقد احدثت الظروف الاقتصادية والسكانية الجديدة التي سادت العصر السلوقي تأثيراً بالغاً ومتفاوتاً على المدن القديمة فانتعشت نمرود كقرية صغيرة مزدهرة بسبب موقعها على طريق دجلة ، واستوطن الناس مدن نينوى وماري وارسلان طاش مجدداً بعد سنين طويلة على بقائها مهجورة ،(22) بينما انقرضت بالتدريج مدينة اور ربما بسبب لمعان نجم منافستها الجديدة « الاسكندرية — جاراكس » وكذلك بسبب التطورات الهيدروغرافية في المنطقة . اما بابل فقد اصابها تأثر شديد حيث لم تجد الجهود المبعثرة التي بذلها الحكام المقدونيون لتجديد وانعاش هذه المدينة نصف المخربة . وتعلمنا آخر مخطوطة ملكية دونت بالاكدية — والتي تعود الى عهد حكم « انتيوخس الاول » (٢٨٠ — ٢٦٢ ق . م) — ان الملك الاخير كان يطلق على نفسه لقب « معين ايساگلا وايزيدا » ، ويعلن ، مثل الملوك الكلدانيين العظام ، بأنه قد « شكل بيديه القويتين وجلب من بلاد حاتي (سوريا) اولى الآجرات لهذه المعابد »(23) . ويظهر لنا رقيم آخر يعود تاريخه الى عهد سلوقس الثالث (٢٢٦—٢٢٠ ق.م) ان النذور الاعتيادية كانت ما تزال تقدم لعدد

من الالهة البابلية في معابدها الخاصة ، كما وجدت بقايا لبنايات هيلينية في تل بابل وفي موقع قصر نبوخذنصر • وفي عهد حكم الملك انتيوخس الرابع (١٥١–١٤٣ ق٠م) — وهو الملك الذي عمل الكثير من اجل نشر الحضارة الاغريقية — حصلت بابل على مبنى للالعاب الرياضية ، ومسرح اغريقي رائع قام الفرثيون بتوسيعه بعدئذ(24) • غير ان بابل لم تفقد مركز الحكومة الملكية فحسب بل واصبحت كذلك مدينة شبه مهجورة ، بعد انتقال العديد من اهلها للاستيطان في مدينة سلوقيا الجديدة وقت تأسيسها(25) • ولا ندري ما الذي جرى لسپار ولكيش ونفر ، الا ان اوروك تبدو وكأنها كانت تتمتع برخاء كبير خلال العهد السلوقي بالاستناد الى النصب الجذابة التي اقيمت فيها • فقد بنيت حول زقورة « اي — انا » سطيحة ضخمة غيرت معالم المنطقة المقدسة تماما • كما بني في الاقسام الاخرى من المدينة معبدان كبيران هما معبد « اريكال » (ايش — كال) المكرس لعشتار ، وما يسمى بـ « بيت ريش » المكرس للاله آنو(26) • ويتميز هذان المعبدان بكافة الخصائص التقليدية الخاصة بالمعابد البابلية وان كانت المدونة الطويلة المنقوشة على الآجر المصقول الممتد على جدران غرفة المناسك في اريكال قد خطت باللغة والخط الآرامي ومما يميز هذه الفترة ايضا الاسماء الاغريقية التي خلعها الملك على قاضيي المدينة اللذين بنيا هذين المعبدين وهما « آنو أبلط نيكارخوس » و « آنو ابلط كيفالون » • وترينا دراسة للعقود التجارية المدونة على الرقم الطينية وعلى كرات صغيرة من الصلصال كانت توصل بواسطة خيط بالوثائق الرسمية المكتوبة على الرقوق او البرشمانات بالاغريقية او الارامية ان مدينة اوروك — يسميها الاغارقة « اورخوي » — كانت تستوطنها جالية يونانية مهمة مع انها كانت ما تزال محافظة على قوانينها وعاداتها القديمة ، اضافة الى كونها معفاة من بعض الضرائب الملكية • وكانت منظمة المعبد تضطلع بعقد معظم الصفقات التجارية ، وتشارك في نشاطات اقتصادية كانت مثار اهتمام المواطنين العاديين ، تجري وفق نظام لا يختلف عن

نظام حملة الاسهم المعاصر كثيراً(27) • ولقد تأكد تماماً وجود دويلات معابد شبه مستقلة في آسيا الصغرى ابان الفترة الهيلينية • ومن المحتمل ان اوروك كانت تدين بمركزها المشابه هذا الى النهج «اللبرالي» للسياسة السلوقية •

كانت هذه المعابد ـ كتلك التي وجدت في اوروك وسپار وبابل وبارسبا ـ قد اصبحت في واقع الحال مراكزاً لديمومة الحضارة السومرية الاكدية • فخلال الفترة السلوقية استمر الفلكيون والمنجمون في تسجيل حركات الاجرام السماوية على رقمهم ، في حين كان كتبة المعبد يدونون الحوادث المعاصرة وفق تسلسلها التاريخي ، كما استنسخوا عدداً من الاساطير والمناسك والتراتيل والنذور القديسة جداً • ويبدو بديهيا ان الحضارة الاغريقية المتطورة والمنتعشة في مدن كسلوقيا كانت مصدر جذب قوي لافراد طبقة الانتلجسيا البابلية الاقل محافظة • ولكننا اذا ما وضعنا قائمة طويلة باسماء المؤلفين الاغارقة من سكان وادي الرافدين(28) فانه غالباً ما يتعذر علينا التمييز بين اولئك المنحدرين من اصل يوناني ـ مقدوني وبين اولئك الذين ولدوا في بابل ولكنهم تبنوا اسماً اغريقياً • وفي الحقيقة فان البراهين التي بحوزتنا تثبت قيام حركة في الاتجاه المعاكس حيث لم يكن الاغارقة مهتمين بتاريخ او ادب وادي الرافدين بالقدر الذي اهتموا فيه بالاعمال العلمية وشبه العلمية للكلدانيين فقام « سودينس » البابلي في القرنين الثاني والثالث الميلادي بترجمة مؤلفات كدينو وغيره من كبار المنجمين الى اللغة اليونانية ، كما قام برويسس كاهن مردوخ بكتابة ذلك الخليط الغريب من علم التنجيم والقصص التاريخية وذلك باللغة الاغريقية • ويدعى مؤلفه هذا باسم « بابلونياكا (Babyloniaca) (*)، وهو مكرس لانتيوخس الاول(29) •

(*) وتعني « البابليات » وكتبت في ثلاثة مجلدات لم تصلنا منها سوى شذرات جمعها يوسيبيوس قيصر ، وكتاب اغارقة آخرون . اما مؤلفها بيروسس «Berossus» فمن المحتمل ان يكون اسمه البابلي في الاصل « برعوشا » أو « برحوشا » .

ولقد مكنت هذه الوشائج الحضارية ، على محدوديتهـا ، من حفظ بعض اروع منجزات وادي الرافدين للاجيال القادمة ، بينما راحـت طائفة مـن أسوأ النتاجات المتأخرة لمعتقدات وادي الرافدين المرتبطة بالقدر والتنجيم تتغلغل في اديان الغرب فافسدتها .

الفترة البارثية (الفرثية)

يظهر اسم الفرثيين ، وهم فرع من السيثيين ، أول ما يظهر في سجلات التاريخ حوالي عام (٢٥٠ ق . م) عندما قاد « أرساسز » افـراد قبيلته البدوية خارج تركستان لتستوطن في الزاوية الشمالية الشرقية من ايـران . وبحلول عـام (٢٠٠ق.م) تمركز « الارساسيديون » بثبات على امتداد الساحل الجنوبي لبحر قزوين . وفي ما بين الاعوام (١٦٠-١٤٠ ق . م) ، فتح « مثريداتس » الاول كامل الهضبة الايرانيـة حتى وصل نهر دجلـة فعسكر في طيسفون المقابلة لسلوقيا . واستطاع ديمتريوس السلوقي ان يستعيد بابل وميديا لفترة قصيرة ولكن « أرتبانوس » الثاني ملك الفرثيين مالبث ان استرجع هذه المناطق عام ١٢٦ ق.م . ومنذ ذلك التاريخ سـقط العراق في قبضة الفرثيين الذين سيدوم سلطانهم عليه حتى انتقاله مع بقيـة اقطار المملكة الفرثية الى السيطرة الساسانية لدى اجتياح الاخيرين للمنطقة عـام ٢٢٧ م. ولقد تخلل تلك الفترة احتلالان رومانيان قصيران للعراق ابان عهد حكم تراجان وسبتيموس سفيروس .

ولكي يستطيع الارساسيديون حـكم اقـاليم امبراطوريتهم ما كـان بوسعهم الا التوكل على ارستقراطية صغيرة مقدامة من الفرثيين مع انهـم كانوا اذكياء بما يكفي لان يستثمروا التنظيمات الاجتماعية التي ابتدعها السلوقيون او التي نمت على انقاض مملكتهم . وشجعوا تطور المـدن الهيلينية ، كما سمحوا بتكوين ممالك مستقلة خاضعة لنفوذهم كمملكـة

« اوسـرهونية » (حـــول أديسا ــ اورفه) ، « ايديابينه » (في القطر الآشوري القديم) ، و « چراسينه » (قرب الخليج العربي) • ونحو بداية التاريخ المسيحي ، استحوذت « الحضر » ــ وهي احدى المدن القليلة التي اسسها الفرثيون ــ على استقلالها الذاتي واصبحت مركزاً لدويلة تعـرف باسم « عربا »(30) • وبفضل هيمنتهم الكلية عملياً على الطرق التجاريـة التي تصل آسيا بالعالم الاغريقي ــ الروماني ، لذلك فقد اغتنى الارساسيديون كثيراً ، كما ازدهرت الممالك الخاضعة لهم • وبالطبع فقد نجم عن هذا تميز القرنين الثاني والاول ق٠م بنشاطات عمرانية مكثفة على ارض وادي الرافدين وذلك نتيجة للمبادرات الحكومية او المحلية • ولم يكتف بتزويد سلوقيـا ودورا ــ يوربوس والاسواق التجارية المزدهرة الاخرى بعدد كبير من النصب الجديدة فحسب ، بل ولقد تم كذلك الاستيطان من جديد في مدن وقرى كثيرة بقيت مهجورة باطلالها لمئات من السنين • فقد وجدت مخلفات فترة الاحتلال الفرثي في كل موقع تقريباً من المواقع التي جرى التنقيب فيهـا جنوب العراق وخصوصاً مدن بابل وكيش ونفر واوروك وحتى مدينة لكش المنسية منذ دهور(31) • اما في الشمال فقد بعثت مرة اخرى المدن الآشورية القديمة نحو نوزي وكاكزو وشيبانيبا حيث تم استيطانها من جديد • كما واعيد بناء آشور فاصبحت مدينة كبيرة مثلمـا كانت ابـان اوج ازدهار الامبراطورية الآشورية(32) • ولكن المستوطنات الفرثية الجديدة على ايـة حال لم يكن ليجمعها اي جامع بالمدن الآشورية او البابلية القديمة • فلقد امتلكت العديد من هذه المدن الجديدة ، ان لم تكن كلها ، شوارع مستقيمة تحدها الاعمدة في اكثر الاحيان ، كما جرى تشييد الحصون فوق الزقورات القديمة ، وانشئت ميادين عامة حيثما امكن ذلـك • واستبدلت الجـدران القديمة المبنية بالآجر الطيني (اللبن) بجدران من الحجارة او الصخر المربع المنحوت • وحتى البنايات الجديدة نفسها المتميزة بغرفها المقوسـة العاليـة

المفتوحة من جانب واحد (الايوان) وبهوها المعمد الرشيق المزين بالجص المزخـرف اصبحت تختلف تمامـاً عن البنايات التي اقامهـا معماريو وادي الرافدين القدماء مثلما تختلف النصب الاغريقية ـ الايرانية لحكام الحضـر عن تلك التي تعود الى گوديا او آشور ناصربال •

وتؤشر هذه المعلومات الآثارية والاثباتات المدونة الى هجرة سيل هائل من الناس الى وادي الرافدين واستيطانهم فيه • فقـد عـاش المستوطنون اليونانيون والمقدونيون ـ الذين ربما لم يكن عددهم كبيراً اول الامر ـ مع البابليين وانشأوا معهم علاقات محدودة نسبيا حيث بقوا محافظين على قوميتهم وتقاليدهم وفنونهم ولغتهم ، أي عـلى « اغريقيتهم » ، تحت حمايـة ملوك متنورين اطلقوا على انفسهم لقب « الفلهيليني »(*) ولكن اكثر الوافديـن الجدد من الآراميين والعرب والايرانيين الذين استوطنوا ارض وادي الرافدين قدموا باعداد جـد كبيرة وامتزجوا بالسـكان العراقيين الاصليين بسهولة اكثر باعتبارهم ينحدرون من أصل شرقي أو سامي ويتكلمون بلسان واحد • ولقد قدمت كل مدينة عراقية ، جديدة كانت ام قديمة ، مأوى لعدة آلهـة اجنبية • ففي مدينة دورا ـ يوربوس مثلا امكن العثور على معبدين اغريقيين ومعبد آخر آرامي ومقدس مسيحي وكنيس يهودي ومثريوم فارسي بالاضافة الى مراقد الآلهة المحلية وآلهة پالميرا • وكان الوضع الديني في مدينة الحضر مشابهاً ايضا فقد امتلك كل من الإله السومري الاكدي « نرگال » والالـه اليوناني « هرمز » والإلهة الارامية « اتارعات » والآلهة العربية « اللات » و « شاميه » مراقد لها فيها حول معبد مهيب مكرس لاله الشمس « شمش » المعبود من قبل جميع الساميين • وحتى في مدينة اوروك ، التي هي المسكن التقليدي لآنو وعشتار ، فان بوسعنا للآن رؤية معبد صغير جذاب ـ مشيد على الطراز الروماني وليس اليوناني ـ مكرس للاله الايراني « كاريوس » ،

(*) المعجب بالاغارقة وحضارتهم .

كما وجدت فيها بقايا بناية غريبة الشكل يعتقد انها كانت معبدا للآلهة الفارسية « مثرا »(33) •

وهكذا فقد غمر هذا السيل البشري كل ما تبقى من الحضارة السومرية الاكدية • ولا تزيد النصوص المسمارية التي نمتلكها والتي تعود الى تلك الفترة(34) على مجموعة من العقود التجارية وحوالي مائتي نص فلكي او تنجيمي ، واثنتين او ثلاث وثائق تاريخية كثيرة الثغرات ، وقوائم بمفردات بابلية ــ اغريقية • اما آخر نص مسماري معروف لحد الآن فهو تقويم فلكي كتب حوالي عام ٧٤/٧٥ م(35) • ومن المحتمل تماماً ان الكهنة والمنجمين البابليين قد استمروا لعدة اجيال في الكتابة على الرقوق والبرشمانات باللغة الآرامية ولكن من غير المحتمل ان يتم اكتشاف اعمال من هذا النوع • ولدينا معلومات تفيد بان بعضا من المعابد القديمة قد رممت ، وان الاله آشور قد بقي معبوداً في مدينته الاصلية ، وان طقساً كان يقدم للاله نبو في بارسيبا ، وذلك حتى حوالي القرن الرابع الميلادي • ولكن لا يوجد ما يثبت ان ايساگلا معبد الاله الوطني السابق مردوخ قد استمر العمل على ترميمه خلال هذه الفترة • وفي الحقيقة فان من الجائز ان تكون بابل قد عانت خراباً هائلا ابان حركة الاخماد التي اعقبت ثورة « هايمروس » عام (١٣٧ ق•م) ، او خلال الحرب الاهلية التي نشبت بين « مثريدادتس الثاني » و « اورودس » عام (٥٢ ق•م) ، بحيث فاق الويلات التي اصابتها في عهد احشويرش • وهكذا نجد ان « تراجان » عندما دخل تلك المدينة ذات التاريخ المجيد في عام (١١٥ ق•م) لم يقدم كي « يأخذ بيد الاله بعل » مثلما اعتاد المحتلون السابقون ذلك استرضاء لاهلها ، بل جاء ليقدم النذور على روح الاسكندر المقدوني وبعد ذلك التاريخ باربعة وثمانين عاما ، الفى سبتيموس سفيروس بابل مدينة مهجورة تماماً(36) •

ولا يعرف سوى القليل جدا عن الوضع الاداري والاجتماعي والاقتصادي لوادي الرافدين في ظل حكم الساسانيين (٢٢٧ ــ ٦٣٦ ق ٠ م) • ونعرف ، اعتمادا على المؤرخين اليونانيين واللاتينيين ، ان القسم الشمالي من العــراق قد دمر خلال اربعة قرون من الحروب المستمرة بين الروم البيزنطيين والفرس، وان مدينة آشور قد اصابها الخراب الشديد في عهد شابور الاول (عــام ٢٥٦) يشبه ذلــك الذي لحــق بها على ايــدي الميديين • وفي طيسفون ، وجدت بقايا قصر منيف مثير للاعجاب ينسب الى كسرى الاول ، كما نقب في منزل ثان اكثر تواضعا من سابقه يعود الى ملك ساساني آخر وذلك فــي مدينة كيش(37) • وفي اوروك ، دفن احد الزعماء المحليين في مكان لا يبعد كثيرا عن سور المدينة ــ الذي شيد اصــلا من قبل گلگامش ــ مع تاجــه ورقوقه الذهبية(38) • وتبرهن بقايا الفخار الساساني على احتلال او اعادة احتلال مواقع قديمة اخرى • ونقرأ في التلمود بان مستوطنات يهودية مهمة كانت قائمة في بابل ونفر • ولكن الانكسارات العسكرية والحروب الاهلية والمشاكل الاقتصادية ما لبثت ان ادت الى تدهور المملكة الساسانية ، ومع ذلك جاء خراب وادي الرافدين بعد بداية القرن السابع للميلاد ، اي قبل الفتح الاسلامي بوقت قصير •

خاتمـــة

هكذا فنت احدى اقدم واروع حضارات العالم القديم • فبعد ان دمرت بقسوة في آشور مع نهاية القرن السابع ق • م ، استطاعت ان تبقى متألقة في بابل لحوالي ستة قرون اخرى قبل ان تختفي مع آخر مخطوط مسماري في نهاية الفترة المسيحية بعد ان كانت قد ولدت في عهد اوروك والعهد الشبيه بالتاريخي (٣٣٠٠ ـ ٢٨٠٠ ق • م) واستمرت فترة تنيف على الثلاثة آلاف عام • ولقد لعبت الظروف الاقتصادية دورا اصغر مما قد يظن في بعض الاحيان في الاضمحلال التدريجي لهذه الحضارة بين الاعوام (٥٠٠ ق • م ـ ١٠٠ م)• اما التبدلات الجغرافية ـ نحو تغيير النهرين التوأمين لمجريهما ، وامتـلاء القنوات بالترسبات ، وملوحة التربة ـ وهي الاسباب التي ادت الى هجر العديد من المدن والقرى القديمة واستنزاف سكان مناطق شاسعة فلم تكن لها اثار بعيدة المدى حتى نهاية فترة الاحتلال الساساني (القرنيـن الخامس والسادس للميلاد) •• ولو اخذنا بعين الاعتبـار كافـة مسببات انحطاط وسقوط حضارة وادي الرافدين فسيكون بمقدورنا اعطاء هذه الاسباب : اولا غياب الحكومة الوطنية ؛ وثانيا تأسيس الاسكندر الكبير وخلفائه المدن الجديدة التي نافست المستوطنات القديمة وتفوقت عليها في النهاية ؛ ثم يأتي اخيرا السبب الاهم المتمثل في مجموعة التغيرات العرقية واللغوية والدينيـة والحضارية العميقة التي نجمت عن موجات متتالية من المحتلين ـ الفرس ، الاغارقة ، الارامبين ، عرب ما قبل الاسلام ـ الذين ما كان بالامكان ابعاد شرهم ولا تحشيلهم داخل اطار الحضارة القديمة • كان وادي الرافدين قـد اجتيح عدة مرات خلال تاريخه العريض ولكن الغزاة من الكوتيين والآموريين والحوريين و الكاشيين والآراميين من بعدهم كانوا يجدون انفسهم علـى

الدوام بمواجهة حضارة فتية قوية اعلى بمراحل عديدة من حضارتهم لذلك فقد عمدوا الى تبنيها باستمرار • ولكن الوضع كان قد تبدل مع غزو الاغارقة للعراق في القرن الثالث ق • م اذ كان هؤلاء اصحاب حضارة راقية انجبت شخصيات مثل افلاطون وارسطو وغيرهما • لذلك فلم يكن لدى البابليين سوى القليل مما يمكن ان يفتخروا بالتفوق به على غزاتهم الجدد ــ مثل الاعمال العويصة لفلكييهم ــ كما لم يعد الخط المسماري المعقد ــ الذي نبذه البابليون انفسهم ــ ليلائم المتطلبات الجديدة لمجتمع كوزموپوليتاني(*) بدأ يمد جذوراً عميقة الغور في ارضه وقتذاك • وفي الحقيقة فقد كانت الحضارة التي وجدها المستوطنون الاغارقة ــ المقدونيون والشرقيون على ارض العراق تميز بالتقادم والتجمد في العديد من الاوجه ؛ اذ لم يكن يغذيها ويديمها سوى نفر من الكهنة في بضعة معابد • وكانت التلقائية وروح الابداع قد انحسرت من الادب منذ عصر حمورابي ، كما اندثر النحت مع سقوط الآشوريين • واذا كان فن العمارة قد استطاع ان يقدم نصبا مثيرة للاعجاب في ظل عهد الكلدانيين والسلوقيين الا انه بقي متمسكا بالانماط التقليدية الكلائشية • اما بالنسبة الى العلوم المختلفة فيبدو انها كانت قد بلغت تخومها النهائية عهد ذاك باستثناء الرياضيات والفلك • ولقد ادى الالتصاق بالموروث الحضاري ــ الذي ربما كان الصفة الاساسية الغالبة للحضارة السومرية الاكدية ــ الى تأمين تماسكها واستمراريتها لثلاثة الاف عام ، ولكن هذه الميزة اصبحت تشكل الان عائقاً معطلاً اكثر من كونها مصدراً للقوة • وبوسعنا مقارنة الفترة الحاسمة في تاريخ وادي الرافدين ــ وهي الفترة الهيلينية ــ بعصر النهضة الاوربي للقرن السادس عشر للميلاد ، او حتى بعصرنا الحالي • فالعالم الجديد الذي كان بشيره الاسكندر الكبير كان عالماً سريع التغير يستند على علائق تجارية واسعة النطاق ، كما كان عالماً يتفجر لهفة للمعرفة وشديد الرغبة

(*) « متعدد القوميات » .

في اعادة تقييم معظم قيمه الدينية والخلقية والعلمية والفنية • وفي عالم كهذا لم يعد يوجد مكان لادب تتعذر مطالعته على أغلب الناس باستثناء القليل من العلماء ، ولا لفن يستلهم افكاره من مثل ونماذج شائخة ، او لعلم يجانب التفسيرات العقلانية ، او لدين لا يؤمن بالشكوكية • وهكذا فقد كانت حضارة وادي الرافدين ـــ كمثيلتها حضارة وادي النيل القديمة ـــ محكوما عليها بالزوال • واذا كان من الجائز ان تحتوى ظاهرة شديدة التعقيد كهذه في عبارة مفردة وغير دقيقة بالضرورة فيمكن للمرء ان يقول بأن هذه الحضارة قد ماتت بسبب شيخوختها •

ولكن الحضارات من هذا النوع نادراً ما تموت دون ان تخلف وراءها اي أثر • فحتى بالنسبة لنا نحن ابناء القرن العشرين يجدر بنا ان نعترف بديننا لسكان وادي الرافدين القدماء(1) • ففي الوقت الذي نقدم فيه على كبح جماح الذرة ونعد انفسنا لاستكشاف النجوم ؛ فان من العدل ان تتذكر باننا ندين للبابليين بالمباديء الاساسية لرياضياتنا وفلكنا بضمنها نظامنا في الارقام ذات القيمة المرتبية والنظام الستيني الذي ما نزال نقسم بواسطته دائرتنا وساعاتنا • وندين لهم ايضاً الى حد ما باعمال تنجيمية ضخمة لم تفقد اياً من عناصر روعتها عند الجماهير • ويجب ان نضيف الى هذا الميراث مباديء الادارة الكفوءة (وهي من ابداع الآشوريين بالتأكيد) وبعض الاعراف كتتويج الملوك ، وعدد من الرموز المستخدمة في الفن الديني كالهلال والصليب المالطي وشجرة الحياة على سبيل المثال لا الحصر • وندين لهم ايضا ببضع مفردات انتقلت الينا عبر قنوات يونانية او عربية مثل القصب (Cane) وهي بالاكدية « كانو » والكحول (Alcohol) واسمه الاكدي « گحلو » و (dragoman) اي « الترجمان » وهي بالاكدية « تارگومانو » والجص (gypsum) وهي عندهم « جصو » والمر (Myrrh) ويدعونه « مُرّو » والزعفران (saffron) وهي

بالاكدية « ازوپيرانو » والنفط (Naphta) وهي (نپتو) بالاكدية • هذا بالانكليزية ، اما في الفرنسية فهناك الكلمات (Corne) « قرن » وهي بالاكدية « كارنو » و (mesquin) وهي عندهم (مشكينو) • واخيراً وليس آخراً فان هناك ايضاً الكثير من الاصول العراقية القديمة التي يمكن تحريها في الكتاب المقدس • وربما يظهر كل هذا تأثيرا جد طفيف اذا ما قورن بالحجم الهائل للتراث الاغريقي ــ الروماني ، الا ان القوائم من هذا النوع ــ حتى في حالة كونها مسهبة ــ لاتستطيع ابداً ان تفي بحق الاهمية المسلم بها للحضارة السومرية الاكدية في تاريخ البشرية • فالاعتماد على الذخائر التي حافظت على ديمومتها لحد الان كسبيل أوحد لاستعراض تأثير الحضارة السومرية ــ الاكدية على العالم انما هو معيار غير دقيق بالمرة يشبه الى حد بعيد احصاء قطع الاثاث الموروثة من الاجداد البعيدين مع تناسي حقيقة كون اولئك الاسلاف هم الذين نظموا حيوات اجدادنا القريبين وحياتنا ذاتها ايضاً بشكل غير مباشر • وفي الواقع فان الأساتذة الكلاسيين الذين وقفوا مبهورين فترة طويلة امام ما تدعى « المعجزة الاغريقية » بدأوا الان يدركون كامل حجم الزخم الهائل للتأثيرات الشرقية على النواحي المولدة من الفكر والفن والاخلاق الاغريقية • وكان الشرق معتمداً بدرجة كبيرة على حضارة وادي الرافدين طوال الجزء الاكبر من الحقبة التاريخية ماقبل الكلاسية(*) • فقبل ان يستطيع الاسكندر الكبير ادخال الاغارقة الى قارة آسيا بوقت طويل ، كانت بلدان بحر ايجة تتصل مباشرة بالاقطار الخاضعة للهيمنة الحثية وتحتفظ مع ارض كنعان ومصر بصلات تجارية بحرية واسعة النطاق • وكان التجار والحرفيون والسفراء والامراء ورجالات البلاط والاطباء وحتى الكهنة الاغارقة يرتحلون على نطاق واسع ليجوبوا ارجاء الشرق ادنى وغيرها من المناطق • وتطلعنا المخطوطات القديمة على وجود مستوطنات آشورية في قلب

(*) تخص الحقبة التاريخية الكلاسية التاريخ الروماني القديم •

آسيا الصغرى وذلك منذ الالف الثاني ق • م وفي غضون السنوات (١٥٠٠ ـ ١٢٠٠ ق • م) ، وكان التجار المسينيون يستوطنون مدينة اوگاريت على الساحل السوري • وهناك احتمال كبير في ان يكون التجار الساميون الغربيون قد قاموا بالاستيطان في سهل « مسره » في كريت(2) في نفس الوقت الذي كانت فيه ملاحم واساطير وادي الرافدين تستنسخ من مخطوطاتها المسمارية الاصيلة حتى على شواطىء نهر النيل • لذلك لايجب ان تندهش اذا خنعنا الى حقيقة مفادها ان الحضارة الاغريقية قد بنيت على قواعد شرق متوسطية(3) تشتمل معظمها على مواد اساسية تعود الى بلاد ما بين النهرين • ولقد آمن العديد من المؤرخين بان الطب الآشوري ـ البابلي هو الذي مهد الطريق لقيام حركة الاصلاح الطبية الابقراطية الكبيرة خلال القرنين الرابع والخامس ق • م •(4)، كما ان من المتحمل جداً ان يكون علماء الرياضيات الاغارقة المبكرين ـ فيثاغورس مثلاً (القرن السادس ق • م) ـ قد اعتمدوا كثيراً على اعمال سابقيهم من البابليين • اما عملية تحليل التأثيرات الشرقية على الفن والادب الاغريقي فهي مسألة تكتنفها الكثير من الصعوبات اذ ليس من السهل دائماً التمييز بين الاستثارة الباعثة والخلق المتوازي (المتزامن) المستقل وبين الاستعارة المطلقة • وبالرغم من ذلك ، ولكي نسوق امثلة لا تحتمل الشك ابداً ، فاننا نكتفي بتقرير هذه الحقيقة : يوجد الان اعتراف عام بان الاسطورة الايشوبية(*) كانت لها سابقتها السومرية الاكدية ، وان گلگامش هو نسخة طبق الاصل من هرقل واوليس(5) مجتمعين ؛ بينما تكشف لنا حالاً ايما نظرة سريعة على التماثيل والدمى القديمة للقسم القاري والساحلي من بلاد اليونان تشابهاً قوياً مع الاعمال الفنية السابقة او المعاصرة لها في بلاد وادي الرافدين •

(*) ايشوب (Aesop) (٦٢٠؟ ـ ٥٦٠؟) ق • م • مؤلف اغريقي للاساطير، والايشوبية نسبة اليه •

واذا كان بالامكان تقديم عرض لتأثير حضارة وادي الرافديـن علـى حضارة عظيمة في منزلة حضارة اليونان فان من البديهي التسـليم بالاعتقاد الثابت بان حضارة وادي الرافدين قد احدثت تأثيرات اعظم على البلدان الاخرى في الشرق الادنى ، ولقد جرى اثبات هذه الحقيقة مراراً بخصوص الحضارات الحثية والعبرانية والكنعانية والميدية والفارسية الاخمينية • ولكن ماذا عن التراث الرافديني الظاهر في حضارات شرقية اخرى جاءت متأخرة عنه زمنيا ؟ ماذا عن ايران الفرثية والساسانية ؟ ماذا عن شبه الجزيرة العربية ؟ ماذا عـن الدين والعادات الاسلامية ؟ واخيرا ، ماذا عن العراق نفسه ابتداء من الفترة الفرثية وحتى العصر الراهن ؟ لعل من المفيد ان نذكر في هـذا الصدد بـان البروفسور « روستوفتزيف » ـ وهو احد العلماء القلائل المتخصصين عـن جدارة بتاريخ العالمين الهيليني والشرقي ـ يذهب ابعد مما سبق وان اوردناه في استعراض التأثير الهائل لحضارة وادي الرافدين على الحضارات الاخرى اذ كتب يقول « يتزايد باضطراد ادراكنا بعظم تأثير الفن البابلي والفارسـي على التطور الفني في بلاد الهند والصين(6) كلما تعمقنا في البحث والاستقصاء » • والمصادر المؤكدة لهذه الحقيقة غزيرة وموثوقة وان كانت متناثرة هنا وهناك • ولكن يبدو ان لا احد من المتخصصين قد اخذ على عاتقه بعد مهمة دراستهـا من وجهة النظر الخاصة هذه • لقد بقي الكثير مما يمكن انجازه في حقـول علم الآشوريات وعلم آثار وادي الرافدين ايضاً ، كما تتطلب عدة فصول من تاريخ العراق القديم الاستكمال • وستبقى هذه المهمة الدقيقـة ، المشوقـة والمفيدة معاً مطلبا ملحا مطروحاً امام علماء الاجيال القادمة للايفاء به •

انتهـــــــى

قائمـة بالمختصرات المستعملة في الببلوغرافيا

AAA = Annals of Archaeology and Anthropology, Liverpool

AAO = H. FRANKFORT, The Art and Architecture of Ancient Orient, Harmondsworth, 1954

AAS = Annals Archéologiques de Syrie, Damascus

AASOR = Annuals of the American Schools of Oriental Research, New Haven

AfO = Archiv für Orientforschung, Berlin/Graz

AJ = Antiquaries Journal, London

AJA = American Journal of Archaeology, Concord, New Haven

AJSL = American Journal of Semitic Languages and Literature, Chicago.

AM = A. PARROT, Archéologie Mesopotamienne, Paris, 1946-53

ANET = Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (edited by J. B. PRITCHARD,) Princeton, N.J., 1950, 2nd edition, 1955

ARAB = D.D. LUCKENBILL, Ancient Records of Assyria and Babylonia, Chicago, 1926-7

ARM = Archives Royales de Mari (edited by A. PARROT and G. DOSSIN), Paris, 1950 ff.

BASOR	=	Bulletin of the American Schools of Oriental Research, New Haven
BBS	=	L.W. KING, Babylonian Boundary Stones, London, 1924
BHT	=	S. SMITH, Babylonian Historical Texts, London, 1924
Bi. Or.	=	Bibliotheca Orientalis, Leiden
Bo. Stu.	=	Boghazköy Studien, Leipzig
CAH	=	Cambridge Ancient History, Cambridge
EA	=	J.A. KNUDZTON, Die El-Amarna Tafeln, Leibzig, 1915
HBS	=	S.N. KRAMER, History Begins at Sumer, New York, 1959. 1st edition, 1956
ILN	=	Illustrated London News, London
Iraq	=	Iraq, London (British School of Archaeology in Iraq)
ISA	=	F. THUREAU-DANGIN, Les Inscriptions de Sumer et d' Akkad, Paris, 1905
JAOS	=	Journal of the American Oriental Society, New Haven
JCS	=	Journal of Cuneiform Studies, New Haven
JNES	=	Journal of Near Eastern Studies, Chicago
JRAS	=	Journal of the Royal Asiatic Soceity, London
JSOR	=	Journal of the Society of Oriental Research Chicago
JSS	=	Journal of Semitic Studies, Manchester
JWH	=	Journal of World History (= Cahiers d' Histoire Mondiale), Paris

KAH = Keilschrifttexte aus Assur; Historischen Inhalts, Leibzig, 1911, 1922

KB = Keilinschriftliche Bibliothek, Berlin, 1889 ff.

KING = L.W. KING, Cronicles Concerning Early Babylonian Kings, Chronicles, London, 1907

MAO = G. Contenau, Manuel d' Archéologie Orientale, Paris, 1927-47

MDOG = Mitteilungen der deutschen Vorderasiatische Gesellschaft, Berlin

NBK = S. LANGDON, Die neubabylonischen Königinschriften, Leibzig, 1912

OIC = Oriental Institute Communications. Chicago

OIP = Oriental Institute

Orientalia = Orientalia, Rome (Pontifical Biblical Institute)

PSBA = Proceedings of the Society of Biblical Archaeology, London

RA = Revue d' Assyriologie, Paris

RB = Revue Biblique Jerusalim, Paris

RCAE = LEROY WATERMAN, Royal Correspondence of the Assyrian Empire, Ann Arbor, 1930-6

RISA = G. A. BARTON, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1929

RLA = Reallexikon der Assyriologie, Berlin

SKL = T. JACOBSEN, The Sumerian King List. Chicago, 1939

Sumer = Sumer, Baghdad (Directorate - General of Antiquities)

Syria	=	Syria, Paris
UE	=	Ur Excavations, London, 1927 ff.
UET	=	Ur Excavations Texts, London, 1928 ff.
UVB	=	Uruk vorlaüfiger Berichte (= Vorlaüfiger Berichte über die .... Ausgrabungen in Uruk-Warka), Berlin
VDI	=	Vestnik Drevney Istorii (= Journal of Ancient History) Moscow
WISEMAN	=	D. J. WISEMAN, Chronicles of Chaldaean Kings (626-556 Chronicles B.C.), London, 1956
WVDOG	=	Wissenschaftliche Veröffontlichungen der Deutschen Orient - Gesselschaft, Leipzig
ZA	=	Zeitschrift fur Assyriologie, Leipzig/Berlin
ZZB	=	D. O. EDZARD, Die Zweite Zwischenzeit Babyloniens, Wiesbaden, 1957

مراجع ببليوغرافيا وملاحظات

1 ــ لم تطبع لحد الآن اية دراسة مفصلة لعموم جغرافية العراق ، ويمكن الحصول على خرائط ممتازة للبلد في التاريخ القديم في :

M. BEEK, Atlas of Mesopotamia, London, 1962

2 – E. DOUGLAS VAN BUREN, The Fauna of Ancient Mesopotamia, Rome, 1939; F.S. BODENHEIMER, Animal and Man in Bible Lands, Leiden, 1960; R. CAMPBELL THOMSON, A Dictionary of Assyrian Botany, London, 1949.

3 – K.W. BUTZER, Quarternary Stratigraphy and Climate of the Near East, Bonn, 1958.

4 – HERODOTUS, II, 5.

5 – التي قدمها « بلني » [PLINY, Hist. , Nat., VI, XXXI, 13] منذ وقت مبكر يعود الى القرن الاول الميلادي . ولقد نسقت هذه النظرية من قبل « دي مورگان » (De Morgan) في :

MDP, I (1900), PP. 4-48

6 – G.M. LEES and N.L. FALCON, "The Geographical History of Mesopotamian Plains", Geogr Journal, CXVIII (1952), I, PP. 24-39.

7 – A. HOLMES, Principles of Physical Geology, London, 1949, PP. 417-18.

8 – G. ROUX (مؤلف الكتاب) "Recently discovered ancient sites in the Hammar-Lake district", Sumer, XVI (1960), 20-31.

9 ــ وقوام هذه الطريقة مسح منظم لكافة المستوطنات القديمة التي تؤرخ بواسطة فخارها المكشوف على سطحها وتعين مواقعها على خرائط . ولما كانت المدن والقرى القديمة قد تواجدت كلها عمليا على ضفاف الانهار او القنوات ، لذلك فان من الممكن بواسطتها اعادة رسم مسار المجاري المائية خلال حقبة معينة من التاريخ . انظر :

TH. JACOBSEN, "Mesopotamian mound survey", Archaeology, VII (1954), PP. 53-4; R.M. ADAMS, "Settlements in Ancient Akkad", Archaeology, X (1957), PP. 270-3; "Survey of ancient watercourses and settlements in Central Iraq", Sumer. XIV (1958), PP. 101-4; TH. JACOBSEN, "The waters of Ur", Iraq, XXII (1960), PP. 174-83.

M.S. DRAWER, "Perennial irrigation in Mesopotamia", in A History of Technology, London, 1955, I, PP. 545-5; – 10

P. BURINGH, "Living conditions in the lower Mesopotamian plain in ancient times", Sumer, XIII (1957), PP. 30-46.

11 – يعتقد بعض الاساتذة ان التملح الواسع النطاق الذي طـرأ على التربة في جنوب العراق بين الاعوام ٢٤٠٠ – ٢١٠٠ ق . م كـان السبب وراء تدهور الحضور السياسي للسومريين .

انظر :

TH. JACOBSEN and R.M. ADAMS, "Salt and silt in ancient Mesopotamian agriculture", Science, CXXVIII, PP. 1251-8;

TH. JACOBSEN, "Summary of report by the Diala Basin Archaeological Project", Sumer, XIV (1958), PP. 79-89.

M. IONIDES, The Régime of the Rivers Euphrates and Tigres, London, 1937. – 12

S.N. KRAMER, HBS, PP. 65-9; The Sumerians, Chicago, 1963, PP. 105-9 and 340-42. – 13

انظر كذلك :

B. LANDSBERGER, "Jahreseiten in Sumerisch-Akkadischen", JNES, VII (1949), PP. 248-97.

HERODOTUS, I, 193; STRABO, XVI, 14. – 14

TH. JACOBSEN, Sumer, XIV (1958), P. 81. – 15

V. SCHELL, "De l'exploitation des dattiers dans l'ancienne Babylonie", RA, X (1913); A.H. PREUSSNER, "Date culture in ancient Babylonia", AJSL, XXXVI (1920), PP. 212-32; V.H. DOWSON, The Cultivation of the date palm on the Shatt-el-'Arab, London, 1921; H. DANTINE, Le Palmierdattier et les Arbres Sacrés, Paris, 1937. – 16

J. LASSøE, "Reflections on modern and ancient Oriental waterworks", JCS, VII (1953), PP. 5-26. – 17

18 – للاطلاع على الوضع الشامل لهذه الصحراء انظر :
C.P. GRANT, The Syrian Desert, London, 1937.

19 – انظر الملاحظات التمهيدية في :
M.E.L. MALLOWAN, "The Excavations at Tell Chagar Bazar", Iraq, III (1936), PP. 2-5.

W. THESIGER, "The Ma'dan or Marsh-dwellers of Southern Iraq", J. Roy. Centr. Asian Soc., XLI (1954), PP. 3-25; "The Marshmen of Southern Iraq", Geogr. Journal, CXX (1954), PP. 272-81; S. WESTPHAL - HELLBUSCH, "Die Kultur der Ma'dan in Gegenwart und Vergangenheit", Sumer, XII (1956), PP. 66-75; H. ST J. PHILBY, "The easter marshes of Mesopotamia", Geogr. Journal, CXXV (1959), PP. 65-9. – 20

R.J. FORBES, Bitumen and Petroleum in Antiquity, Leiden, 1936; Studies in Ancient Technology, I, Leiden, 1955, PP. 1-118. – 21

22 – حول اصل المعادن وتجارتها انظر :
S.N. BROMEHEAD and R.J. FORBES, A History of Technology, London, 1956, I, PP. 558-99; H. LIMET, Le Travail du Métal au Pays de Sumer au Temps de la IIIe Dynastie d'Ur, Paris, 1960; W.F. LEEMANS, Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960.

Sir ARNOLD T. WILSON, The Persian Gulf, London, 1954 – 23

الفصل الثاني

1 – في التنقيبات الآثارية لوادي الرافدين عموما قارن :
V. CHRISTIAN, Altertumskunde des Zweistromlands, Leipzig, 1940; G. CONTENAU, Manuel d' Archéologie Orientale, 4 Vols, Paris, 1927-47; A. PARROT, Archéologie Mesopotamienne, 2 Vols, 1946-53; H. FRANKFORT, The Art Architecture of the Ancient Orient, Penguin Books, 1954; SETON LLOYD, The Art of Ancient Near East, London, 1961, Mounds of the Near East, Edinburgh, 1962.

2 ــ وفيما عدا بعض الاستثناءات النادرة فقد كانت المعابد والقصور تشيد، حتى نهاية الالف الثالث ق.م ، باللبن المشوي تحت الشمس ، واقتصر استعمال الاجر المفخور على رصف الباحات المفتوحة وتبليط ارضية الحمامات والمجاري . وفي العديد من البنايات المنفذة في فترات لاحقة . لم يستعمل الآجر المفخور الا في تشييد الجزء الاسفل من الجدران .

3 ــ والمفردة الاكدية (الآشورية ــ البابلية) المرادفة هي « تلو » . ويجري ترديد جمل من قبيل « حولت المدينة الى تل وكومة من الانقاض » بانتظام في المخطوطات الملكية الآشورية .

4 ــ يمكن الحصول على تفصيلات اكبر في تكنيك التنقيبات عند :
W.F. BADE, A Manual of Excavations in the Near East, Berkeley, 1935; SIR LEONARD WOOLLEY, Digging up the Past, Penguin Books, 1952; SIR MORTIMER WHEELER, Archaeology from the Earth, Penguin Books, 1956, Cf.

وكذلك عند :
A. PARROT, AM II, PP. 15-78.

5 – M. DUNAND, Les fouilles de Byblos, I, Paris, 1939, Chapter 2.

6 – ANET, PP. 269-70.

7 – ANET, P. 271.

8 – ARAB, II, P. 434.

9 ــ انظر على سبيل المثال قائمة ملوك سلالة لارسا المنشورة من قبل :
F. THREAU DANGIN, RA, XV (1918), PP. 1-58.

10 – TH. JACOBSEN, The Sumerian King List, Chicago, 1939.

11 – E. FORRER, "Zur Chronologie der neuassyrischen Zeit", MDVAG XX (1916), P. 3; A. UNGNAD, RLA II, 1938, P. 412 ff.

12 ــ وللحصول على تقرير شامل لهذه المشكلة العويصة انظر :
A. PARROT, AM II, PP. 332-438.

ولقد تبنينا هنا التاريخ التالي (١٧٩٢ــ١٧٥٠ ق . م) لفترة حكم حمورابي والذي اقترحه سدني سمث «Sidney Smith» في مؤلفه المطبوع عام ١٩٤٠ (Alalakh and Chronology, London)

والذي حاز على قبول عدد متزايد من الاساتذة . (قارن الآن :
M.B. ROWTON, "The Date of Hammurabi", JNES XVII (1958) PP. 97-111).

F.E. ZEUNER, Dating the Past, London, 1958, PP. 341-6. – 13

١٤ ـ للتفاصيل ، قارن :
A. PARROT, AM I (1946); S.A. PALLIS, Early Explorations in Mesopotamia, Copenhagen, 1954; SETON LLOYD, Foundations in the Dust , Penguin Books, 1955.

XENOPHON, Anabasis, iii, 4. Cf. G. GOOSENS, "L'Assyrie après l'Empire", Comptes-Rendus de la zeme Rencontre Assyriologique Internationale, Leiden, 1954, P. 93. – 15

STRABO, XVI, 5. – 16

١٧ ـ في هذه المسألة : انظر :
C.H. FOSSEY, Manuel d' Assyriologie, I, Paris, 1904; A. PARROT, AM, I, PP. 109-21; S.N. KRAMER, Sumerian Mythology, Philadelphia, 1944; M. RUTTEN, La Science des Chaldeens, Paris, 1960, PP. 19-29.

S.N. KRAMER, The Sumerians, Chicago. 1963, P. 15. – 18

D.J. WISEMAN, The Expansion of Assyrian Studies, London, 1962. – 19

الفصل الثالث

١ ـ يمكن الحصول على تفاصيل في عموم عصور ما قبل التاريخ باسلوب ميسور عند :
L.S.B. LEAKEY, Adams Ancestors, London, 1953;

K.P. OAKLEY, Man the Tool - maker, London, 1958;

W.E. LE GROS CLARK, History of the Primates, London, 1958; S. COLE, The Neolithic Revolution, London, 1959.

F.E. ZEUNER, Dating the Past, P. 145. – 2

H.E. WRIGHT JNR, "The Geological Setting of Four Prehistoric Sites in North Eastern Iraq", BASOR, 128 (1952), PP. 11-24; Geological Aspects of the Archaeology of Iraq", Sumer, XI, (1955), PP. 83-90. – 3

NAJI-Al-ASIL, "Barda Balka", Sumer, V (1949), PP. 205-6. – 4
H.E. WRIGHT, JNR and B. HOWE, "Preliminary Report on – 5
Soundings at Barda Balka", Sumer, VII (1951), PP. 107-10.
D.A.E. GARROD, "The Paleolithic of Southern Kurdistan : – 6
Excavations in the Caves of Zarzi and Hazar Merd", Bulletin
No. 6, Amer. School of Prehist. Research, New Haven, (1930).

7 ــ ظهرت تقارير د . سوليكي عن كهف شانيدار في :
Sumer, VIII (1952), PP. 37-44 and 127-60; IX (1953), PP. 60-93
and 229-32; XI (1955), PP. 14-35; XIII (1957), PP. 165-70;
XIV (1958), PP. 104-8; XVII (1961), PP. 71-91.
R. SOLECKI, Sumer, XIII (1957), P. 59; T.D. STEWART, – 8
"First views of the restored Shanidar I Skull", Sumer, XIV
(1958), PP. 90-6.
ILN, 7.5. 1960, PP. 772-5. – 9
R.J. BRAIDWOOD, "From Cave to Village in Prehistoric Iraq", – 10
BASOR, 124 (1951), PP. 12-18. R.J. BRAIDWOOD and B.
HOWE, Prehistoric Investigation in Iraqi Kurdstan, Chicago,
1960.
R.J. BRAIDWOOD, Sumer, X (1954), PP. 12-38. – 11

12 ــ اصبح مصطلح « العصر الحجري الارضي » مهملاً الآن .
R.J. BRAIDWOOD, Sumer, X (1954), PP. 128-29. – 13

14 ــ لم تطبع تنقيبات البرفسور ر . ج . بريدوود في نمرود الا في هيأة
تقارير تمهيدية ، او مقالات في:
AJA, LIII (1949), PP. 49-51; Antiquity, XXVI (1950), PP.
189-95; BASOR, 124 (1951), PP. 12-18; ILN, 15-12 - 1951,
PP. 992-5 and 28-4. 1956, PP. 410-11.

انظر كذلك : ــ
R.J. BRAIDWOOD and B. HOWE, op. cit., PP.
26, 38-50, 63-60.
W.F. LIBBY, Radiocarbon Dating, Chicago, 1955, P. 79; F.E. –15
ZEUNER, op. cit., P. 345; K.M. KENYON, Journal Royal
Anthrop. Inst., 89 (1958), PP. 35-43.
K.M. KENYON, Digging up Jericho, London, 1957, PP. 51-76. – 16
R.J. BRAIDWOOD, L. BRAIDWOOD, J.G. SMITH and C. – 17
LESLIE, Matarrah, a southern variant of Hassunan assemblage, excavated in 1948", JNES, XI (1952), PP. 1-75.

الفصل الرابع

I ـ عن الفترة الشبيهة بالتاريخية انظر :

A. MOORTGART, Die Entstehung der Sumerischen Hochkulture, Leipzig, 1945; A.L. PERKINS, The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia, Chicago, 1949; R.J. BRAIDWOOD, "The Earliest Village Communities of South-Western Asia", JWH, I (1953), PP. 278-310; A. PARROT, AM, II (1953), PP. 107-331; H. FRANKFORT, "The Birth of Civilization in the Middle East", London, 1954; J. MELLART and M.E.L. MALLOWAN in the" Dawn of Civilization (ed. by S. PIGGOTT), London, 1961, PP. 41-96; V.G. CHILDE, New Light on the Most Ancient East, London, 1958.

SETON LLOYD and FUAD SAFAR, "Tell Hassuna", Sumer, JNES, IV (1945), PP. 255-89. – 2

C.S. COON, "Three Skulls from Hassuna", Sumer, IV (1950), PP. 93-6. – 3

E.E. HERTZFELD, Die Ausgrabungen von Samarra, V, Berlin, 1930. – 4

R. DU MESNIL DU BUISSON, Baghauz l'ancienne Corsôtê, Leiden, 1948; R.J. BRAIDWOOD and al., "New Chalcolithic meterial of Samarran type and its implications", JNES, III, (1944), PP. 48-69. – 5

M. FREIHERR VON OPPENHEIM, Der Tell Halaf, Leipzig, 1931. – 6

اما المطبوعات المفصلة فهي :

Tell Halaf, I, Die prähistorischen Funde, Berlin, 1943. R. CAMPELL THOMPSON and M.E.L. MALLOWAN, "The British Excavations at Nineveh", AAA, XX (1933), P. 71 ff. – 7

M.E.L. MALLOWAN and C. ROSE, "Prehistoric Assyria. The excavations at Tell Arpachiya", 1933, Iraq, II (1935), PP. 1-78. – 8

MALLOWAN, "The Excavations at Tall Chagar Bazar", Iraq, III(1936), PP. 1-86; IV (1937), PP. 91-117. – 9

١٠ ـ للحصول على فكرة عمومية في هذا الموضوع انظر :

D.J. WISEMAN, Cylinder - seals of Western - Asia, London, 1959.

R. DUSSAUD in Syria, XX, (1931), PP. 92-5. – 11

١٢ ـ بصدد هذه المسألة انظر :

MALLOWAN, Twenty-Five Years of Mesopotamian Discovery, London, 1956, PP. 1.11; R.W. EHRICH, Relative Chronologies in Old World Archaeology, Chicago, 1954.

D.E. McCown, The Comparative Stratigraphy of Early Iran, Chicago, 1942, PP. 36-9. – 13

H.R. HALL and C.L. WOOLLEY, "Al-'Ubaid", London, 1927, (UE, 1). – 14

H. LENZEN, UVB, IX (1938), PP. 37 ff; XI (1940), PP. 26 ff; C. ZIEGLER, Die Keramik von der Qal'a des Haggi Mohammed, Berlin, 1953. – 15

SETON LLOYD and FUAD SAFAR, Eridu, Sumer, III (1947) PP. 84-111; IV (1948), PP. 115-27; VI (1950), PP. 27-33. – 16

١٧ ـ وقد نوقشت هذه المسألة مؤخرا من قبل «J. OATES» في مقاله الموسوم :

"Ur and Eridu, the prehistory", Iraq, XXII (1960) PP. 32-50

١٨ ـ ولقد اكتشف في نفر خلال حملة التنقيبات لعامي ١٩٦٠–١٩٦١ أن اقدم معبد لانانا في الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي قد بني فوق بيوت خاصة لاشخاص عاشوا خلال تلك الفترة :

(R.C. HAINES, ILN, 9.9. 1961, PP. 408-11)

وعن التنقيبات المبكرة في هذا المعبد انظر :

V.E. CRAWFORD, Archaeology, XII (1959) PP. 74-83.

19 - A.J. TOBLER, Excavations at Tepe Gawra, II, Philadelphia, 1950.

20 ـ لم يعثر الا على اربع قطع من النحاس في تپه گوره وهي : نصل ومخرز وحلقة في الطبقة XVII ، وزرار في الطبقة XII . اما الاربجيه فقد زودتنا بنصل نحاسي . ومن المحتمل ان تكون الادوات النحاسية قد استعملت في القسم الجنوبي من العراق ولكنها لم تصمد بسبب رطوبة التربة . لاحظ بالمقارنة تواجد الذهب في وادي الرافدين خلال دور العبيد حيث عثر على سلك ملتو من الذهب في اور وعلى سبحة مخرزة في تپه گوره .

21 - A.J. TOBLER, op. cit., P. 113.

الفصل الخامس

1 ـ يرى «W.F. Albright» في [AJA, 55 (1951) P. 201] **بأن هناك شبها قويا بين فخار اوروك والفخار الرمادي** العائد الى « بيت ـ شآن » ، مجيدو ، وفارعه في فلسطين الذي يعود تاريخه الى ما بين ٣٣٠٠ـ٣١٠٠ ق . م . ولتزامن العهد الشبيه بالكتابي مع الفترة الفرعونية المبكرة في مصر انظر ملاحظة رقم (12) لهذا الفصل .

2 ـ نشرت نتائج التنقيبات الالمانية في اوروك ـ الوركاء (والتي نفذت خلال الاعوام ١٩٢٨ـ١٩٣٩ ، وبعد عام ١٩٥٣) في سلسلة من التقارير الاولية عرفت باسم :

"Uruk Vorlaüfiger Berichte"

ومختصرها UVB وبالاضافة الى هذا فان اجزاء الرسائل المعروفة بـ

Ausgrabungen Deutschen Forschungs - gemeinschraft in Uruk-Warka

تهتم بمعالجة النواحي التفصيلية لتلك التنقيبات . [أنظر الملاحظات (5) ، (7) و (11) لهذا الفصل] . وقد نشر موجز ممتاز لها في الانكليزية قدم له «R. NORTH» في :

Status of Warka excavations, Orientalia, 26 (1957) PP. 185-256.

3 - H. LENZEN, Die Tempel der Schicht Archaisch V in Uruk, ZA, 49 (1949), PP. 1-20.

SETON LLOYD and FUAD SAFAR, "Tell Uqair", JNES, 11 (1943), PP. 131-58. – 4

– 5
H. LENZEN, Die Entwicklung der Zikkurat, Leipzig, 1942.

6 – وللحصول على وصف مفصل لهذا النوع من الفخار انظر :
SETON LLOYD, "Uruk Pottery", Sumer, IV (1948) PP. 39-51.

7 – نشرت من قبل :
FALKENSTEIN, Archaische Texte aus Uruk, Leipzig, 1942.
وهناك قائمة بالنصوص القديمة الاخرى عند ج . كونتينو (G. Contenau) في :
MAO I, 1927, PP. 207-10.

A. FALKENSTEIN, op. cit., P. 64; Das Sumerische, Leiden, 1959, PP. 10-11. – 8

E. MACKAY, Report on Excavations at Jemdat Nasr, Iraq, Chicago, 1931; H. FIELD and R.A. MARTIN, "Painted Pottery from Jemdet Nasr", AJA, 39 (1935), PP. 310-18. – 9

10 – وللحصول على دراسة نقدية لهذا المصطلح انظر :
A. PARROT, AM, II, PP. 272-8
وتستغرق الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي ، كما يعرفها ب . دي لوگاز (OIP, LVIII, P. 8.) ، كل فن العمارة للطبقات ٥–٤ في الوركاء – الذي وصف هنا باعتباره عائدا الى حضارة فترة اوروك – ويقتصر امتلاك الاخيرة على الفخار المكتشف في المجس العميق تحت « معبد حجر الكلس » القديم (الطبقات ١٤–٦) . اما انا فاعتقد ، مع «لنزن» وغيره ، بان الخط الفاصل بينهما (اي بين الفخار العائد الى فترة اوروك والفترة الشبيهة بالعهد الكتابي) يجب ان يمر بين الطبقة ٤ في الوركاء (حيث تظهر اولى الرقم الطينية) والطبقة ٣ فيها . وعلاوة على هذا ، فاننا نعتقد بان كافة الطبقات من ١٤–٢ في الوركاء (اي الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي في اوروك) تمثل طورا حضاريا عظيما منفردا واحدا ذا مرحلتين : قبل وبعد ظهور الكتابة .

H. HEINRICH, Kleifunde aus den archaischen Tempelschichen – 11
in Uruk, Leipzig, 1936, PP. 15-16, pl. 2-3, 38. Hunt stele in UVB, V (1934), PP. 11-13, pl. 12-13. Woman's head in UVB, XI (1940), frontispiece.

12 ـ للتفاصيل والمراجع انظر :

H. FRANKFORT, The Birth of Civilization in the Near East, London, 1954, PP. 100-10.

A. PARROT, Mission Archéologique de Mari, I, Le Temple d' – 13
Ishtar, Paris, 1956, PP. 7 and 187.

M.E.L. MALLOWAN, "Excavations at Brak and Chagar Bazar, – 14
Syria", Iraq, IX (1947) : Twenty-Five Years of Mesopotamian Discovery, London, 1956, PP. 24-38

15 ـ عن فترتي گوره ونينوى :

A.L. PERKINS, The Comparative Archaeology of Early Mesopotamia, Chicago, 1949, PP. 162-97.

16 – يمكن الحصول على موجز عن هذه المعضلة ومراجعها في :

A. PARROT, AM, II, PP. 308-31.

17 ـ مازال هناك كثير من الشك يكتنف معنى « كي . ان . كي . » ، ويعتقد قسم من الاساتذة بان « شومر » و « كينگي / كينگير » هما لفظتان لمعنى واحد في لهجتين سومريتين هما « اميكو » و « اميزال » . ويذهب آخرون الى ان « كي . ان . كي » مقطع مركب يتألف من الكلمات « بلد (كي) رب (ان) البردي (گي) » أي : « بلد الآله انكي » . [عن هذا المصطلح انظر الملاحظة رقم 13 للفصل السابع التالي] . انظر كذلك :

E. SOLLBERGER, RA, XLV (1951), PP. 114-15

18 ـ جرت مناقشة مسألة العلاقات المبكرة بين السومريين والاكديين الساميين في :

IXth "Recontre Assyriologique Internationale", 1960.

انظر كذلك دراسات :

D.O. EDZARD, W. VON SODEN, I.J. GELB, S.N. KRAMER and AMIET in Genava, VIII (1960) PP. 241-314.

19 ـ جماجم كيش [S. LANGDON, Excavations at Kish, Paris]
والعبيد [U.E.I, 1927 PP. 214-40] واريدو [Sumer, V (1949),
P. 103] واور [U.E., II (1934) PP. 400-7] انظر :
A. PARROT, AM, II, PP. 316-22.

20 ـ وللاطلاع على راي مغاير انظر :
S.N. KRAMER, AJA (1948), PP. (156-64) and Amer. Philo. Soc., 90 (1946) PP. 120-30

21 - FUAD SAFAR, Sumer III (1947) P. 104.

22 - H. FRANKFORT, op. cit., P. 50, n.l.

الفصل السادس

عن الديانة السومرية والأشورية ـ البابلية انظر :

E. DHORME, Les Religions de Babylonie ed d' Assrie ('Mana', 1,2), Paris, 1949; N. SCHNEIDER, Die Religion der Sumerer und Akkader, Vienna, 1951; J. BOTTERO, La Religion Babylonienne, Paris, 1952; S.H. HOOKE, Babylonian and Assyrian Religion, London, 1953.

2 ـ ازدادت معلوماتنا عن الفكر الديني السومري بشكل هائل بفضل جهود كريمر من جامعة بنسلفانيا الذي قام مؤخرا باكتشاف وفك رموز ونشر عدد من الاساطير السومرية المهمة جدا ؛ خصوصا مؤلفه « الميثولوجيا السومرية » [Sumerian Mythology, Philad., 1944]
و « من الرقم السومرية »
' [From the Tablets of Sumer, Colorado, 1956.]
وكذلك [HBS, New York, 1959] بالاضافة الى مساهمته في « اساطير العالم القديم »
[Mythologies of the Ancient World, N.W. 1961]

اما الصلوات والاناشيد الدينية للسومريين والاشوريين ـ البابليين فقد نشرت في ترجمات المانية من قبل أ . فالكنستاين وف . زودن . [A. FALKENSTEIN and W. VON SODEN] في مؤلفهما :
Sumerische Hymnen und Gebete, Zürich / Stuttgart, 1953.

H. and H.A. FRANKFORT, J.A. WILSON, TH. JACOBSEN – 3
and W.A. IRWIN, The Intellectual Adventure of Ancient Man, Chicago, 1946. (Published under the title "Before Philosophy" by Penguin Books, 1951.)

4 ـ اوتو هو ابن الاله نانا وزوجته الالهة ننگال
(E. DHORME, op. cit., P. 60)

اما نانا فهو ابن انليل وننليل
(S.N. KRAMER, Sumerian Mythology, PP. 43-7.)

5 ـ انظر على سبيل المثال :
H. ZIMMERN, Der Babylonischen Gott Tamuz, Berlin; S. LANGDON, Tammuz and Ishtar, London, 1914; A. MOORTGART, Tammuz, Berlin, 1949; E.O. JAMES, Myth and Ritual in the Ancient Near East, London, 1958.

6 ـ تجد الترجمات هذه في ANET بنسختها السومرية في الصفحات ٥٠ـ٥٢ وبنسختها البابلية في الصفحات ١٠٦ـ٩ . قارن :
S.N. KRAMER, JCS, V (1951) PP. 1-17.

7 ـ انظر مداخلة فالنكشتاين (A. FALKENSTEIN) في :
Comptu- Rendu de lazème Rencontre Assyriologique Internationale, Leiden, 1954.

وكذلك ملاحظات كريمر في مقاله الموسوم :
Death and Netherworld according to the Sumerian Literary Texts", Iraq, XXII (1960), PP. 59-68.

وايضـا
Mythologies of the Ancient World, PP. 102-7 ff; City Invincible Chicago, 1960, P. 89 (KRAMER) and 94 (JACOBSEN).

TH. JACOBSEN, in Intellectual Adventure, P. 140 ff. – 8

9 ـ ربما في القرون الاولى لفترة عصر فجر السلالات بعـد ان اقام « اتميبا راگيسي » ملك كيش ، معبد الاله إنليل في نفر
[S.N. KRAMER, Genava, VIII (1960), P. 277, note 25.]

TH. JACOBSEN, in Intellectual Adventure, P. 140 ff. – 10

11 ـ ترتيلة الى انليل : Hymn to Enlil, HBS, PP. 93-4.

12 ـ اقترح كريمر مؤخراً اعتبار انكي ـ إيا (واناتا ـ عشتار) آلهه ساميه جسدت في مجمع الالهة السومري منذ وقت مبكر جداً [Genava, VIII (1960) PP. 272-83] ولكن مداخلته ليست مقنعة تماما .

13 ـ اسطورة « انكي وتنظيم العالم »
[S.N. KRAMER, Sumerian Mythology, PP. 64-8.]

14 ـ عن هذه الاساطير انظر :
A. HEIDEL, The Babylonian Genesis, Chicago, 1942,
وكذلك : ANET, PP. 99-100

15 – W. THESIGER, Geogr. Journal, CXX (1954) P. 276.

16 ـ نفذت الترجمات الرئيسية لاينما إيليش من قبل :
S. LANGDON, The Babylonian Epic of Creation, Oxford, 1923.
E. EBLING, Altorientalische Texte zum Alten Testament, Berlin, 1926, P. 108 ff.
R. LABAT, Le poème Babylonien de la Création, Paris, 1935.
A. HEIDEL, op. cit.
E.A. SPEISER, ANET, PP. 60-72.
ولقد اقتبسنا من المصدر الاخير .

17 ـ طبقاً لاقتراح ث . جاكوبسن في (Intellectual Adventure) ص ١٧٠ ، ويعتبر أساتذة آخرون « ممو » لقباً لتيامات يعني « الام تيامات » او « الخالقة تيامات » وما شابه ، انظر :
A. HEIDEL, "The meaning of mammu in Akkadian literature", JNES, VII (1948), PP. 98-105.

18 – W.G. LAMBERT, Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960.

19 – W.G. LAMBERT, op. cit., P. 101.

20 – ملحمة گلگامش ، النسخة البابلية القديمة :
E.A. SPEISER, ANET, P. 79.

21 ـ عن الحياة الاخرى ، انظر
A. HEIDEL, The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels,

Chicago, 1949, PP. 137-223; S.N. KRAMER, Iraq, XXII (1960), PP. 59-68.

"Inanna's Descent to the Netherworld", obv, 8-11 [Transl. A. – 22 HEIDEL]

"Ludlul bèl nemeqi", 11, 36-42, 48 [W.G. LAMBERT, op. cit., – 23 P. 41]

الفصــل الســابع

1 ــ اسطورة « انكي وننحورساك » ، انظر :

S.N. KRAMER, Sumerian Mythology, PP. 54-9; ANET, PP. 37-41; HBS, P. 83.

P.B. CORNWALL, "On the Location of Dilmun", BASOR, 103 – 2 (1946) PP. 3-11.

3 ــ قــارن :

S.N. KRAMER, HBS, PP. 108-9; A. HEIDEL, Bablonian Genesis, PP. 64-72.

4 ــ نفذت الترجمات الحديثة لاسطورة ادابا من قبل :

A. HEIDEL, op. cit., PP. 147-53;

E.A. SPEISER, ANET, PP. 101-3.

G. ROUX, "Adapa, le vent et l'eau", RA, LV (1961), PP. 13-33. – 5

EBLING, Tod, und Leben nach den Vorstellungen der Babylo- – 6 nier, Berlin and Leipzig, 1931, P. 27 a.

TH. JACOBSEN, "Primitive democracy in ancient Mesopota- – 7 mia" JNES, 11 (1943), PP. 159-72; "Early political development in Mesopotamia", ZA, LII (1957), PP. 91-140.

TH. JACOBSEN, The Sumerian King List. – 8

9 ــ تم مؤخراً تشخيص مدينة باد ــ تبيرا بشكل مؤكد في موقع «تل مداين» قرب تلوه ، انظر :

[V.E. CRAWFORD, Iraq, XXII, (1960) PP. 197-9]

ويمكن ان تكون لاراك هي موقع « تل الولاية » قرب كوت العمارة ، انظر:
SUMER, XV (1959), P. 51.

اما سيار فهي « ابو حبه » الواقعة على مبعدة عشرين ميلا جنوب غرب بغداد والتى جرى التنقيب فيها بشكل جزئي من قبل هـ . رسام خلال عامي(١٨٨١–٢) و ف . شايل (V. SHEIL) عـام (١٨٩٤) وكذلك من قبل و . اندراي (W. ANDRAE) مـع ج . جـوردن (J. JORDAN) عـام (١٩٢٧) ، انظر :

AM, I, PP. 101, 159, 326.

وشروباك هي « تل فاره » على مبعدة حوالي اربعين ميلا جنوب شرق الديوانية وقد نقب فيها الالمان خلال الاعـوام (١٩٠٢–٣) [هاينرش أندراي] والامريكان عـام ١٩٣١ (شمت) انظر :

SCHMIDT, Museum Journal, XXII (1931), PP. 193-245.

10 ــ ملحمة كلكامش ، الرقيم الحادي عشر ، الاسطر ٩–١٩٦ مقتبسة مـن هايدل . انظر كذلك :

E. SOLLBERGER, The Flood, London, 1962

11 ــ المشخصة عموما بقمة « پير عمر گدرون » التي يبلغ ارتفاعها ٩٠٠٠ قدم في سلسلة جبال زاگروس جنوب الزاب الاسفل . انظر :

E.A. SPEISER, AASOR, VIII, (1929), PP. 18-31.

12 – Cf. ANET, PP. 42-4 and 104-6.

13 – SIR LEONARD WOOLLEY, AJ, IX (1929), PP. 323-30; X (1930), PP. 330-41; Ur of the Chaldees, London, 1950, P. 29; Excavations at Ur, London, 1954, PP. 34-6; UE, IV, P. 15 ff.

14 – Cf. A. PARROT, Déluge et Arche de Noé, Neuchatel, 1953 1953 (English Translation London, 1955.)

15 – G. CONTENAU, Le Déluge Babylonian, Paris, 1941, PP. 115-29; W.F. ALBRIGHT, From the Stone Age to Christianity, Baltimore, 1046, P. 128.

16 – A.W. NIEUWENHUIS, "Die Stintflutsagen als kausallogische Naturschöpfungens mythen", Festschrift P.W. Schmidt, Vienna, 1928.

17 ــ نقب الفرنسيون في كيش (الاحيمر) عام ١٩١٢ ، انظر :

H. DE. GENOUILLAC, Fouilles Francaises d'el - Akhymer, Paris, 1924-5.

كما نقبت بعد ذلك في الموقع بعثة آثارية انكلو ـ امريكية وذلك خلال الاعوام ١٩٢٣ـ١٩٣٠ ، انظر

L.C. WATELIN and ST LANGDON, Excavations at Kish, 4 vols, Paris, 1924-34.

18 – TH. JACOBSEN, "The assumed conflict between Sumerians and Semites in early Mesopotamian History", JAOS, LIX (1939) PP. 485-95.

19 ـ تتفوق الترجمة المنفذه من قبل شبايزر (SPEISER) لاسطورة ادابا على كافة الترجمات السابقة لها . انظر

ANET, PP. 114-18.

20 – "Gilgamesh and Agga", Cf : S.N. KRAMER, AJA, LIII, P. 1, ff.; ANET, PP. 44-7; HBS, PP. 29-34.

21 – S.N. KRAMER, Enmerkar and the Lord of Aratta, Philadelphia, 1952.

انظر ايضا :

HBS, PP. 17-28, 204-7, 222-5 (Enmerkar) and 207-11 (Lugalbanda).

22 ـ للوقوف على مراكز المواقع الاثرية في كردستان ايران ، قرب بحيرة اورمية ، انظر

E.I. GORDON, Bi. Or. XVII, (1960), P. 132, n. 63.

23 ـ عن ملحمة گلگامش السومرية ، انظر :

HBS, PP. 174-81 and 190-9; ANET, PP. 45-52; Gilgamesh et sa Légende, Paris, 1960.

24 ـ تم تنفيذ الترجمات الرئيسية لملحمة گلگامش من قبل :

A. SCHOTT, Das Gilgamesh Epos, Berlin, 1934; A. HEIDEL, "The Gilgamesh Epic and Old Testament Parellels, Chicago, 1946; E.A. SPEISER, ANET PP. 79-99.

وقد اقتبسنا النصوص من المصدر الاخير .

الفصـل الثامن

1 ـ اجريت « مؤخراً » تنقيبات اخرى في موقـع تلو من قبـل هـ . دي گينويلاك (H. DE GENOUILLAC) و أ . بارو [A. PARROT] لصالح متحف اللوفر بين عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٣ ، انظر :

A. PARROT, Tello, Paris, 1948.

2 – F. THUREAU - DANGIN, Les Inscriptions de Sumer et d' Akkad, Paris, 1905 (abbreviated, ISA)

ويبقى العمل الآنف الذكر هو الاساس ؛ انظر كذلك :

G.A. BARTON, The Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, New Haven, 1929 (abbreviated: RISA).

كما وقد قدم كريمر عدة ترجمات لمخطوطات نشرت في :

The Sumerians, Chicago, 1963, PP. 308-27.

3 – C.J. GADD, UE, 1, P. 126; RISA, P. 2.

4 – D.O. EDZARD, "Enmebaragesi von Kish", ZA, 53 (1959), PP. 9-26.

5 – S.N. KRAMER, "Gilgamesh et sa Légende, Paris, 1960, PP. 59-63.

وتورد الوثيقة اسماء الحكام السومريين العديدين الذين قاموا ببناء او صيانة المعبد المعروف باسم « 'تمّال » في نفر .

6 ـ وعلى افتراض ان الفترة الشبيهة بالعهد الكتابي قد انتهت بين الاعوام ٢٩٠٠ـ٢٨٠٠ ق.م ، فان هذا يبقي لنا فترة تتراوح بين المائة والمائتي عام نضع في خلالها الطورين الاولين لعصر فجر السلالات كما يحدده هـ . فرانكفورت (H. FRANKFORT) بالاستناد على التنقيبات المنفذة في تل اسمر وخفاجي في وادي ديالى .

[OIC, 20 (1936), PP. 25-39] فطبقاً لفرانكفورت فان النصوص التاريخية لا تظهر قبل [ED III] اي قبل الطور الثالث لهذا العصر . اما يعرف بـ [ED I] [ED II] فهما من الطبقات الاثرية الخالصة والتي لها صفة ما قبل التاريخ

H. FRANKFORT, "Town planning in ancient Mesopotamia", Town Planning. Review, 21 (1950), P. 104; I.M. DIAKONOFF, "On the area and population of the Sumerian city-state", VDI, (1950), 2, PP. 77-93. – 7

W. ANDRAE, Die archaischen Inchtar-Tempel in Assur, Leipzig, 1922; Das Wiedererstandene Assur, Leipzig, 1938, PP. 72-8. – 8

9 ــ عن مدينة ماري عموماً انظر :

AM, I, PP. 495-513.

اما معبد عشتار العائد للحقبة ماقبل السرجونية فهناك وصف ممتاز عند:

A. PARROT, Le Temple d' Ishtar, Paris, 1956.

وعن النصُب المكتشفة فيها خلال التنقيبات التي جرت بعد الحرب العالمية الثانية انظر :

C.f, Syria, 29 (1952), ff. and AAS, (1953), ff.

10 ــ ظهرت التقارير الاولية في :

OIC, 13 (1932), 16 (1933), 17 (1934), 19 (1935), and 20 (1936),

كما نشرت عدة مجلدات تتضمن تقارير مفصلة . وعن فجر السلالات انظر بشكل خاص :

H. FRANKFORT, Sculptures of the Third Millennium B.C. from Tell Asmar and Khafaje, Chicago, 1940 (OIP, XLIV); P. DELOUGAZ, The Temple Oval at Khafaje, Chicago, 1940 (OIP, LIII); P. DELOUGAZ and SETON LLOYD, Pre-Sargonid Temples in the Diyala Region, Chicago, 1942 (OIP LVII); H. FRANKFORT, More Sculptures from the Diyala Region, Chicago, 1943 (OIP, LX), and H. FRANKFORT, Stratified Cylinder - Seals from the Diyala Region, Chicago, 1955 (OIP, LXII).

A. FALKENSTEIN, "La cité-temple sumerienne", JWH, I (1954), PP. 784-814; C.J. GADD, "The cities of Babylonia", CAH, I (revised edition), ch. 13 (1962); S.N. KRAMER, The Sumerians, PP. 75-9. – 11

Cf. M. LAMBERT, "La vie économique à Shuruppak", Sumer, IX (1953), PP. 198-213; X (1954), PP. 150-90; "Textes com- – 12

merciaux de Lagash", RA, XLVII (1953), PP. 57-69 and 105-20. Archiv Orientátni, XXIII (1955), PP. 557-74.

13 ـ حول لفظة « الانسي » (ensi) انظر :

A. FALKENSTEIN, ZA, 42 (1947), P. 152.

وبالمستطاع في السومرية كتابة وتلفظ كلمات معينة تتألف من عدة اشارات بطريقتين مختلفتين ، فمثلاً عندما يمزج رمز الفم (كا= KA) مع رمز الخبز (نندا NINDA) لاعطاء معنى « الاكل » فان الكلمة الجديدة تلفظ « كو » (KU) وليس « كانندا= KA-NINDA » مثلما يمكن ان نتوقع . لذلك فان طريقة لفظ مثل هذه « الرموز المركبة » لاتعرف الا بواسطة النصوص التي يرد فيها ذكرها مكتوبة بشكل كامل مثل كلمة « با . تي . سي = ان ـ سي » .

Kish, E. MACKAY, A Sumerian Palace and the "A" Cemetery at Kish, Chicago, 1929. Eridu : FUAD SAFAR, Sumer IV (1950), PP. 31-3. – 14

AJ, VII (1927); VIII (1928); IX (1929); Ur Excavations vol. 11, The Royal Cemetery, London, 1934; Ur of the Chaldees, Penguin Books, 1938; Digging up the Past, op. cit.; Excavations at Ur, London, 1954. – 15

16 ـ لا يرد ذكر اسم مس ـ كلام ـ دوگ وا ـ كلام ـ دوگ في قائمة الملوك ربما لانهما لم يكونا قد حكما كامل بلد سومر .

References in C.J. GADD, "The spirit of living sacrifices in tombs", Iraq, XXII (1960), PP. 51-8. – 17

ANET, P. 51 [cf. S.N. KRAMER, Iraq, XXII (1960), PP. 59-68]. – 18

ISA, P. 58; RISA, P. 53. – 19

ISA, PP. 69 ff; RISA, PP. 79 ff; A. DEIMEL, Orientalia, II (1920), PP. 6-8; M. LAMBERT, RA, L (1956), PP. 169 ff. [but cf. I. M. DIAKONOFF, RA, LII (1958), P. 1 ff]; S.N. KRAMER, The Sumerians, PP. 317-22. – 20

21 ـ المصادر :

Stele of the Vultures (ISA, PP. 25 ff; RISA, PP. 23 ff) and inscriptions of Entemena [ISA, PP. 62 ff.; RISA, PP. 57 ff.; M.

LAMBERT, RA, L (1956), PP. 141-6; S.N. KRAMER, The Sumerians, PP. 310-15]. Photographs of the stele in A. PARROT, Sumer, Paris, 1960, pls. 163-6.

ولم يجر التنقيب في امّا (جوخا) ، وللحصول على وصف للموقع انظر :
L. KING, History of Sumer and Akkad, London, 1923, PP. 21-3.

E.I. GORDON, "Mesilim and Mesannepadda, are they identical?", BASOR, 132 (1953), PP. 27-30. – 22

23 ـ ولم يجر التنقيب في اوما (جوخا) ، وللحصول على وصف للموقع انظر: مخطوطات ملوك اكشاك وجدت في « تل عمر » (مدينة اوپا ـ اوپيس او سلوقيا) مقابل طيسفون :
Cf. AM. I, P. 388.

24 ـ نقبت فيها جامعة شيكاغو بين عامي ١٩٠٣ـ١٩٠٤ . انظر :
E.J. BANKS, Bismaya, or the Lost City of Adab, New York, 1912.

ISA, PP. 90 ff; RISA, P. 89 ff; L. KING op. cit., PP. 189-190, S.N. KRAMER, The Sumerians, PP. 322-3. – 25

ISA, PP. 218 ff.; RISA, PP. 97 ff; TH. JACOBSEN, ZA, 52 (1957), PP. 135-6; S.N. KRAMER, The Sumerians, PP. 323-4. – 26

الفصل التاسع

1 ـ يمكن الحصول على معلومات مركزة عن عموم الساميين عند :
S. MOSCATI, The Semites in Ancient History, Cardiff, 1939.

Discussion in R.J. FORBES, Studies in Ancient Technology, II, Leiden, 1955, PP. 187-203. – 2

3 ـ ان اكثر الاعمال اسهاباً عن بدو وادي الرافدين هي تلك التي نفذها :
J.R. KUPPER, Les Nomades en Mesopotamie au temps des Rois de Mari, Paris, 1957.

S.N. KRAMER, Genava, VIII (1960), P. 277. – 4

A. GUILLAUME, Prophecy and Divination among the Hebrews and other Semites, London, 1938. – 5

6 ــ بصدد هذه المسالة انظر :

AM, 11, 1953, PP. 308-31.

I.J. GELB, Old Akkadian Writing and Grammar, Chicago, 1952; – 7
Genava, VIII (1960), PP. 265-7.

L.W. KING, Chronicles Concerning Early Babylonian Kings, 11, – 8
London, 1907, PP. 87-96; E.A. SPEISER, ANET, P. 119.

9 ــ مدونات سرجون وخلفائه في :

RISA, PP. 101-119; cf, also now H.E. HIRSCH, "Die Inschriften der Könige von Agade", AfO, XX (1963), PP. 1-82.

وعن العصر الاكدي انظر :

C.J. GADD, "The Dynasty of Agade and the Gutian invasion", CAH (revised edition), I, ch. 19 (1963).

10 ــ طرحت مدينة « دير » الواقعة جنوب غرب بغداد بستة عشر ميلاً كاحتمال ولكن التنقيبات الاثرية العراقية المنفذة فيها عام ١٩٤١ اسفرت عن الاستنتاج القائل بان « من غير الممكن ان تكون اطلالها عائدة الى مدينة ــ عاصمة » انظر :

TAHA BAQIR and MOHAMMED ALI MUSTAFA, Ṣumer, I (1945), P. 37.

وهناك بعض الاحتمال في ان يكون موقع اكد في الحقيقة هو نفسه .... بابل .

G.G. CAMERON, History of Early Iran, Chicago, 1936, P. 28. – 11
W. HINZ, "Persia c. 2400-1800 B.C.", CAH (revised edition), I, ch. 23 (1963), PP. 5-7.

M.E.L. MALLOWAN, The bronze head of the Akkadian – 12
period from Nineveh Iraq, III (1936), P. 104 ff; A. PARROT, Sumer, pls. 206, 208.

W. ALBRIGHT, "The epic of the King of the Battle", JSOR, – 13
VII (1923) PP. 1 ff.

J. NOUGAYROL, "Un chef d'oeuvre inedit de la literature ba- – 14
bylonienne", RA, XLV (1951), PP. 169 ff.

KING, Chronicles, 11, PP. 3 ff. – 15

16 – A. GOETZE, "Historical allusions in Old Babylonian omen texts", JCS, I (1947), P. 256, No. 13.

17 – SKL, P. 112, n. 249.

18 – RISA, PP. 129-31.

19 – I.J. GELB, Hurrians and Subarians, Chicago, 1944, P. 5; E.A. SPEISER, "Some factors in the collapse of Akkad", JAOS, LXXII (1952), P. 98.

20 – H. FRANKFORT, Kingship and the Gods, Chicago, 1948, PP. 224-6.

21 – UET, I, No. 275; ANET, P. 268.

22 – Iraq, IX (1947), PP. 63-8.

23 ـ نقش حجري في دربنديكور عند :

S. SMITH, History of Early Assyria, London, 1928, P. 97.

وعن مسلة نرام سن انظر :

J. DE MORGAN, MDP, I (1900), PP. 144 ff.; V. SCHEIL, MDP, II (1900), PP. 53 ff.; A. PARROT, Sumer, pls. 212-13.

24 ـ اطلق عليها هذا الاسم لانها خطت على مسلة مشكوك في صحتها يدعى انها وضعت في كوثا (تل ابراهيم) . انظر :

O. GURNEY, Anatolian Studies, V (1955), PP. 93-113.

25 – SKL, VII, 1-7.

26 – MDP, IV, pl. XI; ISA, PP. 246 ff.; RISA, P. 151.

27 – S. PIGGOTT, Antiquity, XVII, PP. 169-82; SIR MORTIMER WHEELER, Ancient India, 3 1947, PP. 78-80.

وكانت العلاقات التجارية مع وادي السند قد تأسست خلال عصر فجر السلالات . انظر :

UE, 11, PP. 397 ff.).

28 ـ كتلة هرمية من حجر الديورايت ارتفاعها خمسة اقدام تغطيها مخطوطة اكدية في تسعة وستين عمودا تعرف بمسلة مانشتوسو تشير الى ابتياع الملك لقاطعة كبيرة في القسم الاوسط في وادي الرافدين . ترجمة :

V. SCHEIL, MDP, II (1900), PP. 1-52.

29 – A. FALKENSTEIN, JWH, I (1954), P. 808.

الفصل العاشر

1 ــ المخطوطات الملكية في RISA ص ١٧١–٣ و ٣٠٠ . وعن الكوتيين عموماً انظر :
S. SMITH, "Notes on the Gutian period", JRAS (1932), PP. 296-308; E.A. SPEISER, "Some factors in the collapse of Akkad", JAOS, LXXII (1952), PP. 97-101; C.J. GADD, CAH (revised edition), 1, ch. 19.

2 ــ مخطوطات اوتو ــ حيگال :
F. THUREAU - DANGIN, "La fin de la domination gutienne" RA, IX (1912), PP. 111-20; X (1913), PP. 98-100.
الترجمة الانكليزية لدى :
S.N. KRAMER, The Sumerians, PP. 325-6.

3 ــ عن عهد اور ــ نمو قارن :
G. CASTELLINO, "Ur Nammu, three religious texts". ZA, 18 (1957), PP. 1-57.

S.N. KRAMER and A. FALKENSTEIN, "Ur - Nammu law code", Orientalia, 23 (1954), PP. 40-51; E. SZLEICHTER, "Le code d' Ur-Nammu", RA, XLIX (1955), PP. 169-77. – 4

SIR LEONARD WOOLLEY, Ur Excavations, V, The Ziggurat and its Surroundings, London, 1939; Excavations at Ur, op. cit., PP. 125-35. – 5

6 ــ والاستثناء الظاهر الوحيد هو زقورة جوغازامبيل قرب سوسه المشيدة في القرن الثالث عشر ق . م . وللطابق الاول عدة غرف لايمكن الدخول اليها الا من فوق وسبب هذا هو حقيقة ان تلك الغرف كانت تعود الى بناية دينية اصبحت بعدئذ قسماً من الزقورة .

H. LENZEN, Die Entwicklung der Zikkurat, Leipzig, 1941. – 7

8 ــ وقد جرى تطوير هذه النظريات من قبل :
A. PARROT, Ziggurats et Tour de Babel, Paris, 1949, PP. 200-17.

A. PARROT, Tello, 1948, PP. 147-207; Sumer, pls. 251-66. – 9

10 ــ النصوص المقدمة هنا مقتبسة من :
Cylinder A, translation M. LAMBERT and R. TOURNAY, RB,

55 (1948), PP. 403-23 (cf. A.L. OPPENHEIM in ANET, P. 268) ; statue E, translation M. LAMBERT, RA, XLVI (1952), P. 81.

S.N. KRAMER, Iraq, XXII (1960), P. 60 – 11

12 ـ قدمت قوائم تواريخ سلالة اور الثالثة من قبل :

A. UNGNAD in RLA, II (1938), PP. 136-47.

« اربيلوم » هي اربيل الحالية ، ولعل « سيموروم » هي نفسها « آلتون كوپري» على الزاب الاسفل ، أما « لولوبوم » فلم يتم تشخيصها لحد الان .

G.G. CAMERON, History of Early Iran, op. cit., PP. 48-50. – 13

A. GOETZE, JCS, I (1947), P. 261, Nos. 29-31. – 14

Description in AJ, XI (1931), PP. 343 ff., and excavations at Ur, PP. 150-9. – 15

CH. F. JEAN, "L'Elam sous la dynastie d'Ur", RA, XIX (1922), PP. 1-44. – 16

Bibliography up to 1948 in A. L. OPPENHEIM, Catalogue of the Cuneiform Tablets in the W. Eames Babylonian Collection, New Haven, 1948, PP. 215-24. For subsequent publications, see T.B. JONES and J.W. SNYDER, Sumerian Economic Texts from the Third Ur Dynasty, Minneapolis, 1961, PP. 347-62. – 17

T. FISH, "The Sumerian city Nippur in the period of the Third Dynasty of Ur", Iraq, V (1938), P. 164. – 18

A. FALKENSTEIN, JWH, I (1954), P. 791. – 19

20 ـ عن هذه المؤسسة انظر :

W. HALLO, "A Sumerian amphictyony", JCS, XIV (1960) PP. 88-114.

F.R. KRAUS, "Le role des temples depuis la Troisieme Dynastie d' Ur jusqu'a la Premiere Dynastie de Babylone", JWH, 1 (1954), PP. 530-1. – 21

E. SOLLBERGER, "Byblos sous les vois d' Ur" Afo, XIX (1950-60), PP. 120-2. – 22

23 ـ انظر الان :

D.O. EDZARD, "Neue Inschriften zur Geschichte von Ur III Shusuen", Afo, XIX (1959-60), PP. 1-32.

24 ـ عن الآموريين عموما انظر :

J.R. KUPPER, Nomades, PP. 146-96.

E. CHIERA, Sumerian Epics and Myths, Chicago, 1934, Nos. 58 and 112. – 25

E. CHIERA, Sumerian Texts of Various Contents, Chicago, 1934, No. 3. – 26

TH. JACOBSEN, "The reign of Ibbi - Suen", JCS, VII (1953), PP. 36-44. – 27

28 ـ انظر رسالة ابي ـ سن الى پوزور ـ نوموشدا حاكم كازالو المترجمة من قبل :

S.N. KRAMER, in ANET, PP. 480-1.

29 ـ مرثاة ابي ـ سن عند :

A. FALKENSTEIN und W. von SODEN, Sumer, und Akkad. Hymnen und Gebets, Zurich, 1953, No. 37, PP. 189-92.

30 ـ مرثاة لخراب اور مترجمة من قبل :

S.N. KRAMER in ANET, PP. 459-60.

الفصل الحادي عشر

H. FRANKFORT, AAO, PP. 54-8. – 1

F.R. KRAUS, JWH, I (1954), P. 535. – 2

3 ـ ايسن هي « ايشان بحيرات » جنوب نفر بستة عشر ميلاً ، لارسا هي « سنكره » شمال شرق الديوانية بثلاثين ميلاً . ولم يجر التنقيب بعد في ايسن اما لارسا فقد تمت فيها تنقيبات وجيزة من قبل الفرنسيين عام ١٩٣٣ وان كان لايزال هناك الكثير مما يمكن اكتشافه في هذا الموقع المهم . انظر :

A. PARROT, RA, XXX (1933), PP. 169-82.

للتفاصيل عن عصر ايسن ـ لارسا انظر :

F.R. KRAUS, JCS, III (1951) and D.O. EDZARD, Die Zweite Zwischenzeit Babyloniens, Wiesbaden, 1957.

A. FALKENSTEIN and W. von SODEN, Sumer und Akkad. – 4
Hymnen und Gebete, op. cit., P. 85 ff.

A.L. OPPENHEIM, "The seafaring merchants of Ur", JAOS, – 5
74 (1954), PP. 6-17.

Published by F.R. STEELE in AJA, 52 (1958), PP. 425-50. CF – 6
ANET, (1950), PP. 159-61 and E SZIECHTER, R.A. LI (1957), PP. 57-82, 177-196, and LII (1958), PP. 74-89.

KING, Chronicles, 11, PP. 12-16. – 7

وعن « الملك البديل » انظر :

H. FRANKFORT, Kingship and the Gods, Chicago, 1955, PP. 262-5.

8 ــ ماراد هي « وناح السعدون » شمال الديوانية بخمسة عشر ميلاً .

9 ــ يجري بحث تاريخ اشنونا بشكل متطور عند :

H. FRANKFORT and TH. JACOBSEN, The Gimilsin Temple and the Palace of the Rulers at Tell Asmar (OIP, XLIII), Chicago, 1940, especially PP. 196-200.

A. GOETZE, Sumer, IV (1948), PP. 63-102; ANET, PP. 161-3; – 10
The Laws of Eshnunna, New Haven, 1956.

TAHA BAQIR, Tell Harmal, Sumer, II (1946), PP. 23-30; IV –11
(1948), PP. 137-8.

12 ــ نقبت في آشور (قلعة الشرقاط) بعثة المانية برئاسة اندراي بين الاعوام ١٩٠٣ ــ ١٩١٤ . وما تزال التقارير المفصلة عن هذا الموقع تجد طريقها للنشر . وللحصول على تقرير مختصر عن التنقيبات فيها انظر :

W. ANDRAE, Das viedererstandene Assur, Leipzig, 1938.

A. POEBEL, "The Assyrian King List from Khorsabad", JNES, – 13
1 (1942), PP. 247-306; 460-95.

14 ــ يعتقد عموماً ان نرام سن ، ملك آشور ، هو نفسه نرام ــ سن ملك اشنونا الذي احتل آشور لفترة قصيرة .

ARAB, I, Sections 25-38. – 15

D.O. EDZARD, ZZB, PP. 90-2. – 16

ARM, I, 3. – 17

G. DOSSIN, "L'inscription de fondation de Iahdun-Lim, roi de Mari", Syria XXXII (1955), PP. 1-28. – 18

وللاطلاع على المنجزات العسكرية الاخرى لهذا الملك انظر مسميات السنين في :

Studia Mariana, Leiden, 1950, PP. 52-3.

B. LANDSBERGER, "Assyrische Königliste und dunkles Zeitalter," JCS, VIII (1954), PP. 345; J.R. KÜPPER, Nomades, PP. 207-13. – 19

ARAB, I, S 45. – 20

21 ـ تم لحد الآن نشر ثمانية مجلدات من الترجمات الفرنسية من قبل G. DOSSIN ومشاركيه تحت عنوان «الاراشيف الملكية لماري» وتعالج المجلدات ١ ، ٤ و ٥ مراسلات شمشي ـ ادد واولاده . وتتضمن المجلدات الاخرى رسائل صادرة وواردة للملك ماري «الوطني» زمري ـ ليم ولكبار موظفيه بالاضافة الى النصوص القانونية والادارية . انظر :

G. DOSSIN and co-workers (J. BOTTERO, G. BOYER, CH. F. JEAN, J.R. KUPPER), Archives Royales de Mari, Paris, 1950 ff (abbreviated ARM).

ARM, 1, 124. – 22

ARM, IV, 70. – 23

ARM, 1, 61. – 24

ARM, 1, 69. – 25

ولعل معنى عبارة « يقتل الداويدوم » هو « ينتصر » . انظر :

J.R. KUPPER, Nomades, PP. 60-2.

J.R. KUPPER, Les Nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari, Paris, 1957. – 26

ARM, 11, 118. – 27

28 ـ هذا هو نفسه اسم القبيلة اليهودية لبنيامين وان كان لا يوجد مايثبت ان هناك علاقة مابينهما ، وعن بني ـ ايامينا انظر :

G. DOSSIN, "Benjaminites dans les textes de Mari", Melange Dussaud, 11, PARIS, 1939, PP. 981-96.

ARM, V. 6. – 29

ARM, 1, 24, 46, 77. G. DOSSIN, Iamhad and Qatanum, RA – 30
XXXVI (1939), PP. 46-54.

وقد قام الفرنسيون بالتنقيب في قطنه ــ مشريفه الحالية ، شمال شرق حمص باحد عشر ميلا ــ بين الاعوام ١٩٢٤ــ١٩٢٩ . انظر :

R. DU MESNIL DU BUISSON, Le Site Archeologique de Mishrife - Qatna, Paris, 1935.

ARM, IV, 88. – 31

ARM, 1, 93; IV, 14. – 32

ARM, V, 56. – 33

الفصل الثاني عشر

1 – L.W. KING, The letters and Inscriptions of Hammurabi, London, 1900. F. THUREAU - DANGIN, "La correspondence de Hammurabi avec Shamash - hasir", RA, XXI (1924), PP. 1-58.

وعن هذا العصر عموما انظر :

TH. DE LIAGRE BOHL, "King Hammurabi of Babylon in the setting of his time", in Opera Minora, Leiden, 1953, PP. 339-63, and H. SCHMÖKEL, Hammurabi von Babylon, Oldenbourg, 1958.

2 ــ انظر مثلا الراس الحجري الذي يحتمل ان يكون لحمورابي في متحف اللوفـــر .

AAO, pl. 63; A. PARROT, Sumer, pl. 375.

ومنذ ذلك التاريخ فصاعداً ستتطور اللغة الاكدية الى البابلية (القديمة) والآشورية (القديمة).

جميع التواريخ هي طبقا لنظام التارخة لسدني سمث .

5 ــ هناك ترجمة المانية لوصفه عهد حمورابي عند :

UNGTAD, RLA, 11, PP. 178-8.

وقد ترجمها الى الانكليزية :

A.L. OPPENHEIM in ANET, 1950, PP. 269-71.

6 – ARM, IV, 20.

7 ـ وصفة عهد زمري ـ لم رقم ١ .

8 يمكن التوفر على اغلب مراسلات زمري ـ ليم في :
ARM, 11, III and VI.

والمصدر المهم الاخر للعهد هي الوصفة التاريخية المنشورة من قبل
G. DOSSIN in Studia Mariana, Leiden, 1950, PP. 54-9.

غير ان هذه المصادر غير مرتبة وفق تسلسلها التاريخي .

9 ـ الوصفة التاريخية رقم ٦ لعهد زمري ـ ليم : « السنة التي قتل فيها زمري ـ ليم الداويدوم لبني ايامينا في ساگاراتم وقتل ملوكهم » .

10 ـ الوصفة التاريخية رقم ٢٠ و ٣٢ لعهد زمري ـ لم .

11 – ARM, 11, 43; VI, 54.

12 – ARM, VI, 66.

13 – ARM, 11, 68, 71.

14 – ARM, 11, 33, 72.

15 ـ يبدو ان مردوخ ـ في السومرية « أمار ـ اوتو » (شبل « او ابن » اله الشمس) قد كان في الاصل الها سماوياً . عن هذا الاله انظر :
E. DHORME, Religions, PP. 139-50.

16 ـ شريعة حمورابي ، المقدمه ، ١ـ٣٠

17 ـ شريعة حمورابي ، المقدمه ، ٣٢ـ٩

18 ـ ترجمة شريعة حمورابي الى عدة لغات وجرى التعليق عليها باسهاب. واحدث ترجمة انكليزية منشورة في :
ANET, (1950), PP. 163-80 (TH. J. MEEK).

وفي : G.R. DRIVER and J.C. MILES, Babylonian Laws, Oxford, 1955-6. Vol. I : Legal Commentary; Vol. 11 : Translation and Philological Commentary.

19 – G.R. DRIVER and G.C. MILES, Babylonian Laws, PP. 48 ff; F.R. KRAUS, "Ein zentrales Problem des altmesopotamischen Rechtes : was ist der Codex Hammu-rabi ? ", Genava, VIII (1960), PP. 283-96; J.J. PINKELSTEIN," Ammisaduqa's edict and the Babylonian "Law Codes", JCS, XV (1961) PP. 91-104; D.J. WISEMAN, "The Laws of Hammurabi again", JSS, VII (1962), PP. 161-72.

20 ــ وقد محي قسم من المسلة منذ القدم مما ادى الى فقدان من خمسة الى سبعة أعمدة من النصوص اي حوالي خمسة وثلاثين قانونا . ولكن شذرات الشريعة المدونة على الرقم الطينية تساعدنا في ملء الثغرة .

E.A. SPEISER, "Mushkenum", Orientalia, XXVII (1958), PP. 19-28. ‎– 21

ويرد ذكر اسم المشكينوم قبل ذلك في قوانين اشنونا في الفصول ١٢ ؛ ١٣ ؛ ٢٤ ؛ ٣٤ ؛ ٥٠ .

كان الزواج البابلي ، جوهرياً ، نوعاً من العقد (الصفقة) . (CH, S 128) فقبل حفلة العرس يقدم زوج المستقبل لعمه (والد زوجته) « هدية الخطوبة » « ترخانوم » ويقدم والد العروس لابنته دوطتها « شريقتم » التي تصبح ملكا مستديما لها .

23 ــ لا يرد ذكر مؤسسة « الالكوم » لا في قوانين اشنونا ولا في القوانين السومرية (شريعة اور ــ نمو ولبت ــ عشتار) والتي يمكن ان تكون قد استحدثت من قبل حمورابي كاجراء سياسي . لاحظ ، على اية حال ، ان غياب ذكر هذه الطبقة في تلك الشرائع القانونية يمكن ان يكون مرده الى حقيقة كون افراد هذه الطبقة لم يكونوا محط اهتمام كاف مثلما أصبح الحال في شريعة حمورابي .

24 ــ شريعة حمورابي ، الخاتمة ، XXIV . ٣٠ـ٥٩ . ترجمة :
TH. J. MEEK.

الفصل الثالث عشر

1 ــ في هذه المشاهد نرى مالك الختم ، يصاحبه « الهه الشخصي » ، يقدم القرابين لاله ما . الامثلة في :

AAO, P. 61.

2 ــ مصليات الشوارع لباساك ، ننشبور ولالهة ثانوية غير مشخصة اخرى في اور :

SIR LEONARD WOOLLEY, AJ, X (1930), PP. 368-72; Excavations at Ur, PP. 190-2; D.J. WISEMAN, "The goddess Lama at Ur", Iraq, XXII (1960), PP. 166-71.

3 ــ امثلة : معبد حاني ونسابا في تل حرمل
[Sumer, 11 (1946), PP. 23-4]
ومعبد عشتار ــ كتيتوم في اشخالي [OIC, XX (1936), PP. 74-98.]

4 ــ معبد الالهه نن ــ گال في اور :

AJ, V (1925), PP. 371-6; VI (1926), PP. 366-75; Excavations at Ur, PP. 166-74.

5 ــ عن تطور المعابد في وادي الرافدين انظر :

H. LENZEN, " Mesopotamien Tempelangen ... " ZA, XVII (1955), PP. 1-36.

B. MEISSNER, Babylonien und Assyrien, 11, Heidelberg, 1925,

6 – عن التفاصيل حول المعابد ، رجال الدين والديانة ، انظر :

PP. 53-101; E. DHORME, Religions, PP. 174-257.

7 – F. THUREAU - DANGIN, Rituels Accadiens, Paris, 1907.

8 – F. THUREAU - DANGIN, op. cit., P. 10 ff (Cf. ANET, PP. 334-8).

ويعود تاريخ هذا الطقس في الحقيقة الى الفترة الهيلينيه ولكنه يستحضر في الواقع اصلا اقدم كثيرا .

9 ــ وعلى سبيل المثال نورد فيما يأتي اسماء بعض النســاء اللائي تبوأن منصب « الكاهنة الاعلى » لننگال في اور :

انوحه ــ دو ــ انا ، ابنة سرجون الاكدي .

انا ناتوم ، ابنة اشمي ــ داگان ملك ايسن .

بعل ــ شالتي ــ نانا ، ابنة نبونيدس (نبو نهيد) ملك بابل .

10 – G.R. DRIVER and G.C. MILES, Babylonian Laws, 1, PP. 358-83.

كان الكهنة يحصلون على قسم من النذور والحيوانات التي يصار الى تقديمها للالهه وذلك بنسبة يثبتها قرار ملكي . انظر على سبيل المثال الرقيم الحجري لنبو ــ ابال إدينا ، ملك بابل في : BBS. PP. 120-7.

12 ــ قصر كيش وقصر ؟ اريدو كانت مساحتهما في عصــر فجر السلالات ٢٧٠ × ١٤٠ و ١٣٥ × ٢٠٠ قدما على التوالي . اما بناية اي ــ حار ــ ساگ في اور (لعلها قصر ملكي) فلم تزد مساحتها على ١٦٧ قدما مربعا. [AJ, VI (1926), P. 382].

13 ــ ظهرت الملاحظات الاولية في Syria عام ١٩٣٠ وطبعت بشكلها النهائي من قبــل :

A. PARROT, Mission Archeologique de Mari, III, Le Palais, 3 vols. Paris, 1958-9.

14 – H. VINCENT, RB (1939), P. 156.
15 – Syria, XVIII (1937), PP. 74-5.
يفترض بارو ان المنزل الملكي كان على المنصة السفلى .
(Palais, 1, P. 111) .
17 – A. PARROT, Mari, une Ville Perdue, Paris 1938, P. 161.
18 – ARM, 1, 64; IV, 79.
وهي تل اشارة الحالية على الفرات شمال ماري بخمسة واربعين ميلا .
20 – ARM, 111, 62.
21 – G. DOSSIN, "Une revelation du dieu Dagan a Tarqa", RA, XLII (1948), PP. 125-34.
22 ـ مدينة على الخابور ولعلها « تل فدابن » .
23 ـ امثلة مقتبسة من ARM, 11, 106; VI, 43; 1, 89; 11, 112.
تلك كانت الجملة الافتتاحية المعتادة للرسائل فقد كان المرسل يملي الفحوى على الكاتب الذي عليه ان يقرأ الرسائل الى المرسل اليه .
25 – AJ, VII (1927), PP. 386-99; XI (1931), PP. 359-68. Excavations at Ur, PP. 175-94.
يعود تاريخ معظم البيوت الى فترة اور الثالثة وقد شيدت من جديد على امتداد نفس الخطوط خلال عهود ايسن ـ لارسا والبابلي القديم . وقد هجرت هذه البيوت في السنة الثانية عشرة من عهد حكم سمسو ايلونا ، ابن حمورابي وخليفته .
يبدو ان المقابر في اطراف المدينة قد كف عن الدفن فيها خلال سلالة اور الثالثة .
27 – AJ, XI (1931), PP. 364-6. Excavations at Ur, PP. 186-7.
28 – A.L. OPPENHEIM, JAOS, 74 (1954), PP. 15, 17; W.F. LEEMANS, The Old Babylonian Merchant, Leiden, 1950, PP. 78-95; Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, 1960.

الفصل الرابع عشر

1 ـ عن الهندواوربيين عموما انظر :
G.V. CHILDE, "The Aryans", London, 1926; C.S. COON, Races of Europe, New York, 1939; A. MEILLET, Introduction a l'etude comparative des langues Indo-Européennes, Paris, 1949.

C.F. HAWKES, The Prehistoric Foundations of Europe, London, 1940; G.V. CHILDE, The Dawn of European Civilization, 5th ed., London, 1950; Prehistoric Migrations in Europe, Oslo, 1950. – 2

The Cambridge Ancient History, vols I-VIII, Cambridge, 1924 ff.; A.J. WACE, Mycenae, Princeton, 1949; G. GLOTZ, La Civilization Egeenne, 2nd ed., Paris, 1952; J. FORSDYKE, Greece before Homer, London, 1956. – 3

J. CHADWICK, The Decipherment of Linear B, Camb., 1949. – 4

A. PENDLEBURY, The Archaeology of Crete, London, 1939. – 5

E. MACKAY, Early Indus Civilizations, 2nd ed., London, 1948; S. PIGGOTT, Prehistoric India, Harmondsworth, 1950; SIR MORTIMER WHEELER, The Indus Civilizations, Cambridge, 1953. – 6

SETON LLOYD, Early Anatolia, Harmondsworth, 1956; A GOETZE, Kleinasien, 2nd ed., Munich, 1957; J. MELLAART, "Anatolia c. 4000-2300 B.C.", CAH (revised edition), I, ch. 18 (1962). – 7

SETON LLOYD, op. cit., PP. 112-25. – 8

ويمكن الاطلاع على دراسة مستفيضة عن المستوطنات الآشورية وعن المعضلات المختلفة المتعلقة بهذا الموضوع عند :

P. GARELLI, Les Assyriens en Cappadoce, Paris, 1963.

G. CONTENAU, La Civilization des Hittites et des Hourites du Mitanni, Paris, 1948; O.R. GURNEY, The Hittites, Harmondsworth, 1945; Anatolia c. 1750-1600 B.C.", CAH (revised edition), II, ch. 6 (1962). – 9

E.A. SPEISER, "Ethnic movements in the Near East in the second millennium B.C.", AASOR, XIII (1933(, PP. 13-54; I.J. GELB, Hurrians and Subarians, Chicago, 1944; R.T. O'CALLAGHAN, Aram Naharaim, Rome, 1948, PP. 37 ff. – 10

D.J. WISEMAN, The Alalakh Tablets, London, 1953, P. 9. – 11

وتجد رأيا يختلف قليلاً عن هذا عند :

cf. I.J. GELB, JCS, XV (1961), P. 39.

12 ــ نوزي : التي تكتب احيانا « نوزو » هي يورغن تپه الحالية جنوب غرب كركوك بثمانية اميال . نقب فيها الامريكان من سنة ١٩٢٥ ــ ١٩٣١ . انظر :

R.F. STARR, Report on Excavations at Yorgan Tepe, Near Kirkuk, Cambridge, Mass., 1937-9.

وقد طبع ثلاثة عشر مجلدا من النصوص القانونية والاقتصادية المكتشفة فيها وذلك من قبل :

E. CHIERA, E. LACHEMAN, T MEEK and R.H. PFEIFFER.

وللحصول على تقرير واف عن محتوياتها انظر :

C.H. GORDON, Adventures in the Near East, London, 1957, PP. 105-20.

13 ــ عن تپه گوره انظر الفصل الرابع ، الملاحظة رقم 18 . أما تل بله (وهو « شيبانيبا » الآشورية) الواقع قرب بعشيقة (عشرة أميال شمال غرب الموصل) فقد نقبت فيه هو الاخر بعثة امريكية من عام ١٩٣٠ ــ ١٩٣٣ . وقد نشرت التقارير عنه في الاعداد ٤٠ و ٦٠ من BASOR . وقد قدمت الطبقة الحورية بيوتاً وفخاريات ولكن بدون اية نصوص .

14 - E A. SPEISER, "The Hurrian participation in the civilizations of Mesopotamia, Syria and Palestine", JWH, I (1953), PP. 3311-26.

15 ــ وللتوفر على تقرير عام عن التاريخ المبكر لسوريا انظر :

P.K. HITTI, History of Syria, London, 1951.

16 - The Cambridge Ancient History, Vols. 1-111, Cambridge, 1924 ff.; E. MEYER, Geschichte des Alterums, Stuttgart, 1913, 1928; E. DRIOTON and J. VANDIER, L. Egypte, Paris, 1952, SIR ALLAN GARDNER, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961.

17 ــ الالاخ (الالاه) هي تل اجانا بين حلب وانطاكية الذي نقب فيه الانكليز بين الاعوام ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ . انظر :

SIR LEONARD WOOLLEY, Alalakh, London, 1955; A Forgetten Kingdom 2nd ed., Harmonsworth, 1959. Texts published by D.J. WISEMAN, The Alalakh Tablets, London, 1953.

18 ـ تعتبر اوگاريت (راس شمره الحالية : شمال اللاذقية بسبعة اميال) ، مع ماري ، اهم موقع اثري في سوريا . وقـد بدات فيهـا التنقيبـات الفرنسية تحت اشراف (CL. F. SCHAEFFER) منذ عام ١٩٢٩ وما تزال مستمرة . وقد ظهرت التقارير الاولية عن نتائجها في (Syria) عام ١٩٢٩ . وقد نشرت النصوص المكتشفة فيها من قبل :

C. VIROLLEAUD, J. NOUGAYROL et al. in the series Mission de Ras Shamra, Le Palais Royal d' Ugarit, Paris 1955 ff. Cf. also the series Ugaritica, Paris, 1939 ff.

W.A. WARD, "Egypt and the East Mediterranean in the early second Millennium B.C.", Orientalia, XXX (1961) PP. 22-45; 129-155. – 19

W.F. ALBRIGHT, The Archaeology of Palastine, Harmonds-worth, 1954, P. 80. – 20

R. De VAUX, "Les patriarches hebreux et les decouvertes modernes", R.B., 53 (-946), PP. 321-48; 55 (1948), PP. 321-47; 56 (1949), PP. 5-36. – 21

J. BOTTERO, Le Probleme des Habiru á la 4eme Rencontre Assyriologique Internationale, Paris, 1954; – 22

M. GREENBERG, The Hab/piru, New Haven, 1955.

SIR ALLAN GARDINER, op. cit., P. 156. – 23

الفصل الخامس عشر

I ـ بالاضافة الى العدد الكبير من النصوص الاقتصادية ، العقود والرسائل ، فان المصادر الرئيسية لتاريخ سمسو ـ ايلونا وخلفائه عي مسميات السنين لعهد كل واحد منهم والتي نشرت من قبل :

A. UNGNAD in RLA, 11, PP. 182-92 [cf. A. GOETZE, "The year-names of Abi-shuh", JCS, V (1951), PP. 98-103, and S.I. FEIGNIN, "The date-list of ... Samsuditana," JNES, XIV (1955), PP. 137-60] and the Babylonian chronicles published by KING, Chronicles, 11, PP. 15-24.

Inscription of Esarhaddon : ARAB, 11, S 576. – 2

TM. DE LIAGRE BOML, "Ein Brief" des Königs Samsu-iluna von Babylon, Bi. Or., VIII (1951), PP. 50-60. – 3

4 ـ من المحتمل ان يكون كاشتلياش الذي يظهر اسمه بين الحكام الساميين لحانا هو نفسه الخليفة الثاني ل « گانداش » الذي اسس السلالة الكاشية خارج بابل خلال عهد حكم سمسو ـ ايلونا .

5 ـ انظر خصوصا الكتاب المهم جداً ل :

F.R. KRAUS, "decision of justice", "Ein Edikt des Königs Ammi-ṣaduqa von Babylon, Leiden, 1958.

6 ـ عن تاريخ المملكة الحثية القديمة انظر :

O.R. GURNEY, "Anatolia c. 1750-1600 B.C.", CAH (revised edition), II, ch, 6 (1962).

7 ـ مخطوطة تليبنوس (عام ١٥٠٠ ق . م تقريباً) . انظر :

Cf. F. HROZNY, "Eine Inschrift des Königs Telepinus", BoStu, 111 (1919), PP. 202-4.

KING, Chronicles, II, P. 22. - 8

K. BALKAN, Kassitunstudien, 1, Die Sprache der Kassiten, New Haven, 1954. - 9

F. EL-WAILLY, "Synopsis of royal sources of the Kassite period", Sumer, X (1954), PP. 43-54; K. JARITZ, "Quellen zur Geschichte der Kassu Dynastie", Mitteliungen des Instituts für Orientforschung, VI (1958), PP. 187-265. - 10

Published by F.E. PEISER and H. WINCKLER in KB, 1 (1889), PP. 194-203. - 11

12 ـ مخطوطة آگوم ـ كاكرايم المنشورة من قبل :

P. JENSEN in KB, III (1892) PP. 134-53.

Synch. History, 1, 1-7. - 13

J. JORDAN, UVB, I (1930), P. 30; AAO, PP. 63-4, pl. 70a. - 14

15 ـ طه باقر ، تنقيبات في عقرقوف ، العراق : ملحق عام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ ، العراق العدد ٨ (١٩٤٦) ص ٧٣-٩٢ .

S.N. KRAMER, TAHA BAQIR, S.J. LEVY, "Fragments of a diorite statue of Kurigalzu in Iraq Museum", Sumer, IV (1948), PP. 1 ff; S.N. KRAMER, ANET, PP. 57-9. - 16

ARM, 1, 50; 11, 123; IV, 38; V, 20. – 17

وعن الحصان في الشرق الادنى عموماً انظر الان :

S. SALONEN, Hippologica Accadica, Helsinki, 1956.

18 ـ نشرت نصوص اغلب احجار الحدود الكاشية من قبل :

L. KING in Babylonian Boundary Stones, London, 1912.

T. BERAN, "Die Babylonische Glyptic der Kassitenzeit", Afo, XVIII (1958), PP. 255-87. – 19

W.J. LAMBERT, Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960, PP. 184-5. – 20

الفصل السادس عشر

1 ـ انظر بشكل خاص : R.T. O'CALLAGHAN, Aram Nahariam, Rome, 1948, and S. SMITH, Early History of Assyria, London, 1928. Egyptian texts in English Translation in J.H. BRESTEAD, Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906-7 and in ANET, PP. 234-58.

ARAB, I, SS 47-59. – 2

3 ـ لاحظ ان الكلمة المصرية « نهارين » ـ المشتقة بشكل واضح من المفردة السامية الغربية « نهاريم » (الانهار) ـ تطلق على المنطقة من حوض نهر العاصي الى الفرات وليس على المنطقة بين دجلة والفرات .

4 ـ لم تستطع التنقيبات الامريكية (عام ١٩٤٠) ولا الالمانية (١٩٥٥ ـ ٦) في « تل فخيرية » قرب رأس العين على الخابور ان تؤكد التشخيص التقليدي لهذا الموقع بواشو گاني . انظر :

A. MOORTGART, Archäologische Forschungen der Max Freiherr von Oppenheim - Stiftung in nördlischen Mesopotamien, Köln, (1957-9).

S. SMITH, The Statue of Idrimi, London, 1949. Tablet from Nuzi : A.L. OPPENHEIM, BASOR, 93 (1944), P. 16. – 5

R.F. STARR, Nuzi, 11, pl. 118-1 – 6

7 ـ معاهدة بين متيوازه وشوپيلوليوما ؛

Rev. 8-10 (E. WEIDNER, Politische Dokumente aus Kleinasien, BoStu, VIII (1923), P. 39.

8- EA, 29.

9 - EA, 17, 29.

10 - O.R. GURNEY, The Hittites, P. 27.

11 ـ وجدت هذه المراسلات (مختصرها EA) في تل العمارنة (اخناتون القديمة) وهي العاصمة الحدودية لمصر في عهد حكم امينوفيس الرابع ولكن الرقم موزعة الآن في مختلف المتاحف . ولقد كان اول من جمعها ونشر محتوياتها « ي . أ . كنودتزن » : في :

Die EL-Amarna Tafeln, Leipzig, 1915.

والترجمة الانكليزية نفذت من قبل :

S.A. MERCER, The Tell el- Amarnah Tablets, Toronto, 1939,

وفيما عدا رسالة واحدة كتبت بالحورية ورسالتين باللهجة الحثية فان جميع الرسائل ، وعددها يزيد على ٣٥٠ رسالة ، كتبت بالاكدية التي تتخللها احيانا مفردات كنعانية . وبالاضافة اليها فقد احتوت الاراشيف الملكية المصرية نسخا من الاساطير السومرية ـ الاكدية مثل « ادابا » و « ملحمة ملك المعركة » ... الخ .

12 ـ للحصول على نظرة عمومية عن هذه الفترة :

E. CAVAIGNAC, Subbiluliuma et son Temps, Paris, 1932 and K.A. KITCHEN, Suppiluliuma and the Amarna Pharaohs, Liverpool, 1962.

وطبقاً لـ « كتشن » (KITCHEN) فان الحملتين السوريتين للملك الحثي لم تفصل بينهما فترة عشرين عاما بل انهما وقعتا بين عام ١٣٦٠ ـ ١٣٣٤ .

13 - EA, 1-5.

14 - EA, 7, lines 69-72.

15 - EA, 7, lines 53-4.

16 - EA, 14.

17 ـ المعاهدة بين شوبيليوما ومتيوازه . ويعارض « اوكالاكان » (O'CALLAGHAN) مسألة هروب متيوازه الى بابل . انظر :

Aram Naharaim, PP. 89-90.

18 - EA, 15-16.

Synchr. Hist., I, 8-17. Also the so-called "Chronicle P", I, 9-14 – 19
(Outdated English translation by TH. G. PINCHES in A.H. SAYCE, Records of the Past, V, London, 1891.)

Chronicle P. III, 10-19. – 20

ـ المشخصة بتل كازل ، شمال طرابلس : 21
M. DUNAND and N. SALIBY, AAS, VII (1957), PP. 3-16.

ANET, PP. 199-203. – 22

J. FRIEDRICH, Der Alte Orient, XXIV, 3 (1925), P. 26. – 23

Synchr. Hist., I, 18-23. – 24

ARAB, 1, S 73. – 25

Synchr. Hist. 1, 24-31 : الحرب بين ادد ـ نراري ونازي ماروتاش ـ 26

ARAB, 1, S, 116. – 27

See now : W.G. LAMBERT, "Three unpublished fragments of the Tukulti - Ninurta Epic", AfO, 18 (1957-8), PP. 38-51. E WEIDNER, Die Inschriften Tukulti - Ninurtas I und seiner Nachfolger, Gratz, 1959. – 28

ARAB, 1, S 145. – 29

Chronicles P, IV, 8-9 (cf. ARAB, 1, S 141). – 30

Ibid., IV, 9-13. – 31

وقد نقب في كار ـ توكلتي ـ ننورتا (تكل اكير الحالية) ـ شمال آشور بميل واحد على الضفة اليسرى لدجلة ـ الالمان بين عامي١٩١٣ـ١٩١٤:
W. BACHMANN, MDOG, 53, PP. 41-57: W. ANDRAE, Das wiedererstandene Assur, PP. 121-5.

K. JARITZ, op. cit., P. 224-5. – 32

الفصل السابع عشر

ـ وقد انتقل الفرس « بارسوا » بعد ذلك الى القسم الجنوبي ـ الغربي من ايران واحتلوا متاطعة في جبال بختياري قرب عيلام واطلقوا عليها اسمهم : « بارسوماش » ؛ پرشيا ؛ فارس . انظر : 1
R. GHIRSHMAN, Iran, Harmondsworth, 1954, PP. 91-119.

W.F. ALBRIGHT, From the Stone Age to Christianity, 2nd ed., – 2
New York, 1957, PP. 13 and 255.

I Kings i-xi; 11 Chronicles i-ix. – 3

CL. F.A. SCHAEFFER, Ugaritica 1, Paris, 1939, PP. 45-6. – 4

I Kings v. 1-12; vii. 13 ff.; IX. 11-14; 11 Chronicles ii. 3-16; iv. – 5
11-18.

G. CONTENAU, La Civilisation Phenicienne, 2nd ed., Paris, – 6
1939 (to be supplemented with the reports on excavations at Ras-Shamra); D. HARDEN, The Phoenicians, London, 1962.

On the alphabet, cf. G.R. DRIVER, Semitic Writing, Oxford, – 7
1948; D. DIRINGER, The Alphabet, London, 1948; J.G. FEVRIER, Histoire de l' Ecriture, Paris, 1948; I.J. GELB, A Study of Writing, London, 1952.

8 ـ للحصول على نظرة عامة عن هذا الادب انظر :

C.H. GORDON, Ugaritic Literature, Rome, 1949, and Ugaritic Manuel Rome, 1955.

O.R. GURNEY, The Hittites, Harmondsworth, 1952, PP. 39-46; – 9
SETON LLOYD, Early Anatolia, Harmondsworth, 1956, PP. 156-76.

SETON LLOYD, op. cit., PP. 177-82. – 10

11 ـ عن آخر التنقيبات في ارفاد (تل رفاعات ؛ شمال حلب بثلاثة وعشرين ميلاً) انظر :

M.V. SETON WILLIAMS, Iraq, XXIII (1961), PP. 68-82.

12 ـ عن الآراميين عموما :

S. SCHIFFER, Die Aramäer, Leipzig, 1911: E.G. KRAELING, Aram and Israel, New York, 1918; R.T. O'CALLAGHAN, Aram Naharaim, Rome, 1938, PP. 93-130; A. DUPONT-SOMMER, Les Arameens, Paris, 1949, and J.R. KUPPER, Nomades, PP. 112-45.

Deutronomy xxvi. 5. – 13

ARAB, I, S 166. – 14

KAH, 11, No. 63, 111, 4-5; No. 71, 19. – 15

S. MOSCATI, "The Aramaean Ahlamu" BS, IV (1959), PP. 303-7. – 16

M. FREIHERR von OPPENHEIM, Der Tell Halaf, Leipzig, 1931, PP. 71-198, and Tell Halaf 11, Die Bauwerke, Berlin, 1950; 111, Die Bildwerke, Berlin, 1955. – 17

18 ــ انظر الان
A. POEBEL, The Second Dynasty of Isin according to a New King List Tablet, Chicago, 1955.

Quoted by G.G. CAMERON, History of Early Iran, op. cit., P. 132. – 19

L. KING, BBS, No. VI, PP. 29-36. – 20

21 ــ (مخطوطة تگلاثبلزر الاول) ARAB, 1, S 257

ARAB, 1, S 287; ANET, P. 275. – 22

ARAB, 1, SS 300-3; ANET, PP. 274-5. – 23

ARAB, 1, S, 309. – 24

ARAB, 1, SS 247-8. – 25

26 ــ رقيم حجري لـ « نبو ــ ابال ــ ادينا » (٨٨٥ ــ ٨٥٢ ق . م) ،
Col. 1, 4-5 (L. KING, BBS, P. 121).

J.R. KUPPER, Nomades, P. 115. – 27

KING, Chronicles, 11, PP. 143-79; Synchr. Hist., 11, 29-36. – 28

KING. Chronicles, 11, PP. 81-83. – 29

الفصل الثامن عشر

1 ــ وبالضبط منذ عهد حكم نورتا ــ ابال ــ ايكور (١١٩٢ ــ ١١٨٠ ق.م)

2 ــ لم ينشر اي مؤلف خاص بالامبراطورية الآشورية منذ صدور مؤلف « أ . ت . اولمستد » (A.T. OLMSTEAD) مؤلفه « تاريخ الامبراطورية الآشورية » عام ١٩٢٣ في نيويورك . والمصادر الرئيسية للتاريخ السياسي للفترة هي :

أ ــ المخطوطات الملكية المطبوعة من قبل « لوكنبل » في ARAB ، شيكاغو ، ١٩٢٦ ،

ب ــ المراسلات الملكية من نينوى المنشورة بالانكليزية من قبل « ليــروي ووترمن »
حـ ــ الاراشيف الملكية من نمرود المطبوعة من قبل وايزمن وساكز وباركر في مجلة العراق .
د ــ العهد القديم .

3 – ARAB, 1, SS 355-84, 396-9.

4 – ARAB, 1, S 360. Syn. Hist.. 111, 1-21.

5 – ARAB, 1, SS 400-34.

6 – D.G. HOGARTH, The Ancient Near East, London, 1950, P. 25.

7 – ARAB, 1, SS 466, 501-2. ويساوي الطالنت (بلتو) حوالي (٦٧) ليبرة، والمانو (مانو) ١٨ اونسة . اما الكور فيساوي تقريبا البشلين .

8 – See A.T, OLMSTEAD, op. cit., PP. 530-2.

9 – AAO, pl. 82; A. PARROT, Assur, Paris, 1961, pls. 22-3.

10 ــ مدونات آشور ناصر بال في :

ARAB, 1, SS 436-552. also : E. MICHEL, "Die Texte Assurnasir-aplis II", Die Welt der Orient II (1954), PP. 313-21, 404-7.

11 – ARAB, 1, S 443.

12 – ANET, P. 276; ARAB, 1, SS 479, 518.

13 ــ « توشان » هي « كورخ » جنوب ديار بكر بعشرين ميلاً . اما « كار آشور ناصر بال » و « نيبارتي آشــور » المواجهتــان لبعضهمــا على ضفتي الفرات فلعلهما مدينتي « زلابيه » و «حلابيه» الواقعتين بين الرقه وديز الزور .

14 – ARAB, 1, SS 433, 445, 455, 472.

15 – ARAB, 1, S 489.

16 – A.H. LAYARD, "Nineveh and its Remains", London, 1849; Nineveh and Babylon, London, 1882.

17 ــ ظهرت التقارير المفصلة في مجلة العراق ، العدد ٧ (١٩٥٠) . وهنــاك موجز للتنقيبات اعلاه :

M.E. MALLOWAN, Twenty-Five Years of Mesopotamian Discovery, London, 1956, PP. 50-64.

كما ظهرت مقالات عديدة عن هذا الموضوع في ILN منذ عام ١٩٥٠

D.J. WISEMAN, "A New Stele of Assur-nasir-pal", Iraq, XIV – 18
(1952), PP. 24-39.

AAO, pl. 93. – 19

D. OATES, "Fort Shalmaneser. An interim report", Iraq, XXV – 20
(1959), PP. 98-129, "The excavations at Nimrud", 1960, Iraq, XXIII (1961), PP. 1-14. J. LEASSθE, "A statue of Shalmaneser III, from Nimrud", Iraq, XXI (1959), PP. 147-57.

L. KING, Bronze Reliefs from the Gates of Shalmanser, London, – 21
1915, pls. 91-2. AAO, pls. 91-2. A. PARROT, Assur, pls. 121-8.

To the inscriptions published in ARAB, 1, SS 553-612, add now: – 22
G.G. CAMERON, "The annals of Shalmaneser III, a new text", Sumer, VI (1950), PP. 6-26; FUAD SAFAR, "A further text of Shalmaneser III", Sumer, VII (1951), PP. 3-21; J. LEASSθE, "Building inscriptions from Fort Shalmaneser", Iraq, XXI (1959), PP. 38-41. Critical study : E. MICHEL, Die Assur-Texte Salmansers III", Die Welt der Orient II (1947) - 116 (1952). Poetic version of the campaign in Urartu : W.G. LAMBERT, "The Sultantepe tablets, VIII, Shalmaneser in Ararat", Anatolian Studies, XI (1961), PP. 143-58.

23 ــ التنقيبات الفرنسية بين عامي ١٩٢٩ــ ١٩٣١ :
F. THUREAU - DANGIN and M. DUNAND, Til-Barsib, Paris, 1936.

ARAB, 1, S 611; ANET, P. 279. – 24
لاحظ ان هذه هي المرة الاولى التي يرد فيها ذكر اسم العرب تاريخيا .

ARAB, 1, S 681. cf. 11 Kings viii. 7-15. – 25

BBS, PP. 120-27. – 26

ARAB, 1, S 624. Synch. Hist. III 22-35. – 27

الفصل التاسع عشر

I ــ مدونات شمشي ــ ادد الخامس في : ARAB, 1, SS 713-28.
وعن الحروب ضد بابل انظر :

cf. E. WIEDNER, "Die Feldzüge Samsi - Adads V gegen Babylonien", Afo, IX (1933-4), PP. 89-104.

2 ـ المسلة التذكارية لسمورامات في :

ARAB, 1, S 731, cf. ARAB, 1, S 745.

A.T. OLMSTEAD, History of Assyria, P. 158. Legend of Semiramis in :. HERODOTUS, 1, 184; STRABO XV, 1, ', ii, 5; XVI, i, 2 : DIODORUS SICULUS 11, 4-20. – 3

G. GOOSENS, "Communication at the 6th Rencontre Assyriologique Internationale", Paris, 1956. – 4

5 ـ مدونات ادد ـ نراري الثالث في :

ARAB, 1, SS 732-48. cf. also Iraq, XV (1953), PP. 135 ff.

F. THUREAU DANGIN, "L'inscription des lions de Til Barsib", R.A. XXVII (1930), PP. 1-21. – 6

7 ـ تعرف عهود هؤلاء الملوك الثلاثة من قوائم مسميات السنين .

L. KING, Chronicles, 11, P. 154. – 8

9 ـ التنقيبات الامريكية في حسنلو جنوب بحيرة اورميه :

R.H. DYSON, Expedition, 1, 3 (1959), PP. 4-17 and 11, 3 (1960), PP. 2-11.

ARAB, 1, SS 749-60. – 10

On early excavations in Turkish Armenia, SETON LLOYD, Early Anatolia, 1956, PP. 183-90. Recent excavations in USSR Armenia summarized by R.D. BARNETT and W. WATSON in Iraq, XIV (1952), PP. 132-47 and by B. PIOTROVSKY et al in Ourartou .... Paris, 1954. Urartian inscriptions published by F. W. KOENIG, Handbuch der Chaldischen Inschriften, 1, Gratz, 1955. Numerous articles in Russian on Urartian History by I.M. DIAKONOFF, G.A. MELIKISHVILI, S.M. BATSIEVA, etc., in VDI, 1951 ff. [Summary in French in RA, LII (1958) and LIII (1959)]. – 11

E. FORRER, Die Provinzeinteilung der assyrischen Reiches, Leipzig, 1920, PP. 4a ff. Cf. also H.W. SAGGS, The Greatness that Babylon was", London, 1962, PP. 238-60. – 12

ARAB, 1, SS 770, 772, 795, 806. – 13

RCAE, No. 327. – 14

15 ـ اضف الى المدونات المنشورة في [ARAB, 1, SS 761-821]
الشذرات من نمرود المنشورة من قبل [D. J. WISEMAN] في
« العراق » عدد ١٣ و ١٨ لعامي ١٩٥١ و ١٩٥٦ .
ومن المصادر الاخرى ماتسمى بـ « المخطوطة البابلية » :

"Babylonian Chronicle", (F. DELITZCH, Die Babylonische Chronick, Leipzig, 1906).

ARAB, 1, S 772; 11 Kings xv. 19-20. – 16

17 ـ التنقيبات الفرنسية عام ١٩٢٨ :

F. THUREAU DANGIN, A. BARROIS, G. DOSSIN, M. DUN, AND, Arslan-Tash, Paris, 1931.

R. GHIRSHMAN, Iran, Harmondsworth, 1954, P. 94. – 18

19 ـ رسالة نمرود رقم ٧ في « العراق » عدد ١٧ (١٩٥٥) ص ١٢٨ .

ARAB, 1, S 816; 11 Kings xv. 29-30; 11 Chronicles xxviii. 5-8. – 20

Nimrud letters, Iraq, XVII (1955), PP. 21-56. Cf. ARAB, 1, SS 792-4, 806; Babyl. Chronicle, 1, 17-23. – 21

11 Kings xvii. 4-6; H. TADMOR, "The campaigns of Sargon II of Assur", JCS, XII (1958), PP. 22-40, 77-100. – 22

Inscriptions of Sargon : ARAB, 11, SS 1-230. Prism from Nimrud, C.J. GADD, "Inscribed prisms of Sargon from Nimrud", Iraq, XVI (1954), PP. 172-201. Annals edited by A.G. LIE, The Inscriptions of Sargon 11, King of Assyria, 1, The Annals, Paris, 1929. H. TADMOR's article supra is essential for the chronology of the reign. – 23

So-called "Assur Charter", ARAB, 11, SS 132-5. – 24

Babyl. Chronicle 1, 33-7. C.J. GADD, "Inscribed barrel cylinder of Marduk-apal-iddina 11", Iraq, XV (1953), PP. 123-34. – 25

ARAB, 11, S 5 : ANET, P. 285. – 26

ARAB, 11, SS 30, 62; ANET, P. 286. cf. H. TADMOR, ibid., PP. 83-4. – 27

RCAE, esp. Nos. 101, 123, 145, 148, 251, 380, 381, 424, 444, 515 – 28
Nimrud letters : H.W. SAGGS, Iraq, X X(1958), PP. 182-212.

F. THUREAU DANGIN, Une Relation de la Huitieme Campagne de Sargon, Paris, 1912. ARAB, 11, SS 139-89. – 29

وعن ما تسمى بـ « رسائل الى الالهة » انظر :

A.L. OPPENHEIM, "The City of Assur in 714 B.C.", JCS, XIX (1960), PP. 133-47.

F. THUREAU - DANGIN, op. cit., P. 7. – 30

A.G. LIE, op. cit., P. 61. Allusions to the war in RCAE, Nos. –31
436, 542, 571.

ARAB, 11, SS 44, 70, 186. – 32

French excavations in 1843-4 and 1852-4; P.E. BOTTA and E. – 33
FLANDIN, Les Monuments de Ninive, Paris, 1849-50; V. PLACE, Niniva et L'Assyrie, Paris, 1867-70. American excavation in 1930-5 : G. LOUD, Khorsabad, Chicago, 1936-8.

ARAB, 11, S 89. – 34

الفصل العشرون

D.D. LUCKENBILL, The Annals of Sennacherib (OIP, II), – 1
Chicago, 1924; ARAB, 11, SS 231-496; A. HEIDEL, The octagonal prism of Sennacherib in the Iraq Museum, Sumer, IX (1953), PP. 117-88.

RCAE, Nos. 146-197. – 2

H.R. HALL, The Ancient History of the Near East, London, – 3
1960, PP. 486-8.

4 ـ ينعكس حصار لخيش في منحوتة مشهورة من نينوى ولكنه غير مذكور في المدونات الرسمية لسنحاريب (AAO, pl. 101)

II Kings XVIII. 13-xix. 34; II Chronicles xxxii. 1-22; Isaiah – 5
xxxvi. 1-xxxvii. 38.

ARAB, 11, S 240 (Cf. ANET, P. 288). – 6

II Kings xix. 35; HERODOTUS, 11, 141; BEROSSUS in JOSE- – 7
PHUS, Jewish Antiquities, x, i, 4-5.

ARAB, 11, S 242. – 8

ARAB, 11, SS 246-7, 318-22, 350, 353. – 9

10 ــ تل عمر على دجلة جنوب بغداد .

Babyl. Chronicle 11, 32-111, (ANET, PP. 301-2). – 11

ARAB, 11, SS 253-4, but see Babyl. Chronicle 111, 16-18. – 12

ولم يجر بعد تحديد موقع حالوله .

13 ــ اعتمادا على [ARAB, 11, SS 339-41] وتقول المخطوطة البابليــة :
« أخذت المدينة ولم يحكم اي ملك في بابل لمــدة ثمانية اعــوام » .
[The Babyl. Chronicle 111, 22, 28.]

Babyl. Chronicle 111, 34; II Kings xix, 36-7; "Rassam Cylinder of Ashurbanipal", ARAB, II, SS 795-6 (ANET, P. 288). On this debated question, cf.: E.A. KRAELING, "The death of Sennacherib", JOAS, LIII (1933), PP. 335-46; M. VIEYRA, "Notes d'histoire", RA, LIV (1960), PP. 41-2, and the works of CAMPELL THOMPSON and HIRSCHBERG cited below in note 19. – 14

« نبي يونس » منطقة معمورة ولم يمســها احد من علماء الاثار بعد .
اما قوينجق فقد كانت مسرحا لعدة عمليات تنقيب اثرية منذ أن دشنها
« لايارد » لاول مرة عام ١٨٤٧ . وللحصول على وصــف عمومي لهذا
انظـــر :

cf. R. CAMPBELL THOMPSON and HIRSCHBERG, A Century of Exploration at Nineveh London, 1929.

ARAB, 11, S 366. – 16

TH. JACOBSEN and SETON LLOYD, Sennacherib's Aqueduct at Jerwan (OIP, XXIV), Chicago, 1935. – 17

W. BACHMANN, Felsreliefs in Assyrien, Leipzig, 1927; L.W. KING, "Some unpublished rock inscriptions of Sennacherib on the Judi Dagh", PSBA XXXV (1913), PP. 66-94. – 18

ARAB, 11, SS 497-761; R. CAMPBELL THOMPSON, The Prisms of Esarhaddons and Ashurbanipal, London, 1931; R. BORGER, Die Inschriften Asarhaddons, König von Assyrien, – 19

Graz, 1956; A. HEIDEL, "A new hexagonal prism of Esarhaddon", Sumer, XII (1956), PP. 9-37. H. HIRSCHBERG Studien zur Geschichte Esarhaddons, Berlin, 1932.

ANET, PP. 289-90. – 20

ARAB, 11, SS 639-87. [Cf. J. NOUGAYROL, Afo, XVIII (1958) – 21
PP. 314-18.]

Babyl. Chronicle, IV, 34-37 and the so-called "Esarhaddon – 22
Chronicle" (S. SMITH, Babylonian Historical Texts, Londdon, 1924, PP. 1-21; ANET, P. 303), Rev. 12-13.

23 ـ المعاهدة بين اسرحدون وبعالو صور .
R. BORGER, op. cit., PP. 107-9.

Excellent Summary in D.J. WISEMAN, "The vassal-treaties – 24
of Esarhaddon", Iraq, XX (1958), especially PP. 9-13.

ARAB, 11, SS 518a, 536, 551; ANET, PP. 291-2. On the Arabs – 25
at that period, cf. T.W. ROSMARIN, "Aribi und Arabien in den Babylonisch-Assyrischen Quellen", JSOR, XVI (1932), PP. 1 ff.

26 ـ مسلة زنجرلي ؛ [ANET, P. 293.] وقد عثر على تماثيل لتهارقا وللالهة المصرية « انوقيت » في قصر اسرحدون في نينوى (نبي يونس ؛
V. VIKENTIEV, Sumer, XI (1955), PP.]
111-14 and XII (1956), PP. 76-9].

RCAE, No. 1239. – 27

ARAB, 11, SS 762-1129; T. BAUER, Das Inschrifwerk Assur- – 28
banipals, Leipzig, 1933; A.C. PIEPKORN, Historical Prism Inscriptions of Ashurbanipal, Chicago, 1933.

ANET, PP. 294-5 (cf. ARAB, 11, S 772). – 29

J.H. BREASTED, Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906-7, – 30
IV, PP. 919 ff.

RACE, No. 391 [cf. L.F. HARTMANN, JNES, XXI (1962), PP. – 31
25-37].

32 - ARAB, lb S 855.

34 - ARAB, 11, S 785.

35 - AAO, pl. 114.

36 - RCAE, No, 301.

37 - BHT, PP. 22-6.

38 - ANET, P. 299.

39 - ARAB, 11, SS 810-11.

40 ـ وطبقا الى الحولية الثانية فأن الاشوريين أسروا « مناسيح » ملك يهوذا وحملوه الى بابل . ولم يجر ذكر هذه الحادثة في المدونات الآشورية (غير الكاملة) .

41 ـ ناحوم ، iii ، ٧ ، ١٥ ، ١٩ .

الفصل الحادي والعشرون

1 - See C.H.W. JOHNS, Assyrian Deeds and Documents, 2nd ed., Cambridge, 1924; J. KOHLER and A. UNGTAD, Assyrische Rechtsurkunden, Leipzig, 1913. Assyrian "Code of Laws", dating to the second millennium : G.E. DRIVER and J.C. MILES, The Assyrian Laws, Oxford, 1935; ANET, 180-8 (TH. J. MEEK). Economic documents from Nimrud published by D.J. WISEMAN and B. PARKER in Iraq, XX (1950) ff.

2 - C. RREUSSER, Die Wohnaüser in Assur, Berlin, 1955, PP. 15-60. G. LOUD and CH. B. ALTMAN, Khorsabad, 11, Chicago, 1938.

3 - On This subject in general, cf. R. LABAT, Le Caractere Religieux de la Royaute Assyro- Babylonienne, Paris, 1939, and H. FRANKFORT, Kingship and the Gods, Chicago, 1948.

4 - ARAB, 11, S 986.

5 - A. HALLER, Die Gräber und Grüfte von Assur, Berlin, 1954, PP. cit., P. 247.

6 - K.F. MULLER, "Das assyrische Ritual", MVAG, XLI, 3, Berlin, 1937; R. LABAT,. op. cit., PP. 82-7; H. FRANKFORT, op. cit., P. 247.

7 - R. FRANKENA, Takultu, Leiden, 1954 (in Dutch with Summary in English). J. LAESSθE, studies on the Assyrian Ritual and Series bit rimki, Copenhagen, 1955.

8 - H. FRANKFORT, op. cit., P. 259.

9 - RCAE, No. 437 (R. LABAT, op. cit., P. 359; H.R. FRANKFORT, op. cit., P. 264).

١٠ ـ للحصول على مقدمة عامة عن هذا الموضوع الواسع انظر

G. CONTENAU, La Divination chez les Assyriens et les Babyloniens, Paris, 1940 (with bibliography).

11 - RCAE, No. 1237.

12 - RCAE, No. 137.

13 - H. DILLON, Assyro-Babylonian Liver-Divination, Rome, 1932, P. 38.

14 - B. PARKER, "The Assyrian civil-service", Sumer, XVI (1960), PP. 32-8.

١٥ ـ عن المجتمع الآشوري انظر :

B. MEISSNER, Assyrien und Babylonien, 1, Heidelberg - 1920; L. DELAPORTE, La Mesopotamie, Paris, 1923, PP. 297-344; S. SMITH in CAH, III (1929), PP. 95-9.

١٦ ـ لقد تم الان تطوير الدراسة الاساسية عن الجيش الاشوري التي أعدها (W. MANITIUS) :

["Das stehende Heer der Assyrer Könige und seine Organization" ZA, XXIV (1910) PP. 97 ff. 185 ff.]

فاضيفت اليها اللاحق وآخر الملومات وذلك بفضل جهود :

W. VONSUDEN, H.W.F. SAGGS and B. HROUDA in Iraq, XXV (1963), PP. 131-66.

انظر كذلك :

Y. YADIN, The Art of Warfare in Biblical Lands, London, 1936.

17 – E. CAVAIGNAC, "Le code Assyrien et le recrutement", RA, XXI (1924), P. 64.

18 ـ مثال في RCAE رقم ١٢٣٧ .

19 ـ وجدت قطع من الاسلحة والتجهيزات في حصن شلمنصر بنمرود، انظر:
D. STRONACH, "Metal objects from 1957 excavations at Nimrud", Iraq, XX (1958), PP. 169-81. Also ILN, 17-1-1959, P. 99.

20 – AAO, P. 84.

21 – A. WALTER, Kultrelief aus dem Brunnen des Assur Tempels zu Assur, Leipzig, 1931, AAO, pl. 72.

22 ـ ان اهم مجموعتين من المنحوتات البارزة الاشورية هما مجموعة المتحف البريطاني ومجموعة متحف اللوفر ، وتحتوي معظم كتب تاريخ الفن على نسخ لاهم تلك اللوحات .

23 – A. WALTER, Fabrige Keramik aus Assur, Berlin, 1923; G. LOUD and CH. B. ALTMAN, Khorsabad, 11, Chicago, 1938, pl. 89.

24 ـ وقد عثر على آثار لرسومات جدارية في اريدو ، اوروك ، تبه گوره وتـل العقير .

25 – A. PARROT, Assur, Frontispiece and PP. xiii-xvi, pls. 1, 109-19, 266, 336-48.

26 – A. PARROT, Mission Archeologique de Mari, 1, Le Temple d'- Ishtar, Paris, 1956, PP. 148, 152, 154, 156.

تضاف الى الخمسمائة والخمسين قطعة المنشورة صورها من قبل بارنت [R.D. BARNETT] في :
[A Catalogue of the Nimrud Ivories ..... in the British Museum, London, 1957].

قطع العاج المكتشفة خلال عمليات التنقيب التي جرت منذ عام ١٩٥٣ والتي اعطت كلها عمليا مكتشفات جديدة، نشرت التقارير عنها من قبل:
M. MALLOWAN and D. OATES, Iraq and ILN.

وتوجد عدد من قطع الفخار النمرودية في المتحف العراقي ببغداد .

الفصل الثاني والعشـــرون

SETON LLOYD, Foundations in the Dust, Harmondsworth, 1955, P. 154.. – 1

C. BEZOLD, Catalogue of the Cuneiform Tablets ..... in the British Museum London, 1889-99 (with supplement by L. KING, 1914). – 2

RCAE, IV, P. 213, No. 6 (transl. E. CHIERA, They Wrote on Clay, Chicago, 1938, P. 174). Cf. also RCAE, Nos. 18, 255, 688. – 3

Preliminary reports by SETON LLOYD and O.R. GURNEY in Anatolian Studies, III (1953) ff. Texts published by O.R. GURNEY and J.J. FINKELSTEIN," The Sultantepe Tablets, 1, London, 1957. – 4

D.J. WISEMAN, "Assyrian writing-boards", Iraq, XVII (1955), PP. 3-13. – 5

A. HEIDEL, The Gilgamesh Epic, Chicago, 1946, P. 93. – 6

7 ــ بصدد العلوم الخاصة بوادي الرافدين عموما انظر :

O. NEUGEBAUER, The Exact Sciences in Antiquity, Providence, Rhode Island, 1957; R. LABAT, "La Mesopotamie" in La Science Antique et Medievale, Histoire Generale des Sciences, 1, Paris, 1957, PP. 73-138.

وعلى الرغم من التـاريخ المتأخـر لمـؤلف « ب . مايسنر » البابليون والاشوريون ٢ المجلد الثاني ، هايدلبرغ ، ١٢٥ » الا انـــه ما يـزال مفيدا جـدا .

E. DHORME, Les Religions de Babylonie ed d'Assyrie, "Mana", 1, Paris, 1945, PP. 259-98. – 8

9 ــ عن المدارس [في السومرية « أي ــ دوب ــ با » وفي الاكدية « بيت ــ توبي » (بيت الرقم)] في وادي الرافدين انظر :

C.J. GADD, Teachers and Students in the Oldest Schools, London, 1956; S.N. KRAMER, The Sumerians, Chicago, 1963, PP. 229-48

Examples in B. MEISSNER, op. cit., PP. 346-60. Syllabaries and Vocabularies are now published by B. LANDSBERGER, Materialen zum Sumerischen Lexikon, Rome, 1937. ff. – 10

B. LANDSBERGER, Die Fauna des Alten Mesopotamien, Leipzig, 1934; R.C. THOMPSON, A Dictionary of Assyrian Chemistry and Geology, Oxford, 1936; A Dictionary of Assyrian Botany, London, 1949; M. LEVEY, Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia, Amsterdam, 1959. – 11

B. MEISSNER, op. cit., P. 378. – 12

ويحتمل ان يكون سكان وادي الرافدين قد سمعوا عن البلدان الاسكندنافية بواسطة تجار الكهرمان او من خلال الفينيقيين الذين ابحروا على الاقل حتى الشواطىء الانكليزية .

Good Summary on Mathematics by R. CARATINI in R. LABAT,op. cit., PP. 103-37 (with bibliography) and in A History of Technology, 1, Oxford, 1954, PP. 785-804 (O. NEUGEBAUER). – 13

وقد عني بالتعليق وبنشر النصوص مهمة من تل حرمل كل من :
TAHA BAQIR, A. GOETZE, E.M. BRUINS and W. VON SODEN in Sumer, VI (1950) ff.

R. LABAT, op. cit., P. 112. – 14

TAHA BAQIR, Sumer, VII (1951), P. 30. – 15

R. LABAT, op. cit., P. 113. – 16

17 – يبقى افضل عمل عن علم الفلك في وادي الرافدين ذلك الذي انجزه :
F.X. KRUGER, Sternkunde und Sterndienst in Babel, Münster, 1907-10. Summaries in R. LABAT, op. cit., PP. 123-37 and O. NEUGEBAUER, "The History of Ancient Astronomy", JNES, IV (1945), PP. 2-38.

R.A. PARKER and W.H. DUBBERSTEIN, Babylonian Chronology, Providence, Rhode Island, 1956, PP. 1-3. – 18

A.T. OLMSTEAD, History of the Persian Empire, Chicago, 1948, P. 206. – 19

A.T. OLMSTEAD, op. cit., P. 457. – 20

21 ــ عن طب وادي الرافدين عموما :

G. CONTENAU, La Medecine en Assyrie et en Babylonie, Paris, 1938; H.E. SIGERIST, A History of Medicine, Oxford, 1951, 1, PP. 377-497; R. LABAT, La Medecine Babylonienne, Paris, 1953.

G. CONTENAU, La Magie chez les Babyloniens et les Assyriens, Paris 1947. – 22

R. LABAT, Traite Akkadien de Diagnostics et Pronostics Medicaux, Leiden, 1951. – 23

R. LABAT, Traite, op. cit., P. 3. – 24

Ibid, P. 81. – 25

Ibid, P. 173. – 26

F. KUCHER, Beiträge zur Kentniss der Assyrisch - Babylonischen Medizin, Leipzig, 1904, P. 60. – 27

S.N. KRAMER, HBS, PP. 60-4; ILN, 26-2-1955, P. 370. – 28

R.C. THOMPSON, "Assyrian prescriptions for diseases of the urine .... " Babyloniaca, XIV (1934), P. 124. – 29

R.C. THOMPSON, "Assyrian prescriptions for diseases of the chest and lungs", RA, XXXI (1934), P. 23. – 30

RCAÉ, No. 108. – 31

A. FINET, Annals Inst. Philol. et Hist. Orient. et Slaves, Bruxelles, XIV, 1957. – 32

الفصل الثالث والعشرون

HERODOTUS, 1, 102 ff. Cf. DIODORUS SICULUS, 11, 26, 1-4. – 1

A.T. OLMSTEAD, History of Assyria, New York, 1923, P. 627. –2
Inscriptions in ARAB, 11, SS 1130-5; Iraq, XX (1957), P. 11; Afo, XIX (1959-60), P. 143.

3 ــ مدونات سن ــ شار ــ اشكين في : ARAB, 11, SS 1136-65.

11 Kings xxiii. 4, 15-19; 11 Chronicles XXXIV. 6. – 4

5 ـ اشارة الى » وثيقة الاعوام ٦٨٠ـ٦٢٥ ق.م «
(S. SMITH, BHT, P. 26.)

6 ـ كان « GADD » اول من عني بنشر المدونة المهمة جدا (B. M. 21901) بعنوان : سقوط نينوى ، ثم نشرت ثانية ملحقة باربعة رقم جديدة من قبل (WISEMAN) بعنوان « حوليات الملوك الكلدانيين » . عن « وثيقة نبونيدس » انظر الملاحظة ١٣ الاتية . وقد نشرت المخطوطات البابلية الحديثة بالمانية بترجمة (LANGDON) :
S. LANGDON, Die neubabylonischen königinschriften, Leipzig, 1912.

7 – D.J. WISEMAN, Chron. P. 57.

8 – Discussions by C.J. GADD, The Fall of Nineveh, PP. 10-11.

9 – D.J. WISEMAN, Chronicles, PP. 59-61.

10 ـ مسلة نبونيدس في استانبول : NBK, P. 219; ANET, P. 309.

11 ـ ان مصطلح « الامائد ـ ماندا » ـ المستخدم في غير هذا من الاماكن للاشارة الى السيمريين و / اوليثيين ـ يبدو انه يشير هنا الى الميديين.
(Cf. D.J. WISEMAN, Chronicles, P. 16.)

12 – NBK, P. 61; A.T. OLMSTEAD, History of Assyria, P. 640.

13 ـ لاحظ رد الفعل المليء بالتشفي في يهوذا : زفانياح ، الثاني ، ١٣ ناحوم ، الثاني ff حزقيال ، الواحد والثلاثون ، ٣ ff الثاني والثلاثون ، ٢٢ ff

14 – 11 Kings xxiii. 29; 11 Chronicles XXXV. 20; Jeremiah XIV. 2; HERODOTUS, 11, 159.

15 – D.J. WISEMAN, Chronicles, PP. 68-9. Accounts of Josephus and BEROSSUS, Ibid., PP. 23-6.

16 – D.J. WISEMAN, Chronicles, P. 71.

17 – 11 Kinks XXIV. 17; Jeremiah xxxvii. 1; Josephus, Atiq. Jud., X, 6; D.J. WISEMAN, Chronicles, PP. 32-5, 73.

18 – Cf. A. GARDINER, Egypt of the Pharaohs, PP. 360-1.

19 – 11 Kings, XXV. 6-7 (cf. 11 Chronicles xxxvi. 13-20; Jeremiah xxxiv. 1-18).

D.J. WISEMAN, Chronicles, PP. 30, 94-5. – 20

21 ـ من مدونة لنبوخذنصر في وادي ـ برسا ، لبنان :

NBK, P. 175; ANET, P. 307.

HERODOTUS, 1, 74. – 22

G.G. CAMERON, History of Early Iran, P. 220 (but see D.J. WISEMAN, Chronicles, P. 36). – 23

D.J. WISEMAN, Chronicles, PP. 37-42, 75-77. – 24

25 ـ مدونة حران لوالدة نبونيدس :

NBK, PP. 289-95; ANET, PP. 311-12; C.J. GADD, "The Harran inscriptions of Nabonidus", Anatolian Studies, VIII (1958), PP. 46-57.

BHT, PP. 27-97; ANET, PP. 312-15. – 26

Daniel iv. 28-33. J.T. MILIK, "Piere de Nabonide" et autres ecrits d'un cycle de Daniel", RB, LXIII (1956), P. 408. – 27

SIR LEONARD WOOLLEY, Excavations at Ur, op. cit., P. 237. – 28

HERODOTUS, 1, 127-30; STRABO, XV, 3, 8; DIODORUS SICULUS, 11, 34, 6. – 29

NBK, P. 221. – 30

Nabonidus Chronicle 1, 22-11, 2 (BHT, PP. 98-123; ANET, PP. 305-7). – 31

Nabonidus Chronicle 11, 5-25. – 32

C.J. GADD, Anatolian Studies, VIII (1958), PP. 57-89. – 33

34 ـ والتي نوقشت من قبل :

R.P. DAUGHERTY, Nabonidus and Belshazzar, New Haven, 1929.

Nabonidus Chronicle 111, 12-22 (Cf. XENOPHON, Cyropaedia, VII, 5 20-36). – 35

JOSEPHUS, Contra Apionnem, 1, 21; EUSAEDIUS, Preaep. Evang. IX, 41. – 36

F.H. WEISSBACH, Die Keilinschriften der Achaemeniden, Leipzig, 1911, PP. 2ff; ANET, PP. 315-16. – 37

الفصل الرابع والعشرون

1 ــ هرميا ، لي ؛ هيرودوتس ، ١ ، ١٧٨ . وللحصول على دراسة نقدية لتقرير هيرودوت انظر :

O.E. RAVN, HERODOTUS' description of Babylon, Copenhagen, 1942.

Summary of the excavations in R. KOLDEWEY, Das wieder erstehende Babylon, Leipzig, 1913, 4th ed. 1925 (English translation, The Excavations at Babylon, London, 1914). Detailed results published in the volumes of the Wissenschaftliche Veröffentlichungen der Deutsche Orientgesellschaft (WVDOG) listed below. – 2

F. WETZEL, Die Stadtmauern von Babylon (WVDOG, 48), Leipzig 1930. – 3

R. KOLDEWEY, Das Ischtar-Tor in Babylon (WVDOG, 32), Leipzig, 1918. – 4

R. KOLDEWEY and F. WETZEL, Die Königsbürgen von Babylon 11 (WVDOG,) Leipzig. – 5

O. REUTER, Merkes, die Innenstadt von Babylon (WVDOG) Leipzig, 1926. – 6

R. KOLDEWEY and F. WETZEL, Die Konigsbürgen von Babylon, 1 (WVDOG, 54), Leipzig, 1931. – 7

DIODORUS SICULUS, 11, 10; STRABO, XVI, i, 5; QUINTUS CURTIUS, Hist. Alex, V, i, 13-5; BEROSSUS in JOSEPHUS, Antiq. Jud., X, 226-7; Contra Apionnem, 1, 19. – 8

F. WETZEL, and F. WEISSBACH, Das Hauptheiligtum des Marduk in Babylon. Esagila und Etemenanki (WVDOG, 59), Leipzig, 1938. Voluminous literature on the "Tower of Babel"; see, in particular, TH. DOMBART, Der Babylonische Turm, Berlin, 1930; A. PARROT, Ziggurates et Tour de Babel, Paris, 1949. – 9

10 - HERODOTUS, 1, 182-3.

11 - NBK, PP. 125-7.

12 - HERODOTUS, 1, 183.

13 ـ يمكن اعادة ترتيب مراسيم عيد السنة الجديدة من عدة نصوص، اهمها «طقس الاكيتو» الذي يعود تاريخه الى الفترة السلوقية والمنشور من قبل « تورو ـ دانجان » :

F. THUREAU-DANGIN, Rituels Accadiens, Paris, 1921, PP. 127-54 (ANET, PP. 331-4). Descriptions and studies in : A. PALLIS, The Babylonian Akitu Festival, Copenhagen, 1926; R. LABAT, Le Caractere Religieux .... PP. 166-76; H. FRANKFORT, Kingship and the Gods, PP. 313-33. Important article by A. FALKENSTEIN, Akiti-Fest. und Akiti-Festhaus, Festschrift Johannes Friedrich, Heidelberg, 1959, PP. 147-82.

وكان يحتفى بمراسيم عيد السنة الجديدة في مدن اخرى خارج بابل . في اشور ، نينوى اربيل ، حران ، دلبات ، وفي اوروك ، ولكن في تواريخ مختلفة .

ربما كان هذا هو اصل التعبير « قبل بعل » المقدم من قبل سترابو XVII وديودورس XVII لوصف زقورة بابل .

16 - S. LANGDON, The Babylonian Epic of Creation, Oxford, 1923, PP. 34-49.

17 - Partially excavated by the Germans in 1902 [R. KOLDEWEY, Die Tempel von Babylon und Borsippa (WVDOG, 15), Leipzig, 1911, PP. 20-9]

وتوجد فيه بقايا مهمة من الزقورة والمعبد .

18 - ANET, P. 334.

19 ـ وقد تم التنقيب في بيت ـ اكيتو العائد لآشور والذي وصفه سنحاريب؛ كما اظهرت التنقيبات في اوروك تصميم بيت ـ اكيتو الخاص بها .
وطبقاً لفالكنشتاين فقد كانت هنالك ثلاثة معابد للاكيتو في بابل خلال العصر البابلي الحديث .

20 - C.E. KAISER, Letters and Contracts from Erech, New Haven, 1918; H.F. LUTZ, Neo-Babylonian Administrative Documents

Erech, Berkerley, Calif., 1927; R.P. DOUGHERTY Archives From Erech, New Haven, 1923 and 1933. On the temple Administration, H.W.F. SAGGS, Two Administrative Officials at Erech in the Sixth Century B.C.", Sumer, XV (1959), PP. 29-38, The Greatness that Was Babylon, op. cit., PP. 261-8.

R.P. DOUGHERTY, The shirkutu of Babylonian Deities, New Haven, 1923. – 21

O. FRUCKMANN, Neubabylonische Rechts-und Verwaltungstexte, Leipzig, 1933; H.H. FIGULLA, Business Documents of the New Babylonian period (UET, IV), London, 1949. – 22

A.T. OLMSTEAD, History of Assyria, PP. 256-7. – 23

W.H. DUBBERSTEIN, "Comparative prices in later Babylonia", AJSL, LVI (1930), PP. 20-43. – 24

وكان واحد « قا » يساوي عشرة گار ، اي ٦٧٥ قدماً مربعاً .

G. CHILDE, what Happened in History, Harmondsworth, 1942, P. 193. – 25

الفصل الخامس والعشرون

1 ـ وثيقة نبونيدس ، ٣ ، ٢٤ ـ ٨ .

2 ـ للحصول على مناقشة للحوادث التي ادت الى « اغتصاب » داريوس للسلطة انظر :

A.T. OLMSTEAD, History of the Persian Empire, Chicago, 1948, PP. 107-13.

Published by F.H. WEISSBACH, Die Keilinschriften der Achaemeniden, Leiden, 1911, and, recently, by F.W. KOIVIG Relief and Inschrift des Koenigs Dareios I am Felsen von Bagistan, Leiden, 1938. – 3

Behistun, S 50. On the chronology, see R.A. PARKER and W. H. DUBBERSTEIN, Babylonian Chronology (626 B.C. - A.D. 75), Providence, Rhode Island, 1956, PP. 15-16; G.G. CAMERON, Darius and Xerxes in Babylonia, AJSL, LVIII (1941), PP. 314-25. – 4

5 – R.A. PARKER and W.H. DUBBERSTEIN, op. cit., P. 17; HERODOTUS, 1, 183; STRABO. XVI, i.5; ARRIAN, Anabasis, VII, vxii, 2; DIODORUS, 11, ix, 4 ff., CTESIAS, Persica, Epit. 52-3; F.M. TH. De LIAGRE BOHI, "Die Babylonischen Pratendenten zur Zeit Xerxes", Bi. Or., XIX (1962), PP. 110-14.

6 – SIR LEONARD WOLLEY, Excavations at Ur, PP. 225-244 ff. Uruk; UVB, XII-XIII (1956), PP. 17 and 28-31. Babylon: F. WETZEL, E. SCHMIDT, A. MALLWITZ, Das Babylon der Spätzeit (WVDOG), Berlin, 1957, PP. 25-7.

7 – A.T. CLAY, Legal and Commercial Transactions dated in the Assrian, Neo- Babylonian and Persian Periods, Philadelphia, 1908; A. TREMAYNE, Records from Erech, Time of Cyrus and Cambyses, New Haven, 1925. Cf. also Ch. XXIII, note 20.

8 – XENOPHON, Anabasis, III, 4

9 – HERODOTUS, 1, 142.

10 – A.T. OLMSTEAD, op. cit., PP. 299-301.

11 – G. CARDASCIA, Les Archives des Murashu, Paris, 1951.

12 – ANET, PP. 316-17.

13 – ARRIAN, Anabasis, 111, xvi, 4; VII, xvii, 2; STRABO, XVI, i, 5.

14 – S. SMITH, "A Chronicle concerning the Diadochi", BHT, PP. 129-49.

15 – A.J. SACHS and D.J. WISEMAN, "A Babylonian King List of the hellenistic period", Iraq, XVI (1954), PP. 202-11.

16 – S. SMITH., "Historical account of the reign of Antiochus I Soter", BHT, PP. 154-7.

17 – Discussion in M. ROSTOVTZEFF, The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, 1941, 1, PP. 499-504.

18 ـ ان مصطلح وادي الرافدين « ميسوبوتاميا » مأخوذ هنا بمعناه الواسع حيث قسم العراق خلال الفترة السلوقية الى ثلاث مرزبانيات : ميسوبوتاميا في الشمال ، بابليونيا (بابل) في الجنوب و « بارابوتاميا » (الارض المجاذية لوادي الرافدين) على امتداد الفرات .

19 ـ التنقيبات الامريكية بين الاعوام ١٩٢٧ ـ ٣٢ و ١٩٣٦ ـ ٧ :

LEROY WATERMAN, Preliminary Report on the Excavations at Tell Umar, Iraq, Ann Arbor, 1931; Second Preliminary Report ...., Ann Arbor, 1933; C. HOPKINS; A bird's eye view of Opis and Seleucia", Antiquity, XIII (1939), PP. 440-8; separate publications on pottery (N.C. DEBEVOISE), coins and inscriptions (R.N. MCDOWELL) and figurines (W. VANINGEN).

20 - التنقيبات الفرنسية ١٩٢٢ ـ ٣ . التنقيبات الامريكية ١٩٢٨ ـ ٣٩ .
وقد نشرت العديد من التقارير الاولية والنهائية لها . وللحصول على
تقرير عن تلك التنقيبات انظر :

M. ROSTOVTZEFF, Dura-Europos and its Arts, Oxford, 1938.

A.T. CLAY, Legal Documents from Erech Dated in the Seleu- – 21
cidEra, New Haven, 1913; O. KRUCKMANN, Babylonische
cid Era, New Haven, 1913; O. KRUCKMANN, Babylonische
und der Diadochen, Weimar, 1931, (with bibliography).

Nimrud : D. and J. OATES, "Nimrud, 1957 : the Hellenistic – 22
Settlement", Iraq, XX (1958), PP. 114-57. Seleucid graves at Mari : A. PARROT, Syria, XVI (1935), PP. 10-11; XXIX (1952), PP. 186-7; XXXII (1955), PP. 189-90. Remains of a Greco-Oriental temple at Arslan-Tash, F. THUREAUDAN-GIN, Arslan-Tash, Paris, 1931.

ANET, P. 317. – 23

F. WETZEL et al., op. cit., PP. 3-22. – 24

PLINY, Naturalis historica, VI, 122; PAUSANIAS, Descriptio – 25
Graeciae, 1, xvi, 3.

R. NORTH, "Status of the Warka Excavation", Orientalia, – 26
XXVI (1957), PP. 206-7, 228-33, 237-41 (with bibliography).

M. RUTTEN, Contrats de l'Epoque Seleucide conserves au – 27
Musée du Louvre, Paris, 1935. A. AYMARD," Une ville de la Babylonie Seleucide d'apres les contrats cuneiformes", Revue des Etudes Anciennes, XL (1938), PP. 5-52.

E. MEYER, Blüte und Niedergang des Hellenismus in Asien, – 28
Berlin, 1925, P. 24.

R. CAMPELL, THOMPSON, CAH, 111, PP. 246-50; SIR WIL- - 29
LIAM TARN and G.T. GRIFITH, The Hellenistic Civiliza-
tion, London, 1959, PP. 295 ff.

30 — التنقيبات الالمانية للاعوام ١٩٠٣ — ١٤ . (ف . اندراي ، الحضر .) ، التنقيبات العراقية بين عامي ١٩٥١ — ١٩٥٥ المنشورة وقائعها جزئيا في سومر : العدد الثامن (١٩٥٢) .

A. PARROT, Tello, Paris, 1948, PP. 309-14. - 31

M. LENZEN, Die Partherstadt Assur (WVDOG), Leipzig, 1933. - 32

UVB, VI (1935), PP. 33-6; XI (1940), PP. 28-31; XII-XIII - 33
(1956), PP. 32-4; XIV (1958), PP. 18-20; XVI (1960), PP.
13-21.

J.N. STRASSMAIER, "Arsakideninschriften", ZA, III (1888), - 34
PP. 129-42 TH. J. PINCHES and H. SAYCE, PSBA (1902)
PP. 108 ff : TH. J. PINCHES, The Old Testament in the Light
of the Historical Records of Assyria and Babylonia, London,
1902, PP. 481-6; J. KOHLER and A. UNGNAD, 100 äusge-
wählte Rechtsurkunden der Spätzeit des babylonischen Schri-
ftums, Leipzig, 1909; A.J. SACHS and J. SCHAUMBERGER,
Late Babylonian Astronomical and Related Texts, Provi-
dence, Rhode Island, 1955.

A.J. SACHS and J. SCHAUMBERGER, op. cit., No 1201 - 35

(مشار اليها ولكنها غير منشورة) .

DION CASSIUS, LXXI, 2; AMMIANUS MARCELLINUS, - 36
XXIII, vi, 34; ZONARAS, XI, 22; XII(2.

S. LANGDON, "Excavations at Kish and Barghutiat", Iraq, - 37
(1934), PP. 113-22.

H. LENZEN, "Ein Goldkranz aus Warka", Sumer, XIII (1957), - 38
PP. 205-6.

وعن هذا القبر الذي لم يحدد بعد تاريخه بشكل مضبوط انظر :

cf. UVB, XV (1959), PP. 27-34; XVI (1960), PP. 23-9.



خاتـــمة

١ ـ هناك دراسة مستفيضة لميراثنا العائد لوادي الرافدين مقدمة من قبل :
H.W.F. SAGGS in The Greatness That Was Babylon, London, 1962, PP. 482-504.

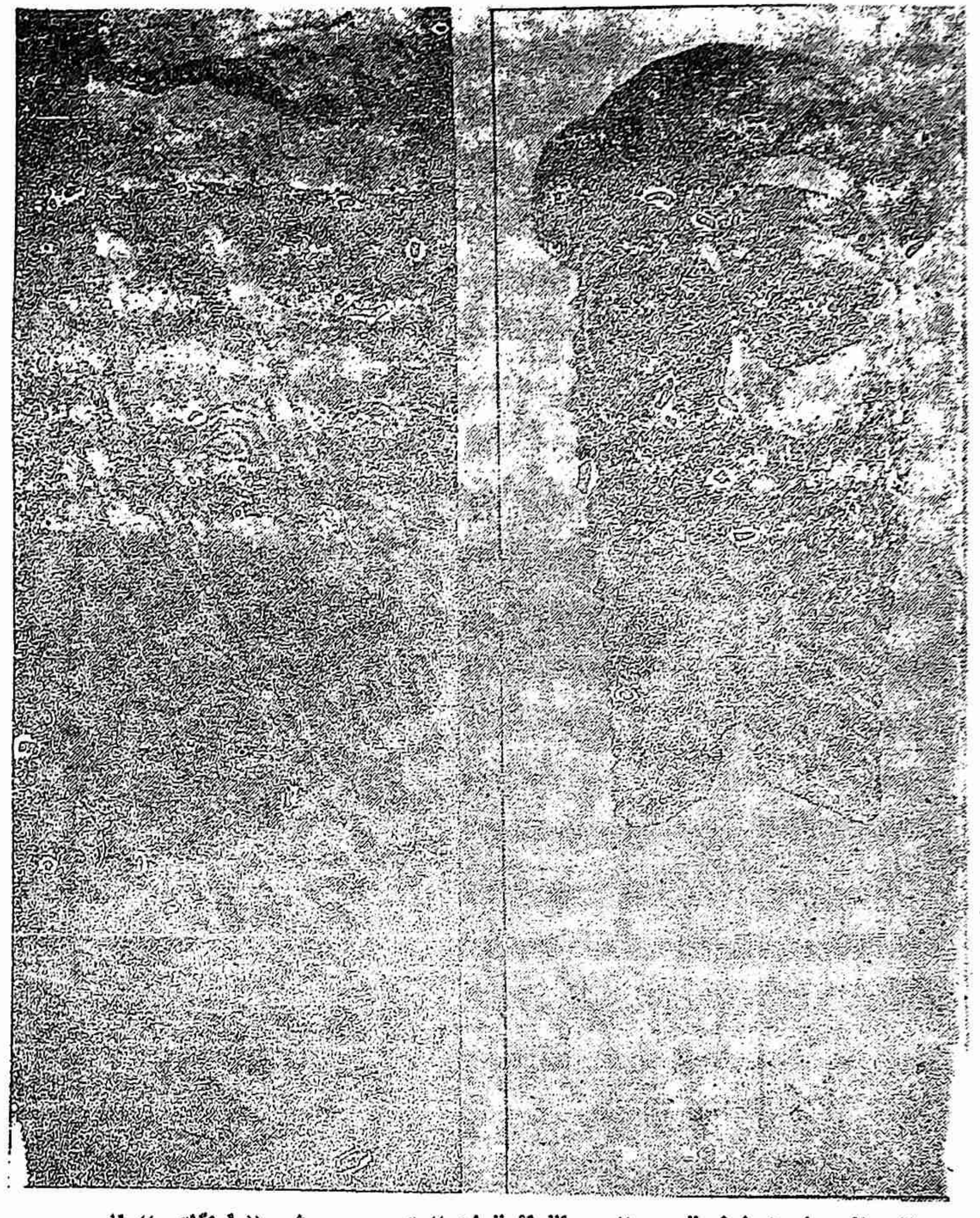
2 ـ وطبقاً الى الاستاذ سايروس هـ . گوردن (Cyrus H. GORDON) من جامعة برانديس ، ماساچوستس فـان الكتابـة المعروفة باسـم (Linear A) الخاصة بجزيرة كريت والعائد تاريخهـا الـى (١٥٠٠ ـ ١٤٠٠ ق . م) تظهر لغة سامية غربية . وللحصول علـى عرض موجز لهذه النظرية التي نوقشت كثيراً انظر الان :
C.H. GORDON, Before the Bible, London, 1962, PP. 206-7 and 300-2.

3 – C.H. GORDON, op. cit., PP. 9 and 302.

4 – J. FILLIOZAT, "Pronostics medicaux akkadiens, grece et indiens", Journal Asiatique, CCXL (1952), PP. 299-321; M. SANDRAIL, Les Sources Akkadiennes de la Pensée et de la Methode Hippocratiques, Toulouse, 1953.

5 – R. GRAVES, The Greek Myths, Harmondsworth, 1957, 11, P. 89. For a detailed study, see C.H. GORDON, op. cit., PP. 49-97 and 218-77.

6 – M. ROSTOVTZEFF, The Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, 1941, 1, P. 84.



الى اليسار : شذرة من « مسلة العقبان » تصور جيش « اينانتم » إنسي لكش (تلـو) .

الى اليمين : وجد هذا الراس البرونزي الجميل ـ وهو بثلاثة (ارباع الحجم الطبيعي ـ في نينوى ، ويظن انه يصور الملك سرجون الاكـدي (حوالي ٢٣٣٤-٢٢٧٩ ق.م)